المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

سليمان جوقه باش

السلطان عبد الحميد الثانى
شخصيته وسياسته

ترجمة
عبد الله أحمد إبراهيم

1158

السلطان عبد الحميد الثانى
شخصيته وسياسته

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٥٨
- السلطان عبد الحميد الثاني (شخصيته وسياسته)
- سليمان قوجه باش
- عبد الله أحمد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب :

SULTAN

II. ABDÜLHAMİD ŞAHSİYETİ ve POLİTİKASI

SÜLEYMAN KOCABAS

1995-İstanbul

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

إهــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

السلطان عبد الحميد الثانى
شخصيته وسياسته

تأليـــــــف :سليمـان قـوجه باش
ترجمـــــــة :عبد الله أحمد إبراهيم

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

باش ، سليمان قوجه
السلطان عبد الحميد الثاني : شخصيته وسياسته /
تأليف : سليمان قوجه باش ؛ ترجمة : عبد الله أحمد إبراهيم
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨
٦٦٤ ص ، ٢٤ سم
١ - عبد الحميد الثاني ، (١٨٤٢ - ١٩١٨)
٢ - السلاطين
٣ - مصر - الملوك والحكام
(أ) إبراهيم ، عبد الله أحمد (مترجم)
(ب) العنوان
(ج) السلسلة ٩٢٣,١

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١١٩٥٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 781 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الفهـــرس

تـــنـــويــــه 15

تقـــديم المتـــرجم 17

مـقـدمـة المؤلف 27

الفـصـــل الأول : إمـارة عـبـد الحـمـيـد 31

– التـحـصـيل العلمى لعـبـد الحـمـيـد 34

– أمـيـر مـخـتلف مـتـمـيـز 37

– الاســتــعــداد للعــرش 39

الفصل الثـــانى : جلوس عـبـد الحـمـيـد على العـرش 43

– مـــرض السلطان مـــراد 44

– انتقـال ولى العـهـد عبد الحـمـيد إلى المبادرة بالحركة الفـعـالة 46

– لقـاءات عـبـد الحـمـيـد من أجل اعـتـلاء سـرير العـرش 48

– جلوس عـبـد الحـمـيـد على العـرش 54

الفـصـــل الثـالث : إعـلان المشـروطيـة (الدسـتـور) ومـؤتمر إسـتـانبـول 57

– استمرار الجدل حول الدستور وانتشار وذيوع صيت جلوس خط همايون 59

– الإتيـان بمدحت باشـا ليـتـبـوأ منصب الصـدر الأعظم 62

– إعـلان القـانون الأسـاسـى 66

- كيف استقبل إعلان القانون الأساسى 71
- كيف استقبل إعلان القانون الأساسى خارج نطاق الوطن 72
- اجتماع مؤتمر إستانبول 75
- عزل مدحت باشا ونفيه 82
- افتتاح مجلس المبعوثان 94
الفصل الرابع : الحرب الروسية التركية ١٨٧٧- ١٨٧٨م وإغلاق مجلس المبعوثان 97
- السلطان عبد الحميد يرفض الحرب 99
- هل أدار السلطان عبد الحميد دفة الحرب من قصر يلديز 104
- إغلاق مجلس المبعوثان 107
- أسباب إغلاق مجلس المبعوثان 108
- كيف استقبل إغلاق مجلس المبعوثان فى الخارج 117
- تقويم تطبيق الدستور 122
الفصل الخامس : معاهدة آيا ستفنوس وبرلين 127
- قدوم الأسطول الإنجليزى إلى إستانبول 129
- معاهدة آياستفنوس 131
- أصداء معاهدة آيا ستفنوس 132
- انتقال جزيرة قبرص إلى الإدارة الإنجليزية 134
- معاهدة برلين 137
الفصل السادس : حركات التمرد الأولى ضد السلطان عبد الحميد الثانى 139
- واقعة قصر جراغان 139
- الثورة السرية لكل من عزيز بك وصاقليرى 145
- تأثير هذه الثورات المتمردة فى إدارة السلطان عبد الحميد وشخصيته 152

الفصل السابع : تأسيس عبد الحميد الثانى للحكومة المركزية وخصائص هذه الحكومة 155

– لماذا كـــانت الإدارة المركـــزية 155

– نقل البـــاب العـــالى إلى القـــصـــر 159

– قـــصـــر يلديز 166

– هـواجس السلطان ونذر الخــوف عنده 170

– هيـئـة البـوليس الســرى 174

– التـقـارير اليـومـيـة الســرية 179

– وضع مـراد الخـامس وولى العـهـد تحت المراقـبـة 186

– مـراقبـة رجـالات الدولة من ذوى المناصب الرفـيـعـة 190

– تصفية جمعية " العثمانيون الجدد" 192

– مـــحكمـــة يلديز 195

– وفـاة كل من مـدحت باشـا ومـحـمـود باشـا فى الطائف 205

– الرقـــابة على المطبـــوعـــات 208

– عـبـد الحـمـيـد الثـانى والماسـونيـة 214

– عـــبـــد الحـــمـــيـــد وجناح النســـاء 217

– مـعالم من الحياة الخاصـة للسلطان عبد الحميد 219

الفصل الثامن : احـتـلال مصـر وتونس ومسـألة الروملى الشرقـيـة 229

– احـــتـــلال تـونس 231

– احـــتـــلال مـــصـــر 234

– مـســألة الروملى الشـرقـيـة 242

- المسألة الأرمينية 247
- أصل المسألة الأرمينية وأساسها 248
- بدء الإرهاب الأرمني 251
- تلقيب عبد الحميد الثاني بلقب" السلطان الأحمر" 255
- الشيطان القاتل الملعون هو" التحالف الإنجليزي الأرمني" 261
- الإرهاب الأرمني في إستانبول 268
- السلطان عبد الحميد الثاني " إنني أفضل الموت " 270
- سياسة الفصل والعزل والتنكيل التي اتبعها السلطان عبد الحميد 274
- مؤامرة الأرمن ضد عبد الحميد الثاني 281
- غفلة جماعة تركيا الفتاة وزيغهم وضلالهم وعدم اكتراثهم 287

الفصل التاسع : عبد الحميد الثاني والدول الكبرى 291

- السياسة الخارجية للسلطان 291
- مبادئ السياسة الخارجية لعبد الحميد 292
- روسيا، عداوة تنزل إلى الدرجة الثانية 296
- إنجلترا، عداوة بلغت الدرجة الأولى 302
- ألمانيا، ملاذ محدق بالخطر 305
- فرنسا، البديل الاحتياطي لإنجلترا وروسيا 310
- النمسا وإيطاليا، بديلان احتياطيان آخران 313
- سياسة السلطان تجاه إيطاليا 314
- البلقان، سياسة النزاع والخلاف والعراك والاستمالة 315
- سجل للعبقرية والدهاء السياسي 319

الفصل العاشر : عبد الحميد الثانى والوحدة الإسلامية 325
- لماذا الوحدة الإسلامية 326
- أبعاد الوحدة الإسلامية 334
- حركات الوحدة الإسلامية المتغيرة فى الخارج 339
- التدابير والإجراءات التى اتخذها الإنجليز ضد الوحدة الإسلامية 348
- الوحدة الإسلامية وإيران 350
- أنشطة الوحدة الإسلامية فى الداخل 353
- عبد الحميد الثانى والولايات العربية 355
- عبد الحميد الثانى والأرناءوط 368
- الألوية الحامدية 374
- عبد الحميد الثانى والترك 380
- الحياة الدينية للسلطان عبد الحميد، وآراؤه وأفكاره حول الإسلام 384
الفصل الحادى عشر : الحرب التركية اليونانية ١٨٩٧م 391
- تصحيح الحدود التركية اليونانية 392
- مسألة جزيرة كريت 394
- الحرب التركية اليونانية 397
- معاهدة الصلح ومنح الحكم الذاتى لجزيرة كريت 401
- إهداء الانتصار التركى 404
الفصل الثانى عشر : الإصلاحات والخدمات التى اضطلع بها السلطان عبد الحميد الثانى 407
- مفهوم عبد الحميد للحضارة وفلسفة التقدم والرقى عنده 407
- الإصلاح المالى 417

- إصـــــلاح الجـــيــــش 422
- عــبــد الحــمــيــد الثــانى والأسطول 426
- خط سكك حــديد بغــداد 428
- سكك حــديد الحــجــاز 436
- مــســألة العــقــبــة 440
- الــزراعــــــــــــة 442
- الصناعــة والتــجــارة 444
- خــدمــات التــربيــة والتــعليم 446
- أفكار الإصـــلاح الراديكالى 451
- النتـائج التى تمخضت عن الخدمات والإصلاحات التى اضطلع بها
السلطان عــبــد الحــمــيــد 453
الفصل الثـالث عشر: عبد الحميد الثانى والصـهـيونية 457
- الموانع التى فرضها عبد الحميد على هجرة اليهود إلى أرض فلسطين 459
- برنامج مــدينة بازل فى ســويســرا 462
- الاقـتراحـات التى عرضـهـا هـرزل على السلطان عـبد الحـمـيد 463
- مـتابعة شديدة صـارمـة للحركة الصـهـيونية 469
الفـصل الرابع عــشــر: المسـألــة المقـدونيــة 475
- ظـهــور المســألة المقــدونيــة 475
- تدخل اليــونان والصــرب فى أتون الصــراع 478
- تحــريض الدول الكبــرى 479
- بداية الأحــداث العنيـفــة 483
- إصــلاحــات مــقــدونيــا 484
- اســتــعــدادات السلطان للحــرب 486

الفصل الخامس عشر: ظهور الجبهة المناوئة للسلطان عبد الحميد وثورة
جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ 491
– بداية حركة جماعة تركيا الفتاة 493
– التدابير المحكمة ضد السلطان عبد الحميد 497
– المعارضة الموالية للإنجليز 505
– المعارضة الموالية للألمان 516
– معارضة الدول الكبرى الأخرى 524
– معارضة الدول الصغرى 526
– معارضة صهيونية من العناصر الانفصالية 527
– معارضة العناصر المسلمة 538
– تحالف المعارضين والمؤتمرات 539
– محاولات الانقلاب والتآمر ضد السلطان عبد الحميد 542
– ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ 546
– إعلان الدستور 554
– كيف استقبل إعلان الدستور 557
الفصل السادس عشر: ثورة ٣١ مارس وعزل عبد الحميد الثانى 561
– الاستعدادات الأولية لعزل السلطان 563
– ظهور المناخ الملائم لعزل عبد الحميد 570
– خطة إنجليزية فى مواجهة خطة برلين 574
– رد فعل عبد الحميد على هذه الثورة 580
– تشكيل الحكومة الجديدة التى أرادها الجند المتمردون 584

– التأمينات المزيفة وجيش العمليات 586
– لم يُرد السلطان عبد الحميد سفك الدماء 588
– قيام جيش العمليات بعزل قصر يلديز وتجريده 591
– اجتماعات خلع السلطان التى تمت فى المجلس 593
– استصدار فتوى عزل عبد الحميد بالقوة 595
– الحرج الشديد لفتوى خلع السلطان 597
– إبلاغ الخلع للسلطان 598
– سلب قصر يلديز ونهبه 602
– آراء متباينة حول الوفد الذى بلغ السلطان خبر خلعه 603
– بيان وجه الخطأ لثورة ٣١مارس 608
– القضية المتعلقة بدور عبد الحميد فى ثورة ٣١ مارس 611
– ونورد الآن سرد آراء طائفة أخرى من المؤرخين 614

الفصل السابع عشر : السنوات الأخيرة للسلطان عبد الحميد وانتهاب الميراث الذى خلفه 617
– نقل عبد الحميد إلى سلانيك 617
– حياة المنفيين فى سلانيك 619
– وضع اليد على ثروة عبد الحميد الثانى 622
– تقويم التمرد الذى قام به الأرناءوط سنة ١٩١٠م 624
– شرح وتفسير للحرب التركية الإيطالية سنة ١٩١١ 628
– رصاصة أُطلقت على عبد الحميد 630
– رد الفعل على قانون الكنائس والمدارس 632
– نقل عبد الحميد إلى إستانبول 634

- ما تفوه به عبد الحميد إبان ركوبه متن الباخرة 640
- أيام قصر بيلربكي 642
- تحليل عبد الحميد لحرب البلقان ومتابعته إياها 643
- العودة إلى استبداد اتحاديي الدستور 646
- الخلف يترحم على السلف ويتذكر محاسنه 650
- الانتهاب الأخير: الحرب العالمية الأولى 653
- استنصاح الاتحاديين لعبد الحميد واستشارته 657

تنويه

هذا الكتاب عن السلطان عبد الحميد - الذى حاز شهرة واسعة بين سلاطين الدولة العثمانية فى عصر انهيارها - محاولة من مؤرخ تركى ينتمى إلى المدرسة التى تسعى لتحسين صورة الدولة العثمانية فى مرحلتها الأخيرة، وتقديم قراءة جديدة تحمل رؤية إيجابية حتى وإن كانت متعسفة لتلك الحقبة من التاريخ العثمانى .

والمركز القومى للترجمة عندما ينشر هذا الكتاب إنما ينشره من منطلق تقديم وجهة نظر فى الدولة العثمانية قد لا نتفق معها بالضرورة، وقد تحمل فى طياتها تناقضات تؤدى إلى تهاوى دفاعات أصحاب هذه الرؤية أمام ضعف منطقهم الداخلى وأسانيدهم التاريخية فى الدفاع عن الدولة العثمانية، لكن الكتاب فى كل الأحوال يعكس اتجاهًا متناميًا داخل تركيا يعد بمعنى ما امتدادًا لتيارات سياسية صاعدة على الساحة التركية فى العقدين الأخيرين .

عماد أبو غازى

باحث فى التاريخ والوثائق

أضو المكتب الفنى للمركز القومى للترجمة

تقديم المترجم

السلطان عبد الحميد الثانى هو السلطان السادس والثلاثون فى تاريخ الأسرة العثمانية التى حكمت الإمبراطورية العثمانية طوال ستة قرون من الزمان على وجه التقريب، وقد ظل جالساً على سرير العرش ثلاثة وثلاثين عاماً انتهت بإقصائه عن سدة الحكم يوم الثلاثاء ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٩م، وكان عمره آنذاك سبعة وستين عاماً، حيث قضى تسع سنوات رهن الحبس فى قصر اليهودى الآلاتينى Allatini، ثم نقل بعد ذلك ليلقى فى غيابات سجن قصر بيرلى بإستانبول حتى وافته المنية فى يوم الأحد الموافق العاشر من شهر فبراير سنة ١٩١٨م عن عمر يناهز السادسة والسبعين، ثم ووری الثرى فى مقبرة جده السلطان محمود الثانى.

وقد تعرض السلطان عبد الحميد بعد إقصائه عن العرش لهجمات شديدة الوطأة، حيث رماه أعداؤه وحاسدوه بافتراءات ظالمة وسلقوه بألسنة حداد وكانوا مغالين فى نقدهم متجاوزين لحدودهم؛ إذ إنهم لم يقيموا بينة تثبت صدق ادعائهم ولم يقدموا حجة دامغة تؤكد صحة أكاذيبهم، حتى إن الكاتب الفرنسى "جودورى" G0Dorys ركب متن الشطط وجاوز جادة الصواب ناعتاً أم عبد الحميد بقوله" إنها كانت فتاة راقصة شعبية فى قصر أحد المحتالين المخادعين الأرمن"، وهى ولا ريب تهمة باطلة مفتراة تعوزها الحجة وإقامة الدليل، ومن ثم فإنها لا تثبت عند النقد. ثم زعموا أن كلمة حامد التى أطلقت عليه تعنى الشحيح الضنين، وهو قول كاذب باعثه الجهل بمفردات اللغة وما تعنيه ألفاظها، مما يجعلنا نقول إن الخطأ الضخم مع سهولة الوصول إلى الصواب يجعلنا نشك فى سلامة النية من المقصد. ونعته بعضهم بأنه من أنقاض الاستبداد، حتى إنهم غضوا من قيمته وحقروا من شأنه متهمين إياه بتهم مفتأتة ملفقة مزورة، ولم يسلم من الهجاء المقذع لشاعر الهجاء أشرف الذى وصف عبد الحميد بأنه السلطان الأحمر الذى خضبت يده بدماء الأبرياء.

ولكن الحقيقة الساطعة الناصعة فى الوقت الراهن تؤكد أنه لا وجود لبقعة دم واحدة، تمثل قطرة تكون بمثابة وصمة عار فى ذكرى عبد الحميد. أما الذين رموه بتهمة قتل رجالات السياسة والفتك بالشباب المؤيد للحرية واستئصال شأفة الضباط والأطباء وإلقائهم فى لجة البحر فإنهم خراصون أفاكون، فعلوا ما فعلوه بوازع من حقدهم وضغينتهم. وتؤكد الوثائق التاريخية أن عبد الحميد لم يصدق على عقوبات الإعدام الصادرة من المحاكم بشأن قطاع الطرق الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً، بل اكتفى بتغيير هذه الأحكام إلى عقوبة السجن المؤبد، ولم تزل جناية قتل مدحت باشا وأصدقائه خنقًا فى مدينة الطائف من الأسرار التى يكتنفها اللبس والغموض، ولكن العقل والمنطق يؤكدان أن اسم عبد الحميد الثانى برىء من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب؛ إذ تؤكد الوثائق التاريخية التى يعول عليها فى هذا السياق أن المحكمة العليا قد عقدت جلستها فى قصر بلوير سنة ١٨٨١م وأصدرت حكمها بإعدام مدحت باشا وأصدقائه، ولما عرض الحكم على السلطان عبد الحميد للتصديق عليه طلب مشورة رجالات الدولة والرجوع إلى أهل الحل والعقد فى هذه المسألة، واستشار كلا من بطل معركة "بلونه" pilven غازى عثمان باشا، وأحمد جودت باشا المؤرخ والفقيه القانونى، والمشير وبطل حرب اليونان أدهم باشا، وغيرهم من ذوى الحيثية والسؤدد فى الدولة، الذين أجمعوا على تنفيذ قرار المحكمة الذى يقاضى مدحت باشا وأقرانه ولكن السلطان سرعان ما غير الحكم إلى السجن المؤبد، وقد قتل هؤلاء الوزراء خنقًا فى قلعة الطائف فى سنة ١٨٨٤م، أى بعد ثلاث سنوات من صدور الحكم. وهذا يؤكد أن عبد الحميد عرف بحنكته السياسية ووقدة ذكائه كيف يحمى سمعة الحكم وشرف السلطنة من كل شائبة تلوث سمعتها أو نقيصة تعلق بذيلها. وها هو ذا عبد الرحمن شرف الذى يعد من المؤرخين المتأخرين للدولة العثمانية يفصل القول عن حياة عبد الحميد وأحواله حيث كان على مقربة شديدة منه ويقول:

" كان عبد الحميد ذا صفات وسجايا خاصة تتجلى فى شكله وبنيته، وتخص الأسرة العثمانية الحاكمة. لقد كان رجلاً ألمعيًا أريبًا حساسًا ذا وقدة ذكاء وذا فكر

ثاقب وبصيرة نافذة، يدرك كل ما يدور حوله بفطنة وسرعة بديهة، شديد الرقة والتلطف فى المعاملات المعتادة، ذا صوت يفيض حلاوة وعذوبة، شديد الحرص على المحافظة على وقار السلطنة ومقامها وعزة الخلافة وسؤددها، قادراً على تنفيذ تهديده بحق، ويعرف كيف يبدى الشدة عند الضرورة أو يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه وكظم غيظه، كان شديد التلطف بعبيده القائمين على خدمته، ويأخذ دائمًا بألباب الأجانب الذين يقابلهم، ولكن هواجس الخوف ونذر الشر التى أصابته منذ نعومة أظفاره جعلته يرى أن السلطنة وحياته كليهما معرضان لخطر محدق يتربص بهما الدوائر، وكانت تقارير المخبرين السريين التى لا تنقطع وأخبار الفتن والمؤامرات سبباً فى زيادة حدة خوفه وهواجسه، مما دفعه إلى استخدام كل صنوف الضغط وتضييق الخناق على كل من تسول لهم أنفسهم الكيد به وبسلطنته، واتخذ كل التدابير والإجراءات التى لم تخطر ببال أحد حتى يتسنى له المحافظة على منصبه وسلطنته.

وإذا كان عبد الحميد ضحى بنومه وراحة باله فى سبيل تحقيق هذه الغاية التى كان يسعى إلى تحقيقها فإن عدالة الحق سبحانه وتعالى تجلت، وكانت عاقبة عبد الحميد التردى فى هوة الخوف المروع الذى أحاط به من كل جانب.

لم يتلق عبد الحميد من التحصيل العلمى ما يليق بحاكم يمسك بزمام الأمور فى المستقبل، بيد أنه كان شديد الشغف بالقراءة والمطالعة، ولاسيما أنه كان ملمًا بتاريخ الدولة العثمانية إلمامًا كاملاً، وقد أسس فى أيام سلطنته مكتبة غنية فى قصر بلوير، وهى المكتبة التى تمثل اليوم أقوم قسم من الأساس المتين الذى قامت على عمده مكتبة إستانبول.

وكان السلطان سليم الأول من أحب أجداده إلى نفسه وأشدهم تأثيراً فى شخصيته، وقد أفاض فى الحديث عن هذا الحب إبان زيارة الإمبراطور ويليام الثانى إمبراطور ألمانيا إلى إستانبول، حيث أراد أن يبدى مقدار حبه لعبد الحميد فأمر بطبع ديوان السلطان سليم الأول عند عودته إلى ألمانيا، ثم أسرع بإرساله نسخة قيمة مجلدة إلى صديقه عبد الحميد فى إستانبول.

كانت الزيادة المطردة لنشاط الشباب التركي المستنير الذي أصابه البهر والإعجاب بأوروبا وحضارتها سبباً قوياً في زيادة كفاءة منظمات البوليس السرى التي اتخذت كل التدابير والاحتياطات اللازمة التي وضعت عبد الحميد والأمة كلها تحت وطأة ضغط قوى ومراقبة صارمة.

وفي سنة ١٨٩٩م أسست زمرة من طلبة الكلية الطبية العسكرية جماعة الاتحاد والترقي، وهم إسحاق سكوتي وإبراهيم تمو وحسين زاده عالي، ولما سمع عبد الحميد بتأسيس هذه الجمعية ارتعدت فرائصه وزادت هواجسه.

وتوجد اليوم حقيقة ساطعة تتمثل في أن زمرة من الكتّاب قد صوروا عبد الحميد بأنه ليس رجلاً، ولاسيما بعد إقصائه عن العرش بين عامي ١٩٠٨م و١٩١٣م، وكان يظهر في كل صحف الجد والمزاح لهذا العصر على أنه رجل جاهل يكشر عن أنيابه في غلظة وفظاظة، وأظهروه على أنه أغلق قصر يلديز على نفسه وأنه سلطان لا يفكر في شيء سوى قلقه الشديد على روحه وعرشه، وقالوا إن الدولة أصبحت خرابة وعبد الحميد هو غراب البين الذي حط وجثم فوق هذه الخرابة.

إن هؤلاء الكتّاب منحوسي الطالع لم يشعروا بقشعريرة تهز ضمائرهم، حتى وهم يتعرضون لإيذاء عبد الحميد والاعتداء على حياته الشخصية التي كانت شديدة الانضباط متصفة بالعفة والطهارة، وقد تحدثوا كذلك عن شدة شغفه بامرأته وعداوته للشرف والحيثية، وقد استفاد أحد الرسامين الفرنسيين من هذا المناخ السائد في تركيا، وهو رسام لا نعرف اسمه ولا خلق له؛ حيث رسم رأس عبد الحميد بمهارة فائقة وهي تعانق جسد امرأة عارية، ثم طبعت هذه الصورة في فرنسا لتكون بمثابة صورة فوتوغرافية على بطاقة بريدية بيعت بعد ذلك في تركيا.

كان عبد الحميد الثاني سلطاناً يفكر ملياً في دولته، ويحزن متألماً لتخلفها وتقاعسها عن ركب الحضارة والمدنية، وهو رجل حاول أن يبذل قصارى جهده في سبيل تعمير تركيا، وأن ينشر العلم والمعرفة في تركيا تحت مراقبة شديدة صارمة. ولزاماً علينا ألا ننسى في هذا السياق أن مؤسسي الجمهورية في تركيا الذين

اضطلعوا بالثورات وحركات التحرير فى عصر الجمهورية قد تلقوا تعليمهم جميعًا فى المدارس والمعاهد العلمية التى شيدها عبد الحميد، وقد قال بعض المغرضين" إن الأشياء التى اضطلع بها عبد الحميد لم تكن متوازية مع اتساع الدولة وامتداد السلطنة"، وهذا قول صحيح، ولو أن النشاط الخيرى كان متوازيًا مع امتداد السلطنة واتساع الدولة من أجل تعمير تركيا والارتقاء بفكر الأمة التركية لما حدث الانقلاب سنة ١٩٠٨م. إن الله قد أحسن به وجلس على عرش السلطنة طوال عمره، وبينما كان عبد الحميد فى مركز قوة تمكنه بفضل ذكائه وسلطته من جعل تركيا من أقوى الدول الأربع، فإنه لم يستطع أن يتخلص من نذر الخوف المشئوم الذى لازمه طوال حياته، ومن ثم فإن مسئولية عبد الحميد من هذه النظرة تعد جسيمة فى تاريخنا.

وإنه من المتعذر إماطة اللثام عن شخصية السلطان عبد الحميد الثانى باعتباره رجلاً عظيمًا خسر نفسه وفقد ذاته، ولزام علينا أن نقول بكل عدل وإنصاف إنه لم يذق طعم الراحة؛ إذ كانت حقبة سلطنته المديدة مليئة بالقلق والمتاعب والصعاب. وعندما اعتلى سرير العرش كانت ديون الدولة قد أخذت بخناقها. ويجب ألا ننسى أن النحل يملأ الخلايا فى سكون تام.

اهتم عبد الحميد فى السنوات الأولى من سلطنته بعشق الشعب، وكان يجلس فى سيارته فى معية الصدر الأعظم كامل باشا فى يوم الجمعة للتنزه فى متنزه كاغد خانه، وعندما زار وزارة الحربية كان يأكل من قصعة الجند، وقد أقام مأدبة فى قصر يلديز للجند المعاقين الذين أصيبوا فى الحرب اليونانية التركية، ثم قدم للمدعوين فى آخر المأدبة عصيرًا من صنع يده، وقد أصبح هذا الحاكم يخاف بعد ذلك من الشعب والحكومة، وبات منزويًا قابعًا فى قصر يلديز الملىء بالأسرار الملغزة المبهمة.

كان عبد الحميد يصلى الجمعة فى مسجد الحامدية الذى شيده بجوار قصر يلديز الذى كان يطلق عليه اسم منزلى، وكان عندما يعود إلى بيته بعد أداء صلاة الجمعة يعطى المشير شوكت باشا فى كل مرة ألف قطعة ذهبية محفوظة فى كيس حريرى أحمر اللون لكونه رئيس البلاط السلطانى وقائد الفرقتين العسكريتين المسئولتين عن حفظ الأمن فى قصر يلديز من كل جانب.

ونحاول فى السطور الآتية رسم صورة موجزة عن الأوضاع السياسية التى كانت تحيط بالدولة العثمانية:

لقد بدأت ثورات الهرسك والبوسنة والبلغار تشتعل فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد العزيز، وما لبثت أن أعقبتها الحرب التى أشعل نارها الصرب وأهل الجبل الأسود فى اليوم الثالث والتسعين من جلوس مراد الخامس على عرش السلطنة، ولما أوقع الجيش التركى هزيمة منكرة بالصرب أسرعت روسيا حامية البلقان والسولافيين بتقديم إنذار طالبةً بوقف الحرب وعمل هدنة. أما إنجلترا فقد وجدت فى هذه الهدنة فرصةً مواتيةً لها لتحقيق أطماعها، وإذا كانت إنجلترا قد استطاعت أن تحول دون وقوع الحرب التركية الروسية، فإنها تمكنت من تحقيق مصالح جديدة لها فى الشرق الأوسط أخذتها من الدولة العثمانية، ثم اقترحت إنجلترا بعد ذلك عقد مؤتمر فى إستانبول لبحث المسألة الشرقية من جديد، ولم يكد هذا المؤتمر يعقد فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م حتى أعلنت طلقات المدافع المدوية فى تركيا عن الموافقة على القانون الأساسى أو الدستور وتأسيس الإدارة التى تعمل بموجبه.

وقدم المؤتمر مشروعًا إلى الباب العالى من أجل حماية حقوق النصارى الموجودين فى تركيا، وقد حلت هذه المسألة من تلقاء نفسها فى تركيا مع إعلان الدستور. وعقد مجلس طارئ مكون من كبار رجال الدولة الذين أبدوا ثقتهم التامة بالصدر الأعظم مدحت باشا، الذى أراد المحافظة على شرف الدولة وسؤددها، ورفض المشروع الذى يتدخل فى الشئون الداخلية للدولة. وفشل مؤتمر إستانبول، أما عبد الحميد فقد عزل مدحت باشا فى هذه الفترة الهادئة ثم افتتح أول مجلس لـ "المبعوثان" وأجرى انتخابات هذا المجلس.

ثم عقد فى إنجلترا المؤتمر الثانى بناءً على رغبة إنجلترا من أجل الحيلولة دون وقوع الحرب التى أعلنتها روسيا ضد تركيا، بيد أن مجلس المبعوثان رفض أيضًا قرارات هذا المؤتمر، وأعلنت روسيا الحرب على تركيا، وتحالف الرومان مع الروس، وكان الصرب والبلغار فى طليعة الجيوش الروسية.

كان القائد أحمد مختار باشا فى شرق الأناضول وعثمان باشا قائداً فى البلغار وبلونه، وكان كلاهما يحاول إنقاذ شرف الجند التركى بحروب الدفاع التى خاضاها، وكانت قلة الموارد المالية، وقطع الخطوط الخلفية للجبهة، والنقص الشديد فى عدد الضباط المدربين على الفنون الحربية، وإدارة عبد الحميد الحرب من قصر يلديز فى إستانبول كانت كلها أسباباً فى الهزيمة النكراء المروعة التى أصابت الدولة العثمانية. وتقدم جيش روسى إلى أدرنة وواصل سيره حتى وصل إلى أبواب إستانبول متقدماً صوب منطقة يشيل كوى مغامراً بحياته لا يخشى الخطر الذى يأتيه من الخلف ويقضى عليه قضاء مبرماً، وملئت إستانبول بالمهاجرين الرومليين الذين ساءت أحوالهم فى فصل الشتاء وكان هذا بمثابة أشد الأحقاب حزناً وبؤساً فى تاريخ إستانبول.

أما السلطان عبد الحميد فقد عرض الصلح على قيصر روسيا وأقدم على حل مجلس المبعوثان حتى يتهرب من مسئولية الإدارة السيئة للحرب. بيد أن التاريخ التركى لن يعفو عن المسئولية الجسيمة للسلطان عبد الحميد الثانى فى إدارة هذه الحرب.

وظهرت دولة بلغاريا الكبرى مقرونة بتوقيع معاهدة الصلح فى آياستفانوس، وارتبكت الدول الأوروبية الكبرى وفت فى عضدها؛ فاعترضت إنجلترا وشاركتها النمسا وتدخلت ألمانيا، وعقد مؤتمر للصلح فى برلين اشتركت فيه كل من تركيا وروسيا وإنجلترا وفرنسا والنمسا تحت رئاسة الأمير بسمارك رئيس وزراء ألمانيا، وتغيرت معاهدة آياستفانوس وأصبحت لصالح تركيا، وفى مقابل هذا تحققت منافع جديدة للدول المجاورة المحايدة، وذلك عن طريق الدول التى اضطلعت بدور الوساطة. وأسست بناء على معاهدة برلين إمارة بلغارية صغيرة تابعة لتركيا؛ لتحل محل دولة بلغاريا الكبرى، أما جنوب جبال البلقان فقد خضع لحكم والٍ نصرانى، وأسست ولاية الروملى الشرقية وحصلت كل من الصرب ورومانيا والجبل الأسود على الاستقلال التام. وأخذت روسيا مناطق بصربيا ومصبات نهر طونة ومنطقتى باطوم وقارص وأردخان فى الأناضول. وأخذت النمسا البوسنة والهرسك بصفة مؤقتة، أما إنجلترا فأخذت

جزيرة قبرص على سبيل الأمانة. وأخذت اليونان جزءًا من منطقة طاسالايا. وعدلت الحدود لصالح إيران.

وفى عام ١٨٨١ أخذ الفرنسيون تونس، وفى عام ١٨٨٢ أخذ الإنجليز مصر، وفى عام ١٨٨٥ أعلن البلغار الاستقلال التام واحتلوا ولاية شرق الروملى وضموها إلى دولتهم، واعترض قصر يلديز على هذه التجاوزات والانتهاكات ولم يعقب أحد على اعتراضاته.

ولم تتغير سياسة عبد الحميد الخارجية ألبتة. وفى عام ١٨٩٧ أعلن عبد الحميد الحرب ضد اليونان، حيث ساعدت الثورة التى أشعلها أهل جزيرة كريت، وكسب الحرب، وعقدت معاهدة صلح بناءً على الحدود القديمة عن طريق تدخل ووساطة الدول الأوروبية. وفتحت جزيرة كريت الحكم الذاتى. وتقول طائفة من المؤرخين إن عبد الحميد لم يكن ناجحًا فى سياسته الخارجية ولم يكن على يقين من أن عرشه سيكون سيئًا فى إجباره على الانقياد كما آل إليه حاله، ونضيف إلى هذا شيئًا آخر يتمثل فى الأزمة المالية التى كانت نتيجة للإسراف والبذخ إبان عصر أبيه عبد المجيد وعمه عبد العزيز. ولم يستطع عبد الحميد أن يحول دون حدوث هذه الضائقة المالية بما اتخذه من تدابير وترشيد فى الإنفاق. وكان يستطيع أن يعطى الموظفين رواتبهم لمدة ستة أو سبعة أشهر فى العام فقط، ومن ثم فإن عبد الحميد الثانى اضطر إلى الاستدانة من رءوس الأموال الأجنبية، وأجبر كذلك على تقديم التأمينات اللازمة حتى يتمكن من أخذ هذه القروض، وعقدت اتفاقية جديدة سنة ١٨٨٢ خاصة بديون الدولة العثمانية، وسميت هذه الاتفاقية باتفاقية المحرم لأنها وقعت فى هذا الشهر.

وأسست إدارة تسمى إدارة الديون العمومية، وكان يدير شئونها مجلس إدارة يتكون من وكلاء الدائنين الترك والأجانب على السواء. وحولت الرسوم الخاصة بطوابع بريد الدولة والمشروبات الروحية والتبغ والملح والحرير والأسماك والصيد كلها إلى إدارة الديون العمومية، وكانت هذه الإدارة تتولى جمع هذه الضرائب من المكلفين بجمعها، الذين حلوا محل وزارة المالية، ثم يقدم إلى خزينة الدولة الفائض من هذه الضرائب بعد أن تخرج منه مصارفها الخاصة والدين المدفوع وأقساط الفوائد، وقد

سمح لهذه الإدارة بالدخول فى مغامرات تجارية من أجل زيادة هذه الضرائب، وكلما زادت حدة الضغط الذى يمارسه السلطان داخل الدولة زادت معه قوة النشاط السرى واتسع نفوذه فى سبيل الحرية. ومن ثم بدأ الائتلاف والتلاحم بين طلبة المدارس العليا، ولاسيما أن الضباط الشبان الذين كانوا يتولون قيادة القوات العسكرية قد اتفقوا مع العصابات فى مقدونيا، وهددوا باستخدام السلاح لإجبار السلطان على إجراء انتخابات جديدة، ثم قتل شمسى باشا الذى أرسله السلطان لإسكات أصوات التمرد الذى انبعثت أصواته من مقدونيا، وحدث القتل على يد أحد الضباط المؤيدين للحرية، وتأثر السلطان تأثرًا بالغًا بهذه الحادثة وكان على يقين بأن الرصاصة الثانية يمكن أن تكون فى قصر يلديز وتصيبه فى مقتل، وأسرع السلطان فأمر بإجراء انتخابات جديدة لمجلس المبعوثان وذلك فى عام ١٩٠٨، ولكن الوقت كان متأخرا. إنها حقبة تاريخية عصيبة فى تاريخ الدولة العثمانية، حيث اعتورتها المحن والمصائب وتربص بها أعداؤها، فى الداخل متمثلين فى جماعة الاتحاد والترقى، وفى الخارج متمثلين فى الدول الأوروبية التى ناصبت الدولة العثمانية العداء، وحرصت كل الحرص على تمزيق أوصالها ونهب ثرواتها وتدبير المؤامرات التى تفت عضدها وتقوض بنيانها، ولاسيما ما فعلته الدولتان اللتان تمثلان العدو اللدود للدولة العثمانية؛ ونعنى بهما إنجلترا وروسيا اللتين وصفهما السلطان عبد الحميد بقوله إنهما بمثابة فأرين قارضين يتربصان بنا الدوائر ويريدان أن ينهشا لحم الدولة العثمانية ويفتكا بها.

وقد حرص المؤلف المؤرخ" سليمان قوجه باش" على عرض الحقائق التاريخية فى هذا الكتاب مدعمة بالوثائق التاريخية الدامغة والمصادر التى لا يتطرق إليها الشك، ولاسيما ما قدمه من شواهد وأدلة وبراهين مستقاة من مذكرات السلطان عبد الحميد التى كان يمليها على ابنتيه عائشة وشادية، كما استفاد فائدة جمة من مذكرات الزمرة المقربة من السلطان وأقوال المؤرخين الأوروبيين الذين خبروا السلطان عبد الحميد وسبروا أغوار شخصيته وكانوا وثيقى الصلة به، ومن ثم جاء الكتاب متخذًا من المنهج العلمى سبيلاً لم يشذ عنه قيد أنملة، وقد بذل المترجم فيه قصارى جهده حتى يخرج للقارئ العربى فى صورة نرجو من الله سبحانه وتعالى أن تكون فى ميزان حسناته، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

عبد الله أحمد إبراهيم

مقدمة المؤلف

بات السلطان عبد الحميد الثانى من أكثر الشخصيات المكتوب عنها والمتحدث بشأنها فى تاريخنا، يستوى فى ذلك بيان ماله وما عليه. وقد استمرت الحملات التى شنت عليه طوال حقبة طويلة من الزمان فى حياته وبعد مماته على حد سواء.

ولا ريب أن معارضة عبد الحميد الثانى ومناهضته قد تآلفت واجتمعت من أسباب خارجية وداخلية.

وإذا نظرنا إلى الدول العظمى فى الخارج وكذلك الدول المجاورة فى الداخل ألفيناها جميعًا قد نجحت فى تأليب عداوة وشنآن العناصر الانفصالية، وخلفت تيارًا قويا أصبح قادرًا على تقسيم الوطن وفصم عُراه، وحدث كل هذا بسبب التدابير والإجراءات المؤثرة الفعالة التى اتخذها السلطان عبد الحميد ضد أهداف انتشار الاستعمار وغاياته، والحيلولة دون تغلغله وامتداد نفوذه. ثم ما لبث أن ظهرت فى الداخل مرة أخرى قضية تسمى قضية " النظام الصارم " "katibir rejimdqvasi"، التى اضطلع بها زمرة من البيروقراطيين من جماعة " تركيا الفتاة " "Jon türkler" بزعم تخليص الوطن وإنقاذه، وقد دفعهم هذا إلى تشكيل جبهة تهدف إلى تطبيق الدستور، متهمين نظام عبد الحميد الثانى بالاستبداد والطغيان.

إن التحالف وجبهة المعارضة سالفة الذكر ومناهضة السلطان عبد الحميد فى الداخل والخارج على السواء قد تجلت أول الأمر بثورة جماعة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م، بيد أنها كانت غير ذات تأثير فى سياسة عبد الحميد، وفى إثر هذه الثورة ابتعدت هذه الحركة عن عملها وتم حلها فى ٣١ مارس ١٩٠٩م، ولما تم إقصاء عبد الحميد عن إدارة السلطة المركزية استطاعت الدولة العثمانية الاعتماد على الدستور لمدة عشر

سنوات فقط (١٩٠٨-١٩١٨)، وسرعان ما سلبت ونهبت أراضى الدولة العثمانية على يد الدول العظمى والدول المجاورة والعناصر الانفصالية، وسلم عبد الحميد الإمبراطورية عند حدود بلغت مبلغًا عظيمًا من التقدم والرقي في سنة ١٩٠٨م، أما جماعة تركيا الفتاة الذين يمثلون حزب القوة المهيمنة فقد انسحبوا بدورهم إلى حدود عصر التحرير والاستقلال في آخر مرحلة من السلب والنهب، ثم آل بهم الحال في نهاية المطاف إلى الفرار هاربين مولين وجوههم شطر أوروبا على متن سفينة ألمانية في ليلة ٢نوفمبر ١٩١٨م من أجل تخليص الناس وإنقاذ أرواحهم من الإعدام الذى يتم دون محاكمة قانونية. وعلى حين ظهرت مواقف جليلة من أجل خدمة الدولة والأمة اضطلع بها كل من عبد الحميد وجماعة تركيا الفتاة، فإن أبطال الحرية كانوا هم أصدقاء الوطن وأحباءه الهاربين الفارين من جماعة تركيا الفتاة، واستمر البحث الدءوب عن شخصية السلطان الظالم الأحمر zalim,kizilsultan.

وكلما وارينا ستور وحجب السديم والضباب التي ترين على تاريخنا ما تلبث الحقائق أن تبدأ من فورها في التجلي والظهور، ولم تستطع الاتهامات والافتراءات على حكم عبد الحميد أن تستمر وتمضى قدمًا، لأنها لم تكن سوى افتراء عليه. ولربما كان للسلطان عبد الحميد أخطاء وأغلاط، والله وحده المنزه عن الخطأ والظلم... وإن واضع الكتاب الذى بين أيديكم قد بذل قصارى جهده وأفرغ وسعه بغية تقديم ودراسة جميع المصادر المعارضة والمؤيدة للسلطان عبد الحميد الثاني على حد سواء، كما سعى المؤلف كذلك إلى إماطة اللثام عن شخصيته وسياسته، كما رأى كذلك أن هذا السلطان حرى بأن يذكر بكل تجلة وتقدير، فاللهم ثقل موازينه في دار الثواب.

نجح السلطان عبد الحميد في إحياء حقبة النفوذ والغلبة للإمبراطورية العثمانية قرابة ثلاثة وثلاثين عامًا، كانت معرضة في أثنائها لضروب متباينة من الخطر الذى يهددها ويحيق بها من الداخل والخارج، وتم كل هذا النجاح بفضل إدارة السلطة المركزية، ناهيك عما كان يتمتع به عبد الحميد من خلائق وخلال خاصة تجلت في أشد حقب التاريخ العثماني حرجًا، وكان عبد الحميد بهذه السجايا ذا منزلة مستثناة بين

كل السلاطين العثمانيين الذين سبقوه في الأزمنة السالفة. أما المراقبون الغربيون فيرون أن عبد الحميد إن لم يكن كذلك لما تسنى للجمهورية التركية أن تظهر في الوجود نتيجة انهيار أركان الدولة العثمانية وتقويضها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.إن سياسة عبد الحميد قد عملت على تأخير تحطيمه وكسر شوكته وهدم بنيانه، ومهدت السبيل كذلك إلى قيام الجمهورية التركية.

إن التاريخ القومي وذاكرة الأمم هي مجموع التجارب وخاتمة الخبرات وتراكم العوامل الاجتماعية واحتشادها، وإن الأمم التي تعرف المغزى الحقيقي لتاريخها القومي تصبح دون ريب ناجحة موفقة بما تستفيد منه لأقصى درجة ممكنة، أما الأمم التي تجهل تاريخها وتحرفه وتصحفه فإنها تظل دائمًا متأخرة متقهقرة في موقف صعب لا تحسد عليه.

إن معرفة حقيقة عبد الحميد في تركيا في الوقت الراهن سوف يكون سببًا في تحطيم كثير من المحظور والمحرم، وإزالة العوائق الكأداء التي تعترض سبيلنا في سبيل تجلية هذه الحقيقة، كما سوف تفتح أفق أمتنا، ولا ريب أن الأفق المفتوح هو بمثابة بادرة جديدة موجودة داخل أمتنا، وعليه فإنه سوف ينقذ الأجيال المؤمنة ويضمن لها سلامة الطريق الذي تسلكه، وأملنا كبير في أن يكون الكتاب الذي بين أيديكم ذا فائدة جمة لأمتنا وقرائنا.

سليمان قوجه باش

الفصل الأول

إمارة عبد الحميد

عبد الحميد الثانى هو الابن الثانى للسلطان عبد المجيد بعد السلطان مراد الخامس. ولد فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٢م، أمه هى السيدة "تريمو جان" Tirimu gan، ولدت فى قفقاسيا من قبيلة شابيغ الجركسية، وقد قدمت مع والدتها وقرنائها إلى إستانبول واندرجت فى سلك نساء السلطان عبد المجيد[1] سنة ١٨٣٩م. وإذا كان قد ورد فى المصادر الغربية أن أمه ذات أصل جورجى[2] أو حتى أرمينى[3] فإن هذه الآراء خاطئة لا تثبت عند النقد. وإن الذين ناصبوا عبد الحميد الثانى العداوة والبغضاء قد شرعوا فى الافتراء على أمه بغية اتهامه والافتئات عليه وإصدار حكم جائر عليه. ومن هذه الزاوية فإنهم يحطون من قدر أمه ويغضون من شأنها؛ ليجعلوها فى مستوى جارية رقيقة أرمينية[4]. أما جماعة تركيا الفتاة فلم يستطيعوا الخوض فى هذه المسألة دون النظر بعين زمرة من الكُتّاب الأوروبيين من ذوى العداوة اللدودة للسلطان عبد الحميد. وها هو ذا "أحمد صائب" يدون فى كتابه كلاما يتصل بوالدة عبد الحميد الثانى فيقول:" إنها كانت إحدى الجوارى الخادمات اللاتى

(١) عائشة عثمان أوغلو، أبو عبد الحميد، مطبعة الثقة، إستانبول ١٩٦٦م ص ٢٥٨ .

(٢) إليزابيث نورمة لى ليتمر، روسيا وتركيا فى القرن التاسع عشر الميلادى، شيكاغو ١٩٦٧م ص ٣٤١ .

(٣) (فلنتين جيرول، الإمبراطورية التركية، لندن ١٩١١م ص ٣١٦، فيليب جرامش: بريطانيا وديار الترك ص٣٥، إيدون بيرس، أربعون عاما فى القسطنطينية ١٨٧٣-١٩١٩م، نيويورك ١٩٢٥م ص١٠٣ .

(٤) جرافيس، ص٣٥ .

كن يضطلعن بضروب من الخدمة الحقيرة الوضيعة "(٥)، بيد أن مؤرخنا ذائع الصيت وكاتب السير الذاتية "محمود كمال إينال" فيتصدى لتفنيد الزعم الباطل لأحمد صائب قائلاً "إنه هذيان وخلط باسم التاريخ"، حتى إن"إينال" يتعقب سبيل هذا الكاتب المنتمى إلى جماعة تركيا الفتاة ناظرا إليه بعين فاحصة ومصححا الأخطاء الواردة فى كتابه، ثم ما يلبث أن يقَوِّم كتابه واصفا إياه بأنه كتاب الترهات"(٦).

إن كثيراً من المؤلفات التى تناولت السلطان عبد الحميد الثانى أصبحت آثاراً قيمة بفضل احتوائها على القيل والقال وحشوها بالشائعات التى لا تعتمد على معلومات حقيقية تتصل بعبد الحميد وشخصيته، ومن هؤلاء المؤلفين تحسين باشا أحد رؤساء التحرير الذى يدون فى مذكراته ما يأتى "إن النشريات التى تخص عصر السلطان عبد الحميد على كثرتها لم تحط خبرا بحياة هذه الحقبة الزمنية وهى فى جملتها آثار و تواليف اضطلع بتدبيجها ثلة من الكتابٍ ممن اعتمدوا على الشائعات والقيل والقال والتوافه التى لا جدوى ولا طائل من ورائها"(٧).

أما أميرال البحر الإنجليزى"هنرى-ف – وودز" Henery-f-woods الذى اضطلع بإصلاح سلاح البحرية العثمانية فيتصدى لبحث هذه المسألة أثناء مذكراته فيقول:"إننا لم نصادف حتى الوقت الراهن أية معلومة واحدة مدونة تشرح بشكل لائق شيئا يتصل بالسلطان عبد الحميد، كما لم يعرض على بساط البحث رأى أو فكر واحد صائب يتعلق بشخصيته وأفكاره على وجه الخصوص. أما أنا فإننى أعتبر السلطان عبد الحميد، حتى الوقت الراهن، واحداً ممن تبوَّءوا أعلى منزلة مستثناة بين ظهرانى السلاطين العثمانيين طُرًّا(٨)".

---

(٥) أحمد صائب: أوائل سلطنة عبد الحميد – القاهرة ١٣٢٦هـ،ص٤، ٥، ١٠

(٦) محمود كمال إينال: آخر الصدور العظام ج١- إستانبول ١٩٨٢م-ص١٢٦٦

(٧) تحسين باشا: عبد الحميد وذكريات مقر يلدزر: مكتبة أحمد خالد: إستانبول ١٩٣٢م،ص٥٧

(٨) هنرى وودز: ذكريات تركيا، المترجم فاروق جوكر، نشريات الدولة، إستانبول ١٩٧٦م ص١٦٣

كان عبد الحميد فى الحادية عشرة من عمره عندما أدركت المنية والدته سنة ١٨٥٣ م، وحينئذ شب عبد الحميد عن الطوق ونما وترعرع فى كنف زوجة السلطان عبد المجيد التى تدعى " برستو " وهى السرية[٩] الرابعة فى حريم السلطان عبد المجيد وكانت عاقرا لم تعقب[١٠]، وقد بذلت زوجة السلطان هذه جهدا عظيما من الحدب والعناية نحو هذا الأمير الصغير عبد الحميد مثل أمه تماما. ولما اعتلى عبد الحميد سرير العرش أصبحت برستو بمثابة والدة السلطان أو أم السلطان الحاكم[١١].

كان نمو عبد الحميد وترعرعه محروما من أمه الحقيقية قد خلف أثرا بعيد الغور فى تنشئته وعاداته وتقاليده. ولمَّا ماتت أمه آثر العزلة وانزوى عن إخوته مكتفيا بمتابعة أفعالهم وأحوالهم ليس إلا[١٢].

وكان لشدة عشقه لأمه الحقيقية وتعلقه بها أثر عظيم فى إصابته بحالة من الحزن والاكتئاب النفسى، ومن ثم كان هذا الشاب المنزوى المنعزل العنيد يفر هاربا من احتشاد الناس و زحامهم، حتى إنه كان يخجل من الاشتراك فى أمور اللهو والقصف والتسلية التى يمارسها إخوته، ودائما ما كان يقضى الوقت فى لجة من الحزن والابتئاس[١٣].

وهاهو ذا عبد الحميد يدون طرفا من هذه الحياة أثناء خواطره ومذكراته فيقول: " دائما ما يغفل الناس عن أى ظروف تربيت ونشأت رازحا تحت وطأتها وعلى حين كان أبى يفرط فى حب إخوتى من البنين والبنات ويبالغ فى تدليلهم والحدب عليهم، فإنى لم أكن أدرى لأى سبب كان أبى يُسىء معاملتى[١٤]".

---

(٩) هنرى وودز: ذكريات تركيا، المترجم فاروق جوكر، نشريات الدولة، إستانبول ١٩٧٦م ص١١٣

(١٠) أى لم تنجب أولادا، ويقال مات فلان ولم يعقب أى لم ينجب (المترجم).

(١١) إسماعيل جا فى دالشمند، ثبت التسلسل الزمنى العثمانى، ج٤- تركيا إستانبول، ١٩٧٢م، ص٢٨٥ .

(١٢) أله ويلتين، عبد الحميد ظل الله، لندن ١٩١١م، ص٣٣ .

(١٣) أحمد بدوى قوران، النضال القومى و الحركات الثورية فى الإمبراطورية، إستانبول ١٩٥٩م: ص:١١٥

(١٤) وثمة رواية أخرى بحثها wiltim تتصل بسبب غضب أبيه عليه، وكان عبد المجيد يقول فى حق ولده: إنه طفل لا سبيل من إصلاح شأنه، أبعدوه عنى فإننى لا أريد رؤيته (ص٣٣ wiltim).

كان أخى المسكين مراد هو الذى يفهمنى فقط ويدرك كنه ما أعانيه، ومن ثم فقد نشأت بالجد والحزم منذ طفولتى ونعومة أظفارى، فلم أكن أهوى اللعب باللعب والتسلى بها، وبدأت فى سن مبكرة أفكر مليا فى الموضوعات الجادة التى تتعلق بوجود البشرية أصرف إليها اهتمامى، كما كنت هائما بالخيال عاشقًا له.

ونجم عن هذه الحالة التى كنت عليها أن أساتذتى كانوا يوبخوننى ويعزّروننى ويشكوننى إلى والدى، وشعرت بانقباض نفسى حزين حيث لا يشعر بى ولا يفهمنى المحيطون بى(١٥).

التحصيل العلمى لعبد الحميد

كان الفاصل الزمنى بين الأمير عبد الحميد وأخيه الأكبر مراد الخامس لا يزيد على عامين إلا قليلاً، ولهذا فإنهما اضطلعا معًا بالدراسة وتحصيل العلم، وتعلم كلاهما التركية على يد عمر أفندى والفارسية على يد مهدى أفندى، والعربية وعلومها على يد كل من فريد وشريف أفندى، وأحداث التاريخ العثمانى على يد لطفى أفندى، والفرنسية على يد كل من أدهم وكمال باشا ورجل فرنسى يدعى Cordet. كما تعلم الأخوان كلاهما الموسيقى على يد أستاذين إيطاليين هما Lombardi,cauatelli. وكان السلطان عبد الحميد يؤثر الموسيقى الغربية على الشرقية. أما الروايات الواردة بشأن جهله بقواعد الإملاء وعدم قدرته على كتابة الخط فهى محض أساطير مختلقة اضطلع بترويجها أعداؤه بعد المشروطية الثانية(١٦).

---

(١٥) السلطان عبد الحميد، مذكراتى السياسية، إستانبول ١٩٧٤م، ص١٩٣، جمعها على وهبى، نشر دار الحركة.

(١٦) دانشميند، ج٤ ص٢٨٥ .

لم يكن في القصر المناخ المناسب من أجل تربيته وتنشئته التنشئة الحسنة، "فقد استحوذت عليه ثلة من الجواري والإماء وخصيان القصر من ذوى الجهل وعجمة الذهن وفسولة الأخلاق، ناهيك عن طائفة أخرى من الأرقاء والتابعين وقرناء السوء والأميين والذميين. أما من تعهدوه بالإرشاد والتربية فلم يبينوا له الطريق السوى المستقيم لاجئين في ذلك إلى الجهل وسوء الأخلاق، وساقوه سوقًا إلى الطرق الملتوية البعيدة عن جادة الصواب"(١٧).

وهكذا لم يحصل عبد الحميد الثاني العلم تحصيلا جيدا، وهو يتحدث عن هذا مجليا نزوعه وميله إلى تربية وتنشئة نفسه بنفسه، وفي هذا يقول: " إن أبي لم يوفق فيما يتصل بتعليم أبنائه، ومع كل هذا فإن أمراء السلطان قد أكرهوا على العيش في جناح من أجنحة القصر يسمى قفصا في إطار من التقاليد والأعراف التعيسة البائسة، وسيق إليهم كل هذا مقرونا بما يزعم أنَّه يكون مشاعر وأحاسيس إنسانية. أما أساتذتنا الذين اضطلعوا بتعليمنا فماذا فعلوا بالنسبة لنا ؟

إنهم علمونا التاريخ والموسيقى والفارسية والخطوط الجميلة والعربية والأدب العثماني وعلوم الدين وغيرها، بيد أنهم لم يضيفوا إلى هذه الدروس أى شيء يتعلق بالحقب والسنين السابقة ودروس أجدادنا الأقدمين، وكأن أساتذتنا كانوا بُكما قد قطعت ألسنتهم في الخوض في هذه الموضوعات.

كان همهم الوحيد يتمثل في ماذا تكون دنيا الغرب وعالمه في القرن التاسع عشر الميلادي؟ لم يقدم شخص جوابا شافيا لنا، ولهذا السبب فإنني قررت الاضطلاع بنفسي بحل هذا اللغز متفردا قائما برأسي(١٨).

كان اعتياد القراءة والإلف بها واحدة من أجمل العادات والتقاليد التي حققها الأمير عبد الحميد إبان فترة تعلمه.

---

(١٧) محمود كمال إينال، ج٣، ص١٢٦٤ .

(١٨) ميشيل دى جريس، نفى عبد الحميد في قصر يلديز، ترجمة د بابلادى، إستانبول١٩٩٥، ص٢٧ .

وكان تكوين الشاب البائس المكتئب قد دفعه دفعا إلى القراءة والمعرفة. أما عبد الحميد فقد بدأ يشعر بتفتح آفاق المعرفة، ومن ثم بدأ يقرأ فى إمارته المبكرة صحف الحوادث وتصوير الأفكار والبصيرة بصورة منتظمة مطردة، ناهيك عما كان يضطلع به من جهود أخرى فيتابع عن كثب مجلات المزاح والدعابة مثل جايلاق وتتار وجنجراق، بغض النظر عما تحدثه هذه الجرائد من تأثير.

أضف إلى هذا أنه كان يأتى بالصحف الأوروبية بواسطة كل من إسرافيم أفندى صاحب دار القراءة (مقهى الاطلاع). والكُتبى[١٩] المسمى Elinino إلينينو، وكان يقرأ هذه الصحف أو يأمر بترجمتها، كما كان يدعو بعض الكتّاب ويتحدث معهم فى خفية واستتار. وخلاصة القول فقد كان يعرف كيف يكون أفكاره العامة عن كل ما يحيط به. هكذا حقق عبد الحميد منذ مولده كفاءة ومقدرة تتسمان بالدقة والنظام، كما كان يتوجب عليه استخدام وقدة ذكائه فى الوقت والمكان المناسبين وفق المعلومات والنتائج التى يحصل عليها أو يستحوذ عليها[٢٠].

وبهذه السجايا والخلال يتميز عبد الحميد عن كل الأمراء الآخرين مما جعل أباه يتحدث عن هذا قائلا "إنه أكثر أبنائى ذكاء ويقظة وفطنة وانتباها[٢١]".

كان عبد الحميد يبذل قصارى جهده فى تعلم شئون الدولة على الخصوص وما يتصل كذلك بأمور الحياة العامة والخاصة على حد سواء، ودفعه التجسس أن يكون ولوعا بمعرفة كُنْه كل شىء وأن يطلع كذلك على خبايا الأشياء المستترة، وكان هذا سببا فى عدم اكتفائه بمناقشة المسائل العامة مع من يأتون لزيارته مما جعله يتحقق

---

(١٩) الكتبى: هو بائع الكتب، ويسمى بالتركية kitapçi (المترجم).

(٢٠) أورخان قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، إستانبول ١٩٩٥م، ص٢٧

(٢١) كمال أوكة، عبد الحميد الثانى وعصره فى التقارير السرية للجاسوس الإنجليزى البروفيسور أرمينوس فامبرى: إستانبول، ١٩٨٣م، ص٨٤

بنفسه من أحوال أكابر رجالات الدولة والوقوف على سياستهم ومقدار ثرواتهم وأنماط إدارة قصورهم ونزل ضيافتهم، أما وقدة ذكائه المعجزة الخارقة فكانت سببا فى قدرته على سرد المعلومات المفصلة المحفوظة فى الذاكرة دون أن ينسى معلومة واحدة منها، وهى معلومات ترجع إلى حقبة معينة من الزمان، إنه يفعل كل هذا كلما واتته الفرصة المناسبة لذلك[٢٢].

أمير مختلف متميز

كان لعبد الحميد بنية متميزة عن الأمراء الآخرين. ولنمضى قدما فى قراءة ما أورده تحسين باشا فى هذا الصدد حيث يقول " لم يكن عبد الحميد أفندى ذا صفة مميزة فارقة بينه وبين إخوته والأمراء الآخرين فحسب، لا جرم أنه لم يكن يحيط خبرا بأى حادثة أو واقعة مما تدور فى الحقبة الزمنية التى يعيشها، كما لم يكن على علم كذلك بأحد من رجالات هذا الزمان وأكابره ألبتة.

فقد كان يعيش حياة منعزلة تماما عن أحداث الدنيا، محاطا بأسوار القصر العالية، وهذا شيء جد كبير إذا ما قورن بالأمراء الآخرين، بيد أن خصائص حياة عبد الحميد وطرائق معيشته وإدارته لا تشبه مثيلتها عند الأمراء الآخرين، وعلى حين كان هؤلاء الأمراء يقضون أيامهم فى لجة من الغفلة والبذخ والإسراف فإن عبد الحميد كان يقضى هذه الحياة فى إطار ميزانية منتظمة متوازنة قوامها التدبير والتوسط فى الإنفاق، وقد دفعه هذا إلى أن يضع كل ضروب المعاملات المالية فى دائرته تحت بصره خاضعة لإشرافه وتفتيشه وتحريه، ويراجعها بنفسه بغية الوصول إلى أدنى حد من

(٢٢) تحسين باشا، ص ١٠ .

الإنفاق، ولا سيما أنه كان شديد الحذر من الغلو في الإسراف والتبذير. وقد تمخض هذا عن أنه أصبح يتبوأ منزلة عالية من الناحية المالية إذا قارناه بالأمراء الآخرين.

كان عبد الحميد يعيش داخل دوائر محكمة قاطعا كل علاقة له بالدنيا، كما كان يعاني شدائد وعنتا نفسيا فيما يتصل بمسألة المال مقارنة بالأمراء الآخرين الذين ينفقون من مصادر وإيرادات لا تنفد، فهو من ناحية إما أن يظل على تدبيره في الإنفاق، وإما أن يقضي حياة تتسم بالرفاهية والبذخ وبحبوحة العيش وبلهنيته في كنف الإدارة وحمايتها التي تؤمن هذه الإيرادات، وإمَّا أن يشارك إخوته في جمع المال وادخاره، لاسيما أنه قَدْ أَفضَى إليَّ أنه أعطى أخاه مراد الخامس ماله بضع مرات على سبيل الاقتراض[٢٣]".

" كان عبد الحميد أفندي يستقبل كثيرا الصراف موسيو ظريف، ويلتقي به ليناقش معه الشئون المالية بنفسه، ويتحرى ويتابع بدقة دائما شكل إدارة الثروة المالية، هذا ما سمعته بأذني أخيرا من أحد الموظفين القدماء والأشخاص المتمرسين في شئون السياسة، كما اضطلع عبد الحميد بنفسه بشرح طرف من هذه الأمور في بعض الفرص التي واتته لذلك.

ومن الثابت الذي لا ريب فيه أن السلطان عبد الحميد قد أعطى نفسه من الخزانة مقدار ستين ألف ليرة مقابل نفقات جلوسه على عرش السلطنة في بداية حكمه. وبينما كان الأمراء الآخرون لا يستطيعون الوصول بمرتباتهم التي يتقاضونها إلى آخر الشهر، فإننا نجد عبد الحميد صاحب ثروة مدخرة بلغت ستين ألف ليرة ادخرها لوقت الحاجة وذلك بفضل فكرٍ اقتصادي منظم[٢٤]".

---

(٢٣) تحسين باشا،ص١٠-١١ .

(٢٤) تحسين أفندي، ص٢١ .

الاستعداد للعرش

كان ولي العهد مراد أفندى هو الوارث الحقيقى للعرش العثمانى، ولسوف يعتلى سريره عند وفاة السلطان عبد العزيز، وحينئذ سيكون عبد الحميد هو ولى العهد. وذات يوم كان عبد الحميد يمعن الفكر فى القدرة على إعلاء شأن العرش العثمانى، ودخل فى معمعة الاجتهادات والاستعدادات لاعتلاء العرش بنفسه إبان سنوات من إمارته، "أراد عبد الحميد أن يوثق صلاته بأشخاص كثيرين بغية الاضطلاع بالاستعدادات التى تخص السلطنة ووراثة العرش؛ حيث رأى فى قرارة نفسه أنه أقرب وارث للسلطنة العثمانية، ومن ثم بذل جهده وأفرغ وسعه من أجل الاطلاع على الأسرار الخفية المستترة وسبر أغوارها والوصول إليها حتى لا يظل بمعزل عن أحداث العالم.

كان هناك رجالات يتبوءون مواقع مهمة فى الدولة إبان حقبة ولاية العهد، وكان يلتقى كثيرا بشخصيات بارزة من أرباب الفكر والقلم المحليين منهم والأجانب على حد سواء، وخلاصة القول أنه كان يتابع على الدوام العصر الذى كان يعيش فيه، وله علاقة وثيقة العرى ومحبة ودودة نحو قصرى أمه وأخته (جميلة سلطان)، كان يذهب إلى هاتين الدائرتين بسرور وصفاء، وبعد جلوسه على العرش أخذ معه طائفة من الموظفين القدماء وعينهم فى هاتين الدائرتين وأحضرهم فى معيته إلى قصر يلديز ورفعهم إلى رتبة عالية، وهذا دليل أكد على مدى حبه لأخته ورعايته لها وتقديره لمقام الأمومة وتقديسه[٢٥]".

" كان عبد الحميد أفندى على العكس من تصرف إخوته الآخرين وسلوكم، فكان محل إقامته مفتوحا للزائرين ليلا ونهارا، وكان مسيو طوماس الإنجليزى هو مصدره الأساسى الذى يعول عليه فى اقتباس المعلومات المتصلة بالمحافل الأجنبية، وكان لهذا الرجل الإنجليزى قصر نو مزرعة، متاخم لقصر ترابيا الذى يملكه عبد الحميد. وكانا

(٢٥) المصدر السابق،ص٩ .

يلتقيان لفترات طويلة ويخرجان معا للتريض والتنزه، ويتجاذبان أطراف الحديث ويناقشان أحوال الدولة فى أثناء الزيارة وأوقات النزهات. وكان كل من صفوت وأدهم باشا من بين الوزراء الذين كان عبد الحميد قد وطد علاقته بكليهما، وكان هذان الوزيران يأتيان إلى قصر ولى العهد كثيرا لأنه كان يتلقى دروس الفرنسية على يديهما، وسواء أكان عبد الحميد ذا علاقة وثقى وآصرة قوية بهذين الوزيرين أو بأكابر ورجالات هذا العصر، فإنه قد شرع فى بذل جهده من أجل تعلم شئون الدولة وأمور الحياة العامة والخاصة على السواء(٢٦)".

كان عبد الحميد أفندى يلتقى كثيرا بأخيه مراد ويؤثره بفرط محبته من بين إخوته أجمعين(٢٧).

ولم يكن عبد الحميد مبذرا مثل أخيه مراد حيث كان "يوصف بأنَّهُ شخصية بخيلة ضنينة مغلول اليد، وكان استعماله لنعاله القديمة واحتفاظه بها موضوع حديث يدور داخل أروقة القصر وخارجه، كما اضطلع بمهارة وإتقان بتنفيذ قصره وتشييده بنفسه والذى بناه فى منطقة ماشلاق Maslak ، ناهيك عن أنه لم يكن مدينا قط فى أى وقت من الأوقات، أما زوجته وطفلاه فقد عاشوا جميعا حياة وادعة ساكنة فى معية عدد قليل جدا من الجوارى، وعلى حين كان أخوه مراد يقضى جل وقته سهرانا إما فى قصره الكائن فى منطقة بياجلو Beyaglu ، وإما فى قصره الموجود فى منطقة بيبك Bebek كان عبد الحميد يسهر فى صحبة عائلته، ومن ثم كان عبد الحميد يؤثر ويحب قضاء حياته ومعيشته داخل منزله وليس خارجه.

وهكذا فإن العلاقات المتداخلة مع الحرم السلطانى قد حالت دون دخوله فى دائرة الشائعات وكثرة القيل والقال(٢٨)".

---

(٢٦) المصدر السابق، ص٩-١٠ .

(٢٧) المصدر السابق، ص١٢ .

(٢٨) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد.

" كان عبد الحميد هو الوحيد بين جميع الأمراء الذى يعيش حياة خالية من الديون ومن التفاخر والمظهرية والتباهى. كما كان يتولى إدارة الشئون المالية ويشتغل بأعمال الأرض والزراعة فى مزرعته، يربى الضأن ويصنع مركب الرصاص الأبيض، حتى إنه كان يتكسب المال عن طريق المضاربات فى بورصة الأوراق المالية(٢٩) ". لم يكن لعبد الحميد أفندى فى وراثة العرش أول الأمر من أجل أخيه مراد الأول، ولم تكن عينه على العرش ومقام السلطنة، بل كان يحلم فى خياله أن يكون موفقا ناجحا فى حياة عادية مثله فى ذلك مثل أى إنسان. كان عبد الحميد طوال حقبة إمارته يجنح دائما إلى أن يكون مدخرا مؤثرا لم الشمل، وحالفه التوفيق فى أن يكون منضبطا منظما نزاعا إلى المكث فى حياة مستقرة غير متنقلة، كانت غايته الوحيدة تتمثل فى عدم جذب الأنظار إليه وعدم التماوج والوقوف دون حراك فى بعد متساو من القطبين ونعنى بهما "مراد الذى كان فى معية العثمانيين الجدد وسلطان عزيز المستمسك بالأعراف والتقاليد القديمة والمدافع عنها(٣٠)".

كان عبد الحميد يعرف الكثير عن أسرار جمعية العثمانيين الجدد، وكان لا يطلع السلطان عبد العزيز على أفكارهم وحقوقهم التى يطالبون بها أو إنزال العقوبة بهم، حتى إن عبد الحميد كان خبيرا مطلعا على ما آلت إليه أحوال عبد العزيز، وها هو ذا نامق كمال يكتب عن العثمانيين الجدد فى هذا الصدد قائلا:" إن الرجل الذى يرهبنا ويروعنا هو الأمير عبد الحميد، وبينما كنا نتحدث عن إقصاء عبد العزيز وتتويج مراد سلطانا على العرش، وكأننا نجلس معًا فى معية عبد الحميد أفندى، وإذا لم نضمه إلى صفوفنا ونحتويه فإنه والحالة هذه سرعان ما يفشى سر مبادرة العثمانيين الجدد. وعليه فقد كنا نتصرف بحذر واحتياط فى مواجهة عبد الحميد أفندى(٣١).

---

(٢٩) المصدر السابق، ص٣٠ .

(٣٠) المصدر السابق، ص٤٤-٤٥ .

(٣١) مدحت جمال قونتاى : نامق كمال بين ثنايا أحداث العصر وأناسيه، إستانبول ١٩٤٦ م، ص٢٥٧، وانظر كذلك: خواطر على أكرم بولاير، إستانبول ١٩٩١م، ص ٣٦٨ .

كانت كل حياة ولى العهد عبد الحميد أفندى فى أيام سلطنة أبيه عبد المجيد وعمه عبد العزيز وأخيه مراد الخامس، وعاش فى كل هذه الحقب السالفة الذكر، ثم انتقل بعد ذلك للتفكير مليا فى سلامة الوطن والأمة، وقد اعتلى عبد الحميد سرير العرش وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره وكان صاحب تجربة محتشدة متراكمة، ولديه معلومات متقنة بارعة أعانته على إدارة شئون الدولة بحنكة وحكمة واقتدار.

الفصل الثانى

جلوس عبد الحميد على العرش

كان السلطان عبد العزيز لسبب أو لآخر "ولا سيما عند دنو أجله سينأى عن العرش العثمانى، وسوف يحل محله فى وراثة العرش حينئذ ابن أخيه ولى العهد مراد الذى ستئول السلطنة إليه، ويكون الأمير عبد الحميد آنذاك ولى العهد، كان هذا المقام السلطانى متحققا عقب الموت، وذلك بموجب قواعد وراثة العرش السلطانى وقواعده، وشوهد بعد ذلك حدث من ثورة القصر التى حدثت فى يومى ٢٩، ٣٠مايو لسنة ١٨٧٦م، اضطلع بهذه الثورة العثمانيون الجدد المناصرون للدستور وفى معيتهم الوزراء الذين يضمرون الحقد الشخصى الدفين للسلطان عبد العزيز، وقد بدأ العثمانيون الجدد بصفة خاصة ينظرون إلى تطبيق النظام الدستورى وتحرير الأمة وإنقاذها، وهاهو نفس ما طلبوه من السلطان عبد العزيز، ولكن السلطان تصدى لهذا الطلب، ووقف فى مواجهته، وأخذ يمارس الضغط والاضطهاد على جميع العثمانيين الجدد.

وحينئذ أراد المؤيدون للدستور التزلف إلى ولى العهد مراد أفندى، وطلبوا إليه تحقيق آمالهم التى يصبون إليها عن طريقه. وإذا ما قبل ولى العهد إعلان الدستور، فإنه بهذا يكون قد بيَّن السبيل للسلطان عبد العزيز.

وفى تلك الآونة كان هناك نزاع ذو نفوذ وقوى واشتدت وطأته فى إستانبول بين كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا، وبات هذا النفوذ بمثابة قوى دافعة خارج هذا الإطار، وكان نفوذ الإنجليز وفرنسا مؤثرًا ضاغطًا من أجل تحطيم روسيا وتقويض نفوذها، ومن ثم

فقد رأت هاتان الدولتان ضرورة تصفية السلطان عبد العزيز وصدره الأعظم محمود نديم باشا، وأيدتا الثورة المتمردة ضد عبد العزيز، وكانت هناك ثورة أخرى من جمعية مسلحة مكونة من كل من: قائد الجيش حسين عونى باشا، والصدر الأعظم مراد رشدى باشا، ووزير العدل مدحت باشا، ورئيس مجلس الشورى العسكرى رديف باشا وقائد البحرية أحمد باشا، وقائد المدارس العسكرية سليمان باشا، وشيخ الإسلام حسن خير الله، وأمين الفتوى قرة خليل أفندى، وتحققت هذه الثورة ليلة ٣٠ مايو سنة ١٨٨٦م بسبب مظاهرات طلاب كلية العلوم، وتمت الاستعدادات الأولية لها فى صورة متعاقبة متتالية، وتم إقصاء السلطان عبد العزيز عن العرش، واعتلاه من بعده ولى العهد مراد.

مرض السلطان مراد

كانت بنية ولى العهد مراد ضعيفة واهية، كما كان يعانى كذلك من مرض نفسى عضال يتمثل فى إلحاحه على طلب الشيء فيدمنه حتى درجة المبالغة والإفراط، ولكنه أدرك مليا حال السلطان عبد العزيز وما آل إليه بعد الثورة العنيفة التى تعرض لها من تلك الجماعة المسلحة آنفة الذكر، وكان الاضطلاع بهذه الثورة قبيل يوم واحد من إقرارها، وأحيط عبد العزيز خبرا بالموقف، وساءت الحالة النفسية لولى العهد الذى فقد توازنه النفسى وانطوى على نفسه خشية من عقوبة عبد العزيز، ولما ذهب فى اليوم الرابع من جلوسه إلى الموكب الشعبى الذى يعقد للسلطان يوم الجمعة بمسجد أيا صوفيا كان فى حالة غير طبيعية بيد أنه لم يكن يشكو ألما من أى شيء فى أثناء خروجه[١]. ثم ما لبث أن بدت عليه أمارات سوء حالته شيئا فشيئا، وشرع من فوره فى تقبيل الوزراء ومعانقتهم، وبعد أربعة أيام من جلوسه على العرش ثقلت عليه علته وساءت حالته بسبب ما أصابه من هم وحزن إثر علمه بوفاة عبد العزيز[٢]. وكانت حادثة مقتل

(١) د.إسماعيل حقى أوزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلدز، نشر الجمعية التاريخية، أنقرة ١٩٦٧م،ص١١٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ١١٨ .

خليل عونى باشا من الأسباب التى زادت من تدهور حالته الصحية، وبات لا يستطيع الخروج إلى الموكب السلطانى يوم الجمعة[1]. ولما بلغت حالة مراد هذا الحد من السوء نقل بناء على وصية الأطباء من قصر (دولمة باغجة) إلى قصر(يلديز) حيث تولى علاجه طبيب رومى الأصل يدعى"قابوليون" Kapolyon، حيث اضطلع أول الأمر بعمل أى شىء من أجل علاج مراد المريض، وكان كل فعله يتمثل فى لصق سبعين علقة على عنق السلطان وخلف أذنيه كى تمتص الدم الفاسد من جسده[2].

وقد كان هذا العلاج خاطئا، لم ينفع فى علاج مراد الذى كان ضعيف البنية مما زاد فى وهن قوته وإنهاك عافيته، وبات مسهدا مؤرقا لا يغمض له جفن، وشرع يلقى بنفسه فى بركة الماء ويمتطى صهوة جواده بصورة عكسية، وهو يرفع عقيرته بالصياح قائلا لنفسه " إن الجند يغلبوننى ويشهرون السلاح فى وجهى".

وقد اضطلع كل من الطبيبين عاكف باشا والأرمنى قابوليون بتقديم أول تقرير طبى عن الحالة المرضية للسلطان مراد فى أول أغسطس سنة ١٨٧٦م، يفيد بأنه لا سبيل إلى شفائه أو تحسن حالته[3]، وتوالت الأحداث بعد ذلك تترى حيث جاء السفير الإنجليزى هنرى إيليوت Henry Elliot، وتدخل على الفور فى الأمر، وأوصى بضرورة علاج مراد على يد الطبيب النفسانى المشهور ليدس دورف leids dorff، وجىء بهذا الطبيب النمساوى إلى إستانبول، وجعل يتابع السلطان من كثب بيد أن محاولاته وجهوده ذهبت سدى، ولما بدأ عقل مراد يغيب تدريجيا هم الطبيب النمساوى من فوره بتقديم تقرير ذكر فيه أن السلطان لن تتحسن حالته ولا شفاء من سقمه[4].

---

(١) على حيدر مدحت، حياة مدحت باشا السياسية، مطبعة الاجتهاد، القاهرة ١٩٢٢، ص٨٢ .

(٢) أحمد صائب، تاريخ السلطان مراد الخامس، المطبعة الهندية، القاهرة ١٣٢٨هـ، ص ٢١٢ .

(٣) سر مرويل ستورى، ذكريات إسماعيل كمال بك، لندن، ص ١١٧ .

(٤) حسن حفظى، السلطان مراد الخامس وأسباب حالته المرضية، إستانبول ١٣٢٦هـ، ص١٦ .

كان مرض السلطان مراد يجعله يتوارى عن الخلائق بصفة مستمرة. فهو لا يستطيع المشاركة فيما يسمى بطقوس الموكب السلطانى الذى يعقد عادة فى مسجد أبى أيوب الأنصارى، وبدأ تخلفه عن هذه العادة المألوفة يثير فضول الناس وانشغالهم عليه.

أما وسواس الخلائق وشكهم فكان يتمثل فى أنه ربما ظهر خُراج فى جسد السلطان حال دون ارتدائه لثيابه، وإذا ما نقه من علته وتماثل للشفاء فلسوف يخرج لحضور الموكب السلطانى، بيد أن الحقيقة المستترة ما لبثت أن أفصحت عن نفسها فى تلك المقالة التى كتبها طبيب السلطان قابوليون فى إحدى الصحف الفرنسية، وكذلك التصريحات الصحفية التى أدلى بها السفير الروسى فى إستانبول الجنرال"إيجناتيف" الذى صرح لدى مغادرته إستانبول قائلا"حانت عودتى إلى روسيا إذ لم تعد ثمة ضرورة لبقاء السفراء فى إستانبول. فحكومة الدولة العلية العثمانية قد أصابها الخرف وفساد العقل. وسلطانها أصابه مس من الجنون"(٥).

انتقال ولى العهد عبد الحميد إلى المبادرة بالحركة الفعالة

كان ظهور مرض السلطان مراد قد أحيا الأمل فى نفس ولى العهد عبد الحميد كى يضطلع بدوره فى اعتلاء العرش، بيد أنه بدأ يسلك سلوكا تشوبه الحيطة والحذر حتى لا يتعرض طوال فترة جلوسه على العرش إلى التردى فى هاوية، وفى هذا يقول " لم أكن أريد فى يوم من الأيام أن أكون متهما بتدبير مؤامرة ضد أخى الأكبر الأثير فى نفسى، ولم أكن أبتغى التحرك على مهل من مكانى مهما كان الأمر مادام الشىء المقدر لم يحن حينه بعد(٦)".

(٥) حسين حفظى، ص ٢٠ .

(٦) جريس، ص ١١ .

فى تلك الآونة بدا كل من مدير دار الأسلحة والذخائر داماد محمود باشا ورئيس الشورى العسكرية رديف باشا يبذلان جهدهما من أجل تعضيد عبد الحميد وشد أزره. وتفيد إحدى الروايات "أن عبد الحميد وعد فى حال اعتلائه العرش أن يعين محمود باشا رئيسًا للديوان السلطانى ورديف باشا قائدا للجند[٧]".

وقد أشاع مؤيدو عبد الحميد وأنصاره فى إستانبول كلها أن المرض قد تمكن من مراد الخامس وأمسك بتلابيبه ولا سبيل إلى علاجه، ألبتة، ولأجل هذا نهض طلاب المدارس بالتحرك الفعال لتأييد عبد الحميد ومناصرته[٨].

وعلى حين كان داماد باشا يمعن النظر مليا متحريا فى أحوال الوزراء وشئونهم، كان رديف باشا يقول"لو عهد الوزراء إلى تطويل وتمديد أمر جلوس عبد الحميد فإنه سيضطلع بهذا الأمر بنفسه فى معية الجند[٩]".

ثم زار محمود باشا ورديف باشا كلاهما محمد مدحت باشا ورشدى باشا وقالا لهما:"علمًانا كيفية حل وتيسير هذا الأمر الذى نحن بصدده. وفى ذلك اليوم أحيط السفراء جميعهم علما بأن السلطان بات مجنونا، ولا يجوز شرعا وعقلا بقاؤه على سدة العرش، وإذا لم تنفذا هذا الأمر فلسوف نعمل نحن على جلوس فخامة عبد الحميد على سرير العرش بمساعدة سفراء الدول العظمى"[١٠]. ومع مرور الوقت تولدت رغبة عارمة فى نفوس الخلائق مؤيدة لعبد الحميد ومظاهرة له.

---

(٧) على حيدر (مدحت)، اللائمة والاستطراد، المطبعة الهندية، القاهرة ١٩٠٦، ص٣٢ .

(٨) لطفى سيماوى، الثورة، إستانبول ١٣٣٦هـ، ص ٨٩ .

(٩) المصدر السابق .

(١٠) على حيدر : اللائحة والاستطراد ص٢٣، محمد زكى باك ألين : آخر الصدور العظام ورؤساء الوزارة، ج١، إستانبول ١٩٥٨م،ص٣١٣، محمود جلال الدين باشا، مرآة الحقيقة، إستانبول ١٩٨٣،ص ١٦١ .

لقاءات عبد الحميد من أجل اعتلاء سرير العرش

كان هناك جزم قاطع لا يقبل الشك فى تقرير الطبيب الذى أقر بعدم تحسن صحة عبد الحميد واسترداد عافيته، وبدأ الوزراء من فورهم تستيقظ فى نفوسهم فكرة اعتلاء عبد الحميد العرش وإحلاله محل أخيه.

كانت حالة الدولة متردية، وبلغت أدنى حد لها من السوء وفساد الحال فى الداخل والخارج على حد سواء، وانجرفت الأمة تجاه هوة سحيقة الغور بسبب الخسارة الفادحة التى أصيبت بها فى منطقة البلقان، وتجلت هذه الخسارة بجلاء قبيل جلوس عبد الحميد على هذه الشاكلة سالفة الذكر، "فهذا سلطان عاجز دون حكومة، وحكومة هى ولا جرم موجهة من قبل السفارة الإنجليزية، إنها ولا ريب إمبراطورية يحيط بها الأعداء السلوفيون من كل جانب، يحدق بها الخطر من كل جانب، معرضة للهجوم من القوات الغربية التى تكيد لها وتتربص بها الدوائر"(١١).

إن علة مراد الخامس لا سبيل إلى البُرء منها، ناهيك عن الخسائر ثقيلة الوطء التى تردت الأمة فى هاويتها، ولا سبيل ألبتة إلى تأجيل أمر اعتلاء السلطان.

كما أن أنصار الدستور ومؤيديه يُحكمون قبضتهم على أعنة الأمور فى البلاد، ومن ثم فإنهم أرادوا أن يعرفوا من ولى العهد أنه سيعلن الدستور أو يمتنع عن ذلك إذا ما استمرت الحالة الصحية لمراد دون تغيير، نعم لقد أرادوا الاطمئنان من عبد الحميد على مستقبل الدستور، كان سلوك السفير الإنجليزى هنرى إليوت آنذاك يثير العجب والاستغراب، وكان مؤيدو الدستور وأنصاره والحكومة موجودين جميعا داخل إطار الوحدة الفكرية مع السفير الإنجليزى.

ولما أصبحت حال السلطان مراد الخامس مطردة مستمرة فى أجندة الحياة اليومية، أحس أنصار الدستور بضرورة تبنى فكرة السفير الإنجليزى، وسرعان ما قام

---

(١١) جريس، Grece ، ص١٠ .

الصدر الأعظم رشدى باشا بمقابلة السفير هنرى فى يوم ٢٥ أغسطس لسنة ١٨٧٦م وفسر عبد الحميد هذه المقابلة على هذا النحو قائلا"إن إنجلترا قد تخلت عن أخى الأكبر وأسقطته من اعتبارها"(١٢).

وفى اليوم التالى أرسل ولى العهد عبد الحميد صديقه الإنجليزى طوسون ليمثل بين يدى السفير الإنجليزى ويخبره أنه إذا ما اعتلى العرش فإن أفكار الحكومة الإنجليزية ستكون فى ذهنه، وسيعمل على تنفيذها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً(١٣).

أما هنرى إليوت فقد تحدث عن هذه المسألة فى مذكراته قائلا"قطع عبد الحميد العهد على نفسه بتحقيق الوعود للإنجليزى المسمى طومسون فى حال اعتلائه العرش، وإن التلميحات التى ألمع بها لإعلان الدستور ستكون بمثابة أهمية عظمى لتوثيق عرى الصداقة مع الإنجليز وخطب ودهم"(١٤).

إن إليوت يبين بجلاء أنه لا يصدق المعلومات التى ساقها طوسون ولا يعول عليها، ثم يكتب فى هذا الصدد قائلا:"بعد أن تسنى لى تقويم كل المعلومات التى حصلت عليها فى حق عبد الحميد ومنها ما يتصل بآرائه وأخلاقه، وهى معلومات أمدنى بها بعض الإنجليز لإمعان النظر مليا فى الموقف الذى كان عليه عبد الحميد، وبعد كل هذه الآراء يتبين لنا أن ما حدث قد أثار فكرة فى نفس عبد الحميد تتمثل فى أن ستكون مشكلة فى حالة إجبار عبد الحميد إلى قبول ما يسمى بمجلس المبعوثان(١٥).

---

(١٢) جريس، ص ١٣ .

(١٣) جين هاسليب، Jean Haslep مع الجوانب المجهولة لعبد الحميد، ترجمة، قورو أوغلو: إستانبول ١٩٦٤م، ص٩٥-٩٦ .

(١٤) هنرى إليوت : أهو انتحار أم قتل ؟ واقعة السلطان عبد العزيز. إستانبول، ص٣٩-٤١ .

(١٥) المصدر السابق، ص ٤٢-٤٤ .

أما عبد الحميد فقد اضطلع بإذاعة دعاية بثها بين ظهرانى الشعب قبل حين من اعتلائه العرش تدور حول اقتراب موعد إعلان الدستور. وقد ناقش عبد الحميد هذه الفكرة مع كل من ضيا باشا ونامق كمال، وهما من العثمانيين الجدد، وذلك فى اللقاء الذى جمع بينهم[١٦].

أسفرت كل التطورات المطردة عن ظهور فكرة التقاء عبد الحميد بالوزراء وتقربه منهم، "ومع كل هذا فإن مدحت باشا قد حالفه التوفيق فى الترقب والانتظار مدة أطول مما جعله يرفض طلبات كثيرة لمقابلة عبد الحميد نفسه، بيد أنه اضطر اضطراراً إلى قبول هذا اللقاء نزولا على إصرار الصدر الأعظم رشدى باشا، وعقد هذا اللقاء فى مزرعة "ماشلاق" التى كان عبد الحميد يقيم بها فى ذلك الإبان[١٧]".

بيد أن هذه المقابلة أثارت حوافظ حكومات وسفراء الدول العظمى، ولم يتسن لهؤلاء السفراء تقديم أوراق اعتمادهم رغم مرور ثلاثة أشهر على جلوس مراد الخامس، ولما علموا بمرض السلطان مراد ما انفكوا يقولون " نريد رؤية سلطان عاقل أمام ناظرينا ". وهاهو ذا ابن مدحت باشا يكتب فى السطور الآتية ما يتصل بالقرارات التى أقرت فى أثناء اللقاء بين ولى العهد وكل من مدحت باشا ورشدى باشا فى مزرعة ماشلاق، يقول ابن مدحت باشا: أولا: كان هناك إعلان للقانون الأساسى والدستور دون أدنى تأخير قط، ثانيا: الوزراء مسئولون من أجل عدم التدخل فى شئون الدولة والتحرك بصورة تجعلهم مختارين نوى حرية مطلقة فى الجهر بأفكارهم وآرائهم.

ثالثا: العمل على استمرار كل من سعد الله وضيا باشا ونامق كمال فى وظائفهم التى كانت مسندة إليهم من قبل إبان عصر مراد الخامس[١٨] أما عثمان نورى الذى كان مؤيدا ومؤازرا لتلك الوعود آنفة الذكر فيكتب بدوره فى هذا الصدد قائلا:"إن

---

(١٦) لطفى سيماوى، ص٩٠-٩١ .

(١٧) باك آلين، ج١، ص٣١٤ .

(١٨) على حيدر، الحياة السياسية لمدحت باشا، ص١٨٧ .

عبد الحميد قبل طواعية تعيين كل من ضيا باشا ونامق كمال فى هيئة الديوان السلطانى"[19].

وإذا نظرنا مليا فيما كتب عن لقاء عبد الحميد بكل من مدحت باشا ورشدى باشا وجدنا أنه لم يسع بنفسه إلى طلب اللقاء بهما أى وقت من الأوقات. وأن أول طَلَبٍ لِلِّقاءِ بدر من كليهما.

وتم عقد لقاءين سريين مع مدحت باشا، وفى أول لقاء لعبد الحميد بمدحت باشا كلف الأخير ولى العهد عبد الحميد بتولى منصب السلطنة المؤقتة بسبب مرض مراد الخامس إلى أن يبرأ من علته ويسترد عافيته، بيد أن عبد الحميد رفض هذا الطلب قائلا "إن هذا لم يحدث من قبل فى أعراف آل عثمان وتقاليدهم، ولا سبيل إلى وجود إمامين اثنين فى الإسلام حسبما تقضى به الشرائع و القوانين الإسلامية"[20].

لماذا كان مدحت باشا يصر بقوة على مراد الخامس؟ يفسر عبد الحميد هذا بقوله " إن أخى الأكبر متسامح عاجز خائر القوى، وهذا ما يصادف هوى فى نفس مدحت باشا، وإن الاستمساك به على عرش السلطنة على حالته التى هو عليها يجعل السلطة العليا ضعيفة عاجزة، ولا يملك حينئذ إلا قول: آمين، وكانت إنجلترا ضد هذا أيضا، مما اضطر مدحت باشا إلى أن يقر اللقاء بى"[21].

أصبح ولى العهد عبد الحميد مدركا تمام الإدراك بأن ثمة مهمة عظمى تنتظره، يقول عبد الحميد "لقد كنت مضطرا إلى إيقاف عجلة التاريخ الدوارة التى لا تعرف المرحمة أو الشفقة، كل هذا من أجل حماية الإمبراطورية والذياد عن حياضها والعمل على إصلاح حالها وتعمير ما تخرب منها كى تكون فى صورة أكثر رونقا وبهاء.

---

(١٩) عثمان نورى، عبد الحميد الثانى عصره وسلطنته، ج١، المطبعة الخيرية، إستانبول ١٣٢٧هـ، ص٩٦ .

(٢٠) جريس، ص١٣-١٤ .

(٢١) المصدر السابق، ص١٤-١٥ .

ومهما يكن هذا الأمر شديد الخطورة فإننى قررت من فورى الاستمساك بتلابيب الفرصة التى قدمها مدحت باشا، ومهمتى كانت تناديني إليها وإرادتى كانت تدفعنى وتسوقنى إلى ذلك[٢٢].

كان لقاء مدحت باشا بعبد الحميد وحيدا قائما بنفسه، ثم عقد اللقاء الثانى فى معية الصدر الأعظم رشدى باشا، وتم فى هذا اللقاء الاتفاق مع عبد الحميد على الجلوس على العرش فى مقابل إعلان الدستور.

وبعد انتهاء اللقاء الذى عقد بين عبد الحميد وكل من مدحت باشا ورشدى باشا قال عبد الحميد لقول آغاسى راسم بك محافظ سلانيك: "لقد جاء كلاهما إلىّ بخصوص المرض الذى ألم بأخى السلطان مراد، ثم سألانى قائلين: أى شكل من أشكال الحكومة تفضل؟ الدستور أم الحكم المطلق المستبد (الأتوقراطية المطلقة)؟

فأجبت قائلا: "إن إمبراطورية النمسا قد ذهبت إلى بلاد المجر، ولبست فوق رأسها قبعة المجر، وأصبحت بلاد المجر كائنة وتكونت فى هذا المكان وذهبت إلى النمسا"، وكان هدفى من ضرب هذا المثال أن قبطان السفينة يكون بحسب الحالة التى عليها إذا ما أسندت إليه قيادة السفينة وأصبح قائدا لها، وعندما أنتقل أنا إلى موقع القائد سوف يكون لدى الاقتناع الكامل بشكل نمط الإدارة الذى يضمن سلامة الدولة، وساعتها سوف أختار هذا النوع من الحكم، بيد أن مدحت باشا ورشدى باشا كليهما لم يقتنعا بردى عليهما، ولا جرم أنهما لم يُشعرانى بذلك، بيد أنى فهمت هذا جيدا، وتوجب على أن يكون رأيى أكثر وضوحا وجلاء، ولهذا فإنى أضفت هذه الكلمات: إن اقتناعى الآن يتمثل فى شكل دستور مشروع لأن كل شيء فى إدارة الحكومة المطلقة يكون بطريقة أو بأخرى راجعا إلى مسئولية الحاكم نفسه، فالوزراء وأهل الحل والعقد لا يقبلون تحمل المسئولية على كواهلهم على الإطلاق، وليس الأمر كذلك فى الحكم بالدستور؛ إذ يظل الحاكم متحملاً أدنى حد من المسئولية، وتكون المسئولية برمتها واقعة على عاتق الوزراء.

---

(٢٢) المصدر السابق، ص٢٠ .

وضحكت بعد هذا القول، ثم أردفت قائلا: "لتكن هذه دعابة، ثم قلت لا أدرى فلربما لا يصادف هذا هوى فى نفوسكم، ثم ضحك كلاهما، ثم سألتهما قائلا : تفوها ولأنظرن فى الأمر، ما رأيكما فى هذه المسألة ؟"

كان رشدى باشا قد أفصح عن رأيه فى وضوح وجلاء حيث قال : "سوف لا يكون لدينا دستور قائم فى مكانه الصحيح"[٢٣].

ويكتب أحد[٢٤] الأطباء الخصوصيين لعبد الحميد ويدعى عاطف حسن عن حال عبد الحميد بعد اللقاء الذى عقد فى مزرعة ماشلاق، وعما وعد به كلا من مدحت باشا ورشدى باشا بشأن إعلان الدستور.

ويقول هذا الطبيب "فى أثناء هذا اللقاء خلع ولى العهد عبد الحميد زر كم قميصه، وعلقه فى كم مدحت باشا على سبيل المداعبة والملاطفة"[٢٥].

وبعد انتهاء هذا اللقاء قال مدحت باشا ورشدى باشا لعبد الحميد إنهما ينتظران بعض الوقت بسبب مرض مراد الخامس، وهل سيعلن نفسه سلطانا حينئذ؟[٢٦].

ويستشف مما كتبه كل من أحمد صائب (من جماعة تركيا الفتاة) وعلى حيدر كليهما أن مدحت باشا ومعه زمرة كثيرة من الناس ينظرون إلى ولى العهد عبد الحميد بالشك والارتياب رغم ما وعد به عبد الحميد مدحت باشا أنه بصدد إعلان الدستور[٢٧].

---

(٢٣) ضيا شاكر، الأيام الأخيرة لعبد الحميد (ذكريات راسم بك الذى كان واليا لعبد الحميد فى سلانيك. إستانبول ١٩٤٣م، ص ٢٢٨ .

(٢٤) الأستاذ الدكتور ضيا قرال، التاريخ العثمانى -ج ٨، مجمع التاريخ التركى، نشر أنقرة، ١٩٨٢م، ص٢١٥(نقلا عن الخواطر المحفوظة للدكتور على حسين).

(٢٥) محمود كمال إينال، ج١، ص ٣٩٩ .

(٢٦) لطفى سيماوى، ص ٩٤ .

(٢٧) أحمد صائب، تاريخ مراد الخامس، ص٢٣٩ .

جلوس عبد الحميد على العرش

أقـــدم كـل مـن مـدحـت باشـا ورشدى باشا على اتخاذ قرار حاسم بجلوس عبد الحميد على العرش بسبب الحالة الصحية المتدهورة التى آل إليها مراد الخامس، ورأيا ضرورة التحرك على عجل بغية إقناع الوزراء بهذا الأمر، ومن ثم جمع مدحت باشا مجلس الوزراء وشرح لهم حالة السلطان مراد وخاطبهم قائلا: "يتوجب العمل على تغيير السلطنة وتبديلها سواء أكان هذا من الناحية الشرعية أم من ناحية تسيير أمور الدولة، إن الدول تجبرنا على عقد صلح مع بلاد الصرب، وإن عقل وحس سلطاننا صاحب الحق فى عقد الصلح ليسا على ما يرام، بيد أن الحاضرين أجابوا قائلين فجأة: إن تغيير السلطنة وتبديلها سيتم طوعا أو كراهية ".

ويروى محمود جلال الدين باشا فيما كتبه إن كل هؤلاء سيكونون بمثابة شاهد عيان على هذا التغيير، وحينئذ بكى الصدر الأعظم رشدى باشا قائلا: ماذا عساى أن أصنع؟ هكذا يكون حكم القضاء والقدر، فقد كان يريد إجراء مراسم الإقصاء عن العرش(٢٨).

دعى إلى مجلس مراسم الجلوس على العرش ثلة من الوزراء وأكابر القوم ووجهائهم تحت قبة قصر طوب قابى فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦م، وجرت فى هذا اليوم كذلك مناقشة القضية الصربية التى كانت من أسباب انعقاد المجلس فى ذلك الإبان، وأقبل عبد الحميد أفندى فى معية داماد باشا سالف الذكر وظل مترقبا فى جناح خرقة السعادة(٢٩).

بدأ رشدى باشا الحديث الأول فى المجلس فقال: "أيها السادة كان مراد الخامس سلطانا ذا خلق ملائكى، بيد أنه بات فريسة للمرض بعد خمسة عشر يوما

---

(٢٨) جلال الدين باشا، ص١٦٢ .

(٢٩) خرقة السعادة : هو اسم لخرقة النبى صلى الله عليه وسلم محفوظة داخل صندوق فضى بقصر طوب قابى. (المترجم)

من اعتلائه العرش، وهذا يعنى أنه فقد القدرة على التفكير، ولم يُجْد معه العلاج الذى أخذه نفعا، والشريعة تقضى بوجوب تعيين واحد غيره إذا لم تتحسن حالته ويذهب عنه سقمه، فماذا عسى أن تقولوا فيما يوجبه الشرع فى هذه الحالة؟"(٣٠).

أخذ الكلمة بعد ذلك مدحت باشا حيث طلب مبايعة ولى العهد عبد الحميد بعد أن عرض على الحاضرين ما أثبته تقرير الطبيب الذى أفاد بأن صحة مراد غير قابلة للشفاء، وطلب الفتوى من شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى(٣١)، ثم تلا الفتوى التى أعدها أمين الفتوى قرة خليل أفندى أمام المجلس وتضمنت ما يأتى: "إذا أصيب الإمام بجنون دائم فلا سبيل إلى انتظار شىء من هذه الإمامة، أيستطيع القيام بأمور هذه الإمامة ؟ الجواب الله أعلم"(٣٢).

وعقب قراءة الفتوى التى تشرح حال مراد الخامس أقبل كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ومدحت باشا حيث قدموا الفتوى إلى ولى العهد عبد الحميد عارضين عليه ما تقرر بشأن الإتيان به إلى مقام الخلافة بإجماع الآراء، ثم دعوه ليمثل من أجل البيعة واعتلاء عرش السلطنة العثمانية أمام باب السعادة(٣٣).

وأطلقت المدفعية واحداً ومائة طلقة ابتهاجاً بإعلان جلوس عبد الحميد الذى توجه إلى خرقه باب السعادة وتضرع فيها بالدعاء، ثم توجه بعد ذلك من قصر طوب قابى سراى بطريق البحر إلى قصر "دولمة باغجة " وسط تهليلات الجند والشعب وتصفيقهم ومباركتهم له، ثم حيته البحرية بطلقات قذائف المدافع، وبعد ذلك بايعته طائفة أخرى من الوزراء فى قصر " دولمة باغجة"، ثم عقد الاحتفال السلطانى فى اليوم السادس من

---

(٣٠) جلال الدين باشا، ص ١٦٢ .

(٣١) لطفى سيماوى، ص ١٠٢ .

(٣٢) لطفى سيماوى، ص ١٦٢، وانظر: ستورى story، ص ١١٨ .

(٣٣) محمد جلال الدين باشا، ص ١٦٢ .

جلوسه على العرش واحتشد لمشاهدته قرابة سبعمائة ألف شخص. ومُلِئَ البحر بالبواخر والقوارب حتى كانت تشرف على الغرق فى لجته، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال وطقوسه قدم السفراء إلى السلطان أوراق اعتمادهم.(٣٤)

ويستقبل الناس جلوس عبد الحميد بالبهجة والحماس مقارنة بجلوس مراد الخامس، وسبب هذا أن جلوس عبد الحميد حدث بثورة مدنية مباغتة، ويوضح هذا عبد الحميد بقوله:" إن المراقبين يمكنهم أن يذهلوا ويدهشوا لهذا، ويتسنى لهم تحليل الإدارة الجديدة وتفسير سلوكها بالقبح والسوء، أما أنا فلم أندهش ولم أحزن بسبب ما حدث؛ لأن الناس فى تلك الأزمنة المتأخرة لم يبحثوا عن الحب والإعجاب فى أى وقت من الأوقات، كما أنهم ارْتَجُّوا رجَّة عنيفة بالأحداث المأساوية التى أشعرتهم بالتحفظ والخجل والسخط والغضب فى مواجهة الحكام الجدد وولى العهد المجهول.

(٣٤) أحمد مدحت، أسى انقلاب، جـ٢٢، إستانبول ١٢٩٥، ص ١٦ .

الفصل الثالث

إعلان المشروطية (الدستور) ومؤتمر إستانبول

أبدى السلطان عبد الحميد الثاني مجاملة كبيرة وتلطفا زائدا لكل من مدحت باشا ورشدى باشا إبان الأيام الأولى من جلوسه على العرش، وذلك بسبب مؤازرتهما إياه في اعتلاء سرير العرش، وقال لهما إني مسرور من مباركات الوفد الذي جاء من أجل البيعة فى قصر" دولمة باغجة " ثم أضاف قائلاً: " نحن فى مسيس الحاجة إلى الاتفاق ورأب الصدع من أجل إصلاح حال دولتنا، وأنا أرى أن الاتفاق يفوق كل قوة تُبْذَلُ، ويبدأ هذا الاتفاق من هيئة الوزراء، ويجب أن يَرسخ ويتوطد فى ذهن كل شخص على مستوى كل الطبقات والمستويات والأصعدة.

ويتوجب على أمور الدولة وشئونها أن تتوجه إلى هذه النقطة ولا تحيد عنها قيد أنملة. إن ترتيب هذا المجلس وتنظيمه لا سبيل إلى زواله بين ظهرانيكم، وذلك بغية تأسيس وتعضيد العلاقة الوثقى لهذا الاتفاق، وإننى أتمنى راجيا أن تستقبلوا نيتى وعزيمتى استقبالا حسنا، ولأجل هذا فإننى آمركم وأوصيكم أن تثبتوا قضية الاتحاد والتعاضد والتآزر بقدراتكم وكفاءتكم فى شكل دائب مستمر غير منقطع ألبتة"[(١)].

إن خطاب السلطان عبد الحميد قد أهوى الأمة فى لجة أمل جد عظيم وأيقظ الفكر من سباته ومهد السبيل إلى إعلان الدستور (القانون الأساسى)[(٢)].

---

(١) أحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص ١٣ .

(٢) أحمد مدحت، ج٢، ص٧ .

أمـا السلطـان الذى يقـيم فى قـصـر " دولمة باغـجـة " فـقـد أصـبـح "رجل شـعب بحـذافـيـره، وذلك فى الأيام الأولى من جلوسـه على العـرش. فـالسلطـان مـوجـود بين ظهرانى الشعب، يجلس فى الموضـع الذى يجلسون فيه ويقيم الصـلاة فى معيتهم ويرى كل شخص منهم بنفسه.(٣)

بدأ السلطان عبد الحـميد عـقب جلوسه على العرش فى الاضطلاع بـالتعـيينات الأولى؛ بغية تشكيل الوزارة والوظائف العليا للدولة، وبادر فى هذا الأمـر بعـزل رئيس الجند عـايدى باشـا وأحل مـحله رديف بـاشـا، وعين سـعـيـد بك على رأس الديوان السلطـانى (أصبح فيمـا بعـد سعـيد باشـا الصـدر الأعظم ست مـرات متتـاليـة)، وعين سعيد باشا الإنجليزى فى مستشارية الديوان السلطانى.

انزعج مدحت باشـا من التعيينات وأراد أن يسحب القرار من السلطان طالبا إليه تعيين كل من: سعد الله وضـيا باشـا ونامق كمال إبراراً للوعد الذى أخذه على نفسـه. وتلقى مدحت باشا ردا على طلبه، ولكن لماذا لجأ عبد الحميد لهذه الطريقة؟

إنه يتولى بنفسه شـرح هذا بقوله: " إن مـرافقى مدحت باشـا يريدون مـراقـبتى جيدا، فهل يا ترى سيجبروننى على قبول مـا أرادوه بالقوة ؟ هل كنت سـأفقده دون أن ألمسه بيدى، كلا لقد انحنى أمامى وأحنى عنقه لى راغبا مشتاقا"(٤).

دام الحال على مـا كان عليه أيام سلطنة عبد العزيز، حيث أقال عبد الحميد أحمد باشـا من قيـادة الأسطـول البـحـرى وأسند إليه وزارة البـحرية، ثم عـاد لينحيه من هذه الوظيفة ويعينه واليا على ولاية " روسجوك"، أما مراد الخامس مريض النفس فقد نقل من قصر يلديز ليستقر به المقام فى قصر "جراغان".

---

(٣) إينال: ج٣، ص ٢٧٨ .

(٤) جريس، ص ١٠٧ .

كل هذه الإجراءات التى أكد عليها السلطان بدأت تُفسر وتحلل فى صورة فحواها أن عبد الحميد أخذ على عاتقه أن يكون أول شىء يضطلع به هو أن يمسك بزمام الأمور فى قبضته ويَهيمن على شئون الدولة ويقلص من نفوذ الباب العالى وهيمنته(٥).

استمرار الجدل حول الدستور وانتشار وذيوع صيت جلوس خط همايون

كان أنصار الدستور وأعوانه فى معية العثمانيين الجدد، تلك الجمعية التى تبدل حالها إثر الضربة العسكرية التى سددها لها عبد العزيز.

ثم أثيرت مسألة إعلان الدستور التى وعد بها قبل حين ولى العهد مراد من أجل اعتلاء عرش السلطنة، بيد أن مرضه أدى إلى ترك إعلان الدستور رهن المماطلة والتأخير، ولم يكن التأثير مقصورا على مرض مراد فحسب، بل تجاوزه إلى غيره من الأسباب المتمثلة فى وجود زمرة من الوزراء من غير المؤيدين للدستور تؤخر هذا الإعلان وتعوقه، وذلك باستثناء مدحت باشا على وجه الخصوص.

عقدت الجمعية الثورية أول اجتماع لها عقب جلوس مراد الخامس على سرير العرش، وبدأت فى مناقشة الموقف، واضطلع رشدى باشا بتوضيح الآراء والأفكار ثم قال: " إن الحصول على فائدة مرجوة عن طريق جمع الأقوام المتناقضة مع بعضها البعض والمختلفة المشارب والمذاهب يعد ولا ريب ضربا من ضروب الخيال، وإن القوة المعنوية للسلطان ستكون عندنا هى العروة الوثقى لانتظام حال الأمة والحيلولة دون فرط عقدها ". وقد صدق على هذا الرأى وأيده وأجازه كل من: قائد الجند حسن عونى باشا ونامق كمال وشيخ الإسلام وأمين الفتوى، بينما رفضه كل من مدحت باشا وسليمان باشا(٦).

---

(٥) باك آلين، ج١، ص٣١٧ .

(٦) محمد ممدوح باشا، فوران أزمان، إستانبول، ١٣٢٤هـ، ص٥ .

واضطلع هذا الأخير بأعنف وأشد توبيخ وتعنيف حيث خاطب رشدى باشا قائلا: "يا حضرة الباشا إن تغيير السلطنة لم يكن من أجل المحافظة على الاستبداد فى الوقت الراهن، وعلى كل شخص الاضطلاع بتقديم هذه التضحية وروح الفداء من أجل تأمين مستقبل الأمة"، وكانت هذه القالة سببا فى أن أسرع من فوره بعزل سليمان باشا من نظارة المدارس العسكرية وأبعده عن إستانبول وعينه قائداً لمنطقة "هرسك"(٧)، وقد اعترض جميع أعضاء المجلس إلا مدحت باشا على عبارة "شروطيت" التى أطلقها مراد الرابع على" جلوس خط همايون"(٨).

وهكذا اعترض سبيل إعلان المشروطية عقبة كأداء، واكتنفه مصير مجهول بات مستمرا حتى جلوس عبد الحميد على العرش، وعمل أنصار الدستور مثل مدحت باشا وغيره من العثمانيين الجدد على تقريب هذا المصير والمناخ المجهول من ولى العهد عبد الحميد؛ لأنهم عقدوا الأمل عليه في أن يكون منفذا لوعده الذى قطعه على نفسه ويعلن الدستور.

لم يأت جلوس عبد الحميد بأية بادرة جديدة تتصل بإعلان الدستور، وأخذ عبد الحميد نفسه يعجل فى إثارة المناقشات والجدل حول الدستور، وتفيد كتابات أحمد مدحت أفندى أن ثمة طائفة من العلماء كانت تعتبر القانون الأساسى بمثابة بدعة ضالة، بينما ليس كذلك عند طائفة أخرى .

أما أنصار القانون الأساسى ومؤيدوه فاجتمعوا حول رأيين اثنين فى هذه المسألة؛ الفريق الأول يتحدث عن هذه المسألة على اعتبار أن القانون الأساسى لم يكن بالشىء المقدم من قبل الدولة، بل هو شىء مأخوذ من الأمة، وهم يريدون أن يأتى هذا الطلب من الأمة، والفريق الآخر هم أنصار أن يؤتى بهذا القانون الأساسى من الأعلى

---

(٧) سليمان نظيف، الصديقان، إستانبول ١٩٢٥م ، ص٥٢ .

(٨) مدحت باشا، تبصرة العبرة، إعداد على حيدر مدحت، مطبعة الهلال، إستانبول ١٣٢٣هـ، ص١٧١ .

أو من القمة، ويتوجب على الدولة أن تكون هى صاحبة إظهار هذا الدستور وعليها أن تنعم به على الشعب(٩).

ولقد بات أنصار الدستور فى تلك الآونة مشغولين بأمور الدولة مواظبين على ممارسة ضغوطهم على الشعب والإدارة، كما داوم القسم الأكبر من الوزراء على معارضتهم للدستور.

وهكذا فإن الأعين كلها فى ظل هذا المناخ قد أخذت تدير بصرها نحو "خط همايون" ونشر هذا الخط الذى سلف ذكره فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦م. وكانت مسألة الدستور هى سبب تأخير هذا الخط.

وقد ورد فى المسودة التى أعدها مدحت باشا " ويأتى قبول أصول دستور الدولة العلية وقواعدها، وتأسيس مجلس المبعوثان وتغيير اصطلاح الصدر الأعظم إلى باش وكيل – رئيس الوزراء)، وإخراجه من سيطرة السلطان وسطوة نفوذه.

وقد تبوأت هذه الأشياء سالفة الذكر مكانها فى بنود هذا الدستور، كما تم إخراج هذه التعبيرات من خط همايون نزولا على رغبة السلطان، ويوضح أحمد مدحت أفندى نصير الدستور تلك المكاسب التى تحققت على هذا النحو فيقول" إذا كان خط همايون قد أعلن بصورة مركزة هذا اليوم، فمن المحتمل أن تكون الأفكار العامة لم تتأكد بعد بسبب عجزها عن إدراك المعنى الحقيقى لكلمة " مشروطيت ".

وإن الموضوعات التى كانت تناقش ما يتصل بإدارة شئون الشعب – ومنها تعبيرات مثل : مجلس الأمة والمجلس العمومى وأصول الدستور وقواعده – لم يعْظم استعمالها بين الناس، حتى إن لفظ "القانون الأساسى" لم يكن قد بدأ استخدامه بعد، كما أن قواعد الدستور ومبادئه فى رأينا لم يرد ذكرها قط بين الآمال والأمانى العامة الموجودة.

---

(٩) أحمد مدحت، ج٢ – ص١٨ .

ورأينا فى بعض هذه الكتب أن هذا اللفظ "مشروطيت" يستخدمونه بالطريقة الأوروبية من أجل تحديد الفرق الجوهرى لمعنى استقلال الباب العالى فى كل من الملكية والإمبراطورية المقرونين بالدستور.

أما الأمة العثمانية فالشأن مختلف، لأننا إذا بحثنا عن العلاقة بين مقام حكامها وبين الحكام الأوروبيين ألفينا أنه قد دارت طائفة من المناقشات السابقة التى تتمحور حول معنى كلمة خط همايون الذى اعتادت الإمبراطورية إيجاده فى الأذهان بصورة دائمة، ويجب أن يكون الناس قد استقبلوا هذا الاصطلاح باستخفاف لا يدرك معناه الحقيقى.(١٠)

إن خط همايون منسوب إلى المشروطية "الدستور"، وكان يرجى منه الاضطلاع بتشكيل مجلس عمومى موافق ومطابق لقدرة الناس وكفاءتهم، مساير كذلك لآمال الأمة وأمانيها.(١١)

استمرت فى ذلك الإبان مظاهر المجاملة والكرم التى أغدقها عبد الحميد الثانى على مؤيدى الدستور وجمعية العثمانيين الجدد على حد سواء ؛ ففى اليوم الثامن لجلوسه على العرش التقى عبد الحميد بنامق كمال وقال له: "أستحلفك بالله ياكمال بك أن نبذل الجهد معًا ونُعْلى من شأن الدولة والسلطنة حتى تتبوأ منزلة أعلى مما كانت عليه قديماً".(١٢)

الإتيان بمدحت باشا ليتبوأ منصب الصدر الأعظم

ازدادت حدَّة أزمة البلقان تفاقما بين عامى ١٨٧٥-١٨٧٦م ، وكانت روسيا تأمل كثيرا فى توطيد أركانها وتثبيت دعائمها فى إستانبول ومناطق البوغاز، ومن ثم فإنها

(١٠) مدحت باشا، تبصرة العبرة، ص١٧٢-١٧٣ .

(١١) عثمان نورى، ج١، ص١١٩ .

(١٢) المصدر السابق : ص : ١٢٥ .

أخذت فى تلك الآونة تعمل على إثارة كل العناصر السلافية الموجودة فى البلقان وتحريضها حتى تعلن التمرد وتشق عصا الطاعة ضد الدولة العثمانية مستخدمة فى ذلك ما يعرف بتيار panslanizm.(١٣)

واستمرت رحى الحرب دائرة بين الصرب والجبل الأسود، كما ظل البلغار والسلافيون من البوسنة والهرسك فى حالة تمرد وعصيان، واقترحت الدول الأوروبية الكبرى عقد مؤتمر بإستانبول فى صيف عام ١٨٧٦م من أجل إيجاد حل جازم لهذه الدول سالفة الذكر. وقبل الباب العالى هذا الطلب، وفى خضم هذه الأحداث شرعت اللجان المشكلة فى بدء أعمالها لإعداد القانون الأساسى فى أعقاب جلوس السلطان عبد الحميد الثانى على العرش.

كما اقتربت مع مرور الوقت أيام انعقاد مؤتمر إستانبول، كان الموقف شديد الحرج، واضطلع مدحت باشا بدور البطولة لأولئك المؤيدين والمنحازين للدستور وسط هذا المناخ، وتعهد بحماية كل ما يتعلق بالدستور من أخبار يومية، واستمر ينظر إلى الدستور بعين الرعاية والعناية، يحدوه أمل عظيم بغية استقلال الوطن وتحريره، ظلت كل هذه القضايا مهملة مهجورة مرهونة بقرارات مؤتمر إستانبول العقيمة والتى سوف تصيب الوطن بالضر والأذى لا محالة، وقد وقر فى الأذهان أن هذه الأسباب سوف تحقق ولا ريب إعلان الدستور.

كان الصدر الأعظم محمد رشدى باشا موجودا إبان عقد مؤتمر إستانبول وحالته الصحية تطرد فى التردى والانهيار، ثم ما لبث أن قدم استقالته فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م، وفى رواية أخرى أنه لم يستقل، ولكنه عزل بسبب جلبه لجنود مصر وتونس إلى إستانبول ليستخدمهم فى الحملة ضد روسيا، بينما كانت رغبة السلطان عدم

---

(١٣) هو تيار سياسى كان يهدف إلى اتحاد وجمع شمل كل السلافيين. (المترجم)

إرسال الجند إلى منطقة الروملى لأنهم لم يتعودوا على المناخ البارد لهذه البلاد التى يجهلون لغاتها.

وكان السلطان عبد الحميد يريد سوق الجيش إلى الروملى ولكنه كان يشك فى قدرته على استخدامها، مثله فى ذلك مثلما حدث للسلطان عبد العزيز الذى استخدم جند سوريا.[١٤]

وقد أجبر رشدى باشا عقب عزله على الإقامة فى مزرعته الكائنة بمنطقة " مانيه "، ويعزى هذا إلى ما نسب من أنه كان يشجب السلطان فيما أقدم عليه من نفى مدحت باشا إلى أوروبا دون وجه حق[١٥] "، ولما استقال رشدى باشا بات الطريق ممهدا أمام مدحت باشا ليتولى منصب الصدر الأعظم، وها هو عبد الحميد الثانى يدون فى مذكراته الأسباب المتصلة بتنصيب مدحت باشا الصدارة العظمى فيقول:" لم يكن مدحت باشا هو الصدر الأعظم عندما اعتليت عرش السلطنة، ولكنى أتيت به لهذا المنصب على الفور لثقة الشعب به وخضوعه له، كما أنه كان رفيق الحاشية، يقدر المواقف حق قدرها".[١٦]

"عينت مدحت باشا فى منصب الصدر الأعظم، وسواء أكان تعيينه بسبب شخصيته الدولية أو لعلاقته بالملحدين الكافرين، فإنه على كل حال رجل الدولة الوحيد الذى سوف يتسنى له التصدى ومجابهة ممثلى الدول الأجنبية التى بدأت فى الوفود إلى مؤتمر إستانبول من أجل الاجتماع المزمع عقده... كان الكفرة والملاحدة يريدون دساتيرهم ويكونون هم أصحابها، وأصابهم مس من الجنون من أجل المنصب الذى تبوأه مدحت باشا، لهذا جعلته الصدر الأعظم ليتركنا فى راحة واطمئنان."[١٧]

---

(١٤) إينال، ج٣، ص ٢٧٨ .

(١٥) إينال، ج١، ص ١٢٦ .

(١٦) أوزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلديز ص ١٢٨ .

(١٧) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ١٧ .

أما أحمد صائب وهو من جماعة تركيا الفتاة فتحدث عن الحب الشعبى العام الذى حظى به مدحت باشا فى كل من إنجلترا وفرنسا، وفى هذا يقول صائب: "حتى إن الإجماع الأوروبى والحكومات الأوروبية لم تر ثمة ضرورة حتمية لعقد مؤتمر من أجل المسألة الشرقية، وإذا ما نجح مدحت باشا فى تطبيق الدستور على أى وجه من الوجوه فلسوف ينصلح حال الدولة العلية، ولسوف يستقر فى ذهن النصارى أنهم فى غير حاجة إلى إدارة تخلصهم من هذه التبعية.(١٨)

كان الناس ينظرون إلى مدحت أفندى على أنه الأمل المنشود فى كل من تركيا وأوروبا على حد سواء، ونتيجة لهذه الأسباب القوية الدامغة أتى به السلطان عبد الحميد إلى منصب الصدر الأعظم. وإذا ما أمعنا النظر مليا فى حقيقة هذا الأمر ألفينا أن السلطان لم يجعل مدحت باشا صدرا أعظم وهو راغب فى ذلك"، فلم يكن السلطان راغبا فيه، ويقول فى هذا: "لقد أتيت به لتولى هذا المنصب بحسب الضرورة وما تقتضيه ظروف العصر، وإذا ما حانت الفرصة وزالت الضرورة فلسوف يعزل، وبديهى أنه سيجلب الكثير من المتاعب والمصائب الكبرى."

فالسلطان لم يكن يحب مدحت باشا، فانضمامه إلى عبد العزيز وعدم إعجاب عبد الحميد بأفعاله إبان اللقاءات التى تمت بينهم لمناقشة الجلوس على العرش، كل هذه الأشياء جعلت السلطان يسلك نحوه سلوكا لتقليص نفوذ مدحت باشا إلى أدنى درجة فى القصر، كل هذه الأشياء ولدت فى نفس عبد الحميد شعورا بالفتور نحوه.

لقد أتى به السلطان إلى منصب الصدارة العظمى لكى يطفئ منطاده "بالونه". ولو أن مدحت باشا ولى وجهه شطر الأمة فى مناخ غير عادى وكان بمثابة الأمل المنشود والفرصة المرجوة لاستطاع حينئذ تحقيق النجاح كما يزعم بذلك أنصاره ومؤيدوه.

---

(١٨) أحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص ٥٩ .

إعلان القانون الأساسى

تفيد الكتابات التى أوردها أحمد مدحت أفندى أن إعلان القانون الأساسى قد تم لأسباب لا سبيل إلى اجتنابها أو الفرار منها، وقد تم هذا الإعلان على مقربة من الشعب والمستنيرين وفق ما يجول بخواطرهم (وسيق هذا القانون إلى طريق لا مناص إلى العودة منه أو النكوص عنه). وأحدث إعلانه انفعالا وسورة حميا وهياجا عاطفيا من أجل تأييده وتعضيده. أما أنصار القانون الأساسى ومؤيدوه فأعلنوا أن هذا القانون لا قبل له بتهديد حقوق السلطان على أى حال من الأحوال، وهذا ما كان يفزع السلطان ويروعه ويقض مضجعه، واضطلعوا فى هذا السبيل بالعمل على تأييد هذه الحقوق وتأمينها من أجل بث روح الطمأنينة فى نفس السلطان، ولا جرم أن إعلان الدستور قد تأخر أيام عصر مراد الخامس بسبب مرضه، وإذا ما تأخر إعلانه مرة أخرى إبان عصر السلطان عبد الحميد فإنه سيكون سببا فى إثارة دعاية فى دوائر الدول الأوروبية تقول: (انظروا إلى الترك: إنهم لم يضطلعوا بالإصلاحات). وكان الاعتقاد السائد يرى أن إعلان الدستور سوف يجعل قرارات مؤتمر إستانبول غير ذات تأثير.(١٩)

ورغم كل هذا فإن ثمة كثير من الوزراء ممن كانوا ضد إعلان الدستور، ومن هؤلاء أمرة من المناهضين الباشوات وهم: صفوت أدهم وجودت ومحمود ورشدى ورديف، وأماط كل من داماد محمود باشا وجودت باشا اللثام فى وضوح وجلاء ليظهروا شعورهم ضد الدستور فى اجتماع مجلس الوزراء حيث قالوا:" مادام السلطان العاقل الذكى الأريب قد اعتلى سدة العرش، فلا ضرورة إذن لإعلان الدستور".

ولكن الصدر الأعظم مدحت باشا جابههم وتصدى لهم قائلاً " إذا لم يعلن الدستور فلسوف أستقيل من أجل هؤلاء الذين لم يضطلعوا بعمل شىء ألبتة."(٢٠)

(١٩) أحمد مدحت، جـ ٣، ص٢٠٣ .

(٢٠) مدحت باشا، تبصرة العبرة، ص١٨٨ .

وبناء على هذا التعنيف القاسى لمدحت باشا أسرع عبد الحميد من فوره طالبا من مدحت باشا التعجيل بإعلان اللائحة التنفيذية للدستور، أما ابن مدحت باشا فيزعم "أن السلطان كان سيُكره على إعلان الدستور لخوفه الشديد من تمرد الشعب وشق عصا الطاعة عليه."(٢١)

وهاهو ذا السلطان عبد الحميد يدون فى مذكراته الأسباب التى جعلته يعلن الدستور فيقول: كان بين ظهرانى المستبدين من هو ضد الدستور، وكانوا أكثر عددا من المؤيدين المناصرين له. وكان كل من أدهم باشا وصفوت باشا وغيرهم من الوزراء ورجالات الدولة ذوى الصيت ضد منح حرية كاملة دون إعداد الأمة وتهيئتها، حتى إن رجلا مثل خير الدين باشا التونسى الأصل قال لى عندما كان فى منصب الصدارة العظمى ولا يعرف الشفقة أو المرحمة: " يتوجب التفكير مليًا قبل أن يتسلح بالقانون زمرة من الأجلاف الغلاظ قساة القلوب "، ولكننى لا طاقة لى بتجنب التيار الجارف لذلك الزمان، ومادام الأمر كذلك فإننى أريد من الأمة أن تخوض تجربة إدارة شئونها بنفسها عن طريق قدراتها ومواردها، وليكن هذا ما تريده الأمة التى أصدرت ما يعرف بخط همايون مستحسنة التنظيم البسيط لمدحت باشا الذى دونه أثناء اللائحة التى بين أيدينا.

" ولقد اضطررت فى أول الأمر إلى قبول لائحة مدحت باشا لأنه أعلن وكشف للشعب المريض ما يعرف باسم (دواء الأمة) وأُجبرتُ كذلك على تقديم دوائه الذى أعده وجهزه، فلا قبل لى بإقناع الآخرين أو إسكاتهم."(٢٢)

" ولقد اضطلعت بتأسيس الدستور بمحض إرادتى من أجل سعادة مواطنىَّ ورفاهيتهم. أمن الممكن أن تكون هنالك وسيلة أعظم من هذا فى الدنيا من أجل إصلاح حال الأمة وحسن إدارة شئونها ؟ ومع هذا فإن روسيا لم تقدر هذا الجهد حق قدره.

---

(٢١) على حيدر، اللائحة والاستطراد، ص٣٦-٣٧ .

(٢٢) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص٢١-٢٢ .

ولو تم قبول اكتمال أسلوب الإدارة الذى اقترحه المؤتمر سالف الذكر لفسدت إدارة الدولة حينئذ من جذورها.

ولقد قبلنا من هذه القرارات ما هو مطابق وموافق لأحكام الدستور، وتعهدنا صراحة لما سوف يطبقونه، ولم تكن هناك ثقة بتعهداتنا وطُلب الضامن والكفيل، ألهذا الضامن ضرورة حتمية موجبة؟ ألم تكن هذه الكفالة سببا فى نشوب الحرب الدائرة رحاها بين ألمانيا وفرنسا؟ فمنذ متى وعدنا بشىء لم نضطلع بتنفيذه والبر به؟ لقد أصبح هؤلاء وكأنهم يبحثون عن ذريعة للحرب معنا."(٢٣)

أعدت عشرون مسودة اضطلع بها طائفة من الأشخاص واللجان المختلفة التى تعد بمثابة جهود ومساع لإعداد الدستور. وتشكلت لجان مشتركة لإعداد دستور يشبه الدساتير الفرنسية والبلجيكية ويماثل القوانين الإنجليزية، حتى إن معظم هذا الدستور كان نسخة طبق الأصل تماما لهذه الدساتير والقوانين:(٢٤) واضطلع مدحت بإعداد المسودة لتكون أساسا لإعلان الدستور بناء على رغبة السلطان عبد الحميد، وحذفت بعض المواد من الدستور، وأضيفت إليه بعض المواد الأخرى.

وكانت المادة الثانية عشرة أهم مادة حذفت منه حيث ورد فيها " يحق لكل الأقوام التى انضوت تحت جناح الإمبراطورية العثمانية أن تختار كلٌ منها على حدة لغة خاصة بها تستخدمها فى شئون التعليم والتعلم على حد سواء".

ولكن أينْلى سعيد باشا الكبير اعترض على هذه المادة، والتقى بالسلطان لهذا الغرض، ثم حذفت هذه المادة آنفة الذكر، وتم قبول اللغة التركية لغة رسمية، ولسوف يعود المجلس بطريقة أو بأخرى إلى حصن نابليون(٢٥).

---

(٢٣) محمد خوجه أوغلو، السلطان عبد الحميد وخواطره، إستانبول ١٩٨٩م، ص٤٨ .

(٢٤) ضيا قرال، ج٨، ص٨ .

(٢٥) باك آلين، ج١، ص٢٤ .

وقد منحت المادة ١١٣ من الدستور حق الحكومة فى إعلان الأحكام العرفية التى يحق لها العمل به فى حالة الفوضى والاضطراب الذى يزعزع الثقة الداخلية، ولسوف يكون مطابقا للقوانين الخاصة إذا ما نشأ وضع ما خارج عن إطار القوانين العامة فى المنطقة، وقد أثارت هذه المادة كثيرا من الجدل والنزاع والشقاق؛ لأنها تخضع للمزاج الخاص فى حالة التطبيق، حيث إنها قبلت فى خاتمة المطاف أن العاصفة الهوجاء التى هبت زوابعها حول المادة ١١٣ كانت بنصها هى الفقرة التى وضعها باشمه با ينجى سعيد باشا وورد فيها: " يتوجب نفى وتأديب أولئك الذين تثبت إدارة البوليس اضطلاعهم بالإخلال بأمن الدولة بناء على تحقيقات موثوق بها، ويكون هذا التأديب على نفوذ السلطان وقوته"[٢٦] وكان إضافة هذه الفقرة إلى المادة ١١٣ بمثابة الشرارة التى أذكت نار الجدل والشقاق وزادت من أُوارها، حينئذ استدعى السلطان عبد الحميد كلاً من أينْلى سعيد باشا الكبير وداماد محمود باشا ليمثلا فى حضرته ويستمع إلى رأيهما، وطلب محمود باشا الإبقاء على هذه الفقرة فى المادة ١١٣، أما سعيد باشا فطلب حذف الكلام الآتى ذكره بين القوسين) إذا بقيت هذه الفقرة فإن هذا يعنى إزالة كل محتويات الدستور، وحينئذ لا تكون ثمة حاجة إلى نشر هذا القانون وإعلانه ألبتة، ناهيك عن أنى لا أكون مسئولاً مسئولية قانونية بسبب وقوع أحداث أخرى.

فبأى حق يعاق امرؤ بناء على شبهة فقط، ولا وجود لفعل مقرون بهذه الشبهة، وبناء على هذا أصدر السلطان أمرًا قال فيه: «ليحذف هذا البند من القانون، وليكتب خط همايون لإعلانه غداً، ولنقلع عن هذا بعد اليوم».[٢٧])

وقد وجه نقض لاذع إلى مدحت باشا لعدم إبدائه الغيرة والحماس اللازمين من أجل حذف الفقرة سابقة الذكر من المادة ١١٣ . حتى إن رئيس الوفد الإنجليزى فى

---

(٢٦) أبو الضيا توفيق، تاريخ العثمانيين الجدد، ج٣، إستانبول ١٩٧٣م، ص٣٢٣ .

(٢٧) باك آلين، ج١، ص٣٤٣ .

مؤتمر إستانبول أنذر مدحت باشا قائلا له:" لا سبيل إلى حكم القانون الذى اضطلعتم به عندما كانت المادة ١١٣ موجودة فيه"(٢٨). وأدى هذا الموقف إلى تخاصم كل من نامق كمال وضيا بك مع مدحت باشا.(٢٩)

أما مدحت باشا الذى صرح بأنه لا قبل له بحذف هذه الفقرة فقد استخدم تعبير (المسمار) الذى غرسه رئيس الكتَّاب سعيد بك فى نعش المادة ١١٣، ولهذا وصف الدستور سنة ١٩٧٩م بأنه بمثابة تحفة أو أنموذج رائع يعرض على الأنظار(٣٠)، وتولى مدحت باشا بنفسه الرد على من هاجموه بسبب هذه المادة قائلا: "أنتم تسلكون سلوكا طفوليًا، فلقد عجزت عن الحصول على اثنين أو ثلاثة يؤيدوننى ويشدون أزرى فى المجلس، وأنا أرى أنه لا مناص من قبول الدستور وليكن ما يكون؛ إذ ليس من اللائق مضايقة الأمة حتى تحترم هذا القانون فى نهاية المطاف"(٣١).

أما ردود أفعال كل من ضياء بك ونامق كمال على رد مدحت باشا فعبرا عنها على هذا النحو قائلين: " حسن يا سيدنا، ولتكن على يقين من أن هذا القانون سيقتل نفسه من كل شىء"(٣٢).

كان الدستور مرتبا ومنظما لأحوال الأمة مؤلفا لشتاتها، مقتبسا من الدساتير الفرنسية المعلنة فى عصورها وأحقابها مختلفة، ومن ثم جاء هذا القانون مقتصدا معتدلا، فهو يفصل بين تطبيق القانون من ناحية وبين كل من الدعوى القضائية والتشريع وسن القوانين، ويحدد وظائف وواجبات كل منها على حدة فيما تمخض عنه بطبيعة الحال مراقبة الدولة وتحديد المسئولية الملقاة على عاتق الوزراء، وإذا أوجزنا

(٢٨) ضيا قرال، ج٨، ص ٨ .

(٢٩) أبو الضيا توفيق، ج٣، ص٣٢٢ .

(٣٠) المصدر السابق، ص٣٢٦ .

(٣١) إينال، ج١، ص ٣٢٦ .

(٣٢) إينال، ص: ٣٤٨ .

القول في هذا الموضوع قلنا إن القانون الأساسي ما هو إلا دستور معتدل مقتصد ضد الاستبداد، وهو لا يخضع للكيف أو المزاج، وليس ضربا بين ضروب الحكم والإدارة فحسب، بل هو قانون جاء بإدارة تحمل في ثناياها الأريحية والخير والصلاح، هو متناسق منتظم يعتمد في المقام الأول على المسئولية المطلقة(٣٣).

كان مدحت باشا يريد إعلان الدستور في اليوم الموافق ليوم انعقاد اجتماع مؤتمر إستانبول على وجه الخصوص. وانعقد المؤتمر في صبيحة يوم الثالث والعشرين من ديسمبر لسنة ١٧٩٨م حيث أرسل السلطان عبد الحميد سعيد باشا وفي معيته الدستور إلى الباب العالي للتصديق عليه، وازدحمت الطرق والميادين بالخلائق من منطقة (سيركجي) حتى الباب العالي، وقرأ الصدر الأعظم مدحت باشا القانون الأساسي من شرفة مجلس شورى الدولة (مجلس الأمة) وأطلقت المدفعية إحدى ومائة طلقة، ووزعت بضعة آلاف نسخة على هيئة كُتيب على الشعب(٣٤).

كيف استقبل إعلان القانون الأساسي

بمجرد أن تم إعلان القانون الأساسي حتى أسرع الوزراء والموظفون يتوافدون على القصر لتقديم التهنئات إلى السلطان، وأقيمت الأفراح المقرونة بالبهجة والسرور في كل أرجاء إستانبول.

أما أنصار الدستور ومؤيدوه فقد احتشدوا أمام القصر من كل صوب وحدب وهم يصيحون قائلين:(يعيش سلطاننا المعظم، يعيش مدحت باشا)(٣٥).

ثم احتشد جمع غفير من الناس المؤيدين للدستور مولين وجوههم شطر منزل مدحت باشا في مظاهرة شعبية صاخبة، " ثم أقبل مدحت باشا إلى هذا الجمع

(٣٣) عبد الرحمن شرف، مصاحبات أدبية، المطبعة العامرة، إستانبول ١٣٣٩هـ، ص٢١٢ .

(٣٤) أحمد مدحت، ج٢، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٣٥) محمود جلال الدين باشا، ص٢٠٥ .

المتراكم من الخلائق وقال لهم "إن الحقوق الشعبية لن تصاب بضر أو أذى إبان الحقبة التي سيقضيها في منصب الصدر الأعظم"(٣٦). ويكتب محمود جلال الدين باشا في هذا الصدد قائلا: " إن هذه المظاهرات مهدت السبيل لسوء طالع ونذير شؤم لا سبيل إلى تصوره في حق مدحت باشا"(٣٧)، ويتمخض من كل هذا أن نظرة الشك و الارتياب للسلطان الشاب عبد الحميد قد أخذت تقوى وتشتد تدريجيا ضد مدحت باشا .أما بطارقة الأرمن والروم فقد قاموا بأنفسهم بزيارة مدحت باشا وقدموا له التهنئات مباركين، وكان مدحت باشا هو أول صدر أعظم يزوره رؤساء النصارى الروحانيون لأول مرة في التاريخ العثماني، وطلب إليهم مدحت باشا المؤازرة والتعضيد لتطبيق القانون الأساسي(٣٨).

كيف استقبل إعلان القانون الأساسي خارج نطاق الوطن

أما الغرب الذي قد بدأ يضطلع بالبطولة من أجل تطبيق حقوق الإنسان وحريته فإنه سرعان ما أخذ يرتاب في إعلان القانون الأساسي، الذي يزعم تحقيق الحرية للإنسان في الدولة العثمانية، وينظر بعين العداوة والبغضاء إلى هذا الخط الهمايوني الملغز الذي يكتنفه اللبس والغموض، بيد أن رد إنجلترا كان يتسم بالخنق والغيظ على وجه الخصوص، ورغم مؤازرة السفير الإنجليزي هنري إليوت لمدحت باشا فإن الحزب الحاكم الإنجليزي وحزب المعارضة كليهما كانا ينظران إلى هذا القانون نظرة سلبية ناقصة(٣٩).

---

(٣٦) أحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص٧٧ .

(٣٧) محمود جلال الدين باشا، ص٢٠٥ .

(٣٨) أحمد مدحت، ج٢، ص٢١٣ وأحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص٨٢ .

(٣٩) روبرت دور يوكي، الحقبة العثمانية الدستورية الأولى، دراسة عن مدحت باشا والبرلمان، ومطبعة جونز هويكنز، بالتومور ١٩٦٣م، ص٨٨ .

أما الصحافة الفرنسية فقد وصفت هذا القانون بأنه " مخلوق غريب ولد ميتا " وقومه الروس قائلين: " إنه مغالط وحيلة كاذبة وضرب من العبث وهراء القول وتوافهه"(٤٠).

وكان سبب رد فعل روسيا ناشئا عن قلقها من أن إعلان هذا القانون سوف ينشر ويذاع صيته فى تركيا نفسها، كما أن مؤيدى الدستور فى روسيا آنذاك كانوا يناضلون ضد القيصر(٤١).

ولنقرأ فى هذا السياق تلك البراهين المهمة التى ساقها عبد الرحمن شرف الشاهد على تلك الحقبة الزمنية حيث يقول: " ظهر القانون الأساسى وكأنه طوق نجاة وذلك لأنه كان ردءًا و ظهيرا عمل على تسكين وتخفيف حدة الفوضى السياسية الضاربة بأطنابها والتى أطلت برأسها من كل جانب، ناهيك عن أنه عمل كذلك على طمأنينة الاحتياجات الداخلية والخارجية للأمة وتأمينها. فكان له فى الداخل تأثير ونفوذ قوى فى نفوس الشباب والمخلصين الصادقين ذوى الطهارة والعفة، بيد أنه استقبل فى الخارج بشىء من التوجس وأخذ الحيطة والحذر.

وها هو ذا رئيس الوزراء الروسى جروجاكوف Grogakof يستخدم تعبير "تقليد القردة " لإطلاقه على هذا الدستور، وأسرعت الصحافة الإنجليزية بنشر مقالات مسهبة تدور جميعها حول المشكلات والعراقيل التى تعترض سبيل تطبيق الدستور، أما نحن فقد اتهمنا هذه الصحافة بالجهل والحماقة والغباء.

وذات يوم التقيت بالمسيو جرين Grane المدير الثانى للمدرسة السلطانية وقال لى هذا العجوز المخضرم - الذى نشأ وتربى فى كنف تدريس التاريخ وتعليمه: "إننى آمل أن تقاوم دولتكم وتواجه الرجات والهزات العنيفة التى يمكن أن تنجم عن هذا النظام الدستورى الجديد وتنهض بتغيير وتبديل الشكل الذى أنتم ماضون قُدما فى سبيله".

---

(٤٠) المصدر السابق، ص٨٩ .

(٤١) إدوارد دريولت، المسألة الشرقية، ترجمة نافذ، مكتبة مختار خالد، إستانبول ١٣٢٨ هـ - ص ٢٦٨ .

وقد وقعت مثل هذه الهزات التي لا تطاق في الأمم التي لم تألف بعد هذه الضروب المتباينة من التغيير والتحرير.

بيد أنني لم أصغ مليا لكلام هذا المدرس العجوز؛ إذ كنت على يقين بأن أمتنا بإعلان هذا الدستور ستكون مثل إنجلترا التي نقرأ عنها في التاريخ[٤٢]. إن آراء عبد الرحمن شرف مهمة من حيث كونها انعكاساً ورد فعل للحالة النفسية للشباب العثماني المؤيد للدستور في هذه الأيام، أما الاستقبال الفاتر لكبار رجالات الدولة للدستور فيعزى إلى أنه لم يتطرق إلى شئون النصارى والحد من شكاياتهم.

أما رفض الدستور (كما هو الشأن فيما حدث إبان مؤتمر إستانبول) فلم يكن راجعا إلى الاعتقاد بأنه لن يحالفه التوفيق والنجاح، ولكن من الخوف بأنه سوف يتسنى له هذا النجاح[٤٣].

وقد أحجم كثير من الروس عن هذا الدستور وترددوا في قبوله لخوفهم من أنه سيكون بمثابة أنموذج رديء سيئ للدساتير. حتى إن إنجلترا قد أصابها الخوف كذلك من هذا القانون، كما أن الجالية الإنجليزية قد وجهت سهام نقدها اللاذع ضد سلوك إنجلترا في بلاد الهند. وعلى حين منحت تركيا الأقليات المسيحية الحريات فإن إنجلترا لم تكن تريد الاعتراف بأي حق للسكان المحليين، ومن ثم كان الدستور في نظرهم أنموذجا سيئا[٤٤].

أما الدول الأوروبية العظمى فقد نجحت في انتزاع تعويضات من أجل تحقيق آمالها العريضة في نشر المستعمرات والتدخل في الشئون الخارجية للدولة العثمانية في كل وقت وحين، بيد أنهم لن يستطيعوا نزع ما يريدون بسهولة ويسر بسبب وجود ما يسمى مجلس المبعوثان الذي يعد بمثابة عنصر للمساومة في مواجهة ما تمخض عنه إعلان الدستور.

---

(٤٢) عبد الرحمن شرف، مصاحبات أدبية، ص : ٤٢ .

(٤٣) قول أوغلو : حقيقة عبد الحميد، ص ٣٩ .

(٤٤) المصدر السابق، ٢٣٩ .

كان الاتفاق بين السلطان والصدر الأعظم أكثر سهولة فى مكان المجلس، ولكن ماذا كانت درجة صدق السلطان عبد الحميد وإخلاصه فى إعلان القانون الأساسى وسط هذا الخضم من المعارك والنزاعات ؟ كانت آراء كل من أنور ضيا قرال ومحمود كمال إينال إيجابية، إذْ يرى الأول" أن من الممكن قبول الفكرة الصادقة التى عبر عنها عبد الحميد وتفوه بها فيما يتعلق بإدارة دفة الدستور إبان الأيام الأولى للسلطنة، وكان عبد الحميد فى ذلك الحين صادقا فى فكره وأفعاله نحو الدستور(٤٥) أما الثانى (إينال) فيرى أن السلطان كان على يقين من أن القانون الأساسى هو مثوى العدل والأحكام ومسند الدين والدولة وظهير الخلافة والسلطنة والدليل المرشد لأمة الإسلام"(٤٦). لقد أراد السلطان تجربة الدستور من أجل إنقاذ الدولة وتحريرها.

اجتماع مؤتمر إستانبول

عقد مؤتمر إستانبول فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م بهدف إيجاد حل لأزمة البلقان، وانضم إليه وفود ست دول أوروبية، وقد جاء إعلان الدستور موافقا لليوم الذى عقد فيه هذا المؤتمر حتى تكون قراراته ضد الدولة العثمانية عقيمة لا طائل من ورائها. ولم يكد المؤتمر يعقد حتى أعلن القانون الأساسى لأعضاء وفود المؤتمر وذلك بإطلاق المدفعية وإحدَى ومائة طلقة.

وفى تلك الآونة كان وزير الخارجية صفوت باشا يلقى كلمة افتتاح المؤتمر، ولمَّا سمع صوت المدفعية أسرع بتغيير سير خطابه العادى قائلا:" إن أصوات هذا المدفع تنبئ عن إعلان الدستور وطاعة حضرة السلطان للأمة، وإن أساس الحكم ونظمه التى استمرت منذ ستة قرون آن لها أن تتغير وتتبدل منذ هذه اللحظة، وإن عهد جديد قد

---

(٤٥) قرال ج٨، ص ٢٥٨ .

(٤٦) إينال، ج١، ص٣٥٤ .

أقبل من أجل سعادة الأقوام العثمانية ورفاهيتهم. كانت هذه الكلمة بمثابة تدبير محكم مؤثر فعال لغلق ما يسمى بالمسألة الشرقية"(٤٧).

وبهذه العبارات أخبر صفوت باشا المؤتمر بأن الدولة العثمانية سوف تضطلع بحل جميع الطوائف التابعة لها في نطاق الدستور. ولكن كيف أظهر أعضاء وفود المؤتمر رد فعلهم عند إعلان الدستور ؟ " إن الدول الأوروبية لم تلتفت حتى هذه اللحظة إلى أن مشروع هذا القانون لم ينشر بعد، وهو يعد من قبيل فرمانات الإصلاح التي لم يشرع في تطبيقها"(٤٨).

وقد اضطلع سفير روسيا ورئيس وفدها في المؤتمر الجنرال إجنيتاف ignatiyaf بدور عظيم في بلوغ الموقف إلى هذه النقطة، وكان هذا السفير أول من أخذ الكلمة عقب انتهاء صفوت باشا من إلقاء كلمته، هكذا أراد إجينتاف ألا يُعير المظاهر اهتماما والانتقال مباشرة إلى مواد برنامج المؤتمر(٤٩)، ولما شرع أعضاء الوفود جميعا في تأييد إجينتاف وتعضيده عند إعلان القانون الأساسي أعلن الرفض.

وكان مدحت باشا على الخصوص ينتظر بلهفة ردود فعل أعضاء الوفود على القانون الأساسي. ولم يكد صفوت باشا يذهب إلى الباب العالي حتى بادره وسأله بانفعال قائلا: «ماذا قالوا، ماذا قالوا ؟»، وكان قلقا لما سيجيب به وزير خارجيته الذي قال:" ماذا سيقولون، إنهم قالوا إنه لعبة طفل"(٥٠).

كان الصدر الأعظم مدحت باشا يتعشم في مؤازرة وتعضيد رئيس الوفد الإنجليزي سالزبوري على وجه الخصوص، رغم أن هذا الرجل كان يدور كثيرا في

---

(٤٧) عبد الرحمن شرف؛ مصاحبات أدبية، ص ٢٠٢ .

(٤٨) عثمان نوري، ج١، ص ١٣٠-١٣١ .

(٤٩) أحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص ٧٦ .

(٥٠) يلمز أوزطونة، تاريخ تركيا، ج١٢، إستانبول ١٩٦٧ م، ص٩٩ .

فلك زميله المخاتل إيجانتيف[٥١]. كان من المتعذر أن تقبل الدولة العثمانية شروط الإصلاحات التى كان يريدها أعضاء وفود الدول العظمى فى مؤتمر إستانبول.

وقد أخذت الدولة العثمانية على عاتقها الحفاظ على الوضع الذى كان عليه الصرب وأهل الجبل الأسود قبيل الحرب.

ولسوف نتخلى كذلك عن مساحة من الأرض لهاتين الإمارتين السالف ذكرهما من أجل الحيلولة دون نشوب خلاف فى المستقبل، أما ما هو واقع خارج حدود البوسنة والهرسك وولاية طونة فإنه سوف يمنح لبلغاريا تحت إدارة الحكم الذاتى، ويتسنى للجند العثمانيين المجودين هنالك البقاء فى القلاع والحصون، ولسوف يجمع السلاح الموجود تحت يد الأهالى ويؤسس مجلس من المسلمين والنصارى، وسينقل إلى الخزانة العامة قسم من الإيرادات المحلية، وتتولى لجنة دولية مراقبة وتفتيش أداء هذه المنظمات، وكانت الشروط الصعبة من أجل البلقان تحمل اسم اتفاقية سيفر Sever.

وانعقد مجلس غير عادى يتكون من خمسة وعشرين شخصا فى ١٨ يناير سنة ١٨٧٧ م من أجل دراسة اقتراحات المؤتمر والوصول إلى قرار فى هذا الشأن، وضم هذا المجلس كلا من: رجالات القوات المسلحة ممن هم فى رتبة المشير والفريق بصفة عامة، ورؤساء المحاكم وأعضاء مجلس الأمة والوزراء ورجال القصر والبطارقة ورئيس الحاخامات[٥٢].

ثم تليت قرارات مؤتمر إستانبول فى هذا الاجتماع وطلب توضيح الرأى بشأنها.

وكان أول المتحدثين هو الصدر الأعظم مدحت باشا حيث ناقش فى كلمته انتهاك قرارات المؤتمر لحرمة استقلالنا. ويقول فى هذا الصدد:" إن أمة بغير استقلال لا ديمومة لها ولا بقاء، وبناء عليه فإنى أرفض الاقتراح الذى قدمته أوروبا فى تلك الأثناء.

---

(٥١) ستورى، story ص٤٤ .

(٥٢) المصدر السابق، ص ١٧٣ .

ويتوجب على أن أختار التضحية والفداء من أجل الذياد عن حياض حقوقنا، فهذا هو دين الحمية والغيرة المعلق فى عنق أولئك الذين يفكرون فى الشرف والحيثية، ومن ثم فإننى مؤيد ونصير لرفض اقتراح المؤتمر بصورة جازمة قاطعة"(٥٣).

لم ينهض أحد من الحاضرين للتعقيب على خطاب مدحت باشا الذى دعا فى هذه المرة إلى تجلية وتوضيح آراء غير المسلمين، وبناء عليه نهض كل من صوا باشا مدير المدرسة السلطانية وأقيديس أفندى عضو مجلس الأمة والوزراء الروم والأرمن وذكروا جميعا أنَّهم يتفقون مع الآراء التى عرضها مدحت باشا، وفى إثر هذه الخطب والأحاديث رفضت قرارات مؤتمر إستانبول بإجماع الأصوات. ولما علم أعضاء وفود المؤتمر بهذا أسرعوا من فورهم فى مغادرة إستانبول(٥٤).

كانت إنجلترا فى أثناء المؤتمر على الخصوص قد تدخلت وأقحمت نفسها فى مكاتبات ومراسلات ولقاءات مكثفة عند كل من الباب العالى والقصر السلطانى مطالبة بقبول قرارات المؤتمر، حتى إنها أدخلت تعديلات على بعض القرارات لصالح الدولة العثمانية بغية تحقيق مآربها فى الحصول على الموافقة على قرارات المؤتمر.

كانت إنجلترا تخشى من المصاعب الجمة التى يمكن أن تحدث ضدها فى حالة نشوب حرب بين تركيا وروسيا، وكان أكبر هم يشغلها ويقض مضجعها هو ذلك التهديد العظيم الذى سيحدث فى طريق بلاد الهند متمثلا فى احتلال روسيا إستانبول ومناطق البوغاز وشرق الأناضول.

وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م التقى سالزبورى رئيس الوفد الإنجليزى بالسلطان عبد الحميد وطلب إليه قبول قرارات المؤتمر، بيد أن السلطان لم يجبه برد واضح، فلم يكن قد مر عليه حتى الآن سوى بضعة أشهر منذ اعتلائه العرش ولا يملك

---

(٥٣) المصدر السابق، ص١٧٤ .

(٥٤) المصدر السابق، ص ١٧٦- ١٧٩ .

الحكم على أى شىء قط بفهم واسع عميق. أما سالزبورى فقد قدم تقريرا إلى حكومته فى إنجلترا شرح فيه الموقف على النحو التالى: " التقيت هذا اليوم لمدة ساعة مع السلطان عبد الحميد الذى أخذ يشكو ثم توقف وتحدث عن التهديد الذى يحيق بحياته قائلا: "إنه لن يرضى عن إحراق شعبه بالنار لحل المشكلة التى نحن بصددها"(٥٥).

وفى ٢ يناير ١٨٧٧م التقى السفير الإنجليزى هنرى إليوت بالسلطان عبد الحميد وقدم إليه طلباته من أجل الثناء على قرارات مؤتمر إستانبول، ورأى هذا السفير بنفسه أن السلطان لم يستطع أن يؤسس بنفسه سلطة مؤثرة أو نفوذا قويا، وإن كل شىء لم يزل مرتبطا ارتباطا وثيق العرى بالوزراء، وكتب السفير فى تقريره أن السلطان لا قبل له بفرض سيطرته ونفوذه على الوزراء، كما أنه يخشى على نفسه من الإقصاء عن العرش.(٥٦)

لقد رأى الإنجليز هذه المرة أن كل شىء قد بات تحت يد الصدر الأعظم مدحت باشا، مما جعلهم يتجهون إليه. ووجد سالزبورى أن آخر التماس يقدم إلى مدحت باشا يمكن أن يكون فى اجتماع المجلس الذى سيعقد فى ١٧ يناير سنة ١٨٧٧ م.

وكتب فى رسالته أنه لا يعرف ما إذا كانت قرارات مؤتمر إستانبول ستحظى بالرفض أو القبول. وطالب بضرورة قبول هذه القرارات واصفا قبولها بأنه بمثابة الفرصة الأخيرة، فإذا ما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا فإن تركيا لا محالة منهزمة وحينئذ لن تستطيع أية دولة أوروبية أن تمد يد العون والمساعدة لها.(٥٧)

(٥٥) بلال شمسير، الصدارة العظمى الثانية لمدحت باشا وإنجلترا، حلقة دراسية عن مدحت باشا الدولى. نشر جمعية التاريخ التركى أنقرة ١٩٨٦م. ص٢٤٥ .

(٥٦) المصدر السابق، ص ٢٥٦ .

(٥٧) بكير صدقى بايقال، حرب ١٨٧٧م وبعض الوثائق المتعلقة بها. مجلة الوثائق التاريخية، عدد(٣) ج ١٩٤١م، ص٢٣٩ . وانظر أحمد مدحت، زبدة الحقائق، مطبعة تقويم الوقائع، إستانبول ١٢٩٥هـ، ص١٠٠ .

وفى اليــوم التــالى حرر مدحت باشا ردا شافيا على خطاب سالزبورى قال فيه: " إن قرارات المؤتمر لم يرفضها وحده، بل رفضها كذلك الوزراء أجمعون، وذكر أن الدولة ستواجه كل الاحتمالات التى يمكن أن تكون سببا فى القضاء عليها واستئصال شأفتها. هكذا رُفضت قرارات مؤتمر إستانبول فى اجتماع المجلس الذى عقد فى اليوم نفسه، وكان مدحت باشا يريد أن تظل قرارات مؤتمر إستانبول عقيمة تتحمل إنجلترا وزرها.

ولما دار سالزبورى وإليوت كلاهما فى فلك روسيا فى مؤتمر إستانبول، خاب أمل مدحت باشا، وأسرع آنذاك بإرسال سكرتيره ومستشاره القانونى الذى يدعى كريكورا وديان بطريقة خفية إلى إنجلترا حيث بذل جهودا حثيثة للبحث عن وسيلة لتأييد الحكومة المركزية فى إستانبول ومساندة، ووصل هذا المستشار إلى إنجلترا فى ١٠ يناير سنة ١٨٧٧وقدم خطاب مدحت باشا إلى وزير الخارجية الإنجليزى اللورد دبرى Debry، ومما ورد فى رسالة مدحت باشا" إن تطبيق الدستور والإصلاحات المقترحة سيكون رازحا تحت تأثير الدول العظمى ونفوذها، وهذا يعنى أن هذا الاقتراح قد عُرض للزج بهذه الموافقة فى صورة إجبار دولى للباب العالى.

وإن السلطان لن يتسنى له أن يسحق فى سهولة ويسر دستورا رازحا تحت الحماية الأوروبية ولا قبل له بتغييره أو تعديله أو أن يضعه على الرف نابذا إياه وراء ظهره، وبتعبير آخر إن هذا الدستور الجديد الذى انبثق فى الوجود حديثا سوف يأمن كل المخاطر التى تحيق به.

كان مدحت باشا يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فهو من ناحية يريد إسكات أوروبا وروسيا على وجه الخصوص وينزع فتيل نار النزاع المحتدم من أجل السولافيين والبلقان، كما كان يهدف من ناحية أخرى إلى غلٍّ يد عبد الحميد وذراعه، وهذا اقتراح رآه مدحت باشا وكأنه يحقق فائدة مزدوجة. أما الوجه الثانى للميدالية فيتمثل فى أن رزوح الدستور تحت النفوذ الأوروبى سوف يحدث خلطا ومزجا بين القوانين الداخلية والخارجية بعضها البعض.

وإن الدستور المرتبط بالعقد والقانون سوف يصدر حينئذ دون وثيقة قومية ليس إلا، ولسوف ينجم عن هذا حق تدخل الدول الأجنبية فى مؤسساتنا الدستورية بصورة جازمة لا مراء فيها.

وهذا سوف يعطى الدول العظمى سيطرة ونفوذا قويا للتفوه ضد مؤسساتنا الدستورية وما تضطلع به من أعمال، وهذا يعنى كما يقول المثل كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وعلى حين كان هناك امتناع واستنكاف عن منح الاستقلال والحكم الذاتى للسولافيين البلقان، فلسوف يكون استقلال الإمبراطورية وسيادتها وشرفها وكرامتها منسحقًا ممحوقًا تحت وطأة أوروبا، وكانت هناك مادة متعلقة بفرمان الإصلاح ملحقة باتفاقية باريس الموقعة ١٨٥٦م مما تسبب فى إحداث المتاعب والضيق والعنت للباب العالى فى نهاية المطاف.(٥٨)

أحيط السلطان عبد الحميد علما بهذا التدبير السرى لمدحت باشا فغض عَنْهُ:"ثم أرسل مدحت باشا أوديون أفندى، وهو من أصدقائه المقربين ممن اضطلعوا بكتابة الدستور برسالة شفهية وأخرى مكتوبة بخط يده إلى الحكومة البريطانية التى يريد منها مدحت باشا أن تثنى على الدستور الذى حصل عليه، وأن تثق به فى حالة النكوص عن العهود التى ألزم نفسه بها، وفى مقابل هذا تتعهد إنجلترا بتنفيذ كل المطالب التى سيطلبها حتى يتسنى لها أن تكون جديرة بما يليق بها من منعة الدولة العظمى وشوكتها وقوتها.

يقول عبد الحميد:" لقد أصبحت مضطربا مرتبكا، ناهيك عن الدهشة التى أصابتنى وعقدت لسانى، ولم يدر بخلدى أن يكون أحد المسئولين الكبار ممن يتبوأون أعلى المناصب فى الإمبراطورية يسعى إلى تحطيم وتقويض أركان سلطنة ونفوذ الحكام عن طريق تواطئه مع قوة أجنبية، فضلا عن استجدائه وتكففه دون خجل أو حياء، ونجم عن مداهنته لهم إلحاق أضرار وأذى بوطنه الأم.

---

(٥٨) شمشير، ص٢٥٢ .

لقد علم المحيطون بى بثورتى وغضبى، إن أصدقائى من ذوى الحمية والاجتهاد يضربون كفا بكف، وهم نافرون مشمئزون من مدحت باشا، وكنت أنظر إليه على أنه جدير بأن يقال من منصبه أو ينفى بعيداً أو يلقى به فى غياهب السجن أو يقدم إلى المحكمة كى تنظر فى أمره.(٥٩)

" إن مدحت باشا أحد النماذج الغربية الكبرى، لقد بذل جهده وأفرغ وسعه لإقحام الدولة كى تكون رهينة رازحة تحت حماية الجماعة الدولية، ويجعلها عرضة للمساومة السرية فى إنجلترا، إنه لبطل متطفل على الاستقلال الذى لم يستفد من دروس الماضى، وقد فسر المسئولون سلوكه هذا من وجهة نظر ضيقة.

أما وزير الخارجية الإنجليزى دبرى فقد رفض الاقتراح الذى عرضه مدحت باشا فى رسالته، وقال للمبعوث أوديون: " إن إنجلترا ليست مكانا للجدل أو المناقشة، فقد كان هناك مؤتمر إستانبول، ناهيك عن عدم ثقة مدحت باشا بإنجلترا، والتى بينها بجلاء موسوروس سفير إنجلترا لدى الدولة العثمانية"(٦٠) ورغم كل هذه الأحداث المتعاقبة لم يرد مدحت باشا إظهار اليأس وانقطاع الرجاء من إنجلترا، وكان يتحرك فى هذا السبيل وهو يظن أن إنجلترا ستقف إلى جوار الدولة العثمانية إذا ما اشتعل أوار الحرب بين تركيا وروسيا كما فعلت قبل إبان سنوات حرب القرم.

عزل مدحت باشا ونفيه

كان الفتور يشوب العلاقة بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، وبدأ هذا الفتور إبان تولى السلطان لولاية العهد والإمارة على حد سواء.

---

(٥٩) جريس، ص١٠٩-١١٠ .

(٦٠) المصدر السابق، ص٢٥٠ .

ولما أصبح عبد الحميد سلطانا، كانت هناك خطة فى ذهنه، قد أخفاها. وكان عبد الحميد يريد معاقبة أولئك الذين كانوا سببا فى حل خلافة السلطان عبد العزيز وقتله، كما كان يفكر كذلك فى أن المتمردين والثوريين سوف يظلون مفسدين فى كل زمان ومكان، فهو يعيش بفكرة ثابتة لا تتزعزع، تشعره دائما بأن هؤلاء المتمردين العصاة سوف يتسنى لهم فى يوم من الأيام إقصاؤه عن العرش.

كان السلطان يخجل من هؤلاء الثوريين المتمردين، ولا سيما مدحت باشا الذى كان عنصراً فعالا فى إقصاء كل من السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس، ويعد مدحت باشا أثقل مدفع بين هؤلاء المتمردين.

ويشرح محمود جلال الدين باشا الطريقة التى انتهجها السلطان من أجل القضاء على مدحت باشا واستئصال شأفته فيقول: " لا جرم أن الضرورة اقتضت القضاء على مدحت باشا ونفيه بعيدا عن إدارة الدولة؛ حيث تقرر إبعاده إلى منطقة سرايجه بسبب الدور الذى اضطلع به فى إقصاء السلاطين عن العرش، ثم عُدل عن هذه الفكرة لصعوبة تطبيقها والسير قدما فى طريقها بسبب تقلبه الدائم فى المناصب الكثيرة التى شغلها وذيوع صيته بين ظهرانى الشعب، ثم جيء به مرة أخرى لتبوّء منصب الصدارة العظمى، ثم كان الرأى الراجح أن يتم إسقاطه من ذروة مجده وأوج عظمته".(٦١)

" ولما تولى عبد الحميد الإمارة كان يقول: "إذا جاء الدور علىَّ فى تولى السلطنة فلسوف أنقض على هؤلاء الذين خلعوا عمى وأنغص عليهم حياتهم وأقض مضجعهم، وكان عبد الحميد قد أحيط علما بالصورة الصحيحة للموقف".(٦٢)

---

(٦١) محمود جلال الدين باشا، ص٢٠٤ .

(٦٢) بروفيسور دكتور بكير صدقى بايقال، إظهار العبرة (مذكرات فخرى بك) (الحبا: هو الشخص المقرب من السلطان) – أنقرة ١٩٦٨م، ص١٣١ .

" إن القصر ينظر إلى مدحت باشا شزرا بازدراء وارتياب، إذ كان هو صاحب الرأى الأول فى إقصاء عبد العزيز ومراد الخامس كليهما عن العرش".(٦٣)

ويدون عبد الحميد فى مذكراته ما يتصل بهذا فيقول:" نجح مدحت باشا فى إبراز هؤلاء المتمردين، واشترك معهم فى عزل بعض السلاطية. وخرج من إطار رجل الدولة، ومن ثم فإنه لم يشعر قط أحد من الحكام بالثقة برجل يشترك فى إقصاء السلاطين، وليكن حينئذ عدوا للروح، ذلك الذى يُسقط السلطان الحاكم ويحل محله، ولم ير متمرد قط فى هذه الدنيا على قيد الحياة، وليتظاهر بما اضطلع به من نجاح يفخر به فى التدمير والتخريب".(٦٤)

كان مدحت باشا فى تلك الأيام شريكا فى إصدار الدستور والقانون الأساسى كليهما، وذاع صيته باعتباره أبا لهذين القانونين. ومن ثم كان لزاما عدم الخلط بين التخلص منه أو التخلص من الدستور وتعطيله، وقد بينا فى الفصول السالفة أن السلطان عبد الحميد الثانى كان مخلصا صادقا فى مناصرة الدستور وتأييده، وتدل الكتابات التى دونها محمود كمال إينال أنه لا سبيل إلى الارتياب ألبتة فى صدق السلطان وإخلاصه".(٦٥)

كان السلطان قد فقد الثقة بشخص مدحت باشا، ومع ذلك فإن تطبيق القانون الأساسى قد استمر بعد عزله ونفيه، حتى إن مجلس المبعوثان الذى اضطلع بطريق الانتخاب قد استمر فى قوته ونشاطه وجلساته مدة عام.

ومن أهم الأسباب التى تمخضت عن فقدان الثقة بمدحت باشا هو تلك الأقوال والأفعال الجريئة التى صدرت عنْهُ، ولا سيما عقب توليه منصب الصدارة العظمى، مما جعل هذه السلوكيات الشائنة المعيبة تقوى وتعضد فقدان ثقة السلطان به وعدم التعويل علية".(٦٦)

---

(٦٣) محمد محمود باشا، أسود الصدور، مطبعة الولاية، إستانبول ١٣٢٨هـ : ص٢٨ .

(٦٤) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص١٦ .

(٦٥) إينال، ج١، ص ٣٥٤ .

(٦٦) المصدر السابق، نفس الصحيفة.

وقع أول صدام بين عبد الحميد والصدر الأعظم مدحت باشا عقب إعلان القانون الأساسى وانعقاد مؤتمر إستانبول، ثم ما لبث أن ظهرت سلوكياته وتصرفاته فى مواجهة قرارات مؤتمر إستانبول سالف الذكر، وكان السلطان يتجنب نشوب الحرب ويسعى جاهدا دون وقوعها، فقد طلب إلى مدحت باشا قبول قرارات المؤتمر مع تغيير بعضها بغية منع الحرب.

بيد أن السلطان قد أخفق فى سعيه حتى إنه فكر فى عزل مدحت باشا وتنصيب رشدى باشا منصب الصدارة من جديد؛ رغبة منه فى تحقيق الغاية التى يسعى إلى تحقيقها، وسرعان ما استدعى السلطان مدحت باشا إلى القصر وقال له: " إن سبب الإتيان بك إلى هاهنا أنْ نناقش قرارات مؤتمر إستانبول ثم تعرض على المجلس العمومى فى الباب العالى".

ثم طلبت إليه تعديل بعض ما ورد فى لائحة الدستور ولكنه أبى، ولا ريب أن محتويات اللائحة تتحدى الدولة كلها من أجل الزج بها فى أتون الحرب ومعمعة القتال، وليس لنا خلفاء وأصر مدحت باشا على رأيه قائلا إن رجلا مثل صفوت باشا الذى يقيم بين مسجدين اثنين يبكى ولا يدرى ماذا عساه أن يصنع.

لقد أقبل علىَّ باكيا، ولما جاء إلى مدحت باشا فإنه لا يدرى ماذا سيقول، إننى لم أر شخصا ماثلا فى أفكارى ساريا فيها سوى صفوت باشا، أما أنتم فقد غذيتم الأناضول بنعمة خبز الأمة منذ عصر أبى وعصر الترك، وأعلم علم اليقين أنكم ذو حنكة وتجربة، ولآتين بك إلى هذا المقام الرفيع والمنزلة العالية، وتذكر نذر الخطر وهواجس الشر التى تلوح فى الأفق فى المستقبل القريب من أجل الأمة فى المجلس العمومى.(٦٧)

---

(٦٧) على فؤاد جلدى، مسألة سياسية مهمة، ج١، نشر الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٨٧، ص١٧-١٨ .

لم يستطع السلطان حذف القرارات التى يريدها من مؤتمر إستانبول، ولا سيما أن مدحت باشا هو الذى أخبره بهذا، وكان مدحت باشا فى هذه الأثناء معارضا لرغبات الإنجليز فى مؤتمر إستانبول رغم كل ما عرف عنه آنذاك بصداقته الحميمة لهم وتأييده المطلق لسياستهم، وعليه فقد أراد السلطان أن يعكر صفو العلاقة التى بين مدحت والإنجليز. وكان مؤتمر إستانبول بمثابة انقلاب وتغيير لنقش العملة الذهبية لمدحت باشا الإنجليزى حيث أعرض عن الإنجليز وولى دبره لهم، "بدأ سالزبورى يرى فى مدحت باشا صديقا حميما للإنجليز فى أول المؤتمر، فإذا به يراه عدوا لدودا فى نهاية المؤتمر، وقد عجلت الرغبة التى يضمرها سالزبورى فى إحداث انقلاب وتغيير فى شخصية مدحت باشا وسهلت هذا الانقلاب والتغيير".(٦٨)

وفى خاتمة كل هذه التطورات "استقبلت الحكومة الإنجليزية سقوط مدحت باشا ونفيه بصمت تام".(٦٩)

ولما أتى عبد الحميد بمدحت باشا إلى منصب الصدارة العظمى أخذ يتعقبه ويتتبع أثره ويضيق الخناق عليه، ثم جعل يراقبه من كثب بعد أن أصبح فى مقام الصدارة العظمى. أما مدحت باشا فقد جعل محل إقامته مكانا لاجتماع العثمانيين الجدد بصورة مستمرة، ولا سيما بعد إعلان القانون الأساسى، وكانت المسكرات تتعاطى فى هذا المكان كل مساء، ناهيك عن المحادثات غير اللائقة التى تتم تحت تأثير السكر مما سبب ضيقا شديداً للسلطان الذى بلغت مسامعه هذه الأنباء.

كان الصدر الأعظم مدحت باشا يجتمع حوله كل ليلة " شباب من أعضاء مجلس الشورى مثل نامق كمال ويفشى أسرار الدولة لهم".(٧٠)

---

(٦٨) شمشير، ص٢٦٦ .

(٦٩) شمشير، ص٢٦٦ .

(٧٠) محمود جلال الدين باشا، ص٢٣٧ .

إنه لا ريب مستغرق فى لجة الغفلة والغرور والحمق والجهالة، مثله فى ذلك مثل السلطان عبد العزيز، وإذا كان مدحت باشا قد تخلص من عبد العزيز لسوء خلقه ونقائصه فإن هؤلاء قد تخلصوا كذلك من مدحت باشا.

" فعينه لا تخشى شيئا قط، ولا يستحى من أى قبح مشين، ولا يفكر مليا فى عواقب الأمور ولا يميز بين العدو والصديق، فيتحدث بجرأة غير معهودة فى كل ما يريد، لا تردعه العبر والعظات ولا الملمات الجسام التى لاقاها فى مشوار حياته.

"أتشهد كل هذه السجايا والخلال لأمثاله بأنه يتمتع بالألمعية ووقدة الذكاء؟ إن كل من يتصف بهذه النعوت من كياسة وحصافة ودهاء يتبين أنه كان بعيدا عن السياسة، لا جرم أن فطرته وجبلته لم تكن تساعده على أن يكون رجل سياسة".(٧١)

لم يكن من اللائق أن يتفوه بكلام جزافى تعوزه الكياسة واللياقة ويخبط فيه خبط عشواء عندما قال: "لسوف أظل فى الصدارة العظمى ستة عشر عاما".(٧٢)

يقول إسماعيل دانشمند إن مدحت باشا كان Megaloman(٧٣). أى مصابا بجنون العظمة.

أما عبد الحميد فيقول : وإنَّ مدحت باشا وال حسن، بيد أنه مخطئ فى مضمار الإدارة السياسية، وكان فى تلك الحقبة يلتقى كثيرا برجال مشكوك فيهم فى نظر السلطان والوزراء.

أما ما يدور من أحاديث وسلوكيات لأعظم الحكام الدستوريين بما فيهم سلطان الشرق عبد الحميد فكانت تسمع كلها من فم الصدر الأعظم مدحت باشا منزله".(٧٤)

---

(٧١) إينال، ج١، ص٤٠٥ .

(٧٢) إينال المصدر والصفحة نفسهما.

(٧٣) دانشمند، ج٤، ص ٢٣٩ .

(٧٤) وداد عرفى، مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى، مطبعة عالم الإخوة، إستانبول ١٣٣٧هـ، ص١٦ .

كان مدحت باشا بأخلاقه وسلوكه ذا جبلة خاصة تدرجه في سلك الدكتاتور الطاغية، هو رجل تبوأ منصبه وذاع صيته عن طريق جرأته وحماسته المتصفة بالولوع بالتخريب والتحطيم، فهو نافذ الكلمة يفعل ما يريد، كلمته قانون لا يتغير، شديد التعصب لرأيه الشخصى فى كل عمل يُقدم عليه، صلب عنيد لا تلين له قناة.

وسعى فى غضون فترة وجيزة إلى تغيير وتبديل بنية الدولة المؤسسة منذ ستمائة عام ورأس جمعية تسمى " العثمانيون الجدد" حتى يشبع رغبته وطمعه ليتسنم ذروة المجد والارتقاء، وظن أنه بمثل هذه القدرة الواهية التى يستحوذ عليها يستطيع إقحام أعراف وتقاليد الدولة والأمة فى القالب الذى يريده هو.

ووقر فى ذهنه الاضطلاع بتمزيق شبكة إدارة الدولة وتحطيم نفوذ السلطنة وهيبتها واستئصال شأفتها متمثلا في هذا السبيل مصراعا من الشعر الفارسى يقول"دوريد ويوريد وشكسته بى بسته" ومعناه"لقد تمزق وتقطع وانكسر وتحطم وغل وقيد.(٧٥)

" إن مدحت باشا يضمر فى دخيلة نفسه حقدا دفينا وضغينة مستترة للمعترضين الرافضين لكلامه، وإذا ما سمع ثناء أو إطراء سرعان ما تنتفخ أوداجه ويتيه عجبا ومرحا".(٧٦)

وهاهو السلطان عبد الحميد يكتب عن سطوة مدحت باشا واستبداده وسوء فهمه للدستور فيقول:" كان مدحت باشا قد كف عن إصدار الأوامر منذ أول يوم تولى فيه منصب الصدر الأعظم، ثم أخذ بعد ذلك يميل نحو الاستبداد وينزع إلى التسلط فى معاملته بعد إعلان الدستور".

---

(٧٥) محمود جلال الدين باشا، ص٩٧ .

(٧٦) آيهان (عار فاورو ج)، كيف أُقصى السلطان عبد العزيز؟ وكيف انتهى ؟ج ١، مطبعة أحمد كامل إستانبول، (١٩٢٧)، ص٣٠٢ .

وإن الذين يعرفونه من كثب لا يخفون مدى استبداده وتعسفه فى الرأى أو الفعل، فقد كان يريد الحرية من أجل نفسه ليس إلا، وكان يقول: "نحن مدحت باشا واضع القانون الأساسى"، لا جرم من هذه الناحية أنه كان مؤيدا ومناصرا للدستور، وكانت هناك مناصرة له تمخضت عن الإنصات إلى المديح والإطراء الذى قيل فى شأنه، كما قرن اسمه بالتفريط فى بعض الكتب، ويرى مدحت باشا أن فوائد إدارة الدستور يمكن تأمينها فى أوروبا فقط، بيد أنه لم يتفحص أو يدقق مليا فى الأسباب التى أدت إلى النهضة والرقى فى أوروبا، وأنا أعتقد أن النظام الدستورى سوف لا يكون ذا فائدة مرجوة لكل قوم أو موائما لاستعداد كل أمة، مثله فى ذلك مثل دواء Sulfatömör(٧٧) الذى لا يفيد فى علاج كل مرض ولا يصلح كل جسد، ولا أحسب أنه سيكون حينئذ مفيدا ناجحا، وأنا على يقين الآن بأنه سيكون ذا ضرر جسيم (أى فى فترة تعطيل الدستور الأول). وعندما اقترح مدحت باشا إعلان القانون الأساسى لم يمحص الأمر أو يقدح زناد الفكر قط فى دستور الأمة، ولم يكن ذا فكر حقيقى موثوق به فى هذا السبيل، وكان"أوديون أفندى" هو مرشده ودليله فى هذا الدستور، وهو رجل لم يكن آنذاك حجة فى القانون متضلعا فيه، وأحسب أن هذا الرجل المنعوت بالجهل وضحالة المعلومات قد ذهب فى معية مدحت باشا إلى قلعة الطائف(٧٨)، ومما أزعج السلطان عبد الحميد وأقض مضجعه ظهور وحدة عسكرية شجاعة تابعة للعثمانيين الجدد، أسست تحت اسم" جمعية جند الأمة".

"وعهدت رئاستها إلى مدحت باشا، وأعلنت الجماعة إسناد هذه الرئاسة إليه، وكان السلطان يخشى من إمكان استخدام هؤلاء الجند فى عزله وإقصائه عن سرير العرش، ومن ثم فإنه أراد من قائد الجيش القضاء على هذه الفئة الباغية والشرذمة الفاسدة واستئصال شأفتهم، بيد أنه عجز عن تنفيذ ما أمر به على أى وجه من الوجوه، ناهيك

(٧٧) هو علاج يستخرج من شجرة الكينيا ويفيد فى علاج الحمى(المترجم).

(٧٨) على حيدر مدحت، الحياة السياسية لمدحت باشا وخدمته وشهادته، مطبعة الاجتهاد، القاهرة ١٣٢٢هـ، ص٢٢٦، محمود جلال الدين باشا، ص٢٤٠ .

عن أن هذه الجمعية كانت تريد كذلك الاضطلاع بإرسال الجند إلى البوسنة والهرسك من أجل إظهار عرى الاتحاد والتآلف بين المسلمين والنصارى، ووضعوا الهلال إلى جانب الصليب في راية النصارى تعبيرا عن هذا الاتحاد".(٧٩)

ثمة أسباب كثيرة أخرى أدت إلى حدوث الصراع والشقاق بين مدحت باشا والسلطان عبد الحميد، فقد أرسل مدحت إلى السلطان عريضة طلب فيها تعيين والٍ من غير المسلمين، ويقبل من غير المسلمين الالتحاق بالمدرسة الحربية، ولكن عبد الحميد رفض الطلبين واصفا إياهما بأنهما بمثابة عرضين يحطمان الأمة ويقوضان أركانها.(٨٠)

كانت تصرفات نامق كمال وضيا باشا وسلوكياتهما قد أغضبت السلطان وأثارت حفيظته، أما ضيا باشا فقد اتهم السلطان عبد الحميد بتأخير تطبيق القانون الأساسي بطرائق ملتوية، وجهر برأيه في صحيفة الاستقبال التي تروج لاتجاهه السياسي، وبناء على طلب السلطان إلى مدحت باشا تعيين ضيا باشا سفيرا في إحدى الدول الأجنبية وإبعاد شريكه في الإثم والجريمة (نامق كمال) عن إستانبول، أسرع الصدر الأعظم إلى تعيين ضيا باشا واليا على إزمير بدلا من إرساله خارج الوطن مما أثار سخط السلطان وأغضبه.(٨١)

ولما رفض نامق كمال مغادرة إستانبول أصر على عدم إرساله خارج البلاد قائلا: " أنا لن أرسل أحدا بالقوة، وليضطلع بهذا الأمر من سيأتي بعدنا".(٨٢)

انسحب مدحت باشا في إثر هذه الأحداث منزويا منعزلا في بيته، وكتب خطابا شديد اللهجة إلى السلطان، وكان هذا الخطاب الذي وصفه السلطان بسوء الأدب

(٧٩) علي حيدر مدحت، مذكراتي، إستانبول ١٩٤٦م، ص١٦ .

(٨٠) جريس، ص١٨ .

(٨١) جريس، ص١١٨ .

(٨٢) محمود جلال الدين باشا، ص٢٤٠ .

بمثابة القشة الذى قصمت ظهر البعير، ومما ورد فى هذا الخطاب " إن هدفنا من الإتيان بالدستور ووضعه وإعلانه هو القضاء على الاستبداد واجتثاث جذوره، إنه بمثابة تنبيه وتحذير للمهمة الملقاة على عاتق ذاتكم السلطانية، كما أنه يعد تعريفا وتحديدا لواجبات الوزراء وما يناط بهم من الاضطلاع بمسئوليات الدولة، ويؤكد كذلك سرعة العمل على تطوير أمتنا ورقيها ونمائها.

لا جرم أن الدستور عمل جاد وسلطانى ذو سعى حثيث لإصلاح حال الدولة عن طريق التعاون والتعاضد والاتحاد، حرى بالعثمانيين أن يستحوذوا بأنفسهم على مقومات الإصلاح والإدارة، أتعلمون أى نظام يكون فى كل أمة يدار الحكم فيها عن طريق الدستور؟ لا حاجة بنا إلى تعريفها، يا سيدى إننى أريد الأمان لك، وكن على ثقة برجالات الأمة".(٨٣)

بات عبد الحميد فى انتظار قرار عزله بعد هذا الخطاب الشديد اللهجة، بيد أنه لم يرد الاستقالة وكان يقول:" سوف لا أستقيل وليعزلنى السلطان"، ولن ألبى دعوته إلى القصر، وأخيرا جيء به إلى منزل صفوت باشا حيث أخذه إلى مجرة القصر وبجانبه سعيد باشا الذى جاء وطلب خاتم الصدارة العظمى من مدحت باشا، وقبيل تسليم الخاتم تفوه مدحت باشا بألفاظ من باب الدفاع عن نفسه ثم قال:" أقسم بالله العظيم إننى لا أعلم شيئا عن جمعية جند الأمة، فلعنة الله على الفاسقين الضالين الفاجرين، إنها زمرة انبثقت فى الوجود عن طريق الخديو حليم باشا وبرشوة من الروس. ولو أنكم نفيتمونى وطردتمونى من هنا فالله يعلم أن الأمة ستهلك لا محالة، وسيأتى الأسطول الإنجليزى المتمركز فى خليج" باشيكة " إلى هنا فى غضون أيام ثلاثة، ففكروا فى هذا الأمر مليا".

ثم قال هل يعلم الوزراء شيئا عن هذا الأمر؟ وعندما أجاب سعيد باشا أنا أعلم، أردف مدحت باشا قائلاً " اذهب وقل لسيدنا إننى لا أعلم عن هذا الأمر شيئا

---

(٨٣) على حيدر، حياة مدحت باشا، ص٢٦٥ .

وإلا فامنحوني الأمان، واقبضوا عليَّ بعد ذلك وألقوا بي سجينا في حجرة القصر السلطاني، ولا يتوجب الذهاب إلى بيتي، ولأشاهدن كل ما يجري من هنا، ولما أصر سعيد باشا على طلب الخاتم قال مدحت باشا: اللهم ارحم هذه الأمة ثم ألقى بالخاتم أمام سعيد باشا قائلا له: "سأكون اليوم بعيدا عن الوظيفة، ولكن كونوا واثقين بأن السلطان عبد الحميد لن يتسنى له أن ينعم بالطمأنينة وراحة البال في هذا القصر".(٨٤)

ويقال إنه أردف هذا بقوله "ولا أستطيع أن أرى سيدنا السلطان المهيب في مكانه عند عودتي".(٨٥) ثم سيق به بعد عزله إلى الباخرة" عز الدين" حيث عهد إلى ضابط بحري يدعى سليمان بك ليتولى نقله إلى أوروبا، ثم قدموا لسليمان بك ظرفا ليتحرك بموجب ما هو مكتوب بداخله ولا يفتحه إلا بعد مضي أربع وعشرين ساعة؛ خشية حدوث تمرد أو عصيان مؤيد لمدحت باشا، بيد أن هذا التمرد المرتقب لم يحدث، ولم يحدث سوى رد فعل واحد اضطلع به أربعة من طلاب المدرسة الحربية بعد إرسال مدحت باشا إلى منفاه في الخامس من فبراير سنة ١٨٧٧م.(٨٦)

ويدون السلطان عبد الحميد في مذكراته واصفا رد الفعل الذي نجم عن نفي مدحت باشا وعزله قائلاً:" كان مدحت باشا على يقين تام من درجة الحب الذي تكنه الأمة له إبان وجوده في منصب الصدارة العظمى، فقد اشتعلت ثورة كبرى؛ خشية من عزله إياي في ذلك الوقت، ولربما لم ير ضرورة إخفاء أو مدارة نيته على إعدامي.

ولهذا فعندما أقدمت على نفيه إلى أوروبا لم ينبس أحد ببنت شفة، بل هنأتني زمرة كبيرة من الوزراء وكبار رجالات الدولة، ودبج الشعراء الأماديح فيَّ والأهاجي المقذعة فيه، ونشرت الصحف والكتب هذه الأماديح والأهاجي.

---

(٨٤) على حيدر، اللائحة والاستطراد، ص ٢٦٨ .

(٨٥) إينال : ج١، ص ٣٦٤ .

(٨٦) جوري، لماذا كان الانقلاب وكيف حدث، مطبعة الاجتهاد، إستانبول ١٩٠٩م، ص ١٢ .

إذا لم يكن لنقاء سريرة مدحت باشا وصفاء روحه درجة أو مقياس فإننى لم أر ضرورة لتوضيح هذه المسألة فى هذا المقام، لا أريد التفوه إلى حد يليق بإدارة دستور الأمة التى تشكر هذا الرجل المستنير، ولا أتحدث كذلك عن التزام الشعب بالصمت التام تجاه إبعاده عن الصدارة العظمى، وعن الأمة، وذلك من قبيل أن يجف مداد هذا الدستور لولى النعمة الذى منحه الحرية.

"إن الذين أعلنوا أننى أكبر نصير للحكم الاستبدادى وأننى أشد المستفيدين من هذا الحكم عليهم الاعتراف بهذا بعد أن أنسحب من الدنيا على أقل تقدير، وعلى هؤلاء أيضا أن يصفحوا عنى".(٨٧)

قال مدحت باشا الضابط البحرى سليمان بك فى أثناء إبحار الباخرة شارحا له ما يتصل بمقدار رد الفعل لعزله ونفيه: "إن سلطاننا طفل صغير، خدعوه وأقنعوه قائلين له إننى فى سبيلى إلى إعلان الجمهورية، ولسوف أنصب نفسى رئيسا عليها، وأسفى أنه قد انتهى الدستور ولا سبيل إلى رقى فى الأمة وتقدمها".(٨٨)

عزل عبد الحميد مدحت باشا ونفاه مستندا فى ذلك إلى المادة ١١٣ من القانون الأساسى(٨٩)، تركت الباخرة" عز الدين" مدحت باشا فى ميناء" بنديزى" فى طرابلس برج، ثم يمم وجهه من هنالك صوب أوروبا، وقد قوبل عزل مدحت باشا ونفيه إلى أوروبا برد فعل قوى على لسان كل من: ثيرس رئيس جمهورية فرنسا، والملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا، وفرانسز جوزيف إمبراطور النمسا، حيث أبدى هؤلاء جميعا شعورهم بالقلق وأسفهم على نفى مدحت باشا وطرده، أما روسيا فقد سُرت كثيرا لنفيه وعزله".(٩٠)

---

(٨٧) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٢٣-٢٤ .

(٨٨) إينال، ج١، ص٣٧٤ .

(٨٩) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٤١-٤٢ .

(٩٠) بكير صادق بايقال، شخصية مدحت باشا السياسية والإدارية، إستانبول ١٩٦٤م، ص ٦٨، أحمد صائب، أوائل سلطنة عبد الحميد، ص ١٢٧ .

إن الدموع التى ذرفها بعض رجالات الحكم فى أوروبا كانت أشبه بدموع التماسيح، ألم تكن هذه الدول بعينها هى الرافضة لإعلان الدستور فى تركيا فى أول يوم من مؤتمر إستانبول واصفة إياه بأنه" ألعوبة طفل"، ولو كانوا حقا يحبون العثمانيين ومدحت باشا لمنحوا الفرصة لتطبيق الدستور، إنهم لم يتخلصوا من مدحت باشا والدستور كليهما فحسب، بل زجوا بتركيا كلها فى أتون الحرب مع روسيا، ويتحدث عبد الحميد فى مذكراته قائلا": لو لم يكن مدحت باشا متصفا بصفتى الحماقة والعنف لظل في منصب الصدارة أطول فترة ممكنة".(٩١)

لقد أغضب أنصار الدستور ومؤيدوه السلطان، وأثاروا حفيظته بحماقتهم وطيشهم وتدليلهم ودجلهم وشعوذتهم، وكان مدحت باشا هو السبب الأول فى القضاء عليهم واستئصال شأفتهم.

ولو هم مدحت باشا بالحركة بحيطة وحذر ونضج ووعى لاستطاع أن يحصل على نتائج أفضل من أجل كل شخص فى الأمة. ولما عزل مدحت باشا سرعان ما حل أدهم باشا فى تولى منصب الصدارة العظمى.

افتتاح مجلس المبعوثان

كان عزل مدحت باشا ونفيه قد غيَّر مسار المظاهرة المؤيدة للدستور، وكان يريد أن يعطى انطباعا فحواه أن الدستور قد اندثر ودرست معالمه بسبب عزله، وستظل ديمومة الدستور مرهونة بشخصيته مرتبطة به، أما ما تفوه به من كلام غير لائق مثل " لقد انتهى الدستور"، "رحم الله الأمة" فهو قول سطر فى صحيفة أخطائه، ومن ثم فإن عبد الحميد اتهمه بسبب هذه التصرفات بالأنانية والغرور وحب الذات.(١٥٩)

---

(٩١) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٢٤ .

(٩٢) المصدر السابق، ص ٤٢ .

كان عزله ونفيه قد أُول على معنى تعطيل الدستور، بيد أن كل شيء قد استمر ماضيا في سيره الطبيعي.

وفي إطار هذا العمل الدءوب أجريت الانتخابات في الولايات والأقاليم لانتخاب أول مجلس مبعوثان من أجل الدستور، وافتتح هذا المجلس في السابع من مارس سنة ١٨٧٧م، أما جماعة تركيا الفتاة الذين ما انفكوا يرون أن وجود الدستور مرهون بشخصية مدحت باشا، فإنهم دأبوا على الافتراء على السلطان وتشويه سمعته بسبب افتتاح هذا المجلس وكتبوا في هذا الصدد ما يأتي:

" إن السلطان الذي اضطلع بنفي مدحت باشا من إستانبول قد افتتح مجلس المبعوثان في السابع من مارس سنة ١٨٧٧م بمراسم احتفالات خاصة في قصره بمنطقة " بشكتاش "، ولسوف يغلق هذا المجلس بعد أحد عشر شهرا لكي يمحو من مخيلة الناس الشعور الجارف تجاه من غذى الدستور وبث في تضاعيفه نبض الروح والحياة".(٩٣)

" ومهما يك من أمر فإن فتح مجلس المبعوثان كان ضرورة ملحة من أجل تهدئة الاضطرابات والفوضى التي بدأت تطل برأسها من كل حدب وصوب على أرجاء الأمة، وبث الطمأنينة في الأفكار العامة التي لم تتحقق بغيتها المرجوة وأملها المنشود حتى الآن".(٩٤)

يتكون مجلس المبعوثان من مائة وخمسة عشر مبعوثا، منهم تسعة وستون مسلما، وستة وأربعون من غير المسلمين، ويضم كذلك ستة وعشرين مبعوثا ممن يختارهم السلطان، ويمثلون ما يعرف بمجلس الأعيان أو مجلس الشيوخ.

---

(٩٣) أحمد بدوي قوران، النضال القومي والحركات الثورية ضد الدولة العثمانية، إستانبول ١٩٥٩ م، ص ١٢١ .

(٩٤) جوري، ص ١٣ .

قرأ سعيد بك خطاب السلطان الذى أعده فى المجلس مستهلا بقوله" السادة الأعيان والمبعوثان، لقد تجلى بوضوح السعادة الغامرة المحسوسة إثر فتح هذا المجلس، ولسوف ننتقل إلى الرقى والتقدم عن طريق العدالة المنشودة، وقد ناقشنا تلبية رغبة أولئك العثمانيين المنتسبين إلى كل عرف ودين والذين يعيشون على هذه الأرض منذ ستمائة سنة، والذين يريدون العيش فى رفاهية وبحبوحة وأمن وطمأنينة متحدين ملتفين حول القانون الأساسى.

ثم جاء فى نهاية الخطاب : "ومما هو مطلوب كذلك أن يصدر المجلس القوانين الخاصة بالمالية والمدارس والموظفين، والاضطلاع كذلك بوضع أسلوب تصحح بمقتضاه قرارات مؤتمر إستانبول حتى لا تضر باستقلالنا وسيادتنا، وفقنا الله تعالى أجمعين فى سعينا وسدد خطانا".(٩٥)

وهكذا نرى أن السلطان كان ينود عن حياض الوطنية، ونعنى بها العثمانية الملتفة والمجتمعة حول القانون الأساسى، كما كان ذا رغبة مخلصة صادقة فى وضع دستور يعمل من أجل إصلاح حال الأمة وإنقاذها، وهذا بعينه ما أراد أن يقدمه للأمة.

(٩٥) الخطاب السلطانى (خطبة السلطان عبد الحميد الثانى فى افتتاح مجلس المبعوثان) ص١-١٢ .

الفصل الرابع

الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م وإغلاق مجلس المبعوثان

كان من الضروري التقيد أو عدم التقيد بقرارات مؤتمر إستانبول المتعلقة بالدولة العثمانية سواء نشبت الحرب التركية الروسية أم لم تنشب، وإن رفض هذه القرارات في المجلس العمومي المنعقد بتاريخ ١٨يناير كان يعني أن الحرب سالفة الذكر أصبحت قاب قوسين أو أدنى، بيد أن روسيا لم تستطع أن تنزع الدول الأوروبية من تركيا، ناهيك عن أن عدد من لا يريدون زج الدولة في الحرب سالفة الذكر يفوق عدد من يريدون إقحامها في هذه الحرب، وهؤلاء كانوا يخافون من إنجلترا ويريدون أن يأمنوا جانبها، وكان يلوح في الأفق كذلك رد الفعل الذي سوف تظهره النمسا تجاه روسيا، وكان الإسكندر الثاني قيصر روسيا قد اضطلع بإرسال الجنرال إيجنيتاف في مارس سنة ١٨٧٧م من أجل بذل المساعي الأخيرة للحيلولة دون نشوب الحرب، ومر في طريقه بكل من برلين وباريس وفيينا حتى وصل في نهاية المطاف إلى إنجلترا.

وفي يوم ٣١ مارس سنة ١٨٧٧م تم توقيع بروتوكول يحمل اسم" برتوكول إنجلترا" بين سفراء الدول الكبرى، وأدخل هذا البروتوكول تغييرا في قرارات مؤتمر إستانبول لصالح الدولة العثمانية، وهذا هو نص التعديل:"سوف يمنح جزء من الأرض إلى جمهورية الجبل الأسود مع عقد صلح معها، ولسوف تحقق إصلاحات في أرض البلقان والبوسنة والهرسك يضطلع بها الباب العالي بصفة مباشرة، ولسوف يرسل سفير الدولة العثمانية إلى بطرسبرج لمناقشة تسريح متبادل للجيشين التركي والروسي".

وقد رفض مجلس المبعوثان العثمانى هذا البروتوكول فى ١٠ أبريل سنة ١٨٧٧م، أما روسيا التى لم تزل خائفة من إنجلترا فقد أرادت الانسحاب خطوة إلى الوراء حيث أرادت منح مقاطعة"نيكشيك" فقط إلى جمهورية الجبل الأسود، كما وعدت بإرسال سفير لها إلى بطرسبرج.(١)

أما بلغاريا فقد انكمشت وابتلعت وباتت عاجزة خائرة القوى، وعقدت روسيا صلحا مع الصرب، ثم ما لبثت أن عقدت اتفاقية سلام مع جمهورية الجبل الأسود، وما دامت قد منحتها منطقة" نيكشيك" فسوف ينتهى كل شىء، وكانت هذه المنطقة غير مسلمة وعدوا لدوداً للترك.

أما قيصر روسيا فكان يقلل من شأن منح هذه المقاطعة إلى روسيا التى ستقضى على كل رغباته، وقال إنه فى حالة منح هذه المقاطعة للجبل الأسود فإنها سوف تحول دون نشوب الحرب، وأنها ستكون بالنسبة له مسألة كرامة على أقل تقدير، ولكن مجلس المبعوثان رفض هذا الطلب قائلا: "إننا لن نعطى أحدا ولو مقدار شبر من الأرض"، أما موظفو الجبل الأسود الذين جاءوا من أجل بحث مسألة الصلح فإنهم سرعان ما غادروا إستانبول، ويمموا وجوههم إلى طريق أوديسا قاصدين معسكر" كيشنو" حيث لاذوا بحماية إمبراطور روسيا وحصلوا منه على وعد بتقديم المساعدة، وكان هذا بمثابة سبب جوهرى لتفجر الحرب مع روسيا(٢)". أخذ السلطان عبد الحميد بعد ذلك يقاوم حكاية " نيكشيك " ويقصها على مسامع ابنته شادية قائلا لها:" لقد أخذنا حذرنا بألا ندع شبرا واحدا من الأرض للجبل الأسود إبان حرب سنة ١٨٣٩م، لأننا كنا بعد فترة وجيزة سنقوم بتسليم الإمبراطورية العثمانية إلى الروس الزاحفين صوب أبواب إستانبول".(٣) بات من الضرورى أنه لا سبيل إلى اجتناب الحرب، فقد حررت تركيا

---

(١) دانشمند، ج٤، ص٢٩٩ .

(٢) تورك جلدى، ج٢، ص١٨-١٩ .

(٣) شادية عثمان أوغلو، عضة حياتى وأيامها الحلوة، إستانبول ١٩٦٦م، ص١٠٧ .

تماما أوروبا، وإذا ما اشتعلت الحرب فإن الدول الأوروبية كلها سوف تعلن حيادها وعدم انحيازها، بيد أن إنجلترا أعلمت روسيا فى مذكرة أرسلتها فى الخامس من مايو سنة ١٨٧٧م، فحواها أنه إذا أقدمت روسيا على تهديد إستانبول وخليجى الإسكندرونة والبصرة فإنها سوف تنقض حيادها وتبطل عدم انحيازها. ولما طمأنت روسيا إنجلترا أسرعت الأخيرة بالمحافظة على حيادها وصيانته.(٤)

السلطان عبد الحميد يرفض الحرب

يأتى السلطان عبد الحميد على رأس أولئك الذين لا يريدون خوض غمار الحرب مع الروس.(٥)

ولم يكد السلطان يجلس على العرش حتى طلب منْ وزرائه سرعة التحرك نحو الاضطلاع بإصلاحات فى الروملى كى يقطع الطريق على مؤتمر إستانبول ويكون عقبة كأداء تعترض سبيله.(٦)

وكان يخشى من الشروط الصعبة ثقيلة الوطء التى سيقدمها مؤتمر إستانبول، والتى سوف تزج بالأمة فى حرب مع الروس. ولما لاح فى الأفق بعد ذلك سلوك شائن لكل الوفود التى دارت فى فلك المندوب الروسى إيجانتيف دون أن تترك حق المساومة، فإما القبول بقرارات مؤتمر إستانبول وإما الرفض، وهذا ما كان يخيف السلطان فى المقام الأول. باتت نذر اشتعال الحرب بين روسيا وتركيا تلوح فى الأفق، وكان مدحت باشا يميل إلى تأييد الحرب، كما كان يؤثر الحرب على الإذعان والخضوع لقرارات مؤتمر إستانبول، وشحنت نفوس الشباب لتأييد هذه الحرب وأخذ طلاب المدارس

---

(٤) أندرسون، المسألة الشرقية، نيويورك، ١٩٦٦م، ص١٩٦ .

(٥) عثمان نورى، ج١، ص٢١٨، بيرس، أربعون عاما فى القسطنطينية، ص١٠٥ .

(٦) خوجة أوغلو، ص ٣٧ .

يقبلون على القصر رافعين عقيرتهم بالصياح قائلين: "نريد الحرب"، ولنقرأ ما كتبه السلطان فى هذا السياق:" جاء هؤلاء الطلاب إلى ساحة القصر مطالبين السلطان بالدعوة إلى إعلان الحرب قائلين لا شىء إلا الحرب، لا تخف يا سلطاننا، إنك شاب فتى ولدينا ما يربو على مليون جندى، ونحن جاهزون متأهبون على قدم وساق".(٧)

وقد كان هناك ضغط شديد على السلطان مراد الخامس عند اعتلائه العرش للمرة الثانية كى يؤيد الحرب ضد روسيا، وترددت شائعات رائجة آنذاك تزعم بأنه نصير مؤيد لموسكو، مما أمرض السلطان مراد، واشتدت عليه وطأة العلة بسبب هذه الأقوال والشائعات المغرضة.

أما مدحت باشا المؤيد للحرب فقد كان يحرض السلطان على خوض هذه الحرب بناء على معلومات خاطئة برمتها، كما كان يقول فى كل مناسبة إن هناك خمسمائة ألف من الجنود على أهبة الاستعداد، معتمداً فى قوله هذا على سجلات إدارة الجند ودفاترها، وقد ظهر آنذاك أن الأمر المتعلق بإرسال الجنود قد نجم عنه حالة من العجز والقصور، حيث كان هؤلاء الجند فى حالة من الاحتياط والحذر. ويكتب محمود جلال الدين باشا فى هذا الصدد فيقول:" لقد لاحت فى الأفق أدلة وبراهين جازمة تثبت أن أمتنا التى تمر باضطرابات وفتن داخلية لا يمكن أن يزج بها دون حلفاء فى أتون الحرب مع دولة قوية مثل روسيا، ولم تتخذ تدابير سوى التعجيل بنشوب الحرب، ولا يتردد فى المجالس إلا التفوه بمثل هذه الكلمات" إن لدينا ما يتراوح بين ستمائة إلى سبعمائة ألف جندى على أهبة الاستعداد، ولا سبيل إلى تحسين أحوالنا إلا بالحرب".(٨)

أما سالزبورى رئيس الوفد الإنجليزى آنذاك فكان دائما يحذر السلطان والصدر الأعظم كليهما من العواقب الوخيمة للحرب، وفداحة الطامة الكبرى التى ستصيب تركيا من جراء اشتعالها، وعرض عليهما بوضوح تام الأفكار الإنجليزية المتعلقة بميلها

---

(٧) السلطان عبد الحميد خان، آرائى فى الدولة والأمة، إستانبول ١٩٧٦م، ص١١٨ .

(٨) محمود جلال الدين باشا، ص٢٨٦ .

إلى الإحجام عن مساعدة تركيا مما ألقى الخوف فى روع السلطان الذى أسرع باستدعاء الوزراء لعقد اجتماع عاجل عقب لقائه مع سالزبورى، وانضم إلى هذا الاجتماع كل من: مدحت باشا وصفوت باشا ونامق كمال وسعيد باشا ورديف باشا وشيخ الإسلام حسن خير الله أفندى وقال لهم:" لقد ذكرتم للناس أن الجيش الذى سيحارب الروس تعداده سبعمائة ألف جندى، ولكن البرقية التى وصلتنا من أحمد مختار باشا قائد الجبهة الشرقية فى الأناضول بأن هناك ثلاثين ألف جندى حلوا محل ثلاثمائة ألف، ناهيك عن التحذير الذى قدمه اللورد سالزبورى، وأنتم لا تزالون حتى هذه اللحظة تصرحون للناس سواء فى الصحف أم لا بأن إنجلترا صديق حميم للدولة العلية وستكون متحالفة معنا، وستقدم لنا يد العون والمساعدة وقد أخبرنى رئيس الوفد الرسمى لإنجلترا بأن إنجلترا لن تقدم أى نوع من المساعدة إذا ما نشبت الحرب بيننا وبين الروس. ويفهم من هذا أنكم خدعتمونى أنا والشعب فى هذه الحالة.

ومن المعلوم سلفا أن النمسا متفقة مع روسيا بخصوص البوسنة والهرسك، ونيات اليونانيين معروفة لديكم، وقد اضطرت الدولة إلى إرسال ثلاثين إلى أربعين ألف جندى إلى الجبل الأسود، كما أن الذخيرة والبنادق التى فى حوزتنا ناقصة، وأن دخول الحرب فى هذه الحالة هو مسئولية كبرى، ناهيك عن المذلة التى لا سبيل إلى تصورها، كما أن طلبة المدارس يأتون إلى القصر وهم يصيحون الحرب الحرب، ويخرج صغار الأطفال للتظاهر حاملين فى أيديهم البنادق، لقد فقدت صحتى ونومى، ويتوجب البحث عن وسيلة سريعة جازمة فى هذا السبيل".(9) وبعد هذه الكلمات التى تفوه بها عبد الحميد أقبل مدحت باشا وقال "إن الإنجليز(10) وعدونا ثم أخلفوا وعدهم وكذبوا على

(٩) خوجة أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص٤٢ .

(١٠) لم يكن هناك وعد، وهذا ما أخبر به سالزبورى مدحت باشا فى خطابه له، أنه إذا ما اشتعلت الحرب بين الترك والروس فإن إنجلترا لن تقدم أى معونة إلى تركيا.

أفنديـنا، وعلى كل حـال فـإنهم سـوف يسـاعـدوننا، بيـد أننا قلقـون، ولقـد قـال كل من محمود باشا ورديف باشا إن عدد جنودنا سبعمائة ألف، ولا ريب أن التملق هو عادة متبعة عندنا، وما دام الأمر كذلك فلا سبيل إلى القوة، ويتوجب إلقاء التبعة على عواتق المتملقين. ثم عقب محمود باشا على كلمة مدحت باشا ورد على كلامه قائلا:" أنا موظف مضطلع بشئون الإدارة موكل بتقديم المدافع والبنادق إذا طلبها هؤلاء، ولا قبل لى بالتدخل فيما هو موكول إلى قائد الجند "، ثم أراد السلطان الرد على هذه الأشياء من خلال رئيس الجند رديف باشا الذى قال " كيف أحمل على عاتقى وزر هذه المسئولية وحدى؟ إن هذه إهانة وازدراء لي، وأنا موافق على قبول هذه المسئولية مع كل الوزراء أجمعين". أما عبد الحميد الذى لم يتسن له إدراك معنى ما يدور بين هؤلاء وهؤلاء فإنه أسرع من فوره فدخل حجرات الوزراء وأراد أن يبحث الموقف معهم ويحيطهم علما بالقرار الذى اتخذه، واجتمع بالوزراء فى جلسة استمرت من ثلاث إلى خمس ساعات، بيد أنهم عجزوا عن تقديم نتيجة قاطعة إلى السلطان.(١١)

حينئذ أدرك السلطان أنه لا سبيل إلى اجتناب الحرب أو الحيلولة دون وقوعها بقراراته ومساعيه الحثيثة، ويدون هذا فى مذكراته على هذا النحو قائلا:" لقد تركت للأمة أن تقرر هى قبول الدخول فى حرب مع روسيا أو عدم القبول".(١٢)

لقد رفضت قرارات مؤتمر إستانبول إبان اجتماع المجلس العمومى لأول مرة فى ١٨ يناير سنة ١٨٧٧م، وبات معلوما بعد ذلك ألا سبيل إلى اجتناب الحرب بناء على رفض مجلس المبعوثان لبروتوكول إنجلترا أثناء افتتاح هذا المجلس فى غضون شهر مارس من العام نفسه، ولو كان المجلس يريد منع الحرب لاستطاع ذلك فى آخر لحظة، كما يوجد فى روسيا رفض قاطع لخوض غمار هذه الحرب.

---

(١١) خوجة أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص٤٣ .

(١٢) وداد عرفى، ص١١ .

كان" جراندوق قسطنتين " شقيق قيصر روسيا يعارض دخول الحرب بصورة قاطعة لا شك فيها، وكان يرى أن الروس لا يرون حتى الآن أى فائدة مرجوة من الحرب والتضحية التى بذلوها من أجل نصارى البلقان. أما إيجانتيف فكان يريد الحرب رغبة منه فى تحقيق منفعة غير مشروعة للجنرالات الشبان.(١٣)

أما القيصر فقد رأى رغبة جارفة تؤيد الحرب ولا قبل له بالحيلولة دون نشوبها، وأرسل سفيرا له من إستانبول إلى بطرسبرج، حتى إنه عمد إلى نقض عهده الذى يقضى بمنح مقاطعة" نيكشيك" إلى الجبل الأسود. ويرى أحمد جواد باشا " أن هذه كانت آخر فرصة ضيعناها للحيلولة دون وقوع الحرب، والسبب فى ذلك أن رديف باشا ومحمود باشا كليهما هما اللذان خدعا الوزراء ومجلس المبعوثان قائلين لهما: إن لدينا ستمائة ألف جندى".(١٤) ولما رفض الطلبان الأخيران السالف ذكرهما قررت روسيا إعلان الحرب على تركيا كى تستحوذ بالقوة على الأشياء التى استولت عليها أوروبا من الدولة العثمانية التى عجزت عن استردادها.(١٥)

وهكذا نرى أنه على الرغم من المعارضة القوية لعبد الحميد الثانى فإن النتيجة التى تمخضت عن قرارات مجلس المبعوثان تعنى أن الدولة العثمانية باتت على وَشْك الخوض فى غمار الحرب. وكان على حيدر بن مدحت باشا يريد خوض الحرب لتكون وسيلة حتمية يتوسل بها عبد الحميد لغلق مجلس المبعوثان، أما قوله" أنا لا أريد الصلح وسأحارب حتى النهاية" فهو محض مزاعم لا أساس لها من الصحة، وما هو إلا هذيان أنصار تركيا الفتاة الملفق المزيف من أجل الدفاع عن أبيه مدحت باشا.

---

(١٣) خليل سدس: الحرب العثمانية الروسية الرومانية، المطبعة العسكرية، إستانبول ١٩٤٠، ص٤٢٠ .

(١٤) أحمد جودت باشا، التذاكر، تتمة ٤٠، أعداد باقال،نشر الجمعية التاريخية التركية، أنقرة ١٩٦٧، ص١٧٠ .

(١٥) محمود جلال الدين باشا، ص ٢٨٦

هل أدار السلطان عبد الحميد دفة الحرب من قصر يلديز

بدأت الحرب التركية الروسية بإعلان روسيا الحرب على تركيا فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٧م، وسرعان ما بدأت الدولة العثمانية تصاب بالخسائر على كل الجبهات لأنها لم تكن على أهبة الاستعداد للحرب، ولما شرعت تركيا فى اعتراض سبيل الجيش الروسى عن إستانبول اضطرت اضطرارا لعقد اتفاقية صلح مذعنة للهزيمة النكراء التى منيت بها. وبعد الحرب والصلح سرعان ما احتدم الجدال والنقاش بصورة دائمة حول أسباب الهزيمة ولا سيما أن جماعة تركيا الفتاة كانوا يريدون إلقاء المسئولية برمتها على كاهل أولئك الذين كانوا أعداء ألداء لعبد الحميد فى منطقة "سان ورمه لرى" والذين كانوا بدورهم يرون أن المسئولية كلها تقع على عبد الحميد وعليه أن يتحمل وزر هذه الحرب، وسبب هذا الاتهام ما نسب إليه من أنه يريد أن يدير الحرب من قصر يلديز(١٦). وهاهو ذا ظهورى دانشمن يكتب فى هذا الصدد فيقول: "لقد تشكل مجلس حرب فى إستانبول واضعا فى حسبانه أوجه التقصير والإهمال للسلطان عبد الحميد فيما يتصل بالجبهة العسكرية للقتال، ولسوف يُسير هذا المجلس الحركة فى هذه الجبهة، ورأى المجلس جوانب التقصير الظاهرة بجلاء فى هذه التدابير. ولم تقدم إدارة هذا المجلس نتيجة مرضية من مكانه البعيد لأنه لم يطلع يوما بيوم على الموقف فى جبهة القتال، ورغم هذا فإن التدابير الأولية التى اتخذها هذا المجلس تعد ناجحة موفقة".(١٧)

ويأتى فى صدارة هذه التدابير الإيجابية ما صدر من أوامر إلى غازى عثمان باشا بالسير تجاه منطقة "بلونه pelvene" والاستحواذ عليها، دون أن يتحرك سليمان باشا فى معية قوة قوامها خمسة وعشرون ألف جندى من ميناء"بار Bar" ثم يعبر ميناء "دده آغاج" بالقطار موليا وجهه شطر ممر"شبقة". ويرى الأميرال الإنجليزى

---

(١٦) جورى، ص ١٤ .

(١٧) ظهورى دانشمن، السلطان عبد الحميد، إستانبول ١٩٦٦م، ص٧٧ .

"وودزWoods" الذى عهد إليه بإصلاح البحرية العثمانية أن السلطان عبد الحميد كان هو القائد الأعلى للجيش بناء على ما ورد فى الدستور.

"وضع السلطان لجنة خاصة فى قصر يلديز بناء على هذه السلطة التى خولها له الدستور، ولسوف يتسنى لهذه اللجنة متابعة قضايا الأمة من كثب كما ستضطلع بدور أكثر فعالية وقوة".(١٨) أجمع كل الخبراء على أن الخسارة التى منى بها قادة الحرب كانت بسبب سوء الإدارة، ولهذا السبب بات من المتعذر اتهام عبد الحميد أو إلقاء التبعة عليه.(١٩) وإذا ما حللنا أسباب الهزيمة التى حلت بالدولة العثمانية بصورة كلية ألفينا أن السبب الأساسى يتمثل فى عدم كفاءة القادة والأخطاء الموجودة فى تنظيم الجيش، ناهيك عن عدم استعداد الدولة لخوض غمار هذه الحرب.(٢٠)

ومن هذه الأسباب كذلك أن الجيش العثمانى قضى مدة مائتين وعشرين يوما فى خوض هذه الحرب منها خمسة عشر يوما فى منطقة "بلونه Pelvene".(٢١)

ومن القرارات الصائبة فى هذه الحرب ما اضطلع به السلطان بأن عهد إلى أحمد مختار باشا مهمة الدفاع عن أرضروم، وهناك أصبح الدفاع عن حصون العزيزية وقلاعها واحدا من الدفاعات المشهورة المعروفة، مثلها فى ذلك مثل الدفاع عن "بلونه" Pelvene، لا سيما وأن السلطان عبد الحميد الثانى دخل الحرب وهو يعلم أن القادة لا يتمتعون بالكفاءة والمقدرة التى تؤهلهم لخوضها.

ومن الممكن ظهور كل الاحتمالات المتباينة فى حالة نشوب الحرب، حتى إن أهم القرارات الإيجابية تبدو أحيانا وقد تمخضت عنها نتائج سلبية، وخسرت الدولة الحرب رغم المساعى والجهود التى اضطلع بها السلطان.

---

(١٨) وودز، ص١٢٠ .

(١٩) قول أغلو، حقيقة عبد الحميد، ص٢٩ .

(٢٠) كجه زاده فرات باشا، الفرصة الضائعة، جبهة الروملى فى الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م، مطبعة أحمد إحسان إستانبول ١٣٢٥هـ، ص٢٣، ١٧٢ .

(٢١) المصدر السابق: ص ١٤٨ .

وكانت هناك رغبة ملحة فى وقف إطلاق النار وعقد الصلح عندما استحوذ الروس على أدرنة، وعاشت الدولة العثمانية أشد أيامها أزمة وضيقا عندما رغبت فى الصلح إبان شهر فبراير سنة ١٨٧٨م، وكانت حينئذ فى مواجهة خطر محدق متمثل فى ضياع العاصمة إستانبول وفقدانها.

كانت الجيوش العثمانية على مسيرة يوم واحد من وصولهم إلى إستانبول وفكر السلطان عبد الحميد فى العاصمة القديمة "بورصة" ثم عدل عن هذا الرأى بعد ذلك(٢٢)، إذ إنْ ذهب إلى بورصة فلن يتسنى له العودة ثانية إلى إستانبول، وكان يقول: "إذا كنت سأموت فلأقضين نحبى هاهنا".(٢٣)

ويستفاد مما شرحه السلطان إلى طبيبه الخاص الدكتور"عاطف حسين" أنه كتب رسالة إلى قائد الجيش الروسى" جراندوك نيقولا" حذره فيها ألا يدخل إستانبول، ومما ورد فى هذه الرسالة قوله: "لو أنك تشبثت وأصررت على دخول إستانبول فلسوف أركب المدرعة"مسعودية" وأعترض سبيل الجيش الروسى فى منطقة" آياستافانوس" Ayatefanos(٢٤) وأمطرها بوابل من القنابل، وإذا هزمت فلسوف أشعل النار فى مخزن الذخيرة والأسلحة وأفجره".(٢٥)

وقد اعترض السلطان بشدة على تسليم الأسطول العثمانى إلى القائد الروسى، وقال للصدر الأعظم ولوزير الخارجية:" أقسم بالله العظيم أنَّنى لم أكن راضيا قط عن بيع الأسطول العثمانى أو فقده، لقد ضحيت بكل ما أوتيت من قوة، بيد أنى رفضت موضوع التنازل عن الأسطول من أساسه، وأنا قادر على توضيح الأسباب الموجبة لذلك، وعلى أهبة الاستعداد بالتضحية بروحى حتى لا أفقد الأسطول".(٢٦)

---

(٢٢) جورج وش بورن، خمسون عاما فى القسطنطينية، نيويورك ١٩٠٩م، ص ١٣٠ .

(٢٣) جريس، ص ١٣٤ .

(٢٤) هو الاسم السابق لمنطقة "يشيل كوى" القريبة من إستانبول (المترجم).

(٢٥) قرال، ج ٨، ص ٣٩٦ .

(٢٦) خوجه أغلو، مذكرات عبد الحميد، ص١٥٠ .

إغلاق مجلس المبعوثان

مُنيت الدولة العثمانية بهزيمة نكراء مفجعة فى حربها مع الروس، وأخذ الناس جميعا يبحثون بانفعال عاطفى وسورة حميا عن أسباب الهزيمة، وبذلوا جهدهم فى سبيل تحميل وزر هذه الهزيمة على عاتق السلطان، وحدث جدل عنيف واحتدم النقاش حول هذه القضية فى مجلس المبعوثان، وكان هذا بمثابة تمهيد لنهاية هذا المجلس. واستعد السلطان لجلسة المجلس حيث وجه أحمد أفندى وكيل السلطان فى منطقة" آستار جيلر" كلامه إلى السلطان قائلا له:" أنت تسأل عن آرائنا متأخرا وبعد فوات الأوان، يتوجب عليك الاستعانة بنا واللجوء إلينا بصورة جدية فى هذه الأيام؛ كى تحول دون وقوع هذه الكارثة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وإن مجلس المبعوثان لا يتحمل أية مسئولية قط عن هذه الهزيمة "، هكذا كان اتهامه للسلطان شديدا ثقيل الوطء.(٢٧) ثم رد عليه السلطان داحضا هذا الاتهام بحدة وتوتر أعصاب قائلا: "لا يمكن بحال من الأحوال إلقاء مسئولية إعلان الحرب وسيرها على هذا النحو على كاهلك أنت، والأمر على خلاف ذلك فإنك قد وفيت تماما بحق المهمة الموكولة إليك بصفتك حاكما".(٢٨) ثم أخذ أحمد أفندى الكلمة مرة ثانية مكررا الكلام الذى سلف ذكره مما أثار حفيظة السلطان وأغضبه، وغادر المجلس بسبب هذا الاتهام وهو يقول: "إننى آسف حزين تجاه هذه الأفعال وذاك السلوك الموسوم بالفظاظة وسوء الأدب وخشونة الأخلاق"، ثم صدر قرار من القصر بتعطيل مجلس المبعوثان فى اليوم الذى عقد فيه جلسته فى العاشر من فبراير سنة ١٨٧٧م.

وقال السلطان عقب هذا القرار: "لقد أخطأنا خطأ جسيما بإصرارنا على الاضطلاع بالإصلاحات عن طريق الإقناع والمؤسسات المستقلة، مقلدا فى ذلك أبى السلطان عبد المجيد متبعا سبيله، ولسوف أسير بعد ذلك على درب جدى السلطان

---

(٢٧) دانشمند، ص ١٠١ .

(٢٨) دانشمند، ص ١٠١ .

محمود الذى قضى على فكرة أن إدارة شئون الأمة لن تتسنى إلا بالقوة والشدة المستمدة من الحق سبحانه وتعالى.(٢٩)

بهذه الكلمات يكون السلطان عبد الحميد قد وجد ضالته المنشودة فى أسلوب الإدارة الجديدة التى سوف يؤسسها مرسومة واضحة المعالم بارزة القسمات عقب تعطيله الدستور، ويتمثل هذا الأسلوب فى الإدارة بأن تكون الدولة والأسرة الحاكمة كلتاهما أمانة فى يد القوة والشدة. ولسوف يفعل السلطان كل شىء من أجل حماية الدولة وصيانتها، ولسوف يكون الأسلوب الذى نستمسك به فى هذا السبيل ما يسمى "إدارة السلطة المركزية أو ما يسمى بالاستبداد المطلق".

أسباب إغلاق مجلس المبعوثان

عرض السلطان عبد الحميد أفكارا دفعته إلى إغلاق مجلس المبعوثان، وتتمثل هذه الأفكار فى الخوف من العزل والإقصاء عن العرش، كما يرى أن هذا المجلس لا يقدم خيرا مرجوا لتنظيم الأمة وإصلاح شأنها.

وتفيد الكتابات التى قدمها محمود كمال إينال فى هذا الصدد أنه لما كانت الإمبراطورية تُحكم وتُدار شئونها بالدستور منذ سنوات فإن الخطأ الجسيم أن يكون الدستور الجديد بمثابة اصطدام بالسلطان.(٣٠)

ولا جرم أن كل شىء يتوقف على موازين حساسة، وكان الخوف من الإقصاء عن العرش هو أخطر قلق يشغل بال السلطان ويقض مضجعه، لا سيما أنه قد شاهد بعينى رأسه هذين الخوفين فى غضون عام واحد. فلقد عزل عمه عبد العزيز ومن بعده أخوه مراد بقرار صادر من الوزراء.

---

(٢٩) جرافيس، Graves بريطانيا والترك، ص ٤٢، وانظر دانشمند، ص١٠٢، وهاسليب ص ١٦٧ .

(٣٠) إينال، ج٣، ص ١٢٦٨ .

ومن ثم فقد كان عبد الحميد يخشى من العزل بقرار من مجلس المبعوثان الذى حمله وزر الحرب وتبعة المسئولية برمتـهـا، وعليـه فـقـد أغلق مجلس المبعوثان حتى لا يعطيه الفرصة السانحة التى تسمح له بعزله.

لقد كانت للدروس المتمخضة عن الهزيمة ونظام عمل مجلس المبعوثان أثر عظيم فى التأثير على السلطان من أجل إغلاق مجلس المبعوثان.

وأثار عبد الحميد فى خطاب افتتاحه لهذا المجلس إمكانية العثور على حلول لقضايا الأمة ولم شمل المسلمين والاتحاد فيما بينهم وبين غير المسلمين مستظلين جميعا تحت راية المواطنة العثمانية، بيد أن هذا الاتحاد كان أمرا متعذرا. ويشرح "دانشمند" أسباب صعوبة تحقق هذا الاتحاد قائلاً: " إن الإمبراطورية العثمانية لا قبل لها بتحمل دستور على الطراز الغربى لأنها أشبه ما تكون بالموزايك الملتوى المعقوف، فهى مركبة من أمشاج متباينة من ديانات مختلفة وعروق متعددة، إن الحرية الشخصية التى أمنها الدستور وكفلها والحرية القديمة التى منحها لعناصر الأقلية قد اتخذت معنى حرية الاختيار وحق الاستقلال، ولهذا السبب فإن مجلس المبعوثان قد أصبح ساحة للجدل وتدبير الحيل والدسائس والنقاش لجماعات قومية حلت محل المجموعات الحزبية الشرعية.

وعلى سبيل المثال فقد كان" قاسيلاكى أفندى " من أعضاء روم إستانبول الذى عارض اللغة الرسمية التى قبلها القانون الأساسى، ولما نوقش الرد على الخطاب السلطانى فى الجلسة الثامنة لمجلس المبعوثان أراد هذا العضو الرومى وضع قيد لا يتصل بالمذاهب والأمم الموجودة فى التاريخ العثمانى فحسب، بل يتعلق كذلك بالمحافظة على العناصر اللغوية الموجودة، وحينئذ حدث اعتراض شديد لكل هذا من قبل رئيس المجلس أحمد وفيق باشا. وفى أثناء انعقاد الجلسة الثانية عشرة صاح المبعوث السورى" نوفل أفندى" قائلاً: " يتوجب أن تظل كل جماعة جديدة على ما هى عليه، ولا قبل للاسم العثمانى بأن يمحو أو يزيل اسم الجماعة".

وكان يوجد فى الجلسة نفسها شخص يدعى"هماز أوسب" أحد أعضاء أرمن أرضروم " والذى يتردد فى القول أن هدف القانون الأساسى هو المحافظة على حقوق كل أمة وشعب".[٣١]

كان السلطان عبد الحميد يرى أن الدولة العثمانية لم تكن مستعدة للحرب، ومن ثم فإنه طلب إلى المجالس الدستورية الموافقة على قرارات مؤتمر إستانبول مع إدخال بعض التعديلات عليها، وبلغ الموقف ذروته حتى تمت الموافقة على منح إقليم " نيكشيك" إلى الجبل الأسود وإرسال سفير إلى بطرسبرج، وأخبر مجلس المبعوثان بإرسال وزير الخارجية صفوت باشا ليعضد موقف الحكومة فى مسألة الصلح، وكان يريد الموافقة على آخر شروط الاتفاقية، بيد أن المجلس اتخذ قرارا ضده[٣٢]، الأمر الذى أحزن السلطان، ولسوف يقدم المجلس قراره الأخير بموجب الدستور، ولكن عبد الحميد كان يأمل فى النظر بعين الاعتبار إلى قراره هو، ولسوف يظل السلطان طول حياته ينقد مجلس المبعوثان ويفنده.

وعلى كل حال فقد قدم الحاكم العام أنور باشا لزيارة السلطان فى قصره إبان الحرب العالمية الأولى وقال له السلطان:" لقد اضطلعت بافتتاح أول مجلس مبعوثان فى تاريخ هذه الدولة بصفتى سلطانا لها، بيد أنى لما رأيت أعضاء المجلس لما يبلغوا بعد درجة النضج والكمال والاستواء العقلى فإننى أسرعت بغلق هذا المجلس، هل تعلم لماذا حملونى أنا تبعة إعلان قرار الحرب الذى اتخذه مجلس المبعوثان؟"[٣٣]

إنْ كان السلطان يملك حرية الحركة لمنع هذه الحرب لحال دون اشتعالها، وذلك بمنح إقليم " نيكشيك " إلى الجبل الأسود تحت اسم" تصحيح الحدود"، وكان هذا سبب غضبه من المجلس قائلا له: " كنا سنفقد إستانبول ونخسرها من أجل" نيكشيك".

---

(٣١) دانشمند، ج٥، ص ٣١٠ .

(٣٢) أحمد صائب، أحوال سلطنة عبد الحميد، ١٦٧ .

(٣٣) حسام الدين أرتوك، خلف ستار عصرين، إستانبول ١٩٦٤م، ص ١٦٠ .

حتى إن مجلس المبعوثان لا يعتبر نفسه مسئولا عن وقائع العصر وأحداثه، ويقول عبد الحميد فى مذكراته: " إننى أثبت وأبرهن بالوثائق الدامغة وأزعم بضمير عفيف طاهر أن الأمة قد وقعت على معاهدة" آياستفنوس"، أما أنا فقد أحدثت أشياء كثيرة فى مؤتمر برلين"(٣٤)، أما سبب المدح والثناء فراجع إلى كونه اتفاقية نافعة ومفيدة طبقا لمعاهدة "آياستفانوس"، ويعتقد أن إغلاق المجلس كان نتيجة حرية الحركة التى اكتسبها السلطان. ولكنه أخذ على عاتقه مهمة تشييد المجلس المحترق المهدم.(٣٥) وقد اضطلعت طائفة من غير المسلمين بدور كبير فى اتخاذ قرار الحرب فى مجلس المبعوثان، فلم اضطلعوا بهذا الدور؟ إن الشيء المستغرب فى هذا المقام هو أن غير المسلمين من الروم والأرمن كليهما كانوا يريدون رفض قرارات مؤتمر إستانبول بتعبيرات حماسية ثائرة، وهم بصنيعهم هذا قد أماطوا اللثام عن خبيئة نفوسهم وأرادوا من صميم أرواحهم وأفئدتهم إشعال الحرب التركية الروسية، ولو هزمت الدولة العثمانية عند نشوب هذه الحرب فلن يقع ضر أو أذى على الرعايا المسيحيين ألبتة. بل العكس فلربما فقدت الدولة العثمانية منطقة الروملى برمتها. وعلى كل حال فإن ممثلى الرعايا من غير المسلمين كانوا يريدون حدوث الحرب التى ستؤكد خضوع الإمبراطورية العثمانية وخنوعها وانهيارها وتقويض أركانها.(٣٦)

وهكذا شوهدت مظاهراتهم فى نهاية الحرب، وعندما كان الجيش الروسى يقاوم بشراسة عند أبواب إستانبول قام البطريرك الأرمنى "نرسيس" باسم البطريركية بزيارة قائد الجيش الروسى"جرانديك نيقولا" فى مقر إقامته فى "آياستفنوس"، وأخطره حينئذ برغبته فى استقلال شرق الأناضول أو بتأسيس دولة أرمينية تكون خاضعة

(٣٤) وداد عرفى، ص ٢١ .

(٣٥) جريس، ص ١٣٧ .

(٣٦) جريس، ص ٤٧-٤٨ .

للحكم الروسى، كما أرسل هذا البطريرك وفدا إلى أوروبا لتحقيق هذه الغاية التى يبغيها ويسعى إلى بلوغ مأربه من خلالها".[٣٧]

كيف كان يتسنى للدولة تحت سقف هذا المجلس عينه أن تحكم قبضتها وتدير شئون أولئك المنتسبين إلى مجتمع يريد الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية ؟ هكذا كان هؤلاء يفكرون فى السلطان، وهاهو ذا السلطان يروى فى مذكراته المؤرخة بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٧٧م مجليا أسباب غلق مجلس المبعوثان فيقول :" لقد تردى المجلس فى حالة مزرية، جعلته موضع سخرية وازدراء العدو والصديق بسبب سياساته غير المتوقعة، والتى أقحم نفسه فيها مما أضر بمصالح الدولة والأمة والسلطنة، وكان ضد المنافع التى تعود على هذه الأمة بالخير والنفع العميم."

أما الوزراء وأعضاء مجلس المبعوثان الذين يتوجب عليهم أن يكونوا خداما لمصالح الدولة وما يعود عليها بالخير فقد ترديوا بدورهم فى الطمع والشره إلى المال حتى سقطوا مرة أخرى فى هوة ثلة طائفة من المتملقين المتزلفين من ذوى السطوة والنفوذ.

أما أعضاء المجلس من النصارى فإنهم بذلوا جهودهم وأفرغوا وسعهم كى يحدثوا تأثيرا فعالا ضد أهداف الأمة وآمالها المنشودة، أما الأرمن فكانوا يتحدثون بشأن أرمنيستان، بيد أن الروم تجرأوا أن يأمروا الوزراء داخل المجلس؛ بغية التدخل من أجل تحقيق رغبتهم المشروعة فى كل من منطقة "ترهالة" وغيرها من المناطق الأخرى.

كان مجلس المبعوثان سببا فى ظهور كثير من صنوف الضر والأذى فى غضون فترة وجيزة من الزمان، مما خلف أثرا سيئا لا يعود بالنفع والفائدة على تطور الدولة والأمة ولا يساعد على رقيهما ورفعة شأنهما.

---

(٣٧) دانشمند: ج٤، ص ٣١٠ .

وفى النهاية أصيبت القوة المعنوية والمادية للوطن بشكل تام تمخض عنه الدخول فى حرب مع الروس، ولو قدر لهذه الحرب أن تستمر أكثر من هذا لاتخذت شكلا مروعا مفزعا، كان سيعظم ويضخم مع مرور الوقت، وهو شىء ليس من العسير تخمينه أو حسابه أو التنبؤ به.

فقد نمت وترعرعت - لا سمح الله - بذور النفاق والخداع فى الأمة، ثم ما لبثت أن اتسعت وازداد نفوذها مما كان سببا فى ظهور التمرد والعصيان والفتن والاضطرابات من كل حدب وصوب.

إن المنافع الحقيقية للدولة لم تزل حتى الآن غرة قليلة التجربة غير ذات حنكة، وهذا شىء لا يتخيله عقل، وثمة طائفة من أسباب الخطر المهلك تُعمل من أجل الأمة والدولة متمثلة فى الدسائس والحيل الخفية للأعداء والمفسدين، وهم يحسبون أن التقدم والسعادة فى يد طائفة من الأشخاص، يعلمون أو لا يعلمون، ورأى هؤلاء أن القانون الأساسى بمثابة سلاح خطير ذى ضرر عظيم، وأحسوا بأن تعطيل المجلس لأجل غير معلوم كان ضرورة ملحة لراحة السلطنة وحياة الأمة وطمأنينتها.[٣٨]

وقد قال عبد الحميد: إن فكرة تطبيق الدستور لا تتفق بحال من الأحوال مع ظروفنا فى العصور والأزمان المختلفة، وتحدث عن هذا قائلا:" إن أمتنا غير ناضجة بالقدر الكافى الذى يمكنها من الحكم بالدستور".

وهذا بالنسبة لنا طامة كبرى ونكبة عظمى، لأن الحكم بالدستور يجب أن يسوى بين الأفراد كلهم أجمعين، وهذا شىء لم نفكر فيه ولَمْ يخطر ببالنا، وإمبراطوريتنا تتكون من الترك والعرب والروم والأرمن والبلغار والرومان والأرناءوط واليهود، وهؤلاء جميعا لا يريدون التخلى عن استقلالهم القضائى ولا عن حقهم فى إدارة كنائسهم بأنفسهم، ومن المعلوم سلفا أن لغتنا ليست مشتركة بين هؤلاء جميعا، وظاهر بجلاء أنه لا يوجد

---

(٣٨) خوجه أغلو، مذكرات عبد الحميد، ص١١٣ .

عنصر من هذه العناصر سوف لا يتخلى عن لغته الأم، ولن يقبل كذلك اللغة التركية لغة رسمية له، كيف يستطيع العثمانيون تحت وطأة هذه الظروف تأصيل الشعور القومي وترسيخه؟

لا جرم أن النصارى وهم رعايانا قد اضطلعوا بالتعاون مع الدول العظمى، أما السولافيون فيخضعون لحماية روسيا. والأرمن يلوذون بحماية إنجلترا، والروم يخضعون لحماية روسيا تارة والإنجليز تارة أخرى".[٣٩]

عندما كان السلطان في منفاه في بسلانيك قال لأحد محافظيه ويدعى"فتحي أوقيار بك" "هل تعتقد أنني ربما كنت في يوم ما ضد الدستور. كلا، فأنا لست ضده، إنني أفتخر بالأمة التركية التي أنتسب إليها باعتباري إنسانا أجلس على رأس هذه الدولة منذ ثلاثة وثلاثين عاما.

وأنا أعلم الوضع الحقيقي للعناصر غير التركية من مسلمين وغير مسلمين ممن يعيشون داخل حدود الدولة مع العناصر ذات الأصل التركي، إن من يبذلون جهدهم من أجل الاستحواذ على العناصر الانفصالية خارج الحدود التركية هم على حد تعبيره" العنصر الذي عطل الدستور للحيلولة دون تخريب العنصر التركي أو تدميره واستئصال شأفته[٤٠] "، ثم يعود السلطان ويسأل"راسم بك"، وهو أحد المحافظين في سلانيك قائلاً:" إنني أسألك من الذي صنع الدستور؟ إن الناس يعتقدون أن مدحت باشا هو الذي صنعه، كلا، إنه لم يصنعه، فثمة هيئة اضطلعت بإعداده وإملاء كل مواده، ولو لم أقبل القانون الأساسي لم أكن لأستطيع اعتلاء العرش أول مرة".[٤١]

وقال لابنته عائشة:" لقد كنت دائما مؤيدا للدستور، حتى إنني أصررت أن أجعل الوزراء يقبلونه إبان العهود الأولى من سلطنتي، وكان إلغاؤنا له في النهاية راجعًا

---

(٣٩) عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص١١٣ .

(٤٠) فاتح أوقيار، رجل في ثلاثة عصور، إستانبول، ١٩٨٠، ص ١٠٤ .

(٤١) ضيا شاكر "صوقو"، الأيام الأخيرة لعبد الحميد، ص ٥٨ .

إلى أننا أدركنا على الفور مدى الضرر الكبير الذى سيلحق بالأمة بسببه معاذ الله. فلم يبق رمق أخير لاضمحلال الأمة وتفرقتها وشتاتها. أما الذين يتهموننى بأنى لم أكن مؤيدا للدستور فعليهم أن يكونوا على يقين أنهم سوف يفهمون أخطاءهم.(٤٢) ولسوف يدركون كذلك أن الإمبراطورية فى مناخ الدستور الثانى سوف تتقوض أركانها فى غضون عشر سنين.

ويعرض السلطان لهذه القضايا فى مذكراته فيقول:" على حين يكفل القانون فى أمة ما تأمين الحياة للشعب فى هذه الأمة، فإن القانون نفسه يمكن أن يخرب أمة أخرى ويأتى عليها. إذ يتوجب أن يكون القانون مطابقا لدين الشعب و جبلته وطبيعته ومزاجه وأخلاقه".(٤٣)

وهذه طائفة من الآراء المتصلة بفهم السلطان للدستور، إذ يرى البعض" أن السبب فى تأسيس عبد الحميد لحكومة مستبدة هو اعتقاده الجازم الذى لا يتطرق إليه شك فى عدم نضج الإدارة التى يتسنى لها أن تنشئ حكومات برلمانية فى الأمة".(٤٤)

" وقد سمعنا من المقربين إليه قوله: يتوجب على الأمة التى تريد الانضمام إلى الحرية واللحاق بالدستور أن تكون أكثر نضجا متحررة من الجهل"(٤٥). ولأجل هذا كان عبد الحميد يوصى بتدريس اللغات الأجنبية وتعليمها.

وهذا سعيد باشا، من أقرب المقربين إلى السلطان عبد الحميد، ويوضح بجلاء رأى صفوت باشا فى الدستور على هذا النحو قائلاً:" كان المرحوم صفوت باشا يقول: إن الأمة هى التى تنجز الدستور وتحصل عليه بجهد ومشقة، ولا يمنحه الحاكم للأمة،

---

(٤٢) عائشة عثمان أوغلو، ص ١٧٣ .

(٤٣) خوجه أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ٥٧ .

(٤٤) هاسليب، ص ١٦٧ .

(٤٥) جلال أسعد أرسون، مذكراتى الفنية والسياسية، إستانبول ١٩٩٣م، ص ٩٢ .

وهذه إحدى الأفكار الحقة للمرحوم صفوت باشا التى لا سبيل إلى رفضها أو الرد عليها. وكلما كان الدستور غير مستند إلى الظروف الضرورية كان من الصعب عليه أن يكون مؤثرا ذا فعالية، إذ من الممكن استرداد الدستور الذى يعطيه الحاكم برضاه. وإذا لم يسترده فإن من حقِّه أن يتسنى له فسخه. أما الدستور الذى تحصل عليه الأمة بنفسها فإنه قانون يمكن المحافظة عليه وصيانته.

ويكون مصانا من العدوان عليه، وفائدته حينئذ لا سبيل إلى حصرها[٤٦]، ويرى سعيد باشا أن أعضاء المجلس ليسوا على المستوى التعليمى اللائق والنضج الثقافى المناسب، وهذا يمثل نقطة ضعف سيئة ضد الدستور.[٤٧]

كان مدحت باشا الذى تبوأ منصب الصدارة من بين المؤيدين المناصرين للدستور، ولو أنه مكث فى منصبه فترة طويلة مضطلعا بإدارة شئون الدولة، أكان يتسنى للدستور حقا أن يستمر كذلك فترة طويلة.

تفيد آراء" قول أوغلو " أن هذا يرجع إلى أسلوب السلطان ومنهجه بموجب الظروف التى لا يمكن التنبؤ بها، كان يوجد فى تلك الآونة طريقتان لحل هذه المشكلة من أجل إنقاذ الدولة من الصدام، تتمثل إحداهما فى تحمل المسئولية وتحريض الشعب للمطالبة بالحرية، وحينئذ يعظم الخطر الذى يحدق بالأمة، وتعظم كذلك الصدوع والشقوق القومية الموجودة فى البنية القومية للدولة، والتى لا سبيل إلى رأبها، أما الأخرى فتتمثل فى تحديث الدولة بالقوانين التى تضطلع بتكوين بنية حديثة للدولة والسعى إلى استقرار الشعب شيئا فشيئا موليا وجهه شطر نظام مطابق لهذه القوانين، وإذا لجأنا إلى هذه المعادلة الصعبة لاختيار أحد هذين الحلين فإن الإتيان بقيادة عبد الحميد وزعامته فى أوائل فبراير سنة ١٨٧٧م يجعل الحل الثانى هو الفائز بقوة مطلقة.

(٤٦) مذكرات سعيد باشا، ج٢، إستانبول ١٣٢٨هـ، ص ٣٢ .

(٤٧) المصدر السابق، ص ٣٣ .

أما مدحت باشا الذى اقترح نظاما أكثر خطورة وأشد تقدما فإنه ظل متعبا واهنا خائر القوى إلى أقصى درجة ممكنة، كما انهزم كذلك الجانب الاستعمارى المؤثر فى أوروبا تحت قناع الإصلاح، ولو ظل مدحت باشا فى السلطة لانساق من فوره صوب الحل الثانى[٤٨]. ولو لم يعجل السلطان بعزل مدحت باشا فإن بالون مدحت باشا الذى جعلته جماعة تركيا الفتاة شيئا رمزيا سوف ينطفئ وتنزوى شهرته، ولما استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم فى سهولة ويسر طريقا مشروعا يسلكون خلاله.

لم يقابل إغلاق عبد الحميد لمجلس المبعوثان بأى رد فعل يذكر داخل البلاد، ويرى السلطان أنه لو كانت هناك قدرة لدى مؤيدى هذا الدستور لمنعوا السلطان من إغلاق المجلس ولضحوا فى سبيل ذلك بأرواحهم.[٤٩]

كيف استقبل إغلاق مجلس المبعوثان فى الخارج

إذا كان إغلاق المجلس لم يحدث رد فعل فى الداخل فإنه لم ير له أى معارضة تذكر فى الخارج، حتى ظهر بجلاء ما يعبر عن فرحة بعض الدول وسرورها مثل روسيا وألمانيا.

وإذا أمعنا النظر مليا فى هذا الموضوع وجدنا أنه لم تكن ثمة أى دولة تريد تطبيق الدستور بمعناه الحقيقى سواء أكان ذلك فى عام ١٨٧٠ م أم فى عام ١٩٠٠ م، وتوجد أسباب كثيرة لذلك، يذكر مجملها سعيد باشا فى مذكراته على هذا النحو فيقول: " إن بعض الدول رأت أن إدارة شئوننا وقبول الدستور تحت راية الشريعة الإسلامية لن يتفق مع مصالح هذه الدول ومنافعها،[٥٠] مما يمكن الدول الأجنبية

(٤٨) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٢٤٨ .

(٤٩) رضا شاكر، الأيام الأخيرة لعبد الحميد .

(٥٠) مذكرات سعيد باشا، ج٢، ص ٣٢ .

وسفراءها من التدخل فى شئوننا الداخلية والخارجية على حد سواء، ويجعل السلطان والوزراء يقبلون تنفيذ رغبات هذه الدول. أما إذا كان هناك مجلس فإن السلطان والوزراء سوف يرون أنفسهم مسئولين أمام هذا المجلس وفى مواجهة القوانين، وحينئذ فإنهم سوف يتسنى لهم تنفيذ ما يطلبه السفراء ولن يترددوا فى هذا الأمر، ولهذا السبب كانت الدول الغربية وسفراؤها رافضين لهذا الدستور".(٥١)

" أضف إلى هذا أنه لو تحقق الحكم الدستورى، فإن الإمبراطورية العثمانية تستطيع حينئذ الخروج من هوة التخلف والانحطاط، ولتمكنت كذلك أن تكون فى حالة من القوة والمنعة، وإذا قامت إمبراطورية عثمانية قوية ذات شوكة فلن يتدخل أحد فى شئونها أبدا".(٥٢)

كانت روسيا أشد غضبا وأسفًا على الحكم الدستورى لأنها كانت صاحبة بنية دولة مستبدة لا تعرف العدل والإنصاف فى إدارة شئون كثير من المجتمعات غير الروسية التى ترزح تحت حكمها وسيطرتها، وإن نجاح الحكم الدستورى فى تركيا هو بمثابة نموذج للتيارات العاصفة التى يمكن أن تزلزل كيان نظام الحكم المستبد فى روسيا".(٥٣)

وكان عبد الحميد نفسه يعلم علم اليقين أن روسيا ضد تطبيق النظام الدستورى فى تركيا، وقد شرح هذا المعنى لطبيبه الخاص الدكتور عاطف حسين قائلا"، إن روسيا حكومة ملكية، ولا نريد أن نكون دولة دستورية، بل نريد أن نكون حكومة ملكية مثلها، وليكن هناك سلطان ونفوذ للسلطان".(٥٤)

أما إنجلترا وفرنسا فإنهما تستطيعان تطبيق الحكم الدستورى فى أوطانهم الأصلية. وأَمَّا الحكم الإمبراطورى فكان يرى أنه ليس للشعب حق إلا معاملة العبيد الأرقاء.

---

(٥١) المصدر السابق، ص٣٣ .

(٥٢) ضيا قرال، ج٨، ص ٢٦١ .

(٥٣) المصدر السابق، ص ٢٦٢ .

(٥٤) المصدر السابق، ص ٢٢٦ .

وعلى هذا فإن الإمبراطورية العثمانية قد اقتحمت التجربة الدستورية لأول مرة فى تاريخ إمبراطورية تحققت ووطدت أركانها وامتدت وتغلغلت فى مساحة قارات ثلاث، واتسعت حدودها فى بنية دولة غير قومية، وإن نجاح التجربة يمكن أن يصعب بشدة سلوكيات الدول الغربية المنضوية تحت جناح الإمبراطورية العثمانية، ويعزى هذا إلى أن الشعوب المنتسبة إلى أعراق وأديان متباينة فى هذه الدول سوف تطالب بالمساواة مع مثيلاتها من شعوب الوطن الأم".[٥٥] وعلى حين نرى عبد الحميد يقدم فى مذكراته الدستور من خلال رؤية إنجلترا وفرنسا كلتيهما، فإنه يعرض علينا كذلك الجهل الذى تشقى به جماعة تركيا الفتاة فيقول: " لقد قلت ولسوف أكرر القول، وشرحت وأفيض فى الشرح، ألم يفكر أرباب هذه الجماعة أن الدولة العثمانية قد انبثقت فى الوجود على هيئة مجتمعة مؤتلفة من كثير من الأمم والشعوب؟

وإن الدستور يكون حينئذ فى هذه الدولة بمثابة الموت المحقق للعنصر الأصلى للأمة -أولادها الترك- أيوجد عضو هندى أو إفريقى أو مصرى فى البرلمان الإنجليزى؟ أو عضو جزائرى فى البرلمان الفرنسى؟ إن الروم والأرمن والبلغار والصرب والعرب سوف يهبون جميعا ليكون لهم أعضاء يمثلونهم فى البرلمان العثمانى.

كلا إننى لا قبل لى بظهور طائفة من أبناء الوطن ممن لا أصل لهم ولانسب ويزعمون أنفسهم متعلمين مستنيرين مفكرين، لقد قلت إنهم قد غرر بهم وخدعوا، ولكنهم سينالون العقاب الرادع من أنفسهم، فلقد قاسى كثير من ملايين الأمة الأبرياء الذين لم ينخدعوا".[٥٦]

" إن جماعة تركيا الفتاة حالمون واهمون مستغرقون فى لجة الخيال، وإن إعلان الدستور عندنا وإقامة حكومة دستورية والدعوة إلى الهياج العام والثورة العارمة سوف يزلزل الإمبراطورية العثمانية ويعصف بها.

---

(٥٥) المصدر السابق، ص ٢٦٢ .

(٥٦) دفتر مذكرات عبد الحميد، عصمت بوزداغ، إستانبول ١٩٧٥م، ص ٦١ .

وإن سلوك الإنجليز تجاه هذه الجماعة هو شيء جاذب للانتباه، وهم يبذلون كل ما أوتوا من قوة للإتيان بالدستور إلى وطننا، ولسوف يرفضون، الشيء نفسه بالنسبة للهند التي تشبه بلدنا إلى حد كبير، أيكون هدف الإنجليز هو إبادة كل شيء، فالبرلمان الهندي يضم أجناسا متباينة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة، وهم جميعا قوة عظمى مؤثرة في البرلمان الهندي".(٥٧)

فالإنجليز يؤيدون تركيا الفتاة والدستور كليهما، ليس رغبة في جلب الخير والنفع للعثمانيين، ولكنها تؤيدهما على العموم ليكونا وسيلة مؤثرة فعّالة في سياسات كل من عبد العزيز وعبد الحميد الثاني اللذين وجدوا فيهما رجلين معاندين مخالفين وعدوين لدودين.

وقد تمخض عن هذا التأييد الإنجليزي أن أصبح السلطان عبد الحميد غير ذي قوة مؤثرة ضد التمرد الذي حدث إبان عامي ١٩٠٨-١٩٠٩م.

وإذا ما نظرنا في وثائق الإنجليز المتصلة بهذه الحقبة من الزمان ألفيناها ترى أن الدستور العثماني سوف يكون له تأثير بالغ السوء في ديمومة الإمبراطورية الإنجليزية واستمرارها، ولا يراد من هذا الدستور سوى الاضطلاع بتخريب الأعمال الصالحة الخيرة وإحباطها.

ثم كانت ثورة تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨م، وتمكنت من إعلان الدستور للمرة الثانية، وبعث وزير الخارجية الإنجليزي " إدوارد جراي " في أعقاب هذه الثورة برقية في ٣١ يوليو سنة ١٩٠٨م إلى السفير الإنجليزي في إستانبول" جورج لوثر" يتحدث فيها عن شدة خوفه من الدستور العثماني ويقول:" لو استمسكت تركيا بالدستور بحذافيره وأخذت تقوى، فإن نتائج تطبيق هذا الدستور يمكن أن يكون لها أثر بعيد المدى لا نستطيع أن نراه بأعيننا، ولسوف يخلف كذلك تأثيرا عظيما في مصر، ناهيك عما يحدثه من تأثير في بلاد الهند، إننا حتى الوقت الراهن كنا نقول للمسلمين الذين

---

(٥٧) عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص ١٠٧ .

يرزحون تحت حكمنا إن رئيس أديانكم نفسه يحكم من قبل طاغية مستبد يحكم الأمة التركية ويمسك بزمام الأمور فيها، وعليه فهو ضد طغيان واستبداد المسلمين الذين يرزحون تحت سيطرتنا، وإنهم تحت وطأة هيمنتنا سيكونون أكثر سعادة وسرورا. فهؤلاء الناس لا قبل لهم بالمقارنة بين الحكمين، إذا كانوا مستعدين ليكون هناك تمييز لصالحهم.

وقد صنعت تركيا الآن دستورا وأسست برلمانا، وإذا ما تغير شكل الحكومة أو تبدل فلسوف يطالب المصريون بدورهم بدستور، ويتعذر علينا حينئذ مواجهة هذا بالقوة، وإذا ما سارت الأمور على ما يرام في تركيا واضطلع الدستور بإنجازات جيدة فلسوف يحدث في مصر تمرد وعصيان مما يمكن أن يفقدنا مكانتنا بطريقة غريبة. لا جرم أننا لا نقحم أنفسنا في صراع مع الشعب المصرى و الحكومة التركية، ولسوف يكون نضالنا مع مشاعر الشعب التركى وأحاسيسه. إننى أعرض هذا الموضوع ليكون موضع اهتمام ورعاية في العاجل والآجل على حد سواء، وأرونى أنتم كل حركات الإصلاح الكامل التى تتم خارج إطار هذا الموضوع وقدموا إلى معلومات بشأنها".(٥٨)

وقد تناول هذا الموضوع بالبحث والمناقشة المستر " فيتز مايورك " أحد ممثلى الحكومة الإنجليزية من ذوى النشاط القوى المؤثر في تركيا، وذلك من خلال تقرير أرسله إلى إنجلترا في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٨، حتى إنه اضطلع بتخريب أركان الدستور وتفويضه باذلا جهده في سبيل إقناع واستمالة الأعضاء غير المسلمين في مجلس المبعوثان العثمانى.(٥٩)

---

(٥٨) أرول أولو تلبن : تركيا فى الوثائق السرية الإنجليزية : إستانبول ١٩٦٥م، ص ٦٠-٦١ .

(٥٩) جلال بيار، وكتبت أنا ايضا: جـ٣، إستانبول ١٩٦٦م، ص ١٧٧ .

أما ألمانيا فرغم تطبيقها النظام البرلمانى فإن قيصرها عقد اجتماعا موسعا مع هذا المجلس الذى ظل نموذجا لتطبيق الدستور، وكان يتميز بخصائص مجلس الشورى، وهذا يعنى أنه يوجد فى ألمانيا كذلك هذا الضرب من السلطة المركزية التنفيذية.

لم تكد تنقضى حقبة من الزمن حتى أصاب الوهن والضعف البنية الداخلية للدولة العثمانية وفت فى عضدها وخارت قواها بمعرفة الدولة نفسها وتحت سمعها وبصرها.

ولهذه الأسباب جميعها لم يستقبل الألمان باستحسان ما فعله السلطان بالدستور، حيث وضعه فوق الرف، وقد تحدث الأمير المشهور " بسمارك" عن هذا الموضوع مع المستشار "على نظامى" الذى حمل وساما من السلطان عبد الحميد إلى إمبراطور ألمانيا، يقول بسمارك: "لقد أحسنتم صنعا وتخلصتم من الدستور، إذ كلما كانت الدولة غير مكونة من قومية واحدة يكون الضرر الذى يصيبها من البرلمان والدستور أكثر من نفعه".(٦٠)

تقويم تطبيق الدستور

اشتد الجدل العنيف وانتصب سوق العراك بين المؤيدين لتأخير السلطان الدستور وتعطيله والمعارضين لذلك؛ فالمؤيدون للدستور يتهمون السلطان دائما لارتباطهم الوثيق بالدستور والبرلمان ورغبتهم فى إنقاذ الإمبراطورية، ثم عاد هؤلاء المؤيدون ثانية وتدخلوا بشكل مؤثر سافر فى أوائل عام ١٨٩٠ م ليضعوا هذين المطلبين موضع التنفيذ.

ولم يروا أى وجه من الصواب فى تطبيق الدستور الثانى الذى تمخض عن ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م." وعلى كل حال فلو لم يحل مجلس المبعوثان، ولو لم يستمر لما أدركت الإمبراطورية العثمانية القرن العشرين، ولكتب عليها الاضمحلال

---

(٦٠) دانشمند، جـ٤، ص ٣١٠-٣١١ .

والانحلال فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، وإن التاريخ المضرج بالدماء المدثر بالخزى والأسى للسنوات العشر الأخيرة من المشروطية الثانية لهو أعظم دليل على هذه الحقبة المريرة".(٦١)

لقد كان عبد الحميد على حق فى حل مجلس المبعوثان الأول، إذ ظهرت فى هذا المجلس بجلاء تام القوة المؤثرة للعناصر غير التركية وغير المسلمة، والتى كان سلوكها ذا قوة مدمرة محطمة للدولة العثمانية.(٦٢)

لم يكن فى الدولة العثمانية مناخ اجتماعى صالح لتطبيق الدستور، ثم جاء الدستور باعتباره أثرا مقلدا من الغرب دون تقدير لظروف الأمة. "وكانت الزمرة الثائرة مكونة من حفنة مستنيرة يأتى على رأسها مدحت باشا، أما السواد الأعظم من الشعب ممن شاركوا هذه الزمرة فكانوا لا يفهمون شيئا عن الدستور أو الحرية".(٦٣)

" بدأ العثمانيون الشبان دون رحمة فى ممارسة الحياة السياسية عن طريق معارضتهم لأنصار التنظيمات الكبرى، ولم يأت الكثير منهم من إدارة الدولة فحسب، بل جاءوا كذلك من الصحافة والأدب غير مدركين لواقع الإمبراطورية والوضع الحقيقى فيها، إذ كانوا يعتقدون واهمين أنه بتطبيق النظام الدستورى فى فرنسا التى بهرت أبصارهم وفى إنجلترا على وجه الخصوص، فهذا سوف يجعل تركيا كذلك موئلاً للأمن والأمان وملاذا للوئام والسلام".(٦٤)

الأقلية المخالفة للنظام الموجود هى لا ريب فئة محدودة، وإن الرغبة فى تحطيم الحكم المطلق المستبد وإعلان القانون الأساسى والاضطلاع بإصلاح النظم السياسية للدولة لم تستطع تحقيق أهمية أو تأييد بالقدر الذى يسمح لها بالانتشار والذيوع فى ربوع الأمة برمتها.

---

(٦١) المصدر السابق، ص ٣١١ .

(٦٢) بروفسير دكتور آقدس نعمت قورات، تركيا وروسيا، أنقرة ١٩٧٠م، ص

(٦٣) ضيا قرال، جـ٧، ص ١٦٧ .

(٦٤) أوز تونجه، جـ١٢، ص ١٩٩ .

إن تكوين هذه الزمرة المحدودة الضعيفة المدركة لظروف العصر واحتياجات الأمة الضرورية كانت تارة محرومة من كفاءة الحركة القومية للقانون الأساسى سنة ١٨٧٦م، ثم ما لبثت تارة أخرى أن ترىت فى هوة خطر دائم باق لنظام سياسى مؤسس من جديد". [٦٥]

ولنقرأ فى هذا السياق ما كتبه كاتبان ممن أمعنا النظر بصدق وروية إلى الدستور، وكانا شاهدى عيان على كل الأحداث التى وقعت إبان المشروطية الأولى. فهذا أبو الضيا توفيق يتحدث عن جماعة العثمانيين الجدد فيقول:" لقد حدثت ضربة عنيفة من أجل إعلان الدستور فى أيام جلوس السلطان مراد الخامس على عرش الدولة العثمانية، وكانت هناك زمرة كبيرة من رجالات الدولة ممن يعدون غرباء على مفاهيم القانون الأساسى ومجلس الأمة، مثلهم فى ذلك مثل الشعب". [٦٦]

وتفيد كتابات عبد الرحمن شرف أننا لم نكن مجتمعا مهيأ بعد لتطبيق الدستور[٦٧].

كانت هذه أساس وجهة نظر عبد الحميد فى الدستور، ومن ثم فقد حبكت العقدة حوله، لأننا لم نكن مستعدين للدستور بحسب ما تقتضيه ظروف المجتمع والدولة كليهما، وقد بينا فيما سلف غير مرة أن القانون الأساسى لم يلغ، ولم يؤخره بعد ذلك إجراءات تتصل بوضعه وصياغة مواده، ولم يغلق مجلس المبعوثان، ولكنه عطل عقب منحه عندما جاءت اللحظة المناسبة لذلك، وفى هذا الإطار فكر عبد الحميد مرة أخرى فى أن يجمع مجلس المبعوثان. وكان القانون الأساسى قد أحدث ضربا من الحرية الواسعة والحقوق، ومن ثم فقد اقترح عبد الحميد تضييق نطاق هذه الحرية عن طريق تعديل هذه القوانين، وأسس لهذا الغرض لجنة مشكلة من:

---

(٦٥) رجائى أوق أندان : الحقوق العامة للشعب فى تاريخنا، عصر المشروطية الأولى وخصائصها، إستانبول ١٩٤١م، ص ٧٦-٧٧

(٦٦) أبو الضيا توفيق، جـ٢، ص ٢٩٩ .

(٦٧) عبد الرحمن شرف، مصاحبات أدبية، ص ٢١٣ .

محمود نديم خير الدين وصبحى باشا اللذين ذكرا أن هذا التعديل لا يتأتى له أن يتم بقوة إجرائية، بل يتم عن طريق الهيئة التى اضطلعت بوضع القانون والتى يخول لها الصلاحية بإجراء هذا التعديل، ولم تستطع اللجنة الوصول إلى وحدة فكرية فى هذا السبيل. وتم توضيح أهمية هذا الموضوع وآراء أعضائه بإسهاب فى مضبطة الجمعية التاريخية بتاريخ ٢٧ أبريل سنة ١٨٨٠م.(٦٨)

ويتحدث السلطان عبد الحميد فى مذكراته المدونة بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٧م عن الظروف التى جعلته يفتح مجلس المبعوثان مرة ثانية فيقول:" كانت هناك حركتان مثاليتان لأجل المحبين للوطن والأمة، يعنى أنهما هدفان ساميان أو واجبان مقدسان، يتمثل أحدهما فى وضع تراب الوطن بأجمعه نصب أعيننا، ومناهضة كل المبادرات والسلوكيات والتصرفات التى تواجه هذا الهدف، أما الآخر فيهدف إلى تحقيق ثراء الدولة وقوتها وحماية وجودها حيث تكون مستفيدة حقا من أسباب التطور والسعادة والرفاهية والتعمير والإصلاح. ويتسنى لمجلس المبعوثان -إذا استطاع- أن يأخذ برأى جازم فى هذه الأشياء، أما إذا لم يستطع فلزام علينا أن نؤمن ونعترف بأن فتح هذا المجلس سيكون بمثابة خطر داهم على حياة هذه الأمة وتكون هذه الحقائق برمتها ضررها أكثر من نفعها".(٦٩)

وفى الأيام التى تعجل فيها المناضلون من أجل الدستور من أنصار جماعة تركيا الفتاة فى أوروبا، خاطب الصدر الأعظم خليل رفعت باشا السلطان قائلا له": إنهم يريدون الدستور، وينتظرون افتتاح مجلس المبعوثان، ولو علمت أن هذا سيكون علاجا لأمتى، ولا أحسبه كذلك، فإننى حينئذ أنتظر تحذيراتهم، ولكن لكل شىء أوانه، ولكل نبأ مستقر، وإذا تعجلنا فلسوف يصيبنا الضرر، أليس كذلك ؟ فالعجلة من الشيطان".(٧٠)

---

(٦٨) أتيلا جيتين، خير الدين باشا التونسى، أنقرة ١٩٨٨م، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(٦٩) خوجه أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ١١٣ .

(٧٠) وداد عرفى، ص ٤

كان السلطان عبد الحميد لا يريد تطبيق الدستور، ويرى ألا فائدة من تطبيقه عمليا، ويؤمن بتطبيقه نظريا، ما دامت الدولة العثمانية تعيش بشعبها الموجود على هذه الأرض الموجودة، بيد أنه سرعان ما جعل الدستور نافذ المفعول بالقوة نتيجة للضغط الذى تمخض عن الثورات التى اضطلعت بها جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م، وبينما فعلوا فعلتهم، فإنهم لم يكونوا يعلمون عاقبة ما يفعلون، ولسوف يدركون فى القريب العاجل فداحة الخطأ الذى ارتكبوه والجريرة التى اقترفوها.

ولقد تحقق ما قاله السلطان وتنبأ به، إذ ستستطيع الدولة تحمل تطبيق المشروطية الثانية مدة عشر سنين فقط، ولسوف نرى فى الفصول التالية من هذا الكتاب قصة هذه الحقبة الحزينة المليئة بالعبر والعظات.

الفصل الخامس

معاهدة آيا ستفنوس وبرلين

أعلنت الدولة كلها حيادها التام إبان الحرب التركية الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م، وظلت الدولة العثمانية بمفردها فى حربها مع الروس، ولكنها هزمت بسبب عدم استعدادها للحرب وفقدان الكفاءة لدى قادتها، وعندما سقطت منطقة " بلونه " أصيب السلطان بهلع شديد، واستطاع الروس وضع نهاية غريبة للدولة العثمانية فى كل لحظة عند مشارف إستانبول، وحينئذ تجلى تنافس دولى لمساعدة تركيا فى تلك الآونة.

أما السلطان الدبلوماسى الماهر فقد علم أن هذا التنافس غير المتوقع ما هو إلا تنافس بين الإنجليز والروس.

ولما تقدمت الجيوش الروسية من مشارف إستانبول متجهة صوب أدرنة، اجتمع مجلس الحرب وخاطب السلطان أعضاءه قائلا:" أنا لم أرد الحرب، بل أرادتها طائفة من المولعين بالمغامرة والمقامرة، وجرجروا الأمة فى أتون الحرب رغم أنفها، ورأيت بعينى أننا هزمنا، كيف كان حالنا فى ميدان القتال، إن القضية الجوهرية الآن تتمثل فى القدرة على أن نقف على أقدامنا مستفيدين من التنافس الموجود بين إنجلترا وروسيا، فماذا تقولون[١]؟"

وكان تصويت الأعضاء بقولهم "نعم"، كان عبد الحميد يأمل مترقبا دخول الإنجليز الحرب إلى جانب العثمانيين، و أنهم سيمدون يد العون والمساعدة لهم".[٢]

---

(١) دانشمن، ص ١٠٥ .

(٢) ويتلين، ص ١٢٩ .

كان سقوط "بلونه" قد أثار قلق إنجلترا وقض مضجعها، ولا جرم أنه فى أثناء نشوب الحرب وعد الروس إنجلترا بأنهم لا يحتلون إستانبول ومضايقها، ولا ريب أن التاريخ حافل بنقض العهود وعدم الوفاء بها.

ومن ثم فإن الإنجليز بدأوا يتأهبون للحرب ضد الروس واضعين فى حسبانهم كل الاحتمالات مفكرين فيها مليا، وعقد البرلمان الإنجليزى جلسة خاصة خصص فيها مبلغ ستة ملايين من الجنيهات الإسترلينية للنفقات العسكرية للحرب، وأمر الأسطول الإنجليزى بالتحرك لدخول ميناء" جناق قلعة "، واستُدْعى الجند الاحتياطيون، وبدأ الجند الإنجليز فى التقدم صوب البحر الأسود(٣).

وكان سقوط أدرنة فى يد الروس فى يناير سنة ١٨٧٨م قد هيج المشاعر وأثار الحوافظ بشدة فى كل من تركيا وإنجلترا على حد سواء، مما حدا بالدولتين كلتيهما إلى الاقتراب أكثر وأكثر من بعضهما بعضاً.

"وقد صرح اللورد "بيكورس فيلد Beacors Field" رئيس الوزراء البريطانى بأنه لن يرضى أبدا عن احتلال الروس لإستانبول، وأبدى رغبة إنجلترا فى إحياء سياستها فى حرب القرم".(٤)

ولما سقطت أدرنة بعث السلطان رسالة إلى الملكة فكتوريا ملكة إنجلترا يطلب فيها وقف إطلاق النار مع روسيا، وأن تتوسط إنجلترا للبدء فورا فى مناقشة عقد صلح بينهما وتسهيل طلبات إنجلترا وجعلها أكثر يسرا.(٥)

---

(٣) ج. روبون بوكستون، تركيا فى الثورة، لندن ١٩٠٩م، ص ٢٧٢ .

(٤) جيرول، ص ٣٢٩ .

(٥) ويتلين، ص ١٢٩ .

قدوم الأسطول الإنجليزى إلى إستانبول

أسرع الإنجليز من فورهم بإرسال أسطولهم إلى إستانبول لمواجهة الروس، وكان هذا الأسطول قد قدم قبل حين إلى ميناء بشيكة فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٧٧، وظل منتظرا هنالك[٦]، "مكث هذا الأسطول إبان فترة الحرب ليكون بمثابة عنصر أمان للسلطان عبد الحميد الثانى الذى كان على يقين بأن إنجلترا سوف تتكفل بحمايته ضد الخطر العظيم الذى سيواجهه".[٧]

وتوجب على هذا الأسطول أن يهم بالتحرك، وعندما سقطت أدرنة جاء الأسطول الإنجليزى ودخل مرفق ميناء "جناق قلعة "، وطفق ينتظر إذن السلطان للدخول إلى بحر مرمرة، وجاء السفير الإنجليزى" لا يارد Layard" لمقابلة السلطان بغية الحصول على هذا الإذن[٨]" الذى حصلوا عليه بعد حين، وتفيد الكتابات التى أوردها على سعيد أحد مساعدى السلطان أن فكرة إحضار الأسطول الإنجليزى ثابتا أمام أعين الروس كان سياسة ذكية أريبة للسلطان عبد الحميد".[٩]

تحرك الروس من أدرنة مولين وجههم شطر إستانبول حتى أصبحوا على مسافة عشرة كيلو مترات من منطقة آيا ستفنوس (هى منطقة يشيل كوى فى الوقت الحاضر) حيث أقاموا فيها مركز القيادة، وأصبح الدخول إلى إستانبول أمرا وشيكا يمكن أن يحدث بين عشية وضحاها.

وعلى حين كانت الصيحات فى كل لحظة فى شرفات قصر يلديز تصرخ قائلة الروس الروس، كانت تسمع كذلك صيحات مماثلة ترفع عقيرتها بالصياح قائلة:

---

(٦) هيوج ستون واتسون، الإمبراطورية الروسية ١٨٠١-١٨١٧ .

(٧) أوديون بيرز، حياة عبد الحميد، لندن، ١٠١٧، ص ٧٢ .

(٨) جريس، ص ١٣٤، ومحمود جلال الدين باشا، ص ٥٥٦ .

(٩) على سعيد باشا، ذكريات القصر، إستانبول ١٣٣٨هـ، ص١٦٥ .

الأسطول الإنجليزى الأسطول الإنجليزى، وكان السلطان يتابع بسعادة غامرة هذا الخبر المفرح من شرفة الحاكم بقصر يلديز ممسكا بيده "المقراب".(١٠)

ورأى الأسطول الإنجليزى وهو يرسو قبالة الجزر، وتم كل شيء على ما يرام ولم يستطع الروس دخول إستانبول، وقد وقعت هذه الأحداث في ١٣فبراير سنة ١٨٧٨م.(١١)

وأعلن الإنجليز أن أسطولهم قدم قبالة إستانبول بحجة حماية رعاياها الموجودين فى إستانبول إذا ما حدثت أزمة مفاجئة." بيد أن الحقيقة مناقضة لذلك، حيث إن سلاح الإنجليز كان موجها صوب الروس".(١٢)

كان الإنجليز يخشون من استحواذ الروس على طريق الهند، واقترب الإنجليز والروس حتى أصبحا على مرمى قذيفة مدفع، وكان الجنود الإنجليز يتصايحون من فوق سفنهم قائلين: " لا نريد الحرب، ولكننا مستعدون إذا دعت الضرورة لذلك، ونحن نملك الجند والمال كما نملك سفننا، وإن الروس ليسوا أصحاب حق فى دخول إستانبول.(١٣)

كابد الروس العنت والمشقة بسبب دخول الأسطول الإنجليزى، وهددوا السلطان باحتلال إستانبول وشبه جزيرة غاليبولى إذا لم ينسحب الأسطول الإنجليزى، وأخاف هذا التهديد السلطان عبد الحميد، وأوصى بمغادرة الأسطول الإنجليزى إستانبول، حيث حدث تحرك، روس قبالة منطقة "موادنيه" Madaya، وظل فيها حتى شهر أكتوبر لسنة ١٨٧٨م.

(١٠) الترجمة العربية لكلمة تلسكوب. (المترجم)

(١١) جريس، ص ١٢٤-١٣٥ .

(١٢) ويتلين، ص ١٣٠ .

(١٣) هاسليب، ص ١٤٥ .

معاهدة آياستفنوس

تم الاتفـاق على قـرار بوقف إطلاق النار فى ٣٠ يناير سنة ١٨٧٨م، وذلك بعـد احتلال الروس مدينة أدرنة، ووقعت معاهدة الصلح فى مركز قيادة الجيش الروسى فى آياستفنوس بتاريخ ٣ مارس سنة ١٨٧٨م، ولم يكن للدولة العثمانية أية قوة للمقاومة بموجب شروط الاتفاقية التى فرضها عليهم الروس.

أما القضية التى أصر عليها عبد الحميد الثانى وتشبث بها فكانت اعتراضه على رغبة الجنرال " إيجناتيف" فى تسليم الأسطول العثمانى للروس، وقال السلطان:" أنا أقبل بتسليمه شريطة أن أكون بداخله"، ولم يتزحزح الروس عن موقفهم وتحقيق رغباتهم التى يتعذر الحصول عليها".(١٤)

سرعان ما لبى عبد الحميد من فوره كل شروط معاهدة الروس، ولم يستطع الروس التفكير مليا فى نشوة النصر غير واضعين فى حسبانهم المتاعب التى سوف تجرها عليهم بنود هذه الاتفاقية فيما بعد، وكان السلطان السياسى المحنك يعلم هذه الأشياء، وكان يعيش على أمل استرداد جزء من الولايات بعد حين بموجب اتفاقية آياستفنوس.

وكان يقول:" كنت أتمنى لو أن كل ولاية منزوعة من بلادنا سوف تزيد غضب إنجلترا وتجعلها تنهض لمساعدتنا فى استردادها".(١٥)

أحدثت اتفاقية الصلح التى أتمها السلطان بمهارته السياسية تنافسا دوليا، مما جعله يعيد حساباته مستفيدا من كل هذه الأحداث والملمات، ولم تكن روسيا تدرك أنها وقعت فى أحبولة(١٦) حيله الماكرة.

---

(١٤) على سعيد باشا، ص ١٦ .

(١٥) جريس، ص ١٣٨ .

(١٦) هى الشرك أو الفخ. (المترجم)

ومن أهم بنود اتفاقية آيا ستفنوس أنها حرضت الدول الكبرى ضد روسيا.

كان هناك تأسيس دولة بلغاريا العظمى المتدة من نهر " طونا" حتى بحر إيجة والتى كانت خاضعة تحت حكم السولافيين الخاضعين بدورهم للنفوذ الروسى.

وكذلك حدث تقارب شديد للروس من خليج البصرة ومزبو طامية، وضمت إليها مناطق قارص وأردخان وبايزيد، ناهيك عن المكاسب التى حققتها والنفوذ الذى كان لها مع الأرمن حيث انتزعت منهم بعض الأراضى، وأخلفت وعدها معهم بشأن الإصلاحات.

أصداء معاهدة آياستفنوس

لم يتأخر حدوث الأصداء وردود الأفعال التى كان يتوقعها السلطان من الدول الكبرى، وجاء أولها مِنْ إنجلترا، أعقبها رد فعل النمسا، وكانت هاتان الدولتان لا تريدان دولة بلغارية كبرى حتى لا تكون بمثابة قاعدة عسكرية متقدمة فى منطقة البلقان".(١٧)

وكان السفير الإنجليزى" لايارد" الذى يعرف شروط معاهدة آياستفنوس وبنودها قد أسرع من فوره بإخبار رئيس الوزراء الإنجليزى اللورد" باكنوس فيلد" بخطورة الموقف وجديته، وقال له:" إذا تخلت إنجلترا عن السلطان فمن الممكن أن يفقد عقله ويطيش صوابه وتطير بلابله، ويمكن أن يظل معرضا للتهديدات والحيل والدسائس المختلفة".

وحقيق علينا أن ننظر إلى هذه الأحداث ونأخذها مأخذ الجد، ولو أننا قبلنا معاهدة آياستفنوس بشكلها الحالى المناقض لمصالح الدول الأوروبية الأخرى ومنافعها، فإننا نكون حينئذ قد فقدنا نفوذنا وهيمنتنا الموجودين فى آسيا.

فهل إنجلترا مستعدة لهذا الأمر حقا؟ إذا لم تكن كذلك فإن تركيا يمكن أن تكون ذا فائدة جمة لنا.

---

(١٧) وليم لانجر، دبلوماسية الاستعمار، ١٨٩٠-١٩٠٢م، ص ٣٠٤ .

وإن قبول السلطان ليكون حليفنا فى آسيا واستحواذه على الولايات التى تحت يده يتفق تماما مع منعتنا ومآربنا. وإذا لم تتغير بعض شروط معاهدة آياستفنوس فإن الإمبراطورية العثمانية سوف تتلاشى وتنمحى من آسيا كما حدث لها فى أوروبا مما يتمخض عنه إصابتها بالوهن والهوان فى إفريقيا".(١٨)

أخذ الخوف بمجامع اللورد فيلد رئيس الوزراء الإنجليزى بسبب المعلومات التى تلقاها من السفير الإنجليزى فى إستانبول، وعقد اجتماعا لمجلس اللوردات ناقش فيه تدخل الإدارة الروسية فى أوروبا بموجب هذه المعاهدة وما سوف ينجم عن مصير البحر الأسود الذى سيئول إلى بحيرة روسية مثل بحر الخزر.

أما وزير الخارجية الإنجليزى اللورد"سالزبورى" فقد أفصح عن رد فعله على هذا النحو"إن الحكومة الروسية سوف تكون ذات نفوذ غير عادى فى منطقة البحر الأسود، ولسوف يكونون من الآن فصاعدا واقعين فى محيط دائرة سلطان الروس ولسوف ينجم عن هذا أن التجارة الأوروبية الممتدة من طرابزون حتى إيران ستتقلص أو تمنع بما يتفق مع مزاج روسيا".(١٩)

وقد أقدمت إنجلترا على إخطار روسيا برغبتها فى تعديل معاهدة آياستفنوس، وضاعفت إنجلترا استعدادها للحرب واضعة فى حسبانها ما سوف يكون عليه عناد روسيا وتشبثها بموقفها، حتى إن رئيس الوزراء الإنجليزى " فيلد" دعا رئيس النمسا "أندرشى" لعقد اتفاق بينهما، تضطلع كلا الدولتين بمقتضاه بحماية الدولة العثمانية".(٢٠)

---

(١٨) د. نسيم ضيا : انتقال جزيرة قبرص إلى الإنجليز والإدارة الإنجليزية المؤسسة فى هذه الجزيرة، نشر معهد أبحاث الثقافة التركية، أنقرة ١٩٧٥م، ص ١٤- ١٥ .

(١٩) كرى قوريان : الأرمن فى خدمة الإمبراطورية العثمانية ١٨٦٠ - ١٩٠٨م، لندن ١٩٧٧، ص ٧ .

(٢٠) درا يولت : ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

وكانت النمسا قد عارضت بدورها إقامة دولة بلغارية كبرى تحت حماية روسيا في منطقة البلقان. كما كانت تتابع سياستها من فيينا حتى سلانيك، كما كانت تريد كذلك أن يكون لها وجود مفتوح مباشرة على بحر إيجة، وذلك عن طريق البوسنة والهرسك ويني بازار صانجق ومقدونيا"[٢١]، وكانت كل من اليونان والصرب ورومانيا ضد معاهدة آياستفنوس لمعارضتها لمنافعها ومصالحها.

انتقال جزيرة قبرص إلى الإدارة الإنجليزية

لم يُرسل الأسطول الإنجليزي عبثا إلى بحر مرة في مواجهة التهديدات التي تحيق بتركيا، كما أن إنجلترا لم تعارض معاهدة آياستفنوس سُدى، بل فعلت كل هذا للحيلولة دون تسليم منافستها روسيا المستعمرات الموجودة في طريق الهند، إذ يتوجب على الدولة العثمانية الاستمرار في أن تكون عقبة كأداء أمام المد الروسي المتجه صوب الجنوب، وتكون كذلك بمثابة جدار الحريق من ناحية الموانى على وجه الخصوص.

وكانت إنجلترا تريد أن تدفع ثمنا غاليا للدولة العثمانية على سبيل الدية جزاء معارضتها سالفة الذكر لتركيا ووقوفها ضد مصالحها، وأخذت في سبيل ذلك تتابع التدابير التي تقوي عضدها أكثر في منطقة الشرق الأوسط، وذلك في مواجهة الدولة العثمانية التي بدأت تفقد تدريجيا مقاومتها تحت وطأة التهديدات الروسية، ومن ثم فإن إنجلترا كانت تريد الذهاب إلى الشرق الأوسط والاستقرار فيه منفصلة عن سياستها في حرب القرم.

وكانت قبرص بمثابة أول مكان تفكر فيه لتحقيق مآربها، وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٧٨م طلب السفير الإنجليزي" لايارد" مقابلة خاصة مع السلطان عبد الحميد، وفتح معه مسألة قبرص بصفة رسمية، ولنقرأ في هذا ما ورد في مذكرات السلطان عبد

(٢١) R.W.seton waston، بزوغ القومية في البلقان، نيويورك، ١٩٦٦م، ص ١١١ .

الحميد: "تفضل السفير «لايارد» بالحضور لمقابلتي في معية سعيد باشا، وكان خجلا مترددا يمشي على استحياء، ثم أخذ يدلك يديه، وبدأ بعد ذلك يسرد الأحداث والوقائع منذ قيام الدولة العثمانية حتى الوقت الراهن، ثم أردف قائلا: إن الإنجليز أصدقاء حميمون للدولة العلية، وإن معاهدة آياستفنوس ستجلب الضرر على الدولة العلية، وتريد إنجلترا مد يد العون والمساعدة إلى الدولة العثمانية.

ومن المتعذر علينا مساعدتكم ضد الاعتداءات الروسية عن طريق إرسال المعدات والأسطول من مالطة وإنجلترا، وعليه فإن الحاجة لإحدى الجزر الغربية أصبحت ضرورة ملحة لتكون هذه الجزيرة بمثابة مستودع ذخيرة للمعدات والأسطول.

كما أننا نتعهد بعدم التدخل في الشئون المختلفة لإدارة الجزيرة ولسوف نسدد الديون العمومية عن طريق الاقتراض من دخل الجزيرة وإزالة الخسائر التي سببتها الحرب الروسية عن طريق هذا الدخل، ونتكفل بضمان حدود الدولة العلية في البلقان، ولهذا تطالب إنجلترا بالتخلي عن جزيرة قبرص بصفة مؤقتة من أجل الدفاع عن تركيا ضد الاعتداء الذي تقوم به روسيا ضدها، ومدها بالقوة اللازمة لذلك في الجزيرة[٢٢].

أبدى عبد الحميد أول الأمر موقفا صلبا يتسم بالعناد والإصرار ضد الاقتراح الذي عرضه عليه السفير الإنجليزي لايارد، وقد رد عليه بقوله:" إنني لن أقدم مثقال ذرة من الإمبراطورية، ولا أملك الحق بالاضطلاع بهذا ألبتة".[٢٣]

وحينئذ تميز السفير الإنجليزي غيظا وتحدث عن عدم مساعدة الدولة العثمانية إبان تعديل معاهدة آياستفنوس، كما أخذ يتوعد ويهدد بأن إنجلترا سوف تقدم على احتلال جزيرة قبرص بالقوة مهما كان الثمن".[٢٤]

---

(٢٢) محمد خوجه أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ١٦٨ .

(٢٣) جريس، ص ١٦٨ .

(٢٤) المصدر السابق، ص ١٤٦– ١٤٧ .

ولم يجد السلطان بداً من أن يلين أمام هذا التهديد، وقبل طوعا التخلى عن جزيرة قبرص لإنجلترا مستشهدا فى هذا الموقف بالمثل التركى الذى يقول معناه الغارق فى البحر يعانق الثعبان" أو المضطر يركب الصعب، ولكن بقيت بعض الشروط، ومنها على سبيل المثال عندما يعيد الروس كلا من باتوم وقارص وأردخان إلى الدولة العثمانية، تخلى إنجلترا جزيرة قبرص، وقد قبل السفير الإنجليزى هذا الشرط".(٢٥)

ثم أضاف السلطان هذه العبارة إلى المعاهدة وهى "إننى أصدق على هذه المعاهدة شريطة ألا تلحق ضررا بحقوقى السلطانية".(٢٦)

تم توقيع اتفاقية فى ٤ يونيو سنة ١٨٧٨م التى تم بموجبها التخلى عن إدارة جزيرة قبرص إلى إنجلترا . وتقضى هذه الاتفاقية كذلك بأن تتولى الدولة العثمانية إدارة الأملاك الدينية وأراضى الوقف والأراضى الأميرية، ولسوف تقدم الخزانة العثمانية ما مقداره ٢٢٩١٩كيسا من النقود، وعندما تتخلى روسيا عن كل من باتوم وقارص وأردخان، فإن إنجلترا سوف تترك جزيرة قبرص من فورها إلى تركيا.

وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى أسرع الإنجليز بضم قبرص فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٤م (٢٧).

نجح الإنجليز فى وضع مادة ملحقة بمعاهدة قبرص تقضى بإجراء إصلاحات من أجل الرعايا المسيحيين، ولا سيما الأرمن، وذلك فى مقابل حماية تركيا الآسيوية من الاعتداءات الروسية.

---

(٢٥) جريس : ص ١٤٧ .

(٢٦) مدحت سرت أوغلو: بعض الوثائق الجديدة المتعلقة بالاتفاقية العثمانية الإنجليزية سنة ١٨٧٨م، الكتاب السابع من مقالات التاريخ التركى، جـ٢ نشر الجمعية التاريخية التركية، أنقرة سنة ١٩٧٣م، ص ٦١١، انظر كذلك، أحمد حامد، آرائى فى الدولة والأمة ص ٦٦ .

(٢٧) محمد نابى، رامباى أوغلو، المسألة القبرصية، وزارة خارجية الباب العالى، إستانبول ١٣٢٥هـ، ص ١٣-١٤ .

وقد أدرج موضوع هذه الإصلاحات كذلك فى معاهدة برلين التى سببت فيما بعد متاعب جمة للدولة العثمانية.

معاهدة برلين

تم التوقيع على معاهدة برلين المعدلة لمعاهدة آياستفنوس، وذلك فى ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨م، وكانت البنود الجديدة لهذه المعاهدة تقضى بما يأتى : يتم أخذ مقدونيا من بلغاريا ثم ترد إلى تركيا، ويصبح القسم الشرقى من بلغاريا ولاية متميزة تحت إدارة الحكم المسيحى، وتسمى الروملى الشرقية.

أما الجزء الثالث من بلغاريا والواقع بين جبال بلغاريا ونهر طونا فسوف يظل تحت اسم " إمارة البلغار"، ويكون دولة مستقلة تدفع الضريبة للدولة العثمانية.

أما البوسنة والهرسك فلسوف تتولى إدارتها كل من النمسا والمجر، رغم أنها تعد ولاية عثمانية، وقد أعيدت منطقة بايزيد فى آسيا من يد الروس، ولسوف تضطلع الحكومة العثمانية بإصلاحات فى الأماكن المسكونة بالنصارى فى كل من مقدونيا وشرق الأناضول.

كما سيتم تصحيح الحدود لصالح اليونان على أن تترك كل من باصربيا وباتوم وقارص وأردخان للدولة الروسية[٢٨]، كانت معاهدة برلين ذات فائدة لتركيا مقارنة بمعاهدة آياستفنوس، وقد حقق السلطان عبد الحميد الثانى هذه المعاهدة مستفيدا من المنافسة الدولية.

ولم تكن هناك دولة واحدة مسرورة من معاهدة برلين باستثناء الدول الكبرى فى أوروبا الغربية، وقد اضطرت الدول كلها إلى التوقيع على هذه المعاهدة، وكانت المكاسب

---

(٢٨) حكمت بايوت، تاريخ الانقلاب التركى، جـ١ ، جمعية التاريخ التركى، أنقرة ١٩٥٧م، ص ٤٠٢ .

الروسية قليلة على الرغم من التضحية التى قدمتها من أجل نصارى البلقان مما أشاع فكرة ذاعت على الرأى العام تقول" ليتنا لم نعلن الحرب".

أما البلغار فهم الذين أكثر من عانوا من هذه المعاهدة، لأنها حطمت الحلم والخيال الذى كان يراودهم، ومن ثم أصبحوا مرة ثانية مستحوذين على الحدود التى كانت منصوصاً عليها فى معاهدة آياستفنوس، ولسوف يغذى هذه الفكرة لديهم فكرة تأسيس بلغاريا الكبرى التى كانت تداعب أحلامهم فى العصر الوسيط، وباتت هذه الفكرة هى الهدف المنشود لكل قومى بلغارى.

لا ريب أن معاهدة برلين من أهم الأسباب التى مهدت السبيل إلى تصفية الإمبراطورية العثمانية وعجلت باستئصال شأفتها بصورة جازمة، كما أنها دمرت السلطان عبد الحميد الثانى، وسلبت الأراضى العثمانية على إثرها، وباتت غنيمة بين الدول الكبرى والصغرى على حد سواء، وأحدثت تقسيمات جغرافية إجبارية ورسمت حدوداً مختلفة، وحوصرت الدولة العثمانية بإكراهها على إجراء إصلاحات واضحة تحت وطأة التدخل الأجنبى، وهذا يعنى إلحاق الضرر بالسلطان وبالإصلاحات الموجودة لدى الأرمن فى الأناضول ومقدونيا والروملى، ناهيك عن الخسارة الفادحة التى ستصيب مقدونيا المتاخمة لبلغاريا.

أما الجيش الثالث الذى اعتاد الاضطلاع بملاحقة قطاع الطرق ومطاردتهم من البلغار والروم والصرب الذين كانوا فى مقدونيا، فإنه أعلن بدوره العصيان وشق عصا الطاعة على السلطان عبد الحميد، بيد أن تمرده الذى قام به فى يوليو سنة ١٩٠٨م لم يكن ذا تأثير قوى، وهو الجيش نفسه الذى أقال عبد الحميد من عرشه فى ثورة مارس من عام ١٩٠٩م، ولسوف يبدأ السلطان فى وقت مبكر بالتدخل فى الانقلاب عليه واستئصال شأفته عن طريق حركتى التمرد السالف ذكرهما.

الفصل السادس

حركات التمرد الأولى ضد السلطان عبد الحميد الثانى

واقعة قصر جراغان

هى تلك الواقعة المسماة بهذا الاسم، وحدثت فى ٢٠ مايو سنة ١٨٧٨م، وتعد أول محاولة لإعلان الثورة والتمرد والانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثانى بغية القضاء عليه، وتسمى هذه الحادثة بواقعة على سُعاوى الذى تزعمها.

كان على سعاوى من جماعة العثمانيين الجدد، ثم فر بعد ذلك هاربا إلى أوروبا، وبعد أن قضى فيها حقبة طويلة من الزمن جىء به من أوروبا بإيعاز من سعيد باشا الإنجليزى إلى السلطان، وذلك عقب جلوسه على العرش، ثم عين بعد ذلك فى إدارة المدرسة السلطانية بغلطة سراى بسبب كتاباته المؤيدة للسلطان.

وقد عرف على سعاوى بأنه وطنى مخلص ذو وقدة ذكاء وسورة حُميا، ثم غضب عليه السلطان وعزله من وظيفته لارتكابه أفعالا غير متزنة، وما لبث أن أصبح من ألد أعداء السلطان، ثم اضطلع بحركة تمرد جريئة، شن فيها هجوما على قصر جراغان لتهريب السلطان مراد الخامس وإجلاسه ثانية على عرش السلطنة.

وقد أحدثت هذه الواقعة أصداءً كثيرة ما لبثت أن تحدثت عن أولئك المضطلعين بهذا التمرد، وسرعان ما ظهرت مزاعم متباينة تنسب الاتهام إلى الإنجليز والروس والماسونية والسلطان مراد الخامس نفسه، وقد جلس مراد الخامس على العرش بعد هذه الثورة المتمردة، وهيمن على القصر والحكومة التى أيدها الإنجليز والماسونيون ضد السلطان عبد العزيز.

ولما اشـتـدت وطأة المرض على السلطان مـراد أصـبـح عـاجـزا عن الاضطلاع بوظيفته، مما مهد السبيل أمام السلطان عبد الحميد للجلوس على العرش، وقد قبلت إنجلترا والماسون جلوسه كرها، وكانوا يفكرون فى السلطان مراد حتى يتمكنوا من استخدامه لبعث الراحة والطمأنينة فى قلوبهم.

وشرعوا فى تقديم المزاعم والحجج الواهية التى تؤكد أن السلطان مراد قد نقه من علته، واسترد عافيته، رغبة منهم فى مواجهة العنت والضيق الذى يشعرون به تجاه السلطان عبد الحميد الثانى، وإن جلوس مراد على العرش مرة أخرى قد برهن على صدق رغبتهم.

أصبحت واقعة قصر جراغان أول حادثة تمرد تصدر عن هؤلاء الطغمة من المتمردين، حيث كانت تركيا تعيش أشد أيامها حرجا فى ربيع عام ١٨٧٨م، وأحاطت آلام الحرب الخاسرة وعذاباتها كل مكان، واقترحت آراء صلح متباينة لا مناص من اختيار واحد منها، وقد أثيرت مناقشات حول كيفية تقسيم الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها.

كل هذه الأشياء كانت بمثابة المحك الذى تقاس به كفاءة عبد الحميد الذى انتقلت زمام أمور السلطنة كلها إلى يده بعد إغلاق مجلس المبعوثان.

وكان السلطان يقف بعناد أحيانا ضد رغبات روسيا وإنجلترا اللتين كانتا تريدان تقسيم الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها، ثم ما يلبث أن يضطر إلى قبول رغبات هاتين الدولتين تارة أخرى، وكان السلطان فى أوقات العناد والتعنت يسمع شائعات تدور حول تحسن صحة مراد الخامس الذى يقيم إقامة جبرية فى قصر جراغان.

كانت" شوق أفرا سلطان" والدة مراد الخامس تأمل آنذاك فى اعتلاء ولدها سدة العرش مرة ثانية مستعينة فى ذلك بترويج إشاعات فى أوساط القصر عن تحسن صحة ولدها واسترداده لعافيته، وقد فعلت كل هذا حتى لا تنعم الوالدة سلطان

بالطمأنينة وراحة البال، كما أنها كانت تتحدث مع على سعاوى فى هذا الموضوع رغبة منها فى تحقيق هذا المأرب.(١)

ناهيك عن علاقتها بالسفير الإنجليزى الذى طلبت إليه أن تمد إنجلترا يد العون والمساعدة حتى يتمكن ولدها مراد من اعتلاء سرير العرش بعد أن ينقه من علته ويَبرأ من سقمه.(٢)

أصبح على سعاوى من ألد أعداء السلطان عبد الحميد مما دفعه إلى استخدام كل وسائل التهديد والوعيد ضد عبد الحميد، وشن غارة على قصر جراغان فى الساعة الحادية عشرة يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٧٨م مستخدما فيها خمسمائة من المهاجرين الروملين، وكان يريد كذلك تهريب مراد الخامس كى يرتقى عرش السلطنة مرة أخرى.

واستعان على سُعاوى بحيلة ماكرة تذرع بها لأخذ الهبات والعطايا من السلطان؛ بغية إنقاذ المسلمين المهاجرين الذين يعيشون فى الروملى، وجمعهم أمام القصر المذكور حيث أعانوه على شن غارته التى بيت لها.(٣)

اقتحم على سعاوى باب القصر العالى وفى معيته ثلة من الأرمن المهاجرين، وكانت الحراسة المكونة من ثلاثة أفراد غير ذى تأثير، وسرعان ما ولجت هذه القوة المهاجمة إلى داخل القصر من خلال النافذة الموجودة على مدرجة السلم المطل على باب القصر.

أما على سعاوى الذى دخل مباشرة إلى جناح الحريم فأسرع بتحطيم هذا الجناح، ثم تأبط ذراع السلطان مراد الخامس وأخرجه من هذا الجناح، وحينئذ قال مراد للمتمردين الثائرين: ماذا فعلتم أيها الإخوة، ثم قال المتمردون للسلطان عبد الحميد إنك لن تستطيع عمل شىء الآن، ولسوف نبايع مراد ونعزل عبد الحميد، ثم شرعوا بعد

---

(١) التاريخ العثمانى المفصل، إعداد لجنة من الباحثين، إستانبول ١٩٦٣م، ص ٣٣٠

(٢) هاسليب، ١٣٢- ١٥٤ .

(٣) أ.د. إسماعيل حقى أوزون جارشيلى، على سعاوى وواقعة قصر جراغان .

ذلك فى جرجرة مراد وإحضاره"[٤]، كان على سعاوى يتأبط ذراع مراد اليمنى، ويتأبط الذراع اليسرى شخص يرتدى زيا جركسيا، ثم نزلوا السلم إلى أسفل وهم يقولون: "يحيا السلطان مراد".

ولما أحيط حسن باشا مماقط بشكتاش علما بما حدث، أسرع من فوره إلى قصر جراغان، وعندما رأى السلطان مراد متأبطا ذراع على سعاوى وعرف أنه زعيم هذه الثورة أسرع وأهوى فوق رأسه الهراوة التى كانت فى يده وقتله، وفر من كانوا فى معيته فى الحديقة كلهم هاربين.[٥]

لقى ثلاثة وعشرون شخصا حتفهم فى هذه الواقعة، أما الاثنا عشر شخصا المقبوض عليهم فعلموا بعد استجوابهم أنهم خدعوا وغرر بهم، وأنهم فى حقيقة الأمر من الفقراء المعدمين.

أصيب السلطان عبد الحميد بصدمة عنيفة من هذه الحادثة، ودار بخلده على الفور أن إنجلترا هى العقل المدبر لها، وأن وجود مترجم السفارة الإنجليزية بين المهاجرين الروملليين فى أثناء الحادثة لا يمكن أن يكون مصادفة محضة.[٦]

ويجب أن نفكر مليا فى وجود علاقة بين هذه الحادثة ووجود السفير الإنجليزى فى حضرة السلطان لمقابلته من أجل طلب جزيرة قبرص فى يوم ٢٥ مايو لسنة ١٨٧٨م، أى بعد الحادثة بخمسة أيام ليس إلا"[٧]. ويجوز أن تكون إنجلترا قد أرادت الاستقرار فى قبرص عن طريق تخويف السلطان وترويعه".[٨]

---

(٤) المصدر السابق، ص ٢٨ .

(٥) المجلة السابقة، ص ٢٨، ٨٢ .

(٦) المجلة السابقة، ص ٨ .

(٧) أحمد حامد، آرائى فى الدولة والأمة، ص ٦٢ .

(٨) أحمد حامد، آرائى فى الدولة والأمة، ص٦٢ .

وترى طائفة من المؤرخين أن الإنجليز والماسون وراء تحريك الثورة وإشعال نارها، "وقد دبر الشاب على سعاوى هذه المكيدة فى أثناء علاقة الحب التى توشجت بينه وبين إحدى المربيات الإنجليزيات، والتى تزوجها بعد ذلك، وكانت امرأة سيئة السمعة، استطاعت السيطرة عليه، ونجحت فى إغوائه وخداعه، ولربما خطرت لهذا الشاب أفكار متطرفة خطيرة اقتبسها من الغربيين".(٩)

كان الناس ينظرون إلى زوجة على سعاوى فى إستانبول على أنها جاسوسة إنجليزية، وقد بلغ تأثيرها فى زوجها حدا بعيدا، ولهذا السبب كان زوجها يلقب بلقب "على سعاوى البروتستانتى".(١٠)

" كان هذا الرجل متزوجا بهذه المرأة الإنجليزية فائقة الحسن بارعة الجمال، وكانت بدورها مؤيدة للإنجليز ظهيرة لهم، وصديقة حميمة لسعيد باشا الإنجليزى مستشار القصر السلطانى، بيد أنها كانت تعلم أن الإنجليز لا يعتمدون على عبد الحميد ولا يثقون به، ولهذا رأت ضرورة الاستفادة من السلطان مراد فى تحقيق مآربها، ولما علمت هذه المرأة أن السلطان مصاب بالجنون أسرعت من فورها فى نشر أخبار توحى بأنه برئ من علته وبدأ يسترد عافيته بعد مدة وجيزة من إقصائه عن العرش.

ولا ريب أن هذه الأحداث كانت تتصل اتصالا مباشرا بالماسون الموجودين فى تركيا و أوروبا بسبب النزعة الماسونية عند السلطان مراد الخامس، ولربما كان على سعاوى ماسونيا متفقا معهم، أو ربما يكون مستقلا عن هؤلاء الماسون، كما أنه نجح فى إجراء مراسلات بين السلطان مراد وبعض الإنجليز الذين لا ينتسبون إلى الماسون، ورغم أنه لا يعلم كنه وماهية هذه المراسلات، فإن الثابت الذى لا يتطرق إليه شك أن لهذه المراسلات صلة وثيقة بتهريب مراد من القصر".(١١)

---

(٩) هاسليب، ص ١٥٠ .

(١٠) بروفيسور دكتور حلمى ضيا أولكن، تاريخ الفكر التركى المعاصر، جـ١، قونية ١٩٦٦، ص ١١٥ .

(١١) ضيا قرال، جـ٨، ص ٥٠٠- ٥٠١ .

وتفيد الكتابات التى دونها محمود جلال الدين باشا أن مراد الخامس كان سيهرب إلى إنجلترا عن طريق سفينة إنجليزية حيث يتم علاجه فيها، فإذا ما تعافى وبرئ من العلة فإنه سيرتقى عرش السلطنة بطريقة قانونية مشروعة".(١٢)

كان السلطان مراد منتسبا إلى جمعية ماسونية، ويستعين بأنصارها الموجودين فى إستانبول وبجمعية أخرى موجودة فى أوروبا، وكانوا يدعون الله أن يعجل بشفاء مراد من علته، وأحضروا له من أوروبا منومًا مغناطيسيا وطبيب أمراض عقلية، كما كان هؤلاء الماسون يعقدون اجتماعات للتحضير لثورة قوية متمردة.(١٣)

أما السلطان عبد الحميد فقد وصف واقعة قصر جراغان قائلا:" لقد دأبت إنجلترا على إشعال نار الفتن عن طريق القناة الماسونية".(١٤)

وإذا ما تطرقنا لبحث أسباب واقعة قصر جراغان فيتوجب علينا الوقوف على الدور الذى اضطلعت به روسيا فى هذه الحادثة، ودليل هذا هو ذلك التأييد القوى الفعال الذى قدمه كل من نيشلى صالح وجركس نازى إلى على سعاوى حيث كانا يعملان لحساب روسيا.

وقد قام سليمان باشا بالقبض عليهما لاضطلاعهما بدعاية مغرضة لإفساد الحالة المعنوية للجنود العثمانيين لصالح الروس، وبعد ذلك فر هذان المارقان هاربين إلى إستانبول".(١٥)

ويرى" جين هاسليب Jean Haslip " أنه على يقين جازم بأن الروس هم وراء هذه الواقعة(١٦) سالفة الذكر، ويمكن أن نخمن كذلك أن روسيا مثلها فى ذلك مثل إنجلترا فاتبعت سبيلها فى تهديد السلطان؛ بغية الحصول على تعويضات.

---

(١٢) محمود جلال الدين باشا، ص ١٣٨ .

(١٣) أورزون جارشيلى، على سعاوى، ص ٧٣ .

(١٤) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ٤١ .

(١٥) التاريخ العثمانى المفصل، جـ٦، ص، ٣٣٣٠ .

(١٦) هاسليب، ص ١٥٣ .

الثورة السرية لكل من عزيز بك وصاقليرى

ظهرت حركة ثورية ثانية فى أعقاب واقعة "قصر جراغان"، كان هدفها القضاء على السلطان عبد الحميد وإقصاءه عن العرش وتنصيب مراد الخامس مرة ثانية على عرش السلطنة، وقد اضطلع بهذه الثورة المتمردة كل من صاقليرى وعزيز بك اللذين سميت هذه الثورة باسميهما.

وإذا أمعنا النظر مليا فى هذه الثورة برمتها ألفيناها أكثر تطورا من واقعة قصر جراغان بسبب الدور الذى أسهمت فيه الجمعية الماسونية، والتى كانت لها علاقات سرية غامضة مع الدول الأوروبية العظمى.

أما " صاقليرى " فهو الممثل الرئيسى لهذه الجماعة السرية سالفة الذكر، وكان يونانيا ماسونيا، وهو أحد الذين كانت لهم علاقة وثيقة بالسلطان مراد الخامس منذ فترة ولاية عهده، وله نشاط معروف فى تجارة الخمر والحبوب فى إستانبول، وفى سنة ١٨٥٦م فى الجمعية الماسونية الشرقية الفرنسية.

وفى سنة ١٨٦٨م جيء به ليرأس جمعية تسمى"جمعية الأستاذ الأعظم" التى أسسها"برودوس لوكاسى" المرتبطة بجمعية المشارق العظمى الفرنسية، وأحضر"صاقليرى" خطابا من هذه الجمعية عرض فيه على ولى العهد مراد العضوية الماسونية، وتعرف إليه بهذه الطريقة.(١٧)

قبل مراد ما اقترحته عليه الماسونية فى احتفال بسيط، وأصبح "صاقليرى" بعد ذلك الرسول والوسيط بين مراد والماسونية.

وفى الوقت نفسه كان هذا الرجل اليونانى الماسونى متقد الحماس، يريد تأسيس دولة بيزنطية مستخدما فى سبيل ذلك كلا من مراد والماسونية، "كما كان ذا رغبة

(١٧) إسماعيل حقى أوزون جارشيلى : الجمعية السرية لكل من صاقليرى وعزيز بك اللذين أرادا تنصيب مراد الخامس مرة ثانية على عرش السلطنة، مجلة بلله تن، عدد ٣٠ أبريل ١٩٤٤، ص ٢٤٨ .

عارمة فى الاضطلاع بنشر الماسونية فى الشرق خاصة عن طريق العلاقة التى وطدها بالسلطان مراد، وهذا يعنى أنه تدخل من أجل إقامة دولة بيزنطية جديدة مؤسسة من عناصر تركية ويونانية مؤتلفة مع بعضها بعضًا لا تنفصل عراها تحت حكم السلطان العثمانى(١٨)".

كان" صاقليرى" يدور فى إطار الرأى الذى يؤيده الكاتب اليونانى"مارنيوس دولا توس" والذى كان يقول :" سوف يتم إعلان الدستور عقب اعتلاء العرش، ثم يبدأ بعد ذلك فى تطبيق التغييرات المرتبطة بهذا الدستور."

وقد انضم" صاقليرى" إلى اللجنة التى تعد الإجراءات التمهيدية لتطبيق الدستور، ومعه طائفة من المساعدين، هم : صديقنا الفرنسى القديم "آميبيل" وكان محاميا فى إستانبول، ثم رئيسا لبلدية إستانبول بعد ذلك، وأخونا "هولينكس" وهو دبلوماسى سابق، والصدر الأعظم مدحت باشا، وسفير إنجلترا فى إستانبول "إليوت" وسفير إيران"مالقوم خان"، ناهيك عن وجوب خوض النضال مع ردود الأفعال الشعبية، فكلما كان هناك تأثير ونفوذ فى نفوس الشعب فإنه يلزم حينئذ أن يتعلم أشخاص كثيرون أصول الأشياء وقواعدها.

وانطلاقًا من هذا الهدف أسس "صاقليرى" مكانا يجتمع فيه الماسونيون يسمى "الأنماط الشرقية" على شاكلة جماعة المشارق العظمى الفرنسية ويكون لها تأثير فعال فى اللغة التركية. وأصبحت هذه الجمعية ذائعة الصيت لأنها منظمة مكونة من رجالات السياسة المختارين وعلماء الدين ، كما ظهر بين ظهرانى هؤلاء ما يعرف بحزب تركيا الفتاة.(١٩)

---

(١٨) محمد شكرى خانى أوغلو: جمعية الاتحاد والترقى بصفتها منظمة سياسية، وجمعية تركيا الفتاة ١٨٨٩ - ١٩٢٠، إستانبول ١٩٨٥م، ص ٧٧ .

(١٩) خانى أوغلو، ص ٧٨ .

وبعد عزل مراد الخامس استمر "صاقليرى" فى تأكيد وشائج العلاقة القوية بين الجمعيات الماسونية الموجودة فى كل من تركيا أوروبا.

وقد أسف الماسون وأصابهم الحزن والأسى هم وطائفة من الدول الأوروبية الكبرى للمرض الذى ألم بمراد الخامس وأدى إلى تدهور حالته الصحية، وأخذوا يواجهون السلطان عبد الحميد ويتصدون له، وتدخلوا بكل ما أوتوا من قوة من أجل اعتلاء مراد الخامس سدة العرش مرة أخرى. وشرعوا أولا فى الوقوف على أسباب مرضه والاهتمام بصحته، وكان "صاقليرى" واحدا ممن اضطلعوا بأهم دور فعال فى هذا السبيل حيث ذهب إلى باريس، وأحضر للسلطان مراد ثلة من أطباء الأمراض النفسية والعقلية، وكان يدخلهم خفية إلى قصر جراغان، وشرعوا فى فحص مراد وعلاجه مدة عشرة أيام، وشاعت شائعة تقول بأن السلطان العليل قد نقه من علته واسترد عافيته.

وبعد هذه الأحداث كتب مراد الخامس رسالة إلى " صاقليرى " يقول فيها: " ابذل كل ما فى وسعك فإنى أريد حقى"، وخصص له مساعدة مالية.[٢٠]

ما انفك أنصار مراد الخامس يشيعون الشائعات بين شعب إستانبول زاعمين سلامة صحة مراد وشفاءه من سقمه، أما عبد الحميد الذى كان خائفا من هذه الشائعات فجاء بزمرة من الأطباء لفحص مراد مرة أخرى، وقدموا تقريرا سلبيا".[٢١]

وفى إثر هذه الأحداث اضطلع هؤلاء الماسون على عجل بالمواظبة على بذل جهودهم الرامية إلى السعى الحثيث من أجل تهريب مراد الخامس.

وبينما كانت الجماعة السرية التى أسسها على سُعاوى ماضية فى تنفيذ أهدافها، سرعان ما ظهرت كذلك الجمعية السرية التى أسسها "صاقليرى" فى فبراير سنة ١٨٧٨م.[٢٢]

---

(٢٠) أوزون جارشيلى، من أجل تنصيب مراد الخامس، ص ٢٥١، ٢٦٠ .

(٢١) أوزون جارشيلى، الأشخاص الذين أرادوا الدخول إلى قصر جراغان بزى نسائى لتهريب مراد الخامس وولده صلاح الدين أفندى: بلله تن، عدد ٣٢، ١٩٤٤م، ص ٥٨٩ .

(٢٢) قوران، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة، إستانبول ١٩٤٦م، ص ١٩

وكان الماسونى عزيز بك ابن مستشار الأوقاف عزت أفندى هو الرئيس الثانى لتلك الجمعية الماسونية، وكان الأعضاء المتميزون بالنشاط وشدة الحركة لهذه الجمعية يتكونون من سبعة عشر شخصا، منهم على سبيل المثال: شخص يدعى"مهال" وهو ابن أخت" صاقليرى"، وامرأة تسمى"نقشبند قالفه" وهى وصيفة " شفق آمزا" والدة مراد الخامس، وعلى شوكت بك معاون مجلس الشورى(٢٣)، وكانت جمعية عزيز بك صاقليرى تجتمع فى منزل صاقليرى الكائن بمنطقة" باى أوغلو" حيث ناقشت بالتفصيل خطة تهريب مراد الخامس.

كما كان صاقليرى هذا يقوم دائما بإبلاغ الماسونيين بكل ما يتعلق بهذه الخطة حيث يقيمون فى فرنسا وإيطاليا، وبإبلاغ ولى عهد إنجلترا الماسونى الأميرال "جال Gal" الذى أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع(٢٤).

كما أقامت هذه الجمعية علاقة حميمة وثيقة بمدحت باشا فى منفاه بأوروبا، ووعدته بمنصب الصدارة العظمى إذا ما حدث تغيير فى السلطنة.(٢٥)

كانت الخطة تقضى كذلك بتنفيذ حكم الإعدام فى السلطان عبد الحميد، وأعدت الخطة، ولكن تعذر وجود القاتل.(٢٦)

كانت هذه الجمعية السرية على صلة دائمة بمراد الخامس، وكل من صاقليرى وعلى شوكت قد دخل بضع مرات إلى قصر جراغان من خلال المجرى المائى حيث التقيا خفية بمراد الخامس، حيث يأخذون من القصر بعض نفقات الجمعية الضرورية(٢٧)، وإذا كانت جمعية صاقليرى - عزيز بك أرادت أن تجذب إلى صفها

---

(٢٣) أوزون جارشيلى، من أجل تنصيب مراد الخامس سلطانا، ص ٢٥٤ .

(٢٤) جمال قوتاى، تاريخنا المضبب، ج١، إستانبول ١٩٧٦م، ص ٣٠١ - ٣١٠ .

(٢٥) قوران، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة، ص ٢٠ .

(٢٦) المصدر السابق، ص٢٠، أوزون جارشيلى، من أجل تنصيب مراد الخامس سلطانا، ص ٢٧٤ .

(٢٧) المصدر السابق، ص ٢٥ .

بعض رجالات الدولة الأكفاء فإنها قد أخفقت فى هذا السبيل، لاسيما أنها فكرت مليا فى خليل آغا قائد كتيبة قصر يلديز، والذى ستعهد إليه مهمة القبض على السلطان عبد الحميد فى حالة تهريب السلطان مراد الخامس ومبايعته، ولسوف يتم تهريب مراد من خلال المجرى المائى لقصر جراغان، ثم يؤتى به إلى قصر طوب قابى ثم إلى مسجد الفاتح حيث يتم مبايعته فيه.(٢٨)

أما إذا عجزت هذه الجماعة السرية عن تحقيق البيعة فى الخطة الموضوعة سالفة الذكر، فإنهم حينئذ قد وضعوا خطة بديلة يتم بمقتضاها تهريب مراد الخامس إلى خارج الوطن، وهى خطة عسيرة تواجهها صعوبات جمة فى أثناء بيعة السلطان على وجه الخصوص.

" وكانت هذه الخطة ترمى إلى تهريب مراد الخامس فى معية ولده صلاح الدين أفندى إلى روسيا حيث يعالج فيها، فإذا تم شفاؤه فإن هذا سوف يؤمن المصالح والمكاسب العظيمة لكل من الحكومة الروسية من ناحية والدول الأخرى من ناحية أخرى، ولسوف يعتلى السلطان مراد العرش بمساعدة هؤلاء أجمعين.

أما إذا حدث وتعذر علاجه ولم تتحسن صحته فإن ولده الأكبر صلاح الدين أفندى سوف يتولى عرش السلطنة العثمانية بصفته الوريث الشرعى من غير منازع، ولسوف يعملون حينئذ على خلع مراد، وياحبذا لو حالفهم التوفيق فى هذا، فلسوف تؤسس آنذاك حكومة أخرى فى قسم آخر من الدولة العثمانية، ولسوف يجلس صلاح الدين أفندى على عرش الحكومة الجديدة ها هنا".(٢٩)

أسست الجمعية الماسونية السرية جماعة تسمى"جماعة التهريب" مكونة من أربعة أشخاص للاضطلاع بمهمة تهريب مراد الخامس خارج البلاد، وتتكون من:" إستوارد

---

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٦١ .

(٢٩) ضيا شاكر، الذين كانوا فى النصف الأول من هذا القرن، جـ١، إستانبول ١٩٤٣م، ص ٩٨ .

ديس الرومى" وهو شـقـيق مـتـرجم القنصليـة الإنجليـزية، وشـخص يدعى" لهـفى مهلوفسكى"(وهو من ماسونية جمعية برودوس)، وحسين بك من موظفى وزارة المالية، وإسكودار لى محمد بك من موظفى وزارة العدل، وقد نجح إتواردیس فى الدخول إلى قصر جراغان بمساعدة الأمير كمال الدين أفندى بن مراد الخامس حيث التقى بمراد الخامس وأعـد خطة التـهـريب[٣٠]، "تقضى خطة التـهـريب بأن تأتى إحـدى السـفن الإنجليزية وترسو قبالة القصر،[٣١] وفى اليوم الذى تأتى فيه السفينة سوف يدخل الموكول إليهم مهمة تهريب مراد الخامس إلى داخل قصر جراغان، وعند منتصف الليل يتم إرسال إشارة إلى القصر من الفنار إلى السفينة، حيث يتم إرسال صندل بحرى إلى هناك، وعند صدور هذه الإشارة تأتى جماعة التـهـريب إلى القـصـر ليأخذوا السلطان مراد وينزلوا به إلى رصيف الميناء ببطء، ولسوف يقوم أحد الحراس بتلقف الصندل بقوة وجلب السلطان مراد إلى السفينة".[٣٢]

تمكنت قوة الحراسة من القبض على جماعة التهريب التى أرادت دخول القصر، وهى متزملة بزى نسائى من أجل تنفيذ الخطة سالفة الذكر.

ويرى" أوزون جـارشيلى" أن الشـخص الرابع من هذه الجـمـاعـة السـرية الذى أمسكت به فرقة الحراسة كان آخر واحد منهم، وهو ذو لحية طويلة ترى من وراء النقاب الذى يتلثم به".[٣٣]

(٣٠) أوزون جارشيلى، مراد الخامس وولده، ص ٥٦١ .

(٣١) وتقول رواية أخرى أنه سوف يتم تهريب مراد الخامس بسفينة روسية (ضيا شاكر، المصدر السابق، ص ٩٢)

(٣٢) أوزون جارشيلى، مراد الخامس وولده، ص ٥٩١ .

(٣٣) أوزون جارشيلى، ص ٥٩١، ضيا شاكر، المصدر السابق، ص ٩٩ - ١٠٠ .

وتفيد الرواية التى حكاها السلطان عبد الحميد على مسامع راسم بك - محافظ سلانيك - أنه كان يعرف كل شىء عن طريق جهاز مخابراته القوى.

إن الأشخاص الأربعة الذين جاءوا إلى قصر جراغان متزيين بزى النساء قالوا: "إننا نريد دخول القصر لرؤية السيدة " شفق آفزا " والدة مراد الخامس، ثم رد عليهم الحراس قائلين لهم :" حسن، تفضلوا بالجلوس حتى نخبر من بالداخل، وسرعان ما هم الحراس الذين رتبوا كل شىء سلفا، فأخبروا البوليس من فورهم بالموقف، وتم القبض على الأشخاص الأربعة".(٣٤) أما البقية الباقية من أعضاء جمعية صاقليرى - عزيز بك السرية الماسونية فقبض عليهم فى غارة شنت، وهم مجتمعون فى منزل عزيز بك، وذلك إثر الخبر الذى سربه حاجى حسين بك عن الجمعية وأبلغه إلى القصر.

وفى أثناء هذا الهجوم نجح كل من صاقليرى ونقشبند قالفة وعلى شفقت فى الهروب إلى اليونان بمساعدة الجمعية الماسونية، وتمت محاكمة الأعضاء الهاربين والمقبوض عليهم على حد سواء، وحكم بالإعدام على كل من صاقليرى ونقشبند قالفة وعزيز بك والطبيب آجاه أفندى (كان متعهدا بخطة وضع السم للسلطان عبد الحميد)، ولكن السلطان خفف العقوبة إلى السجن المؤبد، وتم نفى المعاقبين الآخرين إلى أماكن متباينة.(٣٥)

أخذ السلطان عبد الحميد يقتفى أثر زعيم هذه الجماعة السرية المسمى صاقليرى، وتمكن من الإطاحة به بعد مطاردته وتضييق الخناق عليه،" وقد بذلت كثير من الجهات الحكومية اليونانية كل ما فى وسعها من أجل توفير الحماية له".(٣٦)

---

(٣٤) ضيا شاكر، الأيام الأخيرة لعبد الحميد، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣٥) أورنون جارشيلى، من أجل تنصيب مراد الخامس سلطانا، ٢٨٥ .

(٣٦) المصدر السابق، ص ٢٨٨ .

وإذا كان السلطان عبد الحميد قد اطلع على وثائق هذه الجماعة بعد الاستحواذ عليها لكى يتسنى له إماطة اللثام عن الأسباب الحقيقية لهذه الواقعة، فإنه لم يتمكن من الإمساك بهؤلاء الهاربين فى أثناء فرارهم.

ويكتب المؤرخ" جمال قوتاى" فى هذا الصدد قائلا: " لقد تم فحص الوثائق الخاصة بصاقليرى الهارب بعد الحصول عليها من عند حفيده المسمى"يورجى صاقليرى "، وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٠، وتم الوصول إلى نتيجة قيمة فحواها أنه بعد الفحص والتمحيص فقد سُلط الضوء على النقاط المهمة التى يكتنفها اللبس والغموض، فلقد اضطلع بالتخطيط لهذه الواقعة الجمعيات الماسونية الأوروبية الغربية، وحصلت على المساعدة الأساسية من الحكومات السياسية لتلك الدول".(٣٧)

تأثير هذه الثورات المتمردة فى إدارة السلطان عبد الحميد وشخصيته

شهد السلطان بعينى رأسه محاولتين اثنتين لخلعه عن العرش عن طريق الثورات المتمردة والمكائد والدسائس، وإن طريقة هاتين المحاولتين كلتيهما قد خلفت علامة استفهام فى ذهن السلطان، فكان يعيش بفزع مروع؛ خشية قيام ثورة أخرى مشابهة فى أى يوم من الأيام تضطلع بخلعه عن العرش، وقد زاد هذا الفزع من خطورة الخوف الذى تملكه وسيطر عليه منذ ولادته، وإن حادثة موت السلطان عبد العزيز قد أحضرت هذا الوهم المخيف إلى ذهنه، وباتت تلك الأحداث هى شاغله الأول " ولا سيما ذلك التأثير السيئ الذى تركته واقعة قصر جراغان، وأثرت فى مزاج السلطان عبد الحميد، ولهذا السبب فإن السلطان عبد الحميد كان يمر بخطر داهم وفزع مستمر".(٢٨)

(٣٧) جمال قوتاى، تاريخنا المحجوب، ج٢، إستانبول ١٩٧٥م، ص ١١٠٤ .

(٣٨) قوران، فى الإمبراطورية العثمانية، ص ١٤٧ .

وهاهو ذا على سعيد أحد مساعدى السلطان يتحدث فى مذكراته عن الخطر الداهم الذى حاق بالسلطان من جراء واقعة قصر جراغان.[٣٩]

لقد اضطر عبد الحميد إلى اتخاذ كثير من التدابير والاحتياطات اللازمة للحيلولة دون تكرار مثل هذه الأحداث.[٤٠] كما زادت التدابير الأمنية الموجودة فى قصر يلديز، كما كان السلطان يخشى مخالطة الشعب، ويصلى الجمعة فى مسجد "ماجدية" بقصر يلديز.[٤١]

أما السلطان مراد الخامس وأولاده فيعيشون بحرية مطلقة فى قصر جراغان إبان الأيام الأولى تحت المراقبة الشديدة الصارمة عقب المحاولات الثورية المتمردة سالفة الذكر، وجعل أخاه وأولاده يعيشون حياة أشبه بحياة السجن.

يقول عبد الحميد لراسم بك أحد محافظى سلانيك:" لو لم أجعل قصر جراغان تحت المراقبة الصارمة، فلم أكن أدرى ماذا عساى أن يكون؟»، بدأ عبد الحميد ينتبه إلى الأحداث العالمية والوطنية نتيجة للتجارب التى خاضها وحنكته منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش، ومن ثم فإنه شرع يحكم الدولة بمفرده قائما برأسه مؤسسا ما يسمى الحكومة المركزية.

---

(٣٩) على سعيد باشا، ص٤٤ .

(٤٠) ستورى، ص ١٢٠ .

(٤١) على سعيد باشا، ص ٤٣ .

الفصل السابع

تأسيس عبد الحميد الثانى للحكومة المركزية وخصائص هذه الحكومة

بدأ السلطان عبد الحميد فى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٧٨م يشعر بحاجة إلى اتخاذ قرار حازم يتعلق بإدارة دفة الأمور فى الدولة بنفسه.

وأصبح هذا الشهر سالف الذكر بمثابة شهر شديد الحرج والخطر، إذ تم فيه توقيع معاهدة برلين التى توصلت إلى صلح نهائى للحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م، وباتت الأرض العثمانية بموجب هذه الاتفاقية بمثابة الغنيمة المسلوبة المنهوبة، كما نشبت فى هذا الشهر كذلك حركة تمرد اضطلعت بها الجمعية السرية التى أسسها عزيز بك وصاقليرى السالف ذكرهما، والتى كانت ترمى إلى القضاء على السلطان عبد الحميد واستئصال شأفته.

أما شهر أغسطس من سنة ١٨٧٨م فكان بمثابة الشهر الذى يرتاح فيه السلطان ويتنفس الصعداء، وبدأ السلطان منذ شهر يوليو يشعر بالحرج والخطر الذى أصاب النظام الحاكم طوال السنوات الماضية.

لماذا كانت الإدارة المركزية

كانت توجد فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٨م لوحتان مروعتان مفزعتان ماثلتا أمام ناظرى السلطان عبد الحميد، وقد عاد من حرب إلى أخرى، وسلبت الأرض، وبات العرش متأرجحا مهيأ للسلب والنهب على يد الدول الكبرى والمجاورة على حد سواء.

نعم! فقد كان عبد الحميد مولها بعشقين اثنين، كانا بمثابة القشعريرة التى ترجف بدنه، ويتمثل هذان العشقان فى الذود عن حياض الأرض التى تعنى الوطن وعن العرش الذى يعنى سلالة الأسرة الحاكمة، وقد استطاع حماية هذين الشيئين وصيانتها فقط بنفسه دون أن يأمن أو يثق بأحد ألبتة.

وقام السلطان تحت كل هذه المؤثرات بنقل سلطات الإدارة من الباب العالى إلى قصر يلدين، وبدأت منذ تلك اللحظة حقبة الإدارة المركزية المرتبطة ارتباطا وثيقا بشخصيته[1].

وبدأ السلطان فى وضع أسس الإدارة المركزية قبل ذلك بوضع الدستور على الرف، وتعطيل مجلس المبعوثان، وكان لا يعتقد بأن الدستور ومجلس المبعوثان كليهما سيجلبان السلامة والأمن للوطن بسبب الظروف الداخلية والخارجية الموجودة آنذاك، فمجلس المبعوثان لم يستطع الحيلولة دون وقوع الحرب التى لم يدرها السلطان، و كما عجز بذلك عن تحقيق المواطنة العثمانية فى إطار اتخاذ العناصر المتباينة، ناهيك عن أن مجلس المبعوثان بدأ فى إلقاء تبعة أسباب الهزيمة النكراء فى الحرب الروسية التركية على كاهل السلطان، مما ألقى الروع فى نفسه خشية إقصائه عن العرش.

وهكذا لم يستطع مجلس المبعوثان حماية أرض الوطن والسلطان كليهما، ولهذا كان السلطان عبد الحميد على يقين بأنه أنقذ الوطن من خطر داهم بإقدامه على تعطيل هذا المجلس.

كان التأثير الذى خلفته الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م سببا جعل السلطان يقبض بمفرده على أزمّة الأمور، وكان يقول قبل اندلاع الحرب "إنه لم يستطع العثور على الشخص الذى يريده، ولم يستطع المحافظة على رزانته وقوته ورباطة جأشه".

---

(١) رودريك دافيسون ، التاريخ المختصر لتركيا ، مطبعة ويلجتون ، باواى ، ١٩٨١م، ص ٥٣ .

" ولما وضعت الحرب أوزارها أصبح كل شيء في أسوء حال. وكان جهل القادة أثناء الحرب وعدم كفاءتهم وبيع ذمم الموظفين من ذوى المناصب والدرجات العالية، وهزيمتنا في الحرب، وضياع جزء من أراضي الإمبراطورية، كل هذه الأشياء مجتمعة كانت سببا في تدمير الحالة النفسية للسلطان، وكان هذا أمرا طبيعيا، وكان يتوجب على العثمانيين ألا يتردوا إلى هذه الدرجة وينزعوا إلى الخضوع والخنوع، وهم يردون كل ما أصابهم إلى القضاء و القدر غير آخذين بالأسباب، وبات من المتعذر إنقاذ الأمة من السقوط في هاوية اليأس والقنوط".

استنكف كل واحد من أفراد الأمة أن يعكر صفو مزاجه في سبيل تجشم الصعاب واحتمال المشاق، بل كان الناس جميعا يفكرون قائلين : " لزام على السلطان ومعاونيه ومستشاريه الاضطلاع بما هو ضروري ولازم".[٢]

أحس السلطان عبد الحميد بأنه لا قبل للباب العالي بتوفير الأمن للسلطنة والأرض كليهما، كما أن الوهم والخوف اللذين ترسبا في نفسه منذ مولده ، وغذتهما الأحداث والوقائع قد خلفا تأثيرا في هذا النظام، ووقر في ذهن السلطان فقدان الثقة بأي شخص سواه.

وقد رأى السلطان على مدار سنتين من الحكم المطلق أن البيروقراطية أصبحت شيئا عبثا لا طائل من ورائه، وأصابته دهشة بالغة عندما رأى الوزراء والصدور العظام يبكون أمامه بسبب فقدان الحيلة والعجز ، وهم في لجة من الانذهال والارتباك لعجزهم عن إيجاد حلول لقضية واحدة من قضايا الأمة.

أما رجالات الدولة ممن هم في منزلة أدنى فكانوا يتقاضون الرشوة ويمارسون التزوير وسلب خزانة الدولة في كل مكان عيانا جهارا، ناهيك عن اللامبالاة وعدم الاكتراث والإحباط وفقدان الأمل وانقطاع الرجاء، فضلا عن الجهل المتفشي فيهم،

(٢) أحمد حامد ، مذكراتي السياسية ، ص ٧٦ .

ولأجل هذا فقد كان سعيد باشا عاجزا رغم أنه كان أكثر عشقا وانتماء للباب العالى، وقد حطم سعيد باشا الرقم القياسى فى تولى الصدارة العظمى ست مرات متتالية طوال سلطنة عبد الحميد.

ويبدو أنه لم يستطع أن يُطمئن السلطان ويؤمنه، ولتقرأ ما كتبه السلطان عبد الحميد فى هذا السياق" إذا استشرت سعيد باشا فى أى وقت فإنه لا يشير برأى قاطع ، سواء أكان متوليا لمنصب الصدارة أم لا ، وكان يخاف منى مثل خوفه من المسئولية والرأى العام والتاريخ، وإن هذا الخوف والهواجس والشكوك جميعها قد أفقدته القدرة على التفوه بكلمة فاصلة فى أى رأى".[٣]

وكان عبد الحميد يقول:" لقد بحثت فى حياتى عن رجل عاقل أريب، ويا أسفى أنى لم أستطع العثور عليه".[٤] ثم يردف قائلا:" لقد تردت الأخلاق وجفت أوردة الدين والحمية والغيرة، وثبطت العزائم، فإلى أى حد يمكن أن تصل الأمة بالأفعال المشينة للموظفين المنغمسين فى حمأة الفساد ومستنقع الرشوة".[٥]١٥٧

كان السلطان يجـأر بالشكـوى مـن رجـالات القصر إلى المستشرق النمسوى " أرمنيوس فامبرى"، ويقول له:" لا أستطيع العثور على رجال أثق فيهم وآمن جانبهم، فماذا عساى أن أصنع؟ وإن المحيطين بى كما ترى، فهم جميعا محاطون بأناس أنانيين قساة القلوب لا شرف لهم ولا أمانة، حتى إن الرجال الذين نشأوا وتربوا على الصدق وحب الوطن والكفاءة من بين ثنايا الشباب فإنهم أصبحوا كذلك، يمثلون خطرا على سلامتى، ومن ثم فأنا مضطر إلى قدح زناد فكرى".[٦]

---

(٣) وداد عرفى ، ص ٣٠ .

(٤) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ٨٦ .

(٥) خوجه أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١١٦ .

(٦) أوكه ، عبد الحميد الثانى ، ص ٨٦ .

هل أثارت كل هذه الأشياء الانطباع عند عبد الحميد كي يكون الرجل الوحيد في الدولة؟ يرى الأجانب والعربان أن حال الدولة كان يقضي بذلك، فلقد اعترف لي المستر جوزيف جاميرلين الذي التقى بعبد الحميد مرتين اثنتين قائلا: "يوجد رجل واحد ذو كفاءة وأهلية رجل الدولة، وقد عرفته في أثناء زيارتي لتركيا، ألا وهو عبد الحميد".(٧)

كان الخوف الشديد لعبد الحميد من سكان الدول الأجنبية من أهم الأسباب التي دفعته إلى تأسيس حكومة السلطة المركزية، وكل يعتقد بأنه سوف يتخلص منهم باستحواذه على أزمة الأمور الخارجية والقبض عليها بقوته".(٨)

فلقد رأى بعينه مدى عجز الباب العالي في هذا الأمر إبان السنتين الأوليين من حكمه،" وكان عبد الحميد هو الصورة الجانبية من الإدارة المعتمدة على القصر من حيث السياسة المستقلة في مواجهة أوروبا".(٩)

وهكذا كانت هذه الأسباب مجتمعة دافعا قويا لإنشاء عبد الحميد حكومة الإدارة المركزية، وتمخض عنها السلطة المركزية المهيمنة الحاكمة.

نقل الباب العالي إلى القصر

لما آلت حال الأمة إلى هذا المصير نقلت السلطات المركزية كلها من الباب العالي إلى القصر السلطاني، وبات الباب العالي دون سلطة مؤثرة نافذة، وتركزت كل الأمور برمتها في يد عبد الحميد، ولا جرم أن تمركز السلطة جعل السفراء وحكام الولايات والقادة العسكريين مرتبطين في نهاية الأمر اسميا بالباب العالي، ووصل الأمر إلى حد إبلاغ الوزارات بهذا عن طريق القصر السلطاني.

---

(٧) وودز ، ص ١٢ .

(٨) تحسين باشا ، ص ١٨٥ .

(٩) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ص١٥٨ .

أما الموضوعات والقضايا المتصلة بالشئون الخارجية فإنها لم تدخل فى دائرة اهتمام وزير الخارجية فى إستانبول أو سفراء الشئون الخارجية إلا بقدر ضئيل كما أن القواعد والأصول المتصلة بالشئون الخارجية للإمبراطورية ، كان السلطان ينفذها ويسيرها عن طريق المناقشة المباشرة مع السفراء الأجانب المبعوثين إلى القصر السلطانى، ولا أهمية للصدر الأعظم مهما كان شأنه، لأن السلطان يرى أن السلطان هو الصدر الأعظم الحقيقى، وقد أظهر عبد الحميد بصنيعه هذا أن هناك حكومتين منفصلتين لأول مرة فى كل من القصر والباب العالى كليهما".[١٠]

كانت كل الطرق فى نظام الحكم العثمانى تصعد جميعها إلى قصر يلديز، ونقلت سلطة الباب العالى إلى القصر، وأصبح الوزراء وكأنهم ألعوبة فى يد السلطان".[١١]

كان الولاة والقادة وغيرهم يستطيعون إرسال ما يريدون من رغبات وطلبات إلى السلطان مباشرة دون المرور بالوزارات، وكان الأمر كذلك يتعلق بالعلاقات الخارجية، أما الدول الخارجية التى كانت تجد صعوبة فى الوصول إلى الباب العالى فإنها كانت ترجع إلى السلطان مباشرة، ولهذا السبب فإن كل الأمور المهمة للدولة قد انتقلت إلى السلطان غير المسئول، ولم تعد ثمة أهمية تذكر للباب العالى".[١٢]

" كانت الحكومة فى تلك الأيام موجودة فى الظاهر، وفرضت القيود على النفقات الموجودة فى يد الحكومة، وكانت القوة المتباينة المشاهدة داخل الحكومة منعدمة القيمة غير ذات صفة ألبتة[١٣]".

---

(١٠) Carter v.findley، إصلاح بيروقراطية الباب العالى فى الدولة العثمانية ، ١٨٧٣ - ١٩٢٢ ، ترجمة آق يول ياجى : إستانبول ١٩٩٤١م، ص١٩٥ .

(١١) E.F.knight ، نهضة تركيا ، لندن ١٩٠١، ص ٣٦ .

(١٢) على سعيد باشا ، ص ٤٠ .

(١٣) محمد ممدوح باشا ، تصوير الأحوال وتنوير المستقبل ، أزمير ١٣٢٩هـ ، ص ١٩٠ .

ولم يختف السلطان الذى كان بمثابة الرجل الوحيد، وكان يقول :" لقد وجدت أن ليس ثمة ضرورة فى الحصول على أية قيمة تذكر فى كل تغيير للصدر الأعظم ، وسواء كان الصدر الأعظم هو كامل أو سعيد فإننى الصدر الأعظم الأصلى المقيم فى قصر يلديز " وهاهو ذا تحسين باشا الذى كان الرئيس الحادى عشر للكتاب حتى أواخر سلطنة عبد الحميد يدون فى مذكراته فيقول:" كان السلطان عبد الحميد حاكما مستبدا ذا نفوذ مطلق بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكانت إدارته تعلو فوق كل قانون، ولا سبيل إلى الاضطلاع بشىء يخالف رغبته أو يناقضها".(١٤)

أما المستشرق" إمبرى" فيقول:" حقيق على أن أقول بجلاء تام: لا يوجد زعيم آخر فى العالم يمسك فى يده زمام أمور مؤسسات الدولة الإدارية مثل عبد الحميد، فهو قلب الإدارة ومحور الحكم".(١٥)

" إن عبد الحميد يريد أن يقول: إننى الدولة وأنا الذى أُسَيِّرُ النظام فيها".(١٦)

أطلق رجالات الدولة العثمانية والمثقفون والغربيون لقب المستبد على السلطان عبد الحميد الثانى، ولقب بهذا لأنه لا يتبع أى نظام أو قانون، وينفرد وحده بالقبض على زمام الأمور ومقاليد الحكم، كما خلعوا على عصره اسم" عصر الاستبداد"، واستخدموا لقب السلطان المستبد لينعتوا به عبد الحميد بسبب خصائص الحكم المستبد وسماته الذى أشرنا إليه آنفا.

أما السلطان فلم يعبأ بهذا الاتهام أو يُعيره أذنا صاغية معتقدا أنه على حق فى كل ما يفعله، ولو تعجل بترك أية معلومة أو أى خط رفيع، فإن كل شىء سرعان ما يصير إلى الاضمحلال والشتات.

---

(١٤) تحسين باشا، ص ١٣٩ .

(١٥) أوكه: عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٦١ .

(١٦) وودز، ص ١٢٥ .

وسبب هذا أن الإمبراطورية تقف فوق موازين شديدة الحساسية، وقد شوهدت الأمثلة الدالة على ذلك، إن الإمبراطورية التى استطاعت الحياة فى عصر الاستبداد طوال ثلاثة وثلاثين عاما قد تسنى لها أن تتحمل عشر سنين فقط من أجل تطبيق المشروطية الثانية وثورة جماعة تركيا الفتاة.

لم ينزعج السلطان أو يتضايق لاتهامه بلقب الحاكم الماكر المحتال المخادع بسبب الإدارة المستبدة التى كان يمارسها، ويرجع هذا إلى أنه لم يكن نفسه السبب المباشر لهذه الإدارة المستبدة، وأراد السلطان ضرب أعدائه بهذه الأسلحة.

يقول عبد الحميد للسفير الإنجليزى "لا ياردLayard ": "عندما توليت عرش السلطنة وجدت كل المحيطين بى ليسوا إلا طائفة من المتآمرين الماكرين الذين يريدون أسرى والاستحواذ على، وكان لزاما على أن أقاوم الحيل الماكرة أو أتصدى لها بالمكر والخداع من أجل المحافظة على عرشى وحياتى".(١٧)

ولم يكن السلطان يتردد فى الاستعانة بكل سبل المكر والخداع من أجل سلامة أرض الوطن والعرش باعتبارها أشياء محببة إلى نفسه بصفته الأب لهذه الأمة.

كان عبد الحميد يرى نفسه وكأنه يعيش داخل أتون الحرب، ألم يقل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم" الحرب خدعة؟".

كان عبد الحميد يستطيع أن يترك إدارة الدولة للصدر الأعظم والوزراء كما فعل أبوه عبد المجيد أو كما فعل عمه عبد العزيز، كما كان بوسعه أن يحقق راحة السلطنة وطمأنينتها آخذا على عاتقه شئون الجيش والأمور الأخرى ذات الأهمية القصوى، وكان ما يفعله هو البيروقراطية التى كان يريدها، كما كان يُؤْثر أن يحمل على كاهله شئون الدولة كلها متبعا فى هذا السبيل السلاطين العثمانيين السابقين.

---

(١٧) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٣٥٦ .

كانت بغية عبد الحميد وغايته التى يتغياها هى إحياء التراث القديم الموروث عن أجداده، والذى يعنى إحياء الدولة العثمانية وأسرتها الحاكمة، ومن ثم لم يتردد فى الاستعانة بكل وسيلة وحيلة بغية بلوغ هذه الغاية المرجوة.

وإن أبرز سمة تميز عبد الحميد تتمثل فى نظرته للظروف الموجودة بعين الواقع، ومهارته الفائقة فى اختيار الطريق المناسب من أجل تحقيق هدفه، ولم تكن له منذ البداية أيديولوجية يعتنقها أو يعتمد عليها أو خطط محددة يلتزم بها، كان هدفه الوحيد هو العمل على إحياء الأسرة الحاكمة والدولة التى ورثها عن أسلافه.(١٨)

ورغم أن السلطان عبد الحميد كان يرتبط ارتباطا وثيق العرى بالقصر فى كل المسئوليات المتصلة بإدارة شئون الدولة، فإنه كان أحيانا يغض الطرف عن نفوذ الباب العالى وتأثيره، لا سيما وأنه كان يتولى رعاية الشعب عندما يراه يكابد العنت والمشقة من وجود الصدور العظام، ومنهم على سبيل المثال الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسى، وكان يسترجع قوة الإدراة من قبيل تصحيح أخطاء خير الدين باشا.

كما كان يريد تذكر مسئولية الوزراء واستقلال الباب العالى قائلا:لا يليق بشرف السلطان ومنزلته التدخل فى مثل هذه التفاصيل، ورغم هذا فإن هؤلاء الوزراء كانوا يتطفلون على السلطان مدة بضعة شهور، ولم يخش السلطان من صداقة الصدر الأعظم، كما أنه لم يزعج أو يضايق خير الدين باشا وكان هذا بمثابة باعث للسرور للباب العالى وراحة للقصر أيضا.

كان أبى عبد المجيد يزعم أن الأمور تسير على ما يرام، ولسوف تظل كذلك. ولم تسر الأمور على ما يرام لأن الباب العالى اضطلع بإبعاد السلطان عن التدخل فى الأشياء التافهة التى لا قيمة لها، ولهذا السبب فإنه بدأ تكثير أعداد من لا قبل

(١٨) بروفيسور دكتور/ كمال قاربات : الوحدة الإسلامية وعبد الحميد، تصحيح رأى خاطئ، مجلة الأبحاث التركية العالمية، عدد٤٨، يونيو ١٩٨٣م، ص ٣٢ .

لهم بالمعاناة من الصدر الأعظم الذى يؤمن راحته ويعمل على استقلالية الباب العالى، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة وينتظرون الإشارة التى تومئ إلى عدم سرور السطان من الصدر الأعظم وسرعان ما ظهرت الإشارة حيث قدم الصدر الأعظم لائحة القانون للسلطان، وأراد الصدر الأعظم أن يكون الوزراء أنفسهم مسئولين عن اختيار الصدر الأعظم، وأن يكون رئيس كتَّاب القصر السلطانى واحداً من هؤلاء المتحدين فى الرأى مع الصدر الأعظم، وخشى عبد الحميد مليا وجود ثلاثة أو خمسة أشخاص اضطلعوا بخلع عمه عبد العزيز من عرش السلطنة عندما خالفه الوزراء فى الرأى، وأرسل خبرا إلى الصدر الأعظم يقول فيه "سوف أفكر فى الأمر".

أما الصحفيون فكانوا مستعدين على قدم وساق، ولمسوا الخوف عند السلطان، وتقدموا الصفوف، وتسببوا فى عزل الصدر الأعظم فى خاتمة المطاف.(١٩) وكان هناك صحفى سيئ أخذ يحتاط للأمر ويساعد القصر ضد الباب العالى مبتغيا من وراء ذلك تحقيق منفعة مستفيدا من خوف السلطان من العزل وهواجس الوهم والخوف الذى كان يعيش فيه.

" زاد عدد أولئك المستفيدين من الخوف والهلع الذى أصاب السلطان الذى ابتلى بوضع مقدرات الأمة فى يده، واستحوذ على زمام الأمور فيها، وأخذ كل واحد من هؤلاء النفعيين الانتهازيين فى إبراز مهارته أكثر من غيره ليحرز قصب السبق فى إثارة الخطر الذى يحدق بالسلطان".(٢٠)

" إن الحكومة العثمانية تعنى قصر يلديز، وعصر عبد الحميد يعنى أنه منحصر مقصور على شخصية عبد الحميد فحسب، وقد أثرت شخصيته فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة، ولم تكن هناك حادثة جوهرية تمر خارج إطار معلوماته إلا مقرونة بوجود الإرادة القوية لعبد الحميد فى ربوع الإمبراطورية بأسرها.

---

(١٩) سميح ممتاز، حقائق خيالية فى تاريخنا، إستانبول، ص ٩٣ - ٩٥ .

(٢٠) أحمد رشيد رى، ما رأيت وما فعلت، ١٨٩٠ - ١٩٢٢م، إستانبول ١٩٤٥م، ص ٩ .

وكانت المعلومات والوثائق جميعها ذات الصلة بالشئون الإدارية والسياسية والاقتصادية والعلمية والدينية والاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقصر".(٢١)

كان للسلطان عبد الحميد تأثير نافذ فى الباب العالى، حتى إنه كان يتدخل فى تعيين كل الموظفين كبيرهم وصغيرهم على السواء، لا سيما أنه كان يتابع من كثب سجلات وأحوال الموظفين من ذوى المناصب العالية كالوزراء والقادة والولاة والسفراء وغيرهم، ويعرف كل شىء يتصل بهم وبحياتهم.

وإذا ما رفض السلطان واحدا من هؤلاء فإن الباب العالى لا يستطيع تعيينه، ويستثنى من هؤلاء طبقة القضاة الذين لا يتدخل السلطان فى تعيينهم، بل كان يصدق على تعيينهم دون تردد وفق رغباتهم.(٢٢)

بدأت إدارة السلطة المركزية التى شرع السلطان فى تأسيسها إبان الأعوام الأولى من سلطنته تكتسب قوتها ويشتد أزرها بمرور الوقت، ثم بلغت أوج عنفوانها فى السنوات الأخيرة، وهاهو ذا الصدر الأعظم فريد باشا الذى تولى الصدارة إبان ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨، يوضح بجلاء عدم الاضطلاع بأية مسئولية فيقول:" لقد كنا نغبط الحمالين الموجودين على رصيف الميناء".(٢٣)

حقا! كيف كان السلطان يرى الأمة على وجه العموم فى مواجهة تلك الأحداث، وكيف كان يقومها؟ لنقرأ الإجابة عن هذا السؤال من خلال ما دونه شاهد عيان، وهو المستشرق النمساوى "أرمنيوس فامبرى" الذى يقول:" إذا تحدثت إلى طبقة من طبقات الشعب التركى، فإننى لا ألاحظ وأنا مندهش أى اهتمام يذكر عند الشعب بوجه عام تجاه الظروف الاجتماعية أو السياسية أو الإدارية.

---

(٢١) إسماعيل مشتاق مياقون، ماذا رأيت فى قصر يلديز ؟ إستانبول ١٩٤٠م، ص ٣٧ .

(٢٢) تحسين باشا، ص ٢٦ .

(٢٣) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٣٧٦، إينال، جـ١، ص ٣٤٧ .

ويمكن أن أقول الشيء نفسه فيما يتصل بعلاقات السلطان مع الشعب، فهو لم يضيع أية فرصة من أجل تقديم صنوف العطف والمرحمة والعون، فقد كان شخصا معبودا من قبل المسيحى والمسلم وعامة الشعب أجمعين، وعلى حين كان هناك بين طبقة الوجهاء وأرباب المراكز والرتب العالية من ينعتون السلطان بأنه حاكم محب للوطن وباعث لنبض الروح والحياة فى تركيا، فإن هناك على الجانب الآخر طائفة أخرى من العاطلين الذين يسبونه ويذمونه سرا، ويخلعون عليه لقب : الشخص النرجسى الأنانى المستبد".(٢٤)

قصر يلديز

هو القصر الذى أقام فيه السلطان عبد الحميد حتى نهاية حكمه، وأصبح هذا القصر رمزا لإدارة الحكومة المركزية.

شيد السلطان محمود الثانى قصر يلديز فوق هضبة تقع بين منطقتى " بشكتاش وأورطة كوى" سنة ١٨٢٢م، ثم اضطلع السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٤م بتقوية بنيان هذا القصر وشد أزره بأجنحة وأبنية وقصور وفيلا جديدة ممتدة حتى قصر جراغان، وسمى هذا القصر باسم " يلديز " أى "النجم " نسبة إلى إحدى محظياته الأثيرة إلى نفسه، والتى تسمى يلديز، حيث خصصه لها.

لما انتقل السلطان عبد الحميد إلى هذا القصر أخذ يمدد فى طوله حتى وصل إلى منطقة "أورطة كوى"، وشيد له حديقته الواسعة التى يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار".(٢٥)

قضى عبد الحميد الأيام الأولى من سلطنته فى قصر "دولمة باغجة"، وكان هذا القصر مفتوحا لجموع الشعب والمثقفين والمستنيرين على حد سواء.

(٢٤) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٥٨ .

(٢٥) قوران، فى الإمبراطورية العثمانية، ص ١٢ .

وكان كل شخص يدخل إليه ويخرج بحرية كاملة، كما كان السلطان يلتقى بالناس ويغشى مجالسهم ويخالطهم، ولم يكن ثمة تضييق أو حصار على السلطان والأمرا.[٢٦]

هكذا كان عبد الحميد أكثر ظهورا وجلاء من أسلافه الثلاثة السابقين عليه، فكان حسن النية ذا شخصية تتصف ببناء عقلى ونفسى سليم، كما كان يشد الانتباه بشدة تدينه وتجنبه كل مظاهر التبذير والإسراف وعدم تعاطى المشروبات الكحولية.[٢٧]

كان كثير التجوال والتطواف بين الناس، ويصلى بينهم فى المساجد، ويتحدث مع الناس الذين يتصل بهم معتبرا نفسه إنسانا عاديا نابذا وراء ظهره أصول آداب المعاشرة وقواعد التشريفات الضيقة القديمة للقصور.[٢٨]

واستدارت الأعوام وأقبلت أيام أخر، وتطورت الأحداث واستيقظت فى نفس عبد الحميد حالة شديدة من الخوف والفزع خشية عزله وخلعه، وبدأ يرتاب فى كل إنسان، ويملكه شعور الرهبة وهواجس الشر وفقدان الثقة الذى تولد فى نفسه منذ مولده. ودفعه هذا إلى التفكير مليا فى الانتقال إلى قصر يلديز ليكون فى مأمن ضد جميع الأخطار التى تحيط به من كل جانب.[٢٩] أما سبب تركه لقصر" دولة باغجة " المطل على شاطئ البحر فيرجع فى المقام الأول إلى ما نما إلى علمه بالدور الذى قامت به القوات البحرية فى إقصاء عمه عبد العزيز عن عرش السلطنة.[٣٠]

وهاهو ذا جريس: M. P : Grece ينقل على لسان السلطان شارحا أسباب كراهية عبد الحميد لقصر"دولة باغجة " قائلا:" لقد كنت شديد الاشمئزاز والنفور من هذا القصر،

---

(٢٦) تحسين باشا: ص ١٢٠ .

(٢٧) دافيسون: ص ٩٤ .

(٢٨) ضيا قرال: جـ٨، ص ٢٥٧ .

(٢٩) وودز: ص ١١٤ .

(٣٠) المصدر السابق: ص ١١٥ .

فضخامته وأبهته المتباينة الألوان، وزيناته وزخارفه المفرطة المبالغ فيها تجعلنى أشعر بالغيظ والحنق والسخط، وكنت أعانى من انقباض نفسى، وأضيق ذرعا فى هذا المناخ الذى لا يتغير أبدا، ناهيك عن كثير من الخواطر والذكريات السيئة التى كان طيفها يتأوب فى خيالى.(٣١)

وكل شىء عرفته وأحببته كان يأتينى وكأنه ميت جامد واقف وراء كل باب، أما قصر يلديز فقد أسرع بتلبية حاجتى فى الوحدة والتجرد من كل شىء".(٣٢)

قصر يلديز كما يبين السلطان كان مواتيا لمزاجه ملبيا لمشاعره النفيسة، وقد قضى عبد الحميد حقبة الإمارة فى منزله الكائن بمنطقة"ماشلقة" حيث كان يعيش حياته فى المزرعة، ومن ثم فقد آثر قصر يلديز للتشابه الشديد بين الحياة فيه وحياة المزرعة التى كان يحياها.(٣٣)

زادت حدة الخوف وأحاطت بالسلطان وتمكنت منه شيئا فشيئا، ونجم عن هذا الخوف ما فرضه السلطان على نفسه؛ إذ حبس نفسه فى قصر يلديز بداءة من عام ١٨٩٠م(٣٤).

وكان الناس كلهم يعلمون أن السلطان ينسحب منزويا معتزلا داخل القصر ولا ينزل إلى خارج القصر إلا فى حالات الضرورة القصوى كى يختلط بالناس ويغشى مجالسهم.

كان عبد الحميد يقضى حياة رتيبة تبعث على السأم داخل جناح يفضله عبد الحميد عن الخارج محاط بأبواب ضخمة وأسوار شاهقة.

---

(٣١) عاش السلطان بنفسه وحيدا مع الذكريات السيئة فى هذا القصر حيث ذكرى حادثتى العزل المنحوستين اللتين لا تبرحان خياله .

(٣٢) جريس، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣٣) على سعيد باشا، ص ٦ .

(٣٤) دافيسون، ص ٩٦ .

وكان يستقبل رئيس الكتاب، والكاتب الثانى وحراس القصر السلطانى من أجل المعاملات الرسمية، ولا يرى أحداً خارج هذا الإطار سوى نساء الحرم السلطانى وصنف آخر من الرجال القائمين على الخدمات الخاصة مثل: المتعهد بتقديم القهوة وسجادة الصلاة وحامل إبريق الوضوء ومتعهد البخور والساقى ومتعهد الثياب.

يتوجب البحث بدقة فى تأثير الحكم المطلق الذى مارسه عبد الحميد، والتحرى عن الأسباب التى دفعته كى يقضى هذا النمط من الحياة، لقد تولد هذا الشعور عند السلطان لأسباب خارجية تتمثل فى الصحف التى كانت تقدم له طوال سنين متعاقبة، وجعلته يتخيل كل إنسان وكأنه كمين منصوب للقضاء عليه فى أى مكان، بل بات من المحتمل أيضا أن يكون كل شخص عدوا لدودا له.

ولما كانت جبلة السلطان عبد الحميد وفطرته قد فرضت عليه أن يكون شخصية وجلة رعديدة تشعر بهواجس الشر ونذره وترتاب فى كل شىء، فإن هذه الجبلة جعلته يعيش فى لجة من الوساوس والشكوك الناشئة عن محيط البيئة التى يعيش بين ظهرانيها.[٣٥]

كانت الأسوار المحيطة بحديقة قصر يلديز وقلاع الحراسة الموجودة على أبواب دخول القصر شديدة التحصين والمنعة متمثلة فى وحدة حراسة مكونة من الترك والأرناءوط والعرب والأكراد، وهى أشبه ما تكون بثكنة عسكرية.

وكان السلطان يلحق بخدمته أخلص وأصدق من يعرفهم من الأشخاص الأوفياء، ويصر على أن يكون عددهم محدودا.

كان البناء الداخلى لقصر يلديز يتكون من الموظفين الذين يلزم ألا يزيد عددهم على ثلاثة عشر موظفا وهم : مستشارو القصر السلطانى ورئيس الكتّاب وحراس القصر السلطانى ونظارة التشريفات والتفتيشات العسكرية والمعية السنية للأركان الحربية ودوائر الشفرة الخصوصية.

---

(٣٥) تحسين باشا، ص ١٢٠ .

كما توجد كذلك ست دوائر استشارية خارج إطار دوائر مساعدى السلطان، وثمة شخص يدعى درويش باشا، وهو مستشار أرناءوطى (مستشار الأرناءوط)، وآخر يدعى"كامب هوفنر" ألمانى الجنسية (مستشار التنمية العسكرية)، ورجل يسمى" كراتودرى" وهو رومى الأصل (مستشار الخارجية)، ونيشا أفندى من أصل أرمنى (مترجم ومستشار الصحافة الأوروبية)، وعزت باشا من أصل عربى (وهو مستشار الولايات العربية والإصلاحات المالية)، وكانت هذه الدوائر تذكر بأسماء أشخاصها.

هواجس السلطان ونذر الخوف عنده

إذا ما تصدينا لدراسة أسباب الخوف ونذر الشر التى أثرت فى السلطان عبد الحميد الثانى وجعلته يؤسس حكومة السلطة المركزية ويصبح منزويا محبوسا فى قصر يلديز ألفينا ما يأتى:

لقد قيلت أشياء كثيرة، وكتبت أخبار شتى تتصل بهذا الموضوع، " وقلنا مرارا وتكرارا إن كل الاتهامات قد بالغت فى درجة وساوس الخوف ونذر وهواجس الشر لدى عبد الحميد وسوء ظنه فى كل فرد، وفى حالة اجتناب الظلم فإن هذه العلة المشئومة كانت تعارض العدل وتخالفه".(٣٦)

كان الخوف وهاجس الشر شيئًا فطريًا فى جبلة عبد الحميد، وهى علة موجودة عنده منذ طفولته وإمارته(٣٧)، ولهذا السبب كان أبوه عبد المجيد يقول عنه: "إن ولدى مصاب بمرض الوسوسة والشك، إنه ولدى السوداوى"، وبسبب هذا الخوف كان عبد المجيد

---

(٣٦) إينال، جـ٢، ص ١٢٠١ .

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٢٦٦ .

يقص على عبد الحميد ولده أن مراد أفندى كان يتسلى ويلهو بهذا الخوف المرضى المفرط الزائد عن حده عند أخيه الأصغر عبد الحميد.(٣٨)

" ومن المعلوم لدى الناس أجمعين أن هذا الخوف المرضى قد تجلى بوضوح تام فى كل المواقف والإجراءات التى اتخذها عبد الحميد، ولم يتخل عنه لحظة واحدة طوال حياته، إن هذا الوهم خلف - ولا ريب - تأثيرا محزنا فى أفعال عبد الحميد.

ورغم أننا لا نشك فى أن جزءا من هذا الخوف المرضى كان بالضرورة ناشئا عن الخلقة والجبلة، فإن الشيء الثابت الذى لا مراء فيه أن كل المحيطين بعبد الحميد لم يترددوا فى إثارة هذا الخوف والتحريض عليه، سواء كان هذا إبان إمارته أو ولايته أو سلطنته، فهذه البطانة كانت دائما تظهر له الأحداث والوقائع التى تثير حفيظته وتزيد من خوفه وهلعه، أما أعداء سلطنته الذين يتربصون به الدوائر فقد توسعوا كثيرا فى وصفهم لهذا الخوف المرضى قائلين إنه سيحرمه من السلطنة ويحيطه بمخاطر الموت المحقق، حتى إنهم تعمدوا مرات كثيرة فى إطار هذا الجو ودون سبب يذكر إلى إيجاد الأحداث المحرضة على خوفه وهلعه، وإن كتاب تاريخ السلطان عبد الحميد الذين يثبتون عجزه والافتراء عليه دون الاطلاع على الأسباب الحقيقية التى كانت وراء هذا الخوف المرضى قد جانبهم الصواب وارتكبوا خطأ فاحشا فى هذا السبيل.

وإن الطريق الصائب المستقيم للمحاكمة يتأتى عن طريق أولئك المحيطين به ممن كانوا يتابعونه لحظة بلحظة ولم ينفصلوا عنه طرفة عين، ونعنى بهم رجالات القصر وعبيده والصدر الأعظم، وحاشية السلطان وغيرهم من المقربين إليه.(٣٩)

كان المؤرخون: عبد الرحمن شرف ومحمود كمال إينال وضيا قرال قد وافقوا تحسين باشا فى رأيه الذى سلف ذكره. ويقول عبد الرحمن شرف: " إن الصحافة هى التى أثارت خوف عبد الحميد وحرضت عليه".(٤٠)

---

(٣٨) المصدر السابق، ص ١٣ .

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٥ .

(٤٠) عبد الرحمن شرف، حول عبد الحميد الثانى، إستانبول ١٣٣٧هـ .

وكان وجود السلطان مراد هو أهم شيء فى هذا الخصوص، وقد اضطلعت هذه الزمرة من الملعونين والجواسيس بتشويش ذهن عبد الحميد عن طريق الأخبار الملفقة المزورة التى تدور حول مراد الثانى ونية اعتلائه العرش من جديد كما أن السلطان عاين واقعتى عزل وخلع عن العرش مما أصابه بحالة من الفزع والهول، أما السبب الثالث فيتمثل فى حادثة انفجار القنبلة الموقوتة سنة ١٩٠٥م.

وقد قامت ثلة أخرى من عشاق الحرية الهاربين إلى البلاد الأجنبية ومعهم جماعة من الكتّاب الأجانب الذين عملوا على إغاظة السلطان عبد الحميد وإثارة حفيظته بمقالات مكتوبة بغية ابتزاز أموال السلطان والاستحواذ عليها. كل هذه الأشياء مجتمعة"ساعدت على تجسيم الوهم وتضخيم الخوف عند السلطان حتى إنه لم يعد يثق بأى فرد ممن حوله ولو كانوا أبناءه الذين من صلبه، وكان يعتبر كل إنسان عدوا لدودا له".[٤١]

ويرى ضيا قرال" أن مظاهر التنافس والحسد والغيرة التى انتشرت بين رجالات القصر مقرونة بالدسائس والحيل قد أجهزت جميعها على مشاعر الأخوة التى كان يشعر بها السلطان، وقضت عليها قضاء مبرما، وكان هذا السبب فى فقدان الثقة بالناس والارتياب فى كل المحيطين به".[٤٢]

" إن التنافس الذى أشعل الفتن بين الوزراء ورجالات القصر، والحسد والغيرة اللذين أضمراهما لبعضهما بعضًا قد أحدث ضربا من الحيل والجذع، وكان بعض رجالات الدولة ممن تبوءوا مناصب رفيعة فى الدولة يلجأون إلى تخويف السلطان وقذف الرعب فى قلبه وافتعال ضرب من التمرد والعصيان فى شتى أركان الدولة حتى يتمكنوا من توطيد أركانهم فى وظائفهم ويكونوا بمثابة مصدر لتدبير المكائد

(٤١) إينال : ج٣، ص ١٢٦٨ .

(٤٢) قرال، جـ٨ ص ٥٧٧ .

والمؤامرات فى الباب العالى، وأوقعوا السلطان فى لجة القلق وجعلوه يتشكك ويتردد فى كل شىء وأجبروه ودفعوه إلى نعت كل أمور الدولة بالوساوس والريب".(٤٣)

" كانت شدة الحرص عند عبد الحميد وخوفه من المستقبل سببا فى وصف عصره بعصر الاستبداد، ونشأ هذا الخوف كذلك لدى بعض رفقائه من أركان الدولة ورجالاتها"(٤٤)، ولما بلغ الموقف هذه الدرجة من الخطورة لم يكن السلطان هو المسئول وحده عن مساوئ هذه الحقبة، بل كانت المسئولية ملقاة على عاتق كل شخص تسبب فى هذه البيروقراطية على وجه الخصوص، وهو ما يراه المؤرخ مولانا زاده رفعت".(٤٥)

" ولا ريب أن إثارة الخوف والوهم فى نفس السلطان قد جعله دائما ينزع إلى سوء النية التى تسول له أنهم يتحدثون ضده فى كل اجتماع يعقدونه، وخلاصة القول أنه قد وقر فى ذهنه وجود أكمنة تتربص به حيثما ولى وجهه(٤٦)".

كان الصدور العظام جروا على العادات المألوفة، يذهبون إلى الباب العالى يومين اثنين من كل أسبوع، ثم يمرون على القصر وقت الضحى لتحية السلطان وإحاطته علما بالحالة التى عليها الدولة وذات يوم قدم أحد الصدور العظام إلى القصر فى وقت العصر فارتاب السلطان فى الأمر وأصابته حالة من الثورة والاهتياج وتوتر الأعصاب، وقال لأحد رجالات القصر: اذهب فانظر ماذا جرى؟ أحدث شىء غريب؟ ولما أخبره رجل القصر بأن الأمر على ما يرام، وإن الصدر الأعظم قد مر على القصر لإنهاء بعض الأمور ولم يزل الوقت مبكرا، حينئذ قال السلطان مغاضبا: " لقد أصابنى هلع وفزع على حين غفلة، فلقد أمسى المساء هذا اليوم، ولا أستطيع أن أنجز عملا، ولن أقابل الصدر الأعظم عبثا ودون جدوى".(٤٧)

---

(٤٣) على سعيد باشا، ص ١٣٠ .

(٤٤) أحمد رشيد رى، ص ١٠ .

(٤٥) مولانا زاده رفعت، ورقة الانقلاب العثمانى، أو تمرد ٣١مارس سنة ١٣٢٥هـ، مطبعة الأخبار سنة ١٣٢٩هـ ، ص ٦٠ .

(٤٦) تحسين باشا، ص ٥٩ .

(٤٧) على سعيد باشا، ص ١٣ .

وهاهو ذا عبد الحميد يكتب بنفسه عن خوفه وشكوكه فيقول: " أعلم علم اليقين أن المتآمرين قد حالفهم التوفيق مرات معدودة لاستهداف حياتي والتآمر عليها، وليس بمستغرب تحت وطأة هذه الظروف أن أرتاب في كل شخص أو أنأى بنفسي بعيدا عن أولئك الذين يسدون إليَّ معروفا أو يصنعون لي خيرا، فهذا شيء يعد شعورا إنسانيا جديرا بتفهمه وإدراك أسبابه".(٤٨)

كان عبد الحميد قد قال ذات مرة: " الشك هو رأس الفطنة ونفاذ البصيرة"، ولهذا كان عبد الحميد لا يثق كثيرا في الباب العالي، مما جعله يجمع إدارة الدولة وحكمها في القصر، ووقر في ذهنه كذلك أنه معرض للإقصاء عن العرش من قبل رجالات الدولة كما فعل بعمه عبد العزيز وأخيه مراد من قبل، حيث تعرض كلاهما لمثل هذا الإقصاء ولهذا السبب كان عبد الحميد يقحم نفسه في كل الأشياء التافهة حتى ولو حطت من قدره أو غضت من قيمته، وشرع في ترويج ما يسمى بالتجسس أو استخدام البوليس السري، وهو بصنيعه هذا قد جلب المتاعب لنفسه قبل كل شيء وأكثر من كل شيء، ودفعه إلى هذا أشياء تافهة لا مغزى لها ولا طائل من ورائها".(٤٩)

هيئة البوليس السري

بات تأسيس هذه الهيئة أمرا طبيعيا تمخض عن الهلع والفزع الذي أصاب عبد الحميد ونذر وهواجس الشر التي أحاطت به من كل جانب وكانت الوقائع والأحداث التي عاشها عبد الحميد إبان ولاية العهد والإمارة كلتيهما بمثابة درس عظيم استخلص منه العبرة والعظة.

---

(٤٨) عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص ٤٥ .

(٤٩) دانشمند، جـ٤ ص ٢٦٨ .

فقد رأى بعينى رأسه أولا كيف تم القضاء على عمه عبد العزيز لعدم وجود جهاز مخابرات، وعلى الرغم من أن عبد العزيز قد حاصر القصر وطوقه بالجند والأسطول فإنه لم يحط علما بخطة خلعه وإقصائه عن سدة العرش، وكل ما علمه هو أنه طرق بنفسه باب غرفة نوم حسين عونى باشا من أجل احتجازه والقبض عليه.

كان عبد الحميد يرى عمه عبد العزيز" حاكما مبجلا ووقورا".[٥٠] مما منع أى شخص من الاقتراب منه، ولا قبل لأحد بالدخول عليه فى سهولة ويسر أو التحدث بشيء له أو عليه ألبتة.

واستخلص عبد الحميد كثيرا من الدروس والعبر من حياة أخيه مراد الخامس الذى كان عفيفا نقيا طاهر الذيل شديد الطهر والنقاء، يقتنع بكلام أى شخص وينخدع به، سريع التصديق، ما جعله معرضا لكل ضروب المكائد والدسائس، وعند عزله لم يحطه أحد علما بما يصنعه الوزراء، وبات هو الآخر ضحية لعدم وجود أى نوع من أجهزة المخابرات.

إن حادثتى العزل والإقصاء اللذين تعرض لهما أخوه وعمه لم يبرحا خيال عبد الحميد أو يزايلا عقله، مما جعله يعقد العزم على تأسيس جهاز مخابرات قوى، وفكر كثيرا فى أن يكون هو الآخر عرضة للعزل والإقصاء عن العرش للمرة الثالثة.

" لقد شكلت جهاز البوليس السرى من جديد حتى لا أتعرض للتعاسة والبؤس والشقاء، وكانت تقارير البوليس السرى والمخابرات والصحف تقدم إلى كل يوم، وكانت هذه الهيئة السرية ذات فائدة جمة فى إنجاز أعمالى"[٥١]، ويلخص فى حديثه للمستشرق النمساوى "أرمينوس فامبرى" قائلا له:" أمن الممكن أن يدور بخلد حكومة أو دولة أو رجل دولة أن يكون بغير نظام استخبارى؟ إنه لا قبل لشخص فى قمة السلطة أن يكون على غير علم أو بينة بما يدور حوله، انظر ما كتب فوق جبين عمى

---

(٥٠) وداد عرفى، ص ١٥ .

(٥١) جريس، ص ١٥٠ .

المخضب بالدماء، ألا يتوجب أن يكون بمثابة العبرة التى أعتبر بها؟ لقد أنشأت ما يعرف بالصحف، وهى يا عزيزى فامبرى قد أحاطتنى علما قبل فترة وجيزة بتورطك فى علاقة مع المعارضين لى قساة القلوب".[٥٢]

لم يجد السلطان بدا من تأسيس جهاز مخابرات قوى، لا سيما إذا أضفنا إلى ما سلف واقعة على سعاوى والجمعية السرية المسماة " صاقليرى - عزيز بك " اللتين اضطلعتا بثورة استهدفت القضاء على السلطان. " كان عزل عبد العزيز وواقعة على سعاوى بمثابة حدثين خطيرين أوقعا عبد الحميد فى هاوية الخوف والتوجس العظيم، وأفقدته نوم ليله وأقضت مضجعه. ولهذا السبب أراد عبد الحميد أن يحيط بحركات وسكنات كل الوزراء والقادة، ويحول دون محاولاتهم التآمرية التى يمكن الضلوع فيها ضده.

ولم يترك عبد الحميد هذه المهمة لإدارة البوليس الخاضعة لسيطرة ناظر البوليس، بل أراد كذلك التحرى عن جميع الأخبار والتقارير التى يتلقاها من كبار رجالات الدولة والحكومة، وكانت هيئة البوليس السرى خاضعة لرئاسة كل من أحمد جلال الدين باشا وقدرى بك اللذين يلقب كلاهما بلقب رئيس المخابرات، كما يوجد أيضاً موظفون آخرون سريون يختارهم السلطان من بعض الأشخاص المقربين الذين يقومون كل يوم بإخبار أحد الأشخاص بما يتلقونه من معلومات وما يجمعونه من تحريات، ثم يقوم هذا الشخص بإرسال هذا التقرير إلى السلطان".[٥٣]

" كان هدف السلطان من كل هذه الإجراءات هو التحرى والتفتيش وأخذ الحيطة والحذر حتى لا يتردى فى هاوية العواقب الوخيمة التى أودت بأخيه من قبل".[٥٤]

---

(٥٢) المصدر السابق، ص٢٣٧ .

(٥٣) آرسون، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٥٤) جلال نورى إيلرى، تاريخ المستقبل، جـ٢ إستانبول ١٣٣١هـ ، ص ٩٦ .

كان لعـبد الحمـيـد ميـزة أخـرى، ألا وهي الاحتفاظ بكل شيء في سرية تامة فلا يبوح به ألبتة.

كان السلطان عبد الحميد يقول لتحسين باشا أحد المقربين إليه: " إن الفطنة والبصيرة هما أبوا الأمن والثقة، فالبصيرة أولا ثم الأمن بعد ذلك، ولهذا السبب فإن عبد الحميد لم يكن ليأمن لأحد أو يثق في أي شخص قط دون اتخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة".(٥٥)

وقد اتهم عبد الحميد بسبب إنشاء منظمة البوليس السرى التى شكلها، بيد أنه رد على أولئك بقوله:" لو لم أؤسس هذه المنظمة التى تتلقى الأخبار على نطاق واسع لبات من المتعذر على حماية نفسى من المخاطر التى تحيط بى من كل جانب، ألم يصنع الحكام الآخرون مثل هذا الصنيع ومنهم القياصرة على سبيل المثال؟".(٥٦)

كان عبد الحميد يعرف كل شيء بفضل جهاز المخابرات الذى أنشأه، حيث يقول: "كانوا يقولون إننى لا أحيط علما بما يدور من أحداث ووقائع داخل الإمبراطورية لأننى أعيش حياة منعزلة منزوية، أما وإننى قد أسست جهاز المخابرات فقد أصبح كل شيء غير خفى عنى، لقد كنت أعلم عن طريق هذا الجهاز الذى يعمل بكفاءة كل من يتفوه بكلمة أو يتحدث بشيء داخل منزله".(٥٧)

كان السلطان يعرف كل الدقائق الخفية والتفاصيل المستورة عن طريق المخابرات القوية المنتشرة فى كل مكان. " ولقد أصيب أحد سفراء الدول الكبرى بالحيرة والذهول عندما كان عبد الحميد يحدثه عن واقعة تهريب أخيه مراد، وكيف وصل إلى أدق التفاصيل المتعلقة بهذه الواقعة".(٥٩)

---

(٥٦) تحسين باشا، ص ٥٩ .

(٥٧) عبد الحميد مذكراتى السياسية، ص ٨١ .

(٥٨) وبسبب هذه الواقعة كان أعضاء جمعية تركيا الفتاة مدرجين فى مسودة السلطان المسكين.

(٥٩) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ١٨٩ .

ولم تسلم البيوت من المراقبة الشديدة التى فرضها عليهم جهاز المخابرات الذى أنشأه عبد الحميد، " ومن المعلوم سلفا أن عبد الحميد كان عدوا لدودا للاجتماعات التى تعقد خفية فى المنازل، وكان يرصدها ولا سيما تلك التى تعقد فى بيوت أكابر القوم ووجهاء الدولة، فهو يريد أن يعرف أولئك الرائحين والغادين إلى هذه الاجتماعات والمنازل التى تعقد فيها، ولا ريب أن ذكرياته المتصلة بالماضى هى السبب الذى دفعه دفعا إلى اتخاذ التدابير المشددة الصارمة إلى أقصى حد ممكن، وكان يطلع دائما على القرارات التى تتمخض عنها المناقشات والاجتماعات التى تعقد فى المقر الساحلى لشيخ الإسلام وبيوت الصدر الأعظم من أجل عزل عمه عبد العزيز وإقصاء أخيه مراد عن عرش السلطنة. ولم يَغِبْ عن فكره لحظة واحدة احتمال أن يلقى المصير نفسه وتلك العاقبة الوخيمة".(٦٠)

هكذا أسس عبد الحميد هذا الجهاز المخابراتى القوى، وامتدت شبكته من العاصمة حتى أقصى بقعة منزوية نائية، وعرف السلطان بفضل هذه المخابرات كيف يتعقب كل ما يحدث داخل الدولة ويتعقب أثره.(٦١)

لم تكن هناك حدود معينة للنفقات المالية التى ينفقها السلطان على هيئة المخابرات، إذ كان ينفق هذا المال من خزانته الخاصة، فإذا ما انقطعت الهبات والأعطيات والأنعم والمنافع فإن هذه الشبكة الاستخبارية سوف تتوانى وتتراخى فى أداء عملها.

ولا ريب أن هذه الأنعم المرغوبة سوف تجد لها نهاية حتى ولو تفرقت هذه الشبكة وتَشَتَّتَ شملها، وكان هذا سببا دفع السلطان إلى أن يوزع مالا زائدا كثيرا يسترعى الانتباه، فما يفعله لا علاقة له قط بالاقتصاد والتدبير فى الحياة الخاصة".(٦٢)

---

(٦٠) وودز، ص ١١٨ .

(٦١) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٨٤ .

(٦٢) تحسين باشا، ص ١١ – ١٢ .

ويرى تحسين باشا أن السلطان لا قبل له بالإسراف فى إنفاق مال كثير فى مجال الاستخبارات، بل اضطر إلى أن يفعل ذلك ويمكن مقارنة جهاز المخابرات الذى أسسه عبد الحميد بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية C. I.A فى الوقت الحاضر، وذلك من حيث ضخامته وأهميته، حتى إن جهاز مخابرات عبد الحميد كان أكثر منه تفوقا وأعظم شـأنا، وثمـة آراء فى الإدارة الأمـريكيـة تحث على دراسـة هذا النظام الاستخبارى، وتتخذ منه مثالا يحتذى.

التقارير اليومية السرية

هى من الوظائف المهمة التى تأتى على رأس أجهزة المخابرات، حيث تعمل بكل قوتها وكفاءتها فى التقاط الأخبار والمعلومات وتحملها من مظانها ومصادرها، وتسمى هذه الوظيفة " كتابة التقارير اليومية السرية "، وهى المهمة التى اضطلع بها جهاز المخابرات السرى فى تاريخنا، ويطلق على القائمين عليها اسم " البوليس السرى " أو المخبر السرى أو الواشى المحترف.

ما برح عبد الحميد يفكر دائما فى كيفية إقصاء من كانوا قبله من السلاطين عن العرش، وظلت هذه الأحداث ماثلة أمام ناظريه؛ حيث أراد أن يعرف كيف تم اقتناصهم وهم غافلون، وأدى هذا إلى أن يتخذ عبد الحميد كل التدابير اللازمة، وأنشأ جهازًا للتجسس وكتابة التقارير اليومية.(٦٣)

كان تشكيل هذا الجهاز بمثابة ظاهرة تنم عن الفكرة التى اختمرت فى ذهن عبد الحميد لفقدان ثقته بالباب العالى وعدم الاطمئنان له، وهذا - لا ريب - جزء من نظام السلطة المركزية القوية التى سلف ذكرها.

وقد أراد عبد الحميد هذا الجهاز أن يكون وحده صاحب الفضل فى جمع

---

(٦٣) تحسين باشا، ص ٣٨ .

المعلومات التى تخفى على السلطان نفسه، وذلك حتى يتسنى لهذا النظام المركزى الحاكم أن يؤدى دوره بنجاح، وكانت وسيلته التى يتوسل بها فى هذا السبيل تتمثل فى إرسال نسخة من جميع المعلومات إلى قصر يلديز قبل ذهابها إلى الباب العالى، وأصبح بمرور الوقت غير كاف، ومن ثم فإنه شرع بعد ذلك فى طلب تقارير مباشرة من الولاة والسفراء وغيرهم ممن يتولون مناصب رفيعة.

ويضم هذا الجهاز طائفة من المديرين الذين يفحصون هذه التقارير الصادرة من قصر يلديز، ويتقيدون بهذه التقارير، ثم يعملون جاهدين فى معية القصر دون أن يسببوا إزعاجًا أو ضيقا للوزارات. وهكذا كان الناس من أقل موظف حتى الصدر الأعظم يمسكون القلم بأيديهم ويتنافسون فى تسجيل التقارير السرية.[٦٤]

هكذا اضطلع جهاز المخابرات عن طريق عناصره بجمع المعلومات من كل حدب وصوب فى شتى أقطار المجتمع، ولا سيما من جماعة العلماء والوزراء الذين يخشاهم السلطان ويتوجس منهم خيفة.

وكان هذا اتجاها طبيعيا لعمل هذا الجهاز، فالموظفون المكلفون بجمع الأخبار وتقديم المعلومات يختلطون بطوائف المجتمع كله ويغشون مجالسه ويسلكون السبل التى تيسر عملهم، ويمكن القول فى هذا السياق بأن حياة السلطان برمتها كانت متهمة بمثل هذه النماذج السيئة من جهاز المخابرات وكتابة التقارير السرية.

وبات عبد الحميد نفسه يدرك مليا أن قدرته على استخدام جهازى التجسس وكتابة التقارير السرية بطريقة سيئة لم يكن شيئا مستحسنا مقبولا، بيد أنه أصر على أنه لا يستطيع التخلى عنه من أجل الأمن.[٦٥]

(٦٤) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٢٤٣ .

(٦٥) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٦٨ .

استشرى الفساد فى المجتمع العثمانى إبان عصر عبد الحميد، ولم يبق أثر يذكر للشرف والوقار والأخلاق، أما الفاسقون ممن لا خلق أو "خلاق" لهم والعاملون بضعف السلطان وخوفه وتوجسه فكانوا يتظاهرون بأنهم يعملون من أجل السلطان، وهم فى الحقيقة يتعقبون أثره لينتزعوا منه منصبه ويسلبونه ماله مدبرين له مخاطر جسيمة مخيفة. "هكذا علم الناس بخوف السلطان وهلعه وأنه قد بلغ النهاية، ولم يعد ينعم بالراحة والطمأنينة ألبتة".(٦٦)

كان هؤلاء المفسدون يغيظون السلطان والمجتمع على حد سواء، وأدرك عبد الحميد خطورة الموقف ويصفه فى مذكراته قائلا: " لا أحسب أن الحيل والدسائس يمكن أن تصل إلى هذا الحد من الفجيعة فى أى مكان من أركان الدنيا كما هو الشأن عندنا، بيد أنى أريد أن أفرق بين تقارير الآخرين المبالغ فيها وبين ما يكتبه أولئك المتحمسون المشايعون الذين يريدون تحقيق مكاسب لأنفسهم".(٦٧)

ثم يردف قائلا: " هناك زمرة كثيرة من الناس يسعون سعيا حثيثا للاستفادة من حالتى النفسية والعصبية، وأنا أعلم علم اليقين أن النساك الزاهدين المنعزلين يصبون جسام لعناتهم على أولئك الأناسى من الأسفلين الأرذلين ممن لا خلاق لهم ولا أريحية من القائمين على جهاز المخابرات وكتابة التقارير السرية، وكنت أشمئز وأنفر من التملق والتزلف المقرون بالمذلة والمهانة منذ مجيئى إلى مستقر السلطة والحكم".(٦٨)

ولما ظهر أن صياغة التقارير السرية اليومية المقدمة إلى القصر مزيفة كاذبة ملفقة، باتت ثمة حاجة ملحة إلى الوقوف على هذه التقارير والاطلاع عليها بحساسية مفرطة ودراستها دراسة متفحصة دقيقة، وإظهار صدقها أو كذبها، ولنقرأ فى هذا السياق ما

---

(٦٦) على سعيد باشا، ص ٦٧ .

(٦٧) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ١٩٩ .

(٦٨) المصدر السابق، ص ٨١، ٩٤ .

كتبه السلطان عبد الحميد إذ يقول:" لم أكن أصدق قط أنه توجد طائفة من كتّاب التقارير السرية ممن يتصفون بالافتئات والتلفيق، ويعملون جنبا إلى جنب مع أولئك الذين يحررون تقاريرهم السرية فى صورة حقيقية لا تحمل تزييفا ولا تزويرا، وتوجب علىّ أولا ألا أمسسهم بأذى".(٦٩) "فالسلطان لم يضع نصب عينيه أولئك النفر من الكذابين الذين يكتبون التقارير السرية، ولم يفكر فى أمرهم، فهؤلاء لم يحدثوا أى تأثير قط وهم بالقرب منه أو فى معيته".(٧٠)

"كان السلطان عبد الحميد يوقع عقوبة على أصحاب التقارير السرية اليومية؛ خشية اضطلاعهم بتراخى شبكة الاستخبارات فى أداء عملها".(٧١)

كان السلطان لا يقرأ التقارير التى تتضمن معلومات صحيحة حرية بالتأمل والتفكير، وإن قراءة هذه التقارير مقصورة فقط على الموظفين ذوى العلاقة الحميمة بالقصر.(٧٢)

ورغم بلوغ الموقف إلى هذه الدرجة، فإن قسما كبيرا من التقارير السرية كان لا يقرأ بسبب الثراء العريض الذى حققته هذه الأجهزة الاستخبارية. " وكانت هنالك تقارير سرية يفتحها السلطان ويقرأها ويتسلم كل يوم بضعة آلاف من هذه التقارير ويعطى الأوامر بشأن تزييف التقارير وتزويرها. أما التقارير التى لا يلمسها السلطان بيده فتكون مثبتة فى تقرير سرى مغلق محفوظ فى صناديق مودعة فى مكتبه الخاص، أما التقارير الأخرى التى يهتم بها فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بمناصب ومواقع

---

(٦٩) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ٨٤ .

(٧٠) على سعيد باشا، ص ٩٢ .

(٧١) تحسين باشا، ص ١٦، على سعيد باشا، ص ٥٤ .

(٧٢) إينا ل، جـ٢، ص ١٢٨٠ .

أشخاص الرجال الذين يقدمون هذه التقارير، وكان السلطان فى أغلب الأحيان يقرأ التقارير المتصلة بالصدر الأعظم أو بشيخ الإسلام والوزراء.(٧٣)

كان السلطان يغضب كثيرا وتتوتر أعصابه إذا ما قرأ تقارير لا أصل لها ألبتة. "وذات يوم غضب وهو يقرأ أحد هذه التقارير، وقال للمخبر السرى: "أأنت عضو بمجلس الشورى أم وزير؟ ماذا أفعل معك، تبا لك"، ورغم أنه مزق التقرير فإنه لم يبالغ فى توبيخ المخبر السرى، ولم يسرف فى تعنيفه وزجره".(٧٤)

كان عبد الحميد يسأم كثيرا ويتميز غيظا من الأخبار المختلقة المفتنة التى يأتى بها كتَّاب التقارير السرية الأقدمون الذين شغلوا مناصب رفيعة استطاعوا التغلغل فيها، ولقد صرخ فى وجه أحد المخبرين السريين ذات يوم، وكان مغاضبا، وقال له": لا تكتب لى شيئا قط، فلقد سمعت كل هذا بأذنى عندما كنت أعمل بالقصر السلطانى".(٧٥)

" لو أن هؤلاء الذين كانوا يريدون الاستفادة من ضعف السلطان وخوفه الشديد لم يثيروا هذا الخوف فى نفسه عن طريق التقارير السرية الملفقة المزورة بنسبة بلغت ثمانين فى المائة لأصبح السلطان أقل خوفا وتوجسا، ولو أن بعض رؤساء الكتبة من أمثال سعيد باشا الذين عودوا السلطان أن يرى بعينه كل شىء ويضطلع بكل صغيرة وكبيرة ومَهَّدُوا الطريق لتدخله فى كل شئون الدولة لأصبح الأمر - دون ريب - مختلفا تمام الاختلاف.

ومن العجيب كذلك أن هناك زمرة من الرجال الذين يخرجون من القصر ويأتون إلى الباب العالى، وكانوا يذمون السلطان قائلين إنه يتدخل فى كل شىء ولا يفعل لنا

---

(٧٣) تحسين باشا، ص ٢٦ .

(٧٤) على رشيد رى، ص ٦٠ .

(٧٥) سليمان ممتاز، ص ٥٤ - ٥٥ .

شيئا، وكان هناك مخبرون سريون من بين رجالات الدولة ووزرائها ممن يضطلعون بتحرير التقارير السرية اليومية.

ولا أنسى فى هذا السياق ما قاله زكى باشا رئيس هيئة الأسلحة والذخائرالذى تفوه بغلظة وغضب قائلا : " كلما تسامحنا فيما نضطلع به من أشياء فإنه لا يعد بمثابة صداقات للدولة وللسلطان، بل نكون خائنين إن لم نفعل هذا ".(٧٦)

"كانت كتابة التقارير السرية اليومية بمثابة وصمة العار التى سودت عصر السلطان عبد الحميد، والعلة التى جعلت الشعب يشعر بالفتور ناحية السلطان(٧٧)". ولقد أصبح التجسس وتحرير التقارير السرية بمثابة الفن الذى يمارس على الدوام، وإن الذين يسلكون طريق هذا الفن ويمتلكون المهارة فيه قد باتوا يتشككون فى بعضهم بعضًا، فلا يأمن الأب ولده ولا الولد أباه، ولا يثق أحد فى أحد، كل هذا بسبب التقارير السرية التى يحررونها ويقدمونها فى آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم وأصدقائهم المقربين.

وبات من المتعذر التقاء الأحبة والأقارب بعضهم بعضا، وأصبح كل شىء أبكم حتى لا يقدم فيه تقرير، ولا يتعرض للمتاعب والخطوب.

ضاق الناس ذرعا، وبلغوا أقصى درجة من العنت واللغوب والسآمة والملل بسبب الحصار المفروض حتى محيت محبة السلطان من القلوب.(٧٨)

وكانت التقارير السرية سببا مباشرا فى شعور كثير من الناس والكتّاب والموظفين والوزراء بغصة ومرارة، يستوى فى ذلك المنصفين وغير المنصفين، إذ يطارد بعضهم بعضا عن طريق العزل والنفى والسجن والمراقبة.

---

(٧٦) على رشيد رى، ص ١٠ .

(٧٧) إينال، جـ٣، ص ١٢٧٧ .

(٧٨) رغم التمرد الذى حدث ضد التقارير السرية الكاذبة فإنه لم تتأكد طائفة كبيرة من بعض هذه التقارير الكاذبة، وأصبح هناك أناس بمثابة الضحية والهدف.

وكان السلطان يطبق سياسة النفى والإبعاد على وجه العمـوم، وكان المنفيون لا يضارون من الناحية الاقتصادية، إذ كانوا ينفون وتخصص لهم رواتب تكفل لهم حياة آمنة مستقرة. كما كانت هناك زمرة من المنفيين المطرودين ممن لا وظائف لهم، وتفرض عليهم الإقامة الجبرية براتب شهرى، وثمة طائفة أخرى كانت ترسل إلى الخارج بوظائف معينة.(٧٩)

حقا! أكان السلطان هو المسئول الوحيد عن تردى أحوال الدولة وبلوغها هذه الدرجة المفجعة المذرية ؟ كلا، إن اختيار علة السلطان ووسوسته لتبرير هذا الأمر هو شيء غير لائق، ولا سبيل إلى إنكار حقيقة جوهرية تتمثل فى أن المصائب التى أصابت السلطان والشعب كليهما هى المسئولة عن هذه الأحوال المتردية فى حمأة هذا المستنقع المستقذر.

بيد أن المسئولية الكبرى تقع على كاهل التقارير السرية وكتابها الذين أغاظوا السلطان وأخافوه ولم يبينوا له الطريق المستقيم لحرصهم الشديد على الجاه والثراء، ناهيك عن الوزراء والأمراء ورجالات الدولة وثلة أخرى تافهة من عبدة الأوسمة والصدقات من العلماء الذين أحجموا عن الجهر بالحقيقة والصدع بها فى وجه السلطان، ولا ننسى أن الشائعات التى لا أساس لها من الصحة أغضبت السلطان وأثارت حفيظته.

كانت هناك قنابل تحملها جوارى القصر والمحظيات ويخفينها فى صدورهن لحفر نفق فى قصر يلديز، ناهيك عن التقارير السرية التى كانت تقدم ليلا ونهارا دون توقف من أجل المحافظة على الحالة النفسية للسلطان، وهذا شيء فى حقيقته محير للعقل، ويثير الإعجاب.(٨٠)

---

(٧٩) تحسين باشا، ص١٤٦ .

(٨٠) إينال، جـ٣، ص ١٢٧٩ .

لم يكن السلطان عبد الحميد هو المسئول الوحيد عن اتهامه بتأسيس البوليس السرى أو كتابة التقارير السرية، بل أصبحت مخابرات السلطان القوية المتقنة البارعة طوال ثلاثة وثلاثين عاما واحدة من أسرار الإمبراطورية العثمانية.

ولقد عرف السلطان كيفية استخدام المخابرات بصورة جيدة لتكون بمثابة عين وأذن الأمة والدولة كلتيهما، أما جماعة تركيا الفتاة فإنها سوف تجهز على هذه المخابرات عندما تعلن الثورة على السلطان منقلبين عليه فى إطار عداوتهم له، والتى جاءت على نحو أعمى يتصف بالتهور والحماقة، وسيرون بأعينهم الضرر الناجم عن أفعالهم، وسيؤسسون جهازا خاصا بهم، ولكن بعد أن تتغير الظروف وتتبدل الأحوال.

وضع مراد الخامس وولى العهد تحت المراقبة

بات كل من رشاد أفندى ولى العهد والسلطان مراد الخامس المطاح به - وكلاهما من الأسرة الحاكمة - موضوعين تحت مراقبة شديدة صارمة بسبب حالة الخوف من العزل عن العرش التى أصابت عبد الحميد، ولا سيما السلطان مراد الذى جعله السلطان فى عين الاعتبار، وفكر فى أمره مليا.

فقد كان عبد الحميد شاهد عيان على محاولتى انقلاب من أجل تنصيب مراد على العرش مرة ثانية، واضطلع الماسون المؤيدون لمراد ومعهم ثلة أخرى من كبار رجالات الدولة بترويج دعاية مستمرة أرادوا من خلالها عزل عبد الحميد عن العرش كى يتسنى إنقاذ مراد من علته، وكانت هاتان الواقعتان بمثابة إثارة هواجس الشر وشدة الوجل من العزل عن العرش.

ولقد أصابت عبد الحميد ودفعته إلى أن يبين للرأى العام التقارير الطبية التى تجزم بعدم تحسن الحالة الصحية لمراد وتعذر استرداد عافيته، كما كان يعرضه لفحص الأطباء لتوقيع الكشف الطبى عليه حتى يتمكن عبد الحميد من تحطيم التأثير القوى للدعاية التى أشرنا إليها آنفا، وكان مراد الخامس رهن الإقامة الجبرية فى قصر

جراغان عقب حركة التمرد التى تزعمها على سعاوى، ولم يكن مراد موضوعا تحت التحفظ الشديد إبان الأيام السابقة على هذه الحركة.(٨١)

عاش مراد حياة النفى المريرة تحت وطأة هذه المراقبة الشديدة والتحفظ الصارم، وكان القائمون على خدمته لا يخرجون عن دائرة خدام القصر السلطانى، إذ يحظر عليهم الالتقاء بأى شخص ألبتة.

وعلى الرغم من أن حراسه كانوا ينامون ويستيقظون فى أماكن سكناهم، فإنهم لم يستطيعوا الاتصال بالشعب، كما كان الناس يخشون من مقابلة الحراس وإذا حدث وخرجت جارية من قصر جراغان فإنها لا يؤذن لها بالإقامة ثانية فى إستانبول، بل يرسل بها إلى المقاطعات المجاورة لمدينة بورصة.(٨٢)

حاول عبد الحميد قتل مراد الخامس بغية التخلص منه، واستفتى شيخ الإسلام فى هذا الأمر، بيد أنه رفض الفكرة لمخالفتها الشريعة الإسلامية، ولهذا السبب كانت مزاعم السلطان التى اتهم فيها شيخ الإسلام بالحماقة والجهل محض كذب وافتراء، وإن هذه المزاعم التى تبوأت مكانة فى كتاب" عثمان نورى "تعتمد برمتها على الشائعات والقيل والقال.(٨٣)

يقول عبد الحميد لابنته عائشة واصفا شعوره نحو أخيه مراد: " وأسفى أننى لم أتمكن من رؤية أخى بعد واقعة على سعاوى سوى مرة واحدة. كنت أريد أن أجعل أخى يعيش حياته حرا طليقا، ولكنه أبى، ومن ثم فأنا مضطر عقب واقعة على سعاوى

(٨١) على سعيد باشا، ص ١٠١ .

(٨٢) المصدر السابق، ص ١٠٢ .

(٨٣) عثمان نورى، جـ٢، ص ٤٤٢ .

إلى الانتباه وتوخى الحذر والحيطة. فلقد فتحت هذه الواقعة عينى، ولو أننى خليت سبيل أخى وتركته حرا طليقا فلن ينعم كلانا بطمأنينة أو راحة البال. كان أخى رجلا طاهر القلب زكى النفس نقى السريرة مفطورا على الانخداع بمن يضحكون فى وجهه، ولا يفكر فى عواقب الأمور، كما كان لا يفكر فى الخطر الذى يمكن أن ينجم عن عدم لياقة أو حسن هيئة مظهر الداخلين عليه من أعضاء الجمعية السرية الماسونية الذين كانوا يحلون عليه فى مقام الخلافة السلطانية. وكانت هناك زمرة أخرى ممن زعموا أنهم أنصار الحداثة والتجديد حيث عودوه شرب المسكرات حتى أدمنها، ولم يستطع الفكاك من أسرها، وأظهروا له جوانب الاستحسان فى اتباع الأناقة الأجنبية والأعراف والتقاليد الأوروبية، ناهيك عن حرص (الوالدة سلطان) أن تجرجر أولادها إلى المصائب والنكبات. أما عمى السلطان عبد العزيز فإنه لم يتصرف بفطنة وبصيرة، وأعطى حرية زائدة عن الحد المطلوب، ولقد خدعت قبل ذلك فى كل هؤلاء بيد أننى أدركت بتجربتى وخبرتى أن الأمور لن تسير على هذا المنوال. وأقدمت على فرض إجراءات صارمة تضمن سلامة كلينا، ولربما لم يكن هناك نصيب مقدور فى أن يموت كلانا ميتة طبيعية فوق فراشه". (٨٤)

ورغم أن السلطان عبد الحميد وضع مراد الخامس تحت المراقبة الصارمة والتحفظ الشديد فى قصر جراغان، فإنه كان يشعر نحوه بخطر محدق يمسك بتلابيبه ويقض مضجعه. ولم يتردد السلطان أو يخجل بالاعتراف بشعور بالراحة والطمأنينة عندما وافت المنية أخاه مراد سنة ١٩٠٤م.

---

(٨٤) على عثمان أوغلو، ص ٩١ .

" وهذا يعنى أننى لم أكن أستطيع التفكير فى كيفية إزالة صك رهن مراد الذى يجثو فوق كاهل سلطنتى، فلقد أصبحت السلطان الوحيد المتفرد القائم برأسه فوق سدة العرش بعد انقضاء ثمانية وعشرين عاما".(٨٥)

بدأ عبد الحميد بعد وفاة أخيه في وضع رشاد أفندى ولى العهد ووريث العرش تحت المراقبة الشديدة الصارمة، وكان رشاد أفندى يقيم فى قصر"دولمه باغجة".

وكان عبد الحميد يرى إبان إمارته التدخل الذى كان يضطلع به ولاة العهد فى أمور عزل السلاطين عن العرش وتعاونهم الوثيق مع القائمين بعزل السلاطين وإقصائهم، وقد دفعه هذا إلى أن يفعل برشاد كما فعل بأخيه من قبل بسبب قلقه الشديد من احتمال استخدامه وسيلة يتوسل بها المتمردون والثوريون إلى إقصائه عن العرش.

كان عبد الحميد ينفق من خزانته الخاصة كل شهر خمسة عشر ألف جنيه ذهبى على شكل رواتب شهرية حتى يحول دون استخدام ولى العهد من قبل القوى السرية الطامعة فى المال".(٨٦)

وقد أذن لولى العهد رشاد أفندى بالذهاب فقط إلى قصره الكائن بمنطقة " زنجير لك قويو"، وكان حسن باشا محافظ بشكتاش يراقبه بسيارة عند ذهابه وإيابه، كما كان يراقب كذلك وقت وتاريخ خروج ودخول رشاد أفندى إلى القصر، ويخبره السلطان كل يوم بطريقة منتظمة شريطة ألا يأخذ ولى العهد أى شخص خارج القصر، بل يذهب القائمون على خدمته فقط فى معيته إلى قصر" زنجير لك قويو".

كما كان ولى العهد رشاد لا يستطيع الذهاب إلى داخل القصور الأخرى مثل قصرى" باى أوغلو وبوغاز"(٨٧)، أما الأمراء فلم يخضعوا للمراقبة الصارمة مثل مراد

---

(٨٥) جريس، ص ٢٤٦ .

(٨٦) المصدر السابق نفس الصحيفة

(٨٧) على سعيد باشا، ص ١٠٢ .

الخامس وولى العهد رشاد، ولكنهم لا يختلطون بالناس إذا ما ذهبوا إلى الأماكن التى يريدون الذهاب إليها.

وكان أولاد عبد الحميد يذهبون إلى أى مكان شريطة ألا تتسرب أى أنباء عن الأماكن التى سيذهبون إليها.(٨٨)

مراقبة رجالات الدولة من ذوى المناصب الرفيعة

كان خوف عبد الحميد من عزله عن السلطنة سببا فى وضع أشخاص آخرين من خارج الأسرة الحاكمة تحت المراقبة الشديدة، وهم فئة تمثل عناصر أخرى من عناصر التحويل والمساعدة مثل الصدر الأعظم والوزراء وشيخ الإسلام الذين يتولون مناصب رفيعة فى الدولة.

فهؤلاء جميعا قد اضطلعوا بدور القوة المحركة فى واقعتى العزل اللتين عاينهما السلطان فى الماضى القريب، وكان البوليس السرى يراقب هؤلاء جميعا، ويقتفى حركاتهم وسكناتهم حتى يأووا إلى منازلهم، وسرعان ما ينهض البوليس السرى بإحاطة السلطان خبرا بتقارير سرية متضمنة أخبارا عن هؤلاء الذين التقوا بهم والاجتماعات التى يعقدونها والأحاديث التى يتحدثون بها، ويلتصق المراقبون جيدا بمن يأتون بأفعال مريبة أو يتجسسون على أخبارهم من داخل وظائفهم، ويؤتى بالأوفياء المخلصين منهم لكى يتبوءوا مناصب القصر السلطانى.

وكان شيخ الإسلام ممن يراقبون مراقبة شديدة صارمة، كما كانت دائرة المشيخة من أهم المواقع التى كان عبد الحميد يضعها تحت المراقبة، وكان السلطان يعلم علم اليقين أن السلاطين يفقدون عروشهم ومناصبهم بموجب فتوى واحدة تصدر فى نصف ساعة فقط، وكانت المشيخة بمثابة خطر داهم لكل إنسان ذى علاقة وثيقة بها أو فى سبيله للتعرف عليها.(٨٩)

---

(٨٨) المصدر السابق : نفس الصحيفة

(٨٩) تحسين باشا، ص ١٠٣ .

وإذا ما احتوت التقارير السرية التى تخص المشيخة على أخبار الفتوى فإنها تكتسب حينئذ أهمية كبرى وعناية فائقة، "وكان هناك مراقبون يتعقبون شيخ الإسلام من أول ركوبه سيارته الخاصة حتى دخوله إلى منزله، ومن حجرته الخاصة حتى مقره الرسمى، وثمة زمرة أخرى غير عادية تقتصر مهمتها على اقتفاء أثر شيخ الإسلام داخل مدينة إستانبول، ولا يلتقون به أو يسلمون عليه ولا يقيمون معه أية علاقة قط، أما الموظفون الذين لا ينتسبون إلى المشيخة ولا سيما طائفة جند أركان الباب العالى فإنها لا تستطيع الدخول بقدمها إلى داخل باب المشيخة".(٩٠)

كان عبد الحميد ذا ثقة شديدة بمقام المشيخة الإسلامية عندما كان يتولاها زمرة من العلماء الأكفاء. وعين جمال الدين أفندى سكرتيرا خاصا له لثقته به، حيث عهد إليه بإخبار السلطان بكل ما يدور فى أروقة المشيخة، وقد مكث جمال الدين فى هذه الوظيفة سبعة عشر عاما.(٩١)

أما عبد الحميد الذى اعتبر من حادثة عمه عبد العزيز فقد وظّف طائفة من رجالات الدولة ذوى النفوذ والقوة فى أماكن قاصية من البلاد، فلا قبل له بمراقبتهم فى إستانبول، وحتى لا يصيبه ضرر منهم، وكان الباشوات وكبار رجال الدولة ممن يجهزون مؤامرات سرية للثورة والتمرد هدفا مقصودا لكتّاب التقارير السرية، ولم يكن عقابهم بالحبس أو الموت، بل يكتفى بنفيهم أو إبعادهم خارج إستانبول، ويعينون فى وظائف مناظرة لوظائفهم التى كانوا يشغلونها قبل النفى والطرد.

حتى إن المثقفين والمستنيرين من الضعفاء العاجزين العاطلين الذين كانوا يعارضون السلطان فإنهم كانوا ينفون بعيدا عن إستانبول، ويعينون فى وظائفهم التى كانوا فيها.

---

(٩٠) مايا قون، ص ١٦١ .

(٩١) تحسين باشا، ص ٤٠ .

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا كيف كان قياصرة روسيا ينزلون عقوبة الموت أو الحبس على من يرتكبون أدنى معارضة ضدهم، فإن عقوبة عبد الحميد ضد معارضيه تعد حينئذ مظهرا من مظاهر المرحمة والشفقة والنعمة والإحسان، وإن ما قيل عن إلقاء المعارضين من المثقفين فى جماعات مؤتلفة فى بحر مرة، أو تغليلهم فى الأصفاد والتنكيل بهم فى غيابات السجون ما هو إلا محض افتراء ومزاعم كاذبة.

تصفية جمعية «العثمانيون الجدد»

بذل السلطان عبد الحميد وسعه كى يتواءم ويتعايش مع هذه الجمعية، سواء أكان هذا إبان إمارته أو فى ولاية عهده، فلم تحدث بينهما مشكلة خطيرة ذات شأن عظيم، ولم يمكث بينهم سواء كانوا فى الداخل أو الخارج، بل كان يراقبهم ويتعقب أثرهم وكأنه مراقب محايد.

واقتصرت مهمته فى تلك الحقبة على جمع المعلومات المتصلة بهم، كما أنه غض الطرف عن هذه الجماعة عندما أحس بتدخلهم وتوجيههم ضربة من أجل عزل عمه عبد العزيز؛ رغبة منه فى الاقتراب كثيرا من عرش السلطنة، ثم ما لبث أن تعاون معهم إبان ضلوعهم بعزل أخيه مراد، وقد بينا آنفا أنه رغم اعتقاد عبد الحميد بفائدة الدستور للحكومة المركزية وأهميته فإنه كان على يقين بأننا غير مهيئين للدستور بسبب ظروف تركيا والعالم من حولها، كما رأى أيضا أن تطبيق الدستور سيعود علينا بالضر والأذى. وتمخض عن التجارب التى حدثت فى الماضى اضطلاع عبد الحميد بتأسيس حكومة السلطة المركزية بعد أن رأى الضرر الفادح الذى سيلحق بالأمة نتيجة لتطبيق الدستور لفترة وجيزة إبان السنوات الأولى من اعتلائه عرش السلطنة، لم يكن السلطان بحكم طبيعته مستعدا للخضوع للسيطرة والهيمنة والتحكم، ولم يستطع استساغة رغبات كل من مدحت باشا والعثمانيين الجدد الذين أرادوا من خلالها تطويقه والإحاطة به من كل جانب، واستخدم عبد الحميد فى مذكراته تعبيرا يقول فيه: " باتت البيئة المحيطة بى

زاخرة بالأناسي الذين يريدون أسرى والاستحواذ عليَّ " لما أصبح موقف السلطان عبد الحميد شديد الحرج بالنسبة لجماعة العثمانيين الجدد كما بينا آنفا، فإنه أسرع من فوره بتصفية هذه الجمعية، الأمر الذى سيعود بالنفع والفائدة على الأمة والدولة على السواء، وأفصح عن نيته فى الأسبوع الأول من جلوسه على العرش حيث رفض تعيين نامق كمال وضيا باشا فى وظائف مهمة بالقصر؛ رغبة منه فى إبعادهم عن دائرة العثمانيين الجدد. واغتاظ الصدر الأعظم مدحت باشا من موقف السلطان نحوهما، بيد أنه عجز عن فعل أى شيء.[٩٢] ولم يرد عبد الحميد إبان الشهور الأولى من جلوسه على العرش النكوص أو التقاعس عن مساعدة هذه الجمعية، فعين نامق كمال عضوا فى مجلس الشورى فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦م.

كما عين ضيا بك مستشاراً بوزارة المعارف، وكان ضيا بك أحد أعضاء هذه الجمعية الذى أمسك القلم بيده وأسس فى القصر جمعية الترجمة حيث جمع فيها كلا من: نامق كمال وأبو الضيا توفيق وعثمان نورى وعلى سعاوى، وجعل ضيا بك رئيسا عليها، ولما علم بأن نامق كمال وأبو الضيا توفيق لن يعملا فى المكان الذى يوجد فيه على سعاوى أسرع السلطان بغلق هذه الجمعية فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦م. وقد أسس السلطان هذه الجمعية سالفة الذكر، تلبية لرغبة أبو الضيا توفيق ولكى تتمكن هذه الجمعية من كتابة مقالات ضد جمعية العثمانيين الجدد الموضوعة قيد المراقبة.[٩٣]

كتب كل من ضيا بك ونامق كمال نقداً شديد اللهجة لتخويف السلطان وإلقاء الروع فى قلبه من تطبيق الدستور، وحينئذ طلب السلطان إلى الصدر الأعظم مدحت باشا إبعاد ضيا بك إلى السفارة التركية فى برلين، وإبعاد نامق كمال إلى إدارة الشئون المالية بأرض روم، وعندما أصرا على عدم الذهاب إلى حيث أراد لم يرد

---

(٩٢) جريس، ص : ٦٣

(٩٣) أبو الضيا توفيق، جـ٢، ص ٣١٢ .

مدحت باشا إرسالهما بالقوة، واستطاع مدحت باشا إقناع ضيا بك بالذهاب إلى ولاية أزمير.[٩٤] وفشل في إقناع نامق كمال، وتم القبض على نامق كمال وتم نفيه إلى منطقة "ميديللي"بعد خمسة وأربعين عاما من إعلان الدستور.[٩٥]

وعاش نامق كمال في هذه المنطقة بخمسة عشر ألف قرش منحها السلطان له من خزينته الخاصة، ثم عين أمين خزانة بعد سنتين ونصف، ومكث في هذه الوظيفة خمس سنوات ونصف، ثم غيرّ وظيفته فعمل أمين خزانة في رودس بناء على الشكاوى التي تقدم بها الروم في حقه[٩٦]، ودفن في غاليبولي وشيد السلطان عبد الحميد مقبرته.

عمل على سُعاوي بمديرية "غلطة سراى سلطاني" في الفترة من ٣١يناير حتى ١٠ فبراير من سنة ١٨٧٧م، ثم قتل إبان حركة التمرد التي تزعمها في ٢٠مايو سنة ١٨٧٨م. وعين آكاه أفندي عضوا بمجلس الشورى في الأيام الأولى من جلوس عبد الحميد على العرش، ثم عزل في ٢٦ مايو سنة ١٨٧٧م ونفي إلى بورصة وعمل في الإدارة المالية بكل من أنقرة ورودس، ووافته المنية إبان عمله سفيرا في أثينا سنة ١٨٨٥م.

أما رشاد بك فقد تخلى عن النضال بعدما عين في الإدارة المالية بمنطقة "بيلة جيك"، وكان قد نفي أول الأمر إلى أنقرة، ثم أصبح بعد ذلك كاتبا بالقصر السلطاني ووكيلا بإدارة احتكار التبغ لأنه شقيق السلطان عبد الحميد من الرضاعة.[٩٧]

---

(٩٤) عين ضيا باشا في ولاية آدنة بعد أن عمل مدة في ولاية سورية، وتوفي أثناء وجوده في آدنة في ١٧ مايو ١٨٨٠م.

(٩٥) أبو الضيا توفيق، جـ٢، ص ٣١٢ .

(٩٦) جريس، ص٦٢ .

(٩٧) أبو الضيا توفيق، جـ٢، ص، ٣٣ .

وقد أبعدت طائفة كبيرة من أعضاء الفتنة والثورة لجمعية العثمانيين الجدد من إستانبول وألحقوا بوظائف مختلفة، أما أكابر رجالات الدولة الذين يقدمون المساعدات الفعالة لهذه الجمعية فقد تم تعيينهم فى أماكن قاصية، حيث عين سليمان باشا فى قيادة قوات الهرسك فى الأسبوع الأول من إعلان الدستور، ثم عين بعد ذلك قائدا عاما إبان الحرب التركية الروسية، وبعد انتهائها بأربعة أشهر تمت محاكمته بتهمة الفاعل المسئول عن الهزيمة الحربية فى الروملى، وقضت المحكمة بنفيه إلى بغداد حيث توفى فيها سنة ١٨٩٢م.(٩٨)

كانت تصفية مدحت باشا أصعب مهمة وأطولها زمنا، إذ بدأت عندما تم عزله من الصدارة العظمى فى ١٢ فبراير سنة ١٨٧٨م حيث نفى إلى أوروبا، ووضعت محكمة يلديز النقاط فوق الحروف لهذه التصفية سنة ١٨٨١م، وذلك بوفاة مدحت باشا مسموما فى الطائف ٦ مايو سنة ١٨٨٤م.

محكمة يلديز

تمت تصفية كبرى لجماعة العثمانيين الجدد فى محكمة يلديز التى انعقدت إبان شهرى يونيو ويوليو عام ١٨٨١م، وظل شخص مدحت باشا قوى الشكيمة، ولا جرم أن بقاء مدحت باشا ومكوثه فيها كان بمثابة ضرر جسيم على السلطان والحكومة كليهما، إذ كان يبذل مساعيه ليتمكن من العودة إلى أرض الوطن، ثم أحيط علما بالعفو عنه فى شهر أغسطس عام ١٨٧٨م، وسمح له بناء على رغبته بالإقامة فى معية عائلته بجزيرة كريت، ثم ذهب إلى منطقة "هاناى" بهذه الجزيرة فى ٢٨ سبتمبر ١٨٧٨م.(٩٩)

---

(٩٨) سليمان باشا زادة، محاكمة سليمان باش جـ١، إستانبول، ص ٧٠ .

(٩٩) بايقال، مدحت باشا، ص ٧١ .

ورغم أن مدحت باشا لم يفكر فى تولى منصب حكومى فى أول الأمر فإنه قبل عرضا يقضى بتعيينه فى ولاية سورية بعد شهرين من قدومه إلى كريت. " وكأن عبد الحميد أراد حقا أن يرد الاعتبار إلى مدحت باشا، بيد أن فقدان الثقة به والارتياب فيه لم تخف وطأتها قط منذ اليوم الذى أقصى فيه السلطان عبد العزيز عن العرش، ومن ثم فقد كان عبد الحميد يشعر دائما بالحاجة الملحة إلى متابعة مدحت باشا واقتفاء أثره حيثما وجد، ولهذا السبب أرسل عبد الحميد رجاله إلى سوريا لتنفيذ هذا الغرض".(١٠٠)

وقد ارتاب عبد الحميد لذهاب السفير الإنجليزى إلى سوريا ولقائه بمدحت باشا هناك، وجاءته تقارير سرية حول قيام مدحت باشا بتأسيس حكومة فى سوريا مما تسبب فى عزله عن ولايتها وتعيينه فى ولاية إزمير".(١٠١)

وفى تلك الآونة أمر عبد الحميد مدير البوليس بالبحث والتحرى عن قتلة عمه عبد العزيز، وتمخض البحث عن تمهيد الطريق إلى محاكمة مدحت باشا، ولما أراد عبد الحميد البحث عن جميع الأشخاص المتسببين فى موت عبد العزيز اعترض مدحت باشا على هذا الإجراء، وكتب رسالة اعتراض إلى السلطان واستقال من عمله فى إزمير، وأوصاه أصدقاؤه المقربون فى إستانبول بالفرار هربا إلى أوروبا. وكان مدحت باشا يوقن بأنه غير ضالع قط فى وفاة عبد العزيز، ولم يرد مغادرة إزمير لعدم شعوره بالخطر على حياته إبان مكثه فيها".(١٠٢)

وقبض عليه وتم اعتقاله، وأرسل السلطان حسنى بك لتنفيذ هذا الطلب، وعلم مدحت باشا بما سوف يحدث عن طريق جاسوس يهودى مستأجر، ولما أنبأه الجاسوس بخبر القبض عليه أسرع من فوره ولجأ إلى القنصلية الفرنسية.(١٠٣)

---

(١٠٠) بايقال، مدحت باشا، ص، ٧٢ .

(١٠١) على حيدر، مذكراتى، ص ٧٢ .

(١٠٢) جريس، ص ١٦٠ .

(١٠٣) على حيدر، مذكراتى، ص ٧٧ .

وثمة زعم يقول بأن مدحت باشا كان يريد الفرار إلى خارج الوطن عن طريق ركوبه على متن سفينة تابعة لشركة إنجليزية تسمى "جولي" كانت تنتظره في الميناء، بيد أنه اضطر اضطرارا إلى اللجوء إلى القنصلية الفرنسية بسبب الحصار الذي فرضه الجنود على دخول الميناء.(١٠٤)

كان لجوؤه إلى القنصلية الفرنسية سببا أخذ عليه فكان في غير صالحه. " إذ كان مدحت باشا أول صدر أعظم في تاريخ الدولة العثمانية يلوذ لاجئا إلى باب دولة أجنبية فهو رجل اضطلع بدور البطل القوي الذي يعتمد على الأمة في كل عمل ضد القصر، ورغم تأكده من الحفاظ على روحه وصونها، فكان لزاما عليه أن يلجأ إلى باب دولة أجنبية حتى لو رأى الظلم بعيني رأسه، ولكن لما كان هذا الصنيع الذي فعله مدحت باشا قبيحا مشينا، اعترف به على هذا النحو في أثناء استجوابه في قصر يلديز حيث قال:" إن ذهابي إلى دار القنصلية الفرنسية هو وصمة عار في تاريخ عمري وأعترف أن ما فعلته هو عمل مشين وعار سيظل لاصقا بأولادي".(١٠٥)

وعلى حين كان مدحت باشا يقر باعترافاته بضلوع حسين بك في تهريبه، ولا سيما ما ورد في كلام جركسي حسن بشأن ترقية علي بك إلى رتبة الجنرال حيث ارتاب في ذهاب حسني بك إلى إزمير بغير زي رسمي واضطلع بإخبار مدحت باشا بأنه سوف يقتل، وشرح له ضرورة اللجوء إلى القنصلية الفرنسية إنقاذا لحياته".(١٠٦)

لجأ مدحت باشا إلى القنصلية الفرنسية في ليلة ١٦،١٧ مايو ١٨٨١م، وحوصرت القنصلية بالجنود، وشرعت تركيا في طلب تسليم مدحت باشا من الحكومة الفرنسية، وعرضت فرنسا رغبتها في تسليم مدحت باشا إلى تركيا؛ بغية إصلاح العلاقات التي سبق أن عكر صفوها بين البلدين بسبب احتلال فرنسا لتونس في تلك الآونة".(١٠٧)

---

(١٠٤) جريس، ص ١٦٠ .

(١٠٥) دانشمند، جـ٤، ص،٣٢٠ .

(١٠٦) أوزون جارشيلي، مدحت باشا ومحاكمة يلديز، ص ٢٥٩ .

(١٠٧) استولت فرنسا على تونس في ١٢ مايو ١٨٨٠م وأخضعتها لسيطرتها.

وأرسل السفير الفرنسي فى تركيا "تيسود Tissod " برقية إلى وزير خارجيته "سينت هيلارى" وناقش فى البرقية الموضوع على النحو الآتى: " لقد كان مدحت باشا دائما العدو اللدود لنا، وهو لم يلجأ إلى القنصلية الإنجليزية التى كان يستخدمها فى كل وقت ضدنا، بل لجأ إلى عملائنا وجواسيسنا لثقته التامة فى توتر العلاقات بيننا وبين إنجلترا فى الوقت الراهن، وتخيم اليوم ظلال من الشك تحول دون تسوية الخلافات بين الدولتين فى الوقت الحاضر، واحتلالنا لتونس من أهم القضايا التى تحظى بأهمية السلطان، إن الغضب من احتلال تونس سوف يظهر جانب العدالة من جهتنا فيما يتعلق بتسليم مدحت باشا".(١٠٨)

وقد أثار أنصار مدحت باشا مزاعم تنفى النزاع الدائر بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا حيث قال السلطان: "إن طلب تسليم مدحت باشا من القنصلية الفرنسية فى مقابل تنازله عن تونس لفرنسا"(١٠٩)، وباتت هذه المزاعم بمثابة اتجاه نحو سقوط صغير للسلطان، ولم تكن ثمة أدلة جازمة تدور حول إعطاء تونس لفرنسا مقابل تسليم مدحت باشا، فالأمر خلاف ذلك، فقد بحثت فرنسا أمر تسليم مدحت باشا حتى لا تلحق الضرر والأذى بعبد الحميد.(١١٠)

وتمت المراسلات المتصلة بهذا الموضوع مع الحكومة الفرنسية حيث اتفق على تسليم مدحت باشا ليكون هذا بمثابة إشارة تدل على رأب صدع العلاقات التى تعكر صفوها بين تركيا وفرنسا، وتم تسليم مدحت باشا من القنصلية الفرنسية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨١م، وجيء بالباخرة إلى إستانبول وحبس فى قصر مالطة، واستمر البحث عن بقية المتهمين بقتل السلطان عبد العزيز، واقتربت أيام انعقاد محكمة يلديز لمحاكمة

---

(١٠٨) بلال شمشير، نهاية مدحت باشا وفق الوثائق الفرنسية، أنقرة ١٩٧٠م، ص ٧٩ .

(١٠٩) المصدر السابق، ص ٩٥، سلانيكى أحمد فائق، ورقة من مناحة الأمة، أو السنوات الأخيرة لمدحت باشا، سلانيك ١٣٢٩هـ، ص ١٢، قوران، فى الإمبراطورية العثمانية، ص ١٣٦– على حيدر، مذكراتى، ص ٧٩ .

(١١٠) جريس، ص ١٦١ .

هؤلاء المتهمين، ولكن لماذا أحس عبد الحميد بشدة حاجته إلى هذه المحاكمة؟ إنه أراد الوقوف على دراسة الأحداث برمتها، وتحرك في هذا السبيل من أجل حماية الأسرة الحاكمة، فقد عاش في الماضي القريب واقعتي إقصاء عن العرش، وشاهد بعيني رأسه فيهما حادثة مقتل عمه عبد العزيز ومرض أخيه مراد الخامس. وأحس بالحسرة والألم لتردي عضوين من الأسرة الحاكمة في هاوية المصير الذي آلا إليه، وبات من الممكن وقوع أحداث جديدة للإقصاء عن العرش، وكأنها باتت عرفا يطيح بالوزراء والعلماء ورجالات الجيش، وليس ببعيد أن يهوي السلطان وعرشه في هاوية خطر جسيم لا مناص منه.

هكذا شرع عبد الحميد من فوره في اتخاذ جانب الحيطة والحذر، ولجأ إلى تأسيس جهاز المخابرات والحكومة المركزية القوية للحيلولة دون حدوث مواقف سيئة وأحوال مشينة يصعب تجنبها، كما اضطلع كذلك بإنشاء محكمة يلديز لتكون بمثابة أداة للترويع والترهيب المفزع لمن تسول لهم أنفسهم التفكير في أفعال متمردة ثائرة تريد قض مضجع الأسرة الحاكمة وتناصبها العداوة والبغضاء.

ولو أن الضالعين بأحداث القتل والإقصاء عن العرش في الماضي القريب تعرضوا لتوقيع العقوبة عليهم لما استطاع أحد كائنا من كان التجرؤ على اللجوء لمثل هذه الأفعال مرة أخرى، لقد أراد السلطان أن يستأصل شأفة أولئك الذين نالوا نصف العقوبة ويقضي عليهم قضاء مبرما، أصبح الشغل الشاغل لمحكمة يلديز هو محاكمة قتلة عبد العزيز، وأنشئت هذه المحكمة بأمر من السلطان الذي لم يصدق قط الزعم القائل بأن عمه مات منتحرا، فهل شاهدوه وهو يقدم على الانتحار؟ إنني على يقين جازم بأن عمي لم يكن قادرا على الانتحار، بل مات غيلة، وإن تقرير الطبيب كان غير جازم في هذا السبيل، وإن أصغر طبيب في أي بقعة من بقاع الدنيا يستطيع الاقتناع بهذا، إذ كيف يتسنى لهذا المنتحر أن يقطع أوردة ذراعيه كليهما؟ وهذا ما شد انتباه الأطباء آنذاك، وورد ذكره كذلك في كتب

الأدباء.[١١١]، إن فكرة الإقدام على عزل عبد العزيز اضطلع بها أول الأمر رئيس الجند حسين عونى باشا، وتدخل مدحت باشا وزمرة أخرى من كبار رجالات الدولة لتأخير تنفيذ هذه الفكرة التى عرضها حسين عونى، ولما كان رئيس الجند عدوا لدودا للسلطان عبد العزيز الذى جرده من رتبه ونياشينه ونفاه إلى إسبرطة، فإنه لم ينس هذه الفعلة، وأضمر الحقد للسلطان وأسر الانتقام فى نفسه، وسرعان ما ثأر لنفسه فى أول فرصة سنحت له، كان حسين عونى شديد الحذر والاحتراس بقدر ما كان حقودا محبا للانتقام، وكان يريد أن يحيا حتى يرى عبد العزيز على قيد الحياة ويعذبه بنفسه، ولا يريد أن يراه منتحرا، ويؤيد هذا رسالة التوبيخ والتعزير التى أرسلها إلى السلطان مراد من قصر طوب قابى.[١١٢]

لم يكن هناك حاكم قد أطيح به قط، وكان الشعب نفسه يرغب فى موت السلطان دون أن يسمع أو يرى أو يبحث فى أسباب ذلك، رأى عبد الحميد كل هذا وأحس به إبان مراسم بيعة السلطان مراد الخامس فى يوم مرضه، وأخذ السلطان عبد العزيز على حين غفلة رغم كثرة أنصاره ومؤيديه، ورأى عبد العزيز مبكرا أن رئيس الجند الماكر اللئيم قد بات أخطر معارض له فى غضون فترة وجيزة، ورأى هذا القائد ضرورة القضاء على عبد العزيز مهما تكن العواقب.[١١٣]

هكذا رأينا كيف استقر فى ذهن عبد الحميد أن حسين عونى باشا هو السبب الأول فى قتل عمه عبد العزيز، وفكر فى عزله وإقصائه، وأعانه قوم آخرون، وقد قام

---

(١١١) كان أحمد مدحت أفندى ممن تحدثوا عن هذه الواقعة، ويقول عبد الحميد: " إن أحمد مدحت كان رجل مدحت باشا، وكان يدافع عن قتل عبد العزيز فى كتابه "أساس الانقلاب"، وكتب عن الانتحار قائلا: "إن الشخص الذى قطع وريده لا يستطيع قطع الوريد السليم بالساعد المقطوع"(أسس الانقلاب، ج١، ص ٢٣٠)

(١١٢) عندما عزل السلطان عبد العزيز جاء إلى قصر "طوب قابى"، ثم بعث برسالة إلى مراد الخامس فى أول يوم من قدومه إلى القصر، وبين له فى الرسالة أن حياته باتت فى خطر، وطلب إليه الانتقال من القصر المذكور إلى قصر آخر، وبناء عليه نقله مراد الخامس إلى قصر "فرية"، ويقول عبد الحميد: "كيف يتسنى لشخص يريد المحافظة على روحه أن يقدم على إزهاق روحه بنفسه".

(١١٣) وداد عرفى، ص ٢٤ .

جركسى حسن بقتل حسين عونى فى ١٥ مايو سنة ١٨٧٦م، أى بعد خمسة عشر يوما من إقصاء عبد العزيز، وكان جركسى مساعدا ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز وشقيقا للنسوة الأربع زوجات عبد العزيز. وقد علم جركسى حسن بأن حسين عونى هو الذى عزل وقتل صهره عبدالعزيز، مما دفعه لقتله ثأرا لصهره، لم يطق عبد المجيد غصة ومرارة قتل أخيه عبد العزيز، وثار فى نفسه شعور قوى بالانتقام له، حتى نفذ جركسى حسن ما أراده عبد المجيد، وعندما علم جركسى حسن بوجود حسين عونى فى اجتماع للوزراء بمنزل مدحت باشا، هجم على الاجتماع بحيلة ماكرة وقتل حسين عونى بمسدسه.(١١٤)

وهكذا أصبح حسين عونى باشا هو المتهم الأول بقتل عبد العزيز فى محاكمة يلديز، عندما اعتلى عبد العزيز عرش السلطنة شرع من فوره فى تصفية الطغمة التى تضطلع بإقصاء السلاطين عن العرش، وهم بعزل "قيصر لى أحمد باشا" من قيادة الأسطول البحرى فى يناير ١٨٧٧م، وعينه فى عضوية مجلس الأعيان، وعندما بدأت الحرب التركية الروسية أرسله إلى ولاية "طونة".

ولما وضعت الحرب أوزارها لم يأذن له بالعودة من هنالك إلى إستانبول، ثم توفى بمرض القلب فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٨م.(١١٥)

وكان شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى أحد الذين كان لهم ضلع كبير فى عزل عبد العزيز، فعزله السلطان من منصبه سنة ١٨٧٩م، وأرسل به إلى المدينة المنورة ليعمل فى خدمة الحرم النبوى تلبية لرغبته، وعندما بدأت محاكمة يلديز جىء به إلى إستانبول لمحاكمته.(١١٦)

---

(١١٤) دانشمند : ج٤، ص ٢٨٠ – ٢٨٢ .

(١١٥) إسماعيل حقى أوزون جارشيلى، الأمر السلطانى بشأن قيصر لى أحمد باشا، مجلة بلله تن، جـ٨، عدد ٢٥، ٢٧، ١٩٤٣، ص ٥٤٠– ٥٤١ .

(١١٦) أوزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلديز، ص ١٣٥ .

أما" منجم رشدى باشا " فقد خضع رهن الإقامة الجبرية فى مزرعته الكائنة فى "مانيصة" إبان الأيام التى نفى فيها مدحت باشا إلى أوروبا.(١١٧) ولكنه لم يظهر فى محاكمة يلديز، بل جيء به إلى إزمير حيث أدلى بأقواله فى منزل الوالى، ثم قفل عائدا إلى"مانيصة" بسبب مرضه حيث توفى فيها.(١١٨)

وأقدم كذلك عبد الحميد على إبعاد "داماد محمود باشا " زوج أخته "سانحة سلطان"، وعين فى وظيفة بولاية طرابلس الغرب، ثم جيء به فى معية نورى باشا من أجل محاكمة يلديز وتم حبسهما فى القصر.(١١٩)

بدأت جلسات المحكمة فى ٢٧ يونيو ١٨٨١م لمعاقبة المتهمين الآخرين المعتقلين، وعقدت المحكمة داخل خيمة منصوبة داخل القصر، واختار السلطان لهذه المحاكمة ثلة من القضاة العدول الأكفاء، وتكونت هيئتها من خمسة أعضاء، ثلاثة مسلمون واثنان من النصارى.(١٢٠) ولم تكن هناك سرية فى عقد جلسات المحكمة، " وعقدت جلساتها علانية"(١٢١)، حيث كانت المحكمة مفتوحة لكل الناس، ويتابع جلساتها كل من يريد من مترجمى السفارات(١٢٢)، وسمح بمنح المحامين فرصة للدفاع عن موكليهم من المتهمين، ورغم العلانية التى تمت فيها جلسات المحاكمة، فإنها وقعت فى بعض الشبهات التى شابت جلساتها، وذلك بسب انعقادها فى قصر يلديز مما عرضها لظروف غير عادية.

(١١٧) على حيدر، اللائحة والاستطراد، ص ٦٠ .

(١١٨) أوزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلديز، ص ١٦٧ .

(١١٩) على حيدر، اللائحة والاستطراد، ص ٤٦ .

(١٢٠) جريس، ص ١٦٣ .

(١٢١) أحمد فائق، ص ١٦ .

(١٢٢) على حيدر، اللائحة والاستطراد، ص ٦٢ .

أما أنصار مدحت باشا ومؤيدوه فقد رأوا أن المحاكمة لا تصطبغ بصبغة العدل، وأن هيئة المحكمة تابعة منقادة للأوامر التى تتلقاها من السلطان فى إصدار أحكامها، فضلا عن استعانتها ببعض الشهود الكاذبين المزورين.(١٢٣)

وقد بحث هذه المسألة السفير الإنجليزى لدى الدولة العثمانية " هنرى إليوت"، وهو أحد رجالات مدحت باشا حيث كتب فى مذكراته يقول:" إن المحكمة ما هى إلا شرك نصبه عبد الحميد ورتب له جيدا، وإذا كان عبد الحميد قد لوث العدالة وشوه سمعة سلطنته(١٢٤) بهذه الفعلة فإن مزاعمه مرفوضة، ولا يستطيع ممارسة الضغوط والقهر على الشعب"(١٢٥)، لقد تمت المحاكمة فى قصر يلديز بعد فحص دقيق وتفتيش سرى من إدارة البوليس وتم إلقاء القبض على الضالعين فى قتل عبد العزيز ومنهم: بهلوان مصطفى وجاحى محمد وجزايرلى مصطفى، وهؤلاء الرجال كانوا من الأوفياء المخلصين لمراد الخامس، وقائد الجند حسين عونى باشا، ثم وقعت حادثة موت عبد العزيز ذات ليلة عندما أخذ القائمون على خدمته مائة ليرة على سبيل الرشوة، وهو مبلغ كبير إذا ما قورن بظروف المعيشة فى هذه الأيام.(١٢٦)

ويتبين من أقوال المتهمين وشهادتهم أن أحد خدام عبد العزيز ويدعى فخرى بك قد أمسك عبد العزيز من الخلف، ثم جلس كل من حاجى محمد وجزايرلى مصطفى عند رُكبتيه، وأمر داماد محمد باشا بهلوان مصطفى بقطع رسغ ذراعى عبد العزيز ليكون دليلا على انتحاره، وبعد تنفيذ القتل عجز الجناة عن العثور على الباب الذى دخلوا منه، بيد أن جزايرلى مصطفى قد فر هاربا من نافذة القصر(١٢٧)، وتم استجواب كل من شارك فى هذه الحادثة من المتهمين أو من تدور حولهم الشبهات، كما استمع كذلك

---

(١٢٣) بايقال، مدحت باشا، ص ٧٩ .

(١٢٤) إليوت، ص ٣١ - ٣٢ .

(١٢٥) جريس، ص ١٦٥ .

(١٢٦) وداد عرفى، ص ٢٤ .

(١٢٧) أورزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلديز ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

إلى كثير من الشهود داخل القصر وخارجه، ورفضت المحكمة أيضا كل المزاعم التى أدلى بها المتهمون الضالعون فى جريمة القتل، ورفض مدحت باشا رأى المحكمة، كما استجوبت المحكمة المتهمين غير المباشرين والضالعين بالمسئولية المعنوية عن الحادث، ولما انتهت محكمة يلديز من عقد جلساتها أصدرت حكما بالإعدام على كل من: مدحت باشا ومحمد باشا والمترجم رشدى ونورى باشا وبهلوان مصطفى وحاجى محمد وجزايرلى مصطفى وفخرى بك وعلى بك ونجيب بك، كما أصدرت حكما بالأشغال الشاقة مدة عشر سنوات على كل من : سيد بك وعزت بك، وعندما تم التصديق على قرارات المحكمة حدث رد فعل قوى من قبل سفراء الدول الغربية فى إستانبول، وشاع الخبر وذاع حتى بلغ مسامع البرلمان الإنجليزى والصحافة الإنجليزية، وسرعان ما طلب السفير الإنجليزى" اللورد دافرين " إلى السلطان الالتماس بالعدول عن قراره بإعدام مدحت باشا، وقال له لو نفذ الإعدام فلسوف يثير الرأى العام والأوساط الشعبية[١٢٨]، كما تدخلت ملكة إنجلترا لوقف تنفيذ الحكم[١٢٩]، ويقضى القانون بتنفيذ أحكام الإعدام بعد موافقة السلطان عليها، وعقد عبد الحميد اجتماعا فى القصر السلطانى جمع فيه هيئة مكونة من خمسة وعشرين شخصا، ورغم موافقة خمسة عشر عضوا على التصويت بالإعدام، فإن السلطان لم يوافق وغير الحكم إلى السجن المؤبد.[١٣٠]

وإن تخفيف الحكم من حرص السلطان على اجتناب سفك الدماء وإدخال الحزن والحسرة فى نفس إنجلترا.[١٣١]

كل هذه الأشياء لم تسطع محو حادثة القتل من ذهن عبّد الحميد، وكان يقول فى هذا السياق:" لقد قتل عمى جهارا نهارا".[١٣٢]

---

(١٢٨) على حيدر، مذكراتى : ص ١٠٥ .

(١٢٩) شمشير، ص ٦١ .

(١٣٠) أوزون جارشيلى، مدحت باشا ومحكمة يلديز، ص ٣٢٩ .

(١٣١) دانشمند، جـ٤، ص ٣٢١ .

(١٣٢) جريس، ص١٥٩ .

إن المزاعم التى تقول بأن عبد العزيز انتحر أو قتل قد تجاوزت كل حدود دراستنا وتمحيصنا لتعميق هذه المزاعم، إن هذه الأبحاث تدنو أكثر بحذر إلى بحث هذا الموضوع فى نطاق علمى خارج عن حدود التواريخ الرسمية المكتوبة التى توافق مزاعم أنصار مدحت باشا ودفاع الإنجليز حول مسألة الانتحار، ويتوجب علينا أن نقول فى هذا المقام: إن المؤرخين عامة هم مفكرون يرون ضرورة الوقوف على حادثة القتل، حتى إن ما ورد فى كتاب "أوزون جارشيلى" ومقالاته هو شىء اضطرارى لتقديم نوع من الدفاع فى موضوع الانتحار يعتمد على فهم واضح للتاريخ الرسمى الذى تمت فيه الواقعة، وإن ما قدمه المرحوم" جارشيلى " من اهتمام علمى بهذه الحادثة ليس إلا أدلة وبراهين تؤيد وتعضد موضوع القتل، ولما تم تغيير حكم الإعدام الذى أصدرته محكمة يلديز إلى السجن المؤبد، أرسل المحكوم عليهم إلى قلعة الطائف لتنفيذ الحكم.

وفاة كل من مدحت باشا ومحمود باشا فى الطائف

كان قتل كل من مدحت باشا وداماد محمود باشا مخنوقين فى حجرتهما بالطائف ليلة ٦،٧ مايو ١٨٨٤م بمثابة اتهام ألصق بالسلطان عبد الحميد، وشرع أنصار الرجلين والمقربون منهما بترويج دعاية فحواها أن السلطان أمر بقتلهما خنقا، وتفيد مزاعم ابن مدحت باشا أن والده قد تدخل فى تهريب الشيخ ابن الرشيد الذى كان يحبه.

وتمت مراسلات سرية(١٣٣) فى هذا الصدد بين كل من عبد المطلب شريف مكة ومدحت باشا تحت وطأة نفوذ الإنجليز الذين طلبوا إلى مدحت باشا التدخل لدى السلطان وتخويفه، وفى نهاية الأمر ظهرت فكرة قتل مدحت باشا.(١٣٤)

---

(١٣٣) وداد عرفى، ص ٢٤ .

(١٣٤) على حيدر، مذكراتى، ص ١٣٦ .

ولكن البرقية التى أرسلها المدير العام لمكتب تلغراف الحجاز "على رضا بك" إلى القصر قد سببت قلقا كبيرا، وورد فيها ما يفيد بأن مدحت باشا سوف يتم تهريبه إلى إنجلترا عن طريق سفينة حربية إنجليزية موجودة فى ميناء "سواقان" السودجانى، وزاد من حدة هذا القلق ما طلبه السفير الإنجليزى من السلطان من معلومات بشأن حماية المحكوم عليهم فى الطائف وتوفير الراحة لهم.

ويرى" مدحت سرت أوغلو" أنه قد اتخذ قرارا بعد هذه التدخلات بقتل مدحت باشا وداماد محمود باشا كليهما، وعهد السلطان إلى والى الحجاز عثمان باشا بتنفيذ هذه المهمة، وإذا كان السلطان أراد أول الأمر قتل الرجلين بالسم فإنه عدل عن تنفيذ هذه الخطة، وفى النهاية قتل الرجلان خنقا، وورد فى التقرير المرسل إلى إستانبول أن مدحت باشا مات ميتة طبيعية بسبب مرض الجمرة الخبيثة، وتوفى داماد محمود باشا بمرض فى القلب، لقد قرر السلطان قتل هذين الرجلين لشدة خوفه من إنجلترا والذى لازمه طوال حكمه والذى استمر ثلاثة وثلاثين عاما.

ولكن السلطان رفض مزاعم القتل المنسوب إليه آنفا، وتفيد الكتابات التى دونها عبد الحميد أنه عندما وصل خبر إلى القصر يفيد بأن مدحت باشا وداماد محمود باشا سيتم تهريبهما خارج الوطن بواسطة جهات أجنبية، استقبل السلطان الخبر بالحيطة والحذر وأحاط عثمان باشا بالموقف وأعلمه بأنه إذا هرب الرجلان فإن المسئولية تقع على كواهل القائمين على حراستهما، وطلب فى هذا الصدد عدم تضييق الخناق على المحكوم عليهم، ولكنه لم يأمر قط بقتل الرجلين، بل رغب فى اتخاذ التدابير اللازمة ليس إلا، ولكنه وقع فى المحظور وقتلهما.

فماذا عسى أن يكون سبب قتلهما؟ من المحتمل أن يكون الحراس المكلفون بحراسة مدحت باشا أرادوا اتقاء شره وشر محمود باشا حال البقاء على حياة كليهما، ومن ثم فإنهما رأوا أن إحداث هذا الشىء الواقع يتفق مع سلامتهم ومنفعتهم الشخصية المحصنة، ولقد علمت من التقارير التى وصلتنى أنهما ماتا ميتة طبيعية.(١٣٥)

(١٣٥) وداد عرفى، ص ٢٥ .

وقد أصــر عبد الحميد على أنه لم يأمر بقتل الرجلين حيث يقول: لا "وهذه حقيقة لا مرية فيها، فقد كنت أخجل من مدحت باشا وأتجنبه فى كل وقت وآن، إنه إنسان بلغ من ذيوع الصيت مبلغا عظيمـا حتى إنه عندما صدر قرار حكم بإعدامه رأينا وجوب حمايتـه والمحافظة على حياته، فلماذا آمر بإعدامه وأية فائدة مرجوة من وراء هذا؟ لاجـرم أنه ظهـرت ثلة من بين الشـهـود هم من ألد أعدائى الذين باتوا يقفـون ضـد منفعتى، ولا يعودون علىَّ بالنفع والفائدة، وإذا لم يموتوا ميتة طبيعية فلا جرم أننى لست ضليعا فى هذه المسألة".(١٣٦)

كان السلطان فى مزاعمه يعانى صعوبة شديدة حتى يجعلنا نقبل بأنه محق فى دعواه وزعمه.

" لقد اضطلع القتلة بتنفيذ عملية القتل بمهارة وإتقان، ومن ثم أرادوا إلقاء التهمة على ويحملونى وزر دم هذين الرجلين، وإن الموت لا يمكن أن يمحو هذا الإثم".(١٣٧)

"ورأيى فى هذه الواقعة يرتبط ارتباطا وثيقا بحمية المؤتمرين بالأمر وحماسهم بصورة قاطعة لا مراء فيها، وقد أرادت السلطة المحلية الحاكمة أن تبدد النجاح الذى حققته وتدس أنفها كى تتمكن من استئصال شأفة المحكوم عليهم والقضاء عليهم، ولا جرم أن من المتعذر ظهور مثل هذا الاتجاه، فأنا أعرف جيدا أرض الحركة التى تتحرك فيها إدارتنا الحاكمة المهيمنة، وكيف تسير الأمور دون أن أتدخل فيها، وليس ثمة شىء قط يمكن أن يبرئنى من هذا الاتهام فى عيون أولئك الذين يريدون إظهارى متهما ذا جريرة "(١٣٨)، لقد تعذر حتى الوقت الراهن العثور على أية وثيقة دامغة تدور حول إصدار السلطان عبد الحميد أمرا بقتل هذين الرجلين، ولو فرضنا جدلا أنه أمر بمثل هذا فإن من البديهى أنه لن يترك أية وثيقة تدل على هذه الفعلة وتبرهن عليها.(١٣٩) وإن

---

(١٣٦) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ١٨٥ .

(١٣٧) جريس ص، ١٨٧ .

(١٣٨) جريس، ص ١٨٧ .

(١٣٩) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٢٧٨ .

ما ورد في المصادر الغربية بشأن هذه المسألة يجب النظر إليه بعين الحيطة والحذر، ويكون التعامل مع هذه المصادر على سبيل الظن والتخمين.(١٤٠)

الرقابة على المطبوعات

بات تطبيق سياسة الرقابة على المطبوعات من أهم الموضوعات المنتقدة في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني، وما انفكت جماعة تركيا الفتاة التي ناضلت من أجل الدستور تلقي بالتبعة على كاهل عبد الحميد في سلوكه هذا المسلك، ولننظر مليا فيما كشفت عنه الأقدار، فبعد فترة وجيزة من الثورة التي أشعلتها جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م وبدأوا بدورهم في تطبيق سياسة الرقابة على المطبوعات ضد من يسيء استخدام حرية الصحافة، وكان هؤلاء طائفة من الساخرين المستهزئين في صحيفة المرآة مما يُفعل بمراد الخامس إبان عصر عبد الحميد، وكان هذا سببا في أنهم أطلقوا اسم" التنين" على صحيفة " طنين "، واسم"جتين" أي القاسي على صحيفة "رنين".

كان عبد الحميد يدافع عن حقه في اتباع سياسة الرقابة على المطبوعات كما هو الشأن في كل سياساته، و لا جرم أنه كان ضد هذه السياسة، بيد أن ظروف الأمة لم تكن مواتية أو ناضجة بالقدر الذي يمكنها من القضاء على حرية الصحافة المطلقة غير المحدودة، ويكتب عبد الحميد في مذكراته فيقول:" إن الرقابة على المطبوعات عندنا هو شيء لازم لا مناص منه، وإن منتقديه آثمون خاطئون، فليس لدينا مؤسسات يمكنها المناقشة والجدل كما يحدث في أوروبا، ولما كانت الثقافة في أوروبا أكثر ذيوعا وانتشاراً كان من الطبيعي أن تستقبل المطبوعات بالنقد والتفنيد أما عندنا فإن الكثرة

---

(١٤٠) دافيسون، ص ٩٢ .

الكاثرة من شعبنا لم تزل جاهلة غرة ساذجة، ونحن مضطرون إلى معاملة رعايانا معاملة الأطفال، ولا فرق بين الأطفال والكبار فى حقيقة الأمر.

وإذا أمعنا النظر فى عدم استحواذ الأبوين والمربين والشباب على المطبوعات الضارة، فإنه يتوجب على حكومتنا أن تبعد كل شىء يسمم أفكار الشعب، وإن الدخول فى دائرة الروايات الكثيرة المترجمة عن الفرنسية يصبح شيئا مريرا أليما يفسد القلوب والأفكار، ولم يبادر الترك بإدخال مثل هذه المطبوعات، بل اضطلع بها الفرنسيون والروم والأرمن من أجل اللهو والتسلية ليس إلا.

فهؤلاء الأرمن والروم هم أناس مفسدون أرذلون، ورواياتهم ومسرحياتهم تناقض الحقيقة ولا تمت إلى الواقع بصلة، وإذا ما نشرت هذه الأشياء فى الصحف دون خضوعها للرقابة فإنها سوف تخلف تأثيرا سيئا فى نفوس الشعب، ومن حقنا الرد على كل هذه الأفكار الأجنبية الغربية وتفنيدها ودحض حججها، لا جرم أن أمتنا معرضة بما فيه الكفاية لكل ضروب الاتهامات والافتراءات، وهذا ما فرض علينا الاستمرار فى الرقابة على المطبوعات للأسباب التى بيناها آنفا"(١٤١).

لم يأذن السلطان للصحافة بأن تتبنى أى رأى أو فكر يمكن أن يضر بديمومة السلطنة أو بوحدة الأمة وأمنها واستقرارها، وشرع عبد الحميد يناضل باستهجان ضد من شرعوا فى اتخاذ الصحافة تيارا يسبحون معه فى تلك الأيام.

كان الحاكم العام أنور باشا يمر على السلطان فى أخريات أيام عمره ويزوره فى القصر، وذات يوم جلس مع عبد الحميد وقال له:" ولدى أنور، لقد قضيت فى السلطنة ثلاثة وثلاثين عاما كنت خلالها مؤيدا ونصيرا دائما لحرية الفرد وشخصيته، بيد أننى لم ترقنى قط الحرية المطلقة غير المقيدة، كما أننى لم أسمح قط باستحواذ الأفكار السرية الموجودة بين المقالات والصور المستهجنة التى راجت كثيرا، ولم أكن مؤيدا لإلحاق الفساد والتفسخ بأعرافنا وتقاليدنا القومية"(١٤٢).

---

(١٤١) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(١٤٢) أرتورك، ص ١٥٩ .

" تتجلى الحياة الفكرية النابضة بالروح والحياة لعبد الحميد إبان طفولته المبكرة، أى ما بين ثمانية إلى عشرة أعوام، وإذا كان يدقق ويمحص بشكل جلى واضح فى كل صغيرة وكبيرة بدءا من مناقشات الدستور وانتهاء بالمشكلات والقضايا الاجتماعية، فَهُوَ لم يضيق الخناق على وسائل النشر الأجنبية، بل كان الأمر على خلاف ذلك حيث تميزت بزيادة مطردة".(١٤٣)

ولكن الرقابة وتضييق الحصار على الطباعة والنشر بدءا يظهران جليا فى أوائل ١٨٩١م، وإذا أمعنا النظر مليا ألفينا أن هذه الأعوام كانت بمثابة بداية حركات التمرد والثورة والعصيان ضد الحكم، فظهر على سبيل المثال إرهاب الأرمن والبلغار وغيرهما من حركات التمرد، وهى فى معظمها حركات انفصالية كادت تعصف بوحدة الأمة وتهدد أمنها واستقرارها.

أمضى السلطان هذه الحقبة فى حالة من اليقظة التامة والانتباه ضد المخاطر والتهديدات التى تتأتى من المطبوعات وتعمل ضد الإدارة المركزية والحكم المطلق، ورأى السلطان أن يضطلع بنفسه للعمل على استمرار حياة الدولة وحماية بنية الأمة والحفاظ على سلامتها، وصيانة السلطنة ضد المخاطر التى تحيط بها من كل جانب وتتربص بها الدوائر، ولهذه الأسباب جميعا كانت الصحف الصادرة فى إستانبول تخضع للرقابة الصارمة قبيل نشرها، كما كانت ترسل بروفات المقالات الصحفية إلى إدارة المطبوعات قبل النشر، ثم تطبع بعد ذلك فى مديرية الطباعة بعد خضوعها لرقابة شديدة.(١٤٤)

كانت الصحف الصادرة داخل الوطن تخضع للرقابة فى القسم الداخلى لإدارة المطبوعات، وكان" حفظى بك" مديرا لهذا القسم، حيث يخطط بنفسه على البروفات التى تأتيه ثم يقرر ما ينشر فيها وما لا ينشر، ثم تختم البروفات بالخاتم، وترد بعد ذلك إلى الطباعة.(١٤٥)

---

(١٤٣) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٤٠٤ .

(١٤٤) تحسين باشا، ص ١٧ – ١٨ .

(١٤٥) وداد جلبى إيزبوداق، المذكرات، إستانبول ١٩٤٦م : ص ٤٥ – ٤٦ .

أمـا" نيـشـة أفندى" الأرمنى الأصل فكان مـديرا للقـسم الخـارجى فى إدارة المطبوعات، ويضطلع بمراقبة الصحف المنشورة باللغة الفرنسية، وثمة موظف تقتصر مهمته على الرقابة على دور المسرح، وهو تابع لإدارة البوليس.[١٤٦]

وكانت المقالات غير السياسية المنشورة فى الصحف والمجلات تخضع قبل أى شىء للبحث والتمحيـص والمنـاقـشـة، ويحـظر كتابة أخبار تتعلق بالثورة أو التمرد أو التـآمر أو الحرية، كمـا راجت أخبـار كانت تهاجم بحماقـة وبلاهة الروم والبلغار الموجودين فى منطقة البلقان.[١٤٧]

" لم يكن لعبـد الحمـيد طاقـة لأن يتـحمل كلمتين اثنتين، همـا العزل عن العرش والحرية، فكان يخشى العزل ويفكر كثـيرا فيمـا حدث لعمه وأخيه ويقول: "إن الذين اضطلعوا بالثورة عليهمـا هم الذين أظهروا فى الوجود ألفاظ الحرية المطلقة"، وكان يخاف من الحرية ويقول فى هذا الصدد:" إن الذين يريدون الحرية سوف يطلبون خلعى من العرش لا محالة"[١٤٨]، وكان أشد خشية كذلك من وارثىْ العرش المتمثلين فى أخويه مراد ورشاد أفندى كليهما. "ولم يكن يطيق سماع اسم رشاد ألبتة، ونجم عن هذا أن كتبت كل أسماء رشاد" نشأت"، وكل أسماء مراد" مرآت".[١٤٩]

ولم تكن للسلطان قائمة رسمية بالألفاظ الممنوعة، بل كانت هذه الألفاظ الممنوعة تنشر وتنشأ من عقول القائمين على الرقابة على المطبوعات. "وهكذا ظهر ما يسمى بقائمة الكلمات الممنوعة".[١٥٠]

(١٤٦) سميح ممتاز، ص ١٩٠ .

(١٤٧) المصدر السابق، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

(١٤٨) المصدر السابق، ص ٥٩ .

(١٤٩) مايقون، ص ٨١ .

(١٥٠) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٤١٠ .

حتى وصل الأمر إلى أن السلطان نفسه بدأ يضيق ذرعا بسبب تجاوزات وطغيان القائمين على رقابة المطبوعات، وعندما كان السلطان يتابع برنامج أوبريت إحدى الفرق الفرنسية تميز غيظا وتوترت أعصابه من الأغانى التى وردت فيها كلمة الحرية La liberte، وكان يتم إغلاق الصحف التى لا تتبع قواعد الرقابة وأسسها، ثم يؤذن لها بالنشر ثانية بعد مدة، كان عبد الحميد يتعقب باهتمام المطبوعات الخارجية والداخلية على حد سواء، ويدعو مراسلى الصحف المحلية والأجنبية إلى القصر لاستخدامهم لصالحه، ويتلطف معهم ويجاملهم ويكرم وفادتهم(١٥١)، وينعم عليهم بالأوسمة والعطايا المالية(١٥٢)، كان السلطان يستحوذ على الأموال الخاصة بطباعة الصحف الأجنبية ويفصلها عن المخصصات المالية، ويشترى المراسلين والصحف التى تنشر شيئا ضد تركيا، كما كان يشترى لقصر يلديز كثيرا من المراسلين الأجانب الموجودين فى تركيا.

وكان هناك قسم كبير من الصحف يوقع عقوداً للاشتراك مع الصحف الأجنبية، ولا يتردد السلطان فى بذل جهده لشراء أسهم هذه الصحف كى يستميلها لتأييده، أو يجبرها قسرا على ألا تكتب ضده على أقل تقدير، لا سيما أنه اهتم كثيرا بالصحف الأجنبية الكبيرة مثل التايمز وغيرها، وتم تخصيص ألفين وستمائة ليرة تصرف كل شهر من الخزانة الخاصة على الصحف الأوروبية وأجهزة المخابرات الأجنبية.(١٥٣)

كما اضطلع" صالح منير باشا" سفير تركيا فى باريس بشراء بعض الصحف الفرنسية التى تنشر مقالات ضد السلطان عبد الحميد.(١٥٤)

أما الرقابة على الكتب، فكانت تنشر أحيانا قائمة بأسماء الكتب الممنوعة، وتُلحق بأسماء المجلات والصحف الممنوعة.

---

(١٥١) سميح ممتاز، ص ١٩١ .

(١٥٢) تحسين باشا، ص ١١٦ – ١١٨ .

(١٥٣) إيز بونداق، ص ٤٦ .

(١٥٤) على سعيد باشا، ٢٣ .

وفى سنة ١٩٠٢ م نشرت قائمة بأسماء الكتب الممنوعة التى تزيد صحفها على خمس وتسعين صحيفة، وأدرج فى دائرة هذه الكتب الكتاب الذى كتبه أحمد مدحت أفندى المسمى"أسس الانقلاب " وكتاب "قصص الأنبياء" لأحمد جودت باشا.(١٥٥)

وربما لم يعلم السلطان شيئا عن هذه القائمة، ولعل المتزلفين إليه أرادوا أن يضعوا نصب عينيه هذه القائمة وهم متفاخرون.

إذا أمعنتم أيها القراء النظر مليا فى هذا الكتاب الذى بين أيديكم بين عامى ١٩٩٤-١٩٩٥م، لرأيتم أن هناك نظاما رسميا لتأسيس تركيا الديمقراطية، ولقد نشرت قائمة بالمطبوعات الشخصية المحظورة بحجة حماية مبادئ المنتسبين إلى هذا النظام، حتى إنه يوجد بين هذه القائمة طائفة من الكتب الدينية التى يحظر على كل إنسان قراءتها، وبناء عليه فيتوجب علينا ألا نتعجب لقائمة النشريات المحظورة المعدة باسم عبد الحميد بين عامى ١٨٩٤-١٨٩٥م، وألا ننسى كذلك صعوبة الوصول إلى نقطة إيجابية تتعلق بهذه النشريات المطبوعة، فكل شىء فى هذا النظام يجب أن يخضع للرقابة، ولا سيما أن هذا يشعر المرء بالتمييز بين ما هو مفيد وغير مفيد بالنسبة للمجتمع.

وعلى حين سعت جماعة تركيا الفتاة إلى مهاجمة السلطان عبد الحميد، فإنهم باتوا يقومون تصرفاته من زاوية الحريات فحسب، ولو تم العمل بهذه الحريات وتحقيقها على الوجه الأمثل (يعنى لو استطاع كل إنسان التصريح والكتابة بما يريد)، أكان من الممكن العثور على حل لقضايا الدولة العثمانية ومشاكلاتها ؟ ألا يوقعنا هذا التطبيق فى صدام مع نظرية تحرير الأمة وإنقاذها؟ فقد ترون الدولة العثمانية فى هذه الهاوية إبان عصورها الأخيرة، حيث كانوا يجهرون بألفاظ الحرية دون حدود مقيدة مما عجَّل بالدولة إلى حقبة من التمزق الداخلى.

---

(١٥٥) عثمان نورى أرجين، تاريخ المعارف التركية، جـ٢، إستانبول ١٩٧٧م، ص ٨٥٢ .

وهو أمر لا سبيل إلى اجتنابه والحيلولة دون حدوثه، ونجم عنه حدوث الحركات الانفصالية المضرجة بالدماء، وبات المناخ مهيأ للتدخل فى شئون أوروبا أكثر من ذى قبل[١٥٦]، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تفوقت المقاطعات المسلحة من الإمبراطورية العثمانية لأسباب تاريخية ودينية، وكانت هذه المقاطعات تشعر بأن تفوقها يعتمد على العناصر الاقتصادية والتعليمية للنصارى، وهذا يعنى أن الاشتغال التام بهذه الحريات لا يؤدى إلى نتيجة متمخضة عن موقف طفيلى لمجموعة من أصحاب الأهداف المؤثرة الفعالة، ولا سيما أنهم كانوا ذوى تأييد سياسى ناجم عن غلبة رءوس المال الكبيرة فى أوروباوتفوقها، أمن الممكن قبول نظام حكم يقوى الأقلية ويعضدها ضد الأغلبية التى تمثل ثلثى السكان؟ لقد أجابت السلطة الحاكمة بالنفى عن هذا السؤال سواء أكان ذلك قبيل عبد الحميد أم بعده، وهناك نموذج من الحكام العثمانيين كان على حق فى اختيار تحديد مفهوم للحريات بدلا من فقدان الدولة العثمانية وضياع هُويتها، وكانت هناك نظم حاكمة فى أوروبا تستخدم الرقابة على المطبوعات وتطبقها بحذافيرها فى مستعمراتها الأوروبية، وإن هذه النماذج تمنح الحق لحكام الشرق الذين ينظرون للوقائع والأحداث من زاوية عملية.[١٥٧]

عبد الحميد الثانى والماسونية

كانت الماسونية إحدى المؤسسات التى لم يُعرها السلطان عبد الحميد اهتماما حقيقيا، وكان يعتبرها إبان فترة إمارته مؤسسة لها جذور فى الخارج، وتنحصر فى الدول الأجنبية والعناصر غير المسلمة فى الإمبراطورية العثمانية، ولم ترحب الماسونية بقدوم السلطان عبد الحميد على الإطلاق، كما اضطلع الماسونيون بتدبير الدسائس والحيل السرية من أجل خلع عبد العزيز وإقصائه عن العرش، وكانوا

(١٥٦) وتجلى هذا بوضوح عقب إعلان المشروطية الثانية .

(١٥٧) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٤٠٣ .

ضـالعين كذلك بتدبير حـركتي تمرد وعصـيـان إبان السنوات الأولى من سلطنة عبد الحميد الذى تصدى بعد ذلك بعنف للماسونيين.

لم يكن عبد الحميد مسروراً لكون أخيه مراد الخامس مات ماسونيا، كما رفض اقتراح الماسونية الذين أشاروا عليه باعتناق الماسونية.

أما ولى العهد مراد فقد تعرف على" كلاننى صاقليرى " الأستاذ العظيم للجمعية الماسونية، ثم توطدت عُرى الصداقة بينهما حتى أصبح مراد الخامس ماسونيا بناء على وصية صاقليرى.

وذات يوم عرض مراد على عبد الحميد فكرة دافع فيها عن استطاعة الماسونية العيش فى جو من الأخوة تحت سقف الأمم المتباينة للإمبراطورية العثمانية، وطلب إليه الدخول فى الجمعية الماسونية.

ولكن عبد الحميد أبى، وأخذ الماسونية مراد رهينة مستفيدين من سذاجته، وكذبوا عليه بمزاعم الأخوة قائلين له لا يليق بالماسونية أن يكون خليفة المستقبل هو ولى العهد داعين مراد ليكون الأمير العثمانى الحقيقى.(١٥٨)

وقد بذل الماسون جهدهم إبان عصر عبد الحميد من أجل نشر التقاليد الغربية وفكرة الحرية وتغريب الشعب، وعملوا لحساب الإنجليز من أجل انقسام الجيش على نفسه والتحريض على التمرد والعصيان بين جنوده، كما أنهم اضطلعوا بالاتحاد مع اليونانيين والبلغار للإطاحة بعبد الحميد الذى خلعوا عليه لقب" المستبد".(١٥٩)

يرى الماسونى" كمال الدين آباقة " صاحب كتاب" تاريخ الماسونية التركية " أنه لم يشهد تاريخ تركيا رجلا مثل عبد الحميد الذى تعقب الماسونية، ووضعها تحت المراقبة الصارمة وضيق عليها الخناق(١٦٠)، وثمة أسباب أخرى دفعت السلطان إلى التصدى

---

(١٥٨) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٨١ - ٨٢ .

(١٥٩) كمال الدين آباق، تاريخ الماسونية بمعالمها الرئيسية فى تركيا، إستانبول ١٩٥٨م، ص ٣٣ .

(١٦٠) كاظم قرة بكير، لماذا دخلنا الحرب العالمية، وكيف دخلنا وكيف أدرناها، إستانبول ١٩٣٧م، ص ٩٥ .

بقوة إلى الماسونية، لقد باتت الماسونية بمثابة طغمة فاسدة انبثقت عن عصر الاستعمار ولم تزل أداة فى يد الدول الاستعمارية مثل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها حتى تفوز بمستعمرات جديدة أو تتمكن من السيطرة والاستحواذ على المستعمرات الموجودة.

ثم تحولت الماسونية إلى أوكار تعمل على تحقيق آمال العناصر الانفصالية ورغباتها التى تعيش فى حمى الدولة العثمانية وبنيتها.

" وجدت الماسونية فائدة جمة فى استخدام شعار علمى إنسانى ليكون بمثابة قناع وستار حتى يتسنى لها السيطرة على الأماكن المختلفة بأقل قوة ممكنة مما ييسر لها احتلال أماكن أخرى لتكون مستعمرات تخضع لهيمنتها.

وعلى سبيل المثال فما أن وَطِئَ الإنجليز أرض بلاد الهند حتَّى أصبح الحاكم الأمير"راجا" ماسونيا، وما لبث كبار رجال الدولة البارزين أن باتوا جميعا منتمين إلى منظمات ماسونية، وكان الفرنسيون والإيطاليون فضلا عن الإنجليز والدول الصغيرة المتمدنة قد وضعوا فى حسبانهم أن المنظمات الماسونية هى مؤسسات مناسبة تماما لتحقيق آمالهم السياسية المرجوة"(١٦١)، كان الإنجليز قد شرعوا فى استخدام الماسونية بدءا من عصر التنظيمات، أما الألمان فقد انضموا إلى الماسونية فى أوائل ١٩٠٠م عندما عقدوا اتحاداً مع جمعية تركيا الفتاة ضد السلطان عبد الحميد، كما أظهرت المنظمات الماسونية المرتبطة بالدول الأجنبية نشاطا قويا فى مقدونيا من أجل الإطاحة بالسلطان(١٦٢)." كما كان الماسونيون الترك أغراراً ساذجين إلى حد كبير، إنهم كانوا على غير علم بحقيقة الخدمة التى يمكن أن يقدمها هؤلاء الماسون إلى الأمة، وعلى سبيل المثال فإن اليهود استخدموا الماسونية وسيلة يتوسلون بها من أجل إنشاء دولة يهودية فى فلسطين، وكان"عمانويل قراصو" على رأس هؤلاء الماسون(١٦٣).

---

(١٦١) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٦٢) محمد قدرى ناصح :

(١٦٣) أورخان قول أوغلو، عبد الحميد والماسونية، إستانبول ١٩٩١م، ص ٢٠٦ .

واضطلعت الماسونية كذلك بالتدخل بقوتها وكفائتها السياسية من أجل إحياء دولة بيزنطية فى بلاد الروم تسمى "دولة نور الشرق"[١٦٤]، أما الجمعية الماسونية السرية التى أسسها الأرمن فكانت تسعى جاهدة من أجل إنشاء دولة للأرمن المستقلة.[١٦٥]

وإذا مانظرنا إلى المنظمات الماسونية فى بيروت ألفيناها تدور فى فلك النصارى الموجودين هناك، حيث قاموا بتحريض الحركات الانفصالية العربية، كما كانت تدعو إلى اتحاد العرب والنصارى للنضال ضد الاستبداد والسيطرة التركية".[١٦٦]

منع عبد الحميد كل أوجه النشاط الماسونى التى رآها مجلبة للضرر[١٦٧]، ورغم هذا فإن الماسونية قد دأبت فى العمل سرا؛ بغية خلع عبد الحميد، ونجحوا فى نهاية الأمر فى التخلص من عبد الحميد وأقصوه عن العرش فى ثورة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م.

عبد الحميد وجناح النساء

كان عبد الحميد سلطانا خط لنفسه طريقا مستقيما صحيحا وفق سياسته وحياته التى اعتبرت من دروس الماضى، ولا سيما أنه بذل جهده حتى لا يتردى فى هاوية الأخطاء الجسيمة التى وقع فيها كل من السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس اللذين كان يراقب حياتهما من كثب.

كما ظهرت دروس من حياة الحريم لكل منهما، ولهذا فيتوجب على نساء القصر ألا يتدخلن فى شئون الدولة من أجل الحفاظ على الدولة والقصر كليهما.

ولْنَقْرأْ فى هذا السياق طرفا مما كتبته ابنته عائشة:" كان أبى على يقين بأن تدخل والدتى عبد العزيز ومراد فى شئون الدولة لم يؤد إلى نتيجة طيبة للأسرة الحاكمة".

---

(١٦٤) المصدر السابق، ص ٢٠٨ .

(١٦٥) محمد قدرى ناصح، ص ٢٠٩ .

(١٦٦) المصدر السابق، ص ١٧١ .

(١٦٧) جول بوتر، باول نادون، الماسونية ذلك المجهول، ترجمة محمد صاقار، إستانبول ١٩٦٦، ص ١٩٣ .

وفى اليوم التالى من اعتلائه العرش أقبل عبد الحميد وقبل يد أمه من الرضاع، وقال لها: "إنك لم تشعرينى ذات يوم بأننى بغير أم، وأنا لا أفرق بينك وبين أمى الحقيقية، ومنزلتك عندى هى منزلة والدة السلطان" أم السلطان "، ولسوف يكون لك فى القصر كل صلاحيات والدة السلطان، ولكنى أرجو منك رجاء خاصا بألا تتدخلى فى شئون الدولة أو تأخذى على عاتقك حماية هذا أو ذاك من الراغبين فى المناصب والوظائف والرتب العالية[١٦٨]"، "الولم يتردد عبد الحميد فى اتخاذ تدابير أخرى فى هذا السبيل حيث منع العبودية والرق اللذين كانا ظاهرين بجلاء لوالدة السلطان، وأزال كل هذه الامتيازات.[١٦٩]

" كان عبد الحميد يشكو من الحريات الزائدة عن حدها فى القصر، ومن الأطناف[١٧٠] المفتوحة إبان عهد عمه عبد العزيز، وسمعت هذا من حموى، وكان عبد الحميد يومئ إلى هذا بقوله: "ماذا تعنى الحرية التى تريدونها، أعطوا النساء جزءاً من هذه الحرية، ولسوف تعلمون كم ستكلفكم هذه الحرية".[١٧١]

" أما الروايات القائلة بأن عبد الحميد كان مشغولا بالنساء من الصبح حتى المساء فهى روايات خاطئة منقوضة من أساسها.

فلقد كان عبد الحميد من السلاطين العثمانيين القلائل الذين كانوا لا يسمحون بتدخل النسوة فى الإجراءات الرسمية التى يتخذها أو فيما يضطلع به من أفعال خاصة.

كما كان خبيرا بالأدوات التى تضطلع بها النسوة فى تدبير الدسائس والحيل فى القصر العثمانى، فإنه لم يعط النسوة الحق فى تجاوز الحرية الممنوحة لهن من أول جناح الحريم حتى دائرة القصر السلطانى".[١٧٢]

---

(١٦٨) أحمد عثمان أوغلو، ص ١٥-١٦ .

(١٦٩) أرتورك، ص ١٨- ١٩ .

(١٧٠) جمع طنف : وهى جناح يشرع فوق باب الدار، وتعرف فى التركية باسم Sacklik (المترجم).

(١٧١) سميح ممتاز، ص ٥٦ .

(١٧٢) مايا قون، ص ٧٥ .

" لم يكن عبد الحميد مدمنا للشهوات والملذات، وكان جناح حرمه السلطانى صغيراً جدا على الرغم من شدة شبهه بأسلافه الأقربين".(١٧٣)

كان لعبد الحميد أربع نساء فقط، بينما كان للإمبراطور الألمانى المعاصر له "ويليام الثانى" ثمانى نسوة .

وإذا كان عبد الحميد لم يأذن للنسوة بالاضطلاع بأدنى تدخل فى شئون الدولة، فإنه أراد بهذا ألا تتكرر الفضائح الصارخة التى كانت النسوة يفعلنها فى القصر، ولا سيما إبان عصر عمه عبد العزيز".(١٧٤)

معالم من الحياة الخاصة للسلطان عبد الحميد

كان عبد الحميد من ناحية البنية الجسمانية متوسط القامة، كثيف الشعر، كث اللحية، وكلاهما ذواتا لون أكلف(١٧٥)، أنفه عالية وعيناه تميلان إلى لون البندق أى ما بين الأخضر والأزرق، جبهته عالية عريضة تدل على أمارات الألمعية ووقدة الذكاء نظراته حادة جوالة متفحصة، وحاجباه ليسا كثيفين، صوته جهورى عذب، شفتاه ليست! بالغليظة ولا بالرقيقة، وجهه أبيض يميل إلى اللون اليمبى.(١٧٦)

وهو يُرى من محياه وهيئته متميزا بعلامة فارقة وإشارة خاصة تميزه عن سلالة آل عثمان(١٧٧)، هكذا لم تكن البنية الجسمانية للسلطان عبد الحميد تبدو قبيحة أو دميمة على نحو ما أظهرته الصحافة الأجنبية، وصحافة جمعية تركيا الفتاة.

---

(١٧٣) بيرز، حياة عبد الحميد، ص ١١٢ .

(١٧٤) ناهد سرى أوريك، حرم السلطان عبد الحميد، إستانبول ١٩٨٩م، ص ١١ .

(١٧٥) اللون الأكلف الذى يميل إلى الصفرة (المترجم).

(١٧٦) أحمد عثمان أوغلو، ص ١١ ..

(١٧٧) عبد الرحمن شرف، حول عبد الحميد، ص ٣ .

وقد شوهت معظم الصور التى عرضوها بأقلامهم، إذ كان عبد الحميد على خلاف ما قالوه، فهو حسن الهندام شديد الجاذبية، أما بنيته الخلقية والمعنوية فتتمثل في" وقدة ذكائه التي كانت تشد الانتباه"[١٧٨]، " كان عبد الحميد يتمتع بذكاء حاد مخيف".[١٧٩]

" وإذا ما نظرت إلى وجهه المؤثر فى أى وقت أثناء حديثه ألفيت أن حدة الذكاء والدهاء والطاقة ماثلة فى خطوط وجهه وتجاعيده، وهى كافية لأن ترجفنى وتصيبنى بالرهبة والخوف"[١٨٠]، " وكان عبد الحميد ذا ذاكرة لاقطة حافظة على غير المألوف[١٨١]، وكانت ذاكرته إحدى ملكاته العقلية المتميزة،" إنها ذاكرة حافظة يندر وجودها فى أى إنسان[١٨٢]"، فهو يتذكر الأحداث التى مرت به عندما كان عمره ثمانية أعوام، ويأمر بتقديم السجلات الدالة على صدق قوله.[١٨٣]

كان عبد الحميد مولعا بالجد والاجتهاد[١٨٤]، ذا بنية جسمانية لا تعرف الكلل أو الملل، يعمل فى جناحه على نحو دائب لا ينقطع[١٨٥]، يتمتع بطاقة وحيوية عظيمة، يهتم بكل شىء ويتابع كل صغيرة وكبيرة من قضايا الأمة منذ الساعات المبكرة من الصباح حتى الأوقات المتأخرة من الليل[١٨٦].

يقول المستشرق" أرمينوس فامبرى": إن الطاقة والحيوية الماثلتين فى شخصية عبد الحميد لا وجود لهما لدى أى حاكم آخر من حكام الشرق قاطبة".[١٨٧]

---

(١٧٨) تحسين باشا، ص ١٣ .

(١٧٩) وودز، ص ١٢١ .

(١٨٠) أوكه، عبد الحميد الثاني وعصره، ص ٣ .

(١٨١) أحمد رشيد بك، ص ٢٩ .

(١٨٢) تحسين باشا، ص ١٣ .

(١٨٣) مذكرات على أكرم بولاير، ٢٥٧ .

(١٨٤) ضيا قرال، جـ٨، ص ٥٧٦ .

(١٨٥) جيرول، ص ٣١٧ .

(١٨٦) وودز، ص ١٢٥ .

(١٨٧) أوكه، عبد الحميد الثاني وعصره، ص ١١٨ .

" إنه شجاع جسور غير هياب، اعتاد منذ أيام إمارته على امتطاء صهوة الجواد الجموح، ينزل فى لجة البحر فى أقسى الظروف الجوية العاصفة، يتجول ويطوف وصدره مفتوح"[١٨٨]، " يتصدى بقوة وشجاعة منقطعة النظير للهواجس والأحزان والأكدار التى تواجهه عقب كل حادثة أو ملمة تصيبه، لا يبدو عليه أثر للضعف والهوان والعجز والفتور، عندما وقعت حادثة تفجير قنبلة فى مسجد يلديز أسرع من فوره فاستخرجها بنفسه، وذهب إلى القصر حيث أبدى شجاعة نادرة أصابت الناس بالبهر والإعجاب[١٨٩] "، ويرى" قول أوغلو " أن عبد الحميد لم يكن شجاعا، بل كان صلبا متينا، فالقوة والصلابة لم تفقداه إرادته فى مواجهة المحن والآلام، فهو رابط الجأش ثابت لا تلين له قناة، وأمَّ اعَنْ مواجهة الحركة والتصدى لها دون خوف أو هلع فيعنى عدم وجود سلوك سلبى غير مؤثر، والشيء الممدوح فى هذا يتمثل فى جرأة الشخص القوى المتين وعدم اندهاشه أمام الانفعال، هكذا كانت صفة اليقظة والانتباه عند عبد الحميد[١٩٠]" .

" لا ننسى فى هذا السياق أن عبد الحميد كان ذا شخصية رقيقة لطيفة ساحرة جذابة آخذة بالعقول والألباب" .[١٩١]

فهو شديد الذكاء والحساسية دمث الخلق لين العريكة، تبدو عليه أمارات الوقار وأصالة النسب ومهابة الخلافة والسلطنة وما يتصل بها من شعائر وطقوس وأعراف، يتلطف بالعبيد القائمين على خدمته، يعرف جيدا طريقة الرقة واللطف والجاذبية، حلو اللسان مع كل أجنبى أو غريب يقابله أو يلتقى به، قادر على تنفيذ تهديده ووعيده، وإذا ما دعت الضرورة، فإنه يجنح إلى إظهار الشدة، ناهيك عن قدرته الفائقة على كظم غيظه والعفو عند المقدرة"[١٩٢]،" وقد حظى باحترام الأجانب وتوقيرهم لذكائه ومعاملته

---

(١٨٨) سميح ممتاز، ص ٥٦ .

(١٨٩) على سعيد باشا، ص ٧٠ .

(١٩٠) قول أغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ١١٨ .

(١٩١) ويدن، ص ١٢١ .

(١٩٢) عبد الرحمن شرف، حول عبد الحميد، ص ٣ .

الجذابة الرقيقة، فهو يحضر الشيء بنفسه، يحير العقل ويشد الذهن في جميع أفعاله وحركاته وسكناته، يفتخر كثيراً بتيسير الغاية التي ينشدها أو يرومها(١٩٣)،" كان عبد الحميد من أعظم حكام الشرق حبا للأريحية والخير والمعروف، رقيقا لطيفا، وهو أحد الأغنياء المثمرين البنائين ذوي العطاء والإحسان، كان زعيما لثلاثين مليونا من المسلمين، متواضعا أمام زائريه، خفيض الصوت رقيقه، ذا سلوك يتميز بالخجل الجم والحياء، وهو رجل تصطبغ صفاته بالصبغة الصوفية أكثر من كونه سلطانا عثمانيا عظيم القدر رفيع الشأن".(١٩٤)

" ذو أدب جم، رقيق الحاشية، حلو المعشر، يعلم من يلقاهم الاحترام والتجلة برقة ولطف وأدب، لا يشعر أحداً بأنه لا يحبه أو يتبرم منه، يظهر البشاشة والتبسم، طلق المحيا، يكسب قلوب من يلقاهم(١٩٥)، " كان عبد الحميد يوصف من قبل بأنه خنزير هندي، دميم قبيح وحشي، بيد أن من عرفوه والتقوا به من أعدائه اعترفوا بأنه على النقيض من ذلك، وهاهو ذا " إرنيكو دي سان مارتينو" رئيس أكاديمية" فلارموني" الإيطالية يقول:" إن أعظم دهشة أصابتني عندما تحدثت مع هذا الرجل بنفسي، لقد كنت دائما واقعا تحت تأثير ما تحكيه الصحف عن وحشيته ودمويته، وأشد ما حيرني أني وجدت في صوت هذا الرجل وتعبيراته رقة وعذوبة ولطفا ونعومة ذات تأثير عظيم".(١٩٦)

" أما الأوربيون الذين التقوا به فكتبوا أنه شديد السحر والجاذبية والافتتان، ولم نكن نصدق ما قالوه، ولكن السلطان أعد وليمة في ليلة ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨م في

---

(١٩٣) علي سعيد باشا، ص ٤٠ .

(١٩٤) أوكه، عبد الحميد الثاني وعصره

(١٩٥) أوزون جارشيلي، بعض الوثائق التي تدور حول خلع السلطان عبد الحميد وموته، بللة تن جـ١٠، عدد ٣٧ - ٤٠ .

(١٩٦) قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٣٥٤ .

قصر يلديز لأعضاء البرلمان، ورأيت من كثب الجاذبية العظمى الموجودة فى شخصيته، واستطاع أن يؤلف القلوب من حوله ويكسب ود الأعضاء الموجودين فى صالون الزائرين".[١٩٧]

" كان رجلا صلب الرأى قوى التفكير، مصيبا فى رأيه فى كل ما يتعلق بالشئون والقضايا الخارجية، أما ما يتصل بالأمور الداخلية فإنه سرعان ما يتخذ أحكم التدابير وأعقلها"[١٩٨]، " يلقى السمع مليا إلى كل من حوله ليبحث عن سبيل لحل أية مشكلة تعرض له، بيد أنه لم يكن أسيراً لرأى من يستمع إليهم".[١٩٩]

يقول عبد الحميد فى مذكراته:" كان أعدائى يجاهرون بالشكوى من أننى أخضع أحيانا لتأثير بعض مستشارىّ، وهذا خطأ، ولم يكن لما يقوله عزت بك تأثير فى شخصيتى، لقد كنت أقدره حق قدره لأنه إنسان يتسم بالحكمة والعقل السديد.

كنت ألقى السمع مليا إلى جميع مستشارىّ وأمعن التفكير فى أفكارهم بتريث ورزانة ورباطة جأش، وبعد ذلك لا أرجع عن قرارى ولا أحيد عنه وأشرع فى تطبيقه بثبات وعزيمة وإصرار[٢٠٠]"، ورغم أن السلطان عبد الحميد كان يستفيد كثيراً من الإمعان والتفكير فى القرارات والآراء، ويدرسها جيدا وبدقة وإتقان فإنه كان يحظى بذيوع صيت بإجابته الحاضرة المستعدة[٢٠١]، وهذا نموذج ليوم من أيام حياة عبد الحميد، فقد كانت له أسس وقواعد منتظمة مرتبة تحكم حياته اليومية[٢٠٢]، فهو بسيط

---

(١٩٧) حسين جاهد بالجين، أول وآخر مأدبة للسلطان عبد الحميد، مجلة تاريخنا الغريب، عدد ١١ مارس، ص ٤٦ .

(١٩٨) إينال، جـ٣، ص ١٢٦٩ .

(١٩٩) وودز، ص ١١٣ .

(٢٠٠) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٨٦ .

(٢٠١) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٤٣ .

(٢٠٢) بيرز، حياة عبد الحميد، ص ٤٣ .

منظم فى كل شىء[٢٠٣]، ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا، يصحو قبيل شروق الشمس ويستحم كل صباح ثم يصلى ويتناول إفطاره، وبعد احتساء القهوة ينهض فيمر على جناح الرجال بالقصر فيمكث فيه ثم يتابع الشئون الرسمية حتى الحادية عشرة ظهرا، فإذا ماتم تجهيز طعام الغداء يمر على الحرم السلطانى فيتناول الطعام مع أفراد عائلته، ثم يخلد إلى الراحة قليلا فيمتد فوق الشيزلونغ (كرسى طويل)، ثم يمر بعد ذلك على جناح الرجال بالقصر ويباشر أعماله الرسمية الباقية حيث يستقبل الوزراء، وبعد طعام العشاء يتجول فى الحديقة فى معية الباشوات والبكوات، ويمارس أحيانا بعض الأعمال فى مكتبته أو فى ورشة نجارته، ويقرأ كثيرا من الكتب فى حجرة النوم قبل أن يأوى إلى فراشه[٢٠٤]، لم يكن عبد الحميد نهما أو شرها فى مأكله أو مشربه، يميل إلى الطعام الخفيف البسيط، ولم تكن له حجرة طعام فاخرة ذات انتظام واتساق.[٢٠٥]

وكان يفضل الطعام الخفيف ويأكل كمية قليلة منه، ويشرب فى الصباح القهوة والشاى واللبن وعصير الفاكهة، أما فى طعام الغداء فيأكل التيمر شت (بيض منضج نصف إنضاج) أو البيض المطبوخ فى الزبد، أو البيض الأوملت أو اللحم الخالى من العظم المشوى فوق المشواة، ويفضل من أنواع السمك الأبيض (البياض) المعروف باسم (مازيت) أو السمك الصخرى المعروف باسم (جلنجى باليغى) وأحيانا يأكل الفطائر الرقيقة المحشوة بالجبن المعروفة باسم" البوريك"، ويفضل من الحلويات القطائف بالقشدة والأرز باللبن والمهلبية، ومن الحلويات الإفرنجية "الشارلوت"، وطعام عشائه دائما خفيف مكون فى العادة من المرق والحساء والفواكه التى يفضل منها الفراولة والشمام والبطيخ والخوخ[٢٠٦]، وكان عبد الحميد فى ملبسه شغوفا بالتأنق وحسن

---

(٢٠٣) على سعيد باشا، ص ٣٩ .

(٢٠٤) أحمد عثمان أغلو، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢٠٥) سميح ممتاز، ص ٥٦ .

(٢٠٦) أحمد عثمان أوغلو، ص ١١ .

الهندام، ويحرص على الثياب النظيفة المعتنى بها ويقول: "إن الإنسان الذى يهمل فى مظهره وملبسه يكون مشوشاً مضطرب التفكير"(٢٠٧)، "وكان بسيطا فى ملبسه لا تروقه كثيرا الثياب الفاخرة"(٢٠٨)، " يهتم بنظافته، بيد أنه لم يكن فى نظافته موسوسا".(٢٠٩) كان عبد الحميد يعيش ضربا من الحياة " المتسمة بالهدوء والسكينة الوديعة بعيدا عن التظاهر والتفاخر والخيلاء"(٢١٠)، "وأثاث صالونه وحجرة نومه لا أثر فيه للأبهة والفخامة".(٢١١)

" ولا وجود لأى أثر من الزينة فى الأركان المتفرقة لقصر يلديز، كما أن طرائق معيشة أولاده وأقربائه تدنو كثيرا من حد الضرورات ولا تتجاوزها إلى أكثر من ذلك(٢١٢)، أما جناح المراسم فى القصر السلطانى فكان فخما مهيبا كى يترك أثرا فى نفوس الضيوف ومن يعقدون مع السلطان لقاءات أو اجتماعات، وهذا الجناح مؤثث بالطنافس والزرابى القيمة المبثوثة فى شتى أركانه، وأغلب متاعه وأثاثه من الذهب والفضة".

" لم يتعرض عبد الحميد فى حياته قط لمرض خطير(٢١٣)، ونتيجة لشدة عنايته بصحته فقد قضى عمره كله دون أن يشكو من علة طارئة"، وكان أبا حانيا على أسرته، ويحب أولاده حبا جما، يقدر كفاءتهم العالية فى فن الموسيقى.(٢١٤)

---

(٢٠٧) تحسين باشا، ص ١٤٠ .

(٢٠٨) أحمد عثمان أوغلو، ص ١١ .

(٢٠٩) سميح ممتاز، ص ٥٥ .

(٢١٠) وودز، ص ١١٣ .

(٢١١) على سعيد باشا، ص ١٧ .

(٢١٢) على رشيد رى، ص ٤٦ .

(٢١٣) على سعيد باشا، ص ٢١ .

(٢١٤) وودز، ص ١٢٧ .

أما هوايات عبد الحميد الخاصة فتتمثل فيما يأتى: يأتى تعلقه بالنجارة والقراءة على رأس هذه الهوايات، وكانت له ورشة نجارة خاصة به ويقوم فيها بتصنيع الأصونة والأرائك والمناضد،(٢١٥) كان عبد الحميد يريد من كل إنسان القراءة والمطالعة، ويعلم أن عدم القراءة يصيب المرء بالضر والأذى(٢١٦). "وكان قارئا جيدا، ولم يكن يفرغ من القراءة والاطلاع ألبتة"(٢١٧). ومن أحب الكتب إلى نفسه تلك التى تبعث على الراحة والمتعة، ومنها على سبيل المثال: القصص البوليسية وحكايات الجريمة وكتب الرحلات، وكان للمترجم جناح فى قصر يلديز، يعين فيه شخص يلقب باسم مترجم القصر السلطانى، ومن هؤلاء المترجمين: الصدر الأعظم حقى باشا ومدير الجمارك سرى بك، ونيشة أفندى مدير قلم الترجمة الخارجية، وكان قسم الترجمة يضطلع بترجمة الروايات والنشريات الأوروبية ولا سيما القصص البوليسية(٢١٨)، " كان عبد الحميد يكره روايات العشق ويقول عنها إنها أدب المرحاض، ويقول:" إننى أخشى كثيرا العشق، فمن البلاء أن يبتلى الإنسان بإدمان شرب الراقى" عرق البلح"، وأنا أقلعت عن كل ما رأيته وعرفته".(٢١٩)

كان عبد الحميد يتابع الصحف الأوروبية إلى جانب الكتب الأخرى، وكان المترجمون يقدمون ترجمات للحلقات المسلسلة والمقالات وكل الأخبار التى تتضمن أحداثا ووقائع مهمة تتصل بالدولة العثمانية، وكان السلطان يقرأ باهتمام ويختار ما يجده مهما(٢٢٠)، ولشغفه الشديد بالقراءة أقدم على تشييد مكتبة غنية فى قصر يلديز(٢٢١)، يعمل بها طائفة من باعة الكتب والعلماء وثلة من الأشخاص المختارين

---

(٢١٥) على سعيد باشا، ص ٢٠ .

(٢١٦) سميح ممتاز، ص ٥٢ .

(٢١٧) على سعيد باشا، ص ١٨ .

(٢١٨) تحسين باشا، ص ١٥ .

(٢١٩) سميح ممتاز، ص ٥٦ .

(٢٢٠) وودز، ص ١٢١ .

(٢٢١) مايا قون، ص ٧٧ .

المتميزين، وذاع صيت مكتبته الخاصة وامتدحت حتى وصل الأمر إلى الدول والممالك الأجنبية[٢٢٢].

ومن الهوايات الخاصة الأثيرة إلى نفس عبد الحميد اهتمامه الشديد بالمسرح، ووجدت فى قصر يلديز قاعتان للمسرح، إحداهما صيفية والأخرى شتوية.

" وكان يحب المسرح ويأمر بإعداده فى الأيام التى يعمل فيها كثيرا ويلاقى النصب والتعب الشديد، وفى القصر هيئة خاصة بالمسرح تتكون من فنانين إيطاليين يمثلون المسرحيات الغربية، كما كانت حفلات المسرح تنظم أحيانا لتكون بمثابة وسيلة للقاء السفراء[٢٢٣]، أما التمثيل على المسرح فيتم بصفة عامة فى ليالى الجمعة، حيث يشاهد المسرحيات فى معية السلطان كل من الصدر الأعظم والوزراء والسفراء ونساء القصر.

كان لعبد الحميد شغف بالموسيقى، ويتذوقها ويهفو إلى سماعها، ويعزف البيانو فى حضرته، " وهو يفضل الموسيقى التركية والإفرنجية، وكان يرى أن الموسيقى التركية جميلة ولكنها تبعث على الحزن والأسى، أما الإفرنجية فهى مختلفة، إذ تبعث على النشوة والسرور، ولا يستريح لسماع الموسيقى التركية المعزوفة على البيانو، ويقول إن الموسيقى التركية لا تعزف إلا على القيثارة أو الربابة".[٢٢٤]

وللسلطان فرقة موسيقية لعزف الموسيقى التركية على القيثارة، بيد أنه كان يخاف من جو هذه القيثارة ويقول:" مات أبى من القيثارة وشرب الراقى[٢٢٥]، كما جن أخى الأكبر مراد من فرط سكره، وكان هذا المسكين يرقد فوق المحفة وهو يتصبب عرقا، ثم

(٢٢٢) على سعيد باشا، ص ٢٠ .

(٢٢٣) تحسين باشا، ص ١٦ .

(٢٢٤) أحمد عثمان أغلو، ص ٢٩ .

(٢٢٥) هو شراب مسكر يتخذ من البلح .

يحـملونه من جناح الرجـال إلى جناح الحـريم، والمعـهـود عندنا أنه لا سكر دون قيثارة". [٢٢٦]

لم يكن عبد الحميد يحب الموسيقى الكلاسيكيـة، ويفضل الموسيقى التى تريح ذهنه، أما أولاده فكانوا يعزفون البيانو والكمان[٢٢٧].

كان حب الحيوانات عند الترك ضرورة طبيعية، ولهذا السبب كان السلطان يحب الحيـوانات، وكـان للمهر والمعز وجود فى القـصـر السلطانى، وقـد أهداه الإمبـراطور اليابانى " ميكودا " ببغاء وحماما، وفى القصر أنواع مختلفة من الكلاب والجياد. [٢٢٨] وللسلطان شغف بركوب الخيل والسيارات على وجه الخصوص، وكان يربى فى مزرعته أجود السلالات من الكباش والعجول. [٢٢٩]

ولعبد الحميد اهتمام بالقنص والصيد والرياضـة، ويحب رياضـات البحر، وفى قصره مصنع صغير للحديد والصينى[٢٣٠]، ويقوم بالتجارب الكيميائية على سبيل الهواية، وذلك بتحريض من اللورد" سالزبورى"، وله اهتمام كذلك بالسفن، ويسعد بتعويم ماكينات منها فى بحيرات القصر. [٢٣١]

---

(٢٢٦) سميح ممتاز، ص ٥٦ .

(٢٢٧) أحمد عثمان أغلو، ص ١٩٦ .

(٢٢٨) ليورى جارنيت، الحياة التركية فى المدينة والقرية، نيويورك سنة ١٩٠٥م، ص ١٣٦ .

(٢٢٩) على سعيد باشا، ص ١٩ .

(٢٣٠) المصدر السابق، ص ٢٠ .

(٢٣١) بيرز، حياة عبد الحميد، ص ١١١ .

الفصل الثامن

احتلال مصر وتونس ومسألة الروملى الشرقية

تسببت معاهدة برلين التى عقدت سنة ١٨٨٧م فى إحداث متغيرات فى السياسة الداخلية والخارجية للدولة العثمانية، وبمقتضى هذه المعاهدة بدأت الدول العظمى تتجه بأنظارها مرة ثانية نحو سياسات تركيا، مما دفع السلطان عبد الحميد إلى أن يؤسس الحكومة المركزية المطلقة، ويبحث عن سبل حماية أراضى الدولة العثمانية نابذا وراء ظهره تلك الاتفاقية.

وأصبحت شخصية السلطان متصفة بصفة ما يعرف بالوحدة الإسلامية Panisla-mizm، وقد وجدت روسيا عقب انتهاء الحرب التركية الروسية ١٨٧٧-١٨٨٧م أن المناسب لصالحها يتمثل فى فرض الأمر الواقع على الدولة العثمانية حتى يتسنى لها التدخل من أجل مد نفوذها تجاه الشرق الأقصى، واستمرت هذه السياسة طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثانى.

أما الدول العظمى الأخرى فتتكون من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا، وأرادت هذه الدول أن تفقد الدولة العثمانية القدرة على الحياة، فأخذت تتحرك انطلاقًا من فكرة أن الدولة العثمانية لن تستطيع حماية وحدة أراضيها وترابها، ثم شرعت هذه الدول فى تكوين اتحاد بينها واضعة نصب أعينها تمزيق أواصر الدولة العثمانية مهما كلفها ذلك، وإنشاء دولة مستقلة يمكن استخدامها لتحقيق آمال هذه الدول العظمى، وتستقر فى أرض الدولة العثمانية وتوطد أركانها فيها.

وتأسس هذا الاتحاد سنة ١٨٧٠م، أما ألمانيا فقد قويت شوكتها بمرور الوقت، ورأت أن يكون لها هي الأخرى نفوذ في الدولة العثمانية، واعتنقت فى سبيل ذلك

سياسة القوة مستخدمة إياها ضد أعدائها الموجودين فى أوروبا. وكان هذا سببا دفع السلطان عبد الحميد إلى اتباع سياسة قوية مؤثرة فى ألمانيا.

أما الدول الصغيرة المجاورة للدولة العثمانية مثل: بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود فقد نشطت من عقالها وانطلقت للجهاد والنضال؛ بغية الاستحواذ على أراضى الدولة العثمانية الموجودة فى البلقان واضعة نصب أعينها تحقيق آمالها ورغباتها التاريخية فى هذه المنطقة.

لقد بذل السلطان عبد الحميد كل ما فى وسعه وكل ما أوتى من قوة ليتصدى لهذه الدول الكبرى والصغرى التى تريد انتزاع أراضى الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها، وكانت غيرته وحميته فى هذا السبيل جديرة بالتقدير والاحترام، وحرص كل الحرص ألا يقدم شبرا واحدا من أراضى الدولة العثمانية إلا فى الأوقات التى أصبح فيها عاجزا غير قادر، فإنه اضطر حينئذ اضطراراً إلى تقديم تعويضات من أجل حماية الدولة من التردى فى هاوية أشد ضررا وأكثر سوءا.

ففى عهده انفصلت تونس برمتها عن الدولة العثمانية حيث احتلتها فرنسا وانطوت تحت حكمها، كما احتل الإنجليز مصر، وخضعت إمارات الخليج العربى لنفوذ إنجلترا، وكانت قبل ذلك قد استقلت عن الدولة العثمانية وخضعت تحت إمرة الحكام المحليين، وأصبحت مرتبطة من الناحية الشكلية بالضرائب الرمزية التى تدفعها إلى تركيا، كما كانت تونس خاضعة لحكم الدايات، ومصر لحكم الخديوى، وباقى الإمارات الأخرى كانت رازحة تحت حكم الشيوخ.

أما عبد الحميد فلم يبد إصراراً وعنادا، ولم يستطع أن يفعل شيئا لتلك الدول التى احتلتها الدول العظمى وأصبحت مستقلة، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا من ناحية القوة العسكرية[1]،

(١) كانت الحرب الروسية التركية قد روعت السلطان وأرهبته، وبذل كل جهده لحل الخلافات عن طريق الصلح، ولم يرد اللجوء إلى الحرب إلا عند الضرورة القصوى، وكانت الحرب التركية اليونانية سنة ١٨٩٧م هى الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة.

وسرعان ما ظهرت ردود وأفعال وأصداء التأثير الدبلوماسى، واستمر السلطان يسعى سعيا حثيثا لإنقاذ هيمنة الخلافة العثمانية وحماية البقية الباقية من أراضى الدولة العثمانية دون اللجوء إلى تهديد الدول أو تخويفها.

لم يعلم السلطان أى شىء عن احتلال الأرض المفقودة من دولته من الناحيتين القانونية والسياسية، وكانت هذه الدول المحتلة وكأنها على أراضٍ عثمانية من خلال التقويمات السنوية المنشورة فى كل عام ليس إلا.

وقد اغتصبت هذه الأراضى ظلما وقسرا من الدولة العثمانية، ولها حق استردادها.

كان عبد الحميد بمثابة مصدر قلق وشك دائمين فى ذهن هذه الدول المستعمرة بسبب الحالة النفسية التى تولدت فى نفسه تجاه هذه الدول، وبات هذا صفة مميزة، زادت من قوة مساومة السلطان لهذه الدول.

احتلال تونس

كانت تونس هى أول أرض مفقودة إبان عصر عبد الحميد عقب معاهدة برلين حيث احتلتها فرنسا فى مايو سنة ١٨٨١م، وكانت حلما يراود فرنسا وأملا منشودا لها منذ احتلالها الجزائر سنة ١٨٣٠م، مما يتيح لها امتداد نفوذها واتساع رقعتها، ولقد تأخر احتلال تونس بعض الوقت بسبب ردود الفعل التى صدرت عن كل من إنجلترا وإيطاليا اللتين عارضتا بشدة احتلال فرنسا للجزائر.

وقد هيأت معاهدة برلين المناخ المناسب لتذليل كل العقبات التى تعترض سبيل فرنسا لاحتلال تونس، وكان "بسمارك" قد رأس مؤتمر برلين، واضطلع بحق بدور السمسار أو وكيل العمولة، حيث عمل فى التحالف السرى لهذا المؤتمر على فض النزاع بين فرنسا وإيطاليا، ووعد فرنسا بأخذ تونس بغية استخدامها لتحقيق مصالح ألمانيا.(٢)

---

(٢) جيرول، ص ٣٤٦ .

وقد أقدمت إنجلترا فى أعقاب معاهدة برلين على تشجيع فرنسا وتحريضها على احتلال تونس حتى يتسنى لها الحصول على تأييد فرنسا لتحقيق فكرة إنشاء دولة أرمينية فى شرق الأناضول.[٣]

وبعد حين استعدت إنجلترا لاحتلال مصر، كما أنها أقنعت فرنسا باحتلال تونس لاستخدامها عنصرا من عناصر المساومة ضدها، كى تستطيع إنجلترا الاستقرار فى مصر فى راحة وهدوء وطمأنينة.

أما روسيا والنمسا فلم يعبأ باحتلال تونس لعدم وجود مصالح لهما فى هذه المنطقة، حتى إن النمسا اتبعت سبيل ألمانيا ووافقت على احتلال فرنسا لتونس.

رأت فرنسا أن المناخ الدولى بات مواتيا لتحقيق مآربها، وعمدت إلى دفع جنودها من الجزائر فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨١م إلى منطقة الحدود بين تونس والجزائر زاعمة أن القبائل التى تعيش فى جبل" قورم نورى " سوف تشن هجوما على أرض الجزائر، وكان هذا بمثابة ذريعة تذرعت بها فرنسا لاحتلال تونس، ثم جاءت بثمانية آلاف جندى من ميناء تولوز الفرنسى إلى ميناء بنزرت التونسى، وكان صادق محمد باشا والى تونس فى وضع لا يستطيع معه الدفاع عن ولايته فى مقابل التفوق الفرنسى، فأرسل برقية إلى الباب العالى يطلب فيها العون والمساعدة[٤]، وامتنع الباب العالى على أن يتحرك وحيدا قائما برأسه، وظهر رد فعل إيطاليا المنافس لفرنسا فى تونس، وظلت المسألة دولية تنتظر الحل.

ورغم اعتراض إيطاليا على احتلال تونس، فإنها لم تخط خطوة أكثر من هذا الاعتراض، وأراد عبد الحميد حينئذ أن يتحرك وحده فى هذا المضمار.

ووقعت فرنسا معاهدة مع والى تونس فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١م يتم بمقتضاها انضواء تونس تحت السيطرة الفرنسية بصفة رسمية، واعترضت الدولة العثمانية على هذه المعاهدة فى ١٦ مايو سنة ١٨٨١م.

---

(٣) جزمى أرسلان، عبد الحميد الثانى والوحدة الإسلامية، إستانبول ١٩٩٢م، ص ١٧٩ .

(٤) سليمان قوجه باش، الأتراك والفرنسيون فى التاريخ، قيصرى ١٩٩٠م، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

وأسرعت من فورها بإرسال الأسطول والجيش إلى تونس، بيد أن فرنسا هددت بمواجهة هذا الأسطول وحذرت من تدخل الدول الكبرى طالبة إليهم عدم التوسط في هذه المسألة.(٥)

" كان عدم تدخل الدولة العثمانية فى أزمة تونس بمثابة زلزال قوى عصف بمهابة خليفة العالم الإسلامى فى نظر رعايا الدولة العثمانية فى جنوب أفريقيا ولتعويض هذا الموقف أسرع السلطان بشن حملة قوية ضد فرنسا فى ليبيا، واستقبلت هذه الحملة بمراسم التظاهر والتفاخر، واستقرت فى الأماكن الحصينة تحفها مظاهرة المدافع الجديدة، ثم خرجت هذه الحملة فى حشد عظيم وهى تسير فى الأزقة والشوارع ترافقها فرقة موسيقية عسكرية، وكان الخليفة فى طليعة هذه الحملة التى أعدت نفسها لتكون فى مواجهة الكفار وشد أزر اللاجئين التونسيين، وفهم من هذا أن الخليفة سوف يتدخل فى أزمة تونس فى المستقبل القريب(٦).

كان عدد الجند الذين سبقوا إلى طرابلس الغرب من أجل مسألة احتلال تونس قد بلغ عشرين ألف جندى(٧)، واضطلعت هذه القوات بتحصين مناطق زورا وجادماس وجات الكائنة على الحدود بين تونس وطرابلس الغرب".

" اهتم الخليفة عبد الحميد بتقوية الحدود الجنوبية لطرابلس الغرب عقب استيلاء الفرنسيين على تونس، لا سيما أنه علم أن مؤتمر برلين قد توصل إلى نتيجة تمخض عنها تنافس شديد بين الدول الأوروبية كى تبسط نفوذها فى المناطق الوسطى والجنوبية

---

(٥) أوزون جارشيلى، والى تونس وعائلة الحسين، ببلة تن جـ ١٧، عدد ٧٢، ١٩٥٤م، ص ٥٦ .

(٦) عبد الرحمن جايجى، المنافسة التركية الفرنسية فى الصحراء الكبرى ١٨٥٨ - ١٩١١م، أرضروم ١٩٧٠م، ص ٧٤ .

(٧) جلال توفيق قرة صابان، ليبيا، طرابلس الغرب، بنغازى وفيزان، أنقرة ١٩٦٠م، ص ١٥٥ .

من قارة إفرقيا التى لا صاحب لها، وإن المناطق الإفريقيقة التى لا تخضع لاحتلال أية دولة بصفة رسمية أو فعلية تعد حقا مكتسبا لأول دولة تدخل هذه المناطق وتخضعها تحت هيمنتها وسيطرتها[٨].

وهكذا فإنه يكفى لرسم الحدود تثبيت فرقة عسكرية وراية فى أى مكان، وجاء الفرنسيون من الأماكن القاصية إبان احتلالهم الجزائر.

لم يقف عبد الحميد مكتوف الأيدى فى مواجهة هذه الأحداث، وأرسل برقية إلى حلمى باشا قائد بنغازى ومحافظها آمرا إياه بإنشاء قيادة عسكرية فى واحة كفرة ترافقها مفرزة عسكرية، وأن يرفع العلم العثمانى على أحد المبانى ليكون مقرا للحكومة العثمانية، لكى يظهر هيمنة العثمانيين على هذه المناطق.

وعهد حلمى باشا إلى عمر منصور قها بتنفيذ هذه المهمة، وذهب عمر إلى واحة كفرة ورفع العلم العثمانى فوق كوخ كبير موجود فى القرية التى تتكون من بضعة أكواخ بدائية صغيرة.

ولما نجح فى هذه المهمة استدعاه السلطان إلى إستانبول وهنأه وأنعم عليه بوسام الماجدية من الطبقة الأولى.[٩]

احتلال مصر

أصبحت مستعمرة الهند جزءا من الإمبراطورية الإنجليزية فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وهى مستعمرة تمثل فائدة جمة وطريقا مختصرا، ومن ثم بدأت إنجلترا تولى أهمية قصوى لتأمين طريق الهند المتمثل فى البحر الأبيض والبحر

(٨) المصدر السابق، ص ١٧٥ .

(٩) المصدر السابق، ص ١٧٨ .

الأحمر، أو من خليج البصرة والعراق وسوريا والبحر الأبيض، وبات هذا الطريق رازحا تحت تهديد روسيا التى تتبع سياسة النزول إلى البحار الدافئة.

وقد أخذت إنجلترا تنتهج سياسة المحافظة على أراضى الدولة العثمانية لفترة طويلة؛ بغية حمايتها من التهديد الروسى وكانت تركيا تريد ترك جدار الحريق قائما فى الطريق بين روسيا والهند، وأصبحت إنجلترا فى إطار هذه السياسة بمثابة عقبة كأداء تحول دون استقرار روسيا فى البلقان والبوغاز وشرق الأناضول وإيران.

وفى معاهدة برلين تخلت إنجلترا عن سياسة حماية الأراضى العثمانية، وتحركت من منطلق فكرة تقول إن تركيا بدأت تفقد ميزة حائط الحريق سالف الذكر.

ولما بلغ الموقف هذه الدرجة باتت أهداف إنجلترا فى سياسة الشرق الأوسط تتمثل فى النقاط الآتية:

١- الاستقرار فى أماكن استراتيجية فى طريق الهند حتى يظل تحت حماية قوتها العسكرية.

٢- وقد نجم عن تحطيم حائط الحريق التركى ظهور دول مستقلة عن تركيا فى كل من البلقان وشرق الأناضول، وتم تأسيس حوائط حريق جديدة قوية متينة، ولسوف تقدم إنجلترا تأييدا قويا فعالا لخطط ومشروعات كل من بلغاريا وأرمينيا المستقلتين.

٣- يتم إعاشة تركيا فى منطقة البوغاز التى منحتها إياها الدول الكبرى، وتضطلع بمهمة الحراسة فى هذه المنطقة فقط، وقرر الإنجليز فى سنوات الحرب العالمية الأولى محو اسم تركيا والأتراك من صحيفة التاريخ، وبذلوا قصارى جهدهم من أجل تقويض مهمة حراسة البوغاز إلى اليونان، بيد أن الإنجليز أخفقوا فى خططهم، ولم يحالفهم التوفيق، هكذا أقدم الإنجليز على احتلال مصر فى صيف ١٨٨٢م واحتلوا نقاطًا مهمة من طريق الهند التى سبق أن احتلتها قبل ذلك، وكانت إنجلترا قد احتلت مضيق جبل طارق سنة ١٧٠٤م (وتم تأييد هذا فى معاهدة ترايت ودتركة سنة ١٨١٣م).

كما استقرت إنجلترا فى كل من مالطا سنة ١٨٠٠م وميناء عدن سنة ١٨٣٩م وقبرص سنة ١٨٧٨م.

وما لبث أن جاء الدور على احتلال مصر، وكانت مصر ولاية ممتازة مرتبطة بإدارة اختيارية للدولة العثمانية، ولم يكن للخديوى الذى يحكمها أى نفوذ بسبب تأثير الديون الخارجية، وقد اعتاد الخديوات اللجوء عدة مرات إلى الباب العالى، طالبين إليه منحهم السلطة التنفيذية، ولكنه أبى بحجة أن هذه الديون سوف تجلب المتاعب لكل من مصر والدولة العثمانية على حد سواء، ولكن الخديو إسماعيل باشا أغرق بيروقراطية الباب العالى بالرشوة حتى حصل فى النهاية على السلطة والنفوذ، وهكذا لاحت فى الأفق الفرصة الذهبية للإنجليز.

" واضطلع الرأسماليون الإنجليز أول الأمر بتقديم القروض إلى مصر كى يزجوا بها تحت وطأة حمل مالى زائد عن الحد، ثم يبدأ رجال الأعمال الرأسماليون الإنجليز بالاستقرار فى مصر بعد أن ينتزعوا طائفة من الامتيازات التى استفادوها من سياسة التخويف بالديون التى تثقل كاهل مصر وتسحقها وتروعها.

وما لبث أن جاء هذا اليوم الموعود، واستخفت وزارة المالية بالإنجليز والفرنسيين، وبات ما قدمه الدبلوماسيون الأوروبيون أكثر مطابقة للعقل من أوامر الخديو، كما أثيرت الفتن والاضطرابات واشتعلت نار الثورة والتمرد.(١٠)

هكذا طبق الإنجليز سيناريوهات الاحتلال خطوة بعد أخرى، وتراكمت الديون على الخديو إسماعيل الذى عجز عن سدادها، مما تمخض عنه وضع المالية المصرية تحت مراقبة الإنجليز والفرنسيين، وانضوت الخزانة المصرية تحت إدارة كل من المسيو" بيلين نافيه" الفرنسى، والسير" ويلسون" الإنجليزى.

---

(١٠) إدوارد ميد إيريل، سكك حديد بغداد، ترجمة كمال ياز جيجى، إستانبول ١٩٧٢م، ص ٢٢٤ .

وعهد هذان المراقبان إلى إخراج ألفين وخمسمائة جندى محلى من الجيش من أجل تسوية الميزانية.(١١)

ولربما كانت هذه الحادثة بمثابة إحدى الخطط السرية لبداية تنفيذ سيناريو الاحتلال، وسرعان ما اشتعلت الفتن والاضطرابات المتوقعة، وتظاهر الشعب ضد الأوروبيين واستقال رئيس الوزراء ورئيس الخزانة نوبار باشا الذى رجمت سيارته بالحجارة، وانسحب الأميرال عرابى رأس المعارضين إلى أوروبا، وعزل عبد الحميد الخيوى إسماعيل، ومما زاد الأحداث حدة وعنفا دخول عرابى باشا ناظر الحربية إلى الخزانة التى أسسها محمود سامى باشا، وجاءت البحرية الإنجليزية والفرنسية كلتاهما قبالة مدينة الإسكندرية، واعترض الباب العالى على هذا.

كان السلطان عبد الحميد يرى بجلاء أن عرابى باشا ما هو إلا ألعوبة فى يد الإنجليز.

وأسرع السلطان من فوره بإرسال كل من: درويش باشا وسيد أسعد أفندى إلى مصر كى يسديا النصيحة والتوجيه إلى عرابى الذى لم يلق السمع إليهما.(١٢) ولو أنه نفذ النصائح الدبلوماسية الحاذقة للسلطان عبد الحميد لكان الاحتلال الإنجليزى قد تأجل على أقل تقدير ثم عقد اجتماع فى إستانبول من أجل القضية المصرية، ولم يتمخض عنه نتيجة حاسمة، وكان عرابى الذى يمسك بزمام الأمور يرتاب كثيرا فى إنجلترا التى أحكمت قبضتها على الإسكندرية وطلب إلى السلطان إرسال جيش إلى مصر، وعندما لم يتلق جوابًا بالرفض أو الإيجاب أسرعت إنجلترا بإنذار عرابى طالبة إليه إزالة التحصينات، ثم وقعت حادثة بوليس بسيطة نجمت عن شجار وقع بين

---

(١١) عثمان نورى، ج٢، ص ٦٧٨ .

(١٢) خوجة أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

مسلم ونصرانى فى شهر يونيو سنة ١٨٨٢م، واتخذت إنجلترا من هذه الحادثة ذريعة بدأت على إثرها فى إنزال جنودها إلى ميناء الإسكندرية، وهزم عرابى ونفى إلى جزيرة سيلان، وما لبث الجيش الإنجليزى أن دخل القاهرة فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.(١٣)

واعترض الباب العالى على كل ما حدث، فلماذا لم يرسل السلطان إلى مصر الأربعة آلاف جندى التى طلبها الإنجليز؟ يوضح عبد الحميد فى مذكراته أسباب ذلك فيقول: " كانت الأخبار السرية الموثوق بها فى تلك الآونة تفيد بأن أنصار عرابى يمسكون المصاحف فى أيديهم، وعليه فإن الجنود العثمانيين لن يستطيعوا إطلاق النار ضد هؤلاء، وكانت هذه حيلة إنجليزية ماكرة، وإذا لم يحدث هذا فإنه لن يتسنى إرسال أكثر من أربعة آلاف جندى إلى مصر.

وحتى ولو فرض أن تم إطلاق النار على جند عرابى، فإنه من البديهى أن النصر لجيش عرابى الذى يزيد على عشرين ألف جندى، وفى هذه الحالة فإن إرسال الدولة العثمانية أربعة آلاف جندى إلى مصر سيكون سببا فى تحطيمهم وكسر شوكتهم، ولسوف يتمخض عنه فائدة مرجوة، كما أن إرسال قوة الدولة إلى مصر سيعرضها إلى التلف والضيا ع، فالأهداف السياسية للإنجليز تتمثل فى نقل القوات البحرية البرية من الدولة العلية إلى مصر؛ رغبة من إنجلترا فى إضعاف مركز الدولة العثمانية، وفتح الباب أمام ثورة كبرى لا يدرى أحد عواقبها الوخيمة".(١٤)

ويفهم من إيضاحات السلطان فى هذا السياق أن الإنجليز كانوا يريدون دخول مصر قائلين إن هذا وضع مشروع تمخض عن استعداء الإنجليز.

كما أن إرسال الجنود العثمانيين القادمين من إستانبول من أجل عرابى كان بمثابة فتنة سياسية تهدف إلى تحطيم كلا العدوين معا، ومن المحتمل أن يؤدى كذلك

---

(١٣) داريولت، ص ٣٣٨ .

(١٤) خوجة أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

إلى انهيار القوة العسكرية للدولة العثمانية مما يجعلها تضطر إلى طلب العون والمساعدة من إنجلترا، إن فكرة عبد الحميد سالفة الذكر قد قطعت الطريق على الإنجليز وأفسدت عليهم خططهم، ومهما كان الأمر فإن الإنجليز قد وضعوا في ذهنهم احتلال مصر، وتم لهم ما أرادوا، ولم يكن لهذا الاحتلال أى مبرر شرعى أو قانونى فى الأعراف السياسية الدولية، بيد أن إنجلترا ما انفكت تقول إنها وضعت خططا وبرامج للانسحاب من مصر عقب تحقيق الأمن فيها، وكان هذا من أجل تهدئة ردود الفعل الدولية، وطفقت تكرر هذه اللازمة المسبقة حتى عام ١٩٠٠م، ولكنها استقرت فى مصر ووطدت أركانها فيها.

كان السلطان عبد الحميد يرى أنه إذا لم يتم التدخل العسكرى السريع للجنود الإنجليز لأمكن إيجاد حل لهذه القضية آجلا أو عاجلا، وقد فكرت إنجلترا مليا وعجلت باحتلال مصر حتى لا تضيع هذه الفرصة السانحة.

وقد أخفق السلطان آنذاك فى تحريض فرنسا لمواجهة إنجلترا مستفيدا من المنافسة الدولية بينهما، يقول عبد الحميد فى مذكراته:" إن ما أنفقه من جهة من أجل تعزيز التدخل الفرنسى فى مصر كان شيئا عظيما، كما أن إنجلترا سوف تقضى فى القريب العاجل على النفوذ الفرنسى وتستأصل شأفته، ولسوف تكون هى الحاكم الوحيد المطلق المهيمن على قناة السويس، ومن أسف أن فرنسا كانت مناصرة ومؤيدة لآمال الإنجليز فى كل مرة.(١٥)

وإذا أمعنا التفكير فى هيمنة فرنسا ونفوذها والجهد الذى بذلته من أجل التدخل فى شئون مصر منذ عصر نابليون الأول فإنه يمكننا التخمين فى تدخل فرنسا واحتلالها لهذه المنطقة، وعلى الرغم من أن نفوذ إنجلترا كان جديدا فى هذه المنطقة فإنها بدأت تتغلب على النفوذ الفرنسى الضارب بجذوره، وقد علمت فرنسا أن الإنجليز سوف يحتلون مصر بموجب الاتفاقية المبرمة بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ .

---

(١٥) عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية، ص ١١٣ - ١١٤ .

لم تكن روسيا تعلم فى أى وقت احتلال إنجلترا لمصر، كما حرصت إيطاليا على تأييد إنجلترا لتساعدها الأخيرة فى تحقيق آمالها باحتلال طرابلس الغرب، أما ألمانيا فكانت إلى جانب إنجلترا لشعورها بحاجتها إلى صداقة إنجلترا لتكون فى مواجهة فرنسا، ومارس السفير الألمانى فى إستانبول ضغوطه على الباب العالى فى كل مرة لقبول طلبات الإنجليز المتعلقة بمصر.(١٦)

أظهرت الدولة العثمانية أعنف رد فعل لها بشأن احتلال مصر، كما أبدى السلطان ما يشعر به من غصة عظيمة بسبب ضياع أثمن جوهرة فى تاج الإمبراطورية العثمانية المتمثلة فى مصر بلد النيل، وكان يقول إنه سوف يعلن الحرب من أعماق روحه ضد إنجلترا.(١٧)

لم تكن مخاوف السلطان من فقد مصر لتذهب سدى، وإن وجود الإنجليز فى مصر سوف يهيج مشاعر القومية العربية، ولسوف يستخدم كذلك ليكون أساسا لانتشار هذه القومية وامتداد نفوذها.

كما أن قضية" الخلافة العربية" قد أصبحت بمثابة تهديد يهدد مقام خلافة السلطان العثمانى.(١٨)

ولسوف يبذل الإنجليز جهدهم من أجل السيطرة على هؤلاء عن طريق إرسال الجواسيس بين القبائل العربية، أما التدابير التى اتخذها السلطان ضد هؤلاء الجواسيس فتتمثل فى إخراج الإنجليز من مصر وإنشاء خط حديد الحجاز وتوطيد عرى الصداقة مع الألمان وإثارة الفتن والاضطرابات ضد الإنجليز فى الهند(١٩)، كما اضطلع السلطان كذلك بتحريض المهدى الموجود فى السودان ضد الاحتلال الإنجليزى.

---

(١٦) وزراء خارجية الباب العالى، المسألة المصرية، المطبعة العامرة، إستانبول ١٣٣٤، ص ١٢٣ .

(١٧) جريس، ص ١٧٨- ١٧٩ .

(١٨) حتى إنهم بذلوا جهدهم من أجل إعلان الخديوى خليفة على المسلمين.

(١٩) قرال، جـ ٨، ص ١٨٦ .

وفى شهر يناير ١٨٩٩م تدخل الإنجليز لارتباط السودان بمصر فى قضية سحق المهدى واستئصال شأفته، واعترضت إنجلترا وخوفت السلطان وألقت الفزع فى روعه ويقول فى هذا: " إنهم كانوا يريدون باستقرارهم فى مصر والسودان إنشاء إمبراطورية إفريقية قوية تنضم إلى مستعمرات الكاب (الأرض الداخلة فى البحر)، وإن ارتباط السودان بمصر كان بمثابة خطوة من أجل فرض الهيمنة الكاملة على البحر الأحمر".(٢٠)

لم يستطع عبد الحميد أن يهضم فى أى وقت من الأوقات احتلال مصر، حتى إن شروط الصداقة مع إنجلترا كانت مرتبطة بالحفاظ على هيبة الدولة العثمانية فى مصر.

وهاهو ذا المستشرق النمساوى أرمنيوس فامبرى يكتب فى هذا السياق قائلا: " إذا وقفنا على قضية احتلال مصر، فإن ما كنت أريده هو التدخل فى هذه العلاقات الطيبة، ولكن ماذا عساى أن أصنع؟ وقد تحطم غرورى أمام شعب فى عالم كله من المسلمين؟

بيد أننى لم أستطع قبول هذه المذلة ولن أقبلها، إنكم تعلمون أننا بذلنا جهدنا حتى نتمكن من التوصل إلى اتفاقية، ولكن شروط إنجلترا كانت شديدة الخطر بالنسبة لمستقبل أمتى، وكان الخليفة الإسلامى والإمبراطورية العثمانية بمثابة ضربة لهيبتى، ومن ثم لم أستطع قبول هذه الشروط على أى نحو من الأنحاء.

ولقد قبلت بعض الأخطاء الصادرة من كلا الطرفين، وأعلم كذلك أن حرية الانتقال من قناة السويس تستلزم تحقيق مصالح للمستعمرات الإنجليزية".(٢١)

كان إعلان الإنجليز بأن احتلالهم مصر هو شىء مؤقت بمثابة راحة وطمأنينة للسلطان عبد الحميد.

وبدأ الإنجليز يبحثون عن سبيل لتحقيق المنافع والمصالح فى كل لحظة، وبدأت على الفور جهود التدخل الدبلوماسى فى أعقاب الاحتلال الإنجليزى لمصر.

---

(٢٠) نظارة الخارجية بالباب العالى، المسألة المصرية، ص ١٥٦ .

(٢١) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٣٨ .

وعقدت لقاءات بين الوفود العثمانية والإنجليزية، واستمرت هذه المباحثات فى كل من إستانبول ومصر، بيد أن الإنجليز كانوا يتعمدون فى هذه اللقاءات المماطلة والتسويف، وبذلوا قصارى جهدهم كى يكتسب احتلالهم لمصر بمرور الوقت الصفة الشرعية والقانونية. ولم يكن لدى الدولة العثمانية حل آخر لإخراج الإنجليز من مصر بالقوة، وكان عبد الحميد الثانى مدركا لكل هذه الأحداث، وعلم أن الإنجليز سوف لا يخرجون من مصر، وما لبث هذا الاحتلال أن تأكد بصفة جازمة فى عام ١٩٠٠م، وأرسل السلطان إلى القاهرة غازى أحمد مختار باشا من أجل عقد لقاءات عثمانية إنجليزية، ولقب بلقب "مفوض مصر العالى"، ولم تتمخض هذه اللقاءات عن أى نتيجة لصالح العثمانيين، مما دفع السلطان إلى تخصيص راتب كبير لغازى أحمد مختار باشا ليبحث إما عن وسيلة للاعتراض على الاحتلال الإنجليزى لمصر، وإما أن يعمل على حماية هيئة الخلافة العثمانية.

وكان خوف، العزل من العرش من أهم أسباب الشقاق والنزاع بين عبد الحميد وأحمد مختار باشا الذى ظل السلطان مستمسكا به فى مصر متوجسا إمكان استخدامه فى خلعه عن العرش لما يتمتع به من نفوذ وقوة فى إستانبول.

وجاء مختار إلى إستانبول فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٨م، أى فى الشهر التالى من ثورة جماعة تركيا الفتاة التى نشبت فى شهر يوليو من العام نفسه(٢٢).

مسألة الروملى الشرقية

أصبحت الروملى الشرقية المنفصلة عن بلغاريا الكبرى ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية بموجب اتفاقية برلين سنة ١٨٧٨م.

---

(٢٢) دكتور رفعت آج أرول، أحد الباشوات العثمانيين وعصره، غازى محمد مختار باشا، حياته العسكرية والسياسية، إستانبول ١٩٧٦م، ص٢٦٠ .

وكان عدد السكان الترك فى هذه المنطقة يربو على عدد النصارى قبيل الحرب التركية الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م وفى أثناء الحرب قل عدد السكان تحت وطأة الهجرة والتقتيل الجماعى الذى مارسه البلغار والروس، وبات النصارى يمثلون الأغلبية المطلقة وبموجب معاهدة برلين عين السلطان حاكما نصرانيا على شرق الروملى، وتمت موافقة الدول الأوروبية وتصديقها على هذا التعيين، ثم تحكم المنطقة بعد ذلك بواسطة جنود مدنيين يمثلون المفوضين الأوروبيين، ولسوف تدفع هذه المنطقة جزية سنوية للدولة العثمانية.

أما إمارة بلغاريا فقد قبلت مكرهة الحالة التى آل إليها شرق الروملى، وبدأت تبحث عن سبل ضم هذه المنطقة إلى أراضيها فى أول فرصة سانحة.

عين عبد الحميد الثانى "آلاكو باشا "، وهو من أصل رومى، واليا على شرق الروملي، وبذل هذا الرجل وسعه من أجل أن يحبب المناصرين للاتحاد مع دولة البلغار.

وكان السكان فى منطقة البلغار يخضعون لحكم هذا الحاكم الذى أرسل ممثلين من البلغاريين من أجل حث وتحريض شعب الولاية المسيحى لتوقيع اتفاقية مع بلغاريا. بيد أنهم فروا هاربين أثناء الحرب الروسية التركية وأرادوا العودة إلى ديارهم، وانتقلوا إلى أصحاب الأرض المسلمين، ورزحوا تحت تهديد دفع الجزية، ثم باعوا أرضهم لدفع ضرائبهم للمسحيين المتقهقرين، وما لبث المهاجرون البلغار أن استوطنوا هذه الأرض وحلوا محل هؤلاء، أما القوات البرية التى ترددت فى هاوية الظلم فإنها لم تتفوه بكلمة واحدة طوال الفترة التى مكث فيها المسلمون، ولكن "آلاكو باشا" تصدى للتدخل الروسى مما دفع أنصارهم الموجودين فى بلغاريا إلى عزله عن منصبه، وعين وال آخر يسمى"جوريل باشا"، وكان أشد قومية من سلفه، فنفاه القرويون المسلمون علانية من الحدود حتى منطقة" طرافيا "، وجاء القوميون البلغار إلى نقاط حصينة تحصنوا بها واضطلعوا بحماية الممثلين البلغار المرسلين إلى شرق الروملى.(٢٣)

(٢٣) ستانفورد شو، الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة، جـ٢، ترجمة محمد هارومنجى، إستانبول ١٩٨٢م، ص ٢٤٨ .

وبعد كل هذه الاستعدادات قام البلغار المؤيدون للوحدة مع بلغاريا بعصيان بالقرب من مدينة " فيليبيه " عاصمة الولاية، وكان هذا فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥م، وقبضوا على الوالى وأرسلوه إلى صوفيا، ثم جاء الأمير البلغارى ألكسندر إلى فيليبيه فى ٢١ نوفمبر وأيد الوحدة، بيد أن عبد الحميد اعترض عليها.(٢٤)

كان انضمام شرق الروملى إلى بلغاريا مناقضا لمعاهدة برلين، وإذا كان عبد الحميد قد انتظر ردود أفعال الدول المعترضة على هذه المعاهدة سالفة الذكر إلى جانب اعتراضه فإنه لم يجد ما كان يأمله فقد كانت كل من إنجلترا وفرنسا والنمسا يؤيدون ضم شرق الروملى إلى بلغاريا، أما روسيا فكانت مؤيدة للمحافظة على الموقف الراهن ؛ رغبة منها فى أن تكون عقبة كأداء تعترض نفوذ الإنجليز فى بلغاريا.

وكانت إنجلترا فى ذلك الإبان على رأس الدول التى تسعى إلى مناصرة بلغاريا، وبذلت كل ما فى وسعها من أجل تأسيس بلغاريا مستقلة قوية تحت نفوذها فى منطقة البلقان حتى يتسنى لها إبعاد روسيا عن منطقة البوغاز والمضايق.(٢٥)

وعقد مؤتمر للسفراء فى إستانبول بغية إيجاد حل لهذه المسألة، وقام السفير الإنجليزى" وليام وايت" بالدور الرئيسى فى هذا المؤتمر، وطلب إلى السلطان تعيين الأمير ألكسندر واليا على شرق الروملى بدلا من التدخل العسكرى فى هذه المنطقة.(٢٦) وصدر أعنف رد فعل من بلغاريا من جارتها صربيا التى أعلن ملكها" ميلون" الحرب على بلغاريا.

وبعد انتصار البلغار توسطت النمسا، وتم توقيع معاهدة فى مدينة" بوزكش" فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٦م، اضطرت بمقتضاها صربيا إلى قبول ضم شرق الروملى إلى بلغاريا.(٢٧)

(٢٤) ويليام ميلر، الإمبراطورية العثمانية ١٨٠١ - ١٩١٣م، كمبردج، سنة ١٩٥٩م ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢٥) مذكرات كامل باشا، جـ١، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢٦) ميلر، ص ٤١٧ .

(٢٧) ويليام سلون، البلقان مختبر التاريخ، نيويورك، ١٩١٤م، ص ١٢٩ .

كما ظهر رد فعل آخر فى اليونان ضد بلغاريا، وإذا كانت اليونان قد اتخذت بعض التدابير والإجراءات العسكرية لإعلان الحرب على بلغاريا، فإنها لم تستطع التقدم أكثر من هذا.[٢٨]

حتى إنها بدأت تستعد لاحتلال منطقة" أيبر" معلنة الحرب على تركيا ومستفيدة كذلك من الفتن والاضطرابات.[٢٩]

وإذا كان السلطان له حق فى التدخل العسكرى بموجب معاهدة برلين للحيلولة دون ضم شرق الروملى إلى بلغاريا، فلماذا لم يستخدم حقه فى التدخل؟ واحتدم جدل شديد ومناقشات طويلة مستمرة مؤيدة تارة للسلطان ومعارضة له تارة أخرى فى هذا الموضوع.

وعندما لجأ السلطان إلى التعرف على رأى الوزراء فى مسألة التدخل العسكرى اصطدم برأيين اثنين، أحدهما مؤيد والآخر معارض، وبينما كان الصدر الأعظم سعيد باشا راغبا فى التدخل العسكرى، اقترح منافسه كامل باشا البحث عن حل سياسى، ولما سئل قائد الجيش عثمان باشا عن الموقف، قال إنه يوجد بجوار أدرنة سبعة آلاف جندى، وهو عدد غير كاف للتدخل العسكرى.

أما عبد الحميد الثانى الذى كان يتابع تطورات الموقف باهتمام بالغ فقد اختار عدم التدخل العسكرى سبيلا لسياسته.

وقد تحدث فى مذكراته عن هذه المسألة حيث رتب الأسباب الداعية إلى هذا على النحو الآتى، كان الموقف شديد الخطورة صعبا، فلو فرض أن التدخل العسكرى تم دون الأخذ فى الاعتبار عدم القدرة على جمع الجنود بعد الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م وكذلك عدم وجود أموال فى الخزانة، فمن الممكن حينئذ أن يتردى الجيش العثمانى فى هوة مواقف صعبة عسيرة، ويعجز عن مواجهة الجيش البلغارى الذى هزم الصرب.

---

(٢٨) داريوليت، ص ٣١٢ .

(٢٩) مذكرات كامل باشا، ص ١٢ - ١٤ .

لقد اضطلعت كل من البلقان والصرب واليونان وسكان الجبل الأسود جميعهم بتأسيس تحالف البلقان، ويستطيعون من خلاله شن هجوم على الدولة العثمانية، كما أن اليونان تضع عينها على منطقة "أبير"، ويضع الجبل الأسود عينه على الأرناءوط.(٣٠)

وتفيد المصادر الغربية أن السلطان فكر كثيرا فى التدخل العسكرى، بيد أنه تخلى عن هذه الفكرة كى يتجنب بطش اليونان والصرب كليهما.(٣١)

وكان السلطان يرى طوال فترة حكمه التى امتدت ثلاثة وثلاثين عاما أن اتباع السياسة المخالفة للحرب هى أكثر نفوذا وتأثيرا.(٣٢)

ويدون" على فؤاد تورك جلدى" رأيه فى هذه المسالة فيقول:" كان الذهاب إلى حرب مشكوك فى عواقبها أمرا خاطئا من أجل إقليم لا يرتجى من ورائه أية فائدة مالية أو عسكرية ألبتة(٣٣)، وهكذا فإن عبد الحميد الثانى قد اختار فى نهاية الأمر العثور على حل سياسى ليحقق الفائدة المرجوة للدولة العثمانية.

وقد تدخل السلطان باذلا مساعيه لإبعاد بلغاريا عن يد الروس، وحال دون امتداد النفوذ الروسى أكثر فأكثر فى هذه المنطقة، وسرعان ما قبلت بلغاريا الخضوع إلى حكم السلطان عبد الحميد ونفوذه، وعين السلطان ألكسندر واليا على شرق الروملى مدة خمس سنين.

هكذا تم تحقيق وحدة بين كلتا الولايتين بلغاريا وشرق الروملى، واستمرت بلغاريا فى دفع الجزية إلى إستانبول.

ولم يتوقع ألكسندر والقوات الأوروبية استمرار الهيمنة العثمانية لفترة طويلة فى هذه المنطقة.

---

(٣٠) وداد عرفى، ص ٢٨ .

(٣١) ستيورنيوس، اتحاد البلقان، تاريخ التحرك نحو وحدة البلقان فى العصور الحديثة، ١٩٦٤، ص ١٢٨ .

(٣٢) ماهر أيدين، ولاية شرق الروملى، نشر الجمعية التاريخية التركية، أنقرة ١٩٩٢، ص ٢٩٣ .

(٣٣) تورك جلدى، قضايا سياسية مهمة جـ٢، ٢٤٤ – ٢٤٥ .

وتحققت نتيجة طيبة أكثر مما كان يأمله عبد الحميد، أما من الناحية العسكرية فكان ضم منطقة" قير جالى" المهمة إلى ولاية أدرنة بمثابة مكسب إضافى للسلطان عبد الحميد(٣٤)، اتبع السلطان عبد الحميد سياسة صائبة فى عدم اختياره طريق التدخل العسكرى المحفوف بالمخاطر، ولا سبيل إلى التنبؤ بعواقبه، من أجل ضم ولاية بالقوة إلى بلغاريا، لا سيما أن الشعب المسيحى لا يحب الدولة العثمانية، ناهيك عن تضاؤل عدد السكان المسلمين وإن اختيار بلغاريا لتكون إمارة تابعة باختيارها للحكم العثمانى لم يكن أعظم من المناطق العثمانية الضائعة المفقودة ولا جرم أن شرق الروملى كان تابعا باختياره للإدارة العثمانية، وقد رأى السلطان أن ثمة أضرارا جسيمة قياسا بالمنافع والمصالح السياسية العثمانية وقد تلقت بلغاريا دروسا قاسية من ضم ولاية شرق الروملى إليها، وأسرع المتمردون الأرمن والقوى اليونانية الفعالة بالانقضاض على تركيا.

المسئلة الأرمينية

باتت المسألة الأرمينية إحدى القضايا المهمة التى شغلت بال السلطان عبد الحميد الثانى طوال فترة حكمه وقد انبثقت هذه القضية فى الوجود باعتبارها تيارا فعالا قويا يدعو إلى تقسيم الوطن، وباتت هذه القضية مسألة حياة أو موت بالنسبة لتركيا، وقام السلطان عبد الحميد بالحيلولة دون تقسيم الدولة وتمزيق أوصالها ولو لم يتبع السلطان هذه السياسة الحازمة الصارمة لما بقى أثر يذكر اليوم لوجود شرق الأناضول منضويا داخل إطار حدود الجمهورية التركية، ولتبوأت الدول الأرمينية مكانتها فى هذه المنطقة.

---

(٣٤) شو، جـ٢، ص ٢٤٨ .

أصل المسألة الأرمينية وأساسها

ما انفك السلطان عبد الحميد يناضل فى سبيل هذه القضية الأرمينية عدوين اثنين يتمثلان فى إنجلترا خارج الوطن والجماعات السرية الأرمينية داخل حدود الدولة وعلى الرغم من أن روسيا كانت أول من تسبب فى إبراز هذه القضية على مسرح التاريخ، فإنها ظلت طوال فترة حكم عبد الحميد تضطلع بدور إيجابى فى إثارة هذه القضية، ويرجع السبب فى هذا إلى أن روسيا بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى تستخدم الأرمن فى سبيل تحقيق أملها المنشود فى الولوج إلى البحار الدافئة، وتنزع إنجلترا كى لا تستخدم هذه البحار فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى.

أرادت إنجلترا فى أعقاب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م أن تضيق الخناق على الأراضى التركية مستغلة مناخ السياسة التركية المتغيرة فى ذلك الإبان، ووضعت نصب عينيها اتباع سياسة زرع الدول المستقلة لتكون بمثابة الدويلة الحاجزة، أو تثبيت ما يعرف بجدار الحريق للحيلولة دون امتداد النفوذ الروسى صوب الجنوب أو اتجاه طريق الهند وعقدت إنجلترا العزم على تنفيذ خطة إقامة الدولة الأرمينية المستقلة فى شرق الأناضول لتحقق مآربها سالفة الذكر وقامت إنجلترا من أجل تحقيق أغراضها بوضع المادة رقم واحد وستين فى معاهدة برلين لتكون أساسا للقيام بإصلاحات من أجل الأرمن القاطنين فى شرق الأناضول.[٣٥]

كانت إنجلترا تركض فى إثر خيال إقامة الدولة الأرمينية المستقلة، وكأنها تسعى إلى تحقيق الأمل الكبير للأرمن، وأخذت ببذل مساعيها لإيجاد هذه المادة سالفة الذكر والدوران حولها من كل اتجاه. كما أن الأرمن عرضوا أهمية هذه المادة من وجهة

(٣٥) اهتمت روسيا كثيرا بوضع معاهدة أياستفنوس ولا سيما المادة ٢٦ التى تنص على إصلاحات أرمينية، ودخلت روسيا إلى هذه المعاهدة لتحقيق مآربها، وفعلت إنجلترا الشىء نفسه.

نظرهم الخاصة، وذلك على النحو التالى" لم يعد ثمة بقاء للمادة ٢٦ من معاهدة آياستفنوس بعد أن حلت محلها المادة الحادية والستون من معاهدة برلين، وهذا يعنى أنه تم الاقتناع بتغيير الرقم المسلسل للمادة، وتم بمقتضاه وضع أسس بناء الدولة القومية " دولة الأرمن" التى سوف تؤسس فى المستقبل القريب".

لا جرم أن أوروبا لم تمنحنا الحكم الذاتى، ولكن هذه المادة قد منحته لنا، ولسوف نجتهد فى سبيل تحقيق أهدافنا وبلوغ ما نصبو إليه من طموحاتنا. ولقد وعد الباب العالى بإصلاحات ضرورية فى الأماكن التى يعيش فيها الأرمن، ولسوف تتحول هذه الإصلاحات ذات يوم إلى منح الحكم الذاتى، وخليق بنا ألا نفقد شجاعتنا. وعلينا الاجتهاد والسعى لتحقيق أعظم منفعة من النعم الممنوحة لنا، وقد قدمت أوروبا السلاح بين أيدينا، ولنستخدمن هذا السلاح قبل أن يصدأ.

ولقد وعد الباب العالى بالإصلاحات فى أرمينيا، وإذا لم تتحقق هذه الإصلاحات الموعودة، حينئذ ننتقل إلى مرحلة سفك الدماء.[٣٦] لقد كانت المادة الحادية والستون بمثابة حجر الأساس الذى وضع لتأسيس الدولة الأرمينية المتخيلة، وإن إقامة الدولة الأرمينية المستقلة قبيل موافقة الباب العالى سوف تغير من أحوال الدول الأخرى مثل: الصرب ورومانيا وبلغاريا ولبنان لتكون دولا مستقلة، مثلها مثل أرمينيا المستقلة[٣٧]، بادرت إنجلترا بالتحرك عقب معاهدة برلين؛ رغبة منها فى تحقيق الأهداف الأرمينية سالفة الذكر، وكان قد مضى شهر على هذه المعاهدة الموقعة، وقام السفير الإنجليزى" لايارد" فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٧٨م بتقديم مذكرة إلى الباب العالى وطلب فيها وضع المادة الحادية والستين موضع التنفيذ، وطلب فى المذكرة مايأتى: تشكيل مفرزة عسكرية تأتمر بأمر الضباط الأوروبيين فى ولايات شرق الأناضول، وتأسيس محاكم

---

(٣٦) بلال شمشير، الأرمن العثمانيون فى الوثائق الإنجليزية، مجلة، ملليت، عدد ٦٤، ١٩٨٣م ص ٦ .

(٣٧) كير وكيروين، ص ٦ .

فى ظل ولاية يتولى الحكم فيها قضاة أوروبيون، وإلغاء الجزية، وتشكيل هيئة من جباة الضرائب الأوروبيين[٣٨]، ثم قال السفير الإنجليزى لايارد": " إذا لم تنفذ الإصلاحات سالفة الذكر فإن الأرمن سيتمردون ويشقون عصا الطاعة مثل البلغار، ولسوف تتمزق أوصال الأناضول فى خاتمة المطاف، وكانت بلغاريا فى هذه الأيام بمثابة تذكير لها وكأنها نكأت الجرح القديم[٣٩]"، انتبه السلطان عبد الحميد وفتح عينيه جيدا أمام المطالب والتهديدات الإنجليزية سالفة الذكر، ولم يتردد كثيرا فى إدراك المغزى الحقيقى المستنبط من هذه الأحداث، وكانت بلغاريا الجديدة"بلغاريا الأرمينية" بمثابة العصا التى أراد" لايارد" تقديمها إلى يد السلطان، بل هى عصاة ذات طرفين مشتعلين. وإذا ما اضطلع عبد الحميد بتطبيق هذه الإصلاحات فسيئول الحكم فى هذه المنطقة إلى حكم الأوربيين، ولسوف ينتهى أمر الصرب وبلغاريا ولبنان.

أما إذا لم يطبقها فلسوف تبدأ الأحداث لتأييد الدبلوماسية لتصل إلى حد الكفاح المسلح، وتتدخل لكى تنقل شرق الأناضول بالقوة. وإن الحل الأول المتمثل فى تطبيق الإصلاحات كان محفوفا بالمخاطر، واختار السلطان الحل الثانى، وهو أهون الشرين وأخف الضررين، واعتمد اختيار هذا الحل على الدبلوماسية الحاذقة الماهرة.

إذا ما كانت الدول الأوروبية قد حاولت الابتعاد عن التعاون الأرمنى الإنجليزى فإن السهم قد نفذ، إذ تطورت الأمور فى ظل المناخ الدولى لصالح السلطان.

ورد السلطان على "لايارد" محامى الأرمن على هذا النحو:" كلا، ولكن الأرمن والإنجليز كليهما لن يقبلا الهزيمة، ولما كان سكان شرق الأناضول أقلية فإنهم يخشون تطبيق نموذج بلغاريا. وبعد ذلك فإن الأقلية الأرمينية الموجودة فى المنطقة لن تضطلع بسهولة بتمرد أو عصيان ضد السلطان لأنها مسرورة من الحكم العثمانى".

---

(٣٨) بايور، جـ١، ص ٦-٧ .

(٣٩) شمشير، ملليت، أعداد ٧-١٩٨٣،٤، ص ٩ .

وعندما رأى التحالف كل هذه المشاكل والصعاب، فإنهم بذلوا جهدهم لإجبار السلطان على تطبيق الإصلاحات، وأخذت المذكرات الإنجليزية تتراءى إثر بعضها ما بين أعوام ١٨٧٩-١٨٨٨م من أجل تحقيق هذا الغرض حتى جاء عام ١٨٨٨م فازدادت سرعة التهديدات الإنجليزية، وهدد رئيس الوزراء الإنجليزي اللورد"سالزبورى" السلطان عبد الحميد باستخدام السلاح إذا لم يسرع بتنفيذ هذه الإصلاحات(٤٠)، ولم ينزعج عبد الحميد ثانية، وتفاهم مع الموقف، واتخذ التحالف الإنجليزى الأرمنى قرارا بتنفيذ مشروع بلغاريا.

بدء الإرهاب الأرمنى

شرعت المنظمات الإرهابية الأرمينية فى مطلع عام ١٨٩٠م فى تطبيق مشروع بلغاريا، وأسس المدعو" آفانديس نظربك" أول منظمة إرهابية فى سويسرا سنة ١٨٧٧م، وتسمى" هينجق"، أعقبها تأسيس اتحاد الثورة الأرمينية فى روسيا سنة ١٨٩٠م، ثم قامت المنظمة الإرهابية المسماة" طاشناق" بتأسيس الدولة الأرمينية الاشتراكية، وافتتحت بعدها بضع شعب للمنظمات القتالية الثورية التى بدأت تتسرب فى جسد الأراضى العثمانية وتتغلغل بين ثناياها، كما شرعت هذه المنظمات الإرهابية فى تحريض الشباب الأرمنى على التمرد وشق عصا الطاعة(٤١)، فما الذى كانت تأمله كلتا المنظمتين الإرهابيتين" هجينيق وطاشناق" من وراء هذه الأحداث المضرجة بالدماء، والتى خططوا لها ضد تركيا؟ يميط الإرهابى هيجناق اللثام عن هذه المنظمات الإرهابية فى حديثه إلى الدكتور ههاملين" مدير مدرسة روبرت كولدج" فيقول:" إنهم سوف يغيرون على قرى المسلمين ويطلقون النار عليهم ويقتلون المسلمين ثم يفرون

---

(٤٠) جيرول، ص ٣٣٩ .

(٤١) لانجر، ص ١٥٦ - ١٦٣ .

هاربين إلى الجبال، أما المسلمون الغاضبون الذين يعتمدون على الأرمن فلسوف تسفك دماؤهم، ثم تأتى بعد ذلك روسيا فتتدخل فى المنطقة متذرعة بالأهداف الإنسانية (كما حدث فى اليونان وبلغاريا) وعندما قال الدكتور هاملين لهذا الإرهابى: إن هذا عمل شيطانى وهذه خطة شديدة القبح والشين، رد عليه الإرهابى قائلا: " يمكن أن تبدو لك على هذا النحو، فنحن الأرمن قررنا أن نكون مستقلين، وقد استمعت أوروبا لصوت الإرهاب البلغارى ومنحت البلغاريين الاستقلال، ولسوف ينصتون إلينا ويلقون السمع إلى صرخات الملايين من الأطفال والنسوة الذين سفكت دماؤهم، إننا متفائلون ولسوف نفعل هذا".(٤٢)

حدث نزاع شديد بين ممثلى الجمعيتين الإرهابيتين اللتين سلف ذكرهما وبين القرى والمدن الواقعة فى شرق الأناضول . وكان هذا فى عام ١٨٩١م، ولم يستطع الأرمن التمرد أو رفع راية العصيان، وتحطم الخيال والحلم اللذان كانا يراودان زعماء هذه الجمعيات الإرهابية، ويرجع هذا إلى أن الشعب الأرمنى لم يكن يريد التمرد أو العصيان ضد الدولة العثمانية، ولم تمتد يدهم إلى استخدام السلاح وإطلاق الرصاص على جيرانهم من المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم فى أمن وسكينة واستقرار، وسرعان ما تفتق ذهن زعماء الجماعات الإرهابية عن حيلة شيطانية لمواجهة هذا الموقف، وتتلخص هذه الحيلة الماكرة فى أن يتزين هؤلاء الزعماء بزى المسلمين ويهجمون على الأرمن، ويقتلون من يتصدى لهم من الأرمن من ذوى الشرف والحيثية، ولكن السلطان عبد الحميد اهتم كثيرا بأمر زعماء هذه الجماعات الإرهابية الذين يتزيون بزى المسلمين، مماجعل ناظر البوليس حسين ناظم باشا يكتب فى التقارير التى قدمها إلى السلطان فيما يتصل بالتعليمات المرسلة إلى الوفود الأرمنية فى مدينة" أدنة" من الجمعية السرية الأرمنية فى كل من إنجلترا ومارسليا.

---

(٤٢) المصدر السابق : ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وتتضمن هذه التعليمات ما يأتي" إن القادمين من أمريكا في زي الدراويش ومن أثينا في زي القرويين ومن فرنسا في زي رعاة الغنم الأكراد، ومن إنجلترا في زي طلبة المدارس الدينية، ومن إيطاليا في زي الأرناؤوط، كل هؤلاء جميعا سوف يتحدون معًا، ولسوف ينضمون جميعا إلى تمرد المتطوعين الألمان الذين يتزيون بزي الفلاحين، وعليكم أن تنفذوا بدقة إحكام التعليمات المرسلة إليكم من قبل بشأن تشكيل عصابات الهايدوت (قطاع الطريق)، ويكون من المناسب جدا التزيِّي بزي الجراكسة من أجل التأمين والسلامة".[٤٣] ولتقرأ مرة ثانية ما ورد في تقارير حسين ناظم باشا،" إن الجمعية الإرهابية الموجودة في إنجلترا تعلمت اللغة الكردية على يد شعبة الجمعية في نيويورك، وعددهم ثلاثون أرمينيا من المختونين، ولسوف يندسون في زي كردي ، ويعقدون العزم على ارتكاب بعض الجنايات ضد الدولة ويحملون أسماء مستعارة".[٤٤]

وهناك رجل أرمني يسمى" كاسبر كيرنهوس" يسكن محلة القساوسة بمقاطعة "عر قير،" وكان يضطلع بالتآمر وتدبير العمليات الإرهابية باسم مستعار هو"محمد علي".[٤٥] ويوجد كذلك ثلاثة عشر أرمينيا دخلوا تركيا في زي كردي من ناحية مقاطعة "محمودية" على الحدود الروسية، وشنوا هجمات على مواطنين عثمانيين أرمن.[٤٦]

وقد ناقش السلطان عبد الحميد هذه المسألة في مذكراته على النحو الآتي:" ثمة طائفة من الأرمن قد غيروا لباسهم وتزيوا بزي إسلامي، ويسعون في الأرض فسادا،

---

(٤٣) حسين ناظم باشا، تاريخ الحوادث الأرمينية، جـ١، الإدارة العامة للأرشيف - أنقرة ١٩٩٤م، ص ٥٧ .

(٤٤) المصدر السابق، ص ٦٣ .

(٤٥) المصدر السابق، ص ٦٣ .

(٤٦) المصدر السابق، ص ٦٢ .

ويقطعون الطريق، ويرتكبون كثيرا من الجرائم الأخرى، ولا تعلم صحافتنا شيئا عن هذه الجرائم".(٤٧)

ولم تشعر الصحافة المسيحية بهذه الحيل الشيطانية، وتقتصر مهمة هذه الصحافة على إخفاء ومدارة الفظائع الأرمينية بمشاعر وأحاسيس صليبية، ثم تلقى تبعة كل هذه الجرائم والفظائع على كواهل المسلمين وتحملهم المسئولية كاملة، وثمة اهتمام بمسألة زى الطلبة المتدينين نجده فى سطور الكاتب الذى يقول: "لقد قمت بمقابلة إرهابى أرمنى شاهد الأحداث وراقبها من كثب، إن كل الناس يقولون إن الأرمنى يدمر نفسه بنفسه، لقد حدث سفك أول دم مهم من أجل الغربيين الأرمن. وعندما يهاجم الأرمنى أرمنيا يستمر بعد ذلك سفك الدماء، وهذا ما حدث فعلا، فالأرمنى المتزيِّى بزى المسلم يقتل الأرمن المسيحيين، ثم انظر ماذا بعد ذلك؟ لماذا تتوقفون؟ إن المسلمين سوف يقتلونكم فاثأروا لأنفسكم واقتلوهم."

هكذا بدأت الدعاية التى تشعل الفتن وتصنع الأحداث، ثم يدخل عنصر الحقد الدفين فى النفوس ليأتى فى إثر التدخل بسفك الدم، ثم ما تلبث منطقة شرق الأناضول فى الترنح من جراء الأحداث المضرجة بالدماء، ولم تلتفت أوروبا إلى مثل هذه الأحداث الفردية الصغيرة، وكان لزاما أن تقع حادثة كبيرة. واختار الإرهابيون الأرمن جبال ساسون الصربية الواقعة جنوب غرب منطقة "موش" من أجل تنفيذ خططهم الإجرامية، ولما حل صيف عام ١٨٩٤ م قام ثلاثة آلاف من الإرهابيين واتخذوا لهم أوكارا فى هذه المنطقة، ثم شنوا بعد ذلك هجوما على إقليم ساسون واعملوا القتل فى زمرة كبيرة من المسلمين، وعندما بدأ المسلمون فى استخدام السلاح للذود عن أنفسهم عظمت الأحداث وباتت أشد خطرا، وقد حدث قبل ذلك أن أحدثت الصحافة الأوروبية ضجة كبرى من أجل الاستمساك بخطة الحفاظ على بلغاريا. وهرول سفراء الدول

(٤٧) خوجة أوغلو، مذكرات عبد الحميد، ص ٥٤ .

الأوروبية إلى قصر يلديز وهم يصطرخون قائلين: إن المسلمين يقتلون النصارى، وشرعوا يطلبون إلى عبد الحميد معاقبة الجناة المسلمين المسئولين عن هذه الجرائم، وأن يعجل كذلك بتنفيذ الإصلاحات المؤجلة، وشكل السلطان لجنة للعمل على تهدئة خواطر السفراء، وتدرس بعناية أسباب هذه الأحداث.

وانتهت اللجنة من التحقيق، وقدم أحد أعضائها وهو كامل باشا تقريرا إلى السلطان ورد فيه أن هذه الأحداث لم تقع بسبب معاملة وسوء إدارة الحكومة السنية العلية، ولقد تفجرت هذه الأحداث بسبب المادة الحادية والستين من معاهدة برلين، ودعا إلى هذه الثورة ثلة من المتمردين الأرمن. كما أن الذين يركضون فى إثر الاستقلال كذلك منحوا الاستقلال بموجب هذه المادة إلى كل من: رومانيا والصرب والجبل الأسود واليونان، ولا سيما أن إنجلترا ضالعة فى تحريض هذه الدولة على الثورة والتمرد[٤٨] وفى أعقاب أحداث ساسون قامت شرذمة بين أعوام ١٨٩٤-١٨٩٧م بالتمرد وشق عصا الطاعة فى مدن: زيتون وفان وآلازيغ وهاربورت وملاطية وعرب قير وحلب وعنتاب وأروفة وسيواس ومرزيفون وبتليس وطرابزون وأرضروم وأرزليجان وغيرها من المدن.

تلقيب عبد الحميد الثانى بلقب السلطان الأحمر

إن ما يدور فى الخلد فى كل حديث يتمثل قبل كل شىء فى هل يكون عبد الحميد هو السلطان الأحمر أو الحاكم العظيم؟ لقد تحمل أعداؤه وزر اتهامه بلقب السلطان الأحمر على وجه العموم، وغالبا ما يطلق هذا اللقب على عبد الحميد نفسه، فمن أين جاءت المصادر التاريخية بهذا اللقب؟ إن عبد الحميد لا يستحق مثل هذه الألقاب أو ما يشابهها على أى وجه من الوجوه، ولقد اضطلع الكتّاب ورجالات الدولة

---

(٤٨) مذكرات كامل باشا، جـ ١، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

النصرانيون بخلع هذا اللقب على عبد الحميد بسبب المسألة الأرمينية، زاعمين أنه سفك دماء الأرمن، وعلى حين استمر الإرهاب الأرمني فإن السهام كلها تحولت ضد عبد الحميد، وفي تلك الآونة اضطلع رئيس الوزراء الإنجليزي اللورد"جلادستون" بإعلان أن عبد الحميد هو كبش الفداء الذي انكشف دوره في بلغاريا الثانية(يعني بها أرمينيا).

ويرى جلادستون أن عبد الحميد هو المذنب الوحيد والمسئول الأول عن كل هذه الأحداث.(٤٩)

فهو في نظره تركي بغيض تعافه النفس(٥٠)، وحري به أن يلقب بلقب القاتل الكبير أو السلطان القاتل أو المجرم العظيم(٥١)، وهو جدير بلقب السلطان الأحمر.(٥٢)

وكان عبد الحميد في أعين الصحفيين الإنجليز وكتابهم بمثابة الملعون، وأنه بلاء من الله.(٥٣)

ومن الكتّاب الفرنسين: آلبرت فاندال، وألبرت شورال، وبيير فيار، وقد اضطلع ثلاثتهم بإلقاء التبعة على عبد الحميد وتحميله وزر المسألة الأرمينية، وخلعوا عليه لقب السلطان الأحمر.(٥٤).

أما الكاتب الفرنسي "جروي" فقد جعل من لقب السلطان الأحمر عنوانا لكتابه الذي فصل فيه القول عن سيرة عبد الحميد، وقام أحد أعضاء جمعية تركيا الفتاة

---

(٤٩) ويتلين، ص ١٧٨ .

(٥٠) دكتور إرنست جاكشن، الهلال السامي، ترجمة، قوتومان، إستانبول : ١٩٤٦م، ص ٦٦ .

(٥١) جيرول، ص ٣٤١ .

(٥٢) دكتور، فريدنوف نارسان، أرمينيا والشرق الأدنى، لندن ١٩٢٨م، ص ٢٩٠ .

(٥٣) ويليام إستيرن دافيس، التاريخ المختصر للشرق الأدنى، نيويورك، سنة ١٩٢٢م، ص ٣٥٧ .

(٥٤) دانشمند : جـ٤، ص ١٦٨ .

واسمه "عادل" بترجمة هذا الكتاب إلى التركية بالعنوان نفسه، ألقت جمعية تركيا الفتاة اللوم على كاهل عبد الحميد ولقبوه كذلك بلقب السلطان الأحمر مقلدين في هذا السبيل رجالات الدولة الأوربيين وكتّابهم دون أن يعلموا شيئا عن جوهر الحقيقة وأساسها، ولنضرب طائفة من الأمثلة التى دونها هؤلاء بخط يدهم مما يعد فى هذا الباب خطأ لا يغتفر ورجسا مستقذرا ووصمة عار فى تاريخنا." إنه عبد الحميد الوحش الأحمر، يده مضرجة بالدماء، السفاح، سافك الدم، السلطان الأحمر"(٥٥)، إنه السلطان الأحمر عبد الحميد، وهو طائر البوم، وهو السلطان الذى يذكرنا بتمثال الظلم(٥٦)، وهو السلطان الأحمر عبد الحميد حتى الأمس القريب.(٥٧) "وهو عريض القفا، استغل الدولة وكأنها مزرعة فمزقها وباعها وأكلها وأجهز عليها ثم هضمها.

لا فرق بينه وبين أخيه وحيد الدين الذى باع الوطن وألحق به الإهانة والتحصير والهوان والصغار، وهو لا يستحق نفور الأمة ولعنة الشعب التركى أقل مما وصم به أخوه وحيد الدين(٥٨)، ويتوجب أن نتحدث بحذر دائم أمام لقب السلطان الأحمر(٥٩).

" لقد كان عبد الحميد واحداً من أفظع الدكتاتوريين الذين سحقوا الأمة التركية(٦٠).

---

(٥٥) جـ. روى، السلطان الأحمر، أو هيكل الاستبداد، ترجمة عادل، مطبعة قطمونى ١٣٢٥هـ، ص١ – ٢٧ .

(٥٦) الأمير صباح الدين، الإيضاح الثالث والأخير بشأن الرسائل المفتوحة إلى جمعية الاتحاد والترقى، إستانبول ١٢٢٧هـ، ص ٢٩ .

(٥٧) مدحت شكرى بلدا، انهيار الإمبراطورية، استانبول ١٩٧٩م، ص ١٦ .

(٥٨) تحسين أوزر، تاريخ قطاع الطريق فى مقدونيا والحكم العثمانى الأخير، نشر الجمعية التاريخية التركية، ص١١٣،٢٤٦، ٢٤٨ .

(٥٩) غالب كمال سويلمز أوغلو، ثلاثون عاما فى خدمة الخارجية، جـ١، إستانبول ١٩٥٥م، ص ١٧٤ .

(٦٠) على ناجى، إما الحرية وإما الموت، مكتبة معلم أحمد خالد، إستانبول ١٩٣٤م، ص ٥ – ٦ .

حقا أكانت الحالة على هذا النحو الذى سلف ذكره؟ هل كان عبد الحميد بحق السلطان الأحمر والقاتل العظيم وصاحب الصفات الأخرى التى نسبت إليه؟ إن حكم التاريخ يرد على هؤلاء جميعا قائلا: كلا. ولنقرأ طرفا من أحكام التاريخ:" إن إطلاق لقب السلطان الأحمر أو السلطنة الحمراء تعنى فيما تعنى سفك الدماء وإراقته، وهى إشاعة جرت على ألسنة أعداء الترك والإسلام، وقول تحدث به أولئك المغرضون الحاقدون من أهل الوطن الذين تواطئوا مع الأجانب للدفاع عما يزعمون ويفتئتون به على السلطان وعصره، وإن الدفاع عن السلطان هو واجب يفرضه إحقاق الحق دون تحيز أو محاباة.(٦١)

يقول محمود كمال إينال: "إن التعبير الذى ورد فى كتاب الفرنسى روى والمعنون باسم السلطان الأحمر ووصف فيه عبد الحميد بأنه ورم خبيث، هو لاريب محض أكاذيب مفتراة، ويزعم لنا الكاتب الفرنسى أن عبد الحميد كان معه خاتم يختم به على بعض المستندات والأوراق، ولهذا الخاتم صلة وثيقة بجرائم القتل المتعلقة بأحداث الأرمن".

كان عبد الحميد بفطرته يتضرر من سفك الدماء، كما كان من الناحية الدينية يحجم عن قتل أولئك المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام بموجب أحكام المحاكم، وكان لا يتردد فى تغيير الحكم إلى السجن المؤبد.(٦٢) " ويبدو أن أحكام الإعدام التى نفذت فى عصر عبد الحميد طوال مدة سلطنته التى دامت ثلاثة وثلاثين عاما لم تتجاوز بضعة أشخاص، وقد وضعت المشانق بعد عصر عبد الحميد، وكانت أخشاب الغابات التى تصنع منها المشانق تشكل شيئا مقدسا مباركا.(٦٣)

" إن الزعم بأن السلطان عبد الحميد كان شديد الانهماك فى أمور حياته الخاصة ما هى إلا ادعاء قد أحدث رد فعل واسع النطاق، ونجم عنه صخب وجدل كبيران، إنه زعم لا دليل عليه ولا يثبت عند النقد، إنه افتراء كاذب منقوض من أساسه، لقد أنفقت

---

(٦١) مذكرات الطبيب الجراح حازم باشا، إستانبول ١٩٤٥م، ص ٤٢ .

(٦٢) إينال، ص ١٨٩ .

(٦٣) دانشمند، جـ٤، ص ٢٨٨ .

من عمرى أربعة عشر عاما فى خدمة الكتابة، ولم تتجاوز الأحكام الصادرة بحق المجرمين إبان هذه الحقبة مائة حالة".

وكان السلطان يصدق على أحكام الإعدام على من يقتلون آباءهم وأمهاتهم فقط[٦٤]، أما أحكام الإعدام الأخرى التى تصدر بحسب الأسباب المحيطة بالجريمة فكان السلطان يغيرها إلى المؤبد أو السجن الذى تتراوح مدته من عشرين إلى خمس وعشرين سنة أو إلى عقوبة أخف من هذا وذاك.[٦٥]

" لم يكن عبد الحميد سفاحا، وأنا أصر على تكرار ما أقول، كان ينفر من إعدام أى شخص، وكان بفطرته يجنح إلى المرحمة والشفقة".[٦٦]

" بلى لم يكن عبد الحميد سيئا إلى الحد الذى نخلع عليه صفة القاتل الكبير، وكان يشعر بغصة ومرارة عندما يعلم بهذه الصفات المرنولة المشينة ويستهجنها".[٦٧]

ولننظر مليا فيما كتبه عبد الحميد وتفوه به:" إن الحملات الصليبية المدبرة ضد تركيا لم تتوقف بعد، وإن رئيس وزراء إنجلترا" جلادستون" الأحمق قد فعل ما فعل بإذن من البابا بول، واستمرت النزاعات فى الغرب إبان العصر الوسيط، وأخذت تطرد وتزداد، وتم تطبيق أشد صنوف الظلم والاضطهاد بين النصارى بسبب الاختلافات المذهبية والدينية، والآن فإن الذين فروا من الظلم والاضطهاد ينكرون أنهم لاذوا بتركيا واستجاروا بها، أما محاكم" أنجيز سيون" التى عقدت فى إسبانيا فقد اضطهدت اليهود، ونكلت بهم وعرضتهم للنفى والتشريد، وكانت تركيا هى التى قبلتهم واحتضنتهم ووفرت لهم أماكن آمنة يأوون إليها، وأضرب مثالا على هذا هل يعلم

---

(٦٤) هذه هى الجناية العادية، وهذا هو الإعدام الوحيد الذى صدق عليه السلطان، بيد أنه لم يعدم أحدا قط من مرتكبى الجرائم السياسية

(٦٥) أحمد رشيد رى، ص ٢٧ .

(٦٦) مذكرات على أكرم بولاير، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٦٧) وودز، ص ١٢٧ .

الرجل الأول للإنجليز جلادستون رئيس وزرائها شيئا مما يخص المسألة الشرقية؟ إنه يقول: إن حكوماتنا لا تحكم بالقوانين، وإنما تدير دفة الأمور بالشدة والقسوة. وأستطيع أن ألخص ما يتفوه به هذا الرجل من هجوم وتعريض وأصفه بأنه ضرب من الهذيان وسخف القول والهراء.

هل تسنى لما نشر بالصحف الإنجليزية من قبل أن يثبت على وجه اليقين أنني قاتل للبلغار والأرمن من بعدهم، إنها جميعا أقوال كاذبة خاطئة من أساسها.

إن أي شخص يعيش في الشرق حقبة طويلة من الدهر يستطيع أن يحكم دون تحيز بأن النصارى الذين يقطنون في الشرق هم أفضل حالا من المسلمين.(٦٨)

ثم يستطرد السلطان فيقول عن هذه المسألة في موضع آخر من كتابه: " ليس عندنا نماذج من الوحشية والقسوة الموجودة في معاملة الفرنسيين للجزائر أو إنجلترا للهند أو روسيا للصرب أو بلجيكا للكونغو، ناهيك عن أنه ليس هناك شخص في الغرب اضطلع بالبحث في هذه الجرائم أو تصدى لمناقشتها، أما إذا نزفت أنف نصراني واحد في إستانبول، فسرعان ما تحدث ضجة كبرى في الصحافة الغربية ضد تركيا، ثم يتحدث السلطان عبد الحميد لابنته شادية وهو يرد على الافتراءات التي تتهمه بسفك الدماء ويقول: " أعوذ بالله، إنني لم أقدم على ارتكاب عمل واحد يعذب ضميري، ولم أقطع رأس إنسان من أجل منفعتي أو سبيل مصلحتي الشخصية، ولم أصدق على إعدام أي شخص، بيد أنني صدقت على إعدام أحد خصيان(٦٩) القصر قصاصا لارتكابه إحدى الجرائم"(٧٠)، وقد تحدث عبد الحميد إلى اليوزباشي " دبرلي

(٦٨) عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص ١٢٦ .

(٦٩) من الألقاب المستعملة في القصر العثماني، يطلق على العبد من الخصيان أو ما يعرف بغير أولي الإربة، وهو عبد أسود كنا نراه في التاريخ القديم يعمل بالخدمة في قصور رومانيا وعند العباسيين إبان العصور الوسطى، وفي قصور العثمانيين كذلك، وهذا الصنف من العبيد يضطلع بالخدمة في جناح النساء بالقصر ويحافظ عليهن ويراعيهن، وكان كثير من هؤلاء الخصيان يأتون من الولايات المصرية (المترجم)

ذى النون" محافظ سلانيك، وناقش معه هذه المسألة قائلا له:" يقولون علىَّ إننى السلطان القاتل الظالم والأحمر، ولننظر ماذا عسى أن يقول التاريخ لهؤلاء ؟ أرجو من الحق سبحانه وتعالى أن يرينى عاقبة هؤلاء جمعيا".[٧١]

بلى إن السلطان لم ير عاقبة هؤلاء جميعا، وقد رأى التاريخ، وحكم عليهم دون شفقة أو مرحمة، لقد كانت جماعة تركيا الفتاة بمثابة عصابة من المغيرين السالبين الغاصبين، وظهرت الطغمة الظالمة فى جبال مقدونيا، وتولوا سلطة نعموا فيها بالرفاهية وبحبوحة العيش، ثم ما لبثوا أن نزلوا من الجبال إلى إستانبول على شكل عصابة، وبدأوا يديرون دفة الأمور بأساليب مجرمى العصابات، ثم فروا هاربين إلى أوروبا على متن سفينة ألمانية فى منتصف الليل سالكين مسلك العصابات المحترفة، وكان هذا فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨م، بعد أن نهبوا وسلبوا ميراث السلطان.

ولم يكن لهذه العصابات عمل نافع تضطلع به، بل كانت مهمتهم مقصورة على التخريب والتدمير والتحريق وسفك الدماء، وأحرقوا ودمروا وشنقوا ثم ولوا هاربين. كان عبد الحميد يعلم علم اليقين أن إطلاق صفات القاتل والملعون عليه كانت بسبب المسألة الأرمينية، حقا من يكون الشيطان القاتل الملعون؟ ولنر هذا بعد قليل.

الشيطان القاتل الملعون هو التحالف الإنجليزى الأرمنى

ضاق عبد الحميد ذرعا وأصابه اليأس والأسى فى قصر يلديز بسبب إرهاب الأرمن، وكان من عاداته أن يستقبل كل الصحفيين الأجانب ويخصهم بالاحترام والتوقير.

وذات مرة استقبل مستر" جوردون بنيت" مراسل صحيفة نيويورك هيرالد الذى

---

(٧٠) شادية عثمان أوغلو، ص ٤٠ .

(٧١) أرتورك، ص ٢٢ .

جاء لبحث المسألة الأرمينية، وعندما قال له بنيت: إن أصحاب الفخامة الحكام الأوروبيين يريدون أن يدافعوا عن إيمانهم الراسخ الذى يتضمن فى الحقيقة تزييفا واختلاقا فيما يتصل بالفواجع والجرائم الأرمينية، أهذا شيء شرعى أم لا؟

وحينئذ رد السلطان عليه قائلا:" يا سيد بينت، لا جرم أننى موافق تماما على إرسال واحد موثوق فيه من أجل تحرى الأسباب واستقصائها من أجل الحكم علينا، ولكن من ذا الذى يتوجب على اختياره ؟ فلو أننى اقترحت اسما بعينه، فإن هذا يعنى الصياح فى وجه ذلك الممثل الذى يخدع السلطان، وإن العثور على هذا الشخص سوف يناسبك أنت تماما، ثم قال بنيت: "بلى، إنه إنسان شريف صادق ذو حيثية، ولا قبل لأحد أن يرتاب فيه، إنه صديقى جورج هيبورث الموجود فى مدينة بوسطن، فقال السلطان أحضره فورا، قال بينت" إننى مضطر إلى إخبار أحد الرهبان البروتستانت بذلك، إنه شخص جذاب جدير بالحب وغير خاف على الأرمن، وهو جمهورى".

قال السلطان إن هذه الأشياء ليست عقبة بالنسبة إلى، ويكفى أن يكون هذا الشخص محايدا غير منحاز.(٧٢)

كان عبد الحميد يعيش فى غمرة من بهجة السعادة الطاغية لوجود قاض عدل صادق سوف يبرئ ساحة الدولة العثمانية ويجلى وجه الحقيقة. وسرعان ما استدعى ج. هيبورث من أمريكا، ولنتعرف على بقية الأحداث مما سطره قلم السلطان" كان برفقة هيبورث أحد الكتبة المترجمين، وضممت إليه اثنين من مساعدىّ وستة من الفرسان، ويكفى أنه رجل غريب لا يعرف بلدنا جيدا، ورغم براءتى وطهارة ساحتى وتبديد ركام الضباب الكثيف وتمزيق حجب الظلمات التى رانت على فهمى وإدراكى للأمور، فهل يوفق هذا الرجل فى التخفيف من وطأة المسئولية الساحقة الملقاة على عاتقى؟ هكذا كانت حالة الارتباك والانذهال تحيط بخليفة الإسلام من كل جانب،

(٧٢) جريس، ص ٢١٢ .

ثم وجد أخيرا هذا القسيس البروتستانتي الذى عسى أن يميط اللثام عن وجه الحقيقة.[٧٣]

وجاء القسيس هيبورث وطوف بأرجاء الأناضول والتقى بأناس من كل الأديان والأجناس والأعمار والطبقات، ثم كشف النقاب عن المسئولين الحقيقيين عن فاجعة الأرمن، ولنقرأ ما دونه السلطان عن الإرهاب الأرمنى فيقول: "تأتى إنجلترا فى المقام الأول فى صدارة الدول الأوروبية؛ حيث اضطلعت بالتحريض والإثارة، متبعة فى ذلك سياسة النفاق والمداهنة من وراء هؤلاء وهؤلاء، وكان هيبورث يعتقد اعتقادا جازما بأن إنجلترا لو لم تضطلع بدور فى إشعال هذه الثورة، ولو لم تعد الأرمن من قبل بالاستقلال وتتخذ قرارا بهذا لما وقعت أحداث القتل والتنكيل والتعذيب.

واقتنع هيبورث اقتناعا تاما بأنه مهما يك من شيء فإن السلطان هو البرىء الوحيد من كل هذه الجرائم، ومسئوليته تكاد تكون محدودة. وإذا كان السلطان قد أحيط علما ببعض الألفاظ السيئة، فإنه ليس بقاتل على الإطلاق.

كانت كلمات القس هيبورث قد أخمدت ثورة البركان المستعر فى قلب السلطان، كما أنها كانت بمثابة العطف والمرحمة على إنسان كان يشعر فى الدنيا بأنه مقبور فى وحدة وعزلة سلطانية، "وكانت شهادته بالنسبة لى تعزية ومسلاة لفؤادى المقروح، إن هذا القس قد أبدى شجاعة منقطعة النظير فى الدفاع عنى".[٧٤]

طوف هيبورث بشتى أرجاء شرق الأناضول سنة ١٨٩٦م، ونشر انطباعاته عن هذه الرحلة فى كتاب قدمه *إلى السلطان* وأسماه "عبر أرمينيا على صهوة جواد".[٧٥]

---

(٧٣) المصدر السابق، ٢١٣ .

(٧٤) جريس، ص ٢١٨ .

(٧٥) واسمه بالإنجليزية The Row Armnenia on Horse Back

هيا بنا الآن نقرأ مقتطفات من هذا الكتاب متضمنة نص حديث تفوه به عالم أرمني إلى هيبورث قال فيه: "أواه! لقد كنا قبل ذلك شعبا ميمون الحظ والطالع يدفع الجزية، نؤدى أعمالنا بكل قوة، نعيش فى راحة وطمأنينة ورفاهة ورخاء، ثم جاءت معاهدة برلين، ألم تتآمر إنجلترا فى هذه المعاهدة ؟ولو تركتنا أوروبا لحال سبيلنا لتسنى لنا أن نكون أصحاب مستقبل طيب واعد، ولكنهم رأوا أن يلقوا بنا فى حالة شديدة السوء، واسفى لقد تخربت دولتنا وباتت يبابا".(٧٦)

ثم يتحدث هيبورث عن هذه المسألة، ويقوم النتيجة المستخلصة من هذه الأحداث قائلا:" لو قلت باختصار إن الجماعات الأرمينية السرية هى المتسببة فى الفتك بالأرمن واستئصال شأفتهم لكنت تفوهت بحقيقة شديدة الأهمية، كان من الممكن إحباط هجمات الجماعات الإرهابية الأرمنية واعتداءاتها، فقد كانوا يجهرون صراحة بأهدافهم وغاياتهم.

وإذا كانوا فى نهايةالأحداث قد اضطلعوا بالتحريض على أن يقتل الترك والأرمن بعضهم بعضا، فإنهم كانوا على يقين بأن أوروبا سوف تتدخل وتلجأ إلى استخدام القوة، ثم تتمكن فى النهاية من الاستحواذ والسيطرة عليها، وهذه مواقف لا يمكن أن ترى المستقبل وعواقبه، وهؤلاء الأرمن الذين اضطلع الروس والإنجليز بتحريضهم وإثارة حوافظهم عن طريق المكر والتآمر والاحتيال، قد توصلوا بدورهم إلى قرارت خاطئة منقوضة من أساسها.

وكانت إنجلترا تحرض هؤلاء الأرمن وتثنى على جهودهم الجديدة، كما كان الإنجليز عند اشتداد ظلمة الليل يسرعون بالتطواف خفية بين الأزقة والشوارع ويلقون بالسمع إلى هؤلاء الأرمن ويحثونهم على التمرد والعصيان ويعدونهم بأنهم سوف يهبون إلى مساعدة حكوماتهم.(٧٧)

---

(٧٦) جورج هيبورث، عبر الأناضول على صهوة جواد : ص ٣٣٢ .

(٧٧) هيبورث، المصدر السابق، ص ٣٣٩ - ٣٤٢ .

كانت إنجلترا تجرجر الأرمن نحو الإرهاب وتحرضهم عليه، ولم تكن حريصة على استقرار الأوضاع أو عدم استقرارها بالنسبة للأرمن فى شرق الأناضول. ويعترف بهذه الحقيقة زمرة كبيرة من شهود العيان من النصارى الغربيين، ناهيك عن هيبورث الذى سبق وأدلى باعترافاته، ولنورد فى هذا السياق الاعترافات على النحو الآتى:

" بدأت الحالة فى أرمينيا تزداد سوءا شيئا فشيئا عقب مؤتمر برلين، ولا سيما داخل منطقة الأناضول؛ حيث سرى شعور عميق بمسئولية السياسة الإنجليزية التى ما انفكت تحرض الأرمن بحجة الدفاع عن حقوقهم وتأمين الإصلاحات من أجلهم وتأسيس دولة مستقلة لهم، وقد فعلت إنجلترا فعلتها بدافع من الحمية النصرانية، بيد أنها بالغت فى اعتناق فكرة إقامة دولة أرمينية مستقلة لتكون بمثابة عقبة كأداء تحول دون تقدم روسيا صوب الجنوب.(٧٨)

ويرى" لانجر" أن سبب الفظائع الأرمينية المروعة يتمثل فى أولئك الأرمن الذين حرضهم الاستعمار الإنجليزى الذى اتخذ له وكرا فى إنجلترا.

وتمخض عن كل هذا الاتهام الغريب والافتراء العظيم على السلطان بأنه السلطان الأحمر السفاح، لقد كان عبد الحميد مثابرا مجتهدا صادقا مخلصا يفتتن به كل إنسان فى أساليب الحكم والإدارة التى كان ينتهجها.(٧٩)

وهاهو ذا الجنرال" مايسفك" الذى كان يعمل قنصلا لروسيا فى مدينتى فان وبتليس إبان اشتداد وطأة الإرهاب الأرمنى فى شرق الأناضول؛ حيث يدون فى مذكراته قائلا:" ممن كانت تتكون عصابات قطاع الطرق الأرمينية ؟ أكانوا يذودون عن حياض دينهم وسلامة وطنهم، ويدافعون عن عوائلهم وسلالاتهم؟ لم يحدث هذا فى أى وقت من الأوقات، إنهم كانوا فتية مدنيين لا قبل لهم بمعرفة أى شىء على الإطلاق، ويتم

---

(٧٨) wash burn، ص ٢٠ - ٢١ .

(٧٩) لانجر، ص ١٥٤ - ١٦٠ .

اصطيادهم بالألفاظ البراقة للجماعات الإرهابية، وهم على وجه العموم ثلة من الجاهلين الذين لا يستطيعون رؤية أتفه المسائل البسيطة العادية، وهم بصنيعهم هذا كانوا يجرون أبناء وطنهم إلى شفا حفرة من المصائب والنكبات.

وفى سنة ١٨٩٥م كان قسم كبير من مؤسسى الجماعات الإرهابية يوقرون محرر الأمة ومنقذها، وكان منهم كذلك من يخوفه، وكأنهم وباء، أما شكايات الأرمن الموجودين فى تركيا فلم تكن متعلقة أصلا بسكان المدن، وكان هؤلاء أحرارا فى كل زمان، كما كانوا نفعيين انتهازيين فى كل شأن من شئون الحياة.

أما القرويون فكان وضعهم أحسن حالا من أمثالهم من القرويين الروس، إذ كانوا يعيشون بفضل إلمامهم ودرايتهم بحرفة رى الأراضى والعمل فى المزارع على حد سواء، ولا يحسبن أحد أن القرويين الأرمن كانوا معرضين دائما لهجوم الأكراد، لأن الحقيقة لو كانت كذلك، لتوجب ألا يكون هناك فرد واحد فى هذه المنطقة.

وعلى كل حال فقد كان القرويون الأرمن فى كل زمان أكثر ثراء من القرويين الأكراد وأشد منهم طهارة وعفة ومزية وفضلا.(٨٠)

ثم يستطرد الجنرال موياوسكى فى مناقشة مسألة التأييد القوى الفعال الذى اضطلعت به الحكومة الإنجليزية فى مساعدة الجمعيات السرية الإرهابية الأرمينية، ومؤازرة القناصل الإنجليز الموجودين فى هذه المنطقة لهم، وهاهو ذا يدون ما يأتى: إذا ما شوهدت الجماعات الإرهابية فى أى مكان، ألفينا أن حادثة جبل "ساسون" هى أبرز دليل على الشروع فى القتل والتنكيل والنهب والسلب الذى حدث فى هذه المنطقة.

وكان الأمر على النقيض من ذلك، إذ كان الأرمن ينعمون بالراحة والطمأنينة فى المناطق التى لا وجود فيها للجماعات الإرهابية الأرمينية.

---

(٨٠) جنرال موياوسكى، الإحصاء العسكرى لولايتى وان وتبليس، المطبعة العسكرية، إستانبول، ١٣٣٠ هـ، ص ١٢٢ .

وإذا ما انسحبت هذه الجماعات الإرهابية من أى مكان فإن الأرمن الموجودين فيه سرعان ما يشعرون بالراحة، وتقر أعينهم بالدعة والسكون.

والآن فإن هذه الجماعات الإرهابية قد بدأت فى ممارسة نشاطها من جديد، ومن ثم فإن الأرمن سرعان ما كانوا يلقون العنت واللغوب مرة أخرى،[٨١] وثمة طائفة من الإنجليز أنفسهم اضطلعوا بدور البطولة فى إشعال نار الفتنة فى المسألة الأرمينية.

وهاهو ذا" روبرت جرافيس" الذى كان يعمل فى القنصلية الإنجليزية بأرضروم إبان الأحداث التى وقعت بين عامى ١٨٩٤-١٨٩٦م، يدون فى مذكراته واصفا حياة الهدوء والاستقرار اللذين كان ينعم بهما الأرمن فى تلك المنطقة، وكيف بدأ هذا الاستقرار والهدوء يتعرضان إلى الاضطراب والفتن والمؤامرات عن طريق الأحداث المضرجة بالدماء التى كانت الجماعات الإرهابية الوافدة من خارج الوطن ضالعة فيها.[٨٢]

أما" أرمنيوس فامبرى" العميل والمراقب السرى للحكومة الإنجليزية والموجود فى إستانبول فقد قدم فى ٤ يناير ١٨٩٤م بعض الأفكار المهمة إلى اللورد سالزبورى وزير الخارجية الإنجليزى وورد فيها ما يأتى:" حرى بنا ألا ننسى الحقيقة التى فحواها أننا لا نستطيع التضحية ببضعة آلاف من المسلمين من أجل بضع مئات من الأرمن المشتتين المتفرقين فى شتى أرجاء الأناضول، وإن مساعينا وجهودنا الإنسانية يمكن أن يتمخض عنها ضرب من الظلم والجور والتعسف، ألم نكن بهذا الصنيع قد عرضنا مصالح بريطانيا العظمى المستعمرة إلى خطر جسيم حيث فتحنا[٨٣] الأبواب الجنوبية الشرقية للأناضول على مصر، وليس أمام روسيا التى تريد النزول إلى منطقة" مازبو طاميا"، ولقد نظرت إلى الحادثة الأرمينية من زاوية إنجلترا، وإن كل خطوة تتجه نحو

---

(٨١) المصدر السابق، ص ١٣٤، ١٥٣، ٢١٥، ١٤٨ .

(٨٢) روبرت جرافيس : ذكريات شخصية للمراكز العاصفة فى الشرق الأدنى ١٨٧٩-١٩٢٩م، لندن ١٩٧٥، ص ١٢٠ - ١٤٣

(٨٣) فامبرى، لم تكن إنجلترا تخشى قيام دولة أرمينية، بل من قدرة روسيا على التدخل .

إقــامـــة دولـــة أرمـينـــيـة، مـا هى إلا هجـوم خـاطئ مـوجـه نحـو المصـالح والمنافع الحياتية الإنجليزية.

وهذا ما يريده حزب المحافظين، أما رجالات الدولة من ذوى الضمير من حزب الأحرار الإنجليز فإنهم سيضطرون إلى القول بضرورة توقف ما يعرف بالخيالات الساذجة لهؤلاء الأرمن، وحينئذ يكون موقف كل من الروم والرومان والبلغار والصرب الذين يعيشون فى جماعات متحدة أنهم يتعذر عليهم أن يكونوا نموذجا يجرؤ على تقليد طائفة الأرمن المشكلة من جماعات قليلة نادرة.(٨٤)

الإرهاب الأرمنى فى إستانبول

انتقل الإرهاب الذى بدأ فى شرق الأناضول إلى إستانبول، ولما كانت إستانبول هى العاصمة فى ذلك الإبان فإن الإرهاب الأرمنى كان يأمل فى جذب انتباه أوروبا عن طريق الأحداث الدامية التى لم يمكن أن تحدث فى هذه المدينة.

ظهر أول حادث إرهابى أرمنى فى إستانبول سـنة ١٨٩٥م، وخطط له الإرهابى " هينجاق"، حيث تجمهر الأرمن فى كنيسة البطريرقية الأرمينية فى منطقة" قوم قابى"، وبدأوا فى السير نحو الباب العالى، ولما وصلوا إليه طلبوا لقاء وفد من الباب العالى، ولم تقبل طلباتهم، وقتلوا الضابط ثروت بك الذى أبلغهم بقرار الرفض.

أما الأرمن الذين حرصوا على عدم وجود وحدة عسكرية ضد هؤلاء فإنهم بدأوا فى الصدام والعراك مع الخلائق المسلمين، ونجم عن هذا النزال إراقة الدماء لمدة ثلاثة أيام متصلة فى إستانبول وسقوط عدد من القتلى فى صفوف الطرفين المتنازعين.(٨٥)

---

(٨٤) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٦٣ .

(٨٥) ضيا قرال، جـ٨، ص ١٤٢ .

وسرعان ما هرول سفراء الدول الكبرى إلى القصر بسبب هذه الأحداث. وصرفوا السلطان عن الطعام وأجبروه على الالتقاء بهم، ونقل عبد الحميد هؤلاء السفراء إلى صالون القصر بفتور ورباطة جأش وهدوء، ثم أراهم السلطان البنادق والأسلحة المتراكمة التى جمعها من الأرمن، وقال لهم ما يأتى: إن الأرمن من رعايا الروس قد اعتدوا بهذه الأسلحة على رعايا المسلمين، وإن مصانع هذه الأسلحة لا وجود لها فى مملكتى السلطانية.

وما لبث السلطان أن اصطحب هؤلاء السفراء إلى حجرة ثانية وأراهم أكواما من الهراوات الغليظة المخزونة فى هذه الحجرة ثم قال للسفراء: إن رعاياى يدافعون عن أنفسهم بهذه الهراوات التى حصلوا عليها من غاباتنا.

وحينئذ عجز السفراء عن التفوه بشىء أمام التوضيح المنطقى الذى بينه السلطان، وما لبثوا أن انسحبوا وهم يسلمون على السلطان بتجلة واحترام.(٨٦)

أراد الأرمن التوجه إلى الباب العالى مرة أخرى، حتى إنهم أرادوا اقتحام الباب العالى والولوج إليه على جناح السرعة، بيد أنهم لم يتمكنوا من فعل فعلتهم بسبب الإجراءات الأمنية المشددة، وشنوا فى هذه المرة هجوما على البنك العثمانى الموجود فى منطقة "غلطة"، وكان عدد المغيرين على البنك عشرين إرهابيا قدموا جميعا من خارج إستانبول، وهم ينتمون إلى الجماعات السرية الإرهابية، وكانوا مسلحين بالقنابل والمسدسات، وكانت غارتهم على البنك فى مساء يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦م، وحجزوا أحد الرهائن.(٨٧)

وإذا أرادت الحكومة العثمانية إخراج الإرهابيين عن طريق شن هجوم على البنك فإن سفراء الدول الكبرى سيتدخلون، حينئذ جاء مدير البنك" إدجار فينسيت" إلى قصر

---

(٨٦) أرتوك، ص ٤١ .

(٨٧) أرتورك : ص ١٤٤، وجريس، ص ٢٢١ .

يلديز فى معية مترجم السفارة الروسية، وجلسوا للمساومة من أجل تسليم الإرهابيين الذين قالوا إنهم إذا خرجوا إلى خارج البلاد بسفينة أجنبية فإنهم سوف لا يشرعون فى قتل الرهائن، وأمر السلطان بأن ينزلوا ويركبوا يخت مدير البنك العثمانى المنتظر فى الميناء، وكانت المصادمات العنيفة قد وقعت بين الأرمن والمسلمين فى أثناء تفجر الأحداث عند شن الهجوم على البنك، وقتل الحمالون والأرمن المهاجمين بالعصى والهراوات التى كانت فى أيديهم.[٨٨]

السلطان عبد الحميد الثانى: إننى أفضل الموت

وإذا ما ألقينا نظرة على رأى عبد الحميد فى المسألة الأرمينية ألفيناه يدون فى مذكراته قائلا:" إن المواد المتعلقة بالإصلاحات المتصلة بالأرمن ومقدونيا والمدرجة فى معاهدة برلين لا تحمل معنى آخر سوى خدمة المصالح الأرمينية والرومية على حد سواء".[٨٩]

ثم يميط عبد الحميد اللثام عن الوجه الحقيقى للإصلاحات الأرمينية فيقول:" إن الغرض الخفى المستتر وراء هذه الإصلاحات هو القضاء على الإسلام، ولسوف يكون سببا فى تفضيل الأرمن وسيطرتهم وإحكام قبضتهم على أزمّة الأمور، ثم ينتهى الأمر باستقلالهم التام، وهذا يعنى توجيه ضربة قوية إلى استقلال الدولة العلية وتهديد أمنها واستقرارها.

لم يكن السلطان مسرورا قط من أى رجل من رجالات الدولة الذين عينهم للاضطلاع بمهمة التفتيش فى شرق الأناضول، ويرى أنه لو عهد الأمر كله إلى هؤلاء لضاع الكثير من أرض الأناضول التى فى حوزتنا، ويدون فى مذكراته قائلا:" إن

---

(٨٨) عبد الحميد، آرائى فى الدولة والأمة، ص ٣٦ .

(٨٩) المصدر السابق، ص ٦٩ .

سعيد باشا وعابدين باشا وجواد باشا جميعهم كانوا رازحين تحت سطوة القناصل الأجانب ونفوذهم، وكانوا سببا في تشتيت الشعب وتفرقه وتمزيق أوصاله، وعندما عين السلطان" رائف باشا"، أسدى إليه النصح قائلا:" يا سيدى، إن خليفة المسلمين مكلف بخدمة أهل الإسلام قاطبة، وإذا ما فعل خلاف ذلك، فطبيعى أن يرى بعينى رأسه إمارة الأرمن بعد سنتين اثنتين".(٩٠)

" كما كان الأجانب يرسمون الحدود للدولة الأرمينية عن طريق انحصار الإصلاحات وجعلها مقصورة فقط على ست ولايات هى: أرضروم وفان وتبليس وآلازيغ وسيواس وديار بكر. وهذه الولايات لا تشبه بلغاريا، حتى إن الأغلبية الساحقة الموجودة من الأرمن فى ولاية أرضروم لا يمثلون سوى ثلاثين فى المائة من سكان هذه الولاية، إن الأجانب يريدون بسط نفوذهم وتشديد قبضتهم على الأقلية الموجودة من الشعب المسلم ممن يرون فيهم أنهم ثلة من الموظفين الرجال ممن لا وطنية لهم ولا شرف ولا حيثية.(٩١)

ثم يستطرد عبد الحميد فيكتب فى مذكراته قائلا:" إن الأرمن الموجودين فى تركيا أكثر ثراء من المسلمين، وينعمون بالراحة والطمأنينة أكثر منهم، كما أن هؤلاء الأرمن يمثلون نسبة واحد إلى ثلاثة من عدد الموظفين، ولا قبل لهم بأداء الخدمة العسكرية، ويؤدون الضرائب التى فى حوزتهم، ومن ثم لا طاقة للأرمن بتأسيس دولة مستقلة فى أى وقت لتكون مفتتة مشتتة بين ثنايا كل من تركيا وإيران وروسيا، ولا يحرضهم على إقامة هذه الدولة سوى إنجلترا والمبشرين الدينيين البروتستانت.(٩٢)

ولما بدأ الإرهاب الأرمنى يمارس نشاطه فى تركيا إبان عام ١٨٩٤م؛ بغية تنفيذ الخطة الإصلاحية فى بلغاريا، كانت إنجلترا فى صدارة الدول العظمى التى بدأت

---

(٩٠) المصدر السابق، ص ١٩٩ .

(٩١) السابق، نفس الصحيفة .

(٩٢) عبد الحميد، مذكراتى السياسية، ص ٥٦، ٦٥، ٦٦ .

تشدد من وطأة ضغوطها على السلطان عبد الحميد كى يعجل بتطبيق الإصلاحات، وما كان عبد الحميد إلا أن لجأ إلى تطبيق سياسات المماطلة والتسويف فى مواجهة هذه الضغوط، فيقرر مرة عدم تطبيق هذه الإصلاحات بصورة جازمة حتى يتسنى له الإحاطة علما بالحقيقة الجوهرية لهذه الإصلاحات، كما أنه يضع نصب عينيه الحذر والخشية من مسألة الروملى الشرقية.

وعلم عبد الحميد أيضا أن الواليين النصرانيين الموجودين فى منطقة الروملى كانا ضالعين فى طرد الشعب المسلم منها، ناهيك عما أقدما عليه، فأسرعا بضم هذه المنطقة إلى بلغاريا. وأسفرت ضغوط الدول الكبرى عن تعيين والٍ نصرانى على الولايات الست الكائنة فى الأناضول، ولسوف يقوم المفوضون المشكلون من أعضاء أوروبيين بهذه الإصلاحات. أما الأغلبية المسلمة الساحقة من المسلمين فى شرق الأناضول فسوف يتخلون عن هذه المنطقة ويتركونها للأرمن، لأن المسلمين ضاقوا ذرعا بخضوعهم تحت وطأة الوالى النصرانى. وإذا تم إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة، فلسوف تؤسس الدولة الأرمنية بعد أن تحققت الأغلبية لهم بفعل عمليات التهجير الأرمنى التى تمت من خارج البلاد بأعداد غفيرة.

أما السلطان عبد الحميد فكان يرى أنه إذا تمزقت أوصال الدولة العثمانية وفت فى عضدها، فإنه سوف يقرر حينئذ الذود عن حياض الأناضول مستمسكا بآخر تراب ليكون بمثابة العنصر الأصلى المؤسس لدولة الترك، وسيبذل فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال.

يقول عبد الحميد لأرمنيوس فامبرى سنة ١٨٩٦:" لقد قطعت أوروبا أيدينا وأرجلنا عندما أخذت منا الصرب واليونان ورومانيا، والتزمت الأمة العثمانية الصمت التام أمام هؤلاء جميعا، بيد أنكم تريدون طعننا فى سويداء قلبنا عن طريق إيجاد المسألة الأرمينية، ولا طاقة لنا بالصبر والاحتمال، ونحن مضطرون إلى الدفاع عن أنفسنا، ولسوف

ندافع.[٩٣] ثم قال فامبرى: " قال عبد الحميد لى قبيل عامين (فى سنة ١٨٩٣م) وهو يمسك عنقه بيده، يمكنهم فصل هذه الرأس عن جسدى ولكنهم لن يستطيعوا فصل أرمينيا عن الإمبراطورية العثمانية. وقال لى فى العام المنصرم(١٨٩٤م): ما قولك فى المسألة الأرمينية؟ إنها ولا ريب ضربة كافية للقضاء على كل الأعمال والأفعال[٩٤]، وإنه من قبيل المستحيل المجزوم به تطبيق الإصلاحات التى تنتظرها القوى الأوروبية منى، وهذا يعنى حربا داخلية يتمخض عنها انهيار أمتنا وتصدع بنيانها.[٩٥]

وفى ١٦ يناير ١٨٩٤ م قال عبد الحميد للسفير الألمانى " البرنس دى رادولين":

أقسم بالله العظيم أننى لن أذل أبدا للضغوط الخاطئة التى يمارسها الأرمن، إننى أفضل الموت على الإذعان بقبول الإصلاحات ومنحهم الحكم الذاتى.[٩٦]

" رفض عبد الحميد بشدة مباشرة الإصلاحات فى الولايات التى يسكنها الأرمن، إذ كان يعلم أن الإصلاحات التى تريدها الدول الغربية فى نهاية الأمر ما هى إلا مدرجة ترتقى بها من أجل الحصول على الحكم الذاتى أو الاستقلال التام، وهكذا قامت دول مثل اليونان وصربيا ورومانيا والجبل الأسود وبلغاريا وجزر ساموا[٩٧] ولبنان، وإن تطبيق نفس الشيء على منطقة شرق الأناضول يمهد السبيل إلى تمزيق أواصر الوطن الأم وتمزيق أوصاله التى تمثل نواة الإمبراطورية العثمانية".[٩٨]

---

(٩٣) أوكه، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ١٠٤ .

(٩٤) المصدر السابق، ص ٩٤ .

(٩٥) المصدر السابق، ص ١١٧ .

(٩٦) بابورت، ج١، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٩٧) التاريخ العثمانى المفصل، جـ٦، ص ١٣٦٤ .

(٩٨) لانجر، ص ١٦٠ .

سياسة الفصل والعزل والتنكيل التى اتبعها السلطان عبد الحميد

لجأ السلطان عبد الحميد إلى كثير من الإجراءات والتدابير فى الداخل والخارج من أجل إجهاض مشروع بلغاريا واستئصال شأفة الإرهاب الأرمنى الذى اضطلع التحالف الأرمنى الإنجليزى بتحريضه وإثارته، وكان إنشاء الفرق العسكرية على رأس هذه التدابير الداخلية، ولسوف نرى كل ما يتعلق بهذه الفرق العسكرية بشىء من التفصيل فى أجزاء لاحقة من هذا الكتاب.

ولما بدأت الهجمات الأرمنية تشن على الشعب المسلم، أسرع السلطان من فوره بإرسال الفرق العسكرية سالفة الذكر، وتفيد المعلومات التى ساقها" لانجلر" أن الاعتداء الأول لم يكن من جانب الفرق العسكرية التركية فى أى وقت من الأوقات.(٩٩) وأن هذه الألوية العسكرية كانت تمارس حقها المشروع فى الدفاع عن النفس على وجه العموم. وكانت هذه الألوية تقتل أعداءها ذيادا عن أرواحها وصونا لها من الهلاك.

وآثر عبد الحميد الصبر والاعتدال والدفاع المشروع عن النفس عند اشتداد وطأة الإرهاب الأرمنى.

" كان دور عبد الحميد يقتصر على الدفاع عن النفس ويتصدى لكل دروب الفظائع التى يرتكبها الأرمن فى جرأة ورعونة وحماقة وجنون، وكان يتوسل إلى القادة باتباع سياسة الدفاع عن النفس بحسب ظهور الفتن واتساع رقعتها ونفوذها.

وكان عبد الحميد فى مقابل هذا يكتفى بإعادة الأرمن الهدوء إذا ما اضطرته الظروف إلى التصدى لهذه الهجمات، ولم يجنح إلى مبادرات تتصف بالعنت والعناد من أجل هذه المسائل والقضايا.(١٠٠)

---

(٩٩) رشيد راى، ص ٢١ .

(١٠٠) رشيد راى، ص ٢١ .

وتتجلى مظاهر هذا السلوك بجلاء عندما تدفقت جحافل الإرهاب الأرمنى متدفقة صوب إستانبول، حيث اضطلع عبد الحميد بإثارة دعوة الاعتدال إلى المسلمين فى مواجهة وتصدى جحافل المعتدين الأرمن، وكان يرمى من وراء هذا إلى الحيلولة دون استخدام السلاح من قبل الشعب والجند على حد سواء، بيد أن الأرمن استخدموا السلاح فى أثناء المصادمات، أما المسلمون لم يستخدموا سوى العصى والهراوات.

إن أعداء نا يغضون الطرف عن هذه الحقائق الساطعة فى المسألة الأرمينية، ثم ما انفكوا ينعتون السلطان بأنه المجرم الكبير والسلطان الأحمر والتركى المروع المفزع وغيرها من النعوت والسجايا، وإن هذه الأوصاف بالنسبة للتاريخ بمثابة إفك وبهتان عظيم.

ولما بدأ الإرهاب الأرمنى، شرع رعايا الدولة العثمانية يسيئون الظن بالأرمن بسبب انفصامهم عن عرى الصداقة والإخلاص ووشائج العلاقات المتبادلة بينهم، حتى بلغ الأمر بهؤلاء الرعايا أن جردوا الأرمن من الحياة الإدارية والاقتصادية.

قرر السلطان انتهاج سبيل سياسة صارمة متشددة ضد الأرمن، واستمسك فى خطته بتوجيه ضربة قاصمة لاقتصاد الدولة الأرمينية؛ كى يتسنى له النجاح فى تحقيق هذه السياسة وتنفيذ ما يصبو إليه من ورائها.

كان الأرمن فى تلك الحقبة الزمنية يتبوءون مراكز قوية ذات أسس وطيدة فى مضمارى التجارة العالمية والشئون المتصلة بالحكومة، وكان عبد الحميد مقتنعا بضرورة الاستحواذ على المال والقوة من يد المتمردين الأرمن وتجفيف منابعهما، كما أمر كذلك بمحاسبتهم وعدم الدخول معهم فى مناقشات تتصل بأى ضرب من ضروب المناصب الحكومية فى تلك الحقبة المقصورة فقط على الأرمن الذين كانوا يحققون من ورائها فائدة جمة، بيد أن السلطان أخرج هؤلاء جميعا من القصر، وشمل هذا الأمر الولايات، وأبلغ به كل الولاة والحكام.

كان هذا الإجراء بمثابة زلزال عصف بالأرمن ورجهم رجة عنيفة، وهكذا حرمت الأمة الأرمينية لبضع سنين مما كانت تكسبه من التجارة ومعاملات البيع والشراء، وحرمت كذلك من باب الحكومة الذى كان يحقق لها كل ذلك.[١٠١]

كانت جهود عبد الحميد التى اضطلع بها فى المسألة الأرمينية بمثابة رسالة تحذير أثارت اهتمام الدول الأوروبية الكبرى التى كانت تراقب من كثب سياسة التجريد ونزع الملكيات التى كان يمارسها السلطان، ويرجع هذا إلى المرحلة الأولى لتنفيذ خطة مشروع بلغاريا التى كانت تتمثل فى سفك الدماء، أما المرحلة الثانية فكانت تعانى من عنت التدخل الخارجي.

وكانت ثمة دويلات قد أسست مثل: اليونان وبلغاريا ولبنان وغيرها. ولما كانت إنجلترا تتعقب أثر مشروع خطة بلغاريا، وضالعة بدور فعال فى سبيل تنفيذه، فإنها كانت تجنح دائما إلى التدخل الأجنبى فى الموضوع، وما لبثت فرنسا بدورها أن تعقبت أثر هذا الموضوع، أما ألمانيا وروسيا اللتان كانتا مناصرتين لسياسة عبد الحميد فى هذه القضية، فإنهما اضطلعتا بشد أزر عبد الحميد وتحريضه على ما هو عازم على تنفيذه.

كانت ألمانيا قد ألقت بنفسها حديثا فى مضمار الكفاح ضد الاستعمار، وما طفقت تبحث عن سبل التدخل الاقتصادى والعسكرى ضد الدولة العثمانية التى تبوأت منزلة عظمى من الغنى والثراء. وكانت خطة ألمانيا تنفذ من خلال توطيد عرى الصداقة والمحبة مع السلطان عبد الحميد، ولهذا آثر الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى أن يؤيد السلطان فى المسألة الأرمينية، وأسرع بإرسال برقية إلى السلطان إبان تدفق الإرهاب الأرمنى على إستانبول؛ رغبة منه فى إظهار التعاطف مع السلطان، وعرض فى برقيته اقتراحا قال فيه:" سيدى وزعيمى[١٠٢]، إن لدى ستة فيالق عسكرية موجودة

---

(١٠١) تحسين باشا، ص ، ١٣٢

(١٠٢) عبدالله جودت، حد التأديب، خطاب مفتوح لأحمد رضا بك .

تحت إمرتك ومستعدة للدفاع عن ذاتكم السلطانية". وكانت برقية الإمبراطور وزيارته لإستانبول بمثابة تأييد للسلطان، كما أنها شجعته على التغلب على المسألة الأرمينية.[١٠٣]

أما روسيا فكانت فى ذلك الحين تنافس إنجلترا، كما كانت تنظر بفتور إلى المسألة الأرمينية أكثر من صداقتها مع الدولة العثمانية لأنها تؤثر تأثيرا قويا فى النضال والكفاح ضد انتشار الاستعمار وامتداد نفوذه فى الشرق الأقصى. وكانت بلغاريا لهذا السبب نموذجًا سيئًا وقبيحًا، مما جعل قيصر روسيا يسحب مساعدته وتأييده للأرمن.[١٠٤]

كما كانت روسيا عاقدة العزم فى سبيل تحقيق أهدافها القومية وأحلامها التى تراودها من أجل النزول إلى البحار الدافئة، وبعد فترة وجيزة شرع النفوذ الإنجليزى فى قهر النفوذ الروسى الموجود فى بلغاريا حتى يكون سدا منيعا يحول دون تحقيق الأمل المنشود المشار إليه آنفا. ثم خضعت بلغاريا تحت إمرة الإنجليز وطاوعتها فى تحقيق مآربها مما سبب لروسيا ضربا من العنت والإزعاج. ثم طفقت روسيا فى انتزاع النفوذ الإنجليزى عقب معاهدة برلين، ذلك النفوذ الذى كانت إنجلترا تمارسه على الأرمن، وفى هذه المرة بدأت روسيا تنظر بفتور إلى الأرمن.

ولما جاء وفد أرمنى ليطلب العون والمساعدة من روسيا من أجل تطبيق المادة الحادية والستين من معاهدة برلين، بادرهم قيصر روسيا قائلاً لهم: " لا علاقة لى بشئونكم، ولقد أخذت إنجلترا على عاتقها مسئولية الدفاع عن مصالحكم، فعليكم اللجوء إلى الحكومة الإنجليزية".[١٠٥]

---

(١٠٣) خليل خالد، يوميات الترك، لندن، ١٩٠٣، ص ١٧٧ .

(١٠٤) saydney weltleton، الشرق الأوسط هو التاريخ، نيويورك، ١٩٥٦م، ص ٣٢١ .

(١٠٥) ضيا قرال، جـ٨، ص ١٣٣ .

أما رئيس الوزراء الروسي "لوبانوف" فله رأى فى المسألة الأرمينية يقول فيه: "نحن لا نريد أرمينيا ولا بلغاريا"، وكان هذا يعنى أنه إذا أغلق طريق إستانبول فى وجه روسيا، فإن هذا يعنى ترك طريق بغداد وطهران مفتوحين على مصراعيهما، ولأجل هذا لا يتوجب تأسيس دولة أرمينية تخضع للنفوذ الإنجليزى فى هذه المنطقة، وأدى هذا إلى أن عبد الحميد كان شديد السرور من السياسة الروسية.(١٠٦)

ورغم أن السياسة الروسية باتت ذا مكانة متميزة وقوية ومهيمنة فإنها لم تتردد فى تأييد رغبات التدخل الإنجليزى وتعضيده وتنفيذ خططها ومشروعاتها، ولكنها لم تمض قدما أكثر من ذلك، وتوقف ما أصر عليه السلطان فى موضعه، ثم أخذت روسيا تتعقب الوضع الراهن من كثب حتى تظل حرة طليقة فى منطقة الشرق الأوسط بسبب نضالها وكفاحها الموجود فى منطقة الشرق الأقصى. أما فرنسا فكانت دولة تؤيد بقوة إنجلترا والأرمن كليهما، وظلت هذه الدولة غير ذات تأثير فعال بسبب الامتيازات التى منحها السلطان فى تحقيق آمالها التى تصبو إليها فى مصر.(١٠٧)

وفى النهاية فإن فرنسا كانت فى المسألة الأرمينية تسلك سلوكا لا يخالف بحال من الأحوال سياسة روسيا فى هذا المضمار. ويرجع هذا إلى أن روسيا كانت حليفا طبيعيا لفرنسا فى مواجهة الخطر الألمانى، وظلت إنجلترا وحيدة فى هذا المضمار مجردة من كل شيء بسبب السياسة الألمانية فى النمسا.(١٠٨)

كان نضال السلطان عبد الحميد فى ذلك الإبان مع إنجلترا التى تمثل القوة العظمى الأولى فى العالم، وقد تجاوز مرحلة صعبة معقدة، ولقد تفسخت أواصر هذه العلاقة مع هذه الدولة بسبب احتلالها مصر.

---

(١٠٦) J.A.Rmarriot، المسألة الشرقية، دراسية تاريخية فى الدبلوماسية الأوروبية، أكسفورد، ١٩٥١م، ص٣٩٩ .

(١٠٧) عثمان نوزى، جـ٣، (أحمد رفيق)، ص ٨٤٨، ٨٦٢ .

(١٠٨) دافيس، ص ٣٥٨ .

وكان السلطان على اقتناع تام بتعذر الوصول إلى نتيجة مرجوة من العلاقة المعقودة مع الحكومة الإنجليزية، وبذل جهده فى انتهاج أسلوب التأثير عن طريق غير مباشر فى الحكومة الإنجليزية، وذلك فيما يتعلق بموضوع المسألة الأرمينية، ولا سيما أن إنجلترا قد اضطلعت بهذا المضمار ونجحت فى استخدام" أرمنيوس فامبرى" " أحد جواسيسها فى إستانبول" كى يقيم علاقة طيبة مع السلطان عبد الحميد الذى قال له إننى لا قبل لى بإقامة دولة أرمينية بموجب ظروف السكان والجغرافيا والتاريخ المستمر المتصل، وإذا تأسست دولة أرمينية على هذا النحو فإنها سوف تنضوى تحت هيمنة نفوذ روسيا التى تعد بمثابة العدو المشترك لكل من إنجلترا والدولة العثمانية على السواء. وبديهى أن هاتين الدولتين قد اضطلعتا بدور كبير ضد الدولة العثمانية.

أما" فامبرى" الذى تحدثنا عنه آنفا فقد بعث إلى الحكومة الإنجليزية تقارير تتعلق بالتخلى عن تنفيذ مشروع الدولة الأرمينية. أخذ عبد الحميد يفكر مليا واضعا نصب عينيه إمكانية كسب الرأى العام الإنجليزى ليكون عنصرا فعالا فى السياسة التى تتبعها الحكومة الإنجليزية، وأوصاه كامل باشا بهذه الفكرة.(١٠٩)

وعرض كامل باشا على السلطان أن يفتح معرض الفظائع والأهوال الأرمينية على مسرح إنجلترا، وكانت أدلة الاتهام المستحوذ عليها من الإرهابيين الأرمن تمثل حقيقة جازمة لا ريب فيها.

وعندما اجتمعت لجنة تحقيق" ساسون" جمعت أدوات الجرائم من كنيسة الأرمن فى حى" بى أوغلو" بعد أن شنت غارة على الكنيسة واستولت على الأسلحة ونقلتها إلى إنجلترا حيث تم عرضها هنالك.

" وعرضت هذه الجرائم على مجلس العموم البريطانى، وقد هدأت فى تلك الآونة الأفكار الإنجليزية العامة ضدنا، ولا سيما تلك الثورة وذلك الغليان الذى صدر من النسوة الإنجليزيات اللائى قدمن خدمة جليلة لسياستنا".(١١٠)

---

(١٠٩) مذكرات كامل باشا، جـ١، ص ٣٨ .

(١١٠) تحسين باشا، ص ٢٣٦ .

ظلت إنجلترا فى النهاية تمثل عنصر ضغط على السلطان عبد الحميد،" وبلغت هذه السياسة أوجها عقب الهجوم الذى شن على البنك العثمانى، وكان رد فعل إنجلترا عنيفا حيث سعت إلى إقصاء عبد الحميد عن العرش وتفتيت تركيا وتمزيق أوصالها، ثم ما لبثت إنجلترا أن جاءت بأسطولها ودخلت إلى ميناء جناق قلعة". (١١١)

ثم التقى اللورد سالزبورى رئيس وزراء إنجلترا بقيصر روسيا الثانى نيقولا فى مدينة بالمورال خلال الفترة من ٢٧-٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦م، حيث اقترح سالزبورى على القيصر الروسى تقسيم تركيا وعزل عبد الحميد لكونه مسئولا عن أحداث الأرمن التى وقعت فى تركيا. وأراد سالزبورى الزج بالجنود والسفن إلى إستانبول من أجل تحقيق الهدف الذى يصبو إليه، بيد أن نيقولا الثانى رفض هذه الاقتراحات" لأنه يناضل فى منطقة الشرق الأقصى ضد المراقبة الدولية المفروضة على كل من إستانبول والمضايق". (١١٢)

وحينئذ عرض سالزبورى اقتراح التدخل العسكرى المشترك على كل من فرنسا والنمسا وإيطاليا، بيد أنه لم يتلق ردا إيجابيا من هؤلاء جميعا. (١١٣) حتى إن إنجلترا باتت تتحرك وحدها لتضييق الخناق على السلطان عبد الحميد، وإذا كانت قد خططت لاحتلال مدينة عكا، فإنها عدلت عن هذه الفكرة بعد حين، وتخلت عنها تماما. (١١٤)

نجح عبد الحميد فى عزل إنجلترا مستفيدا فى هذا السبيل من المكاسب التى اغتنمها من المناخ الدولى، وظلت إنجلترا وحيدة قائمة برأسها فى المسألة الأرمينية، ولم تستطع إحراز تقدم فى آخر هذا المضمار، بيد أنها انسحبت من هذه المسألة وتركت الأرمن فى حالة ميئوس منها بعد عام ١٨٠٧م. (١١٥)

---

(١١١) جرافيس، ص ٦٧ .

(١١٢) آندرسون، ص ٢٥٦ .

(١١٣) جرافيس، ص ٦٧ .

(١١٤) آندرسون، ص ٢٥٦ .

(١١٥) آندرسون، ص ٢٥٦ .

مؤامـرة الأرمن ضد عبد الحميد الثانى

عندمـا تركت إنجلتـرا الأرمن فى حـالة من التـفـرق والتـشـتت واليـأس، تضـاءل الإرهاب الأرمنى وانحصر نشاطه فى تركيا بصورة كبيرة حتى توقف تماما عقب عام ١٨٩٨م، وفى ذلك الإبان بدأت خطط جديدة للمنظمات الإرهابية الأرمينية بقيادة كل من هينجـاق وطاشناق، ووصلت هذه المنظمـات إلى قـرار حـاسم بأنهم لا قـبل لهم بتحقيق آمالهم ما دام السلطان عبد الحميد جالسا على عرش السلطنة قابضا على أزمّـة الأمـور فى البـلاد، ومن ثم فـإنهم يفـعلون كل مـا فى وسـعـهم لقـتل السلطان واستـئصـال شـأفتـه إذا ما أتيحت الفرصة عن طريق التقرب مع جبهة المعارضة للسلطان والمتمـثلة فى جـماعـة تركيـا الفتـاة وإقامة تحـالف مـعهم، وقد تمخض هذا التحالف عن تدبير ما يسمى مؤامرة تفجير قنبلة زمنية فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٥ م.

" وقد ظهرت فكرة تفجير القنبلة بعد ست أو سبع سنوات من انحسار أحداث الإرهاب الأرمنى، وثمة احتمال آخر بأنهم دبَّروا لهذا المؤامرة عن طريق إقامة تعاون وثيق مع جماعة الصهاينة[١١٦] من أجل التآمر على السلطان عبد الحميد. كان" تيودر هرتزل" قد طلب إلى عبد الحميد فى شهر يونيو سنة ١٨٩٦م الحصول على امتيازات لإنشـاء وطَن قـومى لليـهـود فى فلسطين، واسـتـمـر هذا الإلحـاح فى الطلب منذ هذا التاريخ حتى أواخر شهر يوليو لسنة ١٩٠٢م، ولكن السلطان كان يرفض فى كل مرة الاقتـراحـات التى يعرضـهـا هرتزل، ولقـد أخـفـقت هذه المسـاعى ولم تؤت أكلهـا فى تحريض الصهاينة للقضاء على عبد الحميد".

"وهكذا بدأت هذه الجماعة الصهيونية تتحـد فـى عداء مشترك مع الأرمن ضد عبد الحميد. تم إعداد هذه المؤامرة فى دولة السويد، وعهد بتنفيذها إلى يهودى عربى نشأ وتربى متمردا ثوريا فى روسيا، وكان ضليعا محنكا فى تنفيذ العمليات الإرهابية

---

(١١٦) هم جماعة من اليهود يدعون إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين (المترجم).

وشاركه فى هذه المهمة الفرنسى" إدوارد جورس" مع طائفة أخرى من الجماعات الإرهابية السرية الأرمينية حيث قرروا جميعا قتل عبد الحميد عن طريق قنبلة زمنية موقوتة". [١١٧] وأجمعوا أمرهم على إنهاء حياة عبد الحميد فى مؤتمر عقد بمدينة صوفيا، وتم التخطيط بالاتفاق مع الجماعات الصهيونية فى السويد.

قدمت إلى إستانبول فرقة التآمر من أجل تنفيذ المؤامرة التى دبرت خارج البلاد، وتتكون الفرقة من الإرهابى إدوارد جورس أحد موظفى مصنع سينجر، وشخص آخر هو صموئيل قاين ويحمل اسمًا مستعارًا هو" كريستوفر ميكاليان" وهو عضو مؤسس للإدارة المركزية لجمعية طاشناق الإرهابية، وينتمى إلى أرمن قفقاسيا، وشخص ثالث يدعى" قسطنتين قيوليان"" واسمه المستعار "صوفو" وهو من أرمن روسيا، ورابع يدعى" روبينا قاين" وهو ابن صموئيل قاين. وبدأ هؤلاء جميعا فى إعداد التجهيزات فى منزل مستأجر بمنطقة" باى أوغلو" بإستانبول. [١١٨]

وكان على رأس هؤلاء المتآمرين" إدوارد جورس" الذى تقاضى مبلغا كبيرا من المال من الأرمن لتنفيذ هذه العملية، وأصدر أمرا إلى الأرمن من أجل تضليل البوليس السرى حتى لا يعرف مكان المنزل المستأجر، وتمت مراسلات ومكاتبات فى هذا الصدد عن طريق مكاتب البريد الأجنبية. [١١٩]

سيتم تنفيذ المؤامرة بتفجير قنبلة موقوتة شديدة الانفجار مثبتة فى إحدى السيارات، ولسوف يتم إحضار هذه السيارة إلى مسجد قصر يلديز عقب أداء السلطان عبد الحميد صلاة الجمعة، حيث تكون السيارة على مقربة من سيارة السلطان، وحينئذ تنفجر القنبلة عند ركوبه سيارته، ويلقى حتفه على الفور.

---

(١١٧) أرتورك، ص ٤٢ .

(١١٨) تحسين باشا، ص ١١٣ .

(١١٩) جريس، ص ٢٥٠ .

وقضت الضرورة إلى تصنيع سيارة خاصة لتنفيذ هذه المهمة" وصنعت فى فيينا، وتم تهريب أجزائها من الجمرك خفية، حيث جُمعت أجزاؤها بعد ذلك، وتم التحقيق بعد ذلك حول كيفية مرور هذه الأجزاء من دائرة الجمرك دون فحص أو معاينة، وهل هذا كان بطريق الرشوة؟".(١٢٠)

تثبت هذه القنبلة المجهزة فى الإطارات المطاطية للسيارة المصنعة كى تنفجر من شدة الهزة العنيفة عقب انفجارها.

بلغ وزن القنبلة المصنعة مائة كيلو جراما واستخدمت قضبان ديناميتية فى تصنيعها، وجاءت من فيينا على هيئة لفافات صغيرة وسيقت إلى تركيا عن طريق التهريب(١٢١).

استمرت محاولات التآمر إبان كل هذه الاستعدادات، وعهد بتنفيذ هذه المهمة إلى كل من" روينا قاين" وليبراس وزوجه مدام صوفى، حيث قاموا جميعا بإعداد دراسة جيدة عن كيفية الدخول إلى جناح الرجال بمسجد يلديز من خلال نقطة مخصوصة بالأجانب، وقد لبس هؤلاء المتآمرين ملابس فخمة، وتمت هذه الدراسة المتمحصة الدقيقة مرتين اثنتين قبيل تنفيذ هذه المؤامرة، وتوصلوا إلى نتيجة فحواها:" أن العربة التى ستحمل السلطان ستكون أمام الباب الخارجى للمسجد بعد دقيقة واحدة واثنتين وأربعين ثانية حينئذ سوف تدور ماكينة القنبلة الزمنية فى اللحظة التى يركب فيها السلطان سيارته، فإذا ما اشتعلت إبرة الساعة بعد دقيقة واثنتين وأربعين ثانية من نقطة الانفجار فإن السلطان سيكون آنذاك مجاوراً لهذا الانفجار وسيلقى حتفه هو ومن فى معيته".(١٢٢)

---

(١٢٠) أرتورك، ص ١٤٢ .

(١٢١) وويز، ص ١٠٨ .

(١٢٢) تحسين باشا، ص ١١٤ .

وبعد الانتهاء من كل التجهيزات شرع المتآمرون فى جلب السيارة المحملة بالقنبلة فى يوم الخامس من شهر يوليو سنة ١٩٠٥م، ووضعوها أمام الباب الخارجى لمسجد قصر يلديز، وانتهت صلاة الجمعة وفرغ السلطان من شعائرها وبدأ يتقدم تجاه طريق الخروج من المسجد، وفى أثناء تقدمه قابله شيخ الإسلام جمال الدين فتأخر بضع دقائق لتحيته ومجاملته والترحيب به، وحينئذ انفجرت القنبلة فى الوقت المحدد، وكان هذا التأخير سببا فى إنقاذ حياة السلطان.(١٢٣)

إن انفجار قنبلة وزنها مائة كيلو جرام أحال الهواء إلى جهنم مستعرة محمومة أرجفت كبد السماء، وتحطم زجاج المسجد والأبنية المحيطة به من كل جانب، أما شظايا السيارة المنفجرة فقد طوحت أشلاء الجياد والبشر فى جنبات الهواء، وتسبب الانفجار فى إحداث حفرة فى الأرض بلغ مقدارها سبعين سنتيمتراً، وبلغ عدد القتلى ثلاثة وعشرين والجرحى ثمانية وخمسين.(١٣٢)

كان الأميرال الإنجليزى" وودز" الذى عهد إليه بإصلاح الأسطول العثمانى شاهد عيان إبان وقوع هذه الحادثة، وها هو ذا يقص علينا حال السلطان وردود فعله عقب هذه الواقعة فيقول:" أصابتنى الدهشة واعترانى الذهول أمام رباطة جأش السلطان وثباته ومضاء عزيمته. وجفلت وفزعت من شدة الحيرة عندما نظرت بعينى إلى صحن المسجد الذى يتفرسه السلطان ويحملق فيه ويديم النظر إليه، فقد كان صحن المسجد يشبه ميدان حرب أتت عليه نار مدفع وأحالته خرابا يبابا؛ فالجياد ميتة وكأنها خشب متناثرة فى كل اتجاه، والسيارات المهشمة (تحطمت سبع عشرة سيارة) يرقد سائقوها عاثرو الجد موتى بلا حراك.

---

(١٢٣) المصدر السابق، ص ١١٥، أرتورك، ص ٤٣ .

(١٢٤) تحسين باشا، ص ٢٠٤ .

وعن يسارى وعلى بعد متر أو مترين جثة ضابط نظامى فقد حياته بشظية قنبلة، وآخر طرح أرضا وفوقه غطاء يستر جثته. وعند وقوع الانفجار جاءت ثلة من الفرسان مشهرين سيوفهم، بيد أن عبد الحميد أشار إليهم بيده آمرا إياهم بالانسحاب والارتداد إلى الخلف. كان عبد الحميد واقفا على قدميه ثابتا سليما معافى، قويا متينا، كتبت له النجاة من هذه الحادثة المباغتة، ولما رآه الجند والمدنيون قد نجاه الله من هذه الكارثة، أسرعوا من فورهم رافعين عقيرتهم بالصياح قائلين: "عاش سلطاننا"، مما أثار شجون الناس وأبكى أعينهم، ثم هم السلطان فى خلال برهة من الزمن بتوجيه تعليمات إلى الضباط ذوى الرتب العالية ممن كانوا فى معيته.(١٢٥)

ثم تحرك بعد ذلك من المسجد إلى القصر مستخدما الحنطور الخاص به وكانت أمارات وجهه تنم عن السكينة والوداعة والهدوء".(١٢٦)

كان السلطان يتوقع تحتم انفجار قنبلة فى أى وقت، ومن ثم فلم يرتبك ولم تخر قواه، لا سيما أنه استخدم حنطوره الخاص بنفسه وسار به تجاه القصر فى صورة أظهرت شجاعته منقطعة النظير مما يكذب افتراءات القائلين بأنه رعديد فرق.(١٢٧)

وعلى حين كان عبد الحميد يشق الشوارع متجها نحو القصر تحفه نداءات وصيحات الخلائق هاتفين "عاش سلطاننا"، أسرع سفراء الدول الكبرى يهرعون إلى قصر يلدز، وهم يتمنون للسلطان العافية والسلامة من كل سوء. ودار حديث بين السلطان وسفير النمسا الذى سأله قائلاً:" ألم تخف يا ملاذ الشوكة والرفعة ؟" وأجابه السلطان: "نحن مسلمون نؤمن بالقضاء والقدر".(١٢٨)

---

(١٢٥) كانت تعليمات السلطان على النحو الآتى : شدوا سيارتى واضربوا حصارا أمنيا مشددا فى هذه المنطقة وألقوا القبض على المسئولين عن هذه الحادثة (أرتورك، ص ٤٤).

(١٢٦) وودز، ص ٦٢ .

(١٢٧) إينال، ص ٢٦٨ .

(١٢٨) زكى شاكر، الأيام الأخيرة لعبد الحميد، ص ١٩٥ .

وكان عبد الحميد يقول: "إننى أفضل ألا أتخلى عن السياسة الشديدة الصارمة فى مواجهة المسألة الأرمينية"، حتى إنه واجه الموت فى سبيل هذه القضية وكان يتوقعه ولا يخشاه، ولم يكن إيثاره للموت هو الذى أنقذ حياته، ولكنها تصاريف القضاء والقدر. وهذا يعنى أن رصاصات الأرمن لم تكن قادرة على التعجيل بموته ونفاد أجله.

وعقب هذه المؤامرة فرت ثلة من زعماء الفتنة من المتآمرين الأرمن من البلاد على متن سفينة روسية، وألقى القبض على طائفة أخرى من زعماء الفتنة وعلى رأسهم البلجيكى جورس، وكان من بينهم كذلك إرهابى آخر أمريكى الجنسية، وقد أمر السلطان بمحاكمتهم جميعا.

بيد أن سفيرى أمريكا وبلجيكا تحدثا عن إمكانية محاكمة هذين الرجلين فى محاكم دولتيهما معتمدين على أنهما من ذوى الامتيازات التى تمنح للأجانب فى أرض الدولة المضيفة. ولهذا السبب ظلت هذه المسألة معلقة مؤجلة، ورغم أن هذين السفيرين كانا مقتنعين بالدور الجوهرى الذى اضطلع به هذان الرجلان فى المؤامرة، فإنهما كانا يعارضان معاقبتهما وتعريضهما للمحاكمة. ثم خلى سبيل هذين الإرهابيين وأطلق سراحهما شريطة ألا يدخلا حدود الدولة العثمانية. ولم يكتف عبد الحميد بهذا بل أظهر عظمته حين ملأ جيوب هذين المجرمين اللذين دبرا لقتله عمدا بالنقود، إذ كان ما يملكانه من مال قد نفد عن آخره[١٢٩]. وأعطى السلطان لجورس خمسمائة قطعة ذهبية وأركبه قطارا من" سيركة جى" توجه به إلى أوروبا.[١٣٠]

وأصابت الدهشة هذا الرجل لعفو السلطان عنه، وشكره على حسن صنيعه ووعده بأن يظل وفيًا له قائما على خدمته، ولا جرم أنه وفَّى بما وعد به ولم يخلفه ألبتة.[١٣١]

---

(١٢٩) وودز، ص ٦٢ .

(١٣٠) تحسين باشا، ص ١١٦ .

(١٣١) أحمد عثمان أغلو، ص ٦٢ .

شدد عبد الحميد من تدابير الأمن المفروضة على قصر يلديز عقب حادثة التآمر على حياته، وعمل كذلك على تقوية شوكة البوليس السرى وشد من بأسه وأزره.(١٣٢)

غفلة جماعة تركيا الفتاة وزيغهم وضلالهم وعدم اكتراثهم

أسف السلطان عبد الحميد بسبب تأييد جماعة تركيا الفتاة للمؤامرة التى دبرت ضد حياته فى المسألة الأرمينية. واضطلع الدكتور عبد الله جودت عضو جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٨٩٥م بتوزيع مقالات سرية تتعلق بالهجوم على الباب العالى.

وحاول أن يظهر السلطان فى هذه المقالات على أنه رجل آثم ذو جريرة، ومما ورد فى بعض هذه المقالات" لا جرم أنه وقعت عدة أحداث ووقائع تبعث على الحزن والأسى من جراء الظلم والاستبداد وسوء الحكم والإدارة الفاسدة، وإننا نحن الترك مثلنا مثل سائر العثمانيين أجمعين، نريد من هذه الحكومة الحريات والإصلاحات، وإن جمعيتنا تفرغ وسعها من أجل هذه الغاية، ولسوف نبذل قصارى جهدنا اليوم لتأديب الأرمن وتربيتهم، ولسوف نشن غارة على فساد الإدارة والظلم والاستبداد والباب العالى وشيخ الإسلام وقصر يلديز، وسنحطم رءوس القهر فى هذه الإدارات جميعها، وواجب علينا أن نتعاون معًا ونلم شملنا ونكثر عددنا، ولنبين للحضارة العالمية أننا مستحقون للحرية جديرون بها عاشقون لها.(١٣٣)

وهاهو ذا جمال باشا أحد أعضاء جمعية تركيا الفتاة يتحدث فى مذكراته معترفا بوجود علاقة بين عبد الحميد والأرمن، ويناقش كذلك السياسة التى اتبعتها جماعة تركيا الفتاة ضد السلطان ويقول:" اتخذت جماعة تركيا الفتاة تدابير متعسفة ظالمة

---

(١٣٢) كاظم قرة بكر، جمعية الاتحاد والترقى ١٨٩٦م - ١٩٠٩م، إستانبول ١٩٨٢م، ص ٧٩ .

(١٣٣) قوران، فى الإمبراطورية العثمانية، ص ١٥٩ .

لجئوا إليها بسبب السياسات الخاطئة التى مارسها عبد الحميد إبان الأحداث الأرمينية ١٨٩٤-١٨٩٦م وإصراره على مواصلة الاستبداد وإطالة أمده.

وفى تلك الآونة كان أحمد رضا بك موجودا فى أوروبا، واضطلع مع طائفة من رفاقه بتقديم مساعدات كثيرة إلى الثوريين الأرمن، ولهذا تمت محاكمتهم جميعا لقاء ما أقدموا عليه من تأييد للأرمن وشد أزرهم. وإن الثوريين من أمثالى ممن كانوا موجودين داخل الوطن قبلوا نفس الرأى وارتضوا به، وخلاصة هذا الرأى تتمثل فى أن أعمال القتل والتنكيل فى صفوف الأرمن سوف يتمخض عنها أضرار جسيمة تلحق الأذى والخسران بالمجتمع التركى والعثمانى على حد سواء، ولهذا فإنهم لم يترددوا فى اتهام عبد الحميد بأنه ضالع فى إشعال نار الأحداث الأرمينية.(١٣٤)

وقد بلغ الأمر مداه فى جنوح جماعة تركيا الفتاة نحو تأييد الأرمن ومساندتهم، حتى إن الشاعر توفيق فكرت دبج قصيدة بعنوان" اللحظة الأخيرة" يميط اللثام فيها عن الحسرة والأسف الذى أحس به فى سويداء قلبه بسبب إخفاق الأرمن فى تنفيذ المؤامرة التى دبروها ضد السلطان عبد الحميد، وهذان مصراعان من قصيدته يقول فيهما:"

أيها الصائد ذو الشأن الأعظم لقد أخفقت فى نصب الشرك

وألقيت به، ولكن ورأسفى فأنت لم تضرب به"(١٣٥).

وإن عنوان لحظة التأخر يفهم منه دون ريب التعبير عن التأخير مدة دقيقة ودقيقتين عن لحظة الموت التى خطط لها لاغتيال عبد الحميد بالقنبلة المتفجرة أمام مسجد يلديز، أما الصائد ذو الشأن العظيم فهو الإرهابى الأرمنى، والصيد فى البيت يعنى به السلطان عبد الحميد.

---

(١٣٤) جمال باشا، المذكرات، إعداد جمال، إستانبول ١٩٧٧م، ص ٤١٣ .

(١٣٥) توفيق فكرت، رباب شكستة (الرباب المحطم)، إستانبول، ١٩٦٢م، ص ٦٤ .

وقد حزن السلطان حزنا شديدا لهذا الشعر، واشتد حنقه وغضبه، ويفصح عن هذا أثناء مذكراته مجليا رد فعل توفيق فكرت فيقول: " ليس هناك أرمنى شريف ذو حيثية إلا ويخجل أن يقول عن إرهابى يريد أن يقتل سلطانه عمدا، ويصفه بأنه صائد ذو شأن عظيم كما قال توفيق فكرت[١٣٦]، وعقب انتهاء الأحداث سالفة الذكر صرف السلطان عبد الحميد همته من أجل تعقب أثر العلاقات الحميمة التى تربط الأرمن وجماعة تركيا الفتاة.

كانت الجماعات الانفصالية الأرمينية فى أوروبا منضمة إلى المؤتمرات التى تعقدها جماعة تركيا الفتاة، فإذا ما علم السلطان بأنهم اتخذوا قرارا مشتركا ضده فإنه ما يلبث أن يتميز غيظا ويزداد حنقا.

وجاء رد فعله على النحو التالى: " إننى لم أندهش كثيرا من عشق الأرمن المفرط للاستقلال، ولا سيما بعد علمنا عن التحريض المستمر لهم من قبل الدول الأوروبية الكبرى، ولكن ما يثير دهشتى هو هروب بعض أعضاء جماعة تركيا الفتاة إلى أوروبا وإصدار صحيفة هنالك ضدى واضطلاعهم بإقامة تعاون وثيق العرى بينهم وبين الجمعيات الإرهابية السرية الأرمينية، ناهيك عن إمدادهم بالمال، يقولون إنهم يرغبون فى إنقاذ الدولة العثمانية من التمزق وتقطيع الأوصال، وكلهم يبرمون اتفاقا وتعاونا مع الإرهاب الأرمنى الذى سيفتّ فى عضد الدولة العثمانية ويبيد خضراءها، وإذا لم أوقع بينهم العداوة والبغضاء، فلا يدرى أحد إلى أى مدى سيئول الحال وينقلب المآل. وهل إقامة دولة أرمينية مستقلة فى قلب الأناضول سيبرهن على حبهم للوطن؟" .[١٣٧]

---

(١٣٦) دفتر مذكرات عبد الحميد ص، ٩٠ .

(١٣٧) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ٩٥ .

الفصل التاسع

عبد الحميد الثانى والدول الكبرى

السياسة الخارجية للسلطان

كان نجاح السياسة الخارجية التى اتبعها عبد الحميد فى المسألة الأرمينية نجاحًا عظيمًا لصالح تركيا على وجه العموم، فقد حالفه التوفيق فى تجريد الدول الكبرى وعزلها تمامًا إبان المسألة الأرمينية، وهذا يعنى ولا ريب أن الدبلوماسية الهادئة والسياسة الخارجية الماهرة للسلطان قد بثت نبض الروح فى تضاعيف الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

لم تكن الدولة العثمانية ذات قدرات تستطيع من خلالها حماية نفسها بقوتها الذاتية، وكانت الدول العظمى وجيران الدولة العثمانية من الدول الصغيرة يطمعون جميعا فى أراضى الدولة العثمانية، ويتحينون الفرصة لاحتلالها والانقضاض عليها. وكان عبد الحميد يواجه سبعة عشر مركزًا قتاليًا من الدول الكبرى والصغيرة على حد سواء. كما كانت الإمبراطورية آنذاك على موازين ومعادلات شديدة الحساسية بما يوجب وجود رجل واقعى حكيم من أجل إحياء هذه الأمة واتباع سياسة الحذر واليقظة دون مماحكة أو مجادلة فى أمور لفظية لا طائل من ورائها.

وفى ذلك الإبان كان خلق تركيا وبعثها من رقدة العدم يأتى على رأس الدبلوماسية الماهرة لرجل أريب مثل عبد الحميد، وكانت هذه فرصة عظيمة سانحة له.

كان عبد الحميد يستطيع أن يستخدم قوانين الحكم المطلق بحرية واسعة فى مضمار السياسة الخارجية كى يفصح عن غيرة السلطان القوى المهيمن وحماسه، أو يتجه إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية من أجل حماية البنية الكلية للتراب العثمانى، وإذا أبدت أى قوة تحقق هذه الرغبات والآمال ، فإنها ستكون أقوى صديق طبيعى لتركيا فى صورة واضحة جلية جازمة قاطعة.(١)

مبادئ السياسة الخارجية لعبد الحميد

كان الميدان الأساسى فى السياسة الخارجية للسلطان تتمثل فى إحياء الدولة العثمانية فى إطار السلام، ولهذا السبب كانت السياسة الخارجية لعبد الحميد تدور فى فلك هذه المبادئ الأساسية المتمثلة فى: السلطة المركزية ، التوازن والاعتدال ، الاستقلالية وعدم الانحياز ، الاستفادة من اختلاف الآراء ، الصلح والجنوح للسلم ، استمالة القلوب ، اللجوء إلى الشدة بحسب مكانها ، العزل والتجريد والتخويف.

أمسك السلطان بجميع أزمّة الأمور فى قبضة يده فى مضمار السياسة الخارجية كما هو الشأن فى مضمار السياسة الداخلية، وكان قصر يلديز فى نفس الوقت مركز السياسة الخارجية ومكان الحل الجازم القاطع لكل الأمور، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفًا مما كتبه المستشرق" فامبرى" الذى كان شاهد عيان على هذا فيقول:" كان السفراء أيام السلطانين عبد العزيز وعبد المجيد يستطيعون تسيير شئونهم وأعمالهم فى سهولة ويسر، ويرجع هذا إلى أن هذين الحاكمين كانا يقودان السلطنة ويحكمان الأمة فحسب، ولا يتحكمان فى مصائرها وأقدارها.

أما الآن فالموقف كان قد تغير تماما، إذ جمع عبد الحميد كل شىء فى شخصيته، وصرف همته إلى كل شىء. ويتوجب علينا أن ندرك مليا أنه لن يتسنى له الوصول إلى

---

(١) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ٦٣ .

أية نتيجة تتصل بحل مسائل الحياة اليومية دون أن يناقشها مع ذات نفسه ويمعن النظر فيها[٢] ، كان التوازن والاعتدال وعدم الانحياز يأتى على رأس مبادئ وأسس السياسة الخارجية التى انتهجها السلطان عبد الحميد، ويشرح هذا فى مذكراته قائلا: "يمكن الاستمساك بمستوى مناسب لائق من العلاقات حتى يتسنى لنا التعايش جيداً مع أصدقائنا وأعدائنا على حد سواء، ويتمثل هذا فى أمرين اثنين ، أولهما: القدرة على عقد الصداقة، والآخر يقضى بأن هناك مواقف ضرورية توجب الانتباه إلى عدم إثارة العداوة مع الآخرين".[٣]

كما كان السلطان يقول لابنته عائشة: "إننى لم أعد أية دولة قط ولم أخلف وعدى". وكانت سياسة الحياد وعدم الانحياز توجب على السلطان الاحتفاظ بمسافة واحدة تجاه كل دولة، كما كان يتجنب مناصرة ومشايعة المصادمات التى تجرى فى أوروبا . كان السلطان يريد الاستمرار فى اتباع سياسة محايدة بصورة جازمة، فهو يقترب كثيراً من أى قوة أوروبية، ويمتنع فى نفس الوقت عن إثارة العداوة والشنآن مع الآخرين، وهو فى هذا الاتجاه السياسى يكن كل حب وتقدير لجميع السفارات على قدم المساواة، بيد أنه لم يترك فرصة واحدة دون أن يهدد هذه السفارات بضربات مروعة مفزعة .

ويتمثل مبدأ عدم الانحياز فى اتباع سياسة فى التوقف بعيداً تماماً عن السياسة الأوروبية، وكان هذا بمثابة الأساس المتين لسياسة عبد الحميد .

كان عبد الحميد ينفر من الحرب التركية الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م لما رآه من فداحة الخسائر التى منيت بها تركيا، وكان يريد كذلك أن يحل مشاكله مع معارضيه عن طريق اتباع سبيل الصلح والحلول الدبلوماسية الهادئة، وكان يفهم الدبلوماسية ويعيها جيداً، ويلتمس سبل الطرق الودية السلمية مع معارضيه دون اللجوء إلى الحرب، وكان هذا ديدنه ودستوره السياسى الوحيد فى إدارة شئون الدولة.

---

(٢) السلطان عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٢٢ .

(٣) أحمد عثمان أوغلو ، ص ٢٩ .

أما في مضمار السياسة الخارجية، فثمة حادثة وحيدة لجأ السلطان فيها إلى الشدة والصرامة عندما تميز غيظا من العلاقات مع اليونان، واضطر آنذاك إلى الدخول معها في حرب انتهت بانتصار تركيا سنة ١٨٩٧م.

وإذا ما أتينا إلى مبدأ التعويض الذي اتبعه عبد الحميد في مضمار السياسة الخارجية ألفينا ما يأتي: إن هذا المبدأ يتمثل في تعويضات الأرض والتعويضات الاقتصادية.

لم يكن عبد الحميد مصرا على ضياع مصر وتونس وطاسليا وشرق الروملي، ويرجع هذا إلى أن سلطاننا وحكمنا لم يزالا نافذين في هذه الولايات جميعا، وأن استمرار التشبث والإصرار على هذه البلاد سالفة الذكر يمكن أن يؤدي إلى ضياع أماكن أخرى في معيتها، وإلى جانب هذا فقد أصر السلطان عبد الحميد على الاحتفاظ بمنطقتي كريت وشرق الأناضول ، حتى إنه أفصح عن هذا بقوله: " إنني أضحي برأسي فداء لشرق الأناضول، فلن أفرط فيه أبدا ".(٤)

أما فيما يتصل بالتعويضات الاقتصادية فكان على يقين من فرض التهديد على الدول الأوروبية وعزلها عن بعضها البعض، ولم تكن هذه التعويضات بمثابة استعمار اقتصادي كامل، بل كانت تتم على أساس حماية الحقوق للسلطة الحاكمة وحفظها، وتحقيق الفائدة المتبادلة بين الطرفين.

ونصل بعد ذلك إلى سياسة الترهيب التي اتبعها عبد الحميد في مضمار السياسة الخارجية، فلقد أراد السلطان أن يبرهن على إظهار كفاءته ومقدرته من خلال سياسة الوحدة الإسلامية، بيد أن استمراره في الدعوة إلى الشروع في الهيمنة على الأراضي المحتلة واستردادها كان بمثابة مظهر يؤكد على تطبيق هذا المبدأ والاستمساك به.

استفاد عبد الحميد كثيراً من النزاعات والخلافات في تطبيق سياساته الداخلية.

---

(٤) أوكة ، عبد الحميد الثاني وعصره ، ص ٤٢ .

" وعلى حين نراه يتعقب أثر سياسة الحياد الصارمة فى القضايا الأوروبية، نراه كذلك يستفيد فائدة جمة من هذه الصراعات بصفة مستمرة فيما يتعلق بالقضايا التركية، وعليه فقد جعل فرنسا تقف وجها لوجه ضد إيطاليا فى طرابلس الغرب، وكان ذلك الشأن بالنسبة لإنجلترا وفرنسا فى مصر، وإنجلترا وألمانيا فى منطقة" مزيز طاما" ، كما أخذ يحرص على إثارة النزاعات والحروب بين الصرب والجبل الأسود ورومانيا، ويسعى إلى تصعيد هذه الخلافات ويؤجج نارها حتى يحول دون عدوانهم على الدولة العثمانية.(٥)

أما أساس سياسة الاستمالة التى اتبع عبد الحميد سبيلها فى سياسته الخارجية فكانت تتمثل فى توطيد صداقات شخصية حميمة مع الأباطرة والملوك ورؤساء الدول ومع سفرائهم ، والحرص على خطب ودهم وإكرام قادتهم ومنحهم الأنواط والأوسمة والنياشين، واستطاع عبد الحميد بفضل هذه السياسة الأريبة الحكيمة أن يحمى الدولة من شرور كثير من الدول.

" كان عبد الحميد يسعى إلى تطييب خواطر السفراء الموجودين فى إستانبول، كما عنى عناية فائقة بإكرامهم والسخاء عليهم، وكان عطوفا بهم، وكانت فئة قليلة من السفراء والقائمين بالأعمال يعاونون عبد الحميد فى بعض ما يعن له من أمور، ويتفضل بالإنعام والإحسان على بعض السفراء الآخرين".(٦)

ورغم تطبيق عبد الحميد للمبادئ آنفة الذكر فى مجال السياسة الخارجية، فإنه لم يكن عنيدا فى تطبيق هذه السياسة فى أى وقت من الأوقات، كما كان يجنح إلى تطبيق سياسة الترويع والترهيب ويضبطها ضبطا دقيقا محكما بحسب تطور الأحداث وما يطرأ عليها من تغير.

---

(٥) شادية عثمان أوغلو، ص ٢٩ .

(٦) تحسين باشا، ص ٢٢٨ -٢٢٩ .

كان عبد الحميد صادقا أمينا فى الحصول على المعلومات الصحيحة؛ بغية تطبيق سياسة خارجية جيدة ناجحة، لا سيما أنه كان يريد الإلمام بكل شيء يخص أوروبا التى تعد الميزان الحساس فى السياسة الخارجية.

" فهو يلم بأدق التفاصيل المتصلة بالسياسة الأوروبية"[7] ، وهو مدين بالفضل فى هذا إلى جهاز المخابرات.

وإذا كان عبد الحميد يقدر الدول الأخرى حق قدرها وينزلها منزلتها اللائقة بها، فقد نرى مسلكه وأسلوبه فى مضمار السياسة الخارجية، ويتمثل هذا السلوك فيما يأتى:

الصبر على روسيا وتحملها وترويضها، وعدم إثارة أى مشاكل أو قضية مع إنجلترا على الإطلاق، الاعتماد على أوروبا وعدم تجاهل النمسا التى تضع عينها على مقدونيا، والتعايش بصورة طيبة مع الدول الأخرى ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وتأليب دول البلقان بعضها على البعض الآخر، وخلق النزاعات وإثارة العداوة والشحناء بين كل من بلغاريا والصرب واليونان، ودونكم التفصيل المسهب لكل هذه النقاط.

روسيا: عداوة تنزل إلى الدرجة الثانية

يفصل عبد الحميد القول فى مذكراته عن أسلوب السياسة التى اتبعها تجاه روسيا على النحو الآتى:" إن ما خططته روسيا للشرق ما هو إلا برنامج يرجع إلى قرن منصرم من الزمان، ونجد هذا بين التعليمات التى أعد لها من قبل ألكسندر الأول سنة ١٨١٢م، فقد أصدر هذا القيصر فى منشور له تعليمات وجهها إلى رجالات السياسة يقول فيها: عليكم بتطعيم وتلقيح عشق الروس فى منطقة البلقان والاضطلاع بتحريض وإثارة شعوب هذه المنطقة عن طريق إقامة ممالك لهم فى صربيا والبوسنة والهرسك ودالمجة والجبل الأسود والسولاف، ودخول دول البلقان فى نضال وكفاح مع تركيا والنمسا، ويمكن لهذه الدول أن تعقد تحالفا مع روسيا عند الضرورة.

---

(٧) عبد الحميد الثانى ، آرائى فى الدولة و الأمة ، ص ٣٤-٣٥ .

وحرى بنا الاعتراف بأن رجالات السياسة الروس يبذلون جهدهم من أجل تنفيذ هذه المعلومات بعزيمة وإصرار. أما النمسا فقد اضطرت إلى اتباع سياسة لينة مع روسيا فى كل حين بسبب القلاقل والمتاعب التى كانت تقض مضجعها. وقد استطاعت ولايات طونة التحرر من إسار إجبارها على أن تكون إمارة روسية".[8]

وفى عهد عبد الحميد وبعد معاهدة برلين أصبح اتجاه السياسة الروسية نحو تركيا يتبلور فى النقاط الأساسية الثلاث الآتية: سحب تأييد روسيا للأرمن حتى لا تكون ألعوبة مستخدمة فى يد إنجلترا، والمحافظة على الوضع الراهن حتى تظل تنعم بالحرية المطلقة فى البلقان ومنطقة الشرق الأوسط بسبب النضال المتفجر ضد الاستعمار فى الشرق الأقصى وامتداد نفوذه فيه، وإعداد الجيوش الروسية وتجهيزها تدريجيا كى تحقق هدفها من احتلال إستانبول ومنطقة المضايق"[9].

وعندما أماطت روسيا اللثام عن سياستها على هذه الشاكلة ، أسرع عبد الحميد من فوره وأظهر سياسة جديدة تجاه روسيا أشد تأثيرا ونفوذا مما سبق.

وقد رأى السلطان عبد الحميد أن القيصر الروسى وجه ضربة عنيفة ومباشرة إلى جنود الاحتياط التركى إبان الحرب التركية الروسية الأخيرة، وكانت سياسة السلطان تتسم بأسلوب حذر يقظ فى التعامل مع روسيا كى يحمى وطنه من الخطر الروسى المحدق به، كما بذل جهده للتعايش معها فى وئام وسلام. كان عبد الحميد يقول: "إن المتاعب والمصائب التى سببتها لنا روسيا فى الماضى القريب لن تنمحى من الذاكرة، إنها أخطر وأكبر عدو مروع مفزع قريب من حدودنا."

لم ترتعد فرائص عبد الحميد ، ولم يضطرب تفكيره بشأن نكوص إنجلترا عن مساعدته ضد روسيا،[10] ومن ثم فقد اتبع سياسة إدارة المصلحة فى التعامل مع

---

(٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٤٠ .

(٩) دافيسون ، ص ١٠١ .

(١٠) توصل عبد الحميد إلى رأيه هذا إبان مؤتمر إستانبول فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦م.

روسيا، وكلما جاء القيصر الروسى إلى قصره الكائن على سواحل البحر الأسود أسرع السلطان بإرسال كل من فؤاد باشا وطورخان باشا للترحيب به وإظهار أمارات الصداقة والمودة التى تربط بين كلتا الدولتين،(١١) "كان عبد الحميد أشبه بطفل خائف جلد على ظهره بهراوة غليظة، لهذا كان يتجنب روسيا، كما كان على يقين جازم بأنها بمثابة خطر محدق يهدد الإمبراطورية العثمانية ويقض مضجعها".(١٢)

يقول عبد الحميد لابنته عائشة: إنه كان لا يفوت فرصة سانحة من أجل تقوية أواصر الود والصداقة مع القيصر الروسى من أجل حماية الدولة العثمانية من المخاطر المهلكة التى يمكن أن تتأتى من روسيا، وإن ظروفنا الجغرافية تفرض على هذا وتجعله أمرا واجبا حتميا لا مناص منه ألبتة.(١٣)

أراد عبد الحميد أن تكون روسيا بمثابة توازن مع النمسا فى منطقة البلقان، ومع اليابان فى منطقة آسيا، ويتحدث فى مذكراته عن اهتمامه باليابان فيقول: "كانت روسيا منذ قرون بعيدة هى العدو المشترك لكل من النمسا واليابان، وبناء عليه توجب علينا التفكير بصورة جدية فى عقد تحالف مع اليابان نستطيع من خلاله الحصول على فوائد جمة، ورغم أنه لا توجد علاقات التفاهم الذى يعضد عرى الصداقة بينهما، بيد أنه يتوجب علينا التحرك بصورة محكمة رزينة مكثفة فى عقد الاتفاقيات التجارية مع اليابان حتى لا نصبح فى وضع محزن مع روسيا.

إننى لا أتعشم فى جنى فائدة زائدة من صديقتنا اليابان البعيدة القاصية، بيد أن هذا القرار كان فى موضعه تماماً قبل الوصول إلى اتخاذه، وإنه يمكن أن يحقق لنا فائدة جمة.(١٤)

---

(١١) تحسين باشا، ص ٦٢ .

(١٢) أوكة، عبد الحميد الثانى وعصره، ص ٦٠ .

(١٣) عائشة عثمان أوغلو، ص ٤٩ .

(١٤) عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية، ص ١٢٢ .

هم السلطان عبد الحميد بإرسال سفينة حربية" أرطغرل" إلى اليابان فى شهر يوليو سنة١٨٨٩م لتكون بمثابة بداية للعلاقات مع هذه الدولة، ولكن هذه السفينة كانت مشئومة الطالع، إذ هبت ريح عاصف إبان عودتها فأغرقتها.

ولم يكن السلطان ينتظر فائدة أكثر من اليابان بسبب البعد الجغرافى. وفرح السلطان كثيراً للهزيمة النكراء التى منيت بها روسيا أمام اليابان سنة ١٩٠٥م، ولتقرأ فى هذا السياق طرفا من مذكرات السلطان عبد الحميد حيث يقول:" لقد سعدنا كثيراً بانتصار اليابان، وإن النصر الذى حققوه ضد الروس يعد من أجلنا نصرا مبينا.

وهذا يعنى ولا ريب تقليص قوة الهجوم المتربص بنا فى البحر الأسود، ولا شك أن روسيا سوف تعاود شن الهجوم علينا بعد أن تتخلص من أحزانها وتخلع ثوب الحداد، وعندما تعجز عن تحويل بحر البلطيق إلى بحر روسى حينئذ سوف تسعى إلى تحقيق مآربها وآمالها المنشودة فى البحر الأسود".(١٥)

كان عبد الحميد يرى دائماً أن روسيا وإنجلترا هما أكبر عدوين لدودين لتركيا، واستخدم فى هذا الصدد التعبير الذى يقول:" إنهما فأران مخربان لمنزلنا ومقوضان لبنيانه".(١٦)

ظل عبد الحميد يقظانا آخذا حذره فى مواجهة روسيا التى كانت تأمل دائماً فى الاستقرار وتوطيد أركانها فى منطقة المضايق، لاسيما أنها كثفت سياستها على منطقة المضايق عقب معاهدة برلين. وقد عقد نيقولا الثانى قيصر روسيا اجتماعا سريا فى سنة ١٨٨٥م قال فيه:" إن احتلال إستانبول هو أملنا الكبير، ونحن عازمون على أن تكون المضايق ملكا خالصا لنا لا ينازعنا فيه أحد. وليعلم هؤلاء جميعا أنها ستئول إلينا ولسوف نستولى عليها. وقد ظهرت مزاعم روسيا فى النزول إلى البحار الدافئة لأول مرة منذ عصر الإمبراطور باترو الأول".(١٧)

---

(١٥) المصدر السابق، ص ١٥١-١٥٢ .

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤٥ .

(١٧) ابن سامر، التاريخ المختصر لروسيا، نيويورك، ١٩٤٩م، ص ٢٧٤ .

ويرى عبد الحميد أن المضايق هى سبب العداوة الكبرى التى ظهرت بين روسيا وتركيا.

" ولو لم نكن عدوين لدودين لما استطعنا التفاهم بأى شكل من الأشكال فى هذه النقطة، ونعنى بها فتح المضايق أمام روسيا، ولتسنى أن نكون كذلك أفضل صديقين فى الدنيا"، ثم يردف قائلا:" ويرجع هذا إلى وجود كثير من أوجه التشابه والتماثل بين الإمبراطورية القيصرية وإمبراطوريتنا عندما ندقق النظر فى كلتيهما، وإن هذا التشابه يذكرنا كثيراً بالتشابه بين شخصية الشعبين وسماتهما وخصائصهما".(١٨)

ويرى السلطان أنه إذا كانت المضايق ذات أهمية قصوى لروسيا فإنها مهمة لنا بنفس الدرجة ، ويقول فى هذا الصدد وهو يملى مذكراته على مسامع على وهبى:" إن المضايق بالنسبة لتركيا مسألة حياة. ولزام علينا المحافظة عليها وحمايتها مهما كان الثمن".(١٩)

فكرت روسيا بضع مرات فى احتلال المضايق إبان حكم عبد الحميد، بيد أن استعداداتها العسكرية لم تكن كافية، ثم تخلت عن الفكرة واضعة نصب أعينها أن الوضع الدولى الراهن لم يكن مواتيا، ناهيك عن اشتعال الكفاح والنضال فى منطقة الشرق الأقصى.(٢٠)

بدأ عبد الحميد فى عزل روسيا حتى يأمن شرها ويحتمى من الأضرار الجسيمة التى يمكن أن تصيب الأمة بسببها، ثم أخذ بعد ذلك يراقب من كثب استعدادتها العسكرية ذات الصلة الوثيقة بالمضايق، ويفضى فى هذا السياق بحديث إلى" أرمنيوس فامبرى" يقول فيه:" إننى لا أعلم كل ما يتعلق بالأسطول الحربى الروسى الموجود فى

---

(١٨) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٥٢ .

(١٩) قرال ، جـ٨، ص١٨٣ .

(٢٠) jens. t. showellfransis deak ، تركيا عبر التاريخ ، نيويورك١٩٤١م ، ص ٦٠-٧٢ .

البحر الأسود فحسب، بل أعلم كذلك عدد قوات هذا الأسطول ومصادرها، فلقد نذرت كل حياتى من أجل سلامة هذه الأمة وضمان أمنها، وإذا لم أكن قادرا على الانتباه واليقظة وأخذ جانب الحيطة والحذر فى مواجهة التطورات المهمة والحيلولة دون إنزال القوات الروسية على سواحل المضايق ، لكان عدم تولى هذا المنصب أفضل.[٢١]

وعلى حين كان السلطان عبد الحميد يراقب التحرك العسكرى الروسى الذى يمكن أن يحدث نحو منطقة المضايق عبر البحر الأسود، فإنه أمر فى نفس الوقت بإرسال سفينة حربية جديدة إلى أوروبا كى يحمى المضايق من العدوان الروسى المحتمل.

ووضع السلطان نصب عينيه تحصين منطقة المضايق بأحدث المعدات العسكرية التكتيكية، بيد أن روسيا كانت تعارض هذا التحصين وتتصدى له.

وما لبث السفير الروسى أن أسرع مهرولا إلى قصر يلدين، وقال للسلطان: ضد من تحصنون مضيق إستانبول؟ أيليق بالدولة العثمانية العلية أن ترتاب فى إخلاص الإمبراطورية الروسية؟ وبناء على هذه التهديدات تم التخلى عن التحصينات. ويرجع السبب فى هذا إلى استحواذ المعارضين للقيصر فى روسيا على المدرعة المسماة "بو تمكين" وشقهم عصا الطاعة ضد القيصر.

كانت هذه المدرعة المسلحة بالقنابل فى ميناء أوديسا الروسى، ثم شرعت بعد ذلك تطوف هائمة على وجهها فى البحر الأسود، وانتهز السلطان الفرصة وأسرع على الفور بتثبيت أربعة وعشرين مدفعا فوق الحصون ، واعترضت روسيا، وكان تمركز المدفعية التركية بمثابة تهديد لروسيا التى أسرعت باتخاذ تدابير حتى تغير المدرعة طريقها التى تسلكه.[٢٢]

---

(٢١) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ٦٠ .

(٢٢) سليمان قانى أرتم ، مسألة المضايق ، إستانبول ١٩٣٦، ص ٧٦ .

إنجلترا: عداوة بلغت الدرجة الأولى

كانت إنجلترا هى الدولة الثانية بعد روسيا التى يتجنبها السلطان عبد الحميد، ويمكن القول إنها كانت الدولة الأولى وليست الثانية، وتكون عداوة روسيا فى المرتبة الثانية. وكانت روسيا إبان عصر عبد الحميد حريصة على ألا تُمسس تركيا بضر أو أذى أكثر مما حدث بسبب اتباعها سياسة المحافظة على الوضع الراهن فى البلقان والشرق الأقصى.

أما إنجلترا فلم تكن مثل روسيا، إذ أصبحت العدو الأول لتركيا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، وباتت روسيا هى العدو الثانى، حتى إن إنجلترا قطعت شوطا فى هذه العداوة لدرجة أنها اقترحت على روسيا تقسيم تركيا وفصم عراها، وقد أقدمت على احتلال الأراضى العثمانية مثل قبرص ومصر، كما ساعدت قطاع الطرق من أهل أرمينيا ومقدونيا من أجل تقسيم تركيا واليونان وتجزئتهما. وكانت تنحاز إلى اليونان إبان الخلافات المثارة بين تركيا واليونان، ناهيك عن أن إنجلترا كانت العدو الأول للسلطان والعرش على حد سواء.

وطفقت إنجلترا تؤيد المعارضين للسلطان وتشد من أزرهم وتقحم نفسها فى كل الأحداث التى ترمى إلى إقصائه عن العرش.

كان عبد الحميد يعلم جيداً مصاعب الصراع والنزاع الذى يمكن أن ينجم عن وقوع خلاف مع إنجلترا التى تمثل القوة العظمى فى تلك الحقبة من الزمان، ولهذا كان يحجم دائمًا عن المواجهة المباشرة عن طريق الكفاح المسلح مع هذه الدولة، واختار سبل النضال غير المباشر جنبا إلى جنب مع سياسة التعايش السلمى معها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

واستخدم فى هذا النضال الوحدة الإسلامية من ناحية ، وتوطيد صداقة حميمة مع الألمان؛ من ناحية أخرى. شرع السلطان فى استخدام تأثيره ونفوذه فى السياسة الألمانية لأنه رأى فى ألمانيا أنها أصبحت بمثابة القوة العظمى الثانية فى العالم التى يمكن أن تحدث توازنا فى القوى مع إنجلترا.

ولنقرأ فى هذا الصدد بضعة أسطر مما كتبه حيث يقول: "لقد وجدنا أنفسنا فى مواجهة كل من روسيا وإنجلترا عندما هممنا بتسديد ضرباتنا إلى لصوص وقطاع الطرق البلقان.

ولا جرم أن روسيا وإنجلترا كلتيهما تشبهان فأرين ينخران فى جسد أمتنا ويهددانها بالخراب واليباب. وكانت فرنسا منذ عهد قديم هى المدافع المؤكد الذى يستطيع أن نجده يقف ضد هذين الفأرين القارضين الكريهين البغيضين، بيد أن فرنسا ما فتئت كل يوم تنفصم عنا، وتنأى بعيداً عنا أكثر فأكثر.(٢٣)

ونشكر الله فلقد عقدنا أواصر صداقة حميمة مع ألمانيا من أجل تعويض هذا الصديق القديم".(٢٤)

كانت المسألة الأرمينية من أشد الموضوعات الخارجية التى سلك فيها السلطان عبد الحميد سلوكا متشددا صارما ضد إنجلترا.

فقد وضع السلطان الموت نصب عينيه إبان هذه القضية حتى يجهض سياسة إنجلترا تجاه المسألة الأرمينية، فالقضاء عليها وهى العدو الأكبر والإجهاز على كل وسيلة يمكن اللجوء إليها فى هذه القضية هو الشغل الشاغل لعبد الحميد ، اتجهت الحكومة الإنجليزية إلى تكوين تحالف ضد تركيا فى أعقاب حادثة الأرمن، بيد أن السلطان نجح فى استخدام الطرق الدبلوماسية، وهى سياسة حظيت بإعجاب أعدائه وتقديرهم فى ذلك الحين وأصابتهم بالبهر والإعجاب.(٢٥)

---

(٢٣) بدأت فرنسا تتبع سياسة تشبه سياسة إنجلترا تجاه تركيا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، مما نجم عنه أنها سلكت سلوكا فاترا ضد تركيا بسبب الآمال التى كانت تراودها فى احتلال أجزاء من أراضى الإمبراطورية العثمانية.

(٢٤) عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية ، ص ١٤٥ .

(٢٥) شادارى، ص ٣٠١-٣٠٢ .

وقد رأى عبد الحميد أن التحالف الإنجليزى الروسى سوف يصيب تركيا بضرر جسيم، ومن ثم فإنه حرص على الحيلولة دون وقوع هذا الضرر، ويتحدث فى هذا السياق إلى المحافظ راسم بك إبان نفيه إلى سلانيك قائلا له:" لقد لجأت إلى كل وسيلة ممكنة لإفساد العلاقات بين كل من إنجلترا وروسيا، وبذلت كل ما فى وسعى[٢٦] حتى الأيام الأخيرة للحيلولة دون قيام اتحاد بين هاتين الحكومتين، أتدرى كيف حالفنى التوفيق فى هذا السبيل.[٢٧]

وقد أدلى السلطان بطائفة أخرى من الآراء تجاه إنجلترا ذكرها أثناء خواطره ومذكراته، ومنها على سبيل المثال ما يأتى:" كان لزاما أن يكون الإنجليز من أكثر الدول الكبرى التى يتوجب اجتنابها والبعد عنها، فكثير منهم ينكثون عهودهم.[٢٨]

وإن ما أظهرته إنجلترا من أمارات الصداقة الحميمة والود والإخلاص تجاه الدولة العلية لم يكن يرمى إلا إلى المصلحة فقط".[٢٩]

وقال لطبيبه الخاص عاطف حسين:" إننى أخاف من إنجلترا أكثر من جميع الدول الكبرى. فهل يتخلى الإنجليز حقا عن شىء أمسكوا به ولو مرة واحدة".[٣٠]

ثم يقول لجمال الدين باشا:" لزام على المرء المتحضر ألا يفرق بين عدوه وصديقه، وأن يعاملهما على قدم المساواة، وليس من الحكمة إظهار العداوة والبغضاء بجلاء تجاه

---

(٢٦) تم توقيع التحالف الإنجليزى الروسى سنة ١٩٠٧م، وإذا كان هذا التحالف قد أقيم سنة ١٨٩٦م ، فإنه بالنسبة لتركيا طامة كبرى وإعلان للحرب عليها، ويمكن أن يفضى إلى إقامة دولة أرمينية فى شرق الأناضول.

(٢٧) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٢٣١ .

(٢٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١١٤ .

(٢٩) عبد الحميد الثانى ، آرائى فى الدولة والأمة ، ص ٣١١ .

(٣٠) أر أصلان ، ص ٣٥ .

أعدائك. وألا تفرط فى الثقة الزائدة بأصدقائك، لقد كنا دائمًا نبدى الصداقة للإنجليز، ولكننا فى الوقت نفسه نعرف مشاعرهم وأفكارهم وسياستهم".(٣١)

ويتحدث السلطان عما كان يبذله الإنجليز من جهد من أجل انفصال العرب والأرناؤوط والأرمن عن تركيا، ويقول فى هذا الصدد:" كانت إنجلترا "حاشا لله" تسعى سعيا حثيثا من أجل تقسيم الدولة العلية إلى دويلات صغيرة، ومما يؤسف له فى هذا المقام أن ثلة من جماعة تركيا الفتاة الأرذلين المارقين الفاسقين كانوا يعمدون إلى تعضيد إنجلترا وتقوية شوكتها بكل ما أوتوا من قوة لتحقيق أغراضها فى هذا السبيل، ويعملون ليل نهار للاضطلاع بهذا الصنيع القبيح المشين.(٣٢)

ويعلم كثير من الناس أن الانتصارات الإنجليزية لم تتحقق بجنودها فقط، بل بالمال والدبلوماسية كذلك".(٣٣)

ألمانيا: ملاذ محدق بالخطر

حقق السلطان فائدة جمة من ألمانيا فى مضمار السياسة الخارجية، وهذا يعنى: " أن السياسة الألمانية قد وصلت إلى نوع من المساندة والمساعدة، نعم وصلت إلى هذا الحد ، ولكنها بعد حقبة من الزمان باتت تتدخل فى السياسات الأخرى التى ترمى إلى القضاء على السلطان وإقصائه عن العرش".

هناك كثير من الأسباب التى جعلت عبد الحميد يقترب كثيرا من ألمانيا ويوطد علاقته بها ، وقد أماط اللثام عن هذه الأسباب حيث يقول:" ثمة مشترك بين كلتا الدولتين فى نظام الحكم، ولا سبيل إلى حدوث مصادمات مسلحة بينهما لعدم وجود

---

(٣١) صالح نافذ طاتسو ، مذكرات جمال الدين باشا ، إستانبول ١٩٧٠م ، ص ٩ .

(٣٢) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١٢٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

حدود مشتركة، ناهيك عما يشعر به السلطان من إعجاب بالقوة العسكرية والصناعية التى تتمتع بها ألمانيا".(٣٤)

ولما رأى عبد الحميد عداوة روسيا وإنجلترا ظاهرة بجلاء ، لم تعد أمامه وسيلة أخرى سوى التفاهم مع الألمان لمواجهة الوضع الراهن، وفكر مليا فى أن تسليحنا العسكرى يمكن أن يتطور كثيراً عن طريق المساعدة الألمانية مما يتيح لألمانيا وضعا استراتيجيا مهيمنا فى إستانبول ، كما سيؤدى كذلك إلى ترويج اقتصادها القوى فى المنطقة دون منافسة.(٣٥)

وكان هذا بمثابة البداية آنذاك كى تبسط مجال نفوذها وتستفيد من الإمبراطورية العثمانية، لا سيما وأن ألمانيا بدأت تلقى بنفسها فى لجة الكفاح ضد الاستعمار، وهكذا رأت الدولتان ضرورة التعجيل بالاقتراب كثيراً من بعضهما البعض ، وقد اضطلع بالدور الأساسى فى هذا التقارب السفير الألمانى فى إستانبول" بارون هاترفيلد". كما أن الظروف فى ألمانيا وتركيا والظروف العالمية السائدة عام ١٨٨٠م لا تشبه ما كانت عليه إبان عام ١٨٦٠ م.

وفى تلك الحقبة كان الزعيم الألمانى"بسمارك" يقول : "إننى لا أريد أن أحمل على عاتقى أى مسئولية قط من جراء المتاعب والشدائد التى تأتى من إستانبول، وإن اشتغال البلقان بشئون الشرق لا يرجى من ورائه سوى تحطيم عظام جندنا ، كما أن بسمارك يبين بجلاء عدم اكتراثه بتركيا".(٣٦)

بدأت ألمانيا فى تأسيس وحدتها عام ١٨٧٠م، وعندما شرعت تناضل ضد الاستعمار وامتداد نفوذه تغير الموقف على حين غفلة وسرعان ما حولت أنظارها صوب تركيا.

---

(٣٤) تحسين باشا ، ص ٥٢ .

(٣٥) هو الأمير أوتوفان بسمارك ١٨١٥-١٨٩٨م ، سياسى ألمانى وأول مستشار أو رئيس للإمبراطورية الألمانية ١٨٧١-١٨٩٠م (المترجم).

(٣٦) دافيس ، ص ٣٥٥ .

وفى أوائل عام ١٨٨٠م شعر السفير الألمانى فى إستانبول" هلاترفيلد" بالفراغ الموجود فى إستانبول، فأسرع من فوره بإرسال تقارير إلى برلين قال فيها: " لقد انتهى أمد النفوذ الفرنسى بانتهاء نابليون الأول. ذلك النفوذ الذى بدأ منذ عصر سليمان القانونى المعظم، وإذا كان النفوذ الإنجليزى قد حل محل النفوذ الفرنسى منذ عهد رئيس الوزراء الإنجليزى الماكر اللورد" بالمرستون"[٣٧] ، فإنه انتهى بدوره إبان اللورد"جلادستون".[٣٨]

ولهذا كان السفير الألمانى يريد شغل هذا الفراغ الذى ظهر فى تركيا وطلب إلى القيصر الألمانى سرعة التحرك بغية تحقيق هذا الغرض".[٣٩]

بيد أن هذا الاقتراح الحيوى الذى عرضه السفير الكونت هلاترفيلد لم يكن قد فهم أو أدرك مغزاه أول الأمر فى برلين، ثم تدبره بعد ذلك وأدرك كنهه وليام الثانى قيصر ألمانيا. وما أن تبوأ منصبه حتى أسرع بالذهاب إلى إستانبول فى أول زيارة يقوم بها إمبراطور دولة أوروبية كبيرة إلى تركيا، مما أغضب إنجلترا وروسيا اللتين لم ترحبا بهذه الزيارة.[٤٠]

ثم قام القيصر الألمانى بزيارته الثانية إلى إستانبول فى سنة ١٨٩٨م، وكان المارشال" فون بيبارستين" سفيرا لألمانيا فى إستانبول ، وكان من أشد المدافعين عن المبعوث السابق هلاترفيلد ومذهبه السياسى.

وقد مد القيصر أمد زيارته الثانية حتى شملت مدينة القدس التى بدأ العنصر الألمانى فيها يظهر ألمانيا على أنها دولة استعمارية جديدة، وأسرع القيصر بافتتاح كنيسة بروتستانتية إبان زيارته للقدس.

(٣٧) هو اللورد بالمرستون ١٧٨٤-١٨٦٥، سياسى بريطانى واضطلع بدور بارز فى الشئون الأوروبية (المترجم).

(٣٨) عاش فى الفترة من ١٨٠٩-١٨٩٨م ، سياسى بريطانى وتولى الوزارة عدة مرات (المترجم)

(٣٩) ماروتى ، ص ٣٩٢ .

(٤٠) Groves ، ص٦٠ .

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٨م ذهب لزيارة دمشق وألقى فيها خطبة مشهورة قال فيها: "لقد سلمت على الخليفة المعظم عبد الحميد بكل تجلة واحترام، فهو الخليفة لثلاثمائة مليون من المسلمين. فكونوا دائمًا على ثقة بالصداقة الحميمة للإمبراطورية الألمانية".

وقد استقبلت هذه العبارات بالدهشة والحيرة، وكانت بمثابة إنذار وتحذير للدنيا كلها، لا سيما أن إنجلترا قد ارتعدت فرائصها وأصبحت على يقين بأن ألمانيا سوف تستخدم ما يعرف بالوحدة الإسلامية من أجل إحياء الرجل المريض وبث نبض الروح والحياة فيه.(٤١)

وقد منح الألمان على الفور امتياز إنشاء خط سكك حديد بغداد، وقد رأت أوروبا وآسيا أن هذا الخط سيكون بمثابة قاعدة عسكرية تنطلق منها ألمانيا للتقدم صوب شرق آسيا، وكان هذا هو أحد أسباب اندلاع الحرب العالمية الأولى.(٤٢)

بدأت السياسة التى نفذها ويليام الثانى تحدث قلقا واضطرابا فى شتى أنحاء المعمورة، وكان عبد الحميد يشعر بالانزعاج من هذه السياسة، وعندما قدم ويليام الثانى إلى إستانبول فى المرة الثانية بدأ عبد الحميد يزن هذا الإمبراطور ويقومه جيداً من ناحية الكفاءة والدبلوماسية والعبقرية السياسية.

وقال لابنته عائشة : "إنه رجل محنك وليس حكيما ولا أريبا، ولا دبلوماسيا عظيما مثل سلفه بسمارك".(٤٣)

ولهذا السبب فإنه يمكن أن يسبب المتاعب، نعم قد سببها بالفعل.

ورغم أن السلطان كان يقتفى أثر السياسة المتوازنة بين الدول، فقد أصبحت إنجلترا وفرنسا منزعجتين من سياسة التوقير التى ينتهجها نحو ألمانيا.

---

(٤١) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٤٢) بروفيسور جبرائيل بير ، الألمان واقتصاد الإمبراطورية العثمانية، ألمانيا والشرق الأوسط ١٨٥٣-١٩٢٩م، الندوة الدولية، أبريل ١٩٧٥م، مطبعة تل أبيب ، ص ٤٥-٦٤ .

(٤٣) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٥٤ .

ولهذا السبب فقد دأبت هاتان الدولتان على تكثيف التأييد والمساندة لجماعة تركيا الفتاة من أجل الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وإقصائه عن عرش السلطنة.

ورغم أن عبد الحميد ينتهج سياسة رزينة عاقلة مع ألمانيا فى إطار سياسته على العموم، فإنه امتنع عن تطبيق هذه السياسة مع الدول الأخرى.

كما أن السياسة ذات التقدير مع الألمان قد باتت أكثر رواجا وانتشارا، وكان يقول لابنته عائشة فى هذا السياق:" رغم أننى لم أهتم كثيراً بالسياسة الألمانية ، فإننى لم أغض الطرف قط عن الدول الكبرى الأخرى أو أسبب لها ضيقا وانزعاجا، إننى أزن سياستى دائمًا بميزان حساس".(٤٤)

لا جرم أن السلطان كان يزن كل شيء بهذا الميزان، وبينما رأيناه يمنح الألمان حق إصلاح القوات البرية العثمانية، نراه فى الوقت نفسه يمنح الإنجليز حق إصلاح البحرية العثمانية، ويعجب أيما إعجاب بالبحرية الإنجليزية. كما كان الفرنسيون يصلحون أحوال الشرطة والبوليس.

كما أخذ الإصلاح الاقتصادى نصيبه من هذه السياسة المتوازنة واستفاد منها كثيرا، ومنحت ألمانيا حق امتياز إنشاء خط حديد بغداد، ومنح نفس الحق للإنجليز لتفيذ خط حديد غرب الأناضول.

وحظيت فرنسا بحق مشابه حيث أنشأت خط سكك حديدياً فى سوريا، حتى إن روسيا قد حظيت هى الأخرى بنصيب من هذه الامتيازات بمنحها حق إنشاء خط حديدى فى شرق الأناضول وآخر فى المناطق المطلة على البحر الأسود.

هكذا كانت السياسة المتوازنة للسلطان عبد الحميد تتجه وفق متغيرات الكفاءة والقدرة التى يتسنى لها الاضطلاع بهذه السياسة، وهذا ما قد عبر عنه السلطان بقوله:" كان كامل باشا يأتى على رأس الأكفاء القادرين على توثيق عرى الصداقة مع

---

(٤٤) عائشة عثمان أوغلو ، ٤٩ .

الإنجليز لأنه مؤيد لسياستهم، ويأتي فريد باشا على رأس الرجال القادرين على توثيق عرى الصداقة مع الألمان لانحيازه لسياستهم".(٤٥)

كان لياذ عبد الحميد بألمانيا ولجوؤه إليها ضروريا من أجل إحداث توازن بين الدول الكبرى التى تناصبه العداء، بيد أن هذا اللجوء لم يكن شيئا حسنا بالنسبة لعبد الحميد وبقاء الدولة العثمانية، وأهم سمة لهذا اللجوء أنه بمثابة ولوج إلى ملجأ محفوف بالمخاطر، وقد استخدم الاتحاديون هذه السياسة للقضاء على السلطان أولا ثم على الدولة فى خاتمة المطاف.

فرنسا: البديل الاحتياطى لإنجلترا وروسيا

عندما عقد السلطان مقارنة بين الألمان والفرنسيين ، رأيناه يوضح سبب تفضيله للألمان بقوله : "أنا لا أفضل الألمان، وثمة أسباب متباينة لعدم تحركى صوب الفرنسيين الذين لم أكن مسرورا بعلاقتى معهم.

إن شخصية القيصر الألمانى كافية وحدها لعدم توجه عاطفتى نحو الألمان، فهو محبوب كرها، بيد أنه موثوق به ويعتمد عليه، وفى الحق فإنه إنسان أدهشنى وأعجبت به أيما إعجاب ، فلقد ارتقع بمستوى دولته إلى مستوى سام عظيم".

لا جرم أن الألمان كانوا أكثر حبا مقارنة بالفرنسيين، فهم من ناحية الطبيعة والحيلة أشد شبها بالعثمانيين ، يتحركون بخطوات وئيدة متمهلة، بيد أنهم أصحاب حيثية وشرف وصدق ومودة وإخلاص. إنهم مجتهدون مثابرون يتمتعون بالعزيمة والإصرار. والفرنسيون مجتهدون ، و لكنهم لا يتمتعون بمضاء العزيمة والإصرار كالألمان، وإن خفة الروح عندهم تشبه كثيرا جذوة القش الملتهب ، يشتعل فجأة ثم ما يلبث أن يخبو سريعا وينوى. والألمان يملكون معلومات عميقة فى كل عمل يقومون به، ولا وجود لمثل هذه الصفة عند الفرنسيين.

---

(٤٥) أرتورك ، ص ٣٨ .

وخلاصة القول: "إن الفرنسيين هم الآن بالنسبة لنا أقل محبة وودا قياسا بما كانوا عليه من قبل حين. لقد أخذوا تونس منا وفرضوا عليها الحكم الجمهوري.

ونحن نرى أنه لا سبيل إلى استمرار نظام مستقر فى مكان لا يقوم فيه الحاكم بإدارة دفة الأمور فيه بنفسه".(٤٦)

بات السلطان عبد الحميد يشعر بفتور من الحكومة الفرنسية، فقد احتلت جزءا من الأراضى العثمانية ، ولم تؤيده زمرة عريضة من جماعة تركيا الفتاة المعارضة للسلطان، ناهيك عن احتلالهم لدوائر الجمارك فى منطقة"ميدللى" سنة ١٩٠١م.

حرصت فرنسا على خطب ود عبد الحميد وتوثيق أواصر الصداقة معه، وعملت فى سبيل تحقيق هذا الغرض على إخراج أعضاء جماعة تركيا الفتاة من بعض أنحاء فرنسا وفرضت عليهم حصارا ضيقا لا يتجاوزونه.

وكان احتلال فرنسا لمنطقة" ميدللى" بمثابة أسوأ واقعة حدثت بين كلتا الدولتين، ويرجع سبب الاحتلال إلى عدم أداء دين مستحق لمواطنين فرنسيين أخوين هما: لورندوك وتوبينى، فقد أخذ الباب العالى هذه الأموال من لوردو منذ أمد طويل واستخدم هذا المال فى إقصاء عبد العزيز عن عرش السلطنة، وقد تجاوزنا عن هذه المسألة لأن الخوض فى مناقشتها هو شيء محفوف بالمخاطر.(٤٧)

ولم يجرؤ أى شخص على أن يتفوه لعبد الحميد بشيء عن هذا المال المقترض حتى زادت فوائده المستحقة وبلغت سنة ١٩٠١م ٣٤٤٤٨٨ ليرة عثمانية (٤٨).

أما الأخوان لورندوك – توبينى فقد ظلا يضايقان الحكومة الفرنسية ويزعجانها بصفة دائمة من أجل تحصيل هذا الدين المستحق على الحكومة العثمانية، وما لبث

---

(٤٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٤٧) تحسين باشا ، ص٧٣ .

(٤٨) willin shorrack ، الاستعمار الفرنسى فى الشرق الأوسط ، ١٩٠٠-١٩١٤-١٩٧٦م ، ص ٢٥ .

الحكومة الفرنسية أن شنت هجوما على جزيرة "ميدللى" الجمركية مستخدمة الأسطول الفرنسى فى ٥ نوفمبر ١٩٠١م ليكون هذا الاحتلال بمثابة ضغط على القصر لتسديد الدين وحماية حقوق المواطنين الفرنسيين، ووضعت الحكومة الفرنسية بضعة شروط لإزالة هذا الاحتلال ومنها: سداد الدين المستحق وحماية الرعايا الفرنسيين الموجودين فى تركيا ومعرفة كل ما يتصل بممتلكاتهم ومؤسساتهم الدينية والثقافية، والتصريح لها بإصلاحات وإنشاءات جديدة لهم، وتلبية رغبة فرنسا فى إنشاء بطريركية كلدانية فى فلسطين(٤٩). كان الألمان قد حصلوا فى ذلك الإبان على حق امتياز إنشاء سكك حديد بغداد، مما خوف فرنسا وأقض مضجعها، وجعلها تتابع من كثب الحصول على امتيازات جديدة ، حتى حصلت على ما تريد باحتلالها جزيرة ميدللى، وكانت الرغبة فى سداد الدين هى الذريعة التى تذرعت بها لتحقيق هذا المطمع الذى كانت تهفو إليه.(٥٠)

قبل عبد الحميد كل ما تريده فرنسا من أجل تحرير الجزيرة سالفة الذكر ، وبادر بتسديد الدين من خزانته الخاصة، إذ كان شديد الخوف من الديون ، لا سيما أنه بذل كل جهده حتى لا يستدين من الخارج.(٥١)

بيد أن فرنسا تتبع سبيل سياسة الأخذ بالثأر من ألمانيا بعد أن هزمت أمامها فى موقعة سيدان سنة ١٨٧٠م، وكانت ترى فى إنجلترا وروسيا خليفتين طبيعيتين لها، ثم بدأت تحكم سياستها مع هاتين الدولتين حتى تفوز بصداقة أوروبا وتركيا على وجه العموم، وأطلقت فرنسا على هاتين الدولتين لقب" البديل الاحتياطى"، ولما أدرك السلطان هذا الأمر أصبح لا يهتم كثيراً بالسياسة الفرنسية.

---

(٤٩) G.F.Abott ، كياسة تركيا والقوى العظمى ، لندن ١٩٦٢م.

(٥٠) جراهام استيوارت ، السياسة الخارجية الفرنسية ، نيويورك ١٩٢١م ، ص ٥٢ .

(٥١) أرتورك ، ص٣٨ .

وها هو ذا السلطان عبد الحميد يبث شكواه من تأثير النفوذ الفرنسى فى تركيا ، والذى فاق فى هذا السبيل قوة النفوذ الألمانى، يقول عبد الحميد: " بلى لقد كان عصر السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز بمثابة عصر النفوذ الفرنسى، ومن البديهى أن نحرص على تثبيت المستشارين والخبراء الألمان فى الوزارات المختلفة، فلقد أصابنا الضرر والأذى من هؤلاء الفرنسيين، فهم لم يستقبلوا بقبول حسن فى الشرق، ولقد نجح الألمان فى التأثير فى الشرق عن طريق الصلح والسلام، ومن أسف أن يضطلع أصدقاؤنا الأقدمون من الفرنسيين بإفساد العلاقة بيننا وبين الألمان".[٥٢]

النمسا وإيطاليا: بديلان احتياطيان آخران

كانت علاقة السلطان الحميمة مع ألمانيا ذات تأثير قوى فعال فى مضمار السياسة الخارجية تجاه النمسا التى كانت قد عجلت ببسط نفوذها فى منطقة البلقان تحت شعار ما يعرف باسم" من فيينا حتى سلانيك"، كما كانت النمسا والمجر كلتاهما ترى الاستحواذ على منطقة "ينى بزار" بعد أن صارتا صاحبتى حق فى الاستحواذ على البوسنة والهرسك بموجب معاهدة برلين.

وهكذا تدخلت النمسا بين الدولتين السولافيتين (الصرب والجبل الأسود)، ونجحت فى عزل الصرب تمامًا عن البحر الأدرياتيكى، وسرعان ما أصبح الطريق مفتوحا أمامها لتتقدم صوب سلانيك، وكان المستعمرون النمساويون يراودهم حلم الاستيلاء على منطقة بحر إيجه.[٥٣]

بذل عبد الحميد جهده بمساعدة حليفه الطبيعى ألمانيا من أجل كبح جماح رغبات النمسا الملحة فى بسط نفوذها فى منطقة البلقان، ويقول : "إن الاقتراب من ألمانيا مكننا من تخفيف وطأة رغبات ونيات النمسا المبيتة ضد الحكومة العثمانية السنية".[٥٤]

---

(٥٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ص ١٣٥ .

(٥٣) ستون واتسون ، صحوة القومية فى البلقان ، ص ١١١ .

(٥٤) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ، ١٤٧.

ويرى السلطان أن السولافيين سوف يتحدون بعد ذلك، ثم تؤسس بعد ذلك دولة يوغسلافيا، وحينئذ يوصد الطريق فى وجه النمسا ولا تستطيع النزول إلى سلانيك،(٥٥) وطوال الفترة التى لم تستطع النمسا خلالها الاستحواذ على المناطق التى كانت تطمع فيها فى منطقة البلقان لم يكن أمامها إلا أن تتابع من كثب سياسة المحافظة على الوضع الراهن ما دامت هذه المنطقة رازحة تحت حكم الدولة العثمانية.

صرف عبد الحميد همته من أجل توشيج عرى الصداقة الشخصية مع إمبراطور النمسا حتى يتجنب الأضرار الجسيمة التى تتأتى من النمسا.(٥٦)

سياسة السلطان تجاه إيطاليا

كانت نقطة التحرك فى هذه السياسة تقضى بحماية طرابلس الغرب التى تضعها إيطاليا نصب عينيها ولا تبغى عنها حولا." كان السلطان يعى جيداً ما يبذله الإيطاليون من جهد فى تأسيس نفوذ لهم فى هذه المنطقة، وأفكار الاحتلال التى تراودهم. وما لبث السلطان أن رأى ضرورة إرسال فرقة عسكرية مسلحة بستة عشر ألفا من البنادق الآلية إلى طرابلس الغرب لتتصدى للعدوان الإيطالى، كما أرسل فرقة أخرى من المشاة والفرسان لتحريض الأهالى وتأليبهم ضد الإيطاليين".(٥٧)

" كان عبد الحميد لا يثق فى الإيطاليين، ويعلم ما يدور بأخلادهم بشأن طرابلس الغرب، بيد أنه كان على يقين بأنهم لا قبل لهم بعمل أى شىء فى هذه المنطقة طوال مدة مكوثه فى الحكم،(٥٨) وما لبث عبد الحميد أن اهتم كثيراً بتوطيد عرى الصداقة الشخصية مع ملك إيطاليا.(٥٩)

---

(٥٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١١٨ .

(٥٦) شادية عثمان أوغلو ك ص٤٩ .

(٥٧) تحسين باشا ، ص ٦٤ .

(٥٨) أولو بلن ، ص ٣٦ .

(٥٩) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٤٩ .

كانت إيطاليا تريد تحقيق طموحاتها فى تركيا معتمدة فى هذا السبيل على الاتفاق والتحالف مع الدول الأخرى، وأقدمت إيطاليا على احتلال طرابلس الغرب واثنتى عشرة جزيرة، كما احتلت كذلك منطقة الجنوب الغربى للأناضول بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.

البلقان: سياسة النزاع والخلاف والعراك والاستمالة

كانت البلقان من أهم القضايا التى وضعها السلطان فى دائرة اهتمامه بمضمار السياسة الخارجية، ويوجد فى هذه المنطقة دويلات مجاورة هى: اليونان وبلغاريا والصرب ورومانيا والجبل الأسود، وكانت هذه الدويلات جميعها ولاية واحدة تابعة للدولة العثمانية قبل حين من الزمان، ثم ما لبثت أن انفصلت عنها وأصبحت دويلات مستقلة ذات سيادة، وكانت للدولة العثمانية حدود مشتركة مع هذه الدول ومع مقدونيا وأبير ويانيادينى بازاز والأرناءوط.

وكانت دول البلقان الخمس المستقلة آنفة الذكر تطمع فى أراضى الدولة العثمانية ، زاعمة أن هذه الدولة ليس لها الحق فى رسم حدود دول مستقلة، وأدى هذا إلى حدوث نزاع وخلاف بين هذه الدول بعضها بعضا من ناحية، ومع الدولة العثمانية من ناحية أخرى، وقد استفاد عبد الحميد من الشقاق الذى حل بين هذه الدول الاشتراكية وأخذ يتابع سياسة إحياء الدولة العثمانية فى منطقة البلقان، ولنقرأ فى هذا السياق ما سطره فى مذكراته حيث يقول : "إن هذا من قبيل الصواب والاضطلاع بفرض هيمنتنا وقوتنا فى أوروبا عن طريق تحقيق التفاهم والاتفاق بين دول البلقان بعضها بعضا.

فالصرب والبلغار يكره كل منهما الآخر، والبلغار ينفرون من الرومان ويشمئزون منهم

أما الرومان والبلغار واليونانيون فقد بلغت العداوة والبغضاء بينهم حد الموت، وترى بلغاريا أنها حاكمة للأمم الموجودة فى مقدونيا.

أما اليونانيون فإنهم يزعمون أنهم موجودون في مقدونيا ، وأكرهوا على الاصطباغ بالصبغة البلغارية. كما نشب خلاف آخر بين الكنائس في عام ١٨٧٠م ، انفصلت على إثره الكنائس اليونانية عن البلغارية، ولكن كيف استطاع الروس في ظل هذه الظروف جميعها التفكير في إمكان تأسيس اتحاد لدول البلقان؟".[٦٠]

" كانت السياسة المتبعة ضد دول البلقان تقوم على أساس إحداث المنافسة بين هذه الدول، والتحريض المستمر على إثارة العداوة والبغضاء وإشعال نار الفتنة بينهم، ونجم عن هذا ظهور مشاكل وقضايا لا سبيل إلى التفاهم بشأنها.

وقد استفاد السلطان في هذا الصدد فائدة جمة من الأمير نيقولا ، أمير الجبل الأسود الذي قدم إلى زيارة إستانبول ، فبالغ السلطان في الترحيب به وإكرام قادته، ومنحه قصرا منيفا على ساحل منطقة" بوياجيق كوى"، كما كان السلطان يسرع في تقديم يد العون والمساعدة إلى هذا الأمير في أوقات الشدة والضيق، ومنحه عشرين ألف قطعة ذهبية مرتين اثنتين، وكان الأمل الذي يراود هذا الأمير يتمثل في اتحاد الصرب مع الجبل الأسود في دولة واحدة يكون هو ملكا عليها. وفاتح السلطان في هذه الرغبة إبان زيارته إلى إستانبول، ووعده السلطان بتحقيق هذا الأمل حتى لا يتسرب اليأس إلى نفسه؛ رغبة من السلطان في ألا يفوت هذه الفرصة السانحة من يده"[٦١]

كان البلغار من أكثر شعوب البلقان التي يخشاها عبد الحميد ويتجنبها، وقد قال عائشة عن هؤلاء البلغار:" إنني أمسك يدي دائمًا على أمير الجبل الأسود، وقد منحته راتبًا شهريًا، إنه رجل طيب ذو أريحية، أما البلغار فإنهم الأطفال المدللون للروس، كما أنني لاطفت ودللت الأمير البلغاري" فرديناند" وجعلته مساعدي الخاص، بيد أنني أستطيع القول بأنني لم أعرف بين من قابلتهم جميعا شخصا ذا ذكاء شيطاني مثل

---

(٦٠) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ص ١٤٩ .

(٦١) تحسين باشا ، ص ٦٤-٦٥ .

فرديناند، فوجدته ذا حصافة ووقدة ذكاء يثير الدهشة والإعجاب، إنه يأتى على رأس هؤلاء الأطفال المدللين، فهو يعتمد على القوة مثله مثل الروس. لقد كنت أتجنب ويلات الحرب دائماً، أدام الله أمتنا ودولتنا وحفظها من الزوال".(٦٢)

أصبح البلغار عقب معاهدة برلين من أشد العناصر المزعجة للدولة العثمانية فى منطقة البلقان ، فقد تجرأوا فى عام ١٨٨٥م على ضم الروملى الشرقية إلى بلادهم، وهم فى هذه المرة يكافحون من أجل ضم مقدونيا إليهم، وكانوا سببا فى إحداث المتاعب والقلاقل فى قضية مقدونيا بعد المسألة الأرمينية التى شغلت الدولة العثمانية وقضت مضجعها ، إن البلغار لا يعرفون الراحة ألبتة ، ويسعون إلى إشعال نار مسألة مقدونيا، ويعملون كذلك على جذب الدول الأجنبية كى تتدخل فيها، وقد تمخض عن كل هذا التمهيد لإقامة الدولة البلغارية الكبرى.

كان البلغار يظهرون ميلا ونزعا إلى إنجلترا؛ بغية ترويع السلطان وجعله فى حالة سيئة. ويرى السلطان عبد الحميد أن تدخل إنجلترا فى شئون البلقان كان ضد تركيا على الخط المستقيم ، حتى إنه كان يقول إن إنجلترا ضالعة فى واقعة الروملى الشرقية أكثر من ضلوع روسيا فيها. وكان أمير بلغاريا" فرديناند" مراوغا ماكرا مخاتلا، ورغم علم السلطان بكل هذه الصفات ، فإنه كان حريصا على اتبا ع سياسة الملاطفة معه بصورة دائمة، لقد كان هذا الأمير من أشد العناصر قوة وفعالية وتأثيراً فى منطقة البلقان، ورغم أنه كان يواظب دائماً من أجل إماطة اللثام عن آماله دون مواراة، فإنه مع كل هذا لم يكن ينكر صنائع المعروف والجميل التى أسبغها عليه السلطان عبد الحميد(٦٣)

ولم تكن أطما ع فرديناند مقصورة على مقدونيا فحسب، بل كان يمد عينه كذلك إلى اليونان والصرب، لا سيما أن المصادمات بين اليونان والبلغار كانت عنيفة قاسية

---

(٦٢) عائشة عثمان أوغلو ، ص ، ٥٠ .

(٦٣) تحسين باشا ، ص ٦٥ .

فى هذا المضمار، بيد أن عبد الحميد قد أفاد فائدة جمة من هذا الصراع المحتدم من أجل تحقيق التوازن فى منطقة البلقان.

وكان يخمن كذلك أن الدولة العثمانية سوف تدخل حربا مع البلقان عاجلا أو آجلا بسبب المسألة المقدونية. ويجب على تركيا أن تتخذ من اليونان حليفًا لها فى منطقة البلقان عند نشوب الحرب." إننى لا أريد الاضطرار إلى الدخول فى حرب مع اليونان، فاليونانيون محتاجون إلى مساعدتنا حتى يقفوا ضد الاجتياح البلغارى، كما أننا لن نستطيع الحصول على مساعدة أفضل من أولئك اليونانين الذين كانوا يناصبوننا العداوة منذ زمن قديم حتى يتسنى لنا الدخول فى نزاع مع البلغار. إن هذا الاتحاد سوف يخفف فى نفس الوقت من وطأة سم الدعاية للجامعة اليونانية Panhenelizm(٦٤) التى كانت سائدة فى كل من ولايات الأناضول وجزر بحر إيجه. يوجد داخل إمبراطوريتنا مليونان من الروم الذين يقبضون على أزمة الشئون التجارية فى أيديهم ، وهم ضروريون من أجلنا، ولسوف أكون مسرورا من الاتحاد الذى سيتم بين الترك واليونان".(٦٥)

وقد ورد رأى السلطان المتعلق بدول البلقان فى الصحف الإنجليزية ، وكان على النحو الآتى" إن السلطان ترتعد فرائصه خوفا من رومانيا وبلغاريا ولا يثق بهما ألبتة، بيد أنه لا يغضب اليونانيون، ولا يشعر بالخوف تجاههم ولا يكترث بالصرب".(٦٦)

ظل السلطان يقظا آخذا حذره حتى لا يدخل فى مواجهة حربية ربما تنشب فى أى وقت بمنطقة البلقان، وشكلت لهذا الغرض لجنة عسكرية مشكلة فى القصر بصورة دائمة، كانت هذه اللجنة تنعقد برئاسة قائد الجيش، وحضور أكابر رجالات الدولة البارزين، وتضع نصب عينيها عند اجتماعها الاستعدادات العسكرية اللازمة لاحتمال وقوع الحرب فى البلقان.

---

(٦٤) الجامعة اليونانية ، هى الفكرة القائلة بتوحيد اليونانيين جميعا فى ظل راية وطنية واحدة (المترجم)

(٦٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٣٤ .

(٦٦) أولو بن ، ص ٣٧ .

كانت هذه اللجنة تقدر عدد القوة التى سوف تستخدم وكيفية تجييش الجند وجمعهم من الأناضول فى وقت الضرورة، ثم تقدم اللجنة تقاريرها فى هذا الصدد إلى السلطان عبد الحميد.(٦٧)

"كانت سياسة عبد الحميد تجاه الجار البعيد رومانيا ترتكز على أساس عزل هذه الدولة عن روسيا، ولن ينسى الروم بسهولة منطقة" باصاربيا" التى انتزعها الروس منهم. كما أن إقامة اتحاد مصيرى بين رومانيا والنمسا كان فى صالح الدولة العثمانية. وإن العقبة الكئود التى تعترض سبيل هذا الاتحاد كانت تتمثل فى إضفاء الصبغة المجرية على رومان النمسا الموجودين فى المناطق المسكونة مع الرومان الأصليين، وإن التخلى عن هذه السياسة سيكون فى صالح النمسا".(٦٨)

وقد دون عبد الحميد فى مذكراته أنه إذا دخلت الدولة العثمانية حرب البلقان فلسوف يكون بسبب بلغاريا والمسألة المقدونية، حتى إنه كان يرى أن هذه الحرب باتت على وشك الوقوع، وكان السلطان يأمل فى عقد اتفاق مع اليونان والصرب ليتمكن من إنزال ضربة عنيفة على رأس بلغاريا، فإذا اندلعت الحرب فلسوف تكون هى الحرب الثانية التى لجأ إليها السلطان مضطرا بعد الحرب التركية اليونانية عام ١٨٩٧م، ولكن سرعان ما وقعت ثورة جماعة تركيا الفتاة فى يوليو سنة ١٩٠٨م مما تسبب فى تعطيل هذه الحرب وتأخير موعدها.

سجل للعبقرية والدهاء السياسى

رغم المصاعب الداخلية والخارجية الجمة التى ألمت بالسلطان عبد الحميد، فإن السياسات الحاذقة الماهرة التى اتبعها كانت السر الذى بعث نبض الروح والحياة فى

---

(٦٧) تحسين باشا ، ص ٦٥ .

(٦٨) ضيا قرال ، جـ٨، ص ١٨٥-١٨٨ .

تضاعيف الإمبراطورية العثمانية إبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى، لاسيما أنه نجح بفضل السياسة الداخلية الحكيمة فى المحافظة على الحياة المتوازنة للإمبراطورية العثمانية.

ولهذا السبب فإن الكفاءة الدبلوماسية للسلطان وتفوقه فى مجاليها الداخلى والخارجى جعلت أصدقاءه وأعداءه يتحدثون عنها بدهشة وإعجاب.

إن المهارات الدبلوماسية الفائقة لكل من بسمارك فى أوروبا وعبد الحميد الثانى فى آسيا فى أوائل القرن التاسع عشر جديرة بالتسجيل ، لأنها تميط اللثام عن كفاءتهما البارزة فى هذا المضمار. ولو أن حلم هذين الرجلين استمر حقبة أخرى من الزمان لكفل حفظ السلام فى كل من أوروبا وآسيا، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى.

بيد أن بسمارك لم يستطع التفاهم مع وليام الثانى إمبراطور ألمانيا مما دفعه للاستقالة وهجر العمل السياسى، ثم آلت الأمور فى ألمانيا من بعده إلى رجل أحمق غير محنك، أما عبد الحميد فإنه لما عجز عن التفاهم مع جماعة تركيا الفتاة بادر بترك السياسة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨م، وآلت الأمور إلى أنور باشا الأحمق الأخرق، وكانت حماقته وقلة تجربة كل من أنور باشا ووليام الثانى سببا فى وضع العالم فى أتون الحرب العالمية وإشعال نارها.

لم يتردد المعارضون لعبد الحميد من أعضاء تركيا الفتاة لحظة واحدة فى الاعتراف بالعبقرية الدبلوماسية والدهاء السياسى اللذين كانا يتمتع بهما عبد الحميد، وها هو أحمد رشيد بك يدون فى مذكراته قائلا: " فلا جرم أنه لو استمرت السياسة الخارجية التى انتهجها عبد الحميد لأمكننا النجاة من النتائج السيئة التى تمخضت عن نشوب الحرب العالمية الأولى، ولو لم تسمح النمسا وروسيا أو بمعنى أصح السولاف والجرمان بإشعال نار هذه الحرب لتمخض عن هذا بطبيعة الحال اشتراك إنجلترا وفرنسا فى هذه الحرب التى أظهرت فيها ألمانيا قوة اقتصادية وحربية هائلة، ناهيك عن أن هذه الحرب شجعت على تأجج نار الحرب بين البلقان وتركيا، كما كانت

الحملة العسكرية للأرناءوط واحدة من الأهوال التى نجمت عن الحرب العالمية الأولى[٦٩] ، ولا ننسى كذلك نشوب الحرب التركية الإيطالية سنة١٩١١م.

ولو أن زمام الأمور ظل فى يد عبد الحميد لما وقعت الحملة العسكرية ولا تلك الحرب التركية الإيطالية، إذ لم تكن ثمة شكوى من الأرناءوط، ولو نحينا جانبا ترك الدفاع عن طرابلس الغرب أو حتى عدم إهمالها لما ترك باب الهجوم مفتوحا فى وجه الإيطاليين.[٧٠]

أما" على كمال" أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة فيكتب فى صحيفة" بيامى" الصادرة بتاريخ ٢١ أغسطس سنة ١٩١١م مقالة بعنوان "التوازن السياسى فى أوروبا"، يعترف فيها بالعبقرية السياسية للسلطان عبد الحميد مقرا بأن هذه جبلة جبل عليها السلطان.[٧١] ويقول" وداد عرفى":" كان السلطان حاذقا بارعا فى مضمار السياسة الخارجية على الخصوص".[٧٢]

وتقول ابنته شادية:" قيلت أقوال كثيرة مؤيدة ومعارضة تتصل بإدارة والدى لشئون الدولة، بيد أنها تجمع كلها على أنه من أحكم الحكماء السياسيين بين أجدادنا وأسلافنا أجمعين، وهذا ما يتفق عليه كذلك كل أعدائه وأصدقائه على السواء".[٧٣]

ولقد سجلت العبقرية الدبلوماسية والدهاء السياسى للسلطان عبد الحميد فى أروقة أوروبا، ويكتب الأميرال "وودز" الذى كلف بإصلاح الأسطول العثمانى فى هذا الصدد قائلاً: " لم أعثر حتى الآن على وثيقة واحدة مدونة تشرح شيئًا يليق بالسلطان عبد الحميد، لا سيما أنى لم أجد رأيا واحدا يدنو من الحقيقة فيما يتصل بآراء عبد الحميد وأفكاره

---

(٦٩) وقع هجوم وتمرد أرناءوطى ضد الدولة العثمانية تحت حكم الاتحاديين سنة ١٩٠٩م، وسيق جيش قوامه ثمانون ألف جندى للتصدى لهم بقيادة محمود شوكت باشا.

(٧٠) أحمد رشيد راى ، ص ٣٥-٣٧ .

(٧١) إينال ، جـ٣، ص ١٢٨٦٠ .

(٧٢) وداد عرفى ، ص ٤ .

(٧٣) شادية عثمان أغلو ، ص ٩٧ .

وشخصيته، وإذا بقى لدى شىء أقوله فإنى أرى أن عبد الحميد هو واحد من أولئك الذين تبوأوا منزلة متميزة مستثناة بين السلاطين العثمانيين الذين سبقوه فى العصور الغابرة".[٧٤]

" إن عبد الحميد من أذكى وأحكم الدبلوماسيين الذين أمسكوا بزمام الأمور والحكم فى الدولة العثمانية".[٧٥]

ويرى السفير الإنجليزى" جونر": " أن عبد الحميد هو الرجل الذى حافظ على السلام فى أوروبا".[٧٦]

ويقول الأميرال فيشر قائد الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض: " إن عبد الحميد من أمهر الدبلوماسيين الأوروبيين الذين يتمتعون بوقدة الذكاء ونفاذ البصيرة".[٧٧]

أما السفير الفرنسى" بومبارت فيقول: " لم يكن عبد الحميد سلطانا يغامر بنفسه، ومما لاريب فيه أن أوروبا لم تر حاكما مثله مطلعا ملما بأمور السياسة الخارجية، وكان ذا فراسة دبلوماسية ثاقبة جعلته يدير دفة الشئون الخارجية ويعبر بها من مواضع الخطر المحدق الذى يحيط بها من كل جانب".[٧٨]

" كان عبد الحميد ذا كفاءة ومهارة، يجد كل إنسان فيه سر الرضا والسرور والحياة، وبديهى أن ترى فيه أوروبا حسن نيته أكثر من غيره".[٧٩] ويقول رئيس الوزراء الإنجليزى Disrael : " لم يكن عبد الحميد سفيها ولا مستبدا ولا متعصبا ولا مفسدا، بل كان عادلا ، ويحب وطنه حبا جما".[٨٠]

---

(٧٤) وودز ، ص ١١٣ .

(٧٥) ماريوت ، ص ٣٨٧ .

(٧٦) أحمد حلمى (شاهبندر زادة) ، تاريخ الإسلام ، إستانبول ، ١٩٧٦م ، ص ٧٦٥ .

(٧٧) إينال ، جـ ٣ .

(٧٨) المصدر السابق ، ص ١٢٥٨ .

(٧٩) داريولت ، ص ٥٠٠ .

(٨٠) أحمد حلمى ، ص ٧٧١ .

" كان عبد الحميد دبلوماسيا ألمعيا أريبا بارعا، كان يعرف جيداً كيف يستفيد من الغيرة والتنافس الذى كان بين الدول الأوروبية الكبرى، هدفه أن تحافظ الدولة العثمانية على علاقة الصداقة والود والحميمية مع الدول الكبرى، ولم يكن مؤيدا للحرب أو متحزبا لها".[٨١]

ولنقرأ فى هذا المقام ما كتبه الأميرال" وودز" عن الفائدة العظمى التى جنتها تركيا من تطبيقه السياسة المعتدلة فى الداخل والخارج على السواء، يقول :" لو لم يكن عبد الحميد، لما كانت هناك دولة عثمانية حتى كتابة هذه السطور (١٩٢٠-١٩٢١م)، ولا شك أن المؤرخين ورجالات الدولة سيعرفون هذا الأمر جليا، ولولاه لما استقرت حكومة أنقرة اليوم فى مكانها".[٨٢]

(٨١) وودز ، ص ١٢٣ .

(٨٢) المصدر السابق ، ١١٦ .

الفصل العاشر

عبد الحميد الثانى والوحدة الإسلامية

كانت الوحدة الإسلامية بمثابة تيار تجلت مظاهره الكبرى فى مضمار السياسة الداخلية والخارجية للسلطان عبد الحميد، وإذا ما تصدينا لدراسة شخصية عبد الحميد فخليق بنا أن تكون الوحدة الإسلامية من أهم الموضوعات التى تقف عليها الدراسة والبحث والتمحيص. لم يكن بين سلاطين آل عثمان من تعقب أثر الوحدة الإسلامية وحرص عليها مثلما فعل عبد الحميد.

ورغم التطورات المذهلة القوية التى أحدثها السلطان سليم الأول" ياوز" وسليمان القانونى كلاهما فى العالم الإسلامى فإنهما لم يقتفيا أثر السياسات الإسلامية فى المجال الذى اضطلع به عبد الحميد بهمه ووعيه وإدراكه وتطبيقه." ونستطيع القول إن هذه السياسات التى انتهجها عبد الحميد كانت مواتية لقيام وحدة إسلامية مواكبة لظروف عصر التطور والارتقاء، وكانت هذه السياسات معرضة كذلك لظلم الدول النصرانية وتعسفها على وجه العموم، كما قدمت هذه السياسات الدول والممالك الإسلامية التى طلبت العون والمساعدة من إستانبول، وانبثقت هذه الفكرة إلى الوجود على هذا النحو كى تحمى هذه الدول وتظلها تحت جناحيها.

كان سليمان القانونى وعبد الحميد كلاهما يهتم بالهند، وبينما بذل القانونى جهده لحماية مسلمى الهند من وطأة الاستعمار الغربى ، فإن عبد الحميد اضطلع بتخويف الهند باسطا نفوذه على الكثرة الكاثرة من المسلمين فى الهند ، بصفته خليفة المسلمين ، دون أن يلجأ للقضاء على الاستعمار الإنجليزى الذى أحكم قبضته بشدة على هذه

البلاد، وكان يأمل من وراء هذا تحقيق جملة من المنافع والمصالح من ناحية وصالح العالم الإسلامى من ناحية أخرى .

لماذا الوحدة الإسلامية

بدأت الإرهاصات الأولى لقيام الوحدة الإسلامية فى قصر الدولة العثمانية تلوح فى الأفق بداية من عام ١٨٧٠م إبان سلطنة عبد العزيز الذى استخدم فكرة الوحدة الإسلامية على أنها رد فعل قوى فى مواجهة هجمات الغرب وعدوانه على الإسلام[١].

ثم ما لبثت الوحدة الإسلامية أن ظهرت بجلاء تام إبان سنوات حكم عبد الحميد، وباتت بمثابة تيار ذى تأثير جليل فى الخارج والداخل على السواء، وكانت هناك طائفة من الأسباب الجوهرية أدت إلى ظهور الوحدة الإسلامية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتى: ظهرت فى أعقاب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م بنية ديموجرافية[٢] وأنثربولوجية[٣] ودينية وجغرافية جديدة انضوت تحت حكم الإمبراطورية العثمانية، وكانت هناك بضع دول إسلامية تواجه ضغوطا وتعسفا شديدا من دول أوروبية تريد إخضاع العالم الإسلامى بأسره تحت وطأة المستعمر الغربى، مما حدا بشعوب هذه الدول الإسلامية جمعاء أن تنظر بعين الأمل والنجاة إلى الدولة العثمانية.

بدأت بوادر التطبيق الفعلى لهذه الوحدة الإسلامية تتجلى فى سياسة عبد الحميد الثانى إبان سنوات الحرب التركية الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م، ولما بدأت هذه الحرب شرع السلطان فى إرسال وفود إلى قفقاسيا وآسيا الوسطى وأفغانستان؛ لتدعو المسلمين الموجودين فى هذه البقاع لإعلان الثورة والتمرد ضد روسيا، واستخدم

---

(١) دافيسون ، ص ٩٥ .

(٢) الديموجرافية، هى الدراسة الإحصائية للسكان من حيث المواليد والصحة والزواج والوفيات إلخ (المترجم).

(٣) الأنثربولوجيا ، علم الإنسان الوصفى، فرع من علم الإنسان يصف خصائص الأعراق والشعوب وتوزيعها الجغرافى.

الإنجليز كذلك نفوذهم ، فأرسلوا وفدا إلى أفغانستان بسبب مطالبتها مساعدات من المسلمين، ثم ما لبث الإنجليز أن احتلوا منطقة" كواتة" فى أفغانستان، وسرعان ما بدأ التنافس الإنجليزى الروسى فى هذه المنطقة وأدى هذا الاحتلال إلى توتر العلاقات بين أمير أفغانستان السير على خان وبين الإنجليز، وطلب الوفد العثمانى من الأمير الأفغانى أن يعيش على ما يرام مع الإنجليز وإلا فإن الحرب سوف تشن ضد روسيا، وكان رئيس الوفد التركى أحد العلماء ويدعى أحمد حلوجى أفندى الذى قدم الطلبات العثمانية وتلقى الرد عليها.

كان الأمير الأفغانى يرى فى تلك الآونة أن إنجلترا هى العدو اللدود، وهو لا يريد خوض حرب مع روسيا.

ولما وصل الوفد العثمانى إلى بومباى تجمع ما ينيف على أربعين ألف مسلم فى الميناء فى مظاهرة محتشدة عارمة أدت إلى تخويف الإنجليز وترويعهم(٤).

وكان مسلمو الهند يهتمون كثيراً بالحرب التركية الروسية ويراقبونها من كثب.

فإذا ما تحطمت الإمبراطورية الكبرى وانكسرت شوكتها فإن مسلمى الدنيا سيكونون هملا منبوذين إلى أقصى درجة، ولن يعيرهم أحد اهتماماً أو يلقى لهم بالا أو يقيم لهم وزناً، وَلَقَدْ كان هؤلاء المسلمون يدعون فى المساجد من أجل نصرة الترك، وأخذوا يجمعون المساعدات ويسجلون أسماء المتطوعين للقتال، وأرسلوا إلى إستانبول ١٢٣٨٤٣ليرة عثمانية، لما أعلنت إنجلترا حيادها تجاه هذه الحرب ، لم تأذن لهؤلاء المتطوعين بالذهاب إلى ساحة الحرب، ولم يسافر منهم إلا عدد قليل(٥).

---

(٤) عزمى أوزجان ، الوحدة الإسلامية ومسلمو الهند ١٨٧٧-١٩١٤م ، مركز البحوث الإسلامية -إستانبول ١٩٢٢م ص ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٦-١٠١ .

وفى أعقاب معاهدة برلين أماط عبد الحميد اللثام بجلاء تام عن سياسة الوحدة الإسلامية، وأخذ يمعن النظر مليا فى ظروف تركيا وما يحيط بالعالم الإسلامى من أحداث، ناهيك عن الدور الذى يمكن أن تضطلع به فى هذا المقام أفكار كل من: عزت بك المنحدر من أرومة عربية والمفكر الإسلامى جمال الدين الأفغانى.

" أما عزت بك فقدم مذكرة إلى السلطان تتضمن أهمية العمل على تقوية شوكة الخلافة وشد أزرها وتشجيعها وانتشارها فى ربوع العالم الإسلامى، وجمع شمل الدول الإسلامية وتمثيل نفوذها وقوتها فى شخص الخليفة".(٦)

أما العالم جمال الدين الأفغانى فقد ارتبط بضرب آخر من ضروب الوحدة الإسلامية ، يدافع فيه عن قيام وحدة تضم جميع المسلمين فى دولة واحدة تحت سقف اتحاد فيدرالى، وقام الأفغانى بعرض الفكرة على عبد الحميد لكونه رائدها وزعيمها.(٧)

وقد ورد فى مذكرات عبد الحميد أنه استمسك بالأفغانى فترة من الزمان فى قصره ليكون بمثابة مستشار له فى الموضوعات المتعلقة بإيران والشيعة، ويقوم بدور الوسيط بين الدول الشيعية والسنية، ويعمل على إزالة الفوارق بين المذاهب، وطلب إليه كذلك تقارير تتصل بالوضع الذى ستكون عليه ألمانيا بعد ذلك، والعمل على تكوين وحدة إسلامية تجمع شمل الأمم الإسلامية جمعاء.(٨)

ظل السلطان عبد الحميد رازحا تحت تأثير مستشاريه بصورة جازمة لا شك فيها فى ظل ما يتصل بموضوع الوحدة الإسلامية، كما تأثر بالظروف الجديدة المحيطة بتركيا، والتى كان يراقبها عن كثب.

" كان عبد الحميد فى الأعوام الأولى من سلطنته بمثابة المنقذ المخلص الذى يعتمد على مبدأ العثمانية مضطلعا فى هذا السبيل بتطبيق الدستور ومجلس المبعوثان،

---

(٦) يحيى كمال ، صور أدبية وسياسية ، كليات يحيى كمال ، إستانبول ، ١٩٧٦م، ص ٦٣ .

(٧) سرجة زنكوفسكى ، الطورانية والإسلام فى روسيا ، ترجمة ، قان دمير ، أنقرة ١٩٧١م، ص ٤٨ .

(٨) خوجه أغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ٢٠٩-٢١٠ .

بيد أن هذا التطبيق تعرض للإفلاس إبان الحرب التركية الروسية بسبب سلوكيات زمرة من غير المسلمين.

وفى أعقاب هذه الحرب شرع المسلمون يشكلون أغلبية ساحقة بعد انفصام جزء كبير من النصارى عن الإمبراطورية العثمانية.

" وكان هذا الوضع الجديد قد مكن عبد الحميد من إيجاد أيديولوجية جديدة حظيت بالقبول والترحاب، وتقضى هذه الأيديولوجية بالاستمساك بسياسة داخلية وخارجية من قبل هذه الدولة فى إطار الوحدة الإسلامية.[(٩)]

وكان الارتباط بين هذه الوحدة الإسلامية فى تركيا متوافقا متطابقا مع اتحاد الأيديولوجيات والنظم العالمية، لأن البنسلفانية قد راجت فى روسيا والبنجامينزم قد شاعت هى الأخرى فى ألمانيا.

ولما بلغ الموقف منتهاه ، أراد عبد الحميد تحقيق الاستفادة القصوى من صفة الخلافة[(١٠)]، إن البنية الديموجرافية الجديدة التى ظهرت عقب معاهدة برلين كانت من أهم أسباب التى دفعت السلطان عبد الحميد إلى تعقب أثر سياسة الوحدة الإسلامية فى الداخل.

فقد انفصمت الدويلات المسيحية عن الدولة العثمانية ، وهى الصرب والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا إلخ، وحققت الاستقلال تحت الأسماء سالفة الذكر.

وهذا يذكر بما حدث بعد عام ١٨٧٨م، بحلم قيام دولة مسلمة تامة وبدولة عثمانية تمتد من البحر الأدرياتيكى حتى المحيط الهندى، وتتكون هذه الدولة من عناصر تركية وأرناءوطية وعربية وجركسية إلخ.

---

(٩) بايرام قودمان ، سياسة عبد الحميد فى شرق الأناضول ، إستانبول ١٩٨٣م، ص ١٢٢-١٢٣ .

(١٠) pears ، أربعون عاما فى القسطنتينية ، ص ٢٩ .

ولا جرم أن العناصر المسيحية رغم قلتها فإنها ليست غائبة، حتى إن نسبة السكان المسلمين فى مقدونيا تمثل سبعين فى المائة ، وهى أغلبية ساحقة فى هذه المنطقة.

وبدأ يحدث نوع من الالتحام والالتئام بين المسلمين نتيجة هذا الانفصام، وظهرت فى الوجود قضايا ومشاكل تذكر بأسماء أرمينية ومقدونية، حتى إن اليهود لم يكن لهم موقع متميز فى عدد السكان، مما جعلهم يتبعون سياسة الانفصال.

أما المسلمون فكانوا يقفون ثابتين باعتبارهم العنصر الأصلى للإمبراطورية العثمانية. وهم أصحاب قوة إيمانية وعقائدية وأخلاقية مستمسكين بها إذا ماقارناهم بالنصارى.

ورغم أن الترك كانوا ينحدرون من أعراق وسلالات متباينة فإنهم كانوا يرتبطون بعضهم بعضًا فى صفة مشتركة تجمع بينهم جميعا فقد باتوا جميعا من أصدق التابعين للدولة العثمانية، ولهذا السبب فإن تحقيق شخصية الدولة المسلمة يعنى حياة الدولة العثمانية وحياة الأعراق والسلالات الإسلامية المختلفة.

إن هذه الصفة المشتركة التى يحققها الإسلام جديرة بأن تجعل أيديولوجية الدولة إسلامية خالصة طوعا أو كرها، كما أنها لن تسمح كذلك بقيام الحركات القومية المعتمدة على العنصرية والعرقية.

سعى عبد الحميد فى مضمار سياسته الخارجية إلى تأسيس رابطة قوية تجمع شتات العالم الإسلامى وتوحد صفوفه، كما وضع نصب عينيه قبل أى شىء عدم إثارة الخلافات والنزاعات بين العناصر المسلمة فى الإمبراطورية العثمانية.

وكان ينتظر من وراء ذلك تحقيق مستقبل باهر لدولة مسلمة تنتمى بصدق إلى خليفة المسلمين عن طريق اتحاد العناصر المسلمة وتضامنها مع بعضها بعضًا.

وخلاصة القول إن عبد الحميد كان يسعى سعيا حثيثا إلى تطبيق سياسة الوحدة الإسلامية. وكان على يقين بأن الإمبراطورية العثمانية لن تنعم بخير يمكن أن يأتيها

من العناصر غير المسلمة، وهذا ما دفع السلطان ليبذل قصارى جهده كي يحول دون انفصام العناصر المسلمة بزعم القومية على أقل تقدير.

إن هذه السياسة التى قدمها عبد الحميد قد أصبحت حائلا يحول دون قوة القوميين العرب والأرناءوط ، كما أنه كان يريد كذلك إجهاض مساعى القوميين الترك الذين يريدون إنشاء أمة تركية خالصة.(١١)

ويتحدث عبد الحميد فى مذكراته عن أن وجود الدولة العثمانية مرهون بقيام وحدة إسلامية، ويقول فى هذا السياق: "إن الوحدة الإيمانية تقرب بعضنا بعضا وكأننا أفراد عائلة كبيرة، ولهذا السبب فإننا لا نصرف أهمية أكثر من اللازم للإمبراطورية العثمانية، وفى مقابل هذا فإنه توجد فائدة عظمى تتجلى فى كوننا جميعا مسلمين، وعليه فيجب أن يكون أمر المسلمين فى المقام الأول فى كل زمان ومكان، أما لقب الإمبراطورية العثمانية فيتوجب أن يظهر فى المرتبة الثانية، لأن البنية الاجتماعية للدولة العثمانية وأساس سياستها قد شيد على الدين، ومما يؤسف له أن الإنجليز نجحوا عن طريق سياسات ضارة فى غرس بذرة أفكار القومية فى كثير من أرجاء إمبراطوريتنا، وألبوا العرب والأرناءوط ضد الدولة العثمانية، وثمة استعدادات فى سوريا فى هذا السبيل".(١٢)

كان عبد الحميد يرفض التيارات المعتمدة على أسس ومبادئ القومية والعرقية لأنها بمثابة سم زعاف يسرى فى تضاعيف وحدة الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم فإنه اجتهد فى سبيل إنشاء دولة عثمانية مسلمة ، تطبق سياسة معتمدة على أساس إسلامى يكون بمثابة قاسم مشترك لقيام هذه الوحدة ، ولم يقدم عبدالحميد ما يسمى بنظرية قط فى هذا السبيل، إن السلطان على حد تعبير" كمال قارباط" لم يردأن يؤسس نظاما تيوقراطيا، بل استفاد من الإسلام بصورة عملية.

---

(١١) يوسف آق جورة ، التتريك وتطور تاريخه ، إستانبول (١٩٧٨م)، ص ١٢٤ .

(١٢) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٦٦ .

وكان عبدالحميد يرى أن العناصر المسيحية المنفصلة عن الدولة العثمانية تريد تكوين ضرب جديد من الحياة يشتمل على لغتهم ودينهم وأعرافهم وتقاليدهم، ومن ثم فإنه أراد إيجاد زمرة عريضة من الشعب تابعة له ، وتعيش فى إطار من الوحدة والتعاون ، ذات ثقافة وقيم مشتركة. وهكذا يعد عبدالحميد لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية هو الذى استخدم أيديولوجية سياسية إسلامية معتمدة على ثقافة إسلامية بالمفهوم الحديث من أجل أهداف وغايات سياسية واضحة.

من أجل تحقيق هذه الغاية فإنه جعل الأولوية للأعراف والتقاليد والقيم والعقائد المشتركة بين المسلمين، ولم يكترث كثيراً بالفروق اللغوية والاجتماعية والجنسية والعرقية.

وهكذا يتحد الترك والأرناءوط والأكراد والجركس، ويتآلفون فى بنية مسلمة واحدة متآزرة قوية، ثم بدأوا بعد ذلك فى تكوين أمة عثمانية واحدة.(١٣)

كان عبد الحميد يعمل على حماية الدولة الإسلامية ويذود عن حياضها، ويستخدم هذه الفكرة التى ينافح عنها من أجل حماية سلطنته التى يعتقد أن بقاء نفوذها وسطوتها مرهون بوجود الدولة الإسلامية، ولم يتأثر عبدالحميد بالبيروقراطية التى انتقلت من الباب العالى إلى القصر، بل وقف ضدها.

ولا جرم فإن المستنيرين من أنصار الدستور كانوا يقفون ضد عبد الحميد.

أراد السلطان تحقيق توازن يرتبط بطبقة متوسطة ذات أصول ريفية تكون بمثابة مصدر لتيار إسلامى يقف ضد بيروقراطية المستنيرين الذين كونوا جبهة معارضة لها "ومن أجل هذا أعطى عبد الحميد أهمية خاصة للآراء القومية والتقليدية المقدسة لهذه الطائفة"(١٤)، ولهذا السبب استحق عبد الحميد لقب الحاكم الشعبى.

---

(١٣) قارباط ، الوحدة الإسلامية.

(١٤) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

ونزل السلطان إلى القرى والمقاطعات لاستنهاض عزائمهم وجمعهم على هدف واحد وفى صعيد واحد، واهتم كثيراً بالزراعة، وعمل على نشر التعليم والتربية حتى وصلت إلى القرى ، واضطلع بتشييد المساجد فى الوحدات السكنية المحرومة منها وأصلح المساجد والتكايا الصوفية.

كل هذه الأشياء جعلت الشعب يرتبط بالسلطان، ويتحدثون عنه فى كل مكان على أنه ولى الأولياء ، بينما أظهرته المصادر الغربية على أنه الحاكم المحبوب المعبود من قبل الشعب.

ولهذا السبب فقد نزلت جبهة المعارضة المستنيرة إلى الشعب ، بيد أنها أخفقت فى تحريض الطبقات الشعبية على الثورة والتمرد والعصيان ضد السلطان، ولما بلغ الموقف درجة خطيرة اتخذت جماعة تركيا الفتاة قرارا باستخدام الجيش للإطاحة بالسلطان وإقصائه عن سدة العرش، ويكتب" كاظم نامى دورو" وهو من جماعة تركيا الفتاة فيقول:" كان الفتية من الضباط المتخرجين من المدرسة الحربية والعاملين فى الجيش هم الأمل الوحيد الذى نستطيع تمويله والاعتماد عليه من أجل تأسيس الحرية والدستور فى الدولة العثمانية، وبينما هؤلاء يستطيعون إحراز النصر فى معركة الحرية[15]، فهم كذلك طائفة من الجند البيروقراطيين المستنيرين".

ولما قامت ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م بدأ نفر من هؤلاء الضباط الموجودين فى الجيش الثالث المتمركز فى مقدونيا فى تسلق سفوح الجبال وشرعوا فى إعلان الثورة وشق عصا الطاعة، ولم يكن هناك دَوْرٌ للشعب إبان التمرد الذى وقع إبان المشروطية الثانية، بل أصبحت هناك ثورة بيروقراطية لجند مدنيين.

ورغم حب الشعب للسلطان فإنه لم يستطع حمايته لأنهم يفتقدون التنظيم ولا يعرفون ماذا يعملون.

---

(١٥) كاظم نامى دورو ، ذكرياتى عن الاتحاد والترقى ، إستانبول ، ١٩٥٧م، ص ٢٨ .

لم يكن السلطان فظًا غليظًا فى ممارسة السلطة المركزية ، ولو تسنى للبيروقراطيين والمستنيرين الاستفادة من أنعم وأفضال السلطة الحاكمة لما حلت هذه الكارثة آنفة الذكر.

كان السلطان عبد الحميد هو أول وآخر سلطان بين سلاطين آل عثمان الذى يتذكر صفات الخلافة الإسلامية وسجاياها ورسالتها، كما أنه بذل جهده من أجل تحقيق كل هذه الخلال، ووضعها موضع التنفيذ.

ويدون هذا فى مذكراته قائلا:" أستطيع تحمل كل ضروب النقد والتجريح براحة وسعة صدر، بيد أننى لست حاكما لنفسى فحسب، وهم ينسون فى الوقت نفسه أنه يتوجب على الاهتمام بفكر المسلمين أجمعين، وخليق بى أن أتحرك قبل كل شىء بصفتى الخليفة ورئيس المسلمين أجمعين.(١٦)

أبعاد الوحدة الإسلامية

كان للوحدة الإسلامية التى طبقها عبد الحميد الثانى أبعاد داخلية وخارجية على حد سواء.

وقد رأينا الأبعاد الداخلية، وإذا ما تصدينا لدراسة الأبعاد الخارجية ألفينا ما يأتى: كان عدد مسلمى الدولة العثمانية فى ذلك الإبان عشرين مليونا، كما يعيش مائتان وثلاثون مليون مسلم فى مناطق مختلفة من العالم خارج حدود الدولة العثمانية، وكانت جميع الدول الإسلامية فى الدولة العثمانية باستثناء إيران وأفغانستان ، فكانتا رازحتين تحت هيمنة الروس والدول الأوروبية الكبرى.

وقد اتجهت هذه الدول نحو الدولة العثمانية؛ رغبة فى الاستقلال معتقدين أن هذه الدولة هى القوة العظمى فى العالم الإسلامى فى ذلك الزمان، ومن أجل تحقيق هذا

---

(١٦) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٦ .

الغـرض قـدمت وفـود كثيرة مـن كل حـدب وصـوب إلى قصـر الدولـة العثمانيـة، ولم يطرد هـؤلاء السلاطين القـادمون إليـها، وهؤلاء السلاطين يحملون صـفة الخليفة الإسلامى ممـا جعلهم يهتمون بمعاناة هؤلاء المسلمين طوعـا أو كرهـا، وأجبـروا على تنفيذ رغباتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وكانت هناك زيادة مطردة فى عدد الوفود الإسلامية التى لما تزل معالمها باهتة مبهمة فى الخارج.

لا جرم أن الدولة العثمانية المؤيدة لجميع الدول الإسلامية كانت معرضة لعدوان الاستعمار الغربى، مما جعلها بمثابة العدو المشترك العالمى.

ويتوجب أن تكون هناك حرب مشتركة ضدها، وإن مركز هذه الحرب سيكون دون شك ضد مـقام الخلافـة، وعليه فـقد كان السلطان على أهبـة الاستـعداد." كان هدف سياسـة الوحدة الإسلامية لعبد الحميد واضحًا بجلاء، ولم يتردد فى نصرة العالم الإسلامى، ووقف حـائلا فى وجـه الاستـعمـار الأوروبى المسيحى، وتم اتخاذ تدابير سياسية مختلفة على النحو الآتى: -

(أ) توقف الاحتلال الأجنبى.

(ب) رفع الحصانات وإزالة الامتيازات الخاصة للأجانب.

(جـ) تثبيت العقيدة الإسلامية الحقيقية.

(د) من الممكن اتحاد المسلمين أجمعين فى دولة واحدة متحدة تحت خليفة حاكم شرعى.(١٧)

احتدم النقاش حول موضـوع تطبيق عبد الحميد لمشروع الوحدة الإسلامية المبهمة فى الخارج، ما الذى يفكر فيه السلطان الخليفة، أم أنه لن يؤسس هذا الاتحاد؟ ولنقرأ

---

(١٧) د. فيليب ستوارد ، تنظيمات خاصة ، ترجمة د. دميريل آربا ، إستانبول ١٩٨٣ م، ص ١٤ .

أولاً ما قاله السلطان فى هذا الصدد:" فى حلقى غصة كبيرة من إخوتى فى الدين ممن يسكنون ممالك العالم الإسلامى ويرزحون تحت سيطرة الدول الكبرى، ولقد انضم للدولة عشرون مليونا من المسلمين، ورغم هذا فإن عين المسلمين شاخصة تجاه إستانبول، ولو نجح أعداؤنا فى تدمير قوتنا المادية فإن قوتنا الروحية والمعنوية باقية لا محالة، ولزام علينا أن نقوى علاقاتنا بالأماكن التى يوجد فيها المسلمون، وأن نقترب أكثر وأكثر من بعضنا بعضاً.

إن هذا الأمل معقود على إستانبول وحدها، ومادامت تحققت الوحدة الإسلامية ودام أمدها فإن إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا وغيرها ستكون فى حوزتنا وبين أيدينا، لأن السلطان إذا تفوه بكلمة جهاد واحدة فإنها كافية لتكون بمثابة طامة كبرى تهوى على رءوس أولئك النصارى من رعايا هذه الدول ممن يقطنون الأقطار الإسلامية.

وقد يكون الوقت غير موات الآن لتحقيق هذه الفرصة، بيد أن المؤمنين سينهضون ذات يوم ويتحركون على قلب رجل واحد ويحطمون نير الكافرين الملحدين.

وثمة خمسة وثمانون مليونا من المسلمين رازحون تحت وطأة الحكم الإنجليزى، ويوجد ثلاثون مليون آخرون فى المستعمرات الهولندية وعشرة ملايين فى روسيا، ويبلغ مجموع هؤلاء المسلمين مائتين وخمسين مليون مسلم، وهم جميعا يتضرعون إلى الله من أجل الاستقلال والتحرير، ويعقدون آمالهم على خليفة المسلمين ووكيل النبى محمد صلى الله عليه وسلم. أيمكننا أن نقبل كينونتنا التى يخرج صوتها ضعيفا واهيا بإزاء الدول الكبرى.[١٨]

ولقد قدم لنا السلطان آراءه، وساق بعض الأدلة والبراهين المتعلقة بسياسته عن الوحدة الإسلامية، وهو يرى أن المسلمين جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وإن إستانبول هى رأس هذا الجسد، وإن سلاح الجهاد الموجود فى الجسد كفيل بترويع الأعداء وترهيبهم، وإن ديمومة هذا الجسد مرهونة بتأسيس الوحدة الإسلامية ، فالجسد المريض سيجد الشفاء لا محالة ذات يوم.

---

(١٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٦٤، ١٦٥ .

وهكذا نرى بين آراء السلطان براهين وأدلة تعانق الحاضر والمستقبل كليهما. وإن حماية الوحدة الإسلامية هى الأساس الركين للوقت الحاضر، كما أنها تمثل تمسكا أيضا بالحياة وَروحِ الجهاد . أما الاستقلال والتحرر فإنهما سيكونان فى المستقبل القريب.

إن الأدلة والبراهين التى سقناها آنفا تبين لنا سياسة عبد الحميد المحددة بالنسبة للوحدة الإسلامية التى لم تزل غامضة مبهمة المعالم فى الخارج.

كما أن السلطان قد اختار لنفسه آمن طريق ووزن بكل دقة ظروف الوطن والعالم من حوله بمقدرة وكفاءة دبلوماسية عظيمة، واتبع دون ريب الطريق المستقيم فى مسألة الوحدة الإسلامية.

ولم تكن الغاية الأساسية للسلطان عبد الحميد مقصورة على توحيد العالم الإسلامى وجمع شمله فحسب، بل اضطلع كذلك بتحقيق الالتئام والالتحام بين الرعايا المسلمين نحو الطريق المستقيم وتوحيد متغيرات البنية الاجتماعية التى تضمهم.

لا ريب أن هناك اتحاداً ظاهراً بين المسلمين أجمعين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى، وتولدت فى نفوسهم رغبة عارمة للوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى ومقاومته، ولهذا فإن السلطان عبد الحميد كان يكتفى بتأمين ما يمكن تأمينه، لأنه يعلم يقينا أن من المتعذر تحقيق الوحدة الكاملة للمسلمين فى ظل الظروف الموجودة.

لقد أوجد عبد الحميد ضربا من الوحدة والتآزر والتعاضد بين مسلمى الدولة العثمانية الرازحين تحت إدارته وحكومته، هكذا كانت الوحدة الإسلامية التى رآها عبد الحميد.(١٩)

وقد أدركنا أثناء السطور أن الأبعاد الداخلية للوحدة الإسلامية كانت أكبر بكثير من الأبعاد الخارجية. ومما لا مرية فيه أنَّ ضيق الأبعاد الخارجية لا قبل له

---

(١٩) قارباط ، الوحدة الإسلامية ، ص ٢٨ .

بتحقيق الوحدة الإسلامية التامة فى ظل الظروف الراهنة، فأوروبا تتمتع بقوة كبيرة وبأس شديد ، ومن ثم فإنها لن تسمح بقيام هذه الوحدة، فماذا عسى أن يكون؟ وماذا عسانا أن نصنع؟ إن الوحدة الإسلامية بالنسبة لعبد الحميد بمثابة هيمنة وسلطة دينية مهمة.(٢٠)

" لا جرم أن عبد الحميد اتبع سياسة إسلامية دبلوماسية سلبية بالمفهوم الثقافى، بيد أنها إيجابية فعالة وفق الإمكانات التى فى حوزته، ويرجع هذا إلى أن السلطان أراد أن يستخدم هذه السياسة فى شكل ورقة سياسية رابحة ، تظهره على أنه الأب الروحى للعالم الإسلامى بصفته خليفة المسلمين، وقد تم تقويم الوحدة الإسلامية فى أوروبا على أساس هذا المفهوم.(٢١)

وهكذا نرى الأبعاد الخارجية للوحدة الإسلامية قد أضعفت من فعاليات الورقة السياسية والثقافية الرابحة.

لقد أبدى السلطان عن طريق القدرات الثقافية حمية مشبوبة من أجل المحافظة على المشاعر النابضة بالروح والحياة إزاء المسلمين ونشر المعرفة الإسلامية وذيوع صيتها، ومن ثم فإنه اضطلع بإرسال قوافل العلماء والمصاحف إلى كل صوب وحدب. أما أساس فعاليات الورقة السياسية الرابحة فيتمثل فى ترهيب الدول الاستعمارية بالجهاد.

وترتكز حماية وحدة الدولة العثمانية على هذا الأساس، نجح عبد الحميد الثانى فى تهديد الدول الكبرى فى مستعمراتها عن طريق الجهاد، كما سعى فى هذا السبيل إلى عرقلة القوى التى تريد تمزيق أواصر الدولة العثمانية وتقويض بنيانها، وحرص كذلك على إذكاء روح الجهاد فى نفوس شعوب المنطقة من أجل الحصول على الاستقلال فى المستقبل القريب.

---

(٢٠) أوزجان ، ص ٧٥ .

(٢١) أر أصلان ، ص ٣٤٣ .

ولهذا تم التخطيط للتمرد والتحريض والعصيان والثورة فى كل بقعة، والالتفاف حول روح الجهاد التى تروع الدول الاستعمارية وتقض مضجعها.

حركات الوحدة الإسلامية المتغيرة فى الخارج

أصبح قصر عبد الحميد بمثابة نقطة الالتقاء التى يغدو إليها ممثلو المسلمين الذين يدعون من كل أرجاء العالم. " وقد ضيف قصر يلديز ممثلين مسلمين قدموا من كل حدب وصوب من وسط أفريقيا حتى ممالك الصين الغربية".(٢٢)

وكان السلطان يتحدث إلى ممثلى الدول المدعوين وغير المدعوين على حد سواء. وكان يحثهم ويحرضهم ويذكى فى نفوسهم روح الأخوة والاتحاد، ويقوم السلطان عند وداعهم بمنحهم نفقاتهم من خزانته الخاصة، ويسلمهم مصاحف مطبوعة ليوزعوها بأنفسهم فى المناطق التى يقطنون فيها.(٢٣)

ولا سيما أنه كان يبذل جهدا كبيرا من أجل إدخال البهجة والسرور على الحجاج إبان موسم الحج فى كل عام.

" وفى هذا الموسم كانت وفود الحجيج عن طريق البحر الأسود قادمة إلى إستانبول، ومنهم التتار والقلمون والقرغيز والقفقاص وأهل كاشغر والأفغان والتركمان، حيث يجتمعون فى مسجد "والدة سلطان" الكائن على شاطئ الأناضول، وتكفل الدولة لهم وسائل المعيشة والعبادة من الخزانة العامة، وبعد ذلك يتوجهون لأداء مناسك الحج قاصدين مدينة جدة عن طريق البواخر التى يجتمع فيها المسلمون من الدول الواقعة فى الشمال والشمال الشرقى على وجه الخصوص.(٢٤)

---

(٢٢) وودز ، ص ١٢٦ .

(٢٣) جريس ، ص ١٨٨ .

(٢٤) وودز ، ص ١٢٦ .

وكانت نفقات الذهاب والإياب تصرف لمن نفدت نفقاتهم، وتجمع منهم المعلومات المتصلة ببلدانهم، كما تمنح لطائفة منهم الكتب المطبوعة التى يأخذونها معهم إلى أوطانهم إبان العودة.

وكان السلطان يأمر بإرسال وفود من إستانبول قاصدة الدول الإسلامية للوقوف على الأوضاع فى هذه الدول والتعرف على أحوالها من كثب، ولا يكترث بدرجة قرب أو بعد هذه البلاد.

بل كانت هذه الوفود تذهب حتى الدول الإسلامية القاصية، وقد توجه وفد منها سنة ١٩٠١ م إلى المسلمين الذين يعيشون فى الصين، وألقيت الخطب باسم عبد الحميد فى مساجد الصين، وكان عدد المسلمين في تلك الآونة قد ينيف على سبعين مليونا.(٢٥)

وثمة وفد برئاسة أنور باشا وجهه إلى مدينة بكين فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٠١ م، وحذر هذا الوفد مسلمى الصين من ألا يكونوا وسيلة يستخدمها الإنجليز(٢٦). بيد أنه أوصى المسلمين بحسن معاملة الألمان حيث إن نفقات الطريق كانت تصرف من السفارة الألمانية.(٢٧)

ثم ما لبث الوفد أن قفل عائداً إلى إستانبول فى أغسطس سنة ١٩٠١ م، ولما طلب مسلمو الصين علماء وشيوخا من إستانبول ، أسرع السلطان فأرسل إليهم فى عام ١٩٠٦م كلا من : على رضا أفندى، وبورصه لى حافظ وحسن أفندى الذين ذهبوا إلى بكين.

وكان نشاط هذين العالمين قد أزعج الإنجليز والفرنسيين وأقض مضجعهما، وعمل هذان العالمان فى بكين مدة عامين، ثم ما لبثا أن أبديا نشاطا بارزا حيث نجحا فى افتتاح مدرسة فى بكين تسمى جامعة الحامدية (دار العلوم الحامدية).

---

(٢٥) أر أصلان ، ص ٢٨٠ .

(٢٦) إسماعيل ثريا صارمة ، بضع صحائف من التاريخ ، قبتة ١٩٨٨م، ص ٩٣ .

(٢٧) أر أصلان ، ص ٢٨٣ .

وكان العلم التركى يرفرف على هذا المعهد التعليمى الذى يدرس فيه مائة طالب ممن تلقوا العلم على يد الأستاذين التركيين، ثم عاد حافظ حسن إلى إستانبول فى أواخر عام ١٩٠٨م، وتبعه بعد قليل على رضا أفندى.[٢٨]

وفى عام ١٨٨٩–١٨٩٠م أرسل السلطان عبد الحميد الفرقاطة "أرطغرل" إلى اليابان، وكان إرسالها بداية توطيد العلاقات مع اليابانيين، ناهيك عن كونها مظهرا لفكرة الوحدة الإسلامية.

ومع هذا فقد أراد الإنجليز شن حملات معادية ضد خلافة الدولة العثمانية، وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٩٠م قام" قوماتسو" أحد أمراء اليابان بزيارة إستانبول رداً على زيارة الفرقاطة" أرطغرل" لليابان.

وقد تجمهر قرابة ثلاثين ألف مسلم فى مينائى بومباى وكولومبيا واحتشدوا فى مظاهرة كبيرة مؤيدة للعثمانيين، وكان الإنجليز يتابعون باهتمام أخبار الفرقاطة التركية وبذلوا جهدهم من أجل تشويه سمعتها، وعند عودة الفرقاطة فى سبتمبر ١٨٩٠م هبت عليها عاصفة هوجاء فأغرقتها قبالة سواحل جزيرة" كى".[٢٩]

سعى عبد الحميد فى إطار سياسته الخارجية للوحدة الإسلامية إلى الاهتمام بالجراكسة وأهل داغستان الموجودين فى ققفاسيا الذين لم يكونوا مسرورين لخضوعهم تحت وطأة الحكم الروسى[٣٠].

بيد أن الوحدة الإسلامية ظلت ضعيفة واهية فى روسيا وقفقاسيا، ويرجع هذا إلى أن السلطان عبد الحميد كان ذا رغبة عارمة فى أن يعيش فى وئام مع روسيا بسبب المسألة الأرمنية.

---

(٢٨) أر أصلان ، ص ٣٨٥ .

(٢٩) قائورى قوماتسو ، فاجعة الفرقاطة أرطغرل، أنقرة ١٩٩٢م، ص ١٥–٤٣ .

(٣٠) هارى لوك ، تركيا القديمة والجديدة ، لندن ، ١٩٥٥م ، ص ١٢٨ .

كانت إنجلترا وفرنسا من أشد الدول التى فزعت وروعت من سياسة الوحدة الإسلامية للسلطان عبد الحميد، ولا ريب أن هذا الخوف راجع إلى كثير من الدول الإسلامية الرازحة تحت وطأة استعمار هاتين الدولتين، وكان هذا الخوف سبباً جعل كلتا الدولتين تسعيان إلى إجهاض سياسة التعايش السلمى معه.(٣١)

كانت الوحدة الإسلامية بمثابة تهديد لفرنسا بسبب وجود طائفة من المستعمرات الفرنسية فى شمال أفريقيا.

ولما تكونت بنية الطرق الصوفية للمسلمين فى هذه المنطقة أسرع عبد الحميد بإقامة علاقات وثيقة العرى مع مشايخ هذه الطرق، ويمكن القول فى هذا المقام إن النفوذ الذى فرضته الدولة العثمانية على جنوب أفريقيا كان يعتمد على هيمنة المشايخ وسيطرتهم على الطرق الصوفية.

كان الشيخ محمد ظافر شيخ طريقة" المدنيين" ذات النشاط القوى فى طرابلس يقيم فى قصر يلديز بإستانبول، وكان المنتسبون إلى الطريقتين المدنية والشاذلية يعتقدون بأن السلطان هو خليفة المسلمين.

ولهذا السبب فإنهم جميعا اضطلعوا بالتصدى لخدع الفرنسيين وآمالهم التى تراودهم فى هذه المناطق جميعا.

وتشير إحدى الوثائق المؤرخة بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٠٢م إلى التدابير التى اتخذت ضد هذه الطرق الصوفية، ومن بين ما ورد فى هذه الوثيقة:" أنه يمكن أن نقول فى كلمة واحدة إن الحكومة العثمانية صنعت سلاح التعصب الإسلامى ضد أوروبا، وسعت سعيا حثيثا كى لا تناضل بنفسها فى الميدان".

لم يكن ثمة ما يكفل الأمان للطرق الصوفية للمسلمين الذين يعيشون فى حالة سيئة متردية من ناحية الإمكانات المادية والتأثيرات الروحية ، ومن ثم يتوجب أن يكون هنالك أساس ركين عاجل.(٣٢)

---

(٣١) جرافيز ، ص ٦٤ .

(٣٢) صيرمة ، طائفة من صحائف التاريخ ، ص ١٦ .

وها هو ذا القنصل الفرنسى النشيط فى تركيا يبعث برسالة إلى وزير الخارجية الفرنسى" دلكاس" فى ٢٠ أبريل ١٩٠٢يقول فيها:" إن كثيراً من المنتسبين إلى الطريقتين المدنية والشاذلية اللتين هما بمثابة منظمتين قويتين تتمتعان بالثراء العريض، قد جاءوا طالبين حماية خاصة من القصر العثمانى، وإن هاتين المنظمتين تمثلان اليوم أقوى الأسلحة الفعالة للسياسة التركية".(٣٣)

ومما ورد فى هذه الوثيقة فى إطار التدابير المحكمة ضد هاتين الطريقتين يتمثل فى التقليل من تصعيب أداء فريضة الحج، ومنح طائفة من الامتيازات لهذه الطرق، وزيادة التنافس بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية فى هذا المضمار، وكسب التأييد من القلة المشرفة.(٣٤)

اهتم السلطان عبد الحميد كثيراً بالقبيلة السنوسية فى شمال أفريقيا ووضعها نصب عينيه، وهذه القبيلة مولعة بتحقيق الاستقلال، وهى قبيلة قوية جسورة تعيش فى واحة" قورفة" شديدة الاخضرار وسط الصحراء الكبرى جنوب مدينة بنغازى، وقد أسرع السلطان مرتين اثنتين بإرسال قائدين عسكريين إلى هذه القبيلة وهما: أعظم زادة وصادق مؤيد اللذان كانا على دراية بالعربية والفرنسية والألمانية، وأقسمت القبيلة على الولاء والصداقة للإمبراطورية العثمانية.

وظل هؤلاء السنوسيون على وعدهم بتوطيد عرى الصداقة من عام ١٩١١ حتى عام ١٩١٩م، وشنوا حربا ضد الإيطاليين استمرت ثمانية أعوام، وكان قادتهم فيها من الضباط الأتراك.(٣٥)

---

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٣٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٣٥) غياث الدين جوك كنت ، سياسة عبد الحميد ، مجلة حياة التاريخ ، ١ مارس ١٩٧٠م ، ص ٢٠-٢١ .

امتدت رقعة نشاط الوحدة الإسلامية التى انتهجها عبد الحميد فى أغوار أفريقيا، ناهيك عن انتشارها فى كل من المغرب والصومال اللتين كانتا بمثابة دولتى الجناح بالنسبة لأفريقيا.

ورأينا كيف وطد عبد الحميد علاقته أول الأمر مع الشريف حسن شيخ الإسلام فى المغرب، ثم سعى بعد ذلك إلى تأسيس علاقات أقوى عن طريق القنوات الدبلوماسية، كما كان للسلطان علاقة وثقى مع" يا شرونيا" التى تعد شعبة منشعبة عن الطريقة الشاذلية فى شرق أفريقيا. كما توشجت العلاقة بين كل من عبد الحميد والشيخ عويس فى الصومال ومنافسه الشيخ محمد عبد الله.

وكان حاكم زنجبار السلطان على يقول إن له علاقة قوية مع إستانبول، حتى إن عبد الكريم أمير منطقة المغرب الريفية كان يؤيد سياسة الوحدة الإسلامية للسلطان رغم عدم وجود علاقة له مع إستانبول.(٣٦)

تأتى إنجلترا على رأس الدول الأوروبية التى تخشى القوة الفعالة لسياسة الوحدة الإسلامية التى سلك سبيلها عبد الحميد، ويرجع هذا إلى أن هذه الدولة من أكثر الدول استعماراً للدول والممالك الإسلامية، وكانت سياسة عبد الحميد ترمى إلى قض مضجع إنجلترا فى كل من الهند ومصر والولايات العربية، لا سيما أن سياسة الوحدة الإسلامية التى اتبعها فى الهند طوال فترة سلطنته كانت بمثابة حلم مروع مفزع لإنجلترا، وتسبب هذا الخوف فى إقدام الحاكم الإنجليزى العام بالهند" هاتيون" إلى كتابة رسالة إلى ملكة إنجلترا فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٧٧م ورد فيها ما يأتى: "لو أننا اتبعنا سياسة عدائية ضد الحكومة التركية تحت وطأة ضغط الرأى العام والقوة السياسية الموجودة فى الخارج ، فإنه يتوجب علينا التفكير مليا فى احتمال تمرد المسلمين ضدنا ورفعهم راية التمرد والعصيان(٣٧)" .

---

(٣٦) Bgmartin ، التعصب الصوفى فى أفريقيا ضد الاستعمار ، ترجمة ، فؤاد طاتلى أوغلو ، إستانبول ١٩٨٨م، ص١٣٤-١٣٥ .

(٣٧) أوزخان ، ص ١٣٤-١٣٥ .

كما تحدث السفير الإنجليزى فى إستانبول" لايارد" فى ٢٥ مايو ١٨٨٠م فى تقرير له عن قلقه بشأن الهند فقال:" من الممكن أن يكون السلطان هو سبب إحداث التمرد الثانى عن طريق تحريضه للمسلمين ضدنا فى الهند".(٣٨)

واسوف يستخدم السلطان كل ما أوتى من حول وطول ليكون زعيما للمسلمين أجمعين(٣٩)، وإذا ما أمعنا النظر فيما كتبه عبد الحميد فى هذا الصدد ألفينا الهلع الذى أصاب الإنجليز من جراء سياسة الوحدة الإسلامية لم يكن هباء أو سدى.

وقد حول مسلمو الهند أنظارهم صوب الدولة العثمانية بعد تخريب دولة" بابر" وتقويض أركانها سنة ١٨٥٧م، وكان أهل سيلان يلقون خطبة الجمعة على منابرهم باسم السلطان عبد الحميد فى الهند، فضلا عن إظهار التجلة وعظيم الاحترام لعبد الحميد باعتباره خليفة المسلمين، ولما شن الإنجليز هجومهم على مصر واحتلوها فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٢م ، كان مسلمو الهند يلهجون بالدعاء للقائد الحربى أحمد عرابى كى يكلل بالنجاح والتوفيق، وبعد عام ١٨٥٧م بذل مسلمو الهند جهدهم من أجل الاضطلاع بأشياء تحقق لهم الاستقلال وتربطهم بالدولة العثمانية التى يعقدون عليها أمالاً، كما كانوا يريدون العمل على إنقاذ سياسة الوحدة الإسلامية وتعضيدها.(٤٠)

كان مسلمو الهند يراقبون من كثب الأحداث التى تجرى فى الدولة العثمانية، وباتت آلام الدولة العثمانية آلامهم وأفراحها أفراحهم.

وكانوا يعتبرون الإرهاب الأرمنى ضد تركيا حملة صليبية ضد تركيا، وقاموا بمظاهرات مؤيدة لتركيا فى مدينة دلهى، وكتبوا رسائل إلى ملكة إنجلترا والحكومة الإنجليزية، وورد فى هذه الرسائل:" إننا نذكركم بالصداقة التقليدية التى تربط بين

---

(٣٨) حدث التمرد الأول على يد الفرسان سنة ١٨٥٧م وسحقه الإنجليز، وأدى إلى وضع نهاية لدولة بابر، وأسسوا لهم حكومة قوية فى الهند.

(٣٩) أوزجان ، ص ١٣٧ .

(٤٠) قدرى بك: ص ٢٥٠ .

الهند وتركيا"[٤١] ، كما طلبوا إلى إنجلترا أن تكف يدها عن مساعدة الأرمن في حملاتهم الإرهابية.[٤٢]

ولما انتصرت تركيا في حربها ضد اليونان في عام ١٨٩٧م ، احتفل مسلمو الهند في كل المدن بهذا النصر المبين، وبعثوا رسائل التهنئات إلى السلطان عبد الحميد ، وفزع وزير المستعمرات اللورد" هاملتون" من سورة حميا هذا النصر، وكان يقول: إن الانتصار الذي حققه العثمانيون ضد اليونانيين غيَّر كل شيء، ولسوف يكون المسلمون بعد هذا الانتصار في أكبر مشكلة.

وفي سنة ١٩٠٠م احتفل مسلمو الهند بالذكرى السنوية لاعتلاء عبد الحميد عرش السلطنة، وأرسلوا برقيات تهنئة إلى السلطان متمنين فيها له طول العمر وسلطنة مديدة معمرة، وشدت كل هذه الأشياء انتباه الإنجليز وأضافوها إلى حساب علاقاتهم مع السلطان.

كان هناك صراع محتدم على النفوذ وفرض السيطرة بين الإنجليز وعبد الحميد في الولايات العربية. وكان السلطان يقبض على زمام أمور المشايخ العرب، بينما كان الإنجليز يمسكون بزمام قسم آخر منهم، كما كان أمراء الخليج وأمير مسقط والزيدية في اليمن يؤيدون الإنجليز، ولما علم السلطان بأمر العلاقات المبهمة بين الإنجليز وحسين شريف مكة السابق ، أسرع بوضعه تحت الرقابة بصفة دائمة.[٤٣]

بذل السلطان جهده بغية تطبيق سياسة الوحدة الإسلامية في أفضل أشكالها في الولايات العربية، وكان يكرم قادة ووجهاء العرب وسادتهم ويكفل لهم الضيافة في قصره، وكان الشيخ أبو الخد الرفاعي السوري مؤيداً للسلطان مناصراً له،

---

(٤١) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية: ص ١٨٠ .

(٤٢) أوزجان ، ص ١٥١ .

(٤٣) دافيسون ، ص ٩٤ .

وقد اضطلع الشيخ بضرب من الوظيفة يتصل بشئون المستشارية لتحقيق الوحدة الإسلامية، كما كان جهد ونشاط عبد الحميد سببا فى مظاهر الحب الذى حظى به فى الأوساط والمحافل العربية.(٤٤)

باتت سياسة الوحدة الإسلامية التى اتبعها عبد الحميد ذات تأثير قوى فعال فى الحكومة الإنجليزية فى مصر، لاسيما أن الصحافة المصرية كانت مؤيدة للسلطان فى هذا المقام.

وظلت جماعة البيروقراطيين بزعامة مصطفى كامل باشا مؤيدة للسلطان محازبة له حتى عام ١٩٠٤م.(٤٥) ولما وقعت أحداث العقبة سنة ١٩٠٢م هبت مظاهرة فى مصر مؤيدة للوحدة الإسلامية ، كما امتنع الحمالون فى ميناء السويس عن تحميل السفينة الحربية" ديانا" بالفحم تعاطفا مع السلطان عبد الحميد. وكانت إنجلترا خائفة من الغليان المشتعل فى مصر، ودفعت بوحدات عسكرية جديدة من أجل حماية قناة السويس.(٤٦)

وهذا هو M. de Grece يتحدث عن قوة سياسة الوحدة الإسلامية ومناعتها على لسان السلطان فيقول:" علقت فى حجرة اطلاعى خريطة ، علمت فيها باللون الأخضر الظاهر على موقع الدول الإسلامية، وجئت بالسفراء إلى هذه الخريطة وأشرت بإصبعى إلى رغبة إنجلترا فى إثارة قلقى واهتمامى، وكان هذا كافيا لإثارة قلقهم واهتمامهم.(٤٧)

---

(٤٤) المصدر السابق ، ص٩٤ .

(٤٥) جرافيس ، ص ٦٢ .

(٤٦) رشدى بك ، مسألة العقبة ، إستانبول ١٣٢٦هـ، ص ٨٥ .

(٤٧) جريس ، ص ١٨٠ .

التدابير والإجراءات التى اتخذها الإنجليز ضد الوحدة الإسلامية

كان الإنجليز يخشون من سياسة الوحدة الإسلامية التى اتبعها عبد الحميد الثانى ، وهموا بإجهاضها واستئصال شأفتها، وطبقوا سياسة الشدة والعنف والضغط على المسلمين الموجودين فى الهند، كما لجأوا إلى فرض نظم متغيرة على البلاد العربية يأتى على رأسها إزالة الخلافة العربية والعنصرية العربية من نفوس هؤلاء العرب.

وإذا ما حدث تأثير قوى على الخلافة الإسلامية وانتزعت من يد عبد الحميد ، فإنها حينئذ ستكون بمثابة ضربة قوية على سياسته آنفة الذكر.

ولقد اضطلع الإنجليز بعرض فكرة الخلافة الإسلامية حتى يتسنى لهم نزع الخلافة الإسلامية من يد عبد الحميد، وشرعوا فى هذا السبيل فى تقديم زعم مدعم بأدلة وبراهين تاريخية ودينية توجب بأن يكون الخليفة قرشياً أو عربياً .

وكان الخديو توفيق باشا هو وكيل الخلافة فى مصر حيث خضع لتأثير الدعاية وتمنى أن يكون هو الخليفة المنتظر.

ولم يقف عبد الحميد موقف المتفرج من هذه التطورات المتلاحقة ، وأسرع بتكليف مفوضه السامى فى القاهرة أحمد مختار باشا بمنح الهدايا والأوسمة والنياشين إلى الصحفيين المصريين، وخصص لهم رواتب شهرية لترويج الدعاية لصالح السلطان، وبدأ رجال الصحافة فى مصر بإيعاز من السلطان وتأثيره يكتبون فى الصحف المصرية أن عبد الحميد هو الأحق بالخلافة الشرعية، ولا يشترط أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يجب أن يكون من ذوى المقدرة والقوة المهيمنة ذات النفوذ.[٤٨]

ويدون عبد الحميد فى مذكراته طرفا من المساعى التى بذلها الإنجليز فيقول: "إنهم يريدون أن يكون الخديو خليفة للمسلمين كى يتمكنوا من تقوية شوكتهم وسلطتهم

(٤٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٢٠ .

ويضعفوا الإسلام، ولكن ما من مسلم صادق الإيمان يقبل بأن يكون الخديو رئيساً لهم، ورغم هذا فإن اللورد كرومر كان ينتظر تعيين الخديو خليفة للمسلمين.(٤٩)

وهكذا نرى أن الإنجليز كانوا يريدون التوسل بكل وسيلة من أجل القضاء على نفوذ الخلافة واستئصال شأفتها، ولما أخفقوا فى إعلان الخليفة من خارج الترك شرعوا من فورهم فى بث دعاية بألا تكون الخلافة مستندة على أسس تاريخية أو دينية، وكانوا يقولون:" لقد انتهت الخلافة بانتهاء العباسيين، ثم حدث من بعدهم تزييف، ثم انتهت الخلافة بعد ذلك بسقوط بغداد، وسرعان ما أصابها الضعف وآلت إلى كائن حى ميت على يد المماليك، أما الخلافة العثمانية كانت رؤية منامية".(٥٠)

ثم سعى الإنجليز بعد ذلك من أجل إظهار تيارات تقلل من شأن الجهاد والحج، ثم أخذوا فى هذا السبيل يساعدون على إبراز مذاهب صوفية كالقادرية والأحمدية.(٥١)

ظلت إنجلترا يقظانة آخذة حذرها من الوحدة الإسلامية حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، وقد حذر إمبراطور ألمانيا ويليام الثانى من الخطر الذى تمثله إنجلترا ، وذلك فى الخطاب المشهور الذى ألقاه فى سوريا على مقبرة صلاح الدين الأيوبى ١٨٩٨م ، وقد حققت ألمانيا فائدة جمة من العشق الذى تمخض عن سياسة الوحدة الإسلامية التى انتهجتها ، وخوفت إنجلترا تخويفاً شديداً.(٥٢)

وقد اضطلع الإنجليز بأخطر صحيفة فى النضال ضد الوحدة الإسلامية، ثم ما لبثت أن حرضت القومية العربية معتمدة على الشعور الدينى وإزالة عنصر الجنس والعرق الذى يحطم آمالهم ويجهض أحلامهم، وجنت إنجلترا ثمار هذه الدعوة بضم حسين شريف مكة إلى صفها إبان سنوات الحرب العالمية الأولى.

---

(٤٩) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ، ص ٢١٨ .

(٥٠) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ك ، ٢١٨ .

(٥١) بايور ، ج١، ص ١١٨-١١٩ .

(٥٢) خليل خالد ، ص ٢٠٤ .

الوحدة الإسلامية وإيران

لما كانت إيران دولة إسلامية ، فقد اهتم عبد الحميد بها اهتماما بالغا فى إطار سياسة الوحدة الإسلامية التى كان يزمع تشكيلها ، وفى تلك الآونة حرصت إيران على الاقتراب كثيراً من الدولة العثمانية بسبب الضغط المستمر عليها من قبل الإنجليز والروس كليهما، وكان هذا بمثابة انطباع أسهم فى تسيير أمور السلطان فى هذا المضمار، لم تكن العلاقات مع إيران على ما يرام إبان عهد نصر الدين شاه، وقد ظهر نفور سرى بين السلطان والشاه بسبب العداوة المذهبية لكليهما.(٥٣)

ولما جاء مظفر شاه باشا أصبحت العلاقات أكثر مرونة ، ويرجع هذا إلى أن إنجلترا وروسيا شرعتا معًا فى استخدام الضغط والإكراه على إيران من أجل إحكام قبضتيهما عليها، وبدأت إيران بدورها فى البحث عن حلفاء لها، ولم يكن أمامها حليف سوى الدولة العثمانية ، وكانت هناك عداوة مشتركة بين الدولتين، بيد أن أول رغبة فى التقارب جاءت من إيران.

" وقام وزير الخارجية الإيرانى ميراز حسين خان بزيارة السفير العثمانى فى إيران فخرى بك، وبحث معه ضرورة قيام وحدة إسلامية بين كلتا الدولتين المسلمتين".(٥٤)

وفى ذلك الإبان كان جمال الدين الأفغانى فى إستانبول وبذل مساعيه لإقناع عبد الحميد بإقامة علاقات مع إيران وأسهم فى تسيير الأمور فى هذا السبيل، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفا مما كتبه السلطان عبد الحميد حيث يتحدث عن الفائدة التى يمكن أن تتحقق من وراء التقارب بين جميع المسلمين بعضهم بعضا، ويقول عبد الحميد: "مما يؤسف له عدم وجود تفاهم قط مع إيران، ومع هذا فثمة فائدة مرجوة من اقتراب إيران منا من أجل إجهاض الحيل الماكرة التى تحيكها كل من روسيا وإنجلترا فى هذا السبيل.

---

(٥٣) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص٥٥ .

(٥٤) أر أصلان ، ص ١٣٢ .

كان السيد جمال الدين الأفغانى رجل علم ذائع الصيت ، وقد حل ضيفا على قصر يلديز، ومنحنى الأمل قائلاً لى: "من الممكن حدوث اتحاد بين الشيعة والسنة، وإذا ما أظهر الشيعة حسن النية لإخوانهم من أهل السنة، ولو أصبح ما يقوله جمال الدين حقيقة واقعة ، لكان ما حدث بمثابة أثر عظيم من أجل الإسلام".

أما القنصل الإيرانى المدعو" حاجى ميرزا خان" الموجود فى إستانبول فقد وعد بدوره أن يجذب طائفة كبيرة من الموظفين من ذوى الرتب والمناصب العالية، كما استحوذ كذلك على زمرة من العلماء فى إيران.

واستطاع بهذه الطريقة أن يخطو خطوة كبرى إلى الأمام للوصول إلى اتفاق بين الدولتين فى هذا السبيل، ولسوف يتحقق التقارب بينهما فى القريب العاجل.

ولزام علينا أن نضع نصب أعيننا كثيراً من التضحيات؛ بغية تحقيق هذه الفكرة العظيمة ووضعها موضع التنفيذ.(٥٥)

ولما لاحت فى الأفق رغبة عارمة بين البلدين فى تخفيف حدة التوتر بينهما ، سرعان ما بدأت تظهر باكورة التأثيرات الإيجابية من وراء هذه الوحدة ، ولا جرم أن الحكومة العثمانية شرعت بدءاً من هذه اللحظة فى تطبيق هذا التقارب بين الدولتين حيث أظهرت لوزير الخارجية الإيرانى التطبيق العملى لهذا التفاهم بين الدولتين متمثلا فى دعوة السفير الإيرانى لزيارة الروضة الشريفة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم وحضور شعائر المولد النبوى الشريف وطقوسه، وأظهر السلطان حسن نيته بدعوة السفير الإيرانى إلى طعام الإفطار فى شهر رمضان.

وقد كان ولى العهد" كامران ميرزا" يحس فى قرارة نفسه بحب خاص للسلطان العثمانى، وكان على يقين بأن السلطان سوف يبذل قصارى جهده من أجل توطيد عرى الوحدة بين البلدين، ونجم عن هذا أن حدث فى إيران لأول مرة تضرع بخير

---

(٥٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٦٥

الدعاء لحاكم من غير الملوك الإيرانيين ، ونعنى به السلطان العثمانى خليفة المسلمين عبد الحميد الثانى.(٥٦)

وفى إطار تقارب الدولة العثمانية من الشيعة تم حذف كل ما يضايق الشيعة من الكتب الدراسية، كما تم فى هـذا السبيل كذلك تعمير الأماكن الشيعية المقدسة وإصلاحها، وحرص الناس على التعلم فى هذه الأماكن من أجل تأسيس هيئة من العلماء تضطلع بالتقريب بين مذهبى أهل السنة والشيعة، وفى مقابل هذا فإن الحكومة الإيرانية كانت تمتنع عن الاحتفال بطائفة من الاحتفالات والطقوس الشيعية التى تؤذى مشاعر أهل السنة استجابة لرغبة الباب العالى.

ومن أهم مظاهر التقارب بين الدولتين تلك الزيارة التى قام بها ملك إيران شاه مظفر إلى إستانبول سنة ١٩٠٠م(٥٧).

وكانت هذه الزيارة مثيرة للاهتمام عقب الانتصار الذى حققه العثمانيون ضد اليونان ، وقد وضعت إيران نصب أعينها الاستفادة من قوة تركيا، وأهدى الشاه للسلطان عبد الحميد نسخة من القرآن الكريم، وعند تقديمه لهذه الهدية النفيسة قال للسلطان: "إننى أستطيع أن أهديكم القرآن الكريم بصفتكم خليفة وسلطانا ليس إلا".(٥٨)

وقد أشار شاه إيران بهذه القالة التى تفوه بها إلى الاعتراف بإسباغ صفة الخلافة على السلطان العثمانى لأول مرة فى التاريخ، وكان عبد الحميد مدركا لهذا تمام الإدراك ، وكانت تحدوه رغبة عارمة لتحقيق الوحدة بين البلدين فى إطار من العلاقات الطيبة، وكان الاتحاد بين إيران وتركيا مشابها للاتحاد بين الألمانيتين ، بمعنى أن تكون هناك حرية مطلقة فى ممارسة الشئون الداخلية، وكان هذا بمثابة أحلام تراود إيران كى تكون هى القائد الآمر فى المستقبل القريب.

---

(٥٦) أر أصلان ، ص ١٣٤ .

(٥٧) أوزجان ، ص٨٠-٨٥ .

(٥٨) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٥٧ .

ولم تدم متعة شهر العسل بين الدولتين كلتيهما أمداً طويلاً، لا سيما أن كل شيء سرعان أن عاد إلى سابق عهده عندما ظهرت تهديدات تحيق بإيران.

"يأتى فى المقام الأول أن الإيرانيين يخشون من الضياع والفقدان والانصهار داخل بوتقة الوحدة الإسلامية، كما استخدموا مذهبهم الشيعى ترسا واقيا للذياد عن هويتهم القومية التى تميزهم عن أهل السنة الذين يمثلون مذهب الأغلبية المطلقة فى العالم الإسلامى.(٥٩)

ويقول عبد الحميد: " كنا نشكو بسبب اختلاف المذهب ونتألم من حماية إيران الإرهابيين الأرمن".(٦٠)

"وأفضت هذه التطورات إلى ظهور التنافس التركى الإيرانى من جديد فى العراق.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد سعت سعيا حثيثا للحيلولة دون اصطباغ الشعب بالصبغة الشيعية فإنها لم تحقق النتيجة المرجوة من وراء هذا".(٦١)

أنشطة الوحدة الإسلامية فى الداخل

طبق السلطان عبد الحميد سياسة الوحدة الإسلامية فى علانية وجلاء وصخب وضجيج فى الداخل والخارج على حد سواء، واستطاع أن يشغل نفسه بهذا العمل، وبذل كل ما فى وسعه فى سبيل تحقيقه.

كانت إنجلترا وفرنسا وروسيا آخذة حذرها من هذه الوحدة الإسلامية.

وكانت هنالك تطبيقات فعلية للوحدة الإسلامية بيد أنها لم تكن قد سميت باسم بعد ، ولم تجذب الانتباه، ولم يأذن السلطان عبد الحميد لإسماعيل جاهدة لى بعقد

---

(٥٩) أر أصلان ، ص ٢٠٧ .

(٦٠) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ٢٠٩ .

(٦١) أر أصلان ، ص ٢١٢ .

مؤتمر عالمي للوحدة الإسلامية في إستانبول حتى لا يؤدى هذا إلى تخويف الدول الأوروبية الكبرى ، حتى إنه لم يسمح كذلك بانتشار دعايات الوحدة الإسلامية التى انبثقت عنها هذه الشعارات، ولا سيما وأنه لم تكن ثمة فرصة موفقة ناجحة للجهاد قط، وهذا ما يعلمه السلطان جيداً، كما أنه كان هناك لفظة واحدة بغية تخويف أعدائه وترهيبهم ، وتعنى الجهاد.(٦٢)

" إن الانتشار المراد للوحدة الإسلامية لا يعنى بالضرورة القتال أو الدخول فى حروب مع أوروبا فى إطار الوحدة الإسلامية المزمعة، بل كان يعمل على الحيلولة دون أن تتقاتل مع نفسها شاعرة فى قرارة نفسها أنها صاحبة قوة كامنة، ويمكن القول بأنها يمكن أن تحقق نجاحا باهرا فى هذا السبيل".(٦٣)

كانت قوة عبد الحميد ونشاطه الجوهرى ونجاحه فى موضوع الوحدة الإسلامية باديا بجلاء فى الداخل، وقد مهدت هذه الأيدلوجية السياسية السبيل إلى جعل الدولة العثمانية دولة إسلامية قومية، كما أن هذه الوحدة الإسلامية منحت النصارى حقوق الأقلية الخاصة وامتيازاتها.(٦٤)

بدأ عبد الحميد يمضى قُدما فى التخفيف من وطأة الهيمنة والسيطرة على النصارى، وبينما تدنى عدد الموظفين من النصارى ، زاد عدد نظرائهم من المسلمين، وتم تسليح المسلمين فى مواجهة الجماعات الإرهابية النصرانية التى تسلحها أوروبا، ولم يقدم عبد الحميد على معاقبة المسلمين كما كانت أوروبا تريد . لم يستخدم السلاح ضدهم حتى لا يواجهوا مصاعب جمة، بيد أنه استخدم السلاح ضد إمام اليمن الذى لم يعترف به خليفة للمسلمين.(٦٥)

---

(٦٢) جريس ، ص ١٨٠ .

(٦٣) أر أصلان ، ص ٢٠٢ .

(٦٤) قارباط ، الوحدة الإسلامية ، ص ٣٥ .

(٦٥) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ، ص ٤٣٢ . ٤٣٣ .

كان السلطان حريصا على أن يؤلف قلوب الشعب ويستميلهم إليه، ويريد أن يضحى بكل شىء فى سبيل منح راتب فى عيدى الفطر والأضحى لكل الناس، كما كان يساعد المتقاعد والأرملة والأيتام، ويقدم الطعام والحطب والفحم لمحدودى الدخل ممن يعيشون فى زمهرير الشتاء القارس، واهتم كذلك بالطرق الصوفية، وخصص نفقات التكايا من طعام وعلم ومعرفة ، وعمر الأضرحة وأصلح بناءها، كما منح بعض شيوخ الطرق الصوفية الأوسمة والرتب والنياشين، وكان من عادته إهداء ثلاثين ألف قرش كل عام لموظفى المساجد من وعاظ وخطباء وشيوخ، ومنع بيع المسكرات وفتح حانات الخمر فى مقاطعات المسلمين بإستانبول.(٦٦)

ولقد حرص السلطان على صرف أهمية خاصة من أجل إسعاد رعايا الدولة الإسلامية وإدخال البهجة إلى قلوبهم فى إطار انتهاجه لسياسة الوحدة الإسلامية.

عبد الحميد الثانى والولايات العربية

كانت الولايات العربية والعرب يمثلون جميعا قسما كبيرا من رعايا الدولة العثمانية وترابها. وبات الاستحواذ على هذه الولايات أحد الموضوعات المهمة التى صرف السلطان عبد الحميد الثانى اهتمامه إليها ووضعها نصب عينيه، كما أن هذه الولايات العربية توجد فى نقاط استراتيجية لطريق الهند.

وفى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أصبحت هذه الولايات العربية منابع للبترول الغنى الذى يعد بمثابة الدم المتدفق فى أوردة حضارة هذا القرن الذى نعيشه، ولهذا السبب حول العالم كله أنظاره صوب هذه المناطق التى شدت انتباهه إليها ولا سيما إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا، ثم جاءت ألمانيا فى إثرهم، وشرعت هذه الدول جميعها تضع فى حسبانها توطيد أركانها فى تلك الولايات العربية ، يحدوها فى

---

(٦٦) أر أصلان ، ص ٢١٧ -٢١٨ .

هذا السبيل تحقيق الآمال التى تراودها فى فرض سياسة الاحتلال والسيطرة على هذه المناطق من أجل الحلول والاستقرار فى مصادر الغنى والثراء.

وباتت هذه الولايات العربية تدخل فى لجة الصراع والنزاع، وكان عبد الحميد شديد الحزن والأسف على ما تكابده مناطق الحجاز واليمن وبغداد والبصرة وسوريا وبيروت وجبل لبنان وطرابلس الغرب من أوضاع داخلية مضطربة.

كانت هذه الدول تعانى من الدسائس والحيل التى لا سبيل إلى تصورها، ناهيك عن أنها كانت ترزح كذلك تحت كل المؤثرات الاستعمارية الخارجية، وشغلت هذه الدسائس بال السلطان عبد الحميد وأحزنته وقضت مضجعه.

يقولون إنه لا سبيل إلى الخطأ فى التشبيه، وأنا أستطيع القول كذلك مستندا فى ذلك إلى المثل الذى يقول: إن هذه الدول كانت كالبهلوان الذى يلعب بمهارة على الحبل فى جهتين اثنتين، ففى الناحية الأولى حكام يعيشون وكأنهم مستقلون مثل: إمام اليمن وخديو مصر وأمراء نجد وظفر وسلطان لاهيج وأشراف البصرة وبارزان رئيس جبل الدروز وشيوخ مسقط وآخرين.

وفى الناحية الثانية حكام آخرون يرون أنفسهم تابعين للسلطان العثمانى الذى يعد خليفة العالم الإسلامى كله.

وما لبثت إنجلترا أن تسللت ، فدست أنفها بين هاتين الجهتين القويتين، وأخذت تتعقب أثر المصالح السياسية والاقتصادية المختلفة.

أما فرنسا وإيطاليا فقد صرفتا همتهما ، وبذلتا جهدهما بغية تحقيق أقصى فائدة ممكنة فى إطار البرنامج الذى اضطلعتا برسمه والتخطيط له سلفا، ولا ريب أن الإنجليز قد اضطلعوا بالدور الأول فى هذه اللعبة.(٦٧)

---

(٦٧) تحسين باشا ، ص ٢٤٤ .

" ولقد استعمل الإنجليز سياسة اللطف والرقة فى الداخل مع الجماعات الرئيسية والقبائل والعشائر والزعماء والوجهاء وسراة القوم، وقدمت لهم الهبات والعطايا وحرصت على استمالتهم وخطب ودهم، وأقنعتهم بتوفير الحماية لهم عند الضرورة، وأخذت إنجلترا تمضى قدما من أجل تحقيق النجاح فيما تسعى إليه، وأسرعت بإرسال ثلة من الموظفين ممن يتزينون بملابس خاصة، ولا جرم أن هؤلاء الموظفين كانوا عالمين بالأعراف والتقاليد واللغات المحلية لهؤلاء الأقوام والعشائر.

ولما كان المرسل بهم من الموظفين ، فإنهم دخلوا إلى هذه البلاد دون أن يشعر بهم أحد قط، وبدأوا فى إفساد وتشويه الأفكار النقية لتلك العشائر والبطون، كما بذلوا جهداً كبيراً من أجل تكريه الناس فى المطبوعات الحكومية وتثبيط عزائمهم نحوها.[٦٨]

خاض السلطان عبد الحميد كفاحا عسيرا شاقا ضد إنجلترا فى الولايات العربية طوال مدة حكمه فى سدة العرش، وكانت إنجلترا تريد خنق المثلث الذى تهيمن عليه الدولة العثمانية والمتمثل فى الكويت والعقبة وسيناء، وقد حالفها التوفيق فى كل من اليمن والعقبة، بيد أنها أخفقت فى الكويت.

وبعد أن تم للإنجليز استقرارهم وتوطيد أركانهم فى مصر ، أصبحت اليمن من أهم المناطق التى مدوا أعينهم إليها، فاليمن تعنى جبل طارق آسيا، وهى مدينة ميناء عدن الذى يعد نقطة الانطلاق على البحر الأحمر للتوجه نحو المحيط الهندى، ومن ثم بات انضواؤه تحت الحماية الإنجليزية من الأهمية بمكان، ولهذا السبب كانت إنجلترا تريد بسط نفوذها كاملا على اليمن حتى يتسنى لها فرض هيمنتها على ميناء عدن.

" أخضع الإنجليز القبائل الزيدية بصفة خاصة تحت حمايتها ونفوذها، فالزيدية بحكم مذهبهم لا يعترفون بالخلافة العثمانية، ومن ثم فقد قبلوا طائعين الحماية الإنجليزية فى سهولة ويسر، كما اضطلع الإنجليز بمد يد العون والمساعدة من مال

---

(٦٨) تحسين باشا ، ص ٢٤٥ .

وسلاح إلى تلك القبائل كى تحظى باستقلالها الذى تناضل من أجل الظفر به، وتدخلت فى شئون القبائل التابعة للدولة العثمانية.

ولما كانت الخلافة الإسلامية تخص السلالة القرشية دون سواها، فإن الإنجليز شرعوا فى إقحام أنفسهم ودس أنوفهم فى الأماكن الخاضعة للحكم العثمانى، وأدخلت الكتب والصحف والمجلات المتعلقة بمسألة الخلافة إلى داخل مناطق عدن واليمن، وكانت ترمى إلى تكريه الشعوب العربية فى الدولة العثمانية وحثها على التمرد والعصيان.(٦٩)

وإذا فُقدت اليمن ، فلسوف يكون من العسير حماية منطقة الحجاز التى تضم المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولهذا السبب أولى عبد الحميد أهمية خاصة للدفاع عن اليمن، ويقول عن هذا فى مذكراته:" لقد بدأت إنجلترا منذ هذه اللحظة تسبب لنا المتاعب والمصاعب فى اليمن، فعملت على إثارة القبائل العربية وتحريضها واحدة تلو الأخرى، وأصبحت عدن مستقر الإنجليز العام الذى يديرون من خلاله دفة الأمور فى السعودية، كما أن السلاح الذى يستخدمونه ضدنا يأتى من مخازن الأسلحة فى عدن.

ولا جرم أننا أصبحنا فى موقف صعب فى تلك المنطقة، ولسوف نبذل قصارى جهدنا للدفاع عن الحيل والدسائس التى تحيكها إنجلترا ضدنا عن طريق توزيع الهدايا والعطايا على رؤساء القبائل والعشائر.(٧٠)

" أقدم عبد الحميد على منح الهبات والرتب والنياشين إلى القبائل اليمنية، ونجحت هذه الطريقة فى إخضاع كثير من الموظفين تحت إدارة الدولة العثمانية".(٧١)

وقد لجأ السلطان إلى اتخاذ التدابير العسكرية حتى يتسنى له القبض على زمام الأمور فى اليمن ، وتظل خاضعة لحكم الدولة العثمانية بعد أن نفدت كل الحلول الودية،

---

(٦٩) أرأصلان ، ص ٢٨٥ .

(٧٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٣١ .

(٧١) عثمان نورى ، جـ٣ (جزء أحمد رفيق) ، ص ٩٤٧ .

وعهد إلى فيلق عسكرى قوامه ثمانية آلاف جندى للاضطلاع بهذه المهمة فى اليمن، حتى إنه أسس الجيش العثمانى السابع ليكون فى مستوى قتالى لائق بالنسبة لباقى الجيوش الأخرى، وعين السلطان طائفة من أكثر الباشوات حنكة ودراية ليكونوا قادة وولاة على اليمن، ومنهم على سبيل المثال: أحمد مختار وأحمد أيوب وإسماعيل حقى ومشير عثمان وأحمد فوزى وحسين حلمى وتوفيق باشا وغيرهم.

ولم يتردد هؤلاء القادة فى استرداد كثير من المناطق والمدن من أيدى العصاة المتمردين.

واستمرت هذه الحرب المستعرة طوال حكم عبد الحميد وامتدت حتى وفاته.(٧٢)

ثم تخلت تركيا عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان الكفاح المسلح فى هذه المنطقة قد بات أمرا عسيرا، وأدت المعارك الطاحنة إلى استشهاد ما ينيف على مائة وخمسين ألف شهيد فى خلال خمسين عاما.

ولهذا السبب اصطبغت اليمن فى تاريخ الحروب التركية بصبغة أسطورية خالصة. وأصبح الخروج فى القرعة العسكرية بهذه المنطقة بمثابة حلم مفزع مروع للعوائل والأسر، لأنهم ذاهبون إلى اليمن إلى غير رجعة.

كانت إمارات الخليج العربى من بين الولايات العربية التى بدأت تنفصم عن الحكم العثمانى ، وتعقد اتفاقيات ومعاهدات الحماية الإنجليزية إبان فترة جلوس عبد الحميد على العرش، وقد وقعت أعنف المصادمات العثمانية الإنجليزية فى الخليج عند منطقة الكويت.

وعندما كشف الإنجليز عن منابع البترول فى هذه المنطقة، وظهر فى الأفق مشروع تنفيذ خط سكك حديد بغداد ، ومنح امتياز تنفيذه إلى الألمان ، مما عجل بوضع الكويت تحت الهيمنة والسيطرة الإنجليزية بصورة تامة.

---

(٧٢) عاطف باشا ، تاريخ اليمن ، جـ٢، إستانبول ١٣٢٦هـ. ص ١٢٤ – ١٣٥ .

ولما بات من المحقق منح الألمان امتياز تنفيذ خط سكك حديد بغداد إبان زيارة الإمبراطور ويليام الثانى إلى تركيا سنة ١٨٩٨ م ، أسرعت إنجلترا بتوقيع معاهدة مع شيخ الكويت فى ٢٣يناير سنة ١٨٩٩م للحيلولة دون امتداد هذا الخط الحديدى إلى ميناء الكويت، وتقضى هذه المعاهدة بعدم السماح للكويت باستقبال أى موظف أجنبى دون إذن إنجلترا، وأنها لن تترك الفرصة لأية دولة كى تجرؤ وتحتل أى جزء منها مهما كان شأن هذه الدولة.(٧٣)

أصبحت إنجلترا عقب هذه الاتفاقية تعتبر الكويت دولة مستقلة خاضعة لحمايتها رازحة تحت نفوذها، كما أنها بذلت كل ما فى وسعها لعرقلة الإجراءات والتدابير التى تتخذها الدولة العثمانية فى هذا السبيل، وعقب هذه التطورات أسرع السلطان عبد الحميد بإرسال الأميرالاى العثمانى" حاجى طاجيب بك" إلى أمير الكويت فى سنة ١٩٠١م ، حيث طلب إليه التخلى عن الكويت وتغيير الوضع الراهن فيها على جناح السرعة.

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٠٤م رفضت الدولة العثمانية تعيين قنصل إنجلترا لديها، وهكذا كان الصراع بين عبد الحميد والإنجليز قد أصبح على قاب قوسين أو أدنى من بلوغ أوج درجات العنف والحدة.

وإذا ما أقدمت تركيا على إرسال جند إلى الكويت ، فإن هذا سيكون بمثابة تدخل معلن، وهذا يعنى ولا ريب شروعاً فى احتلال الكويت(٧٤). كما أن إرسال هذه القوات إلى الكويت ليس حلا للمشكلة، لأن الكويت إذا لم تكن فُقدت من الناحية القانونية ، فإنها فقدت من الناحية الفعلية.

لقد فقد السلطان الأمل فى الكويت وانقطع رجاؤه فى أمل استرجاعها، وكثف كل مساعيه وجهوده على منطقة العراق.

---

(٧٣) محمد نابى روم بك أوغلو ، المسألة الكويتية ، إستانبول ، ١٣٣٤هـ، ص ١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ١٤-٢٨ .

ويكتب قائلا فى مذكراته:" إن شط العرب يعد مفتاح منطقة "مازبو طامية" (وهى المنطقة التى يلتقى فيها نهرا دجلة والفرات)، ومن الأهمية بمكان ألا نستطيع السماح للإنجليز بالاستقرار فى تلك المنطقة ، لا سيما أن الإنجليز كانوا راغبين فى الهيمنة على البصرة الموجودة على مصب هذا النهر، وتفيد المعلومات التى أحاطنا بها علما وجهاء هذه المنطقة وأشرافها أن هدف الإنجليز من وراء هذا أن يسيلوا الذهب الأسود كالماء الجارى فى هذه المنطقة".(٧٥)

لم يستطع الإنجليز طوال حكم عبد الحميد الاضطلاع بشىء قط فى العراق سوى قيامهم ببعض حركات التحريض والإثارة ليس إلا.

وحرض الإنجليز أهالى هذه المنطقة ضد الدولة العثمانية ولا سيما أولئك النصارى النساطرة الموجودون فى منطقة" مازبو طامية" المشار إليها آنفا، كما كانوا يريدون تأسيس دولة نسطورية مستقلة فى هذه المنطقة ، يستطيعون من خلالها السيطرة على منابع البترول ووضعها تحت مراقبتهم.

وقد أسرع الإنجليز بتنفيذ هذه الخطة بدءا من عام ١٨٧٨م. وفى عام ١٨٩٦م شرع الإنجليز يبذلون مساعيهم لدى" مارشموم" الزعيم الروحى للطائفة النسطورية الذى يقيم بقرية قوجاق بمنطقة حقارين، وأخذ رُسل الإنجليز ومبشروهم يطوفون بالقرى النسطورية ويحرضون الشعب فيها على التمرد والعصيان.

وما لبثت الاضطرابات والفتن أن اشتعلت فى جزء من القرية مما أزعج المسلمين والنساطرة فى هذه المنطقة. وأسرع عبد الحميد من فوره بفرض الإجراءات اللازمة لمواجهة هذه الفتنة، ودفع بقوة عسكرية إلى النساطرة لتوفير الأمان لهم، كما عمل كذلك على كسب هؤلاء النساطرة إلى صفه، وأرسل الهدايا إلى زعيمهم بواسطة حاكم مقاطعة حقارين، كما عين له راتبا ثابتا.(٧٦)

---

(٧٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٣٦ .

(٧٦) قودامان ، ص ١٥٩ .

أصبحت الحجاز إحدى المجالات التى استرعت انتباه عبد الحميد ، فصرف همته لها، وكان ابن الرشيد أمير نجد والشيخ عبد العزيز بن سعود كلاهما صديقين حميمين وقريبين للسلطان عبد الحميد.

أما ابن الرشيد فكان يتبع سبيل رغبة السلطان ، فسعى من أجل إعادة السيطرة العثمانية على منطقة الكويت، وكان هذا السلوك بمثابة تخويف للإنجليز الذين استحوذوا على خال هذا الأمير وأوعزوا إلى ابن أخته فقتله.(٧٧)

أما ابن سعود فظل مواليا للسلطان العثمانى مرتبطا به حتى آخر المشوار، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفا مما سطره عبد الحميد فى مذكراته:" لقد أخطأ الإنجليز خطأ فاحشا عندما ظنوا أنهم يستطيعون اللعب بالشيخ عبد العزيز بن سعود شيخ الرياض كما يشاءون، وقد كان هذا الشيخ يعمل جاهدا على إحياء المذهب الوهابى. ولقد أدرك ابن سعود جيداً أن اتباع سبيل الإنجليز سيكون جرمًا عظيمًا.

وبينما كان يريد الحصول على الاستقلال بمساعدة الإنجليز ، فإنه لم يستطع التفكير مليا فى أنه سينضوى تحت حكمهم. أما الآن فإنه قد وعى هذا وأدركه".(٧٨)

اهتم السلطان عبد الحميد كثيراً بعائلة الشريف حسين الموجودة فى الحجاز، ودعت الضرورة إلى أن يقوم السلطان بنفسه بالاحتفاظ بأولاد الشريف حسين فى إستانبول مدة ثمانية عشر عاماً ، وهم: على وعبد الله وفيصل وزيد.(٧٩)

واضطر عبد الحميد بدءاً من عام ١٨٩٣م إلى إخضاع الشريف حسين للإقامة الجبرية فى إستانبول بعدما نما إلى علمه أنه يجرى اتصالات سرية مع الإنجليز، ثم عينه بمجلس الشورى، كما أبدى السلطان حماسًا قويًا كى يكفل لأبنائه ضربًا من تربية وتنشئة أولاد القصور.(٨٠)

---

(٧٧) تحسين باشا ، ص ٥٣، ص ٢٤٧ .

(٧٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراته السياسية ، ص ١٣٧-١٣٨ .

(٧٩) T.E.La Wence : ص ٨٠ .

(٨٠) جلال توفيق قرهة صابان ، فلسطين وشرق الأردن ، جـ١، إستانبول ١٩٤٢م، ص ١٢٢ .

وقد استمرت الاتصالات السرية بين الشريف حسين والإنجليز إبان فترة إقامته في إستانبول، وخدع السلطان بإقامته علاقات حميمة مع السفير الإنجليزي في إستانبول[٨١].

أصبحت سوريا من أهم الولايات العربية التي أتعبت السلطان عبد الحميد، لاسيما أن جهود البعثات التبشيرية الفرنسية ما فتئت تعمل على إثارة القومية العربية واستنهاض عزيمتها، وكان النصراني" نجيت آزوري" هو رأس القومية وزعيمها في هذه المنطقة، كما أنه دعا العرب في كتابه المسمى" صحوة القومية العربية" إلى رفع راية التمرد والعصيان ضد ظلم الأتراك وتعسفهم.

وكان يرغب من وراء دعوته في تأسيس الدولة العربية الكبرى التي تمتد حدودها من وادي دجلة والفرات إلى البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس والمحيط الهندي، وكتب رسائل إلى رجالات الدولة في فرنسا كي يمدوا له يد العون والمساعدة لتحقيق هدفه الذي يطمح إليه، وأراد في هذه الرسائل التي بعثها الحصول على مساعدات مالية من هؤلاء الرجال الذين يمثلون هيبة الدولة الفرنسية وميراثها الموجود في الشرق، بيد أن القائمين على أمور الحكم في فرنسا كانوا ينظرون إليه بعين العطف والشفقة.[٨٢]

كان" آزوري" يرغب في أن يجعل سوريا قوية وأن يستخدم السلطان أشخاصًا من ذوي النفوذ في ولاية سوريا حتى لا يكون مسلمو سوريا ألعوبة في يد أعدائها، ومن هؤلاء الأشخاص: عزت هولو (عزت باشا) ونجيب ملحمة وأبو الخد شيخ الطريقة الرفاعية ، واستقدمهم جميعا إلى قصره وأفاد منهم فائدة جمة.

أما مسلمو سوريا فقد ظلوا حتى النهاية أوفياء مخلصين للسلطان عبد الحميد.

---

(٨١) جوج أنطونيوس ، الصحوة العربية ، لندن ، ١٩٣٨ ، ص ١٧٥ .

(٨٢) Shorrock ، ص ٧٣-٧٤ .

أبدى السلطان عبد الحميد حمية وحماسا من أجل الاستحواذ على ليبيا وإخضاعها لسيطرة الدولة العثمانية، لا سيما أنه اتخذ التدابير لحمايتها من الإيطاليين. ولما وقعت تونس فى قبضة الاحتلال الفرنسى ، أسرع السلطان فجيش إليها جيشًا قوامه عشرون ألف جندى.(٨٣)

بيد أن هذا الجيش لم يكن كافيا للذياد عن حياض ليبيا ، وفى سبيل هذا أقدم السلطان على تسليح شعب ليبيا لينخرط فى التنظيم العسكرى ، وتمخض عن هذا التنظيم فى النهاية ضرب من الفرق العسكرية يسمى (قول أوغلولرى العسكرى) ، ولما كانت قواتنا البحرية لا قبل لها بالتنافس مع الأسطول البحرى الإيطالى من حيث القوة والخبرة والتدريب ، فإن السلطان عبد الحميد لجأ إلى تشكيل قوة عسكرية محلية من الميلشيا القوية تسمى باسم" قول أوغللر" ، وألحقها بالقوة العسكرية الموجودة هناك فى محاولة لشد أزر أولئك الجند الموجودين فى طرابلس الغرب وبنغازى.

وتحصنت هذه الميلشيات فى النقاط التى يتوجب الدفاع عنها عند الضرورة، كما اضطلع المكلفون بالدفاع عن أرضهم بتقوية هذه الميلشيات وإمدادها بالسلاح والعتاد، وإذا كانت قد حدثت بلاغات من أجل تسريح هؤلاء المجندين الذين نفذوا الإجراءات العسكرية لبضع سنين فى ليبيا ، فمن المسلم به أن هذه المنطقة ظلت مطمحا لطمع الإيطاليين مدة سبع وعشرين سنة، كما أن عبد الحميد هو الذى وفر الحماية لهذه المنطقة.(٨٤)

استفاد السلطان عبد الحميد فائدة جمة من تنافس فرنسا وإيطاليا فى هذه المنطقة من أجل الاستحواذ على ليبيا وإحكام قبضته عليها، ويرجع هذا إلى أن السلطان لم يكن يريد أن تضع فرنسا احتلال إيطاليا لليبيا نصب عينها.

---

(٨٣) عثمان نورى ، جـ ٢، ص ٦٧ .

(٨٤) رشيد راى ، ص ٣٣ .

وقامت المخابرات الفرنسية سنة ١٩٠١م بإخبار إستانبول بالاستعدادات التى يجهزها الإيطاليون من أجل احتلال ليبيا.

ووجد السلطان طريقة تتسم بذكاء خارق للحيلولة دون حدوث هذا الاحتلال، وقام بمساعدة الفرنسيين حيث أرسل وفدا إلى إمبراطور الحبشة" منة لك الثانى" الذى كان يزعم أنه حفيد سيدنا سليمان عليه السلام، ولهذا فإنه سوف يناضل ضد الإيطاليين الذين يرى أنهم قد استعمروا الصومال وإريتريا ، ويبذلون جهدهم من أجل ضم الحبشة إلى مستعمراتهم.

وجاء وفد عثمانى مكون من ثلاثة أشخاص لزيارة أديس بابا ، واستقبلهم الإمبراطور الحبشى حيث قدموا له رسالة خاصة من السلطان جاء فى مطلعها" أنت حفيد سيدنا سليمان صلى الله عليه وسلم" وجعلوا يطرونه ويكيلون له المدح والثناء ويشعرونه بالعظمة والسلطان.

ومنحوه الهدايا والأعطيات والأوسمة والنياشين، ثم قاموا بإبلاغ الإمبراطور الحبشى رسالة سرية من السلطان فحواها أن الإيطاليين يعدون العدة فى إريتريا للانقضاض على الحبشة، كما أخبروه بأن السلطان مستعد كذلك لتقديم مساعدة مالية نقدية إلى الإمبراطور من أجل شراء السلاح، وبناء على هذه الرسالة وما تحمله من وعد السلطان أسرع الحبشيون من فورهم بجمع الجند وأعدوا العدة وما استطاعوا من قوة ليثأروا من الإيطاليين.

وتحيرت الحكومة الإيطالية لهذا الموقف وأصابها الذهول والاندهاش، ثم أسرعت بسحب جنودها التى تحتل طرابلس وبنغازى ، وأرسلتهم إلى حدود الحبشة للدفاع عن مستعمراتها فى إريتريا والصومال.

وفى واقع الأمر فإن الحرب الثانية لم تقع بين الحبشيين والإيطاليين (كانت أول حرب وقعت بينهما قبل سبع سنين) ، ولكن إيطاليا عدلت عن احتلالها لطرابلس الغرب

وبنغازى الذى كانت قد فكرت فيه سنة ١٩٠٢م. وهكذا استطاع عبد الحميد التخلص من العذابات والكروب والنكبات بفضل سياسته الحكيمة وحنكته ووقدة ذكائه واستفادته من تنافس الدول فى الزمان والمكان المناسبين.(٨٥)

ورغم أن عبد الحميد فعل كل التدابير اللازمة من أجل حماية ليبيا من خطر الاحتلال الإيطالى ، فإنه لم يكن ينظر إلى هذه الولاية بنظرة حماس وحمية، إذ لم يكن موقعها ذا أهمية استراتيجية أو اقتصادية، ناهيك عن أنها قاصية عن بلادنا، وإن رغبة السلطان فى الاستحواذ عليها كان من أجل المحافظة على صفة الخلافة حتى لا يشعر العرب بالضيق بأن الخليفة يتخلى عن هذه الولاية ، ولكن السلطان سوف يفقد هذه الولاية عاجلا أم آجلا، ولنقرأ فى هذا المقام طرفا مما سطره السلطان فى مذكراته حيث يقول: " إننا سوف ندفع ثمنا باهظا حتى نكون أصحاب منطقة بنغازى، وقد أنفقنا فى هذه المنطقة أموالا طائلة، وإن حيل ودسائس الإيطاليين الماكرة لا سبيل إلى نفادها. فلقد عرضوا علينا دفع أربعة وخمسين مليون ليرة شريطة أن نتخلى عن هذه المنطقة مع مواردها الاقتصادية حتى تئول إلى حمايتهم.

وإذا أمعنا النظر فى هذا العرض وجدنا فيه فائدة عظيمة لأن التخلى عن هذه المنطقة سوف يريحنا من المتاعب التى تضايقنا، ولسوف نجد وفرة مالية فى أيدينا نستعين بها على حل مشاكلنا الأخرى، وإذا كان هناك شخص واحد يستطيع حماية حقوقنا فى بنغازى فسيكون المهدى السنوسى، فهو فى وضع يمكنه من جمع ثلاثين ألف شخص عند الضرورة، وليس فى نيته التخلى عن بنغازى للإيطاليين دون كفاح أو مقاومة.

وإذا ما اضطلع السنوسى بتحريض مئات الألوف من السنوسيين على التمرد والعصيان فإنه سوف يجر الإيطاليين إلى حرب دامية، ولسوف يكون هذا أفضل كثيرا

---

(٨٥) جوك كنت ، مجلة التاريخ ، جـ ١-٣، ١٩٧٠ م، ص ٢١ .

من الحرب التى يشنها المهدى فى السودان. ولسوف يوفر السنوسيون السلاح اللازم والمدافع الضرورية".(٨٦)

قام عبد الحميد بإدخال لواء عسكرى عربى ليلحق بالوحدة العسكرية المكلفة بحراسة القصر ، وذلك فى إطار خطة للارتباط واستمالتهم وإظهار العطف والحدب عليهم. انتشرت منظمة البوليس السرى والاستخبارات التى أعدها عبد الحميد مثل بيت العنكبوت فى كل حدب وصوب من أرجاء الولايات العربية. واضطلع هذان الجهازان بعمل كل شىء فى سبيل فرض الحكم العثمانى على هذه الولايات.

" واختار السلطان طائفة من الرجال الذين يتزيون فى لباس الشيوخ والمعلمين كى يطوفوا بأرجاء العالم العربى ، وكانت المهام الملقاة على عواتقهم تتمثل فى بذل جهدهم من أجل إفساد العلاقة بين الحكام المحليين ورؤساء القبائل المهاجرة الكبيرة.

ونجح هؤلاء فى إثارة الخلاف والنزاع بين القبائل والتحريض على القتال والأخذ بالثأر، كما اضطلعت طائفة من الجواسيس والعملاء بالتحريض على إفساد محاولات الصلح فى هذه الولايات، كما أنهم تفننوا فى خلق الأعذار من أجل إنزال العقوبة بهؤلاء العصاة الذين لا يسمعون الكلام وبالشيوخ الذين يريدون الأخذ بالثأر لأى سبب من الأسباب، وغضوا الطرف عن الصفح أو العفو عن عقوبات الإعدام، كما أمروا بقتل طائفة من الناس على وجه الخصوص.

أما إذا تعلق الأمر بإنزال عقوبة الإعدام بشخص ما، وأثار هذا رد فعل سيئا أو كان القتل سينفذ فى رجل ذائع الصيت ذى نفوذ (كالشريف حسين)، فإن عبد الحميد يعمد حينئذ إلى استخدام هذا الشخص فى إستانبول حيث يتم العفو عنه، ويوضع تحت أعين الجواسيس، ويكفل السلطان له حياة شريفة مريحة.(٨٧)

---

(٨٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص١٤١-١٤٢ .

(٨٧) Parter Masfield ، تركيا والعالم العربى بعد الدولة العثمانية ، ترجمة ، صاندرا لكم ، إستانبول ١٩٧٥م، ص ٣٢-٣٣ .

عبد الحميد الثانى والأرناءوط

عندما وضعت البوسنة والهرسك تحت إدارة الحكم النمساوى بمقتضى معاهدة برلين، خرج مسلمو البوسنة بدورهم من تبعيتهم للدولة العثمانية، بينما ظل الرعايا الترك والأرناءوط الموجودون فى البلقان تابعين للدولة العثمانية، وكانوا يقطنون فى أقصى الحدود الغربية للدولة.

وسرعان ما بدأت التيارات الانفصالية تنتشر بين ظهرانى الأرناءوط بسبب الخسارة الفادحة التى جاءت بها معاهدة برلين. ولم يكن للأرناءوط طاقة أن يستسيغوا انتزاع جزء من أرضهم كى يضم إلى مملكة الجبل الأسود بموجب هذه الاتفاقية آنفة الذكر، وهموا من فورهم مسرعين من أجل استرداد هذه الأرض ، تحثهم رغبة عارمة وشوق جارف بغية تأسيس دولة مستقلة.

لم يكن عبد الحميد يريد التنازل عن شبر واحد من أرض الأرناءوط عند تطبيق معاهدة برلين.

وفى ١٠ يونيو سنة ١٨٧٨م عقد الأرناءوط جلسة فى مدينة" بريزران" ورفضوا الاعتراف بمعاهدة آيا ستفنوس معلنين عدم رضاهم عما اغتصب من أرضهم.

وبدأ عبد الحميد الثانى بدوره هذا الاجتماع وأوصى بانضمام القضاة والمدرسين وأهل الفتوى الموجودين فى مدن" ياقوا وبريزران ودربة" الموجودة فى مقاطعة الأرناءوط بالاتحاد مع الأمراء العسكريين.(٨٨)

ولما انضمت مقاطعات" جوسينة وبالويا وأولجون" إلى مملكة الجبل الأسود بموجب معاهدة برلين ثارت ثائرة الأرناءوط وزادت حدة غضبهم، بيد أن الأرناءوط المسلمين لم يقدموا على دخول جوسينة لقتال الجبل الأسود.

---

(٨٨) دائرة المعرف الإسلامية ، جـ١، مادة الأرناءوط ، نشر وزارة التعليم القومى ، ص ٥٨٨ .

ولكنهم قاموا بتحريض عبد الحميد للتدخل في المسألة ، وأسرع من فوره فأرسل فرمانا سلطانيا إلى حسين باشا والى منطقة" إيشكوردة" طلب إليه فيه بأن ينهض على الفور للتصدى بكل قوة لضم أراضى الأرناءوط إلى الجبل الأسود.(٨٩)

وما لبثت الضغوط أن تمخضت عن إجبار الدول الكبرى على التخلى عن مدينتى جوسينة بالويا وتركهما للأرناءوط، بيد أنهم تشبثوا بمدينة" أولجون" وأصروا على التمسك بها واضطلعوا جميعا بإرسال أسطول بحرى مشترك إلى ميناء أولجون ليكون بمثابة قوة ضاغطة على الأرناءوط.

وبعد واقعة أولجون سالفة الذكر ، بدأت جهود الاستقلال تزداد بقوة بين ثنايا الأرناءوط(٩٠) خفية.

وفى فبراير سنة ١٨٨١م عقد اجتماع سرى فى مدينة" دبرة" انضم إليه وفد مكون من مائة وثلاثين عضواً طالبوا فى هذا الاجتماع بإقامة دولة الأرناءوط المستقلة لتكون مدينة" أوهرى" عاصمة لها. ولما علم عبد الحميد بأمر هذا الاجتماع السرى وما تمخض عنه أسرع على الفور بإرسال قوة عسكرية قوامها عشرون ألف جندى بقيادة درويش باشا، وتفرقت القوة فى أنحاء الأرناءوط وتم القبض على زعماء الفتنة ونفيهم إلى رودس والأناضول.(٩١)

وأرسل عبد الحميد إعلانا عاما ذاع بين الأرناءوط لتهدئة روعهم وبث الطمأنينة فى نفوسهم ورد فيه ما يأتى:" إننى أعتبر نفسى أباكم جميعا لكونى خليفة المسلمين، ولو جفوت النوم وهجرت كل رغباتى حتى لا تنغص راحتكم أو يعكر صفو حياتكم.

---

(٨٩) صدرت بواسطة المكتب التاريخى الأجنبى ،الجزء الخاص بالمسألة الشرقية جـ٢ رقم ١٧، ص ٣٩ .

(٩٠) بروفيسور محمد على عينى ، القومية ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٣م، ص ٢٧٩ .

(٩١) رمضان مرملاقو ، ألبانيا والألبان ، لندن ١٩٧٥م، ص ٢٥ .

كيف أستطيع أن أنأى بنفسى بعيدا عن حمايتى الأبوية لأولئك الأرناءوط الذين هم بمثابة جزء لا يتجزأ عن أولادى وفلذة كبدى؟ لا تلقوا السمع إلى الأفكار الفاسدة التى تروجها شرذمة خونة الوطن من ذوى الآراء الخادعة المضللة.

وإياكم اتباع سبيل الآراء الدنيئة الوضيعة التى تصيب قوما شرفاء ونبلاء بالطغم والاعتساف، فهؤلاء الخونة يضرون أنفسهم وأمتهم، وإياكم الاقتراب من هؤلاء المفسدين الظالمين، وتمثلوا فى هذا قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة هود ﴿ولا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾(٩٢).

وأكرر على مسامعكم أن مروجى هذه الأفكار هم حفنة قليلة لا تزيد على خمسة عشر شخصا، وأن الزمرة العريضة من الأرناءوط مسرورون من نظام الحكم الحالى، فأمسكوا بتلابيب هؤلاء الخونة الفاسدين وأحكموا قبضتكم على رقابهم وسلموهم إلى الحكومة، وأنبهكم وآمركم أن تستمسكوا بخليفتكم ولا تنفصموا عنه أبداً.(٩٣)

تضمن هذا البلاغ الموجه إلى الأرناءوط آيات بينات من الذكر الحكيم تحض على الاتحاد والتضامن وجمع الشمل ، ويشتمل على إيضاحات تتعلق بالأراضى المفقودة التى كانت سببا فى جعل الأرناءوط يجأرون بالشكوى والألم، فالدولة العثمانية لا تريد التفريط فى شبر واحد من أرض الأرناءوط لأعدائها، وكيف أن هذه الأراضى المفقودة كانت نتيجة الضغوط التى مارستها الدول الكبرى.

تعقب السلطان بكل شدة أثر الحركات الانفصالية للأرناءوط ، وجعلها واهية غير ذات تأثير، كما أبدى فى سبيل ذلك خطب ود الشعب الأرناءوطى، كما حرص السلطان كذلك على المحافظة على بنية الدولة العثمانية والاحتفاظ بها كاملة غير منقوصة.

ويرجع هذا إلى أن الأرناءوط هم من العناصر الأصلية القوية المتينة للحكم العثمانى فى منطقة البلقان، فالكتائب الأرناءوطية توفر الحماية للمدن الواقعة تحت

---

(٩٢) سورة هود ، آية رقم ١١٣ .

(٩٣) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ٢٠٥ .

أيدى الترك فى منطقة مقدونيا ، ومنهم وحدات أخرى تحافظ على حياة الأرمن الموجودين فى قصر السلطان عبد الحميد.

والأرناءوط مقاتلون أشداء ذوو بأس، ضالعون فى حرب العصابات ضد هجمات الصرب والبلغار واليونانيين، وأطلق عليهم الغرب لقب" أكراد الروملى" بسبب المهام الجسيمة التى اضطلعوا بها(٩٤).

كان عبد الحميد يعلم علم اليقين القدرات الخاصة والأعراف والتقاليد والعادات التى يتمتع بها الأرناءوط، ودفعه هذا إلى أن يطبق عليهم حالة خاصة من التعامل واضعًا نصب عينيه ضرورة كسب مودتهم واستمالتهم إلى صفه، وتتمثل هذه المعاملة فى ترك الأرناءوط أحرارًا طلقاء فى إدارة شئونهم مقابل انتمائهم للسلطان وارتباطهم به(٩٥).

وفى هذا الصدد يكتب عبد الحميد فى مذكراته قائلا:" سوف نستعمل الفطنة والذكاء وحسن المعاملة والأريحية مع هؤلاء الأرناءوط بدلا من الشدة والعنف والجفوة والغلظة، لا جرم أنه يتوجب علينا الاهتمام بالحريات التى يريدها هؤلاء الأرناءوط الذين كانوا ذوى كبرياء وأنفة منذ عصور طويلة، وإذا فكرنا مليا فى التأثير الذى يمارسه الجيران على هؤلاء الأرناؤوط لاستعدائهم ضدنا ، لتوجب علينا أن نلتمس لهم العذر فيما يفعلون(٩٦)" .

" أراد عبد الحميد أن يترك الأرناءوط فى حال سبيلهم. ولا يتدخل فى نزاعاتهم الداخلية المتوارثة عندهم منذ نعومة أظافرهم.(٩٧)

---

(٩٤) لورد مقاطعة :Peuth ، القومية والحرب فى الشرق الأوسط. أكسفورد ١٩١٥ م ، ص ، ٣٢ .

(٩٥) Driault ، ص ٣٦١ .

(٩٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٣ .

(٩٧) هانز روهاد ، نضال المسألة الشرقية من أجل آسيا ، ترجمة ثابت ، المطبعة العسكرية ، إستانبول ١٩٣٢ م، ص٤٥ .

فلم تؤخذ منهم الجزية، وهم نو مضاء وعزيمة، تواقون إلى القتال أشداء فى الجندية والأمور العسكرية، ويقول السلطان فى سياق حديثه عن الأرناءوط والأكراد: "إننى مؤيد لنوع الحكم الذى يتناسب مع مستوى كل أمة".(٩٨)

وقد منح الأرناءوط بعد كل هذه الأحداث ضربا من الحكم الذاتى، بيد أنه لم يصطبغ بصبغة رسيمة.

وبعد أن علم عبد الحميد عن مواجهة الحركات الانفصالية للأرناءوط فى ظل الإدارة التى أسسها وما يتفق مع ظروف منطقتهم، فإن حركات الثورة والتمرد لم تستطع أن تمضى قدما إبان فترة حكم عبد الحميد، وذلك باستثناء أحداث البوليس الكبرى، ولا جرم أن شمس باشا أحد الأوفياء المقربين إلى السلطان قد سحق الأحداث واستأصل شأفتهم.(٩٩)

كان الحكم الذاتى الذى منحه عبد الحميد للأرناءوط يصادف هوى فى نفسه ويشعره بالغبطة وفرط السرور، فهذا الضرب من الحكم قد حال دون تطور حدة الأفكار المضرة المشينة التى تدور بين ثنايا هذه الجماعة، وظل الأرناءوط أحرارا فى ممارسة شئونهم الداخلية دون الانفصام عن السياسة التى وضعها عبد الحميد، كما أصبحوا ذوى حكم ذاتى طيب نحو نظام حكم السلطان(١٠٠).

رأينا إلى أى حد ارتبط الأرناءوط بعبد الحميد واعتصموا به، وأطلقوا عليه لقب الولى العالم الزاهد(١٠١).

توسل عبد الحميد بكل وسيلة واستعان بكل حيلة ممكنة حتى يحظى بثقة الأرناءوط ويكسب ودهم ويستميلهم ويتزلف إليهم، وأغدق على وجهائهم وأشرافهم

---

(٩٨) ضيا شاكر ، السنوات الأخيرة لعبد الحميد ، ٢٣١ .

(٩٩) سليمان كولجة ، الأرناءوط فى التاريخ العثمانى ، أزمير ، ١٩٤٤م، ص ٢٨٩ .

(١٠٠) قسطنطين أحمد جك نزى ، القسم الألبانى فى الوقت الحاضر ، نيويورك ١٩١٩م، ص ٦٥ .

(١٠١) Driault ، ص ٣٦٥ .

الأنعم والعطايا وضروب العطف والإحسان، حتى إنه عين الأرناءوطى فريد باشا فى منصب الصدر الأعظم.(١٠٢)

استمرت الأعراف والعادات السيئة المشينة سائدة بين ظهرانى الأرناءوط سنين عددا، مما مهد السبيل إلى وقوع الثأرات(١٠٣) التى ضربت كثيراً من البيوت وأحالتها إلى أوكار مظلمة، وشكل عبد الحميد بضع لجان لدفع الديات لأهل المقتولين وعوائلهم من خزينته الخاصة، واستطاع بذلك تحقيق الوئام والسلام بين الأرناءوط.(١٠٤)

كان الشعور بالثقة الذى أحس به عبد الحميد من الأرناءوط سببا فى اصطفائه لزمرة كبيرة منهم للاضطلاع بمهمة الحراسة وتوفير الأمن فى القصر السلطانى. وظهرت بين هذه الفئة ثلة من الأرناءوط ممن تبوءوا الصدارة والمناصب الرفيعة بسبب ما يتمتعون به من عدد كثير وسطوة نفوذ.

وثق عبد الحميد بالأرناءوط وعول عليهم كثيراً، وكان يرى ضرورة توثيق عرى الصداقة معهم، وكانت هذه الثقة بمثابة الأساس الركين للسياسة التى اعتمد عليها السلطان، أما الأرناءوط فى منطقة الروملى فكانوا الحصن المنيع لسياسة عبد الحميد.(١٠٥)

وكلما كان الأرناءوط على إخلاصهم ووفائهم للدولة العثمانية ، فإنهم فى رأى عبد الحميد بمثابة عنصر توفير الأمن لعرشه وسلطنته، ناهيك عن أنه سوف يأمن جانب نصارى البلقان الذين يتعذر عليهم إشهار السلاح فى وجهه، لا جرم أن الأرناءوط كانوا يحمون ظهر الإمبراطورية العثمانية فى منطقة البلقان.

---

(١٠٢) قسطنطين جك نزى ، ص ٦٤ .

(١٠٣) جمع ثأر وتعرف فى التركية باسم ican dava lari (المترجم).

(١٠٤) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١ ، انظر مادة عبد الحميد الثانى ، طبعة وزارة التعليم القومى، ص ٥٩ .

(١٠٥) تحسين باشا ، ص ٢٥ .

الألويـة الحامدية

كـان العـرب والأكـراد لا يؤدون التـجنيـد العسكرى فى الدولة العـثـمـانيـة بموجب القـانون لأنهم من المسلمـين، وكـانوا يتـفـاخـرون ببنيتـهم الاجـتمـاعيـة وخصـائصـهم الجغرافية التى يتمتعون بها.

أما الأكراد فكانوا يعيشـون فى شرق الأناضـول حياة القبائل الرحل المهاجرة فى الأمـاكن الجبلية، ولم يتدرجوا فى أنماط الحياة الخـاصة التى تتسم بالولاء والإخـلاص للدولة العـثـمـانيـة. ولم تكن لـهم قـدرات وكـفـاءات عـسكرية بسـبب جـهـلهم بنظم الدولة وأعرافها وتقاليدها.

وعقب مـعـاهدة برلين لاحت فى الأفق ظروف سـيـاسـيـة واقـتـصـادية واجـتمـاعـيـة أوجبت على العرب والأكـراد جـمـيـعـا الانخـراط فـى سلك الجيش، وحـدث هذا بطبيـعـة الحال نتيجة لسياسة الوحدة الإسلامية التى انتـهـجـها عبد الحـميد الذى وقر فى ذهنه إنشاء دولة عثمانية مسلمة فى إطار هذه السياسة سالفة الذكر.

ولزام على كل أمـة الاشتراك فى كل شـئـون الدولة، وأستطيع القول بأن الدولة ليست دولتى ، وحـرى بكل شـخص أن يشـعـر بأنه صـاحب هذه الدولة التى يجب عليـه حمـايتـها والذود عن حيـاضـهـا، وخليق بكل مـواطن الاضـطـلاع بممـارسـة الجـندية حـتى لا يتـسنى لى أن أتفوه قائلاً: هذا هو وطنى.

وشـرع السلطان فى إطـار هذه الثـقـافـة وذاك الشـعـور فى تجنيد العرب والأكراد، فأسس الميلشيات المحلية الخاصة فى ليبيا، والألوية الحامدية فى شرق الأناضول. وبعد مـعـاهدة برلين صـرف السلطان كل اهتمـامـه إلى شـرق الأنـاضـول الذى يمـثـل مع غـرب الأناضول الولاية الأم أو حاضرة الدولة العثمانية.

وهب أن الإمبـراطورية تمزقت أوصـالها ، فإن الأناضـول بقسـميـه سيكون الوطن الأم، وهو آخر تراب يمكن الاستحواذ عليه.

أصبحت روسيا بعد معاهدة برلين أكبر قوة تهدد جناحي الوطن الأم المتمثلين في منطقة المضايق وشرق الأناضول، إذ كانت تريد التسلل إلى الإسكندرونة والبصرة عبر شرق الأناضول، وتمكنت بعد ذلك من شن هجوم على هذه المنطقة مما فرض على تركيا اتخاذ التدابير اللازمة، ثم ما لبثت المسألة الأرمنية أن ظهرت بعد حين ، حيث كانت بمثابة تهديد خطير يحيق بمنطقة شرق الأناضول.

أما إنجلترا فشرعت في تحريض الأرمن ابتغاء تأسيس دولة أرمنية تكون سدا منيعا في شرق الأناضول يمكنها من غلق الطريق الجنوبي لروسيا.

ولما لاح في الأفق أن ثمة خطرين يحيطان بشرق الأناضول، شرع السلطان عبد الحميد على الفور في التفكير مليا في اتخاذ تدابير أمنية جديدة لحماية هذه المنطقة التي يوجد فيها أكراد يمثلون القوة الكامنة فيها، بيد أنهم كانوا يفتقدون التنظيم العسكري الدقيق، وبات واجبا عليهم الانخراط في نظام عسكري لحماية الوطن ورعاياه.

بدأ السلطان في عام ١٨٨٩م يسمع قرع أقدام الإرهاب الأرمني يدق على شرق الأناضول، فهمّ بالتحرك على عجل، ودعا رؤساء ما بين ستين إلى ثمانين عشيرة كردية إلى قصر يلديز، وفزع منهم عند استقباله لهم في قاعة الاستقبال، فمظهرهم يتسم بالأبهة والعظمة ، ولباسهم متباين الألوان.

وهاهو ذا M.degece يفصل القول فيما جرى على لسان السلطان" لقد تحدثت مع هؤلاء الأجلاف الغلاظ ودعوتهم إلى تأسيس ألوية فرسان منظمة منسقة، ولسوف تقدم الدولة لهم التجهيزات والعتاد والزي الرسمي، وسيكونون وحدهم أصحاب الحقوق المتعلقة بالجيش العثماني وذوي الشأن العظيم، وسيقوم كل واحد من هذه الألوية بزيارة إستانبول بشكل منتظم حتى يحظى بالشرف والتكريم لحمايته لهذه المدينة ودفاعه عنها.

لقد قوبلت بالهتاف والتصفيق حتى إن أصداء هذا الهتاف رجّت الزجاج وحركت فصوص وحلقات الثريات" ثم صاحوا قائلين:

(أطال الله عمرك يا سلطاننا ألف عام)

وما لبث أحد زعماء هؤلاء الأكراد أن رفع عقيرته بالصياح قائلاً: (إن أصدقاء السلطان أصدقائى، وأعداءه أعدائى، وسرعان ما غشيته نوبة انفعال وسورة حميا).(١٠٦)

خلع عبد الحميد لقب" الألوية الحامدية" الذى اشتقه من اسمه إظهاراً لثقته بهذه العشائر الكردية التى سوف تؤسس هذه الألوية.(١٠٧)

ويدون عبد الحميد فى هذا الصدد طرفا من مذكراته يحث فيها زكى باشا قائد الجيش الرابع فى الأناضول على المساعدة فى إنشاء هذه الألوية قائلا:" إذا ما نسيت الحرب مع روسيا ، فإن هذه الألوية الكردية المدربة المنظمة سوف يتسنى لها تقديم خدمات عظيمة لنا، ولسوف يكون هذا مفيداً من أجل تعويدهم على الطاعة وعدم العصيان.

أما اللقب الذى خلعته على زعماء هؤلاء الأكراد فسوف يجعلهم يتباهون عجبا وفخرا بمراكزهم القيادية الجديدة، وسيبذلون قصارى جهدهم للانضواء تحت إمرة النظام ولن يتخلفوا عنه، وسوف تكمل هذه الألوية فترات التدريب على هذه الشاكلة، وسرعان ما تكون بعد ذلك جيشا ذا قيمة عظمى".(١٠٨)

كان عبد الحميد يأمل فى فوائد أخرى من هذه الألوية الحامدية المكلفة بحماية شرق الأناضول من خطر الاعتداءات الروسية الأرمنية، وتتمثل هذه الفوائد المرجوة فى تعضيد وتقوية السلطة المركزية الحاكمة اللازمة لتنفيذ سياسة الوحدة الإسلامية ، وإقامة توازن سياسى واجتماعى جديد يمكن أن يقوى شوكة الدولة العثمانية فى شرق الأناضول.(١٠٩)

---

(١٠٦) جريس ، ص ٢٠٣ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ص٢٠٤ .

(١٠٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٥٩ .

(١٠٩) قودمان ، ص ٣٠ .

وكان عبد الحميد يرمى إلى انضواء هذه العشائر القبلية تحت نظام عسكرى قوى الشكيمة شديد البأس، كما عمل عبد الحميد كذلك على استقرار هذه العشائر وتوطيدها وتمدنها للنزاعات بينها، وبذل جهده فى سبيل تعمير هذه المنطقة وتطويرها.(١١٠)

كان تأسيس هذه الألوية الحامدية بمثابة عقبة كأداء حالت دون قيام كل من روسيا وإنجلترا والأرمن بتحريض الأكراد وحثهم على الثورة والعصيان.

ولهذا السبب تلاشى تمرد الأكراد وعصيانهم حيث كانوا مصدراً خارجيا يهدد الدولة العثمانية ويرمى إلى تقويض أركانها، ويقول تحسين باشا: " إن مظاهر التمرد والعصيان القليلة التى رأيناها لم تكن ناجمة عن الشعور بالتعسف والجور، بل اضطلعت بها زمرة ممن يبتغون الحصول على منافع ومصالح سامية رفيعة ، ويأكلون لقمة غير مشروعة".(١١١)

بدأت الألوية الحامدية فى التأسيس وفق تنظيم قانونى صدر سنة ١٨٩١م ، ويقضى بألا يجوز لكل عشيرة تقل عن أربع جماعات وتزيد على ست أن تكون وحدة عسكرية، لأنها حينئذ لا قبل لها بتأسيس لواء عسكرى، ولن تستطيع كذلك الاتحاد مع العشائر الأخرى من أجل التدريب والتعليم، وسوف يكون قادة هذه الألوية ضباطا مرسلين من إستانبول.

أمعن عبد الحميد فى الرفق والتلطف بالعشائر المؤسسة للألوية الحامدية، وأنعم السلطان عليهم بالهدايا والسلاح والأوسمة والنياشين.

وكانت زيارة هذه العشائر للسلطان فى إستانبول وسيلة يتوسل بها للفوز بالامتيازات والمدح والإطراء. ولهذا السبب كان تأسيس لواء عسكرى قد بات دون ريب

---

(١١٠) نجاتى جول تبة ، الألوية الحامدية ، مجلة التاريخ التركى المزودة بالوثائق ، عدد ٧ يوليو سنة ١٩٧٦م، ص ٤٧ .

(١١١) قوادمان ، ص ٣٨ ، ٣٥٠ .

بابا من أبواب التنافس، وارتفع عدد الألوية إلى ستة وخمسين لواء فى عام ١٨٩٥م، وارتبطت ارتباطًا عسكريًا بالجيش التركى الرابع المرابط فى أرضروم، وإذا ما تحقق النظام والنجاح التام المنتظر من هذه العشائر ، فإن مركز العشيرة حينئذ يكون قد تم ارتباطه بالسلطة الحاكمة.

اضطلع عبد الحميد بعد فراغه من إقامة هذه الألوية العسكرية بتأسيس ما يسمى" مدارس العشيرة" فى إستانبول، وذلك فى إطار سياسة الوحدة الإسلامية التى اتبع سبيلها.

كان تحريض الدول الكبرى من أعداء الدولة العثمانية لكل من العرب والترك ظاهرًا للعيان، ولهذا رأى عبد الحميد أن ثمة فائدة عظيمة ترجى من وراء افتتاح مثل هذا الضرب من المدارس لتربية وتنشئة أطفال العشائر وزعمائها على موائد الثقافة العثمانية كى يرتبطوا ارتباطا وثيق العرى بالسلطنة ، حتى يكثر عدد هذه العشائر وتقبض على أزمّة الأمور فى منطقة الأناضول.

ويستطيع عبد الحميد بهذه الطريقة الحيلولة دون حدوث الأخطار التى تهدد كيان الدولة العثمانية(١١٢)، وهكذا ارتبطت العشائر أكثر وأكثر بالسلطة المركزية الحاكمة.

وفى ٨ يوليو سنة ١٨٩٢م صدر قانون تنظيم وإدارة هذه المدارس المزمع إنشاؤها، وتستمر فيها الدراسة حتى خمس سنوات، وهى مدارس داخلية يقبل فيها أطفال العشائر الذين تتراوح أعمارهم بين اثنتى عشرة إلى ست عشرة سنة، كما يقبل أيضا أطفال الأكراد والعرب والأرناءوط فى هذه المدراس التى تهتم اهتاما بالغا بتعليم اللغة التركية، بيد أن هذه المدارس لم تحقق الفائدة المرجوة منها على الوجه الأمثل ، وتم إغلاقها سنة ١٩٠٧م.(١١٣)

---

(١١٢) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(١١٣) المصدر السابق ، ص١٠٦– ١١٩

بات الجدل مستمرا محتدما حول العلاقة بين الألوية الحامدية والمسألة الأرمنية، وظهرت مزاعم تروج شائعات فحواها أن الغرض الأساسي من تشكيل هذه الألوية يتمثل فى منع الإرهاب الأرمني والحيلولة دون انتشاره وبسط نفوذه، وقد بينا أنه السبب الوحيد من وراء تأسيس هذه الألوية، ولهذا فإن ارتباط تأسيسها بالمسألة الأرمنية ما هو إلا خطأ صريح.

ويرى الجنرال" مايفسكي "Mayvesky، وهذا هو أحد شهود العيان على كل الأحداث التى وقعت فى شرق الأناضول أن السبب الجوهرى فى تأسيس الألوية العسكرية هو رغبة السلطان فى استمالة شعب هذه المنطقة وجذبهم إلى الحياة المدنية، كما أنه يذكّر كذلك بأنهم تابعون لهذا الحاكم خاضعون لإمرته، وهذا يعنى دون ريب أن تأسيسها هو أساس متين للسلطة المركزية الحاكمة، ويردف هذا الجنرال قائلا:" إن الألوية قد شكلت لتقوم بسلب القرى الأرمنية ونهبها، وهذا يعنى أنها باتت وسيلة دعاية للمنظمات الإرهابية الأرمنية والترويج لها فى وضوح وجلاء".[(١١٤)]

ويستطرد مايفسكي قائلا: "إن أول هجوم إبان الأحداث الإرهابية فى هذه المنطقة لم يحدث من هذه الألوية فى وقت من الأوقات، كما أن هذه الألوية تضطر للدفاع عن نفسها فى مواجهة الاعتداءات التى يشنها الأرمن ضد المسلمين".[(١١٥)]

ولهذا السبب فإن أعظم فائدة من وراء تأسيس هذه الألوية أنها كانت عقبة كأداء فى سبيل تأسيس دولة أرمنية مستقلة.[(١١٦)]

عقد السلطان عزمه على القيام بإصلاحات فى منطقة الأناضول، كما أنه حال دون موت وال نصراني كان بصدد أن يعين فى هذه المنطقة، فماذا عسى أن يكون

---

(١١٤) مايفسكي ، ص ١٣١، ١٣٢ .

(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(١١٦) د. إبراهيم أدهم جورسل ، حقيقة الحركة الكردية ، أنقرة ، ١٩٧٧م، ص ٨٧ .

الموقف فى هذه المنطقة لو عين فيها وال نصراني؟ لا جرم أن شرق الأناضول والروملى الشرقية سيهويان فى الهاوية التى تردت فيها جزيرة كريت، ولسوف يمارس الأكراد على هذه المنطقة ضغطًا شديدًا، وستؤسس حينئذ دولة أرمنية من الأرمن الخلص، ولولا تأسيس الألوية الحامدية لما استطاع الأكراد العزل من السلاح المفتقدون للنظام الدفاع عن أنفسهم فى سهولة ويسر ضد الجماعات الإرهابية الأرمنية المسلحة المدربة.

هكذا رأينا كيف أن السلطان عبد الحميد الثانى قد بالغ فى تحقيق سياسة الوحدة الإسلامية فى شرق الأناضول وحافظ على بنية الدولة وأرواح الشعب المسلم. وقد تجلت الفائدة العظمى من وراء تأسيس هذه الألوية الحامدية إبان نشوب الحرب العالمية الأولى، واستمرت آثارها الإيجابية فى أيام حرب الاستقلال التى خضناها. هكذا أعيد نبض الروح والحياة إلى الأناضول وتحقق لها الديمقراطية والاستقرار.

عبد الحميد الثانى والترك

أسس الترك الدولة العثمانية، وكانوا العنصر الأصلى لهذه الامبراطورية، وقد امتنعت الدولة العثمانية عن اختلاق عنصر الامتيازات والفوارق العرقية والدينية حتى تتمكن من الاستحواذ على كل الملل والمذاهب تحت سقف هذه الإمبراطورية التى دخل فى تكوينها كثير من ذوى اللغات والأعراق والديانات المتباينة.

ولهذا السبب لم تسم باسم الترك الذين اضطلعوا بتأسيسها، بل سميت باسم مؤسسها الأول عثمان بك، وأصبح يطلق عليها الدولة العثمانية أو الدولة العلية.

ولم تكن الدولة هى تركيا فحسب، بل كانت كل الممالك السلطانية، وباتت المواطنة العثمانية هى الحاضنة لكل شخص فى إطار هذه الدولة ، ولما حدثت تغييرات سياسية متمخضة عن معاهدة برلين ظهر فى الأفق ما يعرف باسم"المواطنة العثمانية المسلمة" ، وعندما بدأ العرب والأرناءوط ينفصمون عن الدولة العثمانية ، بدأ استخدام مصطلح "الترك" يبرهن على نفسه فى كل مجال.

ويمكننا ترتيب هذه المتغيرات على النحو التالى: فى الفترة ما بين عامى ١٢٩٩-١٨٨٧م سيطر على لغتنا اصطلاح يعرف بالمواطنة العثمانية، وإبان أعوام ١٨٨٧-١٩٠٨م بات السائد فى لغتنا اصطلاح" مواطنة الدولة العثمانية المسلمة"، أما بين عامى ١٩٠٨-١٩١٦م فقد جرى على ألسنتنا اصطلاح التيار العثمانى الإسلامى (وأصبح اصطلاح" العثمانى" أكثر قوة ونفوذا عقب انفصال العرب عن الدولة العثمانية) .

وفى أعقاب عام ١٩٢٠م حتى الوقت الراهن بات اصطلاح تتريك الأناضول أو الدولة القومية هو السائد على ألسنتنا.

أرسى عبد الحميد أسس الدولة القومية الحديثة بمفهومها السائد فى عصرنا الحاضر ، وذلك عن طريق تطبيقه لسياسة الوحدة الإسلامية، حيث بدأت العناصر التركية والعربية والأرناءوطية والكردية والجركسية والمسلمة يتحدون مؤتلفين فى كتلة واحدة ، يضطلعون بإنشاء دولة عثمانية متعاضدة متساندة.

وكانت بمثابة المنبع الأصلى للدولة التركية، وبذل عبد الحميد قصارى جهده كى يوحد جميع المسلمين الذين يعيشون تحت حكمه باعتباره رمزًا وقاسمًا مشتركًا للمسلمين أجمعين، وسلطانا وخليفة ممثلاً للدولة العثمانية، وسرعان ما أصبحت الجماعات المسلمة متآزرة مكونة لأول مرة بنيان أمة بالمفهوم العصرى الحديث.

ولم يكن هذا تحركا مصطنعا فحسب، بل كان هو السبيل الوحيد الذى يتوجب الاستمساك به بحسب ما تقتضيه ظروف العصر من أحداث[١١٧].

كان الترك ذوى مكانة متميزة مستثناة بإزاء الأمم الإسلامية الأخرى، وذلك فى إطار سياسة الوحدة الإسلامية التى انتهجها السلطان عبد الحميد.

---

(١١٧) قارباط ، الوحدة الإسلامية ، ص ٣٣ .

" ولأجل حماية هذا السلطان والذود عنه ، اضطلعت فرقة خاصة مكونة من العرب والأرناءوط والأكراد وأهل البوسنة للانخراط فى الوحدة العسكرية الخاصة بحماية قصر يلدز، وكانت هذه الفرقة الخاصة تعمل جنبا إلى جنب الفرقة التركية، وكانت تسمى باسم" sogutlualay " أى المكسوة بشجر الصفصاف، وكان السلطان على ثقة بالغة بصداقة هذه الفرقة لإخلاصها وصفاء قلبها".(١١٨)

خلع السلطان لقب الشجرة المكسوة بالصفصاف على الفرقة التركية لشعوره بالإعجاب بالفرقة العسكرية المسماة "قابى بويو" الأوغوزية التى أسست الدولة العثمانية. وهذا يذكر السلطان بالعناصر الأصلية التى اضطلعت بدور مهم فى مجريات الأحداث إبان فترة سلطنته.

هكذا بدأ عبد الحميد يهتم اهتماما بالغا بالعنصر التركى، وهو اهتمام لم نر له نظيرا قط عند السلاطين الآخرين للدولة العثمانية.

وذات مرة استفسر السفير الأمريكى عن أن الترك لم يكونوا من الهنود الأمريكان الحمر.(١١٩)

" كان السلطان عبد الحميد يخشى كثيراً من شيئين اثنين ، هما: الدين والخلل أو الضرر الذى يصيب العنصر التركى الأصيل، فالأتراك المسلمون فى رأيه هم العنصر الجوهرى الأصيل، وكانت هذه هى وجهة نظره فى الأمور السياسية.

ورغم أن نذر الخوف وهواجسه التى لدى عبد الحميد كانت ناجمة عن شخصيته وقلقه من أجل الحفاظ على سلطنته وعرشه، فإن أشد ما كان يخيفه ويقض مضجعه هو الخلل الذى يمكن أن يصيب العنصر التركى الأصيل المتمثل فى الأمة التركية، ناهيك عن تغلغل عناصر أخرى من الخارج فى شئون الحكم من أجل زعزعة العنصر الأصلى وإصابته بالضعف والوهن".(١٢٠)

---

(١١٨) تحسين باشا ، ص ٢٥ .

(١١٩) قارباط ، الوحدة الإسلامية ، ص ٢٨ .

(١٢٠) تحسين باشا ، ص ١٨٤ .

كان عبد الحميد يرى المستقبل بعينه لشدة خوفه على الترك، فقد سحق الإرهاب الأرمني واستأصل شأفته من أجل حماية وحدة الأناضول وتأسيسها، ومقدونيا ضائعة لا محالة.

أما العرب والأرناءوط فكانت علاقتهم بالسلطان واهنة لن تعمر طويلا؛ فالدولة العثمانية سوف تعود إلى سنوات تأسيسها، ولسوف يعتمد ولا ريب على العناصر التركية الأصيلة في منطقة الأناضول، وهذه هي الحسابات الدقيقة التي ضمنها السلطان إبان سنوات سلطنته.

وصرف كل جهده لتقوية شوكة العنصر التركي بصورة لا تلحق الضرر بسياسة الوحدة الإسلامية، وهو في هذا المضمار قد بلغ شأنًا عظيمًا بين السلاطين العثمانيين طرًا. واهتم عبد الحميد كذلك بأتراك آسيا الوسطى، بيد أنه لم يستطع أن يقطع شوطًا طويلاً في هذا المجال حتى لا يسبب ضيقا لروسيا في إطار حرصه على المحافظة على علاقة طيبة بها.

أما في الداخل فقد عين موظفين كبارًا من الترك إلى جانب غيرهم من العناصر المسلمة الأخرى. وعمل على تقوية اللغة التركية ورفع شأنها، كما أنه تغاضى عن الدعوة الطورانية القومية السائدة في إستانبول.

ورغم أن أواصر العلاقة الوطيدة التي كانت تربط السلطان بالبروفسيور "أرمنيوس فامبري" فإن الأخير قد تعذر عليه إجبار السلطان على التحدث بصراحة ووضوح عن الترك. كان السلطان يقول له:" لزام علينا ألا نمسس المسائل القومية، فالمسلمون كلهم إخوة، وإن أي حديث يمس القومية يمكن أن يكون سببًا جوهريًا للقطيعة والتنافر وعدم التفاهم بيننا".(١٢١)

---

(١٢١) أوزجان ، ص ٦٩ .

كان السلطان مسلما صادقا مخلصا، وظل حتى النهاية وفيا أمينا فى انتهاجه لسياسة الوحدة الإسلامية.

الحياة الدينية للسلطان عبد الحميد، وآراؤه وأفكاره حول الإسلام

كانت الحياة الدينية لعبد الحميد وآراؤه وأفكاره المتصلة بالدين الإسلامى موضوع جدل ونقاش مستمر ، إذ بذل المعارضون له جهدهم فى سبيل إظهاره فى صورة الرجل الكافر من أجل الافتئات عليه وتشويه سمعته.

ومن هؤلاء على سبيل المثال عثمان نورى الذى يقول:" إن السلطان لم يؤد قط أى شعيرة من الشعائر الدينية".(١٢٢)

وهذا كلام منقوض من أساسه ولا يثبت عند النقد، فثمة زمرة ممن كانوا يعيشون الحياة اليومية للسلطان وجزموا بأنه كان شديد التدين، ومنهم: أحمد رشيد بك الذى قال فى حق السلطان:" كان متدينا لا يعرف التعصب".(١٢٣)

ومن المتعذر أن يكون عبد الحميد عدوا للإسلام أو يسلك سلوكا غير مسئول ضده وهو يسعى سعيا حثيثا إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، إنه سلطان ذو أيديولوجية إسلامية، ولا ريب أنه اجتهد فى تطبيق السلوك الإسلامى فى حياته، ويكتب عبد الحميد عن هذا فى مذكراته فيقول:" إن إمبراطوريتنا دولة دين وإيمان، ولسوف تظل هكذا ، ولو تحطم المفهوم الدينى فهذا يعنى النهاية المحتومة لإمبراطوريتنا".(١٢٤)

" إن الإسلام هو القوة الوحيدة التى يمكن أن تجعلنا أحياء، فنحن أمة قوية نابضة بالروح والحياة شريطة أن نظل أوفياء مخلصين لديننا العظيم".(١٢٥)

---

(١٢٢) عثمان نورى ، جـ٢، ٤٢٤ .

(١٢٣) رشيد راى ، ص٤٨ .

(١٢٤) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٦٤ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

" فلنضطلع بتطبيق برنامجنا، وعلينا قبل كل شيء أن نسلك السبيل الذى تبينه الشريعة الإسلامية ، ولا سبيل إلى أى سلطان أن يفعل غير هذا ألبتة".(١٢٦)

" لو أردنا الحياة من جديد والعثور على قوتنا القديمة وبلوغ أوج عظمتنا التليدة، فإن الإسلام هو الذى يمنحنا القوة، وليس تقليد الحضارة الأوروبية، فالرجوع إلى الشريعة الإسلامية هو الأساس المتين لقدرتنا وقوتنا".(١٢٧)

كان عبد الحميد ينفذ العبادات التى فرضها الإسلام" فيصلى الأوقات الخمس، يؤم الناس فى الصلاة كثيرا، وكان يقول لعلى رضا باشا: هيا أذن للصلاة حتى نصلى، ولكنه لم يكره أحدا على إقامة الصلاة.(١٢٨)

" كان عبد الحميد مراعيا لأصول الشريعة محافظا على حدودها، يحرص على أداء الصلاة ولا يفوت وقتا منها، واضطر مرة واحدة إلى ترك صلاة الجمعة بسبب اشتداد وطأة المرض عليه إبان فترة حكمه، واعتلت صحته فى شهر رمضان ، لكنه لم يفطر.(١٢٩)

وكان يصلى مع جموع الشعب فى مسجد قصر يلديز، فإذا ما دخل المسجد وظهر فيه صاح الشعب هاتفين: عاش سلطاننا.(١٣٠)

" كان عبد الحميد شديد التدين، لا سيما أنه كان يلف العمامة على رأسه عند سماعه أذان المغرب ، ويسرع إلى موضع الإمامة، وكان يحب إقامة الصلاة حبًا جمًا.(١٣١)

---

(١٢٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١١٦ .

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(١٢٨) سميح ممتاز ، ص ٥٥ .

(١٢٩) على سعيد باشا ، ص ٣٣ .

(١٣٠) Lucy M.J.Carnett ، الحياة التركية فى المدينة والقرية ، نيويورك ١٩٠٥م، ص ١٢٦-١٢٨ .

(١٣١) أرتورك ، ص ١٨ .

لم يشرب عبد الحميد المسكرات، ولم يكن مفرطا فى ممارسة الجماع، ويقول عن هذا لراسم بك محافظ سلانيك:" كان والدى عبد المجيد يشرب الخمر، وضاعت صحته بسبب إفراطه فى الخمر والجماع، ومات فى ريعان شبابه. كما كان إدمان الخمر سببا فى جنون أخى السلطان مراد، وضيع الشاعر المشهور نامق كمال عقل أخى، إذ كانا يجلسان حتى الصباح وهما يعاقران الراقى".

وكان نامق كمال من أحبائى وسمارى، وقلت له غير مرة:" اعلم جيداً يا كمال أنك ستكون السبب المعنوى فى موت أخى، فلا تحرضنه على شرب الخمر إلى هذا الحد"، ورجوت أخى كثيرًا ، ولكنهما لم يصغيا إلى نصحى.(١٣٢)

وتقول عائشة بنت عبد الحميد : "لم يشرب أى مسكر قط، ولم يستحسن الشاربين لها، ومنع دخولها القصر".(١٣٣)

وكانت هذه شهادة شهود العيان، ناهيك عن شهادة القائمين على خدمة السلطان، ومنهم ابنته شادية التى تقول:" كان السلطان يصلى الأوقات الخمس، ويواظب على قراءة القرآن الكريم وصحيح البخارى، شديد التمسك بدينه وربه، كان مسلما عظيما يجتهد فى ألا يطأ مكانًا دون وضوء".(١٣٤)

كان السلطان عبد الحميد دائمًا يدافع عن الإسلام ويذود عن حياضه ويحمى بيضته، يرد على الاتهامات الموجهة إليه فيفندها، وقد راجت فى عصره دعوة باطلة شاعت فى أوروبا وروجتها ثلة من المثقفين والمستنيرين من بلدنا، وهى دعوى تتهم الإسلام بأنه يميل إلى التعصب ويعادى التقدم والتطور الحضارى، وقد انبرى عبد الحميد للرد على هذه الافتراءات الباطلة بقوله: "على حين يريد الأوروبيون تحقيرنا وازدراءنا والحط من قدرنا، فإنهم يستخدمون فى ذلك نغمة واحدة وقالبًا مصبوبًا

---

(١٣٢) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٦٩ .

(١٣٣) شادية عثمان أوغلو ، ص ٢٣ .

(١٣٤) شادية عثمان أوغلو ، ص ٢٣ .

للتعصب المخيف للمسلمين، ويرمون من وراء هذه الدعوة الباطلة ضروباً من الظلم والتعسف المضرج بالدماء الذى طبقناه حرفيا على غيرنا من أصحاب الملل والنحل الأخرى، بيد أن ما يقوله النصارى من وجود ضرب من التعصب عندنا فما هو إلا تعصب لحب الوطن وعشقه كما هو الشأن عندهم، إنه الشعور الذى يحسه هؤلاء من أجل أوطانهم ونحسه نحن كذلك من أجل ديننا، وهو ما يصفه أعداؤنا بالتعصب ، لا جرم أننا نحن المسلمين يمكننا أن نتيه ونفخر عجبا بديننا.

فالمؤمنون يرتبطون بعشق عاطفى بدين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إنه الدين الذى يأمر بالمساواة بين المسلمين، ويحيى الضعفاء، ويرفع من شأن الأريحية وفعل الخيرات ويحترم الشرائع والقوانين، ولا يقبل فى المقابل الأفكار العقائدية والمذهبية التى يعوزها الدليل والبراهان ، ولا العقائد الباطلة. فثمة عشق جليل نشعر به تجاه ديننا الذى هو سبب رفعتنا وعلو شأننا".(١٣٥)

" إن القول بأن ديننا هو عقبة كئود فى سبيل التقدم والتطور هو شىء سخيف مضحك، وهذا يعنى أنه قول يتغاضى عن الحقيقة ويغض الطرف عنها.(١٣٦)

ثم يعود السلطان عبد الحميد ليرد على التيارات الفكرية التى سادت فى عصره مثل حرية العقيدة وحقوق المرأة ، ويكتب فى هذا السياق فيقول:" أما ما يتعلق بمسألة حرية العقيدة فأقول: إن المسلمين يحظون بالتجلة والتقدير فى كل مكان على أرض المعمورة ، وليس ثمة أمة فى الدنيا تحب الضيوف مثلنا، ولقد منحنا حق اللجوء السياسى لكثير من الأشخاص المنفيين من أوطانهم، ألم نخاطر باستقبال البولونيين الذين كانوا يحاربون مع روسيا ضدنا".(١٣٧)

---

(١٣٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٦٢ .

(١٣٦) المصدر السابق ، ١٥٨ .

(١٣٧) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٥٩ .

" إنهم يتهموننا بعدم التسامح، وهذا يدل على جهلهم، لأننا إذا كنا قد اضطررنا إلى قبول الدين الإسلامي داخل أمتنا دون كل الملل والمذاهب الأخرى ، فإننا نأسف اليوم للتقصير في المساواة الذى يتمخض عن الفروق الدينية والمذهبية، ونحن في الوقت الراهن مستمرون في منح مزيد من الامتيازات والحقوق لذوى الأديان الأخرى". (١٣٨)

وإذا تصدينا لمسألة حقوق المرأة وجدنا ما يأتي: لقد وفدت إلينا أفكار مسممة آتية إلينا من أوروبا ، تتعلق بحرية المرأة، وانتشرت هذه الأفكار في الحرم السلطاني.

ولزام علينا ألا نقف على مثل هذه الأفكار مهما كلفنا ذلك من ثمن، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يعترف بحق للنساء في الحياة السياسية، وقد سلك سلوكا منطقيا بإجبارهن على الحياة في جناح النساء أو الحرم كما يسمونه اليوم.

ولما كان الرجل قويا ، فإنه أراد أن ينأى بنفسه عن الإثارات الجنسية للنساء وعن الحركات والأفعال المهيجة، ولكنه لم يستطع بلوغ الغاية على الوجه الأمثل.

وحياة المرأة الطبيعية لا تكون إلا داخل البيت، مربية لأولادها، راعية لزوجها ومعينة له. (١٣٩)

فنَّد عبد الحميد المفهوم الخاطئ في الغرب المتعلق بمسألة تعدد الزوجات الذى شرعه الإسلام، لا سيما أن الرجل في أوروبا قد اعتاد العيش مع أكثر من امرأة، مما تمخض عنه كثرة قضايا الطلاق والعشق المحرم، وفي هذا يقول عبد الحميد: "إن المرأة برمتها عندنا موقوفة على بيتها، وتخص رجلا واحدا فقط، أما المرأة الأوروبية فتتنعم بحرية أكثر كي تشعر بالاعتداد بنفسها، وإذا كان نصف ما يكتب في الصحف الأوروبية صحيحًا، فإنهم يتوجب عليهم الإشفاق على الرجال الأوروبيين والرحمة بهم.

---

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(١٣٩) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

فالإسلام يقبل تعدد الزوجات، بيد أن معظم الرجال فى الحقيقة يفضلون الاستقلال بامرأة واحدة والاكتفاء بها، ويرجع ذلك إلى أن ظروف الحياة شديدة العسر، والزاوج من أخرى سوف يبدد صحة الرجل وماله.

ومن الأشياء شديدة الضرر عندنا أن الطلاق أصبح شيئا عسيرا، ولهذا فإن الرجل يتزوج أحيانا أربع مرات متتاليات، وأعتقد أنه بعد حين من الوقت سوف يتوجب علينا التزوج بامرأة واحدة فقط، وهذا أكثر ملائمة لأمتنا من جميع الوجوه.(١٤٠)

ويرى عبد الحميد أن تحصيل المرأة لشيء من العلم ضرورى حتى تستطيع إدارة شئون البيت على الوجه الأكمل لأن كثيراً من نسائنا يعانين من الجهل والأمية.(١٤١)

وعبد الحميد ضد تحول النساء وخروجهن فى بذاءة متبرجات، حتى إنه منعهن من هذا.(١٤٢)

أراد عبد الحميد الاهتمام بالتعليم الدينى فى المدارس، فالتعليم هو العنصر الوحيد لنهضة الأمة ورقيها، ويجب أن يكون الدين هو أساس هذا التعليم، وحرى بنا الاهتمام بالتعليم الدينى الجيد فى المدارس ، إذ إن بقاء الدولة العثمانية وقوتها مرهون برفعة الإسلام ورقيه، والعكس صحيح، فإنه يصيبنا ضرر عظيم من تربية وتنشئة طائفة من الناس يريدون المحافظة على مصالحهم الشخصية وتأمينها ليس إلا.(١٤٣)

كان عبد الحميد يعارض إساءة استخدام بعض الكلمات الخاطئة المضرة وعدم فهمها حق الفهم، وفى هذا يقول:" كم هى مضرة كلمة الحظ والنصيب وكم من مصائب ونكبات سببتها هذه الكلمة، ولم ترد هذه اللفظة قط فى القرآن الكريم، وبات استخدام

---

(١٤٠) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(١٤١) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٨٧ .

(١٤٢) أر أصلان ، ص ٢٣٣ .

(١٤٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

كلمة "إن شاء الله" المريحة بكثرة من أجل التستر على أعذار الضعف والوهن والكسل والدعة والفتور، وليس من الصواب استخدام كلمة القضاء والقدر بحماقة وغباء".(١٤٤)

بذل عبد الحميد قصارى جهده لمنع كل شيء يخالف الإسلام ، فهو خليفة المسلمين في كل مكان، وعندما عرضت مسرحيات باريس وإنجلترا التي تسخر من الإسلام وتحط من شأنه أسرع رؤساء هاتين الدولتين بمنع هذه المسرحيات.(١٤٥)

وقد عنى السلطان عناية بالغة بنشر نسخ من القرآن الكريم خالية من الأخطاء، وكان يجمع النسخ الخاطئة ويحرقها. وقد افترى عليه أحد معارضيه ويدعى أحمد رفيق، واتهمه بحرق الكتب الدينية التي تشتمل على هنات وأخطاء يسيرة.(١٤٦)

وفرض السلطان رقابة صارمة على طبع نسخ القرآن الكريم، وصرح ببيع نسخ القرآن الكريم المصدق عليها من الجهات الدينية المختصة.(١٤٧)

ولم يزل هذا جاريا في الوقت الراهن، إذ إن نسخ القرآن الكريم المصدق عليها بخاتم رئاسة الشئون الدينية هي التي تشترى وتقرأ بصورة آمنة مطمئنة.

---

(١٤٤) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ص ١٦١ .

(١٤٥) أر آصلان ، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(١٤٦) عثمان نوري ، جـ٣، (جزء أحمد رفيق) ، ص ١١٨٣ .

(١٤٧) أر آصلان ، ص ٢٢٣- ٢٢٤ .

الفصل الحادى عشر

الحرب التركية اليونانية ١٨٩٧ م

كان الصراع مع اليونان من الكوارث التى كابدها السلطان عبد الحميد، وواحدة من سياساته التى كانت فى غير صالح الدولة العثمانية.

كانت اليونان ولاية عثمانية حتى عام ١٨٢٩ - ١٨٣٠، ثم أرادت أن تكون دولة مستقلة، وحظيت بتأييد روسيا القيصرية، ونجم عن هذا التأييد تأسيس جمعية " ENTIKIE torya " اضطلع بها ثلاثة تجار من اليونانيين فى مدينة أوديسا الروسية سنة ١٨١٤ م، ولم يكن هدف هذه الجمعية مقصوراً على إحياء اليونان القديمة فحسب، بل أرادوا تأسيس إمبراطورية بيزنطية عاصمتها إستانبول.(١)

قامت هذه الجمعية بالتمرد والعصيان ضد الدولة العثمانية فى جزيرة " مورة Mora " سنة ١٨٢١ م، وتم سحق هذا التمرد، ولكن الدول الكبرى أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، ولا سيما روسيا التى هزمت الدولة العثمانية ، وتمخض عن هذه الهزيمة منح اليونان الحكم الذاتى لأول مرة بموجب معاهدة برلين الموقعة عام ١٨٢٩م، وأعقب هذا أن باتت اليونان دولة مستقلة سنة ١٨٣٠م بإيعاز من إنجلترا وتدبير كيدها ودسائسها.

أصبحت اليونان لأول مرة مستحوذة على الأراضى الواقعة فى شبه جزيرة مورة وآنيقة، ثم شرعت بعد ذلك توسع رقعة أراضيها على حساب الدولة العثمانية منتهجة فى سبيل ذلك سياسة التوسع والانتشار لتحقيق آمال الزعيم "Magalia ideag" فى

---

(١) أحمد جودت باشا جودت ، جـ٢، إستانبول ١٩٠١م ص١٣٠

إحياء الدولة البيزنطية ، واستفادت فى هذا السبيل من تأييد الدول الكبرى ومن التحالفات الإقليمية ومن أوقات الضعف والوهن التى أصابت تركيا.

انتهزت اليونان الفرصة التى سنحت لها عقب الهزيمة التى منيت بها تركيا فى حربها مع روسيا ١٨٧٧ -١٨٧٨ م، وقامت بتحريض الروم من سكان جزيرة كريت؛ كى يتمردوا ثائرين من أجل ضم هذه الجزيرة إليهم.

ولم يكن أمام الدولة العثمانية سوى أن تدفع فى ٢ فبراير سنة ١٨٧٧م بجيش قوامه اثنا عشر ألف جندى إلى طاساليا "Tesalya" وسالفالر "slavlar" الواقعتين على الحدود بين الدولتين(٢)، وقامت الدول الكبرى بكبح جماح اليونان، ورفضت كذلك ما أقدمت عليه تركيا، وكانت هذه الدول قلقة من الصراع التركى اليونانى الذى سوف يقدم خدمة جليلة للروس فى منطقة البلقان، وإبان لقاءات الصلح وعدت هذه الدول اليونان بأنها ستضع مصالحها ومنافعها نصب عينيها وستكون موضع اهتمامها.

تصحيح الحدود التركية اليونانية

عندما عقد مؤتمر برلين من أجل مساعى الصلح، طلب وزير الخارجية اليونانى "دليانى Deliyani " إعطاء اليونان جزر: طاساليا وكريت وأبير، مذكرا المؤتمر بالوعود التى قطعتها الدول الكبرى على نفسها، وكانت المادة الثالثة والعشرون من المعاهدة سالفة الذكر تنص على التخلى عن مناطق: طاساليا وأبير ونوردة.

وهكذا رسمت الحدود بغلظة وخشونة، ولسوف يأتى الدور بعد ذلك على بحر إيجة ووادى سلابريز وبحر اليونان ووادى قالاميس.

وتم الاتفاق خلال اللقاءات التى تمت بين اليونان والدولة العثمانية على تقديم شكل محدد قاطع للحدود بين الدولتين، وألحقت فقرة أخرى تقضى بحق الدول الكبرى فى التدخل بين الدولتين إذا ما دب الخلاف بينهما.

---

(٢) دانشمند ، جـ ، ص٣٠٧ .

وفى أعقاب المعاهدة دعت اليونان فى فبراير سنة ١٨٧٩ م الدولة العثمانية إلى مناقشة مسألة تصحيح الحدود بينهما.

كان السلطان عبد الحميد يرفض التخلى عن أى أرض لليونان، ورد على اليونانيين قائلاً: إن تركيا ليست مضطرة إلى هذا التصحيح، وأخبرهم بأن التدخل فى مسألة تصحيح الحدود ما هو إلا توصية وصى بها مؤتمر برلين، وبناء عليه طلبت اليونان المساعدة من الدول الكبرى، وعقدت لقاءات تركية يونانية مرتين اثنتين فى كل من مدينتى" بروزة وإستانبول" تحت تأثير ضغوط كل من إنجلترا وفرنسا.

ولما لم تتمخض نتيجة إيجابية عن هذه اللقاءات أرادت إنجلترا وفرنسا فى مارس سنة ١٨٨٠ م أن يتولى هذه القضية لجنة مشكلة من وفود الدول الكبرى، وصدر قرار من هذه اللجنة يقضى بالتخلى عن مقاطعتى" ناردة وأبير"، وجزء من جزيرة طاساليا لليونان، واعترضت اليونان على هذا القرار حتى إنها أعدت عدة الحرب، وأسرعت الدول الكبرى فى ٧ أبريل سنة ١٨٨٠ م بتقديم مذكرة إلى اليونان تطلب إليها قبول القرار سالف الذكر، ولما عجزت اليونان عن الإصرار على طلبات أكثر من هذا سارعت إلى توقيع معاهدة تصحيح الحدود فى ٢ يوليو سنة ١٨٨١ م ، وبمقتضى هذه المعاهدة فقدت الدولة العثمانية ثلاثة وعشرين ألف كيلو متر من أراضيها، فضلاً عن مائتين وتسعين ألف نسمة، ولو أن قرار مؤتمر برلين طبق بحذافيره لبلغت خسائرنا ثمانمائة كيلو متر.

هكذا تم ترسيم الحدود وتصحيحها دون إراقة دم قط، وكان هذا يعنى بالنسبة لليونان فائدة عظمى، وأن المهارة والجدية اللتين أظهرهما الباب العالى من أجل إنقاذ الدولة العثمانية من خسائر أشد فداحة من هذا ، هو شىء ولا ريب جدير بالتقدير والاستحسان.(٣)

---

(٣) عثمان نورى ، جـ٢، ص ٦٦٢ .

مسألة جزيرة كريت

كانت جزيرة كريت منذ تأسيس الدولة اليونانية تأتى فى مقدمة اهتمامات هذه الدولة من أجل ضم هذه الجزيرة إليها، وذلك فى إطار تحقيق حلم دولة الزعيم "Megalo"، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض وقعت أحداث التمرد والعصيان، وكان أشدها عنفًا ذلك التمرد الذى حدث عام ١٨٦٦م، ولكن الدولة العثمانية سحقت هذا التمرد، وكانت الدول الكبرى تريد عقد اجتماع دولى من أجل مسألة جزيرة كريت، ورفض الباب العالى ترك هذه المسألة إلى المؤتمر سالف الذكر، وجاء الصدر الأعظم إلى جزيرة كريت وأخذ يبحث عن سبل لحل هذه القضية.

وسرعان ما لاح فى الأفق وضع جديد لهذه الجزيرة، فقد قضى التنظيم الإدارى للجزيرة بأن يكون والى الجزيرة من الروم ويعاونه شخصان آخران، كما ينبغى أن يكون نصف المحافظين من النصارى، وسوف تستخدم اللغتان التركية والرومية بصفة رسمية.

هذا هو التنظيم الذى قضت به معاهدة برلين، ولأجل هذا أرسل غازى أحمد مختار باشا إلى هذه الجزيرة، ثم دخل التعديل إلى حيز التنفيذ تحت اسم" الوثيقة الرسمية"، ومنحت بمقتضاه الحقوق الجديدة للروم، كما تقضى هذه الاتفاقية كذلك بأن يكون البوليس من السكان المحليين، ويُنْفَق جزء من الضرائب التى تجبى على الجزيرة.

لم يكن الهدف الأساسى لروم كريت واليونانيين يتمثل فى الإصلاحات فحسب، بل كان غرضهم ضم المدن سالفة الذكر، ومهما تكن جودة الإصلاحات فإنها لا تستطيع تأمين شيء آخر سوى ضم هذه المدن.

إن مشكلة الرومان واليونانيين واحتلال تونس ومصر وضم الروملى الشرقية إلى بلغاريا كان قد عجل بالصراعات والنزاعات الموجودة فى جزيرة كريت، وكان نبض كل هذه الأحداث قد جعل جمعية Entiki Eterrya تستمسك بحل المشكلة اليونانية، وتوجه الحكومة والشعب وتمسك بزمام الأمور.

(فهذه الجمعية ما هى إلا حكومة داخل حكومة، إذ هيمنت بقوة على الأمور السياسية لليونان حقبة طويلة من الدهر، وكان بين أعضاء هذه الجمعية المذكورة طائفة كبيرة من أعضاء البرلمان والضباط.

وإن هذه الجمعية كانت بمثابة الروح للحكومة اليونانية، كما دخلت زمرة أخرى من الشباب اليونانى فى إطار هذه الجمعية، وبعد أن اضطلعت هذه الجمعية بنشر وإذاعة بلاغاتها وبياناتها أسرعت جحافل من الفدائيين المسلحين بالتوجه إلى جزيرة كريت).(٤)

بات الرومان بمقتضى اتفاق "حلبة" **Halepa** مدللين بسبب الحقوق والامتيازات التى آلت إليهم واستحوذوا عليها، ثم ما لبثوا أن ركضوا فى إثر امتيازات جديدة من أجل المضى قدمًا فى سبيل الضم والإلحاق، وفى سبيل هذا ظهرت كثير من الفتن والفوضى والاضطراب، وفى إثر ذلك أرسل محمود جلال الدين باشا مرتين اثنتين فى سنة ١٨٨٧ – ١٨٨٨ م لتهدئة الأوضاع فى جزيرة كريت، بيد أنه أخفق فى مهمته.

وفى عام ١٨٨٩ م طالب خمسة روم من أعضاء البرلمان بضم جزيرة كريت إلى اليونان، ودعا أعضاء البرلمان نصارى الشعب إلى التمرد ورفع راية العصيان، وبدأت إراقة الدماء من جديد، واجتمع المسلحون فى المدن، وأرسل المستشار شاكر باشا على عجل إلى الجزيرة لإيجاد حل لهذه المشكلة، وقُلصت الامتيازات الممنوحة للنصارى.(٥)

بدأ الروم فى تأسيس منظمة إرهابية تسمى" إبى تنابى "**Epitnapie**، التى مارست حرب العصابات فى الجبال، وجيشت الدولة العثمانية جيشًا أوقع بهذه العصابات هزيمة ساحقة، وكانت هذه آخر صحيفة للثورة فى اليونان. (وكان اليونانيون والرومان يتفقون فى الفكر الذى ينادى به المفكر اليونانى الكبير **mealoidea**، وتم إرسال المساعدات

---

(٤) سر أحمد برلت ، فى معركة طاساليا Tesalya ، إستانبول ١٣١٥ هـ. ص ٢٦١ .

(٥) تورك جلدى ، جـ٣ ، ص ٤٨ – ٥٥

والفدائيين والجماعات الإرهابية إلى اليونان تحت اسم E.Etarya، وأصبحت الأغلبية من هؤلاء الفدائيين تسيطر على شاطئ مدينة" قيص أو نادة "Kisso Nada "[٦]، وفى النهاية أسرعت الدول الكبرى إلى التدخل فى مسألة كريت، وكانت هذه رغبة اليونان والروم، وفى ٢٤ يونيو سنة ١٨٩٦م قدمت الدول الكبرى مذكرة جزيرة كريت تحت إشراف قناصلها فيها، أعلمتهم برغبتها فى تطبيق اتفاق Halepa وإعلان العفو العام وتعيين وال نصرانى ومنح امتيازات جديدة إلى الروم الموجودين فى هذه الجزيرة، ولما قبل الباب العالى هذه الطلبات فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٩٦م رفض مسلمو الجزيرة تعيين نصرانى على الجزيرة.

ثم أقدم الروم على رفع العلم اليونانى على منطقة Halepa معلنين ضمها إليهم، وأسرعت الحكومة اليونانية بتقديم مساعدة قوية إلى الروم؛ حيث أرسلت مفرزة عسكرية بقيادة الأميرال" فاسوس "Vasos " إلى جزيرة كريت فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٧ م، وفى ١٦ فبراير من نفس العام خرج هذا الأميرال إلى منطقة" هانية Hanya " وأعلن الحرب[٧]، أما الدول الكبرى فلم تفعل شيئًا لمواجهة هذه التطورات، ولكن إمبراطور ألمانيا المؤيد لسياسة عبد الحميد فرض حصارًا على الجزيرة لإجبار اليونان على التخلى عنها، ورفضت إنجلترا هذا الاقتراح إذ كانت تريد الحكم الذاتى للجزيرة، وأيدت فرنسا إنجلترا، أما اليونان فأسرعت بدورها ورفضت الاقتراح الألمانى وأعلنت أن الحل الوحيد هو ضم الجزيرة إلى اليونان.[٨] وسرعان ما تمخضت هذه التطورات عن قيام كل من فرنسا وروسيا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا بفرض حصار بحرى بالسفن الحربية حول الجزيرة، وخرج الجنود اليونانيون من الجزيرة، ورزحت الجزيرة بصفة مؤقتة تحت حكم الدول الكبرى وهيمنتها.

---

(٦) Dniault ، ص ٣٥٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٥- ١٥١ .

الحرب التركية اليونانية

كان تدخل الدول الكبرى لإخراج الجنود اليونانيين من الجزيرة سببا في هياج الرأى العام في أثينا، وباتت الدول الكبرى تخشى وهن عزيمة ملك اليونان، وقررت التقدم نحو حدود" طاساليا " للدخول فى صراع مع تركيا حتى تتمكن من إنقاذ عرش الملك اليوناني والمحافظة على هيبته.(٩)

وكان التوتر موجوداً على هذه الحدود منذ زمن بعيد، لم تكن اليونان مسرورة من الوضع المضطرب على هذه الحدود على الرغم من مكاسب الأراضى التى حققتها، بل كانت تريد كذلك الاستيلاء على "طاساليا" برمتها، بالإضافة إلى منطقتى "إمبينى ويانيه" Empini - yanya.

وقد قرر الأميرال فاسوس Vassos احتلال جزيرة كريت ، وأعلن التأهب للحرب فى اليونان، وعين الأمير فيقولا الابن الثالث للملك قائداً للوحدات العسكرية فى منطقة طاساليا، وحشد جيشًا على الحدود يتراوح عدده من خمسين إلى ستين ألف جندى.(١٠)

بات خطر الحرب ظاهراً بجلاء على الحدود التركية اليونانية، وأسرعت الدول الكبرى بإرسال مذكرة إلى هاتين الدولتين فى ٤ أبريل سنة ١٨٩٧ م، وورد فى هذه المذكرة: "إذ ما أعلنت الحرب ، فلسوف يتحمل الطرف المعتدى تبعة تقويض عملية السلام. حيث إنه لن يسمح بجنى ثمار هذه الحرب مهما كانت نتائجها"(١١). ولم يستمع أحد فى الحكومة اليونانية قط إلى هذا التحذير، وبات الإصرار على الحرب ثابتًا فى عقلها، واستمرت هجمات العصابات اليونانية على الحدود ضد الأتراك.

---

(٩) Dniault ، ص ٣٥٢ .

(١٠) وجيهى ، مصور تاريخ الحرب ، إستانبول ١٣١٥ م ، ص ٧٠-٧١ .

(١١) جلوى ، جـ٣ ، ص ٧٤ .

لم يكن وعبد الحميد يريد الحرب وتجمل بالصبر، ولما قامت مفرزة عسكرية يونانية مكونة من ألفى ضابط بالاعتداء على الحدود، واستولت على مخفر الشرطة العثمانى كان هذا بمثابة طفح للكيل ونفاد للصبر، وبلغ السيل الزُّبى، حينئذ أسرع عبد الحميد فى جمع المجلس، وطلب إليه مناقشة قرار الحرب، واستمر المجلس منعقدا مدة ست وخمسين ساعة متصلة، وقال السلطان إن الحرب شىء صعب عسير، ويتوجب التفكير فيه مليا، وفى أثناء انعقاد المجلس وصلت أخبار عن الاعتداءات الجديدة لليونان، وبات إعلان الحرب أمراً لا مناص منه، وبدأت فى ٥ أبريل سنة ١٨٩٧م(١٢)، ويقول السلطان فى مذكراته إن قرار الحرب كان ذا تأثير عظيم على رضا باشا قائد الجيش(١٣)، وكان الوضع مواتياً آنذاك لإعلان تركيا الحرب على اليونان التى كانت تتعهد إثارة كل الدول الجوار ضدها ، مما جعل الدول الكبرى تهتم بهذه المنطقة وتضعها فى حسبانها.

وهذا خَلَّف بدوره تأثيراً قوياً فى سياسة عبد الحميد ، وكانت إنجلترا وفرنسا على رأس الدول التى تمد اليونان بمساعدة قوية فعالة، ورغم هذا فإنها لم تكن تؤيد ضم جزيرة كريت إلى اليونان.

كانت إنجلترا تأمل فى توطيد نفوذها فى النقاط الاستراتيجية لطريق الهند بعد أن استقر بها المقام فى كل من مالطة وقبرص بالبحر الأبيض المتوسط، ورفضت أن تضع اليونان يدها على جزيرة كريت وتنفذ خططها المزعومة فيها.(ظلت إنجلترا منذ عام ١٨٧٨ حتى عام ١٩١٢ م تعارض الخطط التى تريد توحد جزيرة كريت مع اليونان، إذ كان يراودها الأمل فى الاستحواذ على جزء من أرض الدولة العثمانية فى يوم من الأيام فى جزيرة كريت حتى لو كانت هذه الجزيرة مرتبطة من الناحية الإسمية بالدولة العثمانية(١٤)، أما ألمانيا فاتبعت سبيل سياسة منحازة إلى الدولة العثمانية

(١٢) عثمان نورى ، جـ٣ (مجلد أحمد وفيق) ص ١٩٦- ١٩٧ .

(١٣) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١٩٦- ١٧٩ .

(١٤) Charlesvehly ، مستقبل الأناضول ومسألة البحر المتوسط ، ترجمة يوسف ضيا ، إستانبول ١٣٢٩هـ ، ص١٩ .

حتى تحظى بود عبد الحميد وصداقته، حتى إن الإمبراطور ويليام الثانى أرسل جنرالات ألمانيا إلى منطقة الحدود فى" طاساليا" لمساعدة الأتراك فى أوقات الفشل والإخفاق التى أصابتهم(١٥)، وسوف يكون النصر الذى يحرزه الأتراك بعد ذلك بمثابة إنقاذ لهيبة ألمانيا ، لأن الضباط الألمان اضطلعوا منذ عام ١٨٨٣م بإصلاح وبناء الجيش العثمانى الذى استخدم السلاح الألمانى فى الحرب . أما النمسا فمدت يد العون والمساعدة إلى تركيا؛ رغبة منها فى الحد من امتداد نفوذ اليونان وبسط هيمنتهم فى منطقة البلقان، حتى إن السفير النمساوى "بارون كاسيلى" Baron Cacile طلب إلى السلطان إعلان الحرب على الفور ضد اليونان التى تسعى سعيًا حثيثًا إلى تأسيس تحالف ضد تركيا فى البلقان.(١٦)

أما روسيا فإنها - رغم ميلها العاطفى تجاه اليونان - اتبعت سياسة مراقبة الوضع فى المنطقة، ولم تقدم أية مساعدة للسلطان، ثم تأتى فرنسا التى لم ترض عن سياسة كل من إنجلترا وروسيا.

ولما انعزلت الدول الكبرى على هذا النحو، أمعن السلطان النظر مليًا فى انعزال بلغاريا وصربيا على وجه الخصوص، وأذن بافتتاح ثلاث أبرشيات بلغارية فى مقدونيا حتى يتمكن من عزل البلغار، ثم عزل السلطان الأسقف الرومى الموجود فى مدينة "سكوب" فى إطار سياسة لعزل صربيا عن مكان أسقف صربيا، كما فتحت المدارس الصربية فى ولايتى مناستير وسلانيك(١٧)، وأعلن الصرب والبلغار حيادهم التام نظير الامتيازات التى حصلوا عليها.

لم تكن لدى اليونان رغبة فى إضفاء صيغة الحرب الصليبية على حربها مع تركيا، كما أن السعى إلى إفساد وإغواء بلغاريا وصربيا والجبل الأسود ضد تركيا لم يؤت

---

(١٥) Driault ، ص ٣٥٦ .

(١٦) تورك جلدى ، جـ٣، ص ٧٣ .

(١٧) Driault ص ٣٥٥ .

ثماره، وقد عمدت الدول الكبرى إلى عدم تضييق الخناق على هذه الدول المذكورة كى تشعرها بالطمأنينة وراحة البال.(١٨)

ورغم عزل كل هذه الدول ومنعها من التدخل، فقد كانت هناك أمارات تدلل على الخوف والهلع الذى أصاب السلطان عبد الحميد، والسبب فى هذا أنه كان يزن كل شىء بموازين حساسة، إذ من الممكن أن ينقلب الموقف برمته ضد الدولة العثمانية، ولهذا السبب طلب السلطان إلى القادة العسكريين شن حرب صاعقة تنهى القتال بإحراز نصر مبين فى فترة وجيزة، أحس عبد الحميد بأن نذر الحرب التركية اليونانية بدأت تلوح فى الأفق، وكان قد شرع قبل ذلك فى اتخاذ كل الإجراءات والتدابير اللازمة عند حدود " طاساليا "، كما أن الجيش المحارب كان مدربا تدريبا جيدا، فالمشاة والفرسان وفرق المدفعية كانت جميعها كاملة متقنة على أهبة الاستعداد، وكل ما هو ضرورى لازم بات مهيأ جاهزاً.(١٩)

وعين السلطان مشير أدهم باشا قائداً لهذه الحرب لما يتمتع به من كفاءة قتالية ولثقة السلطان البالغة فيه.

ولما بدأت الحرب فى ٧ أبريل أصبح الاستيلاء على ممر"ميلانة" Milana هو الهدف الأول للجيش التركى، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض سقط القائد العظيم عبد العزيز باشا شهيداً.

وسرعان ما تم الاستيلاء على هذا الممر فى ٢٤ أبريل ، مما أجبر الجيش اليونانى على أن يولى دبره منسحباً جهة" ينى شهر" مصابا بالهلع والفزع.

وتم الاستيلاء كذلك على ميناء "جولوسى" Galos ، ثم منيت القوات اليونانية بهزيمة نكراء فى موقعة" دوميكة ميدان" فى ١٧ مايو سنة ١٨٩٧ م، وأصبح الطريق

---

(١٨) Barlett ، ص ٤٠ .

(١٩) Darlett ، ص ١٨٣ – ١٩٢ .

مفتوحًا أمام الترك لدخول أثينا، أما اليونان التى كانت تريد الاستحواذ على جزيرة كريت فقد باتت تفكر فى أثينا وتنشغل بها، ثم استقالت الحكومة اليونانية.

وأسرع ملك اليونان يطلب النجدة والعون من كل الدول الكبرى، ولاسيما أنه كان يأمل فى الحصول على مساعدة كبيرة من فيقولا الثانى قيصر روسيا، وأرسل القيصر برقية إلى السلطان فى مساء ١٧ مايو سنة ١٨٩٧ م يطلب إليه فيها التعجيل بالانسحاب، واستخدم فى برقيته ألفاظا تفيض رقة وعذوبة مهنئًا الترك بالنصر المبين، وكان السلطان يريد وضع نهاية للحرب لإيمانه العميق بالجنوح إلى السلم ، وأبرق برقية إلى القيصر أعلمه فيها بتوقف الحرب.[٢٠]

معاهدة الصلح ومنح الحكم الذاتى لجزيرة كريت

أثارت هزيمة اليونان هياجًا شديدًا فى أوروبا ، وانقلبت الدول الأوروبية والرأى العام ضد تركيا بروح صليبية معادية، وبدأت دول أوروبا على الفور فى تدبير المؤامرات والدسائس ضد الدولة العثمانية، وأصبحت هذه الدول عائقًا يحول دون تقدم الجيش التركى الذى كان يحكم قبضته على أزمة الأمور فى اليونان فى صورة جلية واضحة، وكانت الصحف الأوروبية المعروفة فى هذه الأيام تثير ضجة كبرى قائلة: إن الأرض التى انتقلت من الهلال إلى الصليب، لا سبيل إلى إعادتها ثانية إلى الهلال، وكانت هذه الصحف تتحدث بصراحة تامة دون أدنى هوادة أو استتار، وجاهرت قائلة إنها لن ترضى أبدًا عن تصحيح الحدود وإعادة ترسيمها.[٢١]

(٢٠) عثمان نورى ، جـ ٣ (جزء أحمد رفيق) ، ص ٩٣٤، Barletty، ص ٥٣ -٥٤ .

(٢١) فاضل نجيب ، لماذا فقدنا الروملى ، مجلة حياة التاريخ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٦٣ .

وقد انضم إلى هذا السيناريو أيضاً اللورد سالزبورى رئيس وزراء إنجلترا، حيث أظهر رد فعل شديداً ضد رغبة السلطان عبد الحميد فى الاحتفاظ بمنطقة " طاساليا الحدودية من أرض اليونان كشرط من شروط الصلح، وقال فى البرلمان الإنجليزى : "إنه لا سبيل إلى إعادة أى شىء إلى الهلال سبق له أن انتقل إلى الصليب".(٢٢)

وهب أن تركيا هى التى هزمت فى هذه الحرب وليست اليونان، فكيف سيكون حال تلك الدول حينئذ، إن قيصر روسيا واللورد سالزبورى كليهما سيصفقان حينئذ لانتصار اليونان بجانب الدول الأوروبية الأخرى، وكانوا سيقولون نعم للأرض التركية التى تفوز بها اليونان.

دخلت كل من صربيا والجبل الأسود وبلغاريا الحرب كى تحظى بنصيب من ميراث الدولة العثمانية، ولربما اتسعت حدود الحرب أكثر من ذلك.

وقد فقدت تركيا أرضها الموجودة فى منطقة البلقان قبيل حرب البلقان سنة ١٩١٢م، وانسحبت إلى حدود" مارج" Merig ، وفى الحق فإن الدول الكبرى قد أعلنت قبيل نشوب الحرب التركية اليونانية أنها لن تسمح بمكاسب الأرض لكلا الطرفين مهما كانت النتيجة التى ستتمخض عنها هذه الحرب.

وقد اتخذ هذا القرار وتم التفكير فيه مليا بعد هزيمة اليونان. ولو أن اليونان هى التى انتصرت فى الحرب لما طبق هذا القرار ولَتَمَّ التغاضى عنه.

وقد جربنا هذا فى حرب البلقان وحدث ما حدث فيها سنة ١٩١٢ م ، حيث اتخذت الدول الكبرى نفس هذا القرار وأعلنت آنذاك أنها لن تسمح لأى شخص كائنا من كان بالحصول على مكاسب مهما كانت نتيجة الحرب.

كما أنها ستحافظ على الوضع الراهن فى هذه المنطقة، وكانت نتيجة الحرب فى هذه المرة لصالح تركيا، بيد أن الدول الكبرى نسيت وعودها سالفة الذكر، هكذا كان

---

(٢٢) محمود مختار باشا ، نظرة إلى الماضى ، إستانبول ، ١٣٤١ هـ، ص ٣٤ .

الوجه القبيح المزيف لأوروبا التى تكيل بمكيالين وتتعامل بوجهين . خرجت تركيا منتصرة فى حربها مع اليونان سنة ١٨٩٧م ، بيد أن ما يثير الاهتمام أنها عوملت على مائدة الصلح وكأنها دولة مغلوبة.

وقد طلب السلطان عبد الحميد شروطا للصلح تتمثل فى دفع عشرة ملايين ليرة على سبيل التعويضات الحربية وإعادة منطقة طاساليا الحدودية إلى الدولة العثمانية وإلغاء الامتيازات التى كان يحصل عليها الرعايا اليونان، ولكن الدول المؤيدة لليونان رفضت هذه الشروط التى عرضها السلطان، ولم تقرر إلا تخفيض تعويضات الحرب إلى أربعة ملايين ليرة، وسحب الجيوش العثمانية من جميع الأراضى اليونانية التى احتلتها، وذلك بمقتضى معاهدة إستانبول المبرمة فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٧م.

كما أن قضية جزيرة كريت قد تمخضت عن نتيجة لصالح اليونان حيث تم منح هذه الجزيرة الحكم الذاتى، وتولى الأمير"يارجى" Yargi (٢٣) ابن ملك اليونان إدارة شئون الحكم فى هذه الجزيرة ، "ونتيجة لهذا فإن جزيرة كريت المهزومة قد انضمت إلى اليونان من الناحية الفعلية".

وبعد فترة وجيزة من الزمن أخرج الجيش العثمانى تحت وطأة الضغط الذى مارسته الدول الكبرى، وبدأ الشعب المسلم فى الجزيرة بالجلاء عن الجزيرة بسرعة وهاجر إلى الأناضول، وتحقق اسم "إنوسيس" Enasis الذى لم تسم به جزيرة كريت من قبل.

كان عبد الحميد يتميز غيظًا من مجريات هذه الأحداث، وكان يعلم أن إنجلترا وراء كل هذه التطورات، فقد كان الأمير"يارجى" Yargi عضوا برلمانيًا بارزًا فى ولاية كريت، كما أن الدول الأخرى تؤيده وتعضده.(٢٤)

---

(٢٣) دانشمند ، جـ ٤ ، ص ٣٤١ .

(٢٤) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ١١١ .

وإنجلترا قد أخذت جزيرة كريت من الدولة العثمانية انتقامًا منها لفشلها فى إقامة دولة أرمينية مستقلة فى شرق الأناضول، ولم يعد فى يد السلطان شىء يستطيع أن يفعله.

وفى واقع الأمر فإن عبد الحميد أبدى استعداده للتضحية بجزيرة كريت منذ أوائل عام ١٨٨٠م، كما كان يريد التعايش فى وئام وسلام مع اليونان بسبب النزاعات الكبيرة التى كانت مع البلغار، وفى أعقاب معاهدة برلين أراد عبد الحميد التنازل عن هذه الجزيرة لليونان فى مقابل المكاسب التى يجنيها فى ميادين أخرى من أجل التوصل إلى حل جذرى يضع حدًا للنزعات والخلافات التركية اليونانية، بيد أن إنجلترا اعترضت على هذا، ويكتب عبد الحميد عن هذه الجزيرة فى مذكراته فيقول : " إن هذه الجزيرة الجميلة سوف تكلفنا كثيرًا من سفك الدماء، ولسوف تنتزع منا فى خاتمة المطاف، إن تطبيق خطتى القديمة ووضعها موضع التنفيذ يعد أكثر ملاءمة لمصالحنا، ولقد فكرت مليًا فى التضحية بهذه الجزيرة والتنازل عنها لليونان؛ حتى يتسنى لنا تأمين تصحيح الحدود الجديدة فى منطقة" طاساليا"، وقد أخفقت فرنسا فى تحقيق هذه الفكرة، واعترضت إنجلترا عليها، بيد أنهما اضطرتا بعد بضع سنوات لتصحيح الحدود ضد مصالحنا".(٢٥)

إهداء الانتصار التركى

كانت المكاسب التى استحوذت عليها الدولة العثمانية من انتصاراتها على اليونان فى هذه الحرب بمثابة انتصار معنوى، زاد من احترام العالم كله لها رغم فقدانها جزيرة كريت، لاسيما أنها زادت كذلك من هيبة السلطان عبد الحميد، حيث بدأ العالم فى كل حدب وصوب يشيد بذكره وحسن إدارته ويشعر نحوه بأحاسيس طيبة جميلة.(٢٦)

---

(٢٥) ضيا قرال ، جـ٨، ص ١٨٨ .

(٢٦) Driault ، ص ٣٥٩ .

وأخذت برقيات التهنئات تتواتر عليه من مسلمي العالم قاطبة، كما هنأته الحكومات المعادية بهذا النصر المبين، وفي تلك الآونة كتب "Vonder Caltzu" رئيس الوفد الألماني الذي عهد إليه إصلاح الجيش العثماني فقال:" كان هذا النصر سبباً في تغيير الفكرة التي شاعت في أوروبا بخصوص الخطط المزعومة بتقسيم الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها، كما انطوى الاصطلاح الأدبي المعروف باسم" الرجل المريض" في طي الغفلة والنسيان".(٢٧)

كان انتصار الترك على اليونان بمثابة زيادة في رد الاعتبار للسلطان في داخل البلاد وفي نفوس الخلائق على حد سواء، وأوهن هذا الانتصار عزيمة المعارضة المناهضة له، ولتقرأ في هذا الصدد طرفا مما اعترف به أحد جماعة تركيا الفتاة الذي يقول: " لقد أصيبت المعارضة المناوئة لعبد الحميد بالضعف والانكسار في أعقاب الحرب اليونانية".

وأيقظ نصر طاساليا Tesalya البهجة والسرور وسورة الحميا في طبقات الشعب من رعايا الدولة العثمانية، كما أعلى من شأن السلطان ورفعته إلى أوج الذرى، وبعد هذه الأحداث بفترة وجيزة كان قدوم إمبراطور ألمانيا إلى إستانبول، وخلع لقب حامي الإسلام على السلطان، وقويت علاقة السلطان بطبقات الشعب المتعصب وتأكدت ثقتهم فيه".(٢٨)

وها هو ذا M. degrece يحكي على لسان السلطان تقويمه لهذا النصر قائلاً : "رغم عدم الحصول على مكاسب من أرض اليونان فإننا أصبحنا أصحاب هذا النصر العظيم، ونحن خليقون بالغرور والكبرياء الذي أصابنا من هذا النصر الذي أزال عنا غشاوة السخرية والتحقير والازدراء، لقد كان الأعداء الذين كانوا يعاملونني حتى عهد قريب وكأنني رجل منبوذ يتسابقون الآن على زيارة حاكم الإمبراطورية العثمانية التي تأبى

---

(٢٧) Vonder Gottz ، قوة الدولة العثمانية وضعفها ، ترجمة ضيا فهمي. القاهرة ص ٨- ٩ .

(٢٨) قوران ، في الدولة العثمانية ، ص ٢١ .

الضم ولا تهاب الموت، ولما أخفقوا فى القضاء عليه واجتثاث جذوره باتوا الآن يطرونه ويتملقونه ويتزلفون إليه".

قدم إمبراطور ألمانيا ويليام الثانى إلى إستانبول فى عام ١٨٩٨ م حيث أشار إلى عظم رد الفعل الدولى لهذا النصر المبين، فلقد ظهر بجلاء تام ما حققه وسيحققه الجيش التركى من نصر عظيم بمساعدة الضباط الألمان والأسلحة الألمانية.

كانت تركيا فى نظر هذا الإمبراطور دولة واهية غير ذات قيمة، بيد أنها أصبحت الآن ينظر إليها على أنها دولة جديرة بالتحالف معها، وعرض الإمبراطور فكرة التحالف على السلطان عبد الحميد، وتلقى منه الرد برقة وتلطف، ولسوف نرى تفصيل هذا فى الأقسام اللاحقة من هذا الكتاب.

يرى عبد الحميد أن ملك إيران مظفر شاه قد قدم إلى إستانبول ليعرض إخلاصه وولاءه للسلطان تحت تأثير هذا النصر.[٢٩]

بدأت الانتصارات التى أحرزها عبد الحميد فى الصراعات التركية اليونانية والإصلاحات والخدمات التى اضطلع بها تؤتى أكلها فى أوائل عام ١٩٠٠م، وكانت كذلك بمثابة زيادة فى الولاء والإخلاص والحب الذى كان محسوساً ملموساً بين أوساط الطبقات الشعبية.

---

(٢٩) جريس ، ص ٢٧٧ .

الفصل الثانى عشر

الإصلاحات والخدمات التى اضطلع بها السلطان عبد الحميد الثانى

كانت الإصلاحات التى اضطلع بها عبد الحميد إحدى خصائص شخصيته التى ثار حولها جدل كبير، وإن عبد الحميد المصلح يأتى فى صدارة السلاطين العثمانيين طراً، ولقد أراد معارضوه وأعداؤه دائماً الغض من هذه الخليقة التى جبل عليها، وقللوا من شأنها، كما أن الدعاية التى روج لها أصحاب جماعة تركيا الفتاة بأنه عدو لدود للتقدم والرقى ما هى إلا دعوى كاذبة خاطئة منقوضة من أساسها، فقد كان عبد الحميد دائماً مناصراً ومؤيداً لحركات التقدم والتطور والازدهار.[(١)]

وقد انبرى بالرد بنفسه على المفتئتين عليه المتهمين إياه بالرجعية فقال:" لو كنت رجعيا أو عدوا لدودا للرقى والتقدم لما وافقت على إنشاء خط سكك حديد الأناضول وإدخاله فى البلاد، وهذا إن دل على شىء فهو آكد دليل وبرهان على إثبات عكس ما يتفوه به الأفاكون الخراصون".[(٢)]

مفهوم عبد الحميد للحضارة وفلسفة التقدم والرقى عنده

كان عبد الحميد قياساً على أسلافه من السلاطين العثمانيين ذا مفهوم متميز عن الحضارة وفلسفة الرقى والتقدم، فتراه فى مجال الإصلاحات قد بذل جهداً فى رسم

---

(١) تحسين باشا ، ص ١٥١ .

(٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٤ .

خطوط واثقة متينة قوية متبعا فى ذلك سبيل الدروس والعبر المستفادة من الماضى، فلم يكن مسرورا من فلسفة إصلاح التنظيمات وتطبيقاته، وإن أصحاب هذه التنظيمات عجزوا عن إرضاء النصارى والمسلمين.(٣)

وعبد الحميد مصلح اجتماعى راديكالى قياسًا على أصحاب التنظيمات.،

وهذا التعبير هو تركيب ممتزج مختلط من أفكار العثمانيين الجدد، ونحن نرى أن كلا الطرفين يدرك جيدا فى قرارة نفسه الإصلاحات التى اضطلع بها عبد الحميد.(٤)

إن مبادئ الإصلاحات التى تتمثل فى التقدم المعنوى والمادى وإصلاح حال الدولة عند عبد الحميد تشبه إلى حد كبير الأسس والمبادئ التى اضطلع الآخرون بتطبيقها؛ فالمبادئ المتصلة بشأن الإصلاحات تتكئ على أسس آسيوية متوازنة معاصرة مستقلة، كما أنها مستندة على أسس الحضارة الأوروبية مستفيدة منها.

كان السلطان يركز على الأساس الآسيوى أثناء اضطلاعه بتنفيذ كل موضوع أو خطة تتصل بمصالح الدولة، ويستمر فى هذا السبيل الذى انتهجه متبعا فى ذلك سياسة الوحدة الإسلامية من ناحية وصفة الخلافة من ناحية أخرى.(٥)

كان الأساس المتين لمساعى السلطان وجهوده يتمثل فى العمل على إعاشة رعيته فى حياة الرفاهية والدعة والطمأنينة والهدوء، ويقول فى هذا السياق:" إن مهمة الحاكم الرحيم أن يكون بمثابة الأبوة المخلصة لرعاياه".(٦)

كما كان يقول للمستشرق أمنيوس فامبرى: " إن جوهر جهودى وأساس مسعاى يرتكز على بذل جهدى فى سبيل السلام والتقدم والتمدن".(٧)

---

(٣) جريس ، ص ٢٦- ٢٧ .

(٤) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ص ٦٣ .

(٥) لوكة ، ص ١٢٧ .

(٦) وودز ، ص ١٢٢ .

(٧) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ١٥ .

ولقد تأسست مظلة هذه الخدمات التى اضطلعت بها فى سبيل التمدن والتقدم على النحو الآتى: "يجب أن تتوفر طائفة من الأشياء حتى يتسنى للأمة والدولة أن تنعما بالوجود والحياة، وتجمل هذه الأشياء فيما يأتى: الدين وقدر قليل من التعصب لحماية هذا الدين والذياد عنه، ثم تأتى بعد ذلك المعارف والقومية والثروة والفن".(٨)

لقد جاء تقدم الأمة ورقيها ورفعة شأنها فى مقدمة القضايا التى تشغل نظام حكم عبد الحميد، ومن ثم فإنه أسرع إلى تنفيذ خططه الأساسية للتقدم فى ميادين الخدمات المدنية والمعارف والصناعة، وفتحت مدارس الخدمة المدنية والحقوق والمالية والشئون البيطرية، ناهيك عن إصلاح الجامعات وإنشاء السكك الحديدية والمصانع، وارتبطت شئون الخدمات المدنية والقضائية بنظم وقوانين جديدة، وحلت محل الحريات التى كانت محظورة.(٩)

سعى السلطان سعياً حثيثا إلى الاستمساك بتلابيب الحضارة العصرية فى كل جهود الإصلاح التى اضطلع بها.

" كما أنه بذل جهوداً أخرى من أجل تقوية وتعضيد الوجود المادى للمجتمع التركى دون المساس بالمؤسسات والأعراف والتقاليد، ثم سعى بعد ذلك إلى سداد جزء من ديون الدولة، وأخذ يبحث عن طريق يمكنه من خلال قدرات الدولة وإمكاناتها من تطويرها وتقدمها دون اللجوء إلى القروض الخارجية.

ولا شك أن المدارس الحرفية والصناعية والمؤسسات الإدارية التى شيدت فى عصره كان لها بالغ الأثر فى إيجاد الحضارة العصرية الحقة للدولة العثمانية.

كانت سياسة الاستقلال إحدى مبادئ الإصلاح الذى اضطلع به عبد الحميد الثانى، وكان المجتمع العثمانى ينتقل إلى هذا التغيير المفاجئ بعد أن كان يدور حوله منذ زمن قديم.

---

(٨) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١٢٧ .

(٩) بيرول إميل ، ميزانجى مراد بك ، حياته وآثاره ، إستانبول ، ص ١٩٧٩م. ص ٩ .

ويدأ يشعر بضغوط الغرب فى مسألة التغيير اعتباراً من القرن التاسع عشر الميلادى.

وقد اطردت هذه الضغوط وزادت حدة وطأتها وبلغت ذروتها إبان عصر عبد الحميد، ولكن الدول الغربية الكبرى قدمت خدمات لتلبية طلبات الإصلاح من أجل تحقيق الآمال التى كانت تصبو إليها.

ورأت أن ضرر هذه الإصلاحات أكبر من نفعها بالنسبة للمجتمع العثمانى، واستوعب عبد الحميد الدروس والعظات من كل هذه الأحداث والمواقف؛ حيث أرادت الدول الكبرى أن تملى علينا برامج إصلاحية لا تحتملها ظروف تركيا، ولهذا جعل عبد الحميد برامج الإصلاح تابعة للحقائق الملموسة والاحتياجات الضرورية للمجتمع.

وكان يقول: "لو تحققت هذه الإصلاحات فى مقدونيا لكانت بمثابة قضاء على الهيمنة العثمانية على هذه المنطقة".(١٠)

إن تأخرنا سيكون سبباً لعطف كل الناس على حالنا، ولقد أرادت الدول الأوروبية أن تضطلع بأشياء من أجل تقدمنا ورقينا عن طريق الحيلة والخداع لأن كثيراً من ضرورات هذا الإصلاح تعود عليها بالنفع والفائدة.(١١)

" إن الطلبات الثورية للدول الكبرى لم تنته قط، فهم لا يعلمون شيئًا قط عما يتصل بتنظيم دولتنا، ورغم هذا فإنهم لم يكفوا عن الاضطلاع بدور الناصح الأمين.

كان السفراء يقيمون فى قصورهم وكأنهم قد أصبحوا حكاماً، بيد أن لهم علاقات وطيدة بطائفة من الموظفين من ذوى المناصب الرفيعة، ثم يصدرون الأحكام من الأماكن العالية الرفيعة التى يجلسون فيها. وإن كل ما يعرفونه عن دولتنا لا يتعدى حدود إستانبول والجزر ليس إلا، ولا يملكون أفكاراً تتصل بالحقيقة الجوهرية لحياتنا، لا يعرفون شيئًا عن ديننا ولا يفهمون لغتنا.

---

(١٠) قارباط ، الوحدة الإسلامية ، ص ٣٥ .

(١١) مذكراتى السياسة ، ص ١٨١ .

ورغم كل هذا فإنهم يبذلون جهدهم من أجل إكراهنا على قبول وصاياهم، وهم لم يتفقوا بينهم فى أى وقت على أى شىء يتصل بالله، فلكل واحد منهم فكر مغاير يخصه وحده فيما يتعلق بالقضايا المتصلة بحاضرنا، وثمة نقطة وحيدة مشتركة فيما بينهم ، ألا وهى: أن أفكارهم العامة تتلخص فى أن كل هذه الثورات وما يضطلعون به من ضغوط واقتراحات سوف توقظ تأثيراً يجعلنا نسقط أمام أمتنا ولا ننهض من كبوتنا، وفى مقابل هذا يكون هناك إعلاء لشأن النصارى ورفعتهم، وأصبح كل ما فعلوه وسيلة يتوسلون بها إلى العظمة والكبرياء، وبات موضوع الثورة التى يدبرونها دسيسة شيطانية.

ولو أنهم تركونا إلى حال سبيلنا لكان أفضل وأحسن، لأن هذه الثورات التى يريدون إكراهنا على قبولها ليست أشياء يمكن تطبيقها بصورة جدية من ناحية المنفعة التى تعود على أمتنا، وأنا على يقين من أننا لو تحركنا بإرادتنا وعزيمتنا القوية ، فإننا سوف نتقدم بخطى متلاحقة دءوبة حتى ولو كانت وئيدة بطيئة". (١٢)

" ولو أننا قبلنا بعض هذه الثورات عندنا لتوجب علينا أن نضع الظروف الحقيقية للوطن نصب أعيننا، وهذا يعنى أن الحاكم لا ينفرد وحده بالتفكير فحسب، بل يتوجب عليه أن يضع فى اعتباره المستوى الحضارى للشعب".

"إن كل شىء قادم من أوروبا ممتزج بالريب والشكوك، كما يجب أن نضع فى الحسبان كذلك ردود فعل طائفة العلماء الذين أحرقوا كثيراً من فرماناتنا، وأنا على يقين من أننا سنبحث عن الأرض الممهدة قبل أن نخطو خطوة واحدة فى تطبيق هذه الثورات، ونكون حينئذ محقين فى التحرك فى هذا السبيل رويداً رويداً". (١٣)

وتفيد الآراء التى أسلفها عبد الحميد أن الدول الأوروبية كانت تريد منا دائماً منح الحرية والاستقلال إلى رعايا الدولة العثمانية، ونحن نملك المفهوم الحقيقى لكل هذه الحريات ولا وجود لها عندهم.

---

(١٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٩٤-٩٥ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

ولما بلغ الموقف إلى هذه الدرجة شرع هؤلاء الأوروبيون يختلطون بالشعب ويدسون أنوفهم فى قضاياه؛ كى يشيعوا على لسانه مفهوم الحرية والاستقلال انطلاقًا من فكرة إظهار الفتن والفساد بين ظهرانى هذا الشعب.

"يوجد لدينا أخف نوع من الضرائب غير الباهظة، أما الزعم الباطل الذى يروجونه قائلين بأننا نسحق الرعايا بالضرائب التى تبهظ كواهلهم، فإنه ادعاء كاذب منقوض من أساسه".(١٤)

يرى السلطان أن مقارنة تركيا بالمستوى الأوروبى ورغبتها فى نقل ما فيها عندنا والإسراع فيه بخطى سريعة ما هو إلا فكر خاطئ، فلقد وصلت أوروبا إلى هذا المستوى التى هى عليه الآن بعد جهود دامت قرونًا طويلة.

"ولسوف يكون التقدم عندنا تدريجيًا ، ولا سبيل لأمتنا أن تفكر بالمقاييس الأوروبية، كان يوجد فى بعض أماكن من أوروبا أناس من البربر الهمجيين الذين يعيشون حياة العصور الوسطى، فكيف يتسنى تطبيق الحياة الأوروبية الحالية على مثل هؤلاء؟" إن من الشطط فى الظلم والتعسف أن نكون أعداء ألداء لكل التجديدات الحديثة الوافدة من الغرب، ولكن العجلة من الشيطان، ويجب ألا يعزب عن أذهاننا أن الهدوء والاعتدال والتروى هى أشياء تتأتى من عند الله".(١٥)

لا جرم أن عبد الحميد لم يكن يريد التعجل فى كل الإصلاحات التى اضطلع بها، بل كان يريد تطبيق المثل الذى يقول: إن العجلة من الشيطان، وهذا يعنى أن يخطو بخطى وئيدة منتظمة منسقة.(١٦)

---

(١٤) مذكرات عبد الحميد ، ص ٩٤-٩٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٨٢.

(١٦) Wittlin ، ص ١٤٩

ويقول " أرمنيوس فامبرى" : " إن السلطان قد أظهر بجلاء تام أن عنصر الاستقلال فى الإصلاحات التى يرمى إليها يتمثل فى تطوير أنفسنا من خلال مصادرنا الأصلية دون الاقتراض من أحد".(١٧)

ولم يعد عبد الحميد يستطيع التحرك دون استقلال تام فى إطار الإصلاحات التى يزمع الاضطلاع بها، وقضت معاهدة برلين أن يؤخر الإصلاحات فى كل من كريت ومقدونيا وشرق الروملى وأرمينيا دون أن يطلق يده فى تقليص هذه الإصلاحات التى كانت موضوعة تحت مراقبة الدول الكبرى.

وكان السلطان عاقداً العزم على تطبيق الإصلاحات الأرمنية، ولكنه لم يكن عازماً على تطبيقها فى كل من كريت ومقدونيا، وكان يرى أن ما يفعل تحت اسم هذه الإصلاحات ما هو إلا إجراءات تخدم مصالح المستعمر ، وتحقق له بسط نفوذه وهيمنته.

كان السلطان يفكر فى التخلى عن هذه الإصلاحات ويشكو دائماً من الامتيازات الأجنبية التى لم يقدر عليها.

" إن المزاعم الباطلة التى تقضى بوصاية الأجانب على شئوننا القانونية هى بالنسبة لنا بمثابة محطم هدام لشرفنا وحيثيتنا، وقد تخلص اليابانيون منذ عام من هذا الداء العضال، إذ كانوا يريدون الاعتراف بهذا الحق للعثمانيين، وفى الحقيقة إنها تجاوزت حدود تعصب وتحزب الدول كلها".(١٨)

" ومما يؤسف له أننا كما لو كنا مكلفين بالخضوع لكل رغبات الدول الكبرى ، وكأننا فاقدون للأهلية والصلاحية".(١٩)

يرى عبد الحميد أن الظروف الجغرافية والاجتماعية قد أقحمتنا دائماً فى أتون الحروب والمنازعات، وكانت بمثابة عوائق حالت دون تقدمنا ورقينا.

---

(١٧) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ٨٧

(١٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٠

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

" ورغم وجود كل مصادر الثراء فى بلدنا ، فقد كنا فقراء محكومًا علينا بأن نبقى فقراء عوزًا".(٢٠)

ويرجع السبب فى هذا إلى أننا كنا وحدنا فى هذه الدنيا المبتلين بالأعداء الذين يستطيعون التحالف والاتفاق ضدنا، بيد أن الهلال ظل وحيداً فى كل زمان.

وإن الذين ينتظرون مصلحة من الدولة العثمانية يبدون وكأنهم أصدقاء ودودون لها، فإذا لم يجدوا ما يأملون ويرجون ، فإنهم سرعان ما ينقلبون عليها أعداء ألداء.(٢١)

" فاللهم أنزل علينا السكينة والسلام، فلا أحسب أحداً فى مسيس الحاجة إليها مثلنا، ونحن نعلم أن حكمنا يعانى كثيراً من أوجه القصور والإهمال، وأن موظفينا يعملون فى كسل وفتور، مما نجم عنه حالة من الغليان لا قبل لأمتنا بتحملها.

كانت الدسائس والحيل الماكرة للدول الكبرى تدفعنا دفعًا قبل أى شىء إلى مزيد من المصائب والنكبات والملمات.

لقد اضطلعت الدول الكبرى بتحريض الأمم التابعة لنا ، وأخذت تحثهم على الثورة والتمرد والعصيان واحدة تلو أخرى، وكانوا يفكرون فى كل عام فى مزيد من الأزمات والشدائد التى تعصف بنا ، مما جعلنا ننفق فى كل عام الملايين الضائعة فى سبيل أشياء مهمة ضرورية. ولكن الدول الكبرى لم تتركنا نضطلع بإنشاء وبناء إمبراطوريتنا ذات النظام الواسع، ولم تدعنا نهنأ بالسكينة والطمأنينة وراحة البال، وتعذر علينا العمل على نهضة شعبنا ورقيه.

" كانت كل هذه الأشياء سببًا مباشراً فى وهن عزيمتنا، فإن كنا عرفنا السلام مدة عشر سنوات على أقل تقدير ، لكنا قد أمسكنا بتلابيب تقدم اليابانيين الذى حظى بالمدح والثناء.

---

(٢٠) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٢١) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ٦٩ .

فهؤلاء اليابانيون ظلوا بمنأى عن براثن أوروبا، وهم فى ذلك محظوظون بالقياس علينا، إذ يعيشون فى أمن وسلام، أما نحن فقد ضربنا خيامنا فى موضع عبور الضباع الأوروبية.(٢٢)

ويرى عبد الحميد أننا اتبعنا فى مواجهة أوروبا سياسة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفلسفة الدول القوية ، وهى سياسة ولا شك مضمحلة مشتتة، ولهذا السبب فإن استقلالنا سوف يتحقق فقط من خلال قوتنا فى الداخل والخارج على حد سواء.

ولنقرأ طرفًا مما سطره عبد الحميد فى هذا الصدد حيث يقول:" إن قانون الطبيعة هو الحاكم المهيمن، وهو صاحب الحق وهو القوى دائمًا، ولأننا الآن ضعفاء ، فإن أوروبا تستطيع أن تظهر الشدة والصلابة دون خوف.

وعندما ننظر إلى الوراء نجد أنفسنا رازحين تحت وطأة المعاهدات والاتفاقيات التى أبرمناها مع الدول الكبرى، كما رأينا الدول الكبرى قد اغتصبت ولاياتنا دون أدنى رعاية لأى حق قانونى رغم المعاهدات التى أبرمناها والعهود والمواثيق التى قطعناها على أنفسنا".(٢٣)

" ولو كنا أقوياء لزالت الامتيازات الأجنبية شيئًا فشيئًا، وتغيرت كذلك اتفاقيات الجمارك، كما أن الامتيازات شديدة الضرر الممنوحة للأجانب سوف تتقلص وتتضاءل بفضل القوة، وتكون حينئذ فى حكم الأمر الشحيح النادر، كما أن هيبة الدولة واعتبارها سيزدادان فى هذا المضمار، ولن يتدخلوا فى شئوننا الداخلية أو الخارجية، وتسير أمور الدولة فى سهولة ويسر، فإذا ما حل نزاع اليوم بين مسلم وأرمنى فى الشارع ، فإن مترجمًا يتدخل فى الأمر لأن هذين المتنازعين هم من رعايا الدولة العثمانية، فأى حق لكم فى التدخل فى هذا الأمر كى تقحموا أنفسكم فيه؟" .

---

(٢٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٩٩ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

ولكنهم يردون علينا قائلين: "إن الحكم لمن غلب[٢٤]"، وإذا ما عرضنا لأفكار السلطان فيما يخص الحضارة الأوروبية وجدناه يقول: "إن لهذه المدنية جوانب ضارة وأخرى نافعة، أما النافعة فتتمثل فى أن هذه الحضارة سوف تستخدم فى تأسيس حضارة شرقية جديدة"، ثم يستطرد عبد الحميد فى حديثه الذى يبثه إلى طبيبه الخاص عاطف حسين قائلاً:" ولسوف تنشأ حضارة الشرق الجديدة وفق الشريعة الإسلامية، ثم نضيف إليها الأشياء الوافدة من الغرب شريطة أن تكون ذات نفع عميم لنا".[٢٥]

ولعبد الحميد طائفة أخرى من الآراء والأفكار فى هذا الموضوع ننقل منها على سبيل المثال لا الحصر قوله:" إننى أقدر دائماً الحضارة الأوروبية حق قدرها، بيد أننى لم أفضل النصرانية على الإسلام فى أى وقت ألبتة، ولم أر جوانبها السامية الرفيعة، كما لا يروقنى كثيراً التقليد العشوائى الأعمى للآخرين.

ويمكن تطبيق هذه المدنية على أنفسنا عن طريق العلم والمهارة، حتى إن الجوانب الحسنة لهذه الحضارة هى التى جاءت بى إلى هذا القصر.

كما أمرت بإقامة حفلات الموسيقى والتمثيل أيام الجمع والآحاد فى قصر يلديز، واستمع بنفسى إلى الموسيقى وأشاهد الفنون الغربية فى قصرى".[٢٦]

" ولسوف نقتبس أفضل الجوانب من الحضارة الأوروبية شريطة مزجها بالثقافة الشرقية، ثم يتم لهذه الحضارة النضج والازدهار والكمال، ولسوف نرى عندنا أجيالا جديدة فى المستقبل القريب".[٢٧]

أرسل عبد الحميد الطلاب إلى الدول الأوروبية ابتغاء الاستفادة من الحضارة الأوروبية، كما أفاد كذلك فائدة ترجمة من الخبراء الأجانب الذين جلبهم من أوروبا فى شتى فروع العلم والمعرفة.

---

(٢٤) مذكرات عبد الحميد ، ٧٨-٧٩ .

(٢٥) ضيا قرال ، جـ٨، ص٢٥٥ .

(٢٦) أرتوك ، ص ١٥٩ .

(٢٧) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسة ، ص ١٠ .

الإصـــلاح المـالى

كان الوضـع المـالى للدولة العثمانية فى حالة بالغة السوء إبان اعتلاء عبد الحميد سرير العرش، وكانت السياسة المالية تعانى مصاعب جمة فى سداد الديون الخارجية، وغرق القصر والدولة كلاهما فى لجة عميقة من التبذير والإسراف، وكان أول ما فعله السلطان تقليص النفقات ومنع الإسراف والبذخ.

وفى أول يوم من جلوســه على العـرش اسـتـدعى السلطان كـلا من دامـاد باشـا ومحمد جلال الدين باشا مستشارى القصر وغالب باشا وزير المالية ، حيث طلب إليهم البـحث عن الوسـائل والسـبل التى تـخفض نفـقـات القـصـر وترشـده، واضطلع بنفسـه باتخاذ أول إجراء حيث منع نقل الطعام إلى منازل موظفى القصر صباحًا ومساء.

وبدأ المسـتـحقـون للطعـام يأكلون فى صـورة جمـاعـية داخل القـصـر، وحـقق هذا الإجراء توفيرًا ماليًا بلغ أربعين ألف ليرة.

كما ألغى الامتـيـازات الخـاصـة الوالدة سلطان ، وقام بتقليص مراسم البرتوكول والتشريفات الرسمية للقصر، وعين" جورج ظريفى" مستشارًا ماليًا له، وهو رجل من الدهاة الأذكياء وصاحب أغنى بنوك منطقة غلطة".[٢٨]

كان السلطان عبد الحميد يقول:" لقد خفضت قدرا من نفقاتى الخاصة حتى أكون مثالاً يحتذى به وزرائى".

فهو لم يرد المساس بالخزانة العامة، وكان يغطى ثلث نفقات قصر يلديز من خلال دخول أملاكه الخاصة، وادخر ثروة قيمتها ثمانية مليون ليرة سنة ١٩٠٢ م من الأعمال الخاصة به، وسخرها لمصاريف الدولة ونفقاتها.[٢٩]

---

(٢٨) عثمان نورى ، جـ١، ص ١٠٢ .

(٢٩) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية. ص ١٠٠ .

تجنب عبد الحميد التبذير والإسراف، وكان فى حرصه على عدم التبذير والاقتصاد يتخذ من حياة عمه عبد العزيز عبرة ومثالاً ، فيقول : " لقد عشت ولمست حياة الإسراف والتبذير لعمي عبد العزيز، ورأيت من كثب العواقب الوخيمة لهذا الإسراف والبذخ. ألم تكن الحياة المسرفة المبذرة بمثابة المؤثر الثانى الذى أفلس إمبراطوريتنا وحطم خزانتنا المالية ؟".(٣٠)

كان عبد الحميد يرضى العيش بأقل قدر من المال قياسًا على كثير من حكام عصره الذى كان يعيش فيه، وهو مدين فى ثروته الطائلة التى جمعها إلى دقته الشديدة فى المحاسبة والإنفاق الحكيم الرشيد الذى بلغ حد الوسطية دون إفراط أو تفريط، ولهذا اتهمه أعداؤه بأنه كون ثروة طائلة من طرق غير مشروعة، وهو اتهام باطل ظالم.

ولما تعذر عليه العثور على مصرفى (صاحب بنك) يثق فيه ويعول عليه ، اضطر إلى وضع مدخراته فى البنوك الأوروبية، بيد أنه سحبها جميعًا إبان الحرب اليونانية.(٣١)

كانت جماعة تركيا الفتاة تتهم السلطان عبد العزيز بالإسراف والتبذير، ثم عادوا وخلعوا عليه لقب البخيل القتور بسبب اعتداله فى الإنفاق، ولكن السلطان لم يشعر بالضيق والعنت من جراء هذه الاتهامات.

" أعلم أنهم يقولون عنى إننى شحيح مغلول اليد، بيد أنى لم أغضب من هذا الاتهام".(٣٢)

وفى أعقاب التدابير والإجراءات التى اتخذها السلطان للحد من الإسراف والجنوح إلى الاقتصاد والتدبير ، بدأ يتعامل مع ديون الدولة العثمانية وكأنها جرح دامٍ يمكن أن يجهز عليها، ولم تكن هذه الديون ذنبًا اقترفه عبد الحميد.

---

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٣١) عبد الحميد ، مذكراتى السياسة ، ص ١٩٧ .

(٣٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص-١٠٠ .

فلقد بدأت الدولة العثمانية الاقتراض لأول مرة إبان حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٥م، وزادت الديون زيادة مطردة لسوء استخدامها فيما خصصت له، وما لبثت أن ارتفعت حتى بلغت مائتين وخمسين ألف ليرة سنة ١٨٨٠ م.

ثم شكلت الدول الموقعة على معاهدة برلين لجنة تمَّ عقدها حيث أصدرت توصية تقضى بتصفية هذه الديون.(٣٣)

واجتمعت هذه اللجنة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١ م ، وأصدرت اتفاقية سميت باتفاقية شهر المحرم الذى وقعت فيه، وتقضى هذه الاتفاقية التى سمتها الدول الغربية "الديون العامة" بأن يعهد إلى هذه اللجنة إدارة شئون الدخول المحصلة من المشروبات الكحولية والسمك والملح والحرير والتبغ وضريبة الدمغة.

وتمخض عن هذا الإجراء تخفيض الديون من مائتين وخمسين مليون ليرة إلى مائة وست ليرات، وحال هذا الإجراء دون تمصير تركيا.(٣٤)

" كان سداد ديون الدولة العثمانية أعظم أمنية تراود أحلام السلطان عبد الحميد، فلقد عمدت الدول الأوروبية لحقب طويلة إلى التدخل فى شئوننا المالية بسبب مسألة الديون.

وشكل السلطان إدارة تسمى" إدارة الديون العمومية" ، وكل إليها البحث عن وسيلة آمنة للدائنين، ونجحت هذه الإدارة فى تخفيض نسبة الديون والحد من زيادتها، وكان هذا بمثابة خدمة جليلة للدولة ، حيث تم إعفاؤها من جزء كبير من ديونها المستحقة عليها للدول الأجنبية.(٣٥)

---

(٣٣) Donald Blasdell ، المراقبة المالية الأوروبية فى الدول العثمانية ، ترجمة أحمد دالجيتش ، إستانبول ١٩٧٩م ، ص٨٢ .

(٣٤) دانشمند ، جـ ٤،ص ٣٢٢ .

(٣٥) تحسين باشا ، ص ٨٥ .

كان عبد الحميد مدركًا وواعيًا لكل هذه القضايا، وكان يقول إن إدارة الديون العمومية هي: " حكومة من أجل الحكومة".(٣٦)

وهكذا حيل بين تركيا وبين تمصيرها، وكان هذا تصميمًا من السلطان، إذ كان من الممكن إلحاق أضرار جسيمة بالدولة إذا تم هذا التمصير.

" وباتت هذه الإدارة سالفة الذكر بمثابة حارس لرءوس الأموال الأوروبية التي تريد استعمار الدولة اقتصاديا، كما عملت كذلك على حماية مصالح أصحاب الديون قبيل تعميم الاتفاق سالف الذكر وخروجه إلى حيز التنفيذ".

كان انفتاح الإمبراطورية العثمانية على أوروبا والعالم قد حقق لها فوائد مهمة كثيرة، وأصبح تحقيق هذه الفوائد ممكنًا عن طريق تدخل إدارة الديون العمومية فحسب.

وشاركت هذه الإدارة في البحث عن قرض من أوروبا إلى الباب العالي بشروط أفضل من السابق، وتطورت بعض أنواع الدخول التي تم جمعها باسم الحكومة.(٣٧)

كان عبد الحميد طوال فترة حكمه يرفض دائمًا المراقبة السياسية الأوروبية التي تمارس على الدولة العثمانية، وبذل جهده في سبيل تطبيق سياسة مستقلة، بيد أن السلطة السياسية قبلت بنظام المراقبة المالية بالقدر الذي يساعد على التقدم(٣٨) والتطور، حتى يتسنى للاقتصاد العثماني الضعيف أن يبلغ درجة الكمال والسلامة التي يتمتع بهما الاقتصاد الأوروبي.

كانت واقعة الديون العمومية قد روعت السلطان عبد الحميد وقضت مضجعه، مما جعل الدين الخارجي بمثابة كابوس جاثم على صدره، فسعى سعيًا حثيثًا إلى

---

(٣٦) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١٢٢ .

(٣٧) Blaisdell ، ص١٤٣ .

(٣٨) ittlin ، ص ١٤٧ .

سداد الديون في موعدها، وقرر عدم الاقتراض إلا عند الضرورة الملحة، وأن تنهض الدولة وتتقدم من خلال مصادرها الخاصة المحصنة، وقد تم إبان حكمه سداد ثلاثة أرباع ديون الدولة العثمانية.(٣٩)

وكانت تعويضات الحرب التي دفعتها الدولة العثمانية إلى روسيا عبئًا ثقيلا قصم ظهر المالية العثمانية؛ إذ بلغ حجم هذه الديون ثلاثين مليون روبيل، ولو دفعت الدولة كل دخولها لتعذر عليها سداد هذا المبلغ.

كما أدخلت روسيا الدولة العثمانية تحت وطأة هذه التعويضات الثقيلة الباهظة حتى توهن من عزيمة الدولة العثمانية ، وتجعلها غير قادرة على النهوض من عثرتها.

أما عبد الحميد فقد أصر على عدم سداد هذه التعويضات التي تم تخفيضها إلى أربعة وثلاثين مليون روبيل تسدد على مائة سنة ، ويبلغ قيمة القسط السنوي ثلاثمائة وخمسين ألف روبيل، وكان هذا واحداً من نجاحات السلطان عبد الحميد الكبرى المكللة بالتوفيق والسداد، ولاسيما أنها كانت سببًا مباشراً في توطيد عرى الصداقة الشخصية التي عقدها مع القيصر الروسي.

عجز عبد الحميد عن الاضطلاع بإصلاح ضريبي منتج مؤثر بسبب الامتيازات الأجنبية، ولكنه جمع الضرائب من كثير من الرعايا المسلمين.

أما النصارى فقد أخذوا يساومون ويتعللون بالعلل الواهية مطالبين بجزء يسير من الضرائب، فقد كانوا يدفعون عشرين ليرة عن كل شخص يتوجب عليه في الأصل دفع خمسين ليرة.

وقد اعترض سفراء الدول الكبرى على رفع السلطان ضريبة الواردات من ٣٪ إلى ١١٪، وقالوا إن هذه الزيادة بمثابة إلغاء للامتيازات التي يتمتعون بها.(٤٠)

---

(٣٩) تحسين باشا ، ص ١٣٩ .

(٤٠) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ص٩٤

وعلى حين كان عبد الحميد يبحث عن مساعدة خارجية تعينه على الإصلاحات المالية للدولة، فإنه كان يأمل فى الحصول على هذه المساعدات جميعًا من ألمانيا معتمداً فى ذلك على أواصر العلاقات الجديدة القوية التى تربطه بها، ووجد من المناسب الاعتماد عليها فى مضمار إصلاح الجيش وتحديثه.

إصلاح الجيش

كان حال الجيش العثمانى قد بلغ حداً كبيراً من السوء، فقد قلبت الحرب التركية الروسية ١٨٧٧- ١٨٧٨م الأمور رأساً على عقب. وشرع السلطان يهتم اهتماماً خاصاً من أجل إصلاح حال الجيش للدفاع عن الوطن والذود عن حياضه.

وبات السلطان فى هذا السبيل يفضل الاستعانة بالضباط الألمان إبان جولته التى طوف بها أرجاء ألمانيا عندما كان وليا للعهد، ثم ما لبث هذا التفضيل يقوى عند السلطان ويشتد بعد هزيمة ألمانيا لفرنسا فى عام ١٨٧٠م، ودفعه هذا إلى استبدال الألمان بالفرنسيين ليحلوا محلهم فى الاضطلاع بمهمة إصلاح الجيش.

وفى شهر مايو سنة ١٨٨٠ م أرسل السلطان عبد الحميد مستشاره العسكرى الفرنسى المقدم" درياس" **Deryssey** إلى السفير الألمانى" فون هيتز فيلد" **Vonhatz-feld** كى يطلب إلى حكومة الإمبراطورية الألمانية الاستعانة بضباط ألمان يوكل إليهم إصلاح الجيش العثمانى وتدريبه(٤١). وسرعان ما لقى طلب السلطان اهتماماً ورعاية من الحكومة الألمانية، حيث وضعته موضع التقدير، ثم ردت الحكومة الألمانية بالإيجاب بعد فترة من التردد لشعورها بالخجل من الحكومتين الروسية والنمساوية، وقد وضع رئيس وزراء ألمانيا" بسمارك" فى حسبانه أمرين اثنين هما:

---

(٤١) Jehuda.l. wallahch ، تحليل المساعدة العسكرية والوفود العسكرية فى تركيا من برلين وألمانيا ، ١٨٣٩-١٩١٩م، ترجمة فاروق جليكر جنكور، معهد الأرشيف العسكرى التاريخى أنقرة ١٩٨٥ . ص٢٤ .

أولاً : أنه يمكن استخدام تركيا التى اضطلع الألمان بتقوية شوكتها ضد روسيا.

ثانيًا : يمكن عن طريق الوفد العسكرى الألمانى أن تكون تركيا بمثابة سوق رائجة لصناعة السلاح الألمانى.(٤٢)

وتقضى الاتفاقية العسكرية المبرمة بين البلدين فى المجال العسكرى بأن يحصل الضباط الألمان المرسل بهم إلى تركيا على تصريح من الجيش الألمانى الذى يمنحهم الرتب العسكرية فى أثناء مكثهم فى تركيا، وتكون رواتبهم كافية، وسوف يرتدون الزى العسكرى التركى.

وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ م قدم إلى تركيا أول أربعة من الضباط الألمان، وطلب السلطان إلى العميد **Ottokaehar** رئيس وفد الإصلاح العسكرى إعداد المذكرة الأولى المتعلقة بإصلاح الجيش.

وبعد ذلك جلب عبد الحميد من ألمانيا مساعدًا عسكريًا يسمى **Komphofneri**، ولقبه بلقب" المساعد الأكرم" وأسكنه معه فى قصر يلديز كى يستفيد منه باعتباره مستشار التطوير العسكرى(٤٣).

ثم طلب السلطان من ألمانيا ضباطًا جددًا كى يصلحوا حال التعليم والتربية العسكرية، وفى شهر يونيو سنة ١٨٨٣ م أرسل البارون: **"Colmer vonder Goltz"** للاضطلاع بهذه المهمة، ولما مات المستشار" كاهلر **Kaehler** فى إستانبول فى نوفمبر سنة ١٨٨٥م ، عين **goltz** فى رئاسة الوفد العسكرى الألمانى المكلف بإصلاح الجيش العثمانى، وظل حاملا هذه المهمة على عاتقه طوال فترة حكم عبد الحميد ، حيث عمل كذلك على زيادة عدد الضباط الألمان.(٤٤)

---

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٠-٤١ .

(٤٤) Wallach ، ص ٤٣ .

وقد احتدم الجدل واشتد النقاش المستمر بسبب النجاح المطرد الذى حققه كل من الضباط الألمان والسلطان عبد الحميد فى مجال الإصلاح العسكرى، بيد أن خوف عبد الحميد من الإقصاء عن العرش جعله لا ينفذ الوصايا الواردة فى تقارير الألمان.(٤٥)

ويرى تحسين باشا أن المستشار العسكرى الألمانى" Komphofner " كان له مظهر يخفى وراءه حقيقة المبشر الدينى.(٤٦)

ويقول قائد الجيش رضا باشا فيما دونه سنة ١٨٢٩م : " كان كل شىء متردياً منهاراً فى حالة بالغة السوء، فالرتب العسكرية لا تمنح للجيش ، والرواتب لا تصرف له باستثناء اللورد العسكرى المكلف بحراسة القصر، كما أن الأبنية العسكرية ناقصة خربة مهدمة ولا وجود لأى نوع من العناية أو الرعاية لمأكل الجندى أو ملبسه أو صحته".(٤٧)

أما على سعيد باشا أحد مساعدى السلطان فكتب قائلاً:" تسبب الاضطراب فى الميزانية العسكرية فى عدم دفع الرواتب للضباط إلا ست أو سبع مرات كل عام، بيد أنهم كانوا يحصلون على بدلات التعيين بصورة منتظمة مما جعلهم يعيشون حياة الفقر والمسكنة فى ظروف معيشية بالغة السوء".(٤٨)

لاسيما أن الضباط كانوا يحيون حياة شقية تعسة بسبب أحوالهم المذرية البائسة، وقد نجم عن هذا تشكيل جبهة مناوئة للسلطان بين هؤلاء الضباط.

ورغم كل هذه السلبيات فقد كانت ثمة بعض الجوانب الإيجابية، ولو كان كل شىء سلبيا لما كسبنا الحرب التركية اليونانية سنة ١٨٨٧ م، يقول عبد الحميد فى أثناء مذكراته:

---

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٤١

(٤٦) تحسين باشا ، ص ٢٢

(٤٧) قائد الجيش رضا باشا ، خلاصة المذكرات ، إستانبول ، ١٣٢٥ هـ ، ص ١٠ - ٢٣.

(٤٨) على سعيد باشا ، ص ٢٤

"لا جرم أن جيشنا قد زود من ألمانيا بالمعدات العسكرية والبنادق والمدافع والذخيرة وغيرها من العتاد العسكرى الحديث بشروط مناسبة وبأسعار شديدة الرخص".(٤٩)

" وكنا منشغلين منذ زمن بعيد بتطبيق الإصلاحات العسكرية، وقد أنشئت الآن قوة عسكرية تستطيع التصدى لأعداء الدولة العلية العثمانية، وأصبحت كل المعدات والآلات الحربية متقنة كاملة، وفعلنا كل هذه الإمكانات التى جمعناها بكثرة فى حقبة قصيرة من الزمن، كما تسنى لنا إعداد الضباط والقادة اللازمين من أجل التدريب الجيد وإعداد القوة العسكرية التى بلغ عددها مليون جندى تحت السلاح".(٥٠)

ويدون على سعيد باشا فى مذكراته طرفًا من هذا الحديث فيقول:" أعتقد أننا أصبحنا فى موضع تقدير الأعداء بما اضطلعت به عبقرية عبد الحميد الثانى من إعداد ملايين البنادق الآلية وآلاف المدافع القاذفة".(٥١)

اعتنى السلطان عناية بالغة بتنشئة وإعداد هيئة ضباط أركان الحرب فى إطار خطته للإصلاحات العسكرية، فهم يمثلون العمود الفقرى للجيش، وحرص على تعليمهم فى المدارس الحربية وغيرها من مؤسسات التعليم العسكرى، وقد اضطلعت هذه الفئة من الضباط التى بدأ إنشاؤها إبان عصر عبد الحميد بتولى القيادة العسكرية إبان الحرب العالمية الأولى، واستطاعت تحقيق النصر فى حرب الاستقلال.

تصدى عبد الحميد بقوة لتخفيض عدد الجيش أو انضمام غير المسلمين إلى الجيش العثمانى، وكان يقول فى هذا السياق : "إن التفكير فى طلب الخدمة العسكرية من غير المسلمين ما هو إلا محض وهم وخيال، والإقدام على مثل هذه الخطوة لا فرق بينه وبين الانتحار ألبتة".(٥٢)

---

(٤٩) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١١٩- ١٢٠

(٥٠) المصدر السابق ، ص ١٢٣

(٥١) على سعيد باشا ، ص ٢٤

(٥٢) على سعيد باشا ، المصدر السابق ، ص ١٠٥

ولو أن جماعة تركيا الفتاة تولت مقاليد الأمور وآلت السلطة إليهم ، لفعلوا خلاف هذا، ولسوف يرون حينئذ فداحة الضرر والهلاك الذى سيحيق بالأمة.

ويقول عن تقليص النفقات العسكرية:" لم ير الباب العالى وسيلة أخرى سوى تخفيض عدد الجند من أجل تحقيق توازن بين الداخل والمنصرف، بيد أن الدراسات التى وضعها العسكريون فى هذا الشأن أثبتت تعذر تنفيذ رغبة الباب العالى، وبناء عليه توجب تحقيق هذا التوازن المالى من مصارف ومصادر أخرى".[٥٣]

عبد الحميد الثانى والأسطول

كان ترك السلطان عبد الحميد الأسطول العثمانى معطلاً من أهم أوجه النقد والاتهام التى ألصقت به، وسبب هذا أن عبد الحميد أصابه هلع شديد خشية استخدام هذا الأسطول فى إقصائه عن العرش كما فعل بعمه عبد العزيز من قبل.[٥٤]

ولهذا جعل الأسطول رهن محبسه فى الخليج بضع سنين، ولم يخرج الأسطول من هذا المحبس قط حتى إعلان الحرب التركية اليونانية، ولما بدأت هذه الحرب أخرج الأسطول بأمر قائده حسن رامى باشا، بيد أنه منعه من الاشتراك فى الحرب أو الإبحار إلى الشاطئ بسفنه المعطلة الفاسدة.[٥٥]

بيد أن حال الأسطول المفجعة البائسة قد مست فى النهاية شغاف فؤاد السلطان وأحزنته حزنًا شديداً، مما حرك عزيمته من أجل إحياء القوات البحرية وبعثها من سباتها العمى، وحرص السلطان على تجديد الأسطول وإصلاحه وإعادة بناء سفنه الخربة فى الترسانات البحرية الداخلية والخارجية على حد سواء، وأصدر أمراً بإرسال كثير من السفن الحربية لإصلاحها خارج البلاد لأول مرة بعد انقضاء عصر عبد العزيز.

---

(٥٣) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٥٤) Peans ، حياة عبد الحميد ، ص ١٨٦، دانشميد ، جـ٥، ص ٢٨٦، إنيال جـ ٣، ص ١٢٧٢ .

(٥٥) عابدين داور ، الأسطول فى عهد عبد الحميد ، مجلة التاريخ المصور، مايو ١٩٥٢، عدد ٢٩، ص ١٤٨٩ .

وتم تصنيع جزء آخر من السفن في ترسانات داخل البلاد. وكانت الأوامر التي أصدرها عبد الحميد في هذا الصدد تنص على ما يأتي:

إرسال الطراد الحربي المسمى (حامدية) حمولة ٣٨٧ طنًا، وكذلك الطراد المسمى "داراما Droma " إلى إيطاليا، أما الطرادان" بركي ستوفت وبيكي شوكت" اللذان تبلغ حمولة كليهما ٧٧٥ طنًا وتبلغ سرعتهما ٢٣ ميلاً في الساعة فيتم إرسالهما إلى ألمانيا، وهناك أربعة قوارب من طراز "سامون" سوف ترسل إلى فرنسا.

ويرسل إلى إيطاليا مرة أخرى قاربان طوربيد، واحد يسمى عبد المجيد والآخر يسمى يونس ، وحمولة كل واحد منهما ١٤٥ طنًا، ويرسل إلى ألمانيا ثمانية قوارب طوربيد من طراز" فاتح" تبلغ حمولة الواحد منها ٨٥ طنًا، وهناك خمسة قوارب طوربيد من طراز" تير ظفر" أي سهم النصر، وثمانية أخرى من طراز" نعمة"، ولسوف ترسل جميعها إلى فرنسا، ناهيك عن عدد ٢١٣ سفينة مدفعية سوف ترسل كذلك إلى فرنسا، وقد تم إعداد كل هذه السفن الحربية وإصلاحها على الوجه الأمثل ثم عادت ثانية إلى تركيا.[٥٦]

وقد تحققت بالفعل فوائد جمة بانضمام هذه السفن التي كسبها الأسطول لاسيما أن الطراد الحربي" حامدية" أصبح كالأسطورة على ألسنة الناس بسبب المعارك الناجحة عام ١٩١٢م، وقد خلع القائد رءوف بك لقب البطل على هذا الطراد الحربي، كما امتدحه السلطان عبد الحميد وأثنى عليه ثناء حسنًا للخدمات الجليلة التي قدمها للأسطول.

" فلقد بذل جهده في سبيل المحافظة على قوة هذا الأسطول وتعميره وتجديده وتكثير عدد سفنه، وإن كل هذه الأشياء هي مهمة وطنية جليلة يستحق عليها الإطراء والثناء".[٥٧]

---

(٥٦) عابدين داور ، الأسطول في عهد عبد الحميد ، ص ١٤٨٩- ١٤٩٠ .

(٥٧) أحمد رشيد راى ، ص ٣٨ .

أما ما دونه أرمنيوس فامبرى فيفيد بأنه كان من المنطق أن تخفض ميزانية الدفاع للقوات البرية التى تحمى الجيش وشهرته التاريخية.

وبعد كل هذه التطورات الصناعية والفنية التى تمت للأسطول العثمانى ، فإنه لم تتوفر له القوة اللازمة التى تجعله منافسًا للأساطيل الغربية. وقد ظل هذا الأسطول غير كاف لمواجهة القوات البحرية المتمركزة فى البحرين الأسود والأبيض.(٥٨)

وكان هذا سببًا جعل السلطان يأمر بإرسال السفن الحربية للإصلاح فى الدول الأوروبية مما مكنه من تحديث الأسطول العثمانى . كانت خدمات الأشغال العامة واحدة من المجالات المهمة التى أولاها السلطان بالرعاية والاهتمام بعد فراغه من إصلاح المالية والجيش والأسطول، وقد اضطلع فى هذا المضمار بإعطاء دفعة قوية لإنشاء خطوط السكك الحديدية، وكان إنشاء خطى سكك حديد بغداد والحجاز من الرموز الدالة على ذلك.

خط سكك حديد بغداد

كان توصيل طريق بين شرق البحر الأبيض والهند فى سهولة ويسر من الموضوعات التى كانت قيد البحث والدراسة على مدار التاريخ، ولهذا كان افتتاح قناة السويس من الأعمال المهمة فى هذا السبيل، بيد أن افتتاحها لم يتحقق إلا فى عام ١٨٦٩م، ثم كانت الثورة الصناعية المتقدمة فى وسائل المواصلات التى ظهرت فى أوروبا متمثلة فى تكنولوجيا السكك الحديدية، وكانت بمثابة ثورة عظيمة فى مجال النقل والمواصلات مما جعلنا نفكر فى هذه المرة بوضع الخطط اللازمة لإنشاء خط حديدى يربط بين شرق البحر الأبيض وخليج البصرة ، وكان الإنجليز شديدى الاهتمام بإنشاء هذا الخط، وتم وضع كثير من الخطط الإنجليزية مع بداية عام ١٨٤٠ من أجل تنفيذ

---

(٥٨) أوكة ، عبد الحميد والأسطول ، ص ٨٣ .

هذا الخط الحديدى، وتمت المجادلة الجادة فى هذا المضمار أيام حكم" ويليام آندرو" سنة ١٨٥٦، وبحث آندرو إنشاء هذا الخط الذى يبدأ من الإسكندرونة مروراً بوادى الفرات ثم يصل إلى الهند من أجل زيادة إحكام قبضة إنجلترا على الهند وفرض سيطرتها عليها.(٥٩)

ولما فتحت قناة السويس عام ١٨٦٩م ، فرضت إنجلترا مراقبتها عليها مما جعلها تصرف النظر عن مشروع إنشاء هذا الخط الحديدى بسبب هذه القناة التى ستضمن لها وصولها إلى الهند عن طريق البحر بطريقة أكثر راحة وأمناً.

وكانت ألمانيا قد بذلت قصارى جهدها كى تظفر بتنفيذ هذا المشروع، وقد ظلت الإمبراطورية العثمانية مجالاً لنفوذ ألمانيا التى بدأت تصارع الاستعمار على الساحة الدولية.

أرادت ألمانيا إنشاء خط حديدى يبدأ من برلين حتى بغداد (برلين – البسفور – بغداد)، لأن امتداد هذا الخط حتى ميناء البصرة سوف يجعلها تستفيد من مصادر الثروة الاقتصادية فى كل من الأناضول ومزو بوطامية، كما يتيح لها كذلك تهديد إنجلترا فى الهند.

كان إنشاء هذا الخط بمثابة مسألة حيوية بالنسبة للألمان، وسعى الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى من أجل تنفيذ هذا الخط، وزار السلطان عبد الحميد مرتين اثنتين فى عام ١٨٨٨م للحصول على حق امتياز إنشاء هذا الخط.

وسواء كان تأثير هاتين الزيارتين هو السبب فى تسهيل السلطان حق الامتياز للألمان أو هو عداوة الدول الأخرى للسلطان، فإن عبد الحميد قرر من فوره منح هذا الامتياز للألمان؛ رغبة منه فى انتهاج سياسة معتدلة معهم، وبينما كان الإنجليز والفرنسيون يريدون إنشاء خط حديدى يربط شرق البحر الأبيض مروراً بسوريا والعراق ، فإن الألمان كانوا يريدون بدورهم المرور داخل حدود الأناضول.

---

(٥٩) Moris jastraw ، الحرب وسكك حديد بغداد ، فيلادلفيا ، سنة ١٩١٧ م ، ص ٨٨ .

وإذا كان عبد الحميد قد منح لإنجلترا وفرنسا حق امتياز إنشاء الخط الأول (البحر الأبيض- سوريا- العراق)، فإنه كان ينظر بقلق واهتمام إلى ما سوف ينتزع من أراضى الدولة العثمانية الواقعة جنوب هذا الخط، ولهذا السبب فإنه فضل الألمان الذين أرادوا المرور داخل أرض الأناضول.(٦٠)

ويروى فى مذكراته سبب منحه هذا الامتياز إلى ألمانيا فيقول:" إن وجود الألمان فى الأناضول ومزوبو طامية أقل خطراً مقارنة بإنجلترا. فالألمان سوف ينظرون فقط إلى مصالحهم المالية والاقتصادية بسبب الموقع الجغرافى لهاتين المنطقتين، أما الإنجليز فلن يفكروا فى الرجوع أو الانسحاب، كما أنهم يستطيعون كذلك وضع يدهم على خطوط السكك الحديدية عند اللزوم (مثل قناة السويس)، ويمكن أن يكون هذا شيئًا كريهًا قبيحًا مثلهم فى ذلك مثل روسيا".(٦١)

" إن الجهود التى تبذلها إنجلترا لإنشاء هذا الخط الحديدى يعنى أننا نترك لهم وادى دجلة والفرات ليستحوذوا عليه، وحينئذ سيجدون الفرصة سانحة لهم للتقدم من الإسكندرونة حتى خليج إيران، ثم يبسطون أيديهم على أرضنا".(٦٢)

كان عبد الحميد يرى أن خط حديد بغداد سيحقق للدولة العثمانية أعظم فائدة سياسية وعسكرية، وأراد فى هذا السبيل توجيه حملات التقدم والتطور نحو الأراضى الآسيوية للإمبراطورية العثمانية على وجه الخصوص، لأن خلفاءه قد قصروا جهودهم على تطوير منطقة الروملى، وأن إنشاء خط حديدى فى هذه المنطقة سيحدث فيها نهضة صناعية وزراعية.

لقد كانت الولايات الآسيوية ولا سيما تطور الأناضول ونهضته متوائمة تماماً مع سياسة الوحدة الإسلامية والوطن الأم التى انتهجها السلطان عبد الحميد الذى كان

---

(٦٠) إلبراورطة يلى ، النفوذ الألمانى فى الإمبراطورية العثمانية ، إستانبول ١٩٨٣ ، ص ٩٣ .

(٦١) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٩٠ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٤٧-,١٤٨

يتشوق للنهوض بالمستوى القروى الأناضولى عن طريق سكك حديد بغداد، ويقول عبد الحميد فى مذكراته:

"إن المحاصيل الزراعية للفلاح سوف تصاب بالعطب والتلف فى مزارعه، ولن تباع بسعر مجز، كما أن ثرواتنا المعدنية ستظل عاطلة بغير استثمار. " إننا نشكر الله كثيراً على ما حققناه من نجاح وتوفيق، فنحن نتقدم ونخطو إلى الأمام، ولسوف تزداد خطواتنا بسرعة مذهلة، وإن من ينكر هذا فإنه يكون لا محالة أعمى". (٦٣)

وكان عبد الحميد يقول: "إن الخط الحديدى سالف الذكر سيحقق لنا فوائد عسكرية جمة، ولسوف يشد من أزر قوتنا فى الأماكن التى سيخترقها، وسوف نجنى من ورائه فوائد سياسية بعد حين.

" إن إستانبول وحيدر باشا ستكونان بمثابة البداية لطريق الهند، ولو أحكمت النمسا وألمانيا قبضتيهما على مفاتيح الباب العالى من أجل إنشاء هذا الطريق لتسنى لهاتين الدولتين الواقعتين فى وسط آسيا الاستحواذ علينا والتحكم فى مصائرنا". (٦٤)

ولما منح السلطان حق امتياز إنشاء هذا الخط إلى الألمان ، شرع فى بذل جهده كى لا يصيب كياننا المالى أى ضرر أو أذى ، وألا يضر بحقوقنا فى السيادة والاستقلال، لاسيما أنَّ السلطان اعترض بشدة على استقرار المهاجرين الألمان فى منطقة الأناضول، ولتقرأ طرفًا من مذكراته فى هذا الصدد حيث يقول:" سوف نكبح جماح التحرك الألمانى ضدنا ونوقفه فى مكانه المناسب ، ولزام علينا ألا نثق كثيراً بما يقوله السفير الألمانى، لقد علمت من سفيرنا فى برلين أن القيصر الألمانى كان يريد من الألمان تطويق منطقة الأناضول والإحاطة بها من كل جانب. ولقد وجدت من صواب الرأى الاستفادة من الألمان فى مجال تصحيح مسار وضعنا الاقتصادى، بيد أنى لم أكن قط مؤيداً لما تنويه ألمانيا من تأسيس مستعمرات لها على جانبى هذا الخط

---

(٦٣) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٩٠ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

الحديدى، وهذا ما كانت تروج له الصحافة الألمانية وترغب فيه وتحث عليه. فلقد بذل أجدادنا كثيراً من ضروب التضحية والفداء؛ بغية الاستحواذ على هذه الأرض، وإن من يظنون أننا سنترك هذه الأرض للألمان هم ولا ريب قوم منخدعون.

لا جرم أننا أبدينا تسامحًا زائداً عن اللازم نحو هؤلاء الأجانب، فالأناضول ملكنا وتخصنا وحدنا، ولسوف نحافظ على هذا الملاذ الأخير لإخواننا فى الدين الذين استقر بهم المقام فى الأناضول بعد أن سيقوا من أماكن كثيرة". (٦٥)

"ومهما يك من أمر فإن السلطان عبد الحميد لم يكن فى أى وقت من الأوقات ساذجًا غراً، وإن من العبث وسخف القول أن يفكر السلطان العاقل الأريب المتصف بالحذر والحيطة والاستبداد أن يقع فى هذا الفخ الذى نصبه الألمان، فلم يكن من عادته المنح والعطاء دون مقابل، وإذا ما وقع فى مأزق لا يستطيع معه اجتناب المنح أو العطاء، فإنه حينئذ يقدم أشياء تعود عليه فى نهاية المطاف بالنفع له وللإمبراطورية على حد سواء.

ويقول اللورد "جورزون" Gwrzon : " كان عبد الحميد يرى أن أعظم خير وأجود أريحية وأزكى معروف هو ما يكون نافعًا لخير الدولة فى داخلها، وليس ما يكون خارج حدودها.

وكان يعلم أنه بعد منحه حق امتياز إنشاء السكك الحديدية للألمان سوف يدخل الإمبراطورية تحت وطأة صكوك رهن جديدة، ولكن ثمة فوائد جمة من وراء هذه الصكوك، وأن إنشاء هذه الخطوط الحديدية من شأنه أن يعضد ويقوى شوكة السلطة المطلقة على أتراك الشرق الأدنى الموجودين داخل حدود الإمبراطورية العثمانية". (٦٦)

ولما لاحت فى الأفق بوادر منح حق امتياز إنشاء هذه الخطوط، ومن ذا الذى سيحظى بالفوز بها، بدأ التنافس يظهر على أشده بين الدول الكبرى، ويكتب عبد الحميد

---

(٦٥) عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٦٦) Earle، ص ٣٨.

عن هذا فى مذكراته فيقول: " لا جرم أن الفرجة على هذا المنظر كان باعثًا على النشوة والسرور، فقد شرعت المطبوعات الإنجليزية والفرنسية وحتى الروسية فى التفوه بأكاذيب من أجل تشكيكنا فى الألمان وتخويفنا منهم، وبلغ الأمر أن هذه الدول الثلاث كانت ترشو كبار موظفى الدولة العثمانية من أجل الفوز بحق هذا الامتياز".[٦٧]

وكان السلطان يعلم سلفًا شدة وطأة الصعاب والبذاءات التى سوف تنجم عن منح الألمان حق هذا الامتيان، لاسيما أنه كان يريد فى أول الأمر منح هذا الامتياز إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى تنتهج معه سياسة محايدة، كما أن إنجلترا وفرنسا وروسيا ليسوا أعداء ولا منافسين لهذه الدولة.

ولكنهم أعداء منافسون للألمان ، وقد عرض السلطان عبد الحميد اقتراح إنشاء هذه الخطوط على شركة" ستانفورد" الأمريكية ذات الصيت الذائع فى صناعة السكك الحديدية وإنشائها، ولكن هذه الشركة رفضت فى ذلك الحين ما عرضه السلطان عليها، كما عرض إنشاء خط آخر أكثر جاذبية وربحًا مما عرضه عليها من قبل.[٦٨]

واضطر السلطان فى النهاية إلى اختيار ألمانيا من أجل تنفيذ هذا المشروع ، وكان يقول: " سوف نستطيع – إن شاء الله تعالى – تنفيذ هذا المشروع العظيم بمعونة مالية من الألمان وبمساعدة مهندسيهم، وإن الشىء المهم فى هذا الموضوع يتمثل فى عدم وجود تأثير للسياسة الإنجليزية فى الدبلوماسية الألمانية".[٦٩]

لم يكن خوف عبد الحميد من الإنجليز عبثًا، فقد كانوا يخشون مشروع سكك حديد بغداد الذى سوف يحطم قوتهم المعتمدة على البحار ، وهم أشد خشية كذلك من إنشاء إمبراطورية عثمانية برية كبيرة تتقدم عن طريق البر صوب الهند ويمتد نفوذها بين بحر الشمال وخليج البصرة، وتصبح حينئذ مستقلة عن القوات البحرية الألمانية.[٧٠]

---

(٦٧) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٨ .

(٦٨) دافيسون ، ص ١٢٠ .

(٦٩) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٩ .

(٧٠) Evanslewin ، طريق ألمانيا إلى الشرق ، لندن ١٩٦٦ .

كانت سياسة الأسرة الألمانية الحاكمة التى تسمى "Hohenzollern" [٧١] قد أعلنت فى تلك الآونة أن إنجلترا تنوى أن تكون شواطئ وحدود إمبراطوريتها البحرية الكبرى ممتدة على طريق فيينا وبلجراد وإستانبول وبغداد.[٧٢]

لم يتبع الألمان سياسة المكر والدهاء والتخفى والتستر كما فعل الإنجليز، بل كانت سياستهم تعتمد على إحداث الجلبة والصخب والعلانية، مما شكل تهديداً مباشراً للإنجليز وأغضب الأوساط الشعبية فى بلادهم.

وقد كتب بعض المفكرين والسياسيين الألمان فى وضوح وجلاء أن إنشاء خط حديد بغداد سوف يكون بمثابة تقويض لبنيان الهيمنة الإنجليزية الموجودة فى العراق وسوريا ومصر والهند.[٧٣]

ولهذه الأسباب مجتمعة أقدم الإنجليز على التحرش بالألمان وشرعوا فى مهاجمتهم، ولم يتغير الموقف بين الدولتين وتصاعدت أحداثه، فالألمان معاندون مشاكسون ، مثلهم فى ذلك مثل الإنجليز.

ثم أقدم الألمان بدورهم على دعوة الإنجليز والفرنسيين والروس إلى المشاركة برءوس أموالهم فى مشروع خط حديد بغداد، حتى يتسنى للألمان كسر شوكة معارضة هذه الدول الثلاث، ووجد هذا العرض الألمانى رغبة إيجابية من أجل تحطيم العداوة والمنافسة بين هذه الدول، وفى سبيل تحقيق هذه الرغبة قام " بلفور" رئيس وزراء إنجلترا فى أبريل سنة ١٩٠٣م بإلقاء خطاب فى مجلس العموم البريطانى طالب فيه بإنشاء تعاون بين رءوس الأموال الألمانية والإنجليزية، بيد أن المجلس رفض هذا

---

(٧١) هى أسرة ألمانية حاكمة ينتسب إليها ملوك بروسيا ١٧٠١– ١٩١٨ وأباطرة ألمانيا من ١٨٧١– ١٩١٨ (المترجم).

(٧٢) Witlin ، ص ٢٤٨– ٢٤٩ .

(٧٣) Paul Rohrbach ، الأمر السلطانى بإنشاء خط حديد بغداد ، إستانبول ١٣٣١ هـ، ص ٣٧–٣٨ .

الطلب ، وعارضه بشدة كل من اللورد (Gwtzon و Joseeph Chamberlain) حتى إن Gwtzon) طالب باحتلال جزء من" مازبوطامية" كي يجهض محاولات التدخل الألمانى فى هذه المنطقة، وقال إن ألمانيا تهدد علانية المصالح الإنجليزية فى الشرق الأوسط.(٧٤)

" كان مشروع خط حديد بغداد قد فسر فى أوروبا على أنه عنصر مقو معضد مداو للرجل المريض، ورأى الغرب فى هذا المشروع أنه بمثابة طريق مؤسس ممهد للاستعمار الألمانى فى الشرق الأوسط، كما أنه سيهدد ولا ريب المستعمرات الإنجليزية والفرنسية، وقد أضر هذا التهديد كلا من إنجلترا وفرنسا وروسيا بعد عام ١٩٠٤ م، فقد أرادت ألمانيا قطع طريق الشرق عن هذه الدول، ومن ثم فقد كان خط حديد بغداد من أهم الأسباب التى أشعلت نار الحرب العالمية الأولى فى أوروبا".(٧٥)

كان السلطان عبد الحميد يعى تمامًا كل هذه الأمور، فهو يرى نفسه حامى السلام فى أوروبا ولا يريد أن يكون أحد الأسباب المؤدية إلى انهيار هذا السلام، لأنه يرى أنه إذا انهار السلام فى أوروبا ، فإن تركيا سوف تجد نفسها مقذوفة فى أتون هذا الحريق.

ولحل هذا الموقف الشائك منح السلطان حق امتياز بعض خطوط السكك الحديدية الأخرى لكل من الإنجليز والفرنسيين والروس من أجل تهدئة خواطرهم وبث الطمأنينة فى نفوسهم، وأظهر السلطان بهذا السلوك سياسة معتدلة متوازنة. ثم شرع عبد الحميد بعد ذلك فى إعطاء إنجلترا حق امتياز إنشاء خط حديدى بين كل من مدينتى " إزمير وقصبة" الواقعتين غرب الأناضول، كما منح الفرنسيين امتيازات مماثلة فى سوريا ولبنان، ثم منح الروس بموجب معاهدة البحر الأسود حق امتياز إنشاء خط حديدى فى شرق الأناضول ومناطق البحر الأسود.

---

(٧٤) Wittlin ، ص ٢٤٨- ٢٤٩ .

(٧٥) Fisher ، ص ٢٣٦ .

ولقد قرر الألمان بعد ذلك عدم مرور خط حديد بغداد من شرق الأناضول ومنع نزوله حتى خليج الإسكندرونة؛ رغبة منهم فى عدم إصابة هذه الدول الثلاث بمزيد من الخوف والرهبة. ولسوف يبدأ هذا الخط الحديدى من حيدر باشا مرورًا بأنقرة وقونية وآدنة وراسوليان ويستمر حتى بغداد، ولم يدرج ميناء البصرة فى خط سير هذا الطريق الحديدى.

كانت الامتيازات التى منحها السلطان لروسيا من أكثر الامتيازات التى أتعبت السلطان وقضت مضجعه، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفًا مما سجله فى مذكراته فى هذا السياق حيث يقول:" لقد وجدنا أنفسنا فى موقف خطر ، واضطررنا إلى التعهد بألا نمنح حق امتياز إنشاء السكك الحديدية على سواحل أرضروم والبحر الأسود إلا لرءوس الأموال الروسية. بيد أن بداية إنشاء هذين الخطين لن يكون فى القريب العاجل، لأننى لست ناويا التصريح للروس بإنشاء هذين الخطين ألبتة، لأنهم إن أقدموا على التنفيذ فإنهم سيبدءون أول الأمر بالاستحواذ على الشمال الشرقى، ثم يتسنى لهم بعد ذلك الهيمنة على البلاد برمتها وإخضاعها تحت نفوذهم ، وهكذا فإن التعهد بإنشاء هذين الخطين كان فى غير صالحنا".(٧٦)

كان السلطان قلقًا بشأن الوطن الأم" الأناضول" التى تعد آخر ملاذ لنا. ونحن نستطيع إبعاد الآخرين ممن منحوا حق الامتياز عن بلادنا فى أى وقت، ولكن الروس سوف يستقرون هذه المرة ويوطدون أركانهم ، ومن الصعب إخراجهم.

سكك حديد الحجاز

أصبح مشروع سكك حديد الحجاز الذى يربط الشام والمدينة ومكة بعضها ببعض من أهم المشروعات المهمة التى حمل السلطان عبء تنفيذها على عاتقه بعد فراغه من

(٧٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسة ، ص ١٢٦ .

مشروع سكك حديد بغداد، وقد اضطلع هذا المشروع بدور حيوى فى تحقيق خطط عبد الحميد وتنفيذ أهداف سياسة الوحدة الإسلامية التى كان بصدد القيام بها.(٧٧)

وقد عرض وزير الأشغال العامة حسن فهمى باشا على السلطان فكرة تنفيذ هذا الخط أول مرة فى عام ١٨٨٠م ، ثم قام والى الحجاز عثمان نورى باشا بتجديد هذه الفكرة عام ١٨٩٢ م ، وذلك لأسباب عسكرية.

وفى عام ١٨٩٢م طلب كل من أحمد مختار باشا المفوض العام فى مصر ومحمد أنس الله الصحفى الهندى المسلم خارج الوطن بإنشاء هذا الخط الحديدى.(٧٨)

وكان عزت باشا السورى العربى والسكرتير الخاص للسلطان هو صاحب التأثير القوى على السلطان لحثه على تنفيذ هذا الخط.(٧٩)

ويكتب السلطان فى مذكراته طرفًا مما يتصل بهذا المشروع فيقول: " لم أستطع العثور على شخص أفضل من عزت باشا، لقد كان خير مستشار أمين للسلطان بشأن تنفيذ هذا المشروع، وقد حاز عزت باشا قصب السبق فى هذا المضمار؛ حيث حظى بإعجاب السلطان للنجاح الذى حققه فى فترة وجيزة لجمع الأموال اللازمة لتنفيذ هذا الطريق من أجل صالح العالم الإسلامى ".(٨٠)

كان تنفيذ فكرة الوحدة الإسلامية هو الباعث الحقيقى لتنفيذ هذا الخط، فضلاً عن كونه من الأفكار العسكرية النافعة، كما أن هذا الطريق سوف يقوى شوكة السلطان عبد الحميد ويشد من أزر سلطنته فى الحجاز واليمن، ويزيد من نفوذه ليشمل مصر بأسرها.(٨١)

---

(٧٧) Charles Swallow ، الرجل المريض للإمبراطورية العثمانية الأوروبية حتى الجمهورية التركية ١٨٥٧- ١٩٢٣ . لندن ١٩٧٣ م ، ص ٨٧-٨٨ .

(٧٨) أفق جول صوى ، خط حديد الحجاز ، إستانبول ١٩٦٤ م ، ص ٣١- ٣٩ .

(٧٩) Pears ، أربعون عامًا فى القسطنطينية ، ص ١١١ .

(٨٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٠٧ .

(٨١) Pears ، حياة عبد الحميد ، ص ١٦٤ .

ويرى عبد الحميد أن تنفيذ هذا الطريق سيجعلنا فى غير حاجة ضرورية إلى قناة السويس التى تعرضت للاحتلال الإنجليزى فى عام ١٨٨١ م، وسوف يكون إنشاء هذا الخط الحديدى هو البديل الاضطرارى الوحيد، كما سيكون من اليسير علينا دفع قواتنا العسكرية إلى اليمن والحجاز فى أمان تام عن طريق هذا الخط".[٨٢]

ولا ننسى كذلك أنه سيسهل أداء فريضة الحج ، ويعمل على إحياء الزراعة والتجارة وانتعاشها فى الأماكن التى يمر خلالها.

ولما كان خط حديد الحجاز مهما إلى هذا الحد ، فإنه سيكون أكثر تهديداً لإنجلترا فى هذه المنطقة كلها، لاسيما أن هذه الدولة كانت ترفض إنشاءه ، كما سعى الإنجليز لإفساد الأعراف والتقاليد القديمة بين القبائل العربية باذلة قصارى جهدها لإثارة العداوة والبغضاء بينهم من أجل تخريب هذا الطريق المزمع إنشاؤه.

وأخذت تروج دعاية كاذبة بين هذه القبائل زاعمة أن العوائد التى يأخذونها من الخزانة العثمانية سوف تتوقف، وأن قوافل الجمال والجياد سوف تلغى، ولم يكفوا عن مثل هذه الشائعات الكاذبة.

كما اضطلع الإنجليز كذلك بتوزيع كميات كبيرة من الهدايا والمال والسلاح على شيوخ القبائل وتحريضهم كى يقفوا ضد إنشاء هذا الطريق.[٨٣]

ولما شرع الإنجليز فى شن حملة ضد هذا الطريق ، أسرعت صحفهم المنتشرة فى الهند ومصر بترويج حملة صحفية من أجل تخريب هذا المشروع وإجهاضه، وما انفك الإنجليز يسعون سعياً حثيثاً لإشاعة الشائعات من خلال وسائل النشر المختلفة، فأشاعت بين الناس أن الأتراك لا قبل لهم بإنشاء خط حديد الحجاز، وأنهم يسعون

---

(٨٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسة ، ص ١٠٨ .

(٨٣) تحسين باشا ، ص ٢٤٧ .

إلى اختلاق حجة واهية جديدة من أجل تجريد المسلمين من أموالهم، وليس ثمة ضرورة إلى إنشاء مثل هذا الطريق الذى سيؤدى إلى إفلاسهم ويبهظ كواهلهم. وقد اضطلع القنصل الإنجليزى فى مصر بدور مهم فى تحريض الشعب ضد هذا المشروع. بيد أن كل دعايات الإنجليز وتحريضهم ووشاياتهم قد ذهبت أدراج الرياح.[٨٤]

وقد اشتد غضب عبد الحميد وزاد حنقه مما يفعله الإنجليز ضده، وكان يقول : "إن خيانة الإنجليز وغدرهم وخداعهم قد اصطدم وتمزق أمام صخرة قوية صلدة".[٨٥] وكان ما قاله عبد الحميد حقيقة لا مراء فيها.

وما لبث السلطان عبد الحميد أن بث روح الوحدة الإسلامية فى نفوس شعوب العالم الإسلامى كله، واستقبل المسلمون إنشاء هذا الخط بحمية واهتياج عاطفى عظيم، بيد أن ما يثير المشاعر فى هذه المسألة أن إنشاء هذا الخط سوف يتم دون الاقتراض من الدول الأوروبية، وسيمول من التبرعات والمساعدات التى تجمع من العالم الإسلامى، ولم تطلب أية دولة أجنبية الإسهام فى إنشاء هذا الطريق لما له من تأثير دينى وعسكرى ، وقد أنشئ هذا الخط برأس مال مسلم خالص، وأنشأه العمال والمهندسون المسلمون، واستطاع عبد الحميد أن يلقن الإنجليز درساً قاسياً بإنجاز هذا المشروع، ويشرح هذا فى مذكراته فيقول: " لقد أخفق الإنجليز فى كل الوسائل التى استعانوا بها للحيلولة دون إنجاز هذا المشروع، واستطعنا بقدرتنا وكفاءتنا تنفيذ سكك حديد مكة المكرمة"[٨٦]، وأوصى عزت باشا السلطان بتوزيع مجموعة من ميداليات النيكل والفضة والذهب على أولئك الذين أسهموا بأموالهم وتبرعاتهم فى سبيل إنشاء هذا الطريق وأعد السلطان قائمة على رأسها أسماء من دفعوا مبلغ خمسين ألف ليرة.[٨٧]

---

(٨٤) رشدى باشا ، ص ١٣٧

(٨٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص١٣٢

(٨٦) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٠٨

(٨٧) أرتوق جورية ، ميداليات سكك حديد الحجاز ، الجمعية التاريخية التركية ، كتاب توصيات المؤتمر التاريخى السابع ، جـ٢، ١٩٧٣ ، ص ٧٨٦- ٧٨٧ .

فقد جاءت مساعدات مالية من أقطار العالم الإسلامى المختلفة، ولا سيما من مسلمى الهند وإيران وتونس والجزائر وروسيا والتركستان الشرقية وسومطرة وجاوة وماليزيا، وكان" أمير خان" سلطان أفغانستان من بين الأشخاص الذين أسهموا بأعلى قيمة مالية فى هذا المشروع(٨٨)، بدأ العمل فى إنشاء خط حديد الحجاز من سوريا فى اليوم الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ م، وهو اليوم الموافق للذكرى السنوية الخامسة والعشرين لاعتلاء عبد الحميد سدة العرش، وافتتحت محطة المدينة المنورة فى سنة ١٩٠٨ م الموافقة للذكرى الثالثة والثلاثين لتولى عبد الحميد عرش السلطنة.(٨٩)

مسألة العقبـة

أصبحت مسألة العقبة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بإنشاء خط سكك حديد الحجاز، واختلق الإنجليز هذه المسألة بعد إنشاء هذا الخط كما سبق لهم قبل ذلك اختلاق المسألة الكويتية فى أعقاب منح الألمان حق امتياز إنشاء سكك حديد بغداد.(٩٠)

وكانت كل مخاوف الإنجليز منبعثة عن قلقها بشأن امتداد خط حديد الحجاز من جنوب خليج العقبة وصولاً إلى مدينة العقبة نفسها، وهذا ولا ريب سيكون بمثابة تهديد لطريق الهند ولهيمنة الإنجليز على مستعمراتهم كما يزعمون.

فالعقبة داخلة فى حدود الدولة العثمانية، وتمثل معبرًا لتسهيل أداء فريضة الحج، وهذا سوف يسمح بتمويل وإمداد الجند المصريين فى هذه المنطقة.

(٨٨) أنس الله محمد ، تاريخ مشروع سكك حديد الحجاز للسلطان عبد الحميد. بالأوردية والعربية والإنجليزية لاهور ١٩٠٨ . ص ٣١-٣٢ .

(٨٩) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ، ص ٢٢١ .

(٩٠) رشدى باشا ، ص ١٣٧ .

ولما أنشأ الباب العالى خط سكك حديد الحجاز طلب إلى مصر سحب جنودها الموجودين فى هذه المنطقة من أجل تسهيل أداء فريضة الحج، واعترضت إنجلترا على هذا الطلب ، وأسرعت بإرسال المدرعة" إنديانا" إلى خليج العقبة لتهديد السلطان الذى أعلن أن هذه قضية بين مصر والدولة العثمانية ولا يحق للإنجليز التدخل فيها، وسرعان ما أرسل السلطان كتيبتين عسكريتين بقيادة مساعده رشدى بك؛ كى تتمركز فى العقبة وفى مقاطعة " طابا" الصغيرة الواقعة على مسافة أربعة أميال شمال غرب العقبة، كان إرسال هؤلاء الجند بمثابة تحذير علنى لإنجلترا التى أسرعت بإرسال أسطول البحر الأبيض ودفعت به إلى ميناء " بيريه" اليونانى، ومنحت إنجلترا الدولة العثمانية مهلة عشرة أيام فى شهر مايو سنة ١٩٠٦ طالبة إياها إخلاء ميناء العقبة وسحب طريق السكة الحديد من الحدود العثمانية المصرية(٩١). واشتعل حماس الأوساط الشعبية وبدأت المظاهرات ضد الإنجليز فى كل من مصر والهند.(٩٢)

كان عبد الحميد لا يريد إفساد العلاقة مع الإنجليز أو التخاصم معهم، وأعلن أنه سيسوى مسألة الحدود العثمانية المصرية عن طريق ضباط من كلتا الدولتين ، ورفض استقبال الوفود الإنجليزية التى جاءت لتشكيل لجنة لهذا الغرض، ولو أن السلطان استقبلهم لكان بمثابة اعتراف منه بالاحتلال الإنجليزى لمصر.(٩٣)

وفى أول شهر أكتوبر سنة ١٩٠٦ م عقدت معاهدة تقضى ببقاء العقبة فى حوزة الدولة العثمانية، ويتم إخلاء طابا وتعطى لمصر. وقد اهتم كثيراً باستخدام عنصر المساومة من أجل إنقاذ طابا والعقبة كلتيهما(٩٤)، ثم تخلى عن فكرة مد خط حديد الحجاز حتى العقبة؛ رغبة منه فى طمأنينة الإنجليز وتهدئة خواطرهم.

---

(٩١) Pears ، أربعون عامًا فى القسطنطينية ، ص ١١٤ .

(٩٢) رشدى باشا ، ص ٧٧ .

(٩٣) عثمان نورى ، جـ٣(جزء أحمد رفيق). ص ٩٧٦ .

(٩٤) أوزطونة ، جـ ١٢، ص ١٦٩ .

الزراعة

كان عبد الحميد الثانى هو العاشق الوحيد للزراعة بين كل السلاطين العثمانيين طرًا، وبدأ عشقه للزراعة يتجلى من أيام ولاية عهده حيث كان يكسب مالاً وفيرًا من تربية الحيوانات وزراعة الأعشاب فى مزرعته الخاصة.

ولقد شهدت النهضة الزراعية اهتمامًا كبيرًا إبان عصر عبد الحميد، وها هو ذا يتحدث فى مذكراته عن أهمية الزراعة فيقول:" إن الزراعة هى الركن الأساسى لثراء البشرية، وقد تبوأت الزراعة المكانة الأولى فى الإمبراطورية العثمانية لأنها تعد وسيلة الغذاء لكل الكائنات الحية".(٩٥)

وكان السلطان عبد الحميد يشعر بحب عميق واهتمام عظيم لكل ما يتصل بعلوم الزراعة، وأسهم فى هذا السبيل بافتتاح مدرسة فى مزرعته الخاصة لتدريس العلوم الزراعية،" أسس السلطان عبد الحميد مدرسة زراعية فى مزرعته الكائنة بمنطقة "ماشلق" وافتتحها. وكانت كافية لتعليم أربعمائة طالب فيها، وأمد هذه المدرسة بالكتب اللازمة المترجمة إلى التركية فضلاً عن غيرها من الكتب المؤلفة فى العلوم الزراعية".(٩٦)

وقد افتتحت مدرسة" خلقلى" الزراعية إبان عهد عبد الحميد، وكانت بمثابة المصدر الأول للزراعيين الترك فى السنوات الأخيرة للدولة العثمانية والأعوام الأولى للجمهورية التركية ، وقد دخل السلطان فى صراع مع بيروقراطية الباب العالى من أجل فتح هذه المدرسة، ومن المعلوم كذلك أن السلطان عبد الحميد هو أفضل من قدروا الزراعة فى تركيا حق قدرها.

"كان لزامًا على أن أعقد العزم حتى أتمكن من فتح المدرسة الزراعية فى "خلقلى"، وكان التدريس فيها للطلبة مجانيًا، وسوف يستفيدون فى تجاربهم الزراعية من المزارع والمعامل وغيرها من مجالات البحث.

---

(٩٥) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٦ .

(٩٦) أحمد مدحت ، جـ٢، ص٣٢ .

ولا مناص من التضحية حتى يتسنى لهذه المدرسة أن تؤتى أكلها، ونتمنى تنشئة وتربية شباب متعلم مجتهد، يستفاد منه فى العمل فى ميادين الزراعة ومزارع الخيل وغيرها من الأعمال الأخرى(٩٧).

وافتتح السلطان كذلك مدرسة بيطرية بإزاء المدرسة الزراعية الموجودة فى "خلقلى"، وأرسل الطلبة فى بعثات دراسية إلى الدول الأوروبية ، وذلك فى إطار اهتمامه بتطوير الزراعة ونهضتها.

" يتوجب أن تكون غايتنا الأولى هى تأمين المحاصيل الزراعية وتطويرها، وأرضنا مباركة ونحن أصحابها، ويلزم على زراعيينا أن يتقنوا أحدث العلوم الزراعية حتى نرقى بمستوى الزراعة إلى المستوى المأمول، كما أننا نرسل طائفة كبيرة من الطلاب إلى فرنسا من أجل تعلم التقنية الحديثة للقضاء على مرض Floksoraya (٩٨)، كما ذهبت زمرة أخرى إلى ألمانيا لإجراء أبحاث وفحوصات علمية فى علم الحيوان".(٩٩)

وللسلطان عبد الحميد أفكار فى تربية الحيوانات نجملها على النحو الآتى حيث يقول: " يجب علينا الاضطلاع بدور مهم فى تربية الماشية والارتقاء بنهضتنا الزراعية، وإن دولتنا تساعد على تربية الضأن والماعز والطيور المنزلية الداجنة. وعلينا الاهتمام كذلك بزراعة المحاصيل الزراعية التى تتكون منها أعلاف الماشية التى تحتاجها قراننا، ثم يأتى بعد ذلك الاهتمام بالمنتجات الحيوانية كاللبن وصناعاته الغذائية والبيض وغيره، وبهذه الطريقة يتسنى لنا تربية جيل ضخم من الماشية فى الداخل ليكون مصدر دخل للتصدير إلى الخارج".(١٠٠)

---

(٩٧) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٦ .

(٩٨) هو مرض يقضى على الحدائق والبساتين (المترجم).

(٩٩) السلطان عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٥ .

(١٠٠) أرتورك ، ص ٣٦-٣٧ .

ثم يتحدث السلطان عبد الحميد عن أهمية الرى فيقول: " إن قضايا الرى شديدة الأهمية، ولزام علينا ربط أنهارنا بالقنوات، وأن ننشئ مجموعة من السدود مثل سد أسوان فى مصر، وإذا أمكن توصيل نهر دجلة بالفرات وسيحون بجيحون وسقاريا بالبحر الأحمر فسوف يكون شيئًا مفيداً".(١٠١)

وكان اهتمام السلطان عبد الحميد بالمحافظة على الثروة التى تملكها الدولة من الغابات من أهم الخدمات الجليلة التى اضطلع بها لأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية العثمانية. وكان سوْق المعز إلى الغابات هو العدو الأول لتقليص هذه الغابات.

انتشرت المدارس الزراعية فى كل حدب وصوب من أرجاء الوطن إبان عصر السلطان عبد الحميد، ووزعت الآلات الزراعية الحديثة والتقنية الزراعية الجديدة والبذور الصالحة والشتلات الزراعة على مزارعنا.

الصناعة والتجارة

كان عبد الحميد يرى أن إثراء وتقدم النشاط التجارى والصناعة القومية هى شروط مهمة حيوية لبقاء الدولة ،" فأثرياء بلدنا هم من الأجانب، وكذلك أصحاب الأملاك والعقارات وأرباب الفن، ومادام الأمر كذلك ، أيكون للدولة العثمانية بقاء بعد حقبة قصيرة من الزمان؟".(١٠٢)

ثم يتحدث عبد الحميد عن فتور همتنا وعدم اكتراثنا بالمجالات الصناعية والتجارية فيقول: " لم يفكر أحد فى النهضة التجارية والصناعية، وإن تجارة الروم والأرمن لا تجلب الشرف والحيثية للأمة التركية، ولا سبيل إلى التطور والتقدم على أى وجه من الوجوه، وليس لأسياد هذا البلد رغبة فى التجارة".(١٠٣)

---

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٠٢) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ١٣٦ .

(١٠٣) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨٢ .

وكان السلطان كثير الشكوى من الروم والأرمن بسبب ما يخرجونه خارج الوطن من المكاسب التى يحصلون عليها من تركيا، كما يشكو قبل ذلك من ظهور الطبقات البرجوازية التى نجمت عن الثراء الفاحش الذى تسبب فيه الروم والأرمن.

ونقرأ فى هذا السياق طرفًا مما سطره عبد الحميد فى مذكراته فيقول: "إن شبابنا وموظفينا وجندنا وعلماءنا يخططون ويعملون، ولكن لماذا لا يفكرون فى أن يكون من بينهم تاجر كبير أو فنان عظيم؟ فأنا على سبيل المثال مشغول بفن التجارة ، وأعد نفسى مثالاً يحتذيه الشعب. ومما يؤسف له أننا لم نألف مثل هذه الحرف حتى الوقت الراهن، ومن العسير علينا التخلص من مثل هذه الأفكار الجامدة التى ورثناها واعتدناها".(١٠٤)

كان عبد الحميد مواطنًا عاديًا يكافح من أجل اختيار مجالات صناعية مهمة، ويقول: " آه لو كنت حرًا طليقًا لفتحت على الفور مدرسة صناعية، وأسست كذلك مصنعًا للبورسلين والحديد يشبه المصنع الصغير الذى أقمته فى قصر يلديز. ولكنت اضطلعت بنفسى بتعليم الشباب حرفة النجارة والحدادة وخرط الخشب".(١٠٥)

كان عبد الحميد يعزو عدم اهتمام الترك بالتجارة والصناعة إلى أسباب منها أنهم أمة محاربة تعشق الغزو والفتوحات، وكان شغلها الشاغل هو الحرب والقتال، وكان يمكنهم الاشتغال بالزراعة فقط فى أوقات السلم عندما يركنون إلى الراحة من النزال والعراك، ولهذا السبب استحوذ الرعايا من غير المسلمين على مقاليد الصناعة والتجارة. وكانت الفنون والتجارة وأعمال الصرافة والبنوك جميعها فى أيديهم من أصغر بيت عثمانى حتى أعظم قصر فى الدولة العثمانية.(١٠٦)

كان عبد الحميد يرى أن ارتقاء الدولة مرهون بتقدمها ونهضتها فى مضمارى الصناعة والتجارة، ومن ثم فإنه بذل جهده فى كلا المجالين ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ودونك حصرًا بأعداد المصانع التى أنشئت فى عصر السلطان عبد الحميد:

---

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ١٨٨- ١٨٩ .

(١٠٥) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٢٢٥ .

(١٠٦) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ، ص ٢٣٣- ٢٣٤ .

٦ مصانع سجاد – ١٧ مصنعًا للقماش والنسيج – ٤ مصانع للطوب والقرميد – مصنع واحد للحديد– مصنع واحد معلبات – مصنع واحد نترات البوتاسيوم – مصنع واحد لصناعة الماس – مصنع واحد للزيوت – مصنعان للدقيق والثلج – مصنع واحد للشمع – مصنع واحد للمكرونة، فضلاً عن سبعة مصانع للصناعات العسكرية، كما افتتح خمسة عشر مصنعًا وورشة فى الصناعات الأخرى المختلفة.(١٠٧)

خدمات التربية والتعليم

كان ميدان التربية والتعليم من أجلّ الخدمات العظيمة التى اضطلع بها السلطان عبد الحميد، ويمكن القول بأن أعظم الإنجازات التى تمت فى عهده فى هذين المجالين لم يكن لها نظير قط على مدار تاريخ الدولة العثمانية.

ومما يؤسف له أن التعصب الأعمى ضد السلطان والعداوة البغيضة التى أضمرها المعارضون له كانت سببًا فى أن أعداءه لم يترددوا لحظة واحدة فى تشويه سمعته وتلويث ساحته فيما يتصل بميدان التعليم.

ورغم هذه المعارضة الشديدة للسلطان فإن" أحمد رشيد أى" يكذب كل هذه المزاعم الباطلة ويدحضها بالأدلة الدامغة فيقول:" ثمة زعم باطل ينسب إلى السلطان ويتهمه بأنه عدو لدود للتقدم والعلوم الغربية، وهذه ولا ريب دعوى باطلة تشبه فيما تشبه التهمة التى سبق أن نعتوه بها بأنه سفاح متعطش للدماء، وهذه ولا ريب مزاعم كاذبة مختلقة، لأن كثيرًا من المدارس تم افتتاحها إبان عصره".(١٠٨)

" وضع عبد الحميد المطبوعات تحت مراقبة شديدة صارمة، بيد أنه بذل قصارى جهده فى سبيل تعليم اللغات الأجنبية من أجل النهوض بثقافة الأمة وإعلاء شأنها،

---

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(١٠٨) آيدين طلاى ، عبد الحميد الثانى بخدماته وإنجازاته ، إستانبول ١٩٨٩م، ص ٢٣٧- ٢٥٣ .

وعمل كذلك على تنوير الأمة عن طريق اهتمامه بالمدارس اهتماماً بالغًا، وقد سمعنا من المقربين إليه أنه كان يقول: " لزام علينا التحرر من الجهل وبلوغ درجة عالية من النضج حتى يتسنى لنا أن نحصل على الحرية وننعم بالدستور".(١٠٩)

ثم يشرع فى شرح أهمية النهوض بالتعليم والارتقاء به فيقول:" لقد تقدمت دول روسيا وألمانيا والنمسا، ولا سيما روسيا التى كانت غير ذات قيمة حتى عهد قريب، وأصبحت الآن تعد من أعظم الدول الأوروبية، أما نحن فتخلفنا وأصبحنا نستخدم المتخرجين من المدارس العلمية والفنية المتطورة".(١١٠)

" ومن المؤسف أن رجالاتنا من ذوى العلم المتقن هم طائفة قليلة، أما أنصاف المتعلمين فيمثلون الأكثرية الغالبة، ولهذا فإنهم لا يعلمون شيئًا قط عن الدين والقومية، والأمر على العكس بالنسبة للنصارى الموجودين فى دولتنا ، حيث نراهم شديدى التعصب لديانتهم ومذاهبهم، ويبذلون أرواحهم فى سبيل الدفاع عنها، وهم بذلك يستطيعون حماية قوميتهم ويذودون عنها"(١١١)، كان عبد الحميد يشكو مر الشكوى من تفوق التعليم عند النصارى قياسًا على ما هو عند المسلمين، ويجأر بالشكوى كذلك من امتيازات التعليم فى المدارس الأجنبية التى تمنح للدول الأجنبية.

" إن المدارس الخاصة هى بمثابة خطر عظيم يهدد دولتنا، وإن ما نمنحه من حقوق لكل دولة تمكنها من فتح مدرسة لها فى أية محل وفى أى وقت هو ولا شك ضرب من اللامبالاة وعدم التمييز الذى لا سبيل إلى الصفح عنه، ومما يؤسف له أننا نتجرع عذابات كل هذا ونعانى الأمرين من جرائه، ونعلم أن هذه المدارس تنفر الناس من ديننا ودولتنا رغم تسامحنا معهم، وهم بصنيعهم هذا يقابلون الحسنة بالسيئة، وإن إهمال ة وزارة المعارف وتقصيرها فى هذه المسألة هو خطأ جسيم لا يغتفر.

---

(١٠٩) أرسون ، ص ٩٢ .

(١١٠) خوجة أوغلو ، مذكرات عبد الحميد ص ٧٢ .

(١١١) المصدر السابق ، ص ٨٣٩– ٨٤٠ .

ولربما أنهم لا يحركون ساكنًا قط فى هذا السبيل ولا يملكون الشجاعة الكافية للحيلولة دون التمادى فيها، ولا سبيل إلى الانتظار حتى أحمل كل شيء وحدى وأتجشم الصعاب من أجل الاضطلاع به.

لا جرم أنه بات من العسير التدخل فى شئون هذه المدارس والحد من خطورتها، ولا ريب أن هذه المدارس كانت تلوث بالسفراء والقناصل الذين أسهموا بنصيب كبير فى توفير الحماية اللازمة لها".(١١٢)

كان تلقين التربية الإسلامية للطلبة يأتى فى صدارة الاهتمامات التى شغلت عبد الحميد للنهوض بالحقل التعليمى وحمايته، وقد انتشر هذا الضرب من التربية الإسلامية فى أحيان كثيرة بتوجيهات صادرة بموجب الأوامر السلطانية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: ذلك الفرمان السلطانى الصادر فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٠م، والذى يقضى بضرورة العناية ببرامج التربية الدينية والعقائدية، ثم يأتى بعد ذلك الاهتمام بالعلوم الزراعية والصناعية وغيرها(١١٣)، كان الدين والعلم كلاهما أهم عنصرين يشغلان بال السلطان عبد الحميد فى مجال التعليم، وثمة ثلاثة أنواع من المدارس اهتم بها السلطان اهتمامًا بالغًا وهى:الملكية" مدارس الخدمات المدنية" ومدرسة الحقوق ومدرسة التجارة. وكان يقوم بالتدريس فى هذه المدارس أعلم الأساتذة وأكثرهم أهلية وكفاءة.(١١٤)

واهتم السلطان كذلك بالمدارس الملكية التى أسسها بنفسه واعتنى بالخريجين منها عناية خاصة، وكان يرسل فى كل عام طائفة من الديوان السلطانى فى معية مستشاريه إلى هذه المدارس لحضور حفلات توزيع المكافآت على الطلبة المتفوقين ، حيث يقدمون للخريجين ساعات قيمة على سبيل الهدايا ، حثًا لهم على حب العلم، كما

---

(١١٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٥ .

(١١٣) أرجين ، جـ٢، ص ٨٤٢ .

(١١٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٩– ٨٤٠ .

كان يقدم مكافآت لأوائل الخريجين فى المدرسة العلية، ويمنح ميداليات فضية وذهبية لخريجى المدارس الملكية، ولم يكن السلطان يوافق على منح الوظائف الحكومية والمناصب إلا لخريجى المدارس الملكية.(١١٥)

أما القائمون بالخدمة فى القصر السلطانى فهم أولئك الذين أتموا تعليمهم فى المدرسة الملكية، وكان" إسماعيل مشتاق ماية قون" من أوائل خريجى المدرسة الملكية الذين التحقوا بالقصر السلطانى، وقد استفدنا من مذكراته فائدة جمة إبان تأليفنا لهذا الكتاب.

فتح السلطان عبد الحميد فى إستانبول أربع عشرة مدرسة عالية وفنية متخصصة، وإن عنايته بالتعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى وافتتاحه للمدارس فى هذه المراحل الثلاث يُعد ثورة كبرى فى النهضة العلمية لتاريخ الدولة العثمانية.

ولم يرد السلطان ترك مقاطعة دون مدرسة أو مسجد ، وذلك فى إطار المنافسة مع رعايا الدولة من النصارى، وتمخضت جهوده فى هذا الميدان عن نجاح عظيم فى تحقيق أشياء كثيرة طوال مدة سلطنته التى دامت ثلاثة وثلاثين عاماً.

وهكذا ارتفع عدد المدارس الرشدية" الإعدادية" من ٢٥٠ إلى ٦٠٠ مدرسة، والثانوية من ٥ إلى ١٠٤ مدرسة، ودار المعلمين من ٤ إلى ٣٢ مدرسة ، وكان عدد المدارس الابتدائية ٢٠٠ مدرسة فى عام ١٨٧٦م، ثم أضيف إلى هذا العدد ما يتراوح بين ٤٠٠- ٥٠٠ مدرسة جديدة، وتحول ما يقرب من ١٠٠٠٠ مدرسة صبيان" التى تعلم الأطفال من سن ٥-٦ سنوات" إلى نظم حديثة فى التعليم.(١١٦)

كان إنشاء المؤسسات التعليمية المركزية فى المقاطعات والأقاليم وفق المفهوم العصرى الحديث من أهم التجديدات العظيمة التى أحدثها عبد الحميد فى مضمار

---

(١١٥) تحسين باشا ، ص ٣٧ .

(١١٦) بايرام قودة مان ، نظام التعليم فى عصر عبد الحميد ، إستانبول ، ١٩٨٠ . ص ٢٥١- ٢٥٢ .

العلوم والمعارف، وانتقلت مؤسسات التعليم الابتدائية والإعدادية الموجودة فى الأقاليم إلى هذا النظام الحديث.(١١٧)

بات إصلاح الجامعات من أهم الموضوعات التى حظيت برعاية السلطان عبد الحميد، ويقول فى مذكراته:" لم يتحقق الإنجاز التام والنجاح المأمول من أجل الحفاظ على العلماء بالدرجة القصوى التى نتمناها، ولهذا السبب فقد جذبت جامعة الأزهر بالقاهرة طلابنا إليه.(١١٨)

أرسل السلطان طلاباً فى شتى العلوم والمعارف إلى أوروبا فى إطار خطته للنهوض بالتربية والتعليم، وطلب إلى هؤلاء الطلاب المكوث أقل فترة ممكنة فى البلاد، ليتعلموا الأشياء الضرورية ثم يعودوا على الفور إلى أوطانهم، رغبة منه فى حمايتهم من التسمم بأفكار الحضارة الأوروبية الحديثة.(١١٩)

وقد وردت فى مذكرات السلطان آراء تنم عن عدم سروره وارتياحه بصفة عامة من الطلبة المبعوثين إلى أوروبا، وفى هذا الصدد يقول:" تفيد التقارير التى قدمها إلينا سفيرنا فى برلين بأن ثمة زمرة قليلة من هؤلاء الشباب ممن يقصرون أنفسهم على الدرس والتحصيل، وثمة زمرة كبيرة من هؤلاء الشباب الذين ذهبوا إلى ألمانيا قد فقدوا الفضائل التى يتميز بها العثمانيون، وتعلموا هنالك شرب المسكرات وغيرها مما يتنافى مع الخلق القويم، ثم يعودون إلى أوطانهم مزهوين بأنفسهم متكبرين متغطرسين متعجرفين، ينظرون من عل بازدراء إلى أصدقائهم وأقرانهم وذويهم من ذوى الوجاهة والحنكة والتجربة، ثم يوجهون النقد اللاذع إلى أعرافنا وتقاليدنا".(١٢٠)

---

(١١٧) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(١١٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٨ .

(١١٩) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٨ .

(١٢٠) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

أما الكثرة الكاثرة ممن ذهبوا إلى باريس لتلقى العلم فإنهم غرقوا حتى آذانهم فى النصف واللهو والتسلية، وأخفقوا فى البحث والاطلاع(١٢١).

أما المستنيرون من البيروقراطيين والتكنوقراطيين فى عصر الجمهورية ، فإنهم نشأوا وترعرعوا جميعًا فى كنف المدارس التى فتحها عبد الحميد.

أفكار الإصلاح الراديكالى

كان عبد الحميد صاحب كثير من الأفكار الإصلاحية التى تعد راديكالية متطرفة بالنسبة للظروف التى كانت تركيا تعيش فيها، وتتمثل إحدى هذه الأفكار فى اقتباس الحروف اللاتينية، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفًا مما قاله عبد الحميد:" إن من العسير تعلم كتابة الحروف العربية، ولما كانت هناك صعوبة فى بعض الأصوات الموجودة فى لغتنا مقارنة بهذه الحروف العربية، فإن من الممكن تنقية لغتنا من هذه الحروف حتى نجعلها سهلة طيعة غير مستعصية على شعبنا".(١٢٢)

وقد طرحت فكرة اقتباس الحروف اللاتينية على يد السلطان عبد الحميد لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية ، ثم أعيد طرح هذه الفكرة مرة أخرى على يد جماعة الاتحاد والترقى عقب الإطاحة بالسلطان ، ونشأت أبجدية جديدة ذات حروف لاتينية مكتوبة من أجل تسهيل التعليم والدراسة والقراءة، وأنشئت مطابع حديثة لهذا الغرض كى تراجع شكل الكتابة على النسق القديم، ويقول عبد الحميد عن قبول التقويم الميلادى:" لقد آن الأوان لقبول التقويم الغريغورى عندنا، ولسوف نجنى فوائد جمة من وراء هذا التقويم، فهناك اثنا عشر يومًا تفرق بين التقويمين القمرى والشمسى، وينجم عن هذا فرق كبير وخلط عظيم فى حساب الأزمنة الطويلة، على سبيل المثال فإن الدورة

(١٢١) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٧١ .

(١٢٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٧٨ .

السنوية للشروق اليومى بالنسبة للصيف سوف تعود بعد مدة إلى منتصف الشتاء، وإن تشكيل لجنة لدراسة مسألة الانقلاب التقويمى كان فى موضعه تماماً".(١٢٣)

وكانت الدولة العثمانية قد شرعت فى استخدام التقويم الرومى المصحح بحسب الشمس إلى جانب التقويم الهجرى، وذلك بسبب صعوبة استخدام التقويم الهجرى بمفرده ، ويقول عبد الحميد عن مسألة لبس القبعة:

" هل هناك علاقة تمس دينى بسبب لبس قبعة ذات طرف مدبب مثل الجندى الألمانى؟ ثم يردف قائلاً: يتوجب علينا أن نمنع العادة القديمة التى كانت تقضى بعدم التجول برأس حاسر فى الطرقات، ويجب على الأطباء أن ينبئوا الناس بمقدار الضرر الذى يصيب صحتهم بسبب هذه العادة".(١٢٤)

وقد ألغى السلطان كذلك ما يعرف باستخدام الخصيان والعبيد، وله آراء يطلب فيها تغيير قواعد وراثة العرش بحيث يسمح للابن الأكبر للسلطان بأن يخلف أباه فى وراثة العرش وتولى السلطنة.(١٢٥)

وقد بحثنا فى الفصول السالفة من هذا الكتاب كل ما يتصل بحياة السلطان، وبينا فيها اهتمامه البالغ بالموسيقى الغربية، والتزوج بامرأة واحدة، وتصعيب الطلاق، ومن أفكاره الراديكالية الإصلاحية رأيه الذى يقول بتقوية شوكة الأمة التركية باعتبارها عنصراً متأصلاً فى الدولة العثمانية التى يجب أن تلتف حول فكرة الوطن الأم، وترجع إلى حدودها الطبيعية.(١٢٦)

---

(١٢٣) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٨٠ .

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٧٥- ٧٩ .

(١٢٦) انظر Talay ص ٥- ٤٢١ من أجل التزود بمعلومات أوسع تتصل بهذا القسم.

النتائج التى تمخضت عن الخدمات والإصلاحات التى اضطلع بها السلطان عبد الحميد

حظيت الخدمات والإصلاحات التى أداها السلطان للوطن بتقدير عظيم، حيث نعم الناس بالراحة والطمأنينة نتيجة هذه الخدمات التى عادت عليهم بالنفع العميم، كما أنها حببت السلطان إلى نفوس الخلائق، وفى أعقاب الحرب التركية الروسية ١٨٧٧ - ١٨٧٨م جمع السلطان شمل الأمة فى فترة وجيزة بعد أن كانت تدور فى أتون الحرب، مما أدهش الأجانب وأصابهم بالبهر والإعجاب، ومن هؤلاء الأميرال الإنجليزى "وودز" Woods الذى عمل فى خدمة السلطان وكان على مقربة منه، يقول وودز: " لقد صادف اعتلاء عبد الحميد للعرش حقبة زمنية تعيسة منكودة الطالع، وكادت الحرب التركية الروسية تقضى على نظام حكم عبد الحميد بسبب الخسائر الفادحة التى مُنيت بها الدولة، كما أنها أفلست خزائن الدولة، وأتت على كل ما كانت تملكه.

فقد كانت الديون المقترضة إبان عصور الحكام السابقين بموجب الاتفاقيات المختلفة قد وصلت إلى مستوى يتعذر عليه سدادها، أما عدد الجند الذين أرسلوا إلى منطقة "جاتلجة" للدفاع عن إستانبول فلم يزد عن بضعة آلاف، كما فقدت الدولة بعد الحرب الروسية موقعها الدفاعى الاستراتيجى على الحدود الشرقية بموجب معاهدة برلين، ثم بدأ الأوروبيون يناقشون فى الخارج الهوية الحقيقية للإمبراطورية العثمانية بعد كل هذه النتائج التى تمخضت عنها الحرب الروسية التركية، وجرت فى هذه المناقشات مساومة سياسية بين رجالات الدولة الأوروبيين.

ورغم كل هذه الظروف بالغة السوء تم إصلاح الوضع المالى للدولة فى غضون بضع سنين، وانتعشت التجارة، وسُدد جزء مهم من الديون الخارجية للدولة، وما لبثت قوة الجيش أن زادت إلى حد كبير، وبات هذا الوضع يمثل بؤرة اهتمام الدول الأجنبية الكبرى التى لها أواصر صداقة صحيحة مع تركيا.

واستطعنا الاعتماد على الجيش التركى فى مواجهة روسيا التى كانت تريد أن تغلق فى وجه إنجلترا طريق الهند الموصل إلى البحار الدافئة.

ولو ظل عبد الحميد فى السلطة لما وقعت الحرب العالمية الأولى التى كانت الطامة الكبرى، حيث ضيقت الخناق على مصالح الدول الأوروبية الكبرى، وأحاطت بها من كل جانب، وحتى لو فرضنا عكس هذا فإن الاحتمال الأكبر آنذاك هو أن عبد الحميد سيهدى الأمة نصراً مبيناً عن طريق تحييد تركيا وعدم انحيازها إلى طرف من الأطراف المتصارعة.(١٢٧)

أما"جواتز" Goltz رئيس الفريق الألمانى المضطلع بالإصلاح العسكرى فى تركيا فيكتب عن النتائج التى تمخضت عن خدمات السلطان فيقول:"مما لاشك فيه أنه فى غضون السنوات العشر الأخيرة (١٨٨٧ - ١٨٩٧ م) أعيدت للدولة قوتها فى الداخل وشأنها وعزتها وشرفها فى الخارج، وهذا "يعد بمثابة نجاح عظيم لهذه الأمة ، ربما لم تر له مثيلاً فى عصورها الغابرة"(١٢٨)، وكان أرمينوس فامبرى" ممن تابعوا من كثب كل التدابير والإجراءات التى اتخذها السلطان، ويتحدث عن الغبطة والسرور الذى شرح صدور الشعب، والمساعى الحثيثة والجهود الدءوبة التى اضطلع بها السلطان عبد الحميد للنهوض بالأمة والارتقاء بمواطنيها، يقول فامبرى:" لا مراء فى وقدة ذكائه ونشاطه وحيويته، وحبه الشديد لوطنه، أما كونه حاكماً فلم يكن على آثار من والده المرحوم السلطان عبد المجيد، ولا يشبه جده الأعلى السلطان محمود الثانى المصلح الجرىء الذى قضى على الإنكشارية، ولا هو مثل أجداده العظام السابقين الذين اعتلوا العرش العثمانى وكانوا ذوى حنكة وخبرة ودراية، ووسعوا حدود الدولة عن طريق الفتوحات العظيمة،إن عبد الحميد فوق هؤلاء جمعياً، إنه بمثابة تذكار للأب الرحيم بسبب الظروف المتغيرة التى أحاطت به رغم ما فقده أو ضاع من يده".(١٢٩)

---

(١٢٧) Woods ، ص ١١٦- ١١٧ .

(١٢٨) Goltz ، ص ٧ .

(١٢٩) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ٦٩ .

" إن السلطان عبد الحميد لم يضيع فرصة واحدة قط كى يبسط على الجميع طهارة قلبه ونقاء سريرته وحبه للأريحية ومد يد العون والمساعدة، إنه إنسان توقره وتجله زمرة عريضة من الشعب، المسلمون منهم والنصارى على حد سواء".(١٣٠)

" ولقد قابلت أعلى الطبقات التى تشكل بنية المجتمع التركى ورأيت بعينى رأسى أن الأغلبية العظمى منهم لا يوجد بينهم شكَاة أو متضجر من حكم عبد الحميد".(١٣١)

" أما الطبقات الدنيا من الشعب، فإنهم ارتبطوا جميعًا بالسلطان وكانوا يكنون له كل حب وتقدير، ولم يكن يفوت فرصة دون إظهار حب الخير والصلاح باذلا كل ما فى وسعه فى سبيل تحقيق ذلك.

ولقد أنفق أموالاً طائلة سخرها جميعًا لخدمة التعليم والصحة وسلامة الشعب، وبذل قصارى جهده من أجل رفاهية هذا الشعب بعزيمة لا تعرف الكلل أو الملل، من الجائز أن تخشى السلطان عبد الحميد وترهب جانبه، أو تنفر منه وتعافه، بيد أنه لا قبل لك بأن تنكر سعيه وجهده أو عدالته وأريحيته، فقد أصلح أحوال المالية التركية التى بلغت أوج ذروتها فى التبذير والإسراف، ومد فى ربوع الدولة كلها شبكة من الطرق الجديدة، ويكفيه أنه حظى باحترام وتقدير حكام الغرب ورجالات الدول برقته ولطفه ولين جانبه وجوده.

وإن إحياء تركيا وانتعاشها ليدينان بالفضل لوطنية عبد الحميد ومهارته وحميته رغم ما أصابها بعد ذلك من تفسخ وانهيار، ولا سبيل إلى إنكار قيمة عبد الحميد من هذه الناحية".(١٣٢)

---

(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(١٣٢) أوكة ، ص ٨٥ .

ويتحدث فامبرى عن أن السلطة كلها كانت منحصرة فى يد السلطان، ولكنه يستدرك قائلا: "إذا فكرنا مليا فى هذا التكوين العقلى القوى وتلك الذاكرة الحافظة الواعية التى كانت تتابع كل القضايا والمشاكل المهمة وغير المهمة ، الصغيرة والكبيرة لتسنى لنا القول فى اطمئنان دون مبالغة أو شطط بأن السلطان عبد الحميد هو حاكم ذو أهلية وكفاءة تجعله جديراً باعتلاء عرش السلطنة وتجعله يحظى بتقدير من فئات الشعب قاطبة".(١٣٣)

كان السلطان عبد الحميد بإصلاحاته وخدماته رجلا شعبيا بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى، وفاز بعشق عظيم وتقدير عميم ، حتى شاع بين ظهرانى الشعب أنه يملك قدرة سبعة أولياء، ولهذا خلعوا عليه لقب سيدنا السلطان حامد".(١٣٤)

---

(١٣٣) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(١٣٤) بروفيسور دكتور عثمان طوران ،الأدوات الأجنبية المحطمة للمستنيرين الترك ، جريدة، إستانبول الجديدة بتاريخ ٢ يناير ١٩٦٧م.

الفصل الثالث عشر

عبد الحميد الثانى والصهيونية

ظهر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى تيار انفصالى صهيونى يدعو إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها، فقد كان اليهود عباديد[١] أباديد فى شتى أرجاء المعمورة عقب نفيهم وطردهم من بابل وروما، وكانوا يعتقدون فى أرض الميعاد التى سيهبها الله لهم فى كل البلاد التى يذهبون إليها، وبدءوا يعيشون ويداعب خيالهم حلم تأسيس الدولة اليهودية التى سيعودون إليها ذات يوم فى أرض فلسطين.

وإبان حلم هذه العودة قد نرى الشخصية المتحجرة الصلدة للمفكر الصهيونى المسمى "مسيحجى"؛ حيث يرى هذا الصهيونى أنه سوف يأتى منقذ إلهى من نسل داود ، مرسل من عند الله ، حيث يجمع شمل اليهود ويأتى بهم إلى أرض فلسطين ويؤسس لهم الدولة اليهودية فيها، وإن فكرة تأسيس هذه الدولة فى فلسطين تتمثل فى عودة صهيونية "مسيحجى".

وظل اليهود ضعفاء غير ذوى تأثير، وهم يتطلعون إلى انتظار المنقذ الإلهى الذى سوف ينقذهم ويخلصهم، ولكن الموقف تغير تمامًا فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى؛ حيث اضطلع اليونانيون والصرب والرومان والإيطاليون بتأسيس دولهم

---

(١) أى مشتتون ومتفرقون، وهو تعبير لا يستخدم إلا مع ما حدث فى الماضى (المترجم).

القومية دون انتظار " المسيحجي"، بيد أن هذه الأحداث لم تجعل اليهود يتقاعدون عن تنفيذ ما يريدون، ثم ظهر فى أوروبا بعد ذلك ما يعرف باسم عصر القومية إبان القرن التاسع عشر، حيث ظهرت تيارات مناهضة لليهود فى أوروبا حتى وصل الأمر إلى تنفيذ القتل الجماعي والتنكيل بهم.

ولما كان اليهود يعيشون ويراود خيالهم حلم إقامة دولة لهم منذ قرون غابرة ، فإنهم شرعوا فى تنفيذ هذه الفكرة عن طريق تحريض اليهود فى شتى أرجاء المعمورة، فعملوا على حثهم واستنهاض عزائمهم بغية إقامة هذه الدولة.

ويدأ يظهر بين اليهود ما يعرف بعصر الانتقال من صهيونية" المسيحجي" "المخلص المنتظر" إلى الصهيونية السياسية، وكان هناك حاخامان يهوديان هما بمثابة أول ممثلْين حقيقيين لهذا الانتقال، ويسمى الأول" يهودا القالاجي"(١٧٩٨- ١٨٧٨ م) والآخر "زوى هرسش قاليسهر" wihirschkalissherz "١٧٩٥ - ١٨٧٤"، وقد اضطلع هذان الحاخامان بضرب المثل لليهود تمثلا فى الحركات القومية الموجودة فى منطقة البلقان، وشرعوا فى بث الدعاية لتأسيس دولتهم عن طريق الهجرة إلى فلسطين.[(٢)]

وفى أعقاب ذلك أصبح "Mosestless" هو المدافع القوى عن الصهيونية السياسية، ونادى فى كتابه كل يهود العالم إلى الهجرة إلى فلسطين وتأسيس دولتهم تحت حماية فرنسا[(٣)]، ثم شرع الروس فى تبنى فكرة الصهيونية السياسية عندما بدأت أعمال القتل الجماعي تنفذ فى اليهود سنة ١٨٨٠م، وأسس "Leopinsker" جمعية عشاق صهيون فى مدينة أوديسا الروسية، ودعت هذه الجمعية اليهود للهجرة إلى فلسطين، كما دعت كذلك أغنياء اليهود للمساهمة المالية لتدعيم هذه الهجرة.[(٤)]

---

(٢) Alan.R.Talylor ، الفكر الصهيوني ، أصوله وتطوره ، معهد الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٧٤م ، ص ٦١١ .

(٣) Moseshess ، الروم والقدس ، نيويورك ١٩١٨ ، ص ١٥٦- ١٥٧ .

(٤) solomon grayzel ، تاريخ اليهود منذ نفى بابليون حتى الوقت الحاضر بنيويورك وتورنتو ١٩٦٨ م ، ص ٥٧٦ .

الموانع التى فرضها عبد الحميد على هجرة اليهود إلى أرض فلسطين

كان استمرار عمليات القتل الجماعى لليهود فى روسيا سببًا قويا فى إجبارهم على الهجرة من روسيا، وبدأت قوافل الهجرات اليهودية تترى فى إثر بعضها إلى فلسطين تحت تأثير الدعاية الصهيونية.

ولا جرم أن هذه الهجرات قد حدثت قبل ذلك بفعل هذه الدعاية نفسها ، ثم أخذت الهجرات الجماعية القادمة من روسيا تجذب الاهتمام، وبات من الضرورى منعها والحد من تدفقها. وبدأت قرارات المنع الصادرة من الإدارة السلطانية تظهر منذ بداية عام ١٨٨٢م.

ولكن لماذا لجأ عبد الحميد إلى هذه الطريقة؟ كان السلطان يرى أن هجرة اليهود إلى تركيا قد نجم عنها عنصر انفصالى جديد يدعو إلى تقسيم الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها، وكان ظهور هذا التيار بمثابة فتح الباب من جديد أمام الدول الكبرى لتتدخل وتكون سببًا فى إزعاج الدولة العثمانية وقضّ مضجعها وتكدير صفو حياتها.

كما أن السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين يمكن أن يضايق العرب وينغص عليهم حياتهم، وما لبثت ردود الأفعال العربية أن ظهرت مدوية بمجرد شروع اليهود فى هجراتهم إلى أرض فلسطين.

وأصدر السلطان فى سنة ١٨٨٢م ثلاثة فرمانات سلطانية تقضى بمنع هذه الهجرات وورد فيها: أن اليهود المهاجرين إلى القدس سوف يؤسسون فيما بعد حكومة يهودية فيها، ويجب علينا إجلاؤهم من أراضى الدولة العثمانية ثم يؤتى بهم إلى الساحل ليركبوا متن السفن ويُرسل بهم إلى أمريكا، ولا قبل لنا باستقبال اليهود الذين تلفظهم أوروبا وترفض إقامتهم بين سكانها، فاليهود القادمون سوف يكونون بمثابة مصدر للفساد، ثم طالب السلطان باتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة لوقف هذه الهجرات المتدفقة.(٥)

---

(٥) جواد رفعت أتيلاخان ، فاجعة ٣١مارس ، إستنابول ١٩٧٢م، ص ٤٢-٤٣ .

ويدون عبد الحميد في مذكراته ما يتعلق بالهجرات اليهودية فيقول: " نحن نحتاج إلى مراجعة جميع الإجراءات والتدابير اللازمة المتصلة بالهجرة من أجل إسكان الأراضى الخالية الواقعة على حدود إمبراطوريتنا، ولكننا لا طاقة لنا بقبول الهجرة اليهودية، لقد انقضت العهود التى كنا ندخل فيها الأجانب من ذوى الديانات الأخرى فى ديانتنا وبين لحمنا وكأنهم جبيرة لا تنفصم عنا ألبتة. ولا نستطيع أن نقبل داخل حدود دولتنا إلا من هم من نفس دولتنا ويشتركون معنا فى العقائد الدينية.(٦)

إن اليهود المصرِّين على الاستقرار والتوطن فى أرض فلسطين كانوا يبحثون عن سُبل لاختراق موانع الهجرة التى فرضتها الدولة العثمانية، وقام هؤلاء اليهود فى هذا السبيل بتقديم الرِشَى(٧) الكبيرة إلى مؤسسات الدولة الرسمية للسماح لهم باستمرار هجراتهم، وقد اضطرت الدولة العثمانية إلى اتخاذ إجراءات جديدة أكثر فعالية وتأثيراً ضد هذه الهجرة رغم الموانع التى فرضتها من قبل(٨)، وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢م مُنع الحجاج اليهود من كل الجنسيات المختلفة من دخول أرض فلسطين، وفى الخامس من مارس عام ١٨٨٣م صدر قرار يحظر بيع أراضٍ لليهود فى فلسطين، وفى ٣ أبريل سنة ١٨٩٣م شمل هذا القرار كذلك بيع الأراضى لليهود من مواطنى الدولة العثمانية.(٩)

وما لبث اليهود بعد ذلك أن مارسوا ضغوطهم على الحكومة العثمانية حتى تلغى قرارات منع الهجرة التى تصعب عليهم الاستقرار فى أرض فلسطين، وفى فبراير عام ١٨٨٤م التمس "Fernande" زعيم الجمعية اليهودية فى إستانبول من وزارة الداخلية العثمانية أن تأذن له أن يكون مديراً عاماً للمكتب العالمى للاتحاد الإسرائيلى فى

---

(٦) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص٥٧ .

(٧) جمع رشوة (المترجم).

(٨) William yale ، التاريخ الحديث للشرق الأدنى ، نيويورك ، ١٩٥٨ ، ص ٥٧ .

(٩) كمال أوكة ، عبد الحميد الثانى والصهاينة وقضية فلسطين ، إستانبول ١٩٨١م ، ص ٨٨-٩٨ .

الشرق، وردت عليه الوزارة قائلة: إنها لن تسمـــح باستمـرار الهجـرة إلى فلسطين، ولا تريد ظهور المسألة البلغارية الثانية على أرض فلسطين.

واستعان اليهود كذلك بشخص يدعى "Baronde hirsch" المتعهد بإنشاء سكك حديد الروملى فى الدولة العثمانية وبغيره من الأثرياء المشاهير، ولكن الحكومة العثمانية رفضت كل هذه الوساطات.(١٠)

وواظب اليهود على اللجوء إلى الحيل الماكرة والدسائس الخبيثة للاستعانة بها فى مواجهة موانع الهجرة التى فرضتها الدولة العثمانية، وبدءوا فى هذه المرة يمارسون الهجرة فى حماية قناصل دول ألمانيا وروسيا وإنجلترا بصفتهم رعايا تابعين لهذه الدول، وبناء عليه صدر قرار جديد عام ١٨٨٧م بمنع هجرة اليهود من رعايا الدول الأجنبية.(١١)

وفى عام ١٨٩١م منع السلطان محاولة أخرى اضطلع بها "Baron de hirch" الذى حاول الاستفادة من الأزمة المالية التى تمر بها الدولة العثمانية طالبا إليها شراء أرض فى فلسطين لتكون بمثابة وطن يستقر فيه اليهود الذين يعانون الظلم والتعسف فى روسيا، ولكن السلطان رفض هذا الطلب.(١٢)

وفضلاً عن هذا فقد بدأت كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تمارسان ضغوطهما على السلطان عبد الحميد(١٣). وتلقى مستر مالك Malik نائب السفير الإنجليزى فى إستانبول خطة مشروع من إنجلترا قدمه إلى الباب العالى، وعرض فيه على الحكومة العثمانية إزالة العوائق التى تحول دون تهجير اليهود إلى فلسطين

(١٠) Friedman ، ألمانيا وتركيا والصهيونية ١٨٩٧– ١٩١٨م– أكسفورد ١٩٧٧، ص ٤٠–٤١ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(١٢) حمدى آتامر ، الدولة اليهودية المراد تأسيسها فى الأناضول ، مجلة التاريخ التركى بالوثائق ، جـ١ ، عدده ، ص ٢٤ .

(١٣) Fried man ، ص ٤٨ .

واستقرارهم فيها زاعماً في دعواه أن هذا سيحقق منافع جمة للدولة العثمانية، ورُفض هذا العرض الذي لن يعود بالنفع على الدولة العثمانية.[١٤]

برنامج مدينة بازل في سويسرا

في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عمت فكرة العداء لليهود كل أنحاء أوروبا الغربية بعد انتشارها في روسيا، وشنت ألمانيا وفرنسا هجمات ضد اليهود، وفي يناير سنة ١٨٩٥ م وقعت حادثة" درفوس" Drefüs [١٥] في باريس. لا سيما أنها أحدثت تأثيراً عميقاً في "تيودر هرزل" الصحفي ورجل القانون النمساوي، وكتب كتاباً باسم **الدولة اليهودية** وذكر فيه أنه من الممكن إقامة دولة يهودية تجمع اليهود كلهم في أرض فلسطين، ثم أضاف يقول: " لو وافق السلطان عبد الحميد على منح فلسطين لنا، فإننا سوف نتعهد بإعادة الوضع المالي لتركيا برمته إلى سابق عهده من الانتظام والاستقرار".[١٦]

وتضمن هذا الكتاب طائفة من الاقتراحات لإنشاء الدولة اليهودية، وعقد مؤتمر عالمي صهيوني بمدينة بازل بسويسرا في ٢٩ أغسطس ١٨٩٧م ، وانضم إليه مائتان وأربعون وفداً من سبع عشرة دولة، وتمت الموافقة في نهاية الاجتماع على ما يسمى "برنامج بازل أو مشروع بازل"، وورد في هذا المشروع أن هدف الصهيونية هو إنشاء وطن لليهود في فلسطين يضمن لهم كل حقوقهم القانونية، وقرر المشروع كذلك تأسيس مستعمرات زراعية وصناعية لليهود في هذه المنطقة وتأسيس منظمات يهودية محلية،

---

(١٤) عبد الحميد الثاني ، أرائي في الدولة والأمة ، ص ٤٣ .

(١٥) هو ضابط يهودي من أصل فرنسي يدعى ألفريد فوس،اتهم بنقل معلومات عسكرية سرية فرنسية قدمها للألمان ، وبدأت العداوة لليهود في فرنسا، وبعد محاكمته ظهرت براءته في يوليو سنة ١٨٩٦م، وتبين أن الكولونيل.

(١٦) تيودر هرزل ، الدولة اليهودية ، تل أبيب ، ١٩٥٦ م، ص ٦٦ .

والتحريض على القومية اليهودية، وتقرر أيضًا تأييد الدول من أجل تحقيق هدف الصهيونية.(١٧)

كان هذا المؤتمر وبرنامجه بمثابة الموافقة على تشكيل دولى يوافق على تحقيق الأهداف الصهيونية فى أرض فلسطين، وتم اختيار "تيودر هرزل" رئيسًا للجنة الصهيونية العالمية التى ستضطلع بتنفيذ هذا البرنامج الذى وضع كأساسٍ لإنشاء دولة يهودية.

الاقتراحات التى عرضها هرزل على السلطان عبد الحميد

كانت فلسطين أرضًا تابعة لولاية سوريا الخاضعة للدولة العثمانية، ولو استطاع الصهاينة التفاهم مع الدولة العثمانية والاتفاق معها لأدى ذلك إلى حل كثير من المشاكل فى سهولة ويسر، ثم ما لبث تيودر هرزل أن جاء إلى إستانبول قادماً من فيينا فى ١٧ يونيو سنة ١٨٩٦م.

وكان فى معيته رجل بولونى يدعى" كونت فيليب دى نيولنسكى" وهو أحد أعضاء البوليس السرى للسلطان عبد الحميد الذى كان موجوداً فى أوروبا، وكان هرزل يرغب فى استخدام هذا الرجل ليكون وسيطًا بينه وبينه السلطان عبد الحميد مقابل مبلغ مالى يحصل عليه، وعلى حين كان" نيولنسكى" يبحث عن وسيلة تمهد الطريق للقاء هرزل وجهًا لوجه مع السلطان عبد الحميد، فإن هرزل قام بعقد لقاءات مع كل من "Yakovalv"، وهو يهودى الأصل ويعمل مترجمًا فى السفارة الروسية بإستانبول، ومع "داود أفندى" الذى يعمل رئيس المترجمين فى وزارة الخارجية العثمانية.

وعقد اجتماعا آخر مع" عزت بك" الكاتب الثانى للسلطان، ومع الصدر الأعظم "خليل رفعت باشا" من أجل الوقوف على انطباعاتهم وردود أفعالهم بشأن المشروع

(١٧) ناحوم سولوكو ، تاريخ الصهيونية ١٦٠٠-١٩١٨م، نيويورك ١٩٦٩م ، ص ٢٦٨- ٢٦٩ .

الذى يسعى إلى عرضه على السلطان، وقد ورد فى اقتراح هرزل ما يأتى:" أن يتم فتح أرض فلسطين ليستوطن اليهود فيها فى مقابل منح الحكم الذاتى لبلغاريا أو مصر، وتكون أرض فلسطين فى نفس الوقت تابعة للدولة العثمانية مرتبطة بها.

ولسوف يؤدى هذا إلى تقوية الموقف المالى للدولة العثمانية وينقذها من الوصاية المفروضة عليها فى أوروبا، وسوف يتم منح الدولة العثمانية عشرين مليون ليرة عثمانية، وسنبذل قصارى جهدنا لإجهاض الإرهاب الأرمنى الذى يعمل ضد الدولة العثمانية، وحينئذ سوف يولى الرأى العام العالمى وجهه شطر السلطان عبد الحميد مؤيدًا إياه.

وتم رسم حدود الأراضى المراد الاستيلاء عليها على النحو الآتى: فى الشمال: جبال قبادوقيا" جبال طروروس الوسطى"، وفى الجنوب: المنطقة الممتدة حتى قناة السويس. واستمرت الشعارات الصاخبة التى تنادى بوجوب أن تكون فلسطين هى دولة داود وسليمان".(١٨)

اضطلع اليهوديان yakovalv وداود أفندى بتأمين هرزل بصورة مباشرة، وتحدثا عن سلوكه المتسم بالرزانة ورباطة الجأش، وحصل هرزل على إجابات شافية من خليل رفعت باشا وعزت بك اللذين كانت انطباعاتهما بالنسبة لهرزل بالغة السوء.

ولكن ماذا عسى أن يكون رد السلطان عبد الحميد؟ لقد أخفق" نيولنسكى" فى تمهيد السبيل لعقد لقاءات ثنائية بين هرزل وعبد الحميد، وفى النهاية حسم عزت بك الموقف ورد على نيولنسكى ردا قاطعا أخبره فيه أن السلطان مريض، ومن المتعذر عليه مقابلة هرزل، ولما فشل هرزل فى مقابلة السلطان وجهًا لوجه أراد فى هذه المرة أن يقدم مقترحاته للسلطان بواسطة" نيولنسكى" ، حيث قدم للسلطان عبد الحميد مقترحات هرزل وطلباته المتعلقة بفلسطين.

---

(١٨) اليوميات الكاملة لتيودر هرزل ، حررها ، Raphauelpatai ، جـ١، مطبعة هرزل، توماس يوسلوف ، نيويورك ولندن ١٩٦٠م ، ص٣٤٢، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٨٧ .

وكان هرزل آنذاك ينتظر بشوق عارم ردا شافيا من السلطان عبد الحميد، وعاد "نيولنسكى" من اللقاء الرسمى بالسلطان ولم يكد يراه هرزل حتى أسرع نحوه سائلاً إياه، ماذا قال، ماذا قال ؟ وسرعان ما جاء رد نيولنسكى على هذا النحو: " لقد عجزت عن فعل أى شىء، ورفض السلطان الاستماع إلى أى شىء يتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، وقال لى: لو أن مستر هرزل صديق حميم لك مثلما أنت صديق حميم لى ، فإنى أوصيك أن تنصحه بألا يقدم على خطوة أخرى لمناقشة هذا الموضوع ألبتة.

إننى لا أستطيع بيع شبر واحد من الأرض، فهذا الوطن لا يخصنى وحدى، بل يخص الأمة كلها، لقد أقامت أمتى هذه الإمبراطورية مضحية بدمائها فى ميدان المعارك والحروب.

ونحن الآن نروى هذه الأرض مرة ثانية بدمائنا قبل أن تقتلع وتُنتهب من أيدينا، لقد سقطت فرقة عسكرية فلسطينية سورية شهداء فى معركة "بلونة" plevne ، وضحوا بأرواحهم فى ميدان المعارك ولم يعودوا إلى أوطانهم. إن أراضى الإمبراطورية التركية تخص الوطن وحده ولا قبل لى بالتنازل عن جزء منها، وليضطلعوا هم بحماية اليهود والدفاع عنهم، أما أنا فإذا مزقت أوصال إمبراطوريتى فسوف يكون لليهود حينئذ ما يكون من أرض فلسطين دون أى مقابل، ويمكن أن يؤدى هذا إلى تقسيم وتقطيع أجسادنا، وأنا لا أوافق على إجراء عملية جراحية فى جسد كائن حى".(١٩)

ارتج تيودر هرزل رجة عنيفة زلزلت كيانه وعصفت به أمام رد عبد الحميد على مقترحاته التى عرضها، بيد أنه لم يفقد الأمل، ولنقرأ بعض ما ورد فى مذكراته حيث يقول:" إن كلمات السلطان الصادقة العظيمة قد تركت فى نفسى تأثيراً قوياً، كما أنها هزتنى هزة عنيفة، وحطمت كل آمالى وطموحاتى التى كانت تراودنى، وكان هذا الرد بمثابة جواب مأساوى شديد المرارة مقرون بالتعصب الذى سيسوق إلى التمزق والموت،

---

(١٩) هرزل ، اليوميات الكاملة ، ص ٣٧٨ .

ومع هذا فإننا سوف نناضل حتى الرمق الأخير من حياتنا حتى لو كانت هذه المقاومة ضعيفة واهية".(٢٠)

ثم عاد هرزل من إستانبول إلى فيينا فى أول يوليو سنة ١٨٩٦م وهو مفعم بالمشاعر والأحاسيس الحزينة، وكان السلطان قد منح هرزل فى ذلك الإبان وسام الماجدية من الطبقة الثانية.(٢١)

قدم هرزل إلى إستابول مرة أخرى فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٩م فى أعقاب زيارة الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى، وكان الغرض من زيارته أن يقنع الإمبراطور الألمانى السلطان بموضوع أرض فلسطين، بيد أن ويليام الثانى قال لهرزل: عليك أن توضح ماذا تريد أن أقوله للسلطان.

فطلب إليه هرزل أن يستأذن السلطان فى وضع الشركات اليهودية فى تركيا تحت الحماية الألمانية، فرد عليه ويليام الثانى: حسنٌ ، لقد سمح لهذه الشركات بهذا الامتياز.(٢٢)

ولم يكن هناك شرط مسبق لكى يعرض ويليام الثانى مقترحات هرزل وطلباته على السلطان، ومن المحتمل أن الإمبراطور الألمانى لم يناقش هذا الموضوع قط مع السلطان من أجل المحافظة على أواصر العلاقة القوية معه، ثم ذهب هرزل بعد ذلك إلى القدس فى معية الإمبراطور الألمانى وصحبه أيضًا فى أثناء عودته إلى أوروبا.

لم يتردد هرزل طوال مدة وجوده فى أوروبا فى البحث عن أية فرصة تتيح له عقد لقاء مباشر مع السلطان عبد الحميد، وبعد وفاة "نيولنسكى" وجد هرزل فى "أرمينوس فامبرى" خير من يحل محله للاضطلاع بدور الوسيط بينه وبين عبد الحميد ، وقد نجح فامبرى فى تحديد موعد اللقاء بينهما عقب فراغ السلطان من مراسم موكب يوم الجمعة.

---

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٣٧٩ .

(٢١) Amosalen ، هرزل ، رينهارد وينستون ، نيويورك ١٩٧٥ م ، ص ٣٣١ .

(٢٢) هرزل ، اليوميات الكاملة ، جـ٢، ص ٧٢٧، ٧٣٤ .

وكان هذا فى ١٩ مايو سنة ١٩٠١م، وقام بالترجمة "إبراهيم بك" مترجم القصر السلطانى، ولكن هرزل طلب أن يكون اللقاء سريا، فتم له ما أراد.

وفى أثناء اللقاء عرض هرزل المقترحات التى تحدثنا عنها آنفا، وبعد مناقشات دامت طويلا طلب السلطان إلى هرزل ألا يناقش صراحة أى موضوع يتعلق بتصفية ديون الإمبراطورية العثمانية، وسوف يقوم إبراهيم بك بإحاطته علماً بالرأى القاطع فى هذا الموضوع.(٢٣)

ثم خرج هرزل من القصر السلطانى، وغادر إستانبول فى ٢١ مايو سنة ١٩٠١م وكان يتمنى الكثير من هذا اللقاء، وبدأ على الفور فى البحث عن رءوس الأموال فى أوروبا لتكون أساسا يعتمد عليه فى سداد ديون الدولة العثمانية، وطوف بكل بلاد أوروبا وزار أثرياء اليهود طالباً منهم فتح خزائنهم لتحقيق هذا الغرض.

كانت الزيارة التالية لهرزل إلى إستانبول فى ٥ فبراير سنة ١٩٠٢ بناء على برقية تلقاها من قصر يلدين، وتوجه مباشرة إلى القصر السلطانى ولم يلتق بالسلطان، وطلب عقد لقاء مع عزت باشا ليبحث معه الموضوعات التى يريد مناقشتها، وتم فى هذا اللقاء مناقشة موضوع تصفية ديون الدولة العثمانية، وقال عزت باشا: إنه لم يناقش المقترحات المتعلقة بفلسطين، وسداد الديون، وقال عزت باشا إن اليهود لو قاموا بالتنقيب عن المعادن فى المناجم العثمانية فإن أبواب الدولة العثمانية سوف تفتح حينئذ أمامهم، ولكن هؤلاء القادمون سوف يتركون قومياتهم القديمة و يندرجون فى مواطنة الدولة العثمانية، ومن الممكن توطينهم وإسكانهم فى ولايات أخرى من الإمبراطورية العثمانية، وليس فى فلسطين.

ولكن هرزل كان يصر على فلسطين، ويكتب فى مذكراته عما تمخض عن هذه اللقاءات فيقول: " لقد رفضت من فورى أى امتياز يمنح دون فلسطين".(٢٤)

---

(٢٣) المصدر السابق ، جـ٣، ص ، ١١١٠-١١٢٠ .

(٢٤) هرزل ، اليوميات الكاملة ، جـ٣، ص ١٢٢٢ .

ثم عاد هرزل إلى ڤيينا فى ٢١ فبراير سنة ١٩٠٢ ، دون أن يتوصل إلى اتفاق قاطع فى هذه اللقاءات، وجاء مرة أخرى إلى إستانبول فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٠٢ م تلبية لبرقية تلقاها من قصر يلديز.

وبذل جهوداً حثيثة كى يظفر بلقاء السلطان الذى طلب عقد هذه اللقاءات مع الصدر الأعظم سعيد باشا الذى كرر على مسامع هرزل اقتراحات عزت باشا سالفة الذكر، ولم يكن هرزل مسروراً من النتائج التى تمخضت عن هذه اللقاءات، وجاء إلى القصر والتقى بتحسين باشا رئيس الديوان السلطانى، وعرض عليه رغبته فى مقابلة السلطان وجهًا لوجه، ولقد أعلمه تحسين باشا بموقف السلطان من هذه المسألة. رُفض طلب المقابلة، ثم قدم السلطان رسالة خطية إلى هرزل عن طريق تحسين باشا جاء فيها: " يمكننا قبول اليهود فى تركيا بشروط هى: أن يعيشوا فى أماكن متفرقة. ويتم تحديد أماكن إقامتهم عن طريق الحكومة، وينضوون فى إطار المواطنة العثمانية، ويضطلعون بجميع الوظائف والخدمات المتعلقة بالمواطنة كالجندية وغيرها بما يتفق وقوانين الدولة العثمانية".(٢٥)

رفض هرزل كل هذه الطلبات التى عرضها السلطان، ولم يقبل مأوى آخر دون فلسطين، وذلك فى إطار الوفاء ببرنامج مؤتمر بازل.

ويكتب تحسين باشا عن سبب رفض السلطان موضوع فلسطين قائلاً: "رأى عبد الحميد طائفة من المحظورات فى هذه القضية منها: أن هذه القضية سوف تكون سببًا فى محظورات سياسية بسبب الأماكن المقدسة المحيطة بفلسطين، وسوف تشتعل النزاعات كل عام بسبب الكنيسة وما يتصل بها من الطقوس والشعائر الدينية مما ينجم عنه صداع مستمر للحكومة العثمانية، ولهذا كان انضمام اليهود لهذه المسألة لا يروق السلطان كثيراً، وما لبث الصهيونى النمساوى هرزل أن عاد إلى بلده خاوى الوفاض".(٢٦)

---

(٢٥) المصدر السابق ، جـ٤، ص ١٣٣٦، ١٣٣٧ .

(٢٦) تحسين باشا ، ص ٨٠ .

متابعة شديدة صارمة للحركة الصهيونية

بدأ السلطان عبد الحميد يتعقب بشدة أثر الحركة الصهيونية عندما أحس بأنها حركة انفصالية ، مثلها فى ذلك مثل غيرها من الحركات التى تهدد كيان الدولة العثمانية، ويشرح هذا فى مذكراته قائلاً: " إن اليهود باتوا أصحاب قوة فى أوروبا أكثر مما هم عليه فى الشرق".

ولهذا السبب فإن كثيراً من الدول الأوروبية استقبلت هجرتهم إلى فلسطين استقبالا حسنًا حتى يتمكنوا من التحرر من الجنس السامى الذى حقق زيادة مطردة، بيد أنه يوجد فى دولتنا عدد كاف من اليهود، وإذ أردنا المحافظة على تفوق العنصر العربى المسلم فى فلسطين، فإنه يتوجب علينا حينئذ التخلى عن فكرة توطين اليهود فى فلسطين.

ولو حدث العكس واستقر بهم المقام فيها ، فإنهم سوف يستحوذون على كل مقاليد القوة فى غضون فترة وجيزة، ونكون بهذا قد وقعنا بأنفسنا قرار الموت والهلاك لإخواننا فى الدين، ولن يستطيع هرزل شفيع اليهود إقناعى بأى حال من الأحوال، ولسوف تحل مشكلة اليهود ذات يوم عندما يدير الفلاح اليهودى محراثه بيده وتقوى شوكته، وهذا قول صائب تفوه به هرزل.

فقد أراد أرضًا من أجل إخوانه فى الدين، ولكن الذكاء ليس بكاف لحل كل شىء، لم يكن الصهاينة يرغبون فى إقامة الزراعة فى فلسطين فحسب، بل كانوا يسعون إلى تأسيس حكومة واختيار ممثلين سياسيين لهم. وأنا أدرك جيدا الغاية التى يسعون إليها لتحقيق أحلامهم الطامعة، وإذا كانوا يحسبون أنى سوف أقبل محاولاتهم التى يبذلونها فإنهم يكونون سذجا أغرارا، ولو أننى اهتممت باليهود على أنهم أفراد من شعبنا يعيشون داخل إمبراطوريتى ، فإننى حينئذ أكون عدوا لدودا لأحلامهم التى يعقدون العزم على تحقيقها فى فلسطين.[٢٧]

---

(٢٧) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ٦٠-٦١ .

ذهبت المساعى التى كان يبذلها هرزل سدى فى سبيل كسب ثقة السلطان من أجل إقامة مستعمرات يهودية فى أرض فلسطين. ولما رأى السلطان أن الأقليات القومية الأخرى سوف تنتقل من مرحلة الحكم الذاتى للمطالبة بالاستقلال التام، أسرع من فوره برفض مقترحات اليهود وواجهها باهتمام شديد.(٢٨)

شرع السلطان مع بداية عام ١٨٨٢م يتابع من كثب أوجه النشاط المختلفة لليهود فى أوروبا كما سبق له من قبل أن منع الهجرات اليهودية، ويصنع العراقيل كل عام للحيلولة دون تدفق هذه الهجرات، وهم من فوره بإرسال فرمان سلطانى خاص إلى سفارتنا فى برلين وڤيينا وواشنطن وإنجلترا وباريس يطالبهم فيه بجمع كل المعلومات المتصلة بالصهيونية وإرسال تقارير تحيطه علما بكل شىء يتعلق بالصهيونية.

" وأخذ السفراء يضطلعون تارة بعقد لقاءات مع الوجهاء البارزين الموجودين فى هذه الدول، أو يقومون بمتابعة تطورات الصهيونية بإرسال الجواسيس إلى المؤتمرات الصهيونية تارة أخرى"(٢٩)، وقام السفير العثمانى فى برلين بإرسال موظف ليتابع جلسات الصهاينة فى مدينة بازل السويسرية. وكتب أحمد توفيق باشا فى تقريره الذى أرسله إلى الباب العالى: إن اليهود يخططون لإقامة دولة كبيرة لهم فى فلسطين.

لقد أراد أحمد توفيق باشا أن يشد انتباه وزارة الخارجية العثمانية تجاه سياسة التوسع والانتشار التى يخطط لها الصهاينة للاستقرار أو الاستيطان فى أرض فلسطين، وسجل فى تقرير أن المتحدثين فى المؤتمر كانوا عاقدى العزم على تنفيذ مآربهم، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت لا يتحدثون عن المشاكل المعيشية للأمة اليهودية حتى يتمكنوا من إخفاء أهدافهم الحقيقية الخبيثة التى تنطوى عليها قلوبهم.(٣٠)

---

(٢٨) yale ، ص١٤٦ .

(٢٩) أوكة ، عبد الحميد والصهاينة ، ص١٢٥ .

(٣٠) أوكة ، عبد الحميد الثاني وعصره ، ص ١٣٩ .

بذل تيودر هرزل جهودا مكثفة حتى يتمكن من كسب التأييد للصهيونية لدى الحكومات الأوروبية ، ووعد رؤساء حكومات الدول الذين قابلهم بأن يكون اليهود بمثابة جندى الحراسة الذى يحقق لهم آمالهم ومصالحهم فى منطقة الشرق الأوسط فى مقابل التأييد القوى الذى يقدمونه لليهود لإقامة دولتهم فى أرض فلسطين.

لم يغض السلطان عبد الحميد الطرف عن المحاولات والمبادرات التى يسعى إليها هرزل، ولم يغفل عنها طرفة عين، وأسرع بإرسال رسائل إلى حكام الولايات طلب إليهم فيها اتخاذ التدابير والإجراءات اللازمة ضد هذه الأنشطة الصهيونية، لاسيما أن ألمانيا قد اهتمت بتطور هذه الأحداث لأن هرزل قد استفاد كثيرا من ألمانيا فى سبيل تحقيق مشروعه الذى عقد النية على تنفيذه، وتمخض عن مساعى هرزل لدى ألمانيا شروع إمبراطورها ويليام الثانى فى النظر بعين العطف والمرحمة إلى الصهيونية معتقدا أن تأييدها سيكون بمثابة فائدة جمة للسياسة الألمانية التى تريد توسيع رقعة نفوذها صوب الشرق.

وقد تضايق السلطان كثيراً من هذه السياسة، ولكن الدبلوماسية العثمانية انتصرت فى خاتمة المطاف حيث قامت ألمانيا فى ٢٨ يناير سنة ١٩٠٤م بنشر مذكرة دبلوماسية صرحت فيها بأنها لا علاقة لها قط بالصهاينة الموجودين فى ألمانيا، كما أنها لا تضطلع بتقديم أى ضرب من المساعدة لتأييد السياسة الصهيونية على أى نحو من الأنحاء.(٣١)

أما إيطاليا وروسيا فقد أحجمتا عن تأييد الصهيونية حتى تحولا دون إظهار منافسين لهم من اليهود يحلون محلهما فى الأماكن المقدسة فى فلسطين.

أما فرنسا فكانت تنظر بفتور إلى القضية اليهودية لكونها تمثل عقبة كأداء تحول دون تثبيت أركانها فى منطقتى فلسطين وسوريا زاعمة أنها صاحبة الحق التاريخى فى هاتين المنطقتين.

---

(٣١) David yisraeli ، ألمانيا والصهيونية، ألمانيا والشرق الأوسط ، ص ١٨٣٥- ١٩٣٩م الندوة الدولية أبريل ١٩٧٥ م. تل أبيب ١٩٧٥، ص ١٤٣ .

ثم يأتي الدور على أمريكا التى كانت ترى نفسها البطل المحافظ على الحرية فى العالم، وتعتبر الإمبراطورية العثمانية دولة تنتهج سياسة الظلم والتعسف والاستبداد تجاه الدول الأخرى، ولهذا فإنها تحمى العالم من ظلم هذه الإمبراطورية، فشرعت فى تأييد الأرمن واليهود وتعضيدهما وشد أزرهما، وكان التمثيل الدبلوماسي الأمريكى فى تركيا من اليهود، حيث كان سفيرها "os corstrous" يفعل كل شيء من أجل الصهيونية، حتى بلغ به الأمر أن عرض رشوة من أجل تحقيق مآربها.(٣٢)

ثم شرع سفيرنا فى واشنطن"على فروغ بك" فى ممارسة نشاطه السرى من أجل توهين وإضعاف السياسة الأمريكية تجاه الصهيونية، واستفاد فى هذا السبيل من المدعو" محمد ويب" زعيم المسلمين فى أمريكا.(٣٣)

ولما كانت أمريكا فى تلك الحقبة من الزمان تقف بمنأى عن سياسة الشرق الأوسط ، فإنها لم تفعل شيئًا أكثر من هذا فيما يخص المسألة الصهيونية ، وتمخضت كل هذه التطورات المتتابعة عن شروع الصهاينة فى الارتباط الوثيق بالقوة العظمى المتمثلة فى إنجلترا كى تحقق آمالها وطموحاتها.

كانت إنجلترا تسعى إلى الاستقرار التدريجى فى منطقة الشرق الأوسط، وأخذت تبحث داخل هذه المنطقة عن عناصر تعتمد عليها فى تنفيذ سياستها، وما لبثت أن نظرت بعين العطف إلى الصهيونية لتكون بمثابة سندٍ لها فى منطقة الشرق الأوسط إذا تعرضت قوتها العسكرية فيها للخطر، وسرعان ما ازداد هذا التعاطف واطرد اطرادًا واسعا، ولهذا السبب وحده خضعت فلسطين للاحتلال الإنجليزى فى نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم أعقب هذا خضوعها لحكومة الانتداب الإنجليزى الذى مهد السبيل فيما بعد لإقامة الدولة اليهودية، وهذا يعنى أن إسرائيل كانت أثرا من آثار الإنجليز؛ حيث جعلوها بمثابة جندى حراسة لها فى منطقة الشرق الأوسط، ولكن الإنجليز لم يكن لهم تأثير فعال على الصهيونية إبان عصر السلطان عبد الحميد الثانى.

---

(٣٢) لم يكن ثمة ظلم أو اضطهاد مارسه عبد الحميد على المواطنين اليهود من العثمانيين.

(٣٣) أوكة ، عبد الحميد والصهاينة ، ص ١٤٨- ١٥٥ .

وكانت الصحف تصدر بيانات تتضمن آراء الدولة العثمانية، وذلك فى إطار سياستها التى كانت ترمى إلى الحيلولة دون انتشار الصهيونية خارج حدود الإمبراطورية، وصدرت تعليمات مشددة إلى سفراء الدولة العثمانية بعدم منح تأشيرات لليهود الذين يريدون الذهاب إلى تركيا.

وقد اشتد غضب عبد الحميد من استعانة هرزل بالحاخام الأكبر لليهود فى تركيا، واستدعى هذا الحاخام إلى القصر وقال له:" لقد كنت أقدر صداقتك حق قدرها حتى الأيام الأخيرة، ولكنك بدأت تنأى بعيدا عن صداقتنا منذ مجىء هرزل إلى البلاد، وأنت تعلم علم اليقين بأننى لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من تراب أمتنا، فكيف يتسنى لك إحضار شخص ما ليعرض علينا هذا الاقتراح؟ وعليك أن تفكر مليا فى فداحة المصائب التى ستحل على رأسى لو أننى قبلت واحداً فى المائة مما عرضه علىَّ هرزل".(٣٤)

ويقول "Avramgalanti" اليهودى الأصل إن هذا الحاخام الأكبر الذى ناف على السبعين قد ندم على فعْلته أمام السلطان وأصابه الخوف وانخرط فى بكاء شديد، وخر على قدميه مقبلا إياها طالبا العفو والمغفرة قائلا إنه لا علاقة لى بهذا العمل المشين من قريب أو بعيد.(٣٥)

ورغم كل الموانع والعراقيل التى وضعتها الحكومة العثمانية، فإن الهجرات اليهودية إلى فلسطين إبان فترة حكم عبد الحميد كانت جد قليلة.

وعندما بدأت هذه الموانع فى سنة ١٨٨٢م، كان عدد اليهود فى فلسطين قد بلغ خمسة وعشرين ألفًا، ثم وصل هذا العدد فى سنة ١٩٠٨م إلى ثمانين ألفا، ورغم الموانع التى كانت مفروضة فى تلك الفترة فقد تم بيع مائتين وخمسين كيلو مترًا مربعًا من الأرض مقابل دفع مبالغ مالية كبيرة، وتم تأسيس ست وثلاثين مستعمرة يهودية.

---

(٣٤) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ، ص ٣٩٠ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٣٩١ .

الفصل الرابع عشر

المسألة المقدونية

كانت المسألة المقدونية إحدى النكبات الكبرى التي سهلت إقصاء عبد الحميد عن العرش، ومهدت السبيل كذلك إلى ثورة جماعة تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨، كانت هناك ثلاث ولايات في التاريخ العثماني تتكون منها مقدونيا وهي: سلانيك ومناستير وقوصوة ، ثم دخلت هذه الولايات الثلاث ضمن حدود بلغاريا الكبرى بموجب معاهدة برلين، وقام الباب العالي بإصلاحات كبيرة في هذه الولايات تنفيذاً للمادة الثالثة والعشرين من المعاهدة سالفة الذكر.

ظهور المسألة المقدونية

كانت بلغاريا والبلغار هما السبب في ظهور المسألة المقدونية، ولم يستطع هؤلاء البلغار استساغة أخذ هذه الولايات منهم بموجب معاهدة برلين، وكان قيصر بلغاريا "سيمون" يزعم أن له حقا تاريخيا في مقدونيا التي تعد جزءا لا يتجزأ من إمبراطورية بلغاريا الكبرى التي يريد تأسيسها.

كانت بلغاريا تحدوها رغبة عارمة وطموح عظيم في ضم مقدونيا إليها كي تتمكن من تأسيس الاتحاد السولافي تحت زعامتها، وتكون مقدونيا بمثابة فتح نافذة جديدة على العالم من خلال التجارة والنزول إلى بحر إيجة.(١)

---

(١) (١٩٩) H.N. Barailsford ، السلالات البلغارية ومستقبلها. لندن ٨٩٦ ، ص ١٢٤ .

وفى عام ١٨٨٥م تجرأت بلغاريا وسارعت بضم الروملى الشرقية إليها، ثم سعت فى هذه المرة إلى ضم مقدونيا ضمن حدودها، وكان البلغار يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية إبان الفترة من عام ١٨٦٨- ١٨٧٨م، وبدأوا مرة أخرى فى استخدام الطرائق والوسائل التى تمكنهم من إقامة دولة مستقلة ذات سيادة ، وكان تفجر الأحداث الدموية فى مقدونيا قد بدأ يجذب انتباه الدول الأوروبية التى تدخلت فى هذه المسألة، وأصبحت مقدونيا فى نهاية الأمر مرتبطة ببلغاريا تابعة لها.

كان السلطان على علم بكل هذه التطورات، ولكنه حرص على ألا يمنح أية فرصة يكون من شأنها الدخول فى مواجهة مع البلغار؛ لأن طموحاتهم القومية لن تلحق بنا الضر والأذى[٢]. وعليه، فقد كانت السياسة التى اتبعها قصر يلديز تجاه البلغار تتمثل فى استمالتهم وخطب ودهم.

وكانت أسس هذه السياسة تعتمد على تحمل البلغار وترويضهم والاصطبار عليهم والسعى إلى إرضائهم وإحياء مشاعر الشكر والفضل دائمًا وتقديمهما إلى أبواب البلغار، وكان هذا السلوك تجاه البلغار سببًا فى قدوم كثير من رجالهم إلى إستانبول، وعملوا على توصيل الأحاسيس والأفكار القيمة فى حق تركيا، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم بعد أن وطدوا أواصر العلاقة الوشيجة بين الدولتين".[٣]

أما الخطر الأعظم الذى كان يروع السلطان ويفزعه فيتمثل فى اضطلاع روسيا وإنجلترا كلتيهما بالتدخل وفرض نفوذهما على البلغار واستخدامهم ضد تركيا، وعلى كل حال فقد كان السلطان عبد الحميد آخذا حذْره وهو يعد العدة لمواجهة السياسة الروسية والإنجليزية الخطرة على وجه الخصوص.[٤]

---

(٢) تحسين باشا ، ص ١٦٢ .

(٣) تحسين باشا ، ص ١٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ولم تقع حادثة إرهابية واحدة فى مقدونيا حتى عام ١٨٩٥م نتيجة لسياسة الاستمالة التى اتبعها السلطان، وعمل رئيس الوزراء البلغارى" ستانبلوف" stanbulov على توطيد الطرق السلمية وترسيخها، واستطاع فى ١٨٩٠م انتزاع تصريح من السلطان يتيح له فتح أسقفيتين (أبرشيتين) فى كل من مدينتى " أوهرى وأسكوب " مما أثار رد فعل القساوسة الروم، وبدأ الصراع الكنسى الرومى البلغارى.(٥)

وما لبث أن انضم الصراع الكنسى إلى صراع المدارس فى أعقاب معاهدة برلين حيث ظهر نزاع اقتسام المدارس والكنائس بين العناصر المسيحية، وفى عام ١٨٩٣م دُبرت مؤامرة قتل رئيس الوزراء البلغارى "ستانبلوف"، وحلَّ محله "ستولوف" فى منصبه، وبدأ فى تطبيق سياسة المجاهد المناضل فى مقدونيا، وأسس فى صوفيا سنة ١٨٩٤م منظمة تسمى" المنظمة الثورية الداخلية لمقدونيا وأدرنة".

وكانت هذه المنظمة ترمى إلى تهيئة الأسباب الضرورية للحكم الذاتى للمناطق التابعة للإمبراطورية العثمانية ، والإسراع فى مساعدة المقدونيين الذين يعانون من الظلم والاعتساف ، وتطويل أمد هذه النزاعات لإجبار الأوروبيين على التدخل بسبب الضرر الجسيم الذى سيصيب مصالحهم.(٦)

وما لبثت هذه المنظمة الإرهابية المشكلة أن تسللت عبر الحدود التركية البلغارية عام ١٨٩٥م وشرعت فى تنفيذ أول حوادث دموية لها، ثم انقسمت هذه المنظمة إلى شعبتين فى عام ١٩٨٨م؛ حيث بدأت الجماعة السرية فى صوفيا تعمل على تحقيق أملها فى ضم مقدونيا، أما المنظمة الأخرى فتسمى المنظمة الداخلية لمقدونيا، واتخذت من مقدونيا مستقرا لها، وكانت تعمل تحت رئاسة شخص يدعى " Sondonisky " وترمى إلى إقامة دولة مقدونية متمتعة بالحكم الذاتى أو مستقلة استقلالا تاما، وتكون سلانيك عاصمة لها.(٧)

---

(٥) أندرسون ، ص ٢٦٩ .

(٦) محمود بليغ ، تاريخ الإرهابية البلغارية وما فعلته فى حرب البلقان ، إستانبول ١٩٣٦م ، ص ٣٨ .

(٧) محمود بليغ ، ص ٣٨- ٤٢ .

تدخل اليونان والصرب فى أتون الصراع

لم تكن العناصر التى تعيش فى مقدونيا مقصورة على العناصر المسيحية فحسب، بل كانت تضم كذلك عناصر أخرى من الروم والصرب والأرناءوط والرومان، وكانت تبدو وكأنها ساحة مشكلة من فسيفساء الأمم المتباينة، وكان عدد السكان المسلمين فيها يربو على خمسين فى المائة، ويشكل النصارى فيها الغالبية وهم بحسب الترتيب: البلغار واليونان والصرب والرومان.

ولما رأت العناصر المسيحية من اليونانيين والصرب أن البلغار يناضلون من أجل ضم مقدونيا إلى بلغاريا شرعوا بدورهم فى النضال من أجل ضم هذه المنطقة إلى بلادهم ؛ مما أدى إلى زيادة هذه الصراعات واشتداد حدة المسألة المقدونية. وكان اليونانيون والروم المقدونيون يزعمون أنهم أصحاب الحق المطلق فى مقدونيا، ويرون أن هذه المنطقة هى ميراث الملك فيليب والبيزنطيين، ولسوف يبذلون جهدهم لتأسيس إمبراطورية بيزنطية من جديد فى هذه المنطقة. [٨]

أما رئيس الوزراء اليونانى"ديليجيانس" **Deligiannes** فكان يقول : " ليس لنا مشكلة قط فى مسألة جزيرة كريت، وإن ضم مقدونيا إلى اليونان هو شىء أساسى لا مناص منه، ولا قبل لليونان بالعيش دون مقدونيا .[٩]

اشتركت العصابات الرومية بقيادة "ستيفانوس دارجوموسى" فى النضال مع اليونان ضد البلغار فى مقدونيا، أما الصرب فإنهم روجوا شائعة تقول إن مقدونيا كلها تخص صربيا، وإنها كانت عاصمة لها فى عهد أحد حكامها ويدعى "دوشان" **Dusan** وإن سكان مقدونيا جميعا من أصل صربى.[١٠]

---

(٨) Driault ، ص ٣٦٧ .

(٩) C.A.VOVUKOS ، كفاح اليونان فى مقدونيا من أجل الحرية ، ١٩٧٣م ، ص ٣٢ .

(١٠) طونالى حلمى ، مقدونيا ، ماضيها ومستقبلها ، القاهرة ١٣٢٦هـ ، ص ٢٥ .

وقد قام الصرب فى أثناء الصراع المقدونى بفتح المدارس والأبرشيات فيها، وجاء ملك الصرب" ألكسندر الثانى" إلى إستانبول فى شهر يونيو سنة ١٨٩٤م وحصل من عبد الحميد على حق امتياز فتح مدارس صربية فى ولاية قوصوة.

وفتحت مائة مدرسة فى فترة وجيزة وزاد عدد طلابها على خمسة آلاف طالب، وتمكن الصرب دون غيرهم من الحصول على حق امتياز فتح الأبرشيات فى عام ١٨٩٦م، وقد منح السلطان هذا الامتياز إلى الصرب ليجعلهم على الحياد إبان الحرب التركية اليونانية، كما أسست أبرشية فى مدينة "أسكوب".

وكانت هذه الامتيازات التى منحت إلى الصرب لفتح المدارس والأبرشيات قد أغاظت البلغار واليونانيين كليهما، وحدث ما يعرف بتنافس الكنائس والمدارس بين العناصر الثلاثة البلغارية واليونانية والصربية ، كما ظهر فى الأفق كذلك الصراع المشترك للحصول على المواطنة المستقلة لكل جنسية من هذه الجنسيات، واضطلعت جمعية Saintsova بتحريض الإرهاب الصربى وإذكاء ناره.

تحريض الدول الكبرى

قامت العناصر النصرانية فى المسألة المقدونية بتحريض الدول الكبرى ضد الدولة العثمانية، فضلاً عن سعيها الدءوب لتحقيق أحلامها القومية التى تراودها. وتأتى إنجلترا فى صدارة هذه الدول حيث قدمت العون والتأييد إلى كثير من البلغار.

وكان الهدف الذى تسعى إليه إنجلترا يتمثل فى تثبيت دعائم الدولة البلغارية الكبرى المستقلة لتكون بمثابة سد منيع يحول دون امتداد روسيا واتساع نفوذها جهة الجنوب، كما كان السير" ويليام هوايت" السفير الإنجليزى فى إستانبول مؤيدا لمنح بلغاريا الاستقلال التام، وكان تفكيره منحصرا فيما يأتى: إذا تم تأسيس دولة بلغارية قوية ، فإنها ولا ريب ستكون عقبة كأداء تعترض سبيل روسيا وبسط نفوذها نحو الجنوب.

ولا ننسى أن السفير" هوايت" كان ضالعا من قبل فى ضم الروملى الشرقية إلى بلغاريا، بيد أنه حل هذه القضية بمهارة فائقة حتى إنه لم يغضب السلطان وقال له: إن إنشاء قلعة قوية خلف الحدود العثمانية وأمام الحدود الروسية لن يؤدى إلى نتيجة سيئة تضر بالإمبراطورية العثمانية، ولكن السلطان رد عليه قائلاً:" إن القلاع تسقط وتنهار أحياناً من الداخل"، وقد أثبت الزمان أن السلطان كان على حق فى قوله.(١١)

وها هو ذا عبد الحميد يسطر فى مذكراته كل ما يتصل بتدخل" هوايت" ومساعيه الحثيثة فى هذا السبيل ويقول: "لقد أعلنت إنجلترا على لسان سفيرها فى صوفيا إبان لقائه بالأمير البلغارى فرديناند أنها سوف لا تعترض على إقامة الدولة البلغارية الكبرى التى تمتد حدودها حتى تصل إلى بحر إيجة، وأن تأسيس هذه الدولة سيمنع تقدم الروس صوب الجنوب، وهى ترى صراحة أن هذه الدولة ستكون بمثابة"حائط قوى منيع"(١٢)، كان الإنجليز يريدون كذلك استخدام دولة بلغارية المستقلة الكبرى للوقوف فى وجه ألمانيا، وبينما تقوم بلغاريا بسد الطريق الجنوبى لروسيا، فإنها ستجهض أيضاً السياسة الألمانية تجاه الشرق وتسد الطريق الشرقى لامتداد الوحدة الإسلامية.(١٣)

وافق عبد الحميد من قبل على ضم الروملى الشرقية إلى إمارة بلغاريا، ولكنه تصدى بكل قوة إلى أولئك الذين يريدون استقلال هذه الإمارة التابعة له. ولما علم من المفوض التركى فى صوفيا بأن الأمير البلغارى فرديناند يتحين الفرصة المناسبة لإعلان استقلال الدولة البلغارية ، أسرع من فوره فأعلن رده على النحو الآتى: "فليتجرأ الملك بنفسه بإعلان الدولة المستقلة، وإذا كنا لا نريد أن تفقد الدولة كلها اعتبارها وحيثيتها فعلينا ألا نتحمل هذا الوضع ألبتة، ولسوف يتقدم جيشنا الموجود فى أدرنة صوب صوفيا".(١٤)

---

(١١) وودز ،ص ٢٢٥ .

(١٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ص ، ١٥٠ .

(١٣) بليغ ، ص ٤٥ .

(١٤) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ، ١٣٢ .

بدأ الإنجليز فى إشعال فتيل نار المسألة المقدونية فى أوائل عام ١٩٠٠م، ونجح السلطان فى إجهاض السياسية الإنجليزية فى المسألة الأرمنية، وبدأ منذ ذلك الحين فى عقد صلات قوية مع ألمانيا مما أزعج إنجلترا وأقض مضجعها، حيث شرعت فى دس أنفها فى المسألة المقدونية انتقاماً من السلطان.

حدث التقارب الحقيقى بين ألمانيا وتركيا عندما بدأت إنجلترا تمارس الضغط على اليونان فى مسألة قبرص ثم مسألتى مصر وكريت بعد ذلك.

وتوجب التصدى لإنجلترا فى أعقاب الحرب اليونانية، وتطور التعاون مع ألمانيا واطرد بسرعة من أجل هذه الغاية المتمثلة فى التصدى لإنجلترا، وبدأ منذ هذه اللحظة نشاط العصابات الإرهابية المسلحة يزداد فى منطقة البلقان.(١٥)

وفى سنة ١٩٠٢م قدم القائمقام أركان حرب إبراهيم حمدى بك عريضة إلى السلطان ذكر فيها أن إنجلترا ضالعة بقوة فى تأمين الإرهاب الموجود فى البلقان، ويؤكد بجلاء فى هذه العريضة أن إنجلترا أصبحت هى العدو الأول للدولة العثمانية، وأن المشاكل التى حدثت فى قبرص واليمن ومصر وأرمينيا وكريت واشتعال الحرب اليونانية التركية والمشاكل المقدونية كانت جميعًا بسبب التدخل الإنجليزى، ثم يتحدث إبراهيم حمدى بك عن ضلوع إنجلترا فى المسألة المقدونية فيقول: " أشعلت إنجلترا نار الفتن والاضطرابات فى مقدونيا، وكانت تبغى من وراء هذه الفتنة أن يضربوا للبلغار المثال الذى حدث فى كريت حتى يحتذوا به، وقام الأهالى النصارى فى كريت بثورة عارمة.

وتمخض عن عزمهم وإصرارهم أنهم أصبحوا خاضعين تحت حكم والٍ نصرانى واستطاعوا كذلك أن يعلنوا استقلالهم وحرياتهم، وكانت هذه الفكرة بمثابة حث وتحريض للبلغار وتثبيت لها فى أذهانهم.(١٦)

---

(١٥) شادية عثمان أوغلو ، ص ١٠٨ .

(١٦) توفيق تمل قوران ، لائحة حول المسألة المقدونية ، مجلة بحوث جنوب وشرق أوروبا، عدد ١، إستانبول ، ١٩٧٢، ص ، ١٦٣ .

وقد ورد فى هذه العريضة أيضًا أن السير" Bliooti " كان موظفا سياسيا فى كريت وأسهم بدور كبير فى إشعال نار الفتنة فيها، ثم عين بعد ذلك قنصلاً لإنجلترا فى سلانيك ويريد الاضطلاع بنفس الدور الذى اضطلع به من قبل فى كريت.(١٧)

" بدأ الإنجليز يَعِدون البلغار بأنهم سيكفلون لهم الحماية التى تخلصهم من وطأة النفوذ الروسى.

ثم أخذت إنجلترا تحرض الجماعات السرية الإرهابية الموجودة فى إنجلترا وتشجعها على تنظيم صفوفها ومساعدتها كى تقوم بعمليات حرب العصابات الإرهابية ضد تركيا، كما اعترضت إنجلترا على محاولات تركيا القضاء على هذه العصابات واستئصال شأفتها".(١٨)

ولما شرعت إنجلترا فى اتباع سياسة ترمى إلى محو تركيا والقضاء عليها، بدأت مقدونيا بدورها تتطلع إلى مزيد من الإصلاحات حتى تتمكن من إضعاف قوة تركيا، كما قامت إنجلترا خفية بتحريض الحكومات البلقانية على التمرد والعصيان ضد تركيا مما تمخض عنه مطالبة تركيا بمزيد من الإصلاحات فى منطقة البلقان.(١٩)

وقد تحدث عبد الحميد فى مذكراته عن التحريض الذى مارسته كل من إنجلترا وروسيا لحث البلغار على الثورة وشق عصا الطاعة، ونوَّه بالمساعدات الكبيرة التى تقدمها الجماعات الإرهابية البلقانية إلى العصابات الإرهابية البلغارية الموجودة فى إنجلترا.(٢٠)

وأشار إلى زيادة حدة الأحداث الدموية فى مقدونيا لرفضه منح الامتياز إلى شركات البترول الإنجليزية من أجل التنقيب عن النفط فى هذه المنطقة.(٢١)

---

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(١٨) ضيا قرال ، جـ٨، ص ١٨٤ .

(١٩) Aohed ، ص ٣٥-٣٦ .

(٢٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية، ص ١٤٨ .

(٢١) جريس ، ص ٢٦٠ .

كانت النمسا تريد المحافظة على الوضع الراهن فى مقدونيا، بيد أن فرنسا كانت تؤيد إنجلترا وروسيا حليفتيها.

ورأى عبد الحميد أن من المناسب الاعتماد على اليونان وألمانيا لمواجهة الأحداث الجارية فى البلقان.

بداية الأحداث العنيفة

زادت حدة الأحداث العنيفة فى البلقان عام ١٩٠٠م، وكانت المنظمات الإرهابية البلغارية واليونانية والصربية تصطدم ببعضها البعض تارة أو مع الدولة العثمانية تارة أخرى، وكان البلغار هم المحرك الأول لهذه المصادمات، حيث كانوا يناضلون ضد الدولة العثمانية، ثم بدأت من بينهم جماعات تمارس الإرهاب والاضطهاد فى الدولة مع بداية عام ١٩٠٠م، وأعملوا القتل والتنكيل بالموظفين والأهالى الذين يعارضونهم دون تمييز بين مسلم ومسيحى، وقطعوا خطوط السكك الحديدية والعربات التى تحمل البريد، وخربوا الكنائس.

وسرعان ما انتشرت ضجة كبرى فى الصحافة الأجنبية تتحدث عن ضلوع الأجانب أو النصارى فى إشعال نار هذه الأحداث، ثم أعادت الحكومة البلغارية الهدوء والنظام، وإذا كانت هذه الحكومة قد بذلت جهدها من أجل حماية الشعب كله، فإنها لم تكن مسئولة عن العمليات الإرهابية، وبينما كانت تؤكد على عذابات النصارى وآلامهم، فإنها غضت الطرف تماماً عما أصاب المسلمين من ضر وأذى.

أما الدول القوية التى وقعت على معاهدة برلين فإنها ضيقت الخناق على العثمانيين ليقوموا بإصلاحات فى هذه المناطق من أجل تخفيف حدة النشاط الإرهابى فيها.[٢٢]

---

(٢٢) show ، جـ٢، ص ٢٦١ .

ويكتب عبد الحميد عن هذه التطورات في مذكراته قائلاً: " إن ثورات البلغاريين كبدتنا كثيراً من الأرواح والأموال، ولكن الدول الكبرى لا تريد أن تفهم هذا، فنحن في نظرهم مذنبون متهمون في كل وقت وآن".(٢٣)

" لقد ارتكبنا خطأ فادحًا عندما منحنا البلغاريين امتيازات وحقوقًا أكثر مما يستحقون، وإن المدارس التي افتتحت في ظل كنف هذه الامتيازات سببت لنا متاعب كثيرة من أعدائنا".(٢٤)

أسرع الجيش التركي بالتحرك نحو مقدونيا ليقضي على نفوذ المنظمات الإرهابية فيها، وأخذ يتعقب أثر المجرمين وقطاع الطرق في المدن والأرياف والجبال، ولم يعد ثمة أثر للأمن والطمأنينة في أي مكان في مقدونيا، وخشي الناس على أرواحهم وأموالهم، وزاد الإرهابيون من شدة العمليات الإرهابية، حتى يتسنى لهم جذب انتباه أوروبا. وفي ٧ أبريل سنة ١٩٠٣م شنوا غارة على البنك العثماني في مدينة سلانيك وأشعلوا النار في سفينة فرنسية كانت راسية في الميناء، وضربوا كوبري" واردار" وفجروا القنابل في الأحياء الأوروبية.(٢٥)

إصلاحات مقدونيا

تمخضت الأحداث الإرهابية العنيفة عن تخفيف الأمل الذي كان يصبو إليه الإرهابيون، حيث بدأت الدول الأوروبية تتدخل في المسألة المقدونية، وطلبت إلى السلطان عبد الحميد تطبيق المادة الثالثة والعشرين من معاهدة برلين.

وفعل عبد الحميد عكس ذلك ، إذ تصدى بقوة لإجراء هذه الإصلاحات، وكان يقول: لو تحققت هذه الإصلاحات في مقدونيا لكانت بمثابة قضاء على الهيمنة العثمانية على هذه المنطقة.(٢٦)

(٢٣) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ص ١٤٧ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ، ١٤٦ .

(٢٥) شمس الدين السلانيكي ، تاريخ الحقبة الثورية في مقدونيا ، إستانبول ١٣٢٤هـ ، ص ٣٥ .

(٢٦) Rohde ، ص ٣٥ .

ويكتب عبد الحميد عن هذا في مذكراته فيقول: "إننا لا نملك إلا أن نسخر من سذاجة وغرارة أولئك الذين يمكن أن يدور بخلدهم أننا سوف نقبل الاضطلاع بهذه الإصلاحات"(٢٧)، ولم يطبق السلطان المادة الثالثة والعشرين من معاهدة برلين سنة ١٩٠٣م مستفيدا في هذا السبيل من التحاسد والغيرة المنتشرين بين الدول الكبرى.

ولما اشتدت حدة الأحداث الأخيرة في سلانيك جاءت كل من النمسا وروسيا كلتيهما إلى مدينة "موزن برج" من أجل التوسط في المسألة المقدونية، وأثارت الدولتان من جديد موضوع الإصلاحات في مقدونيا، ورأى اللورد "لانس داوين" وزير الخارجية البريطاني أن ترك موضوع الإصلاح برمته إلى الحكومة العثمانية لن يؤدي إلى النتيجة المرجوة، وأراد هذا اللورد تعيين وال نصراني على مقدونيا ليكون بمثابة المساعد للوالي المسلم على أقل تقدير.

وهذا العرض يجذب الانتباه في شقه الثاني، وهذا يعني أن البوليس وجنرالات أوروبا هم الذين سينفذون الإصلاحات في مقدونيا، وسوف تتشكل جماعات من العملاء والجواسيس المدنيين الأوروبيين للاضطلاع بتوزيع شئون الحكم بين القوميات معلنة العفو العام، كما تشكل كذلك لجان للمراقبة على الإصلاحات والإشراف عليها.

ووافق السلطان على هذه الطلبات تحت وطأة الضغوط الشديدة التي مارستها الدول الكبرى، ورغب الإنجليز في الإشراف والمراقبة المالية، وأيدت جميع الدول الأوروبية المطالب الإنجليزية إلا ألمانيا. وأدى تصميم السلطان في النهاية إلى إجبار الدول التي تحتل دوائر الجمرك في منطقة "ميديللي" كي تلبي طلباته وتنفذها.(٢٨)

ثم عين السلطان" حسين حلمي باشا" واليًا عاما على مقدونيا لتطبيق برنامج "موزنبرج" السالف ذكره، وبدأ هذا الوالي في ممارسة مهمته المكلف بها في ٨ ديسمبر

---

(٢٧) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ص ١٤٦ .

(٢٨) أحمد صلاح الدين ، المسألة المقدونية ونهاية حرب البلقان ، جـ١، إستانبول ، ١٣٣٢هـ، ص ٤٢،٣٣ .

سنة ١٩٠٣م، وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار فى غضون فترة وجيزة عن طريق الإجراءات والتدابير القوية التى فرضها، بيد أن الأحداث العنيفة ما لبثت أن بدأت بعد حين من الزمان، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بلغاريا واليونان والصرب والمنظمات الإرهابية التابعة لهم لم تكن غايتهم المنشودة متمثلة فى الإصلاحات فحسب، بل كان هدفهم الحقيقى يتلخص فى ضم منطقة مقدونيا إلى بلادهم، ومهما تكن درجة هذه الإصلاحات جيدة، فإنها لا تغنى عن ضم مقدونيا إلى إحدى هذه الدول.

" وليس فى نية الإرهابيين قبول أى حل قط يترك مقدونيا خاضعة لنفوذ الحكم العثمانى".(٢٩) ولاسيما أن بلغاريا والإرهابيين البلغار قد زادوا من أحقادهم ونزعاتهم الشريرة المنطوية على الأذى والعدوان.

وحزن عبد الحميد وضاق صدره من هذه الأحداث، وتيقن أنه آن الأوان لتلقين البلغار درساً قاسيا.

استعدادات السلطان للحرب

لا جرم أن بلغاريا كانت تبحث عن مناخ للحرب مع الدولة العثمانية من أجل تحقيق آمالها وأحلامها فى إقامة دولة مستقلة، ويستفاد مما دونه السلطان فى مذكراته أن الحرب مع هذه الدولة سوف تشتعل آجلا أو عاجلا.

" لو لم تكن بلغاريا متردية فى قاع سحيق من الناحية المالية لشنت الحرب علينا منذ أمد بعيد، وإن حربنا معها هو قدر مقدور ولا مناص منه ألبتة".(٣٠)

---

(٢٩) Shaw ، جـ٢، ص ٢٦١ .

(٣٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٤٨ .

كانت نذر الحرب تلوح فى الأفق، وشرع عبد الحميد أول الأمر يبحث عن وسيلة للاتفاق، وهو يرى أن اليونان ستكون فى صدارة هذا الاتفاق لأنها فى مسيس الحاجة إلى تركيا لمواجهة الخطر البلغارى المحدق بها.

" لقد كان اليونانيون يعون منذ أمد بعيد أن البلغار هم أعداؤهم الألداء المتأصلون فى شبه جزيرة البلقان، كما أن اليونانيين هم حلفاؤنا الطبيعيون داخل ولاياتنا الأوروبية، لأنهم محتاجون إلى حمايتنا ضد البلغار حتى يتسنى لهم حماية الهلينية[٣١] Helenizm ".[٣٢]

كان عبد الحميد يرى أن أهم سبب قوى فى تفجر الأزمة المقدونية تمثل فى شعوره بضرورة إنزال ضربة قاصمة على البلغار، كما كان يفكر كذلك فى إبرام معاهدة بين الحكومة العثمانية واليونان وصربيا ورومانيا لتكون بمثابة حجر عثرة تعترض سبيل الاعتداءات والانتهاكات البلغارية.

وأمر السلطان عبد الحميد السفير العثمانى فى باريس" منير باشا" بتنفيذ هذا الأمر بكل قوة، وأن يعقد كذلك لقاءات مع رؤساء هذه الدول آنفة الذكر ليحيطهم علمًا بما يقول، ولقد قصَّ منير باشا على مسامعى كل التفاصيل المتعلقة بهذه المبادرة وقال إنه بعث فى النهاية بنصوص الاتفاقية الموقعة بالحروف الأولى إلى وزارة الخارجية ، وتم فى إطار هذه المعاهدة تقديم ضمانات مالية مهمة لحكومة النمسا؛ كى تتخلى عن سيادتها القانونية فى منطقتى البوسنة والهرسك. أما اليونانيون فكانوا مؤيدين لهذه المعاهدة شريطة ترك جزيرة كريت لهم.[٣٣]

---

(٣١) هى الحضارة الإغريقية القديمة . (المترجم).

(٣٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٢٧ .

(٣٣) حسين كاظم قدرى ، مذكراتى من الدستور حتى الجمهورية ، إستانبول ١٩٩١م، ص ٢٤٥ .

وقد تحدث السلطان عبد الحميد عن هذه المعاهدة فى مذكراته فقال : " عُهد إلى منير باشا إبرام هذه المعاهدة، ولسوف تتنازل النمسا عن البوسنة والهرسك على سبيل الحل المؤقت، كما ستمنح جزيرة كريت إلى اليونان، ولسوف تنضم كل من صربيا والجبل الأسود ورومانيا إلى اتفاق البلقان، وقد حدثت ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م، فى الوقت الذى نجح فيه منير باشا فى مساعيه، مما أدى إلى إجهاض معاهدة البلقان وحال دون نشوب حرب البلقان".[٣٤]

ويرى حسين كاظم أنه قد تم البحث عن ذريعة لإشعال الحرب مع البلغار فى أعقاب التوقيع على معاهدة البلقان.

وأرسلت مذكرة إلى بلغاريا جاء فيها أنه سوف يطلب من بلغاريا ضرورة إعادة الروملى الشرقية إلى الحكومة العثمانية وفق ما تقضى به معاهدة برلين.

وبديهى أن ترفض بلغاريا ذلك، ثم ما تلبث أن تبدأ الحرب فى أعقاب هذا الرفض[٣٥]، ولكن ماذا عسى أن تكون النتيجة إذا شبت الحرب العثمانية البلغارية؟ إن السلطان سوف يكسب هذه الحرب كما كسب من قبل الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧م، ولسوف تحل على إثرها المسألة المقدونية من أساسها. وكانت كل هذه الأحداث سببًا فى نشوب ثورة يوليو سنة ١٩٠٨م، وهو اليوم الذى صادف توقيع اتفاقية البلقان، بيد أن الثورة أجهضت توقيع الاتفاقية وعطلت الخطة التى كانت موضوعة لتنفيذها، وقدمت لنا معلومات موثوقًا بها فى هذا السبيل.

وكانت العمليات الإرهابية البلغارية التى تحدث فى بلغاريا ومقدونيا تسترعى انتباهنا فى ذلك الحين، وأدرك هؤلاء الإرهابيون أن عبد الحميد فى سبيله لتجهيز

---

(٣٤) وداد عرفى ، ص ٣١ .

(٣٥) حسين كاظم قدرى ، ص ٢٤٦ .

الاستعدادات الحربية السرية، وأخذ هؤلاء الإرهابيون يساعدون جماعة تركيا الفتاة مساعدة قوية فعالة، ويجهضون فى نفس الوقت الاستعدادات الحربية التى يجهزها السلطان، ولم يكن البلغاريون وحدهم مضطلعين بهذا الأمر فحسب، بل عقدت جماعة تركيا الفتاة تحالفا ضد السلطان مع كل أعدائه المناوئين له فى الداخل والخارج على حد سواء، وسعوا جميعًا إلى إجهاض سياسته وتقويض أركانها، وتدخلوا من أجل إقصائه عن العرش والتخلص منه.

الفصل الخامس عشر

ظهور الجبهة المناوئة للسلطان عبد الحميد وثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨

شرحنا فى الفصل السابق الخدمات الجليلة والنضال العظيم الذى كابده السلطان فى مواجهة التهديدات الداخلية والخارجية من أجل المحافظة على وجود الدولة العثمانية وحماية وحدتها وكينونتها . وقد كان الهدف الأول للسلطان من وراء كل هذا النضال والكفاح أن يترك لخلفائه من بعده أمانة وإرثا يكون جديرا بحماية الدولة والأسرة الحاكمة.

أما الطريقة التى اتبعها السلطان من أجل الحفاظ على سياسة حماية الدولة فكانت تعتمد على الحكمة والتعقل والتروى، فلم يكن صاحب نظريات قاطعة فى كل الموضوعات والقضايا التى تعرض لها، لا سيما أنه لم يفرض نظاماً معينا يكفل هذه الحماية، بل اتبع السبيل الذى يتصل بالدستور، حتى نظام الحكم المركزى المطلق، وكانت حماية الوطن أكثر أهمية من فرض نظام صارم حازم، وقد حدث هذا فيما يتعلق بقرارات متغيرة متوافقة مع الظروف الجارية، فماذا عسى أن يفعل السلطان أكثر مما فعله وهو يواجه كثيراً من الأعداء والمصاعب فى داخل البلاد وخارجها، فلا هو بالصديق المطلق لأصدقائه ولا بالعدو المطلق لأعدائه، بل كان يوزع البسمات على الجميع، ويهدد الجميع ويقلب لهم ظهر المِجَن[1] بحسب ما تقتضيه ظروف الأحداث،

---

(١) أى أظهر له العداوة، والمجن آلة من آلات الحرب. (المترجم)

وهو يكافئهم ويجزل لهم العطاء إذا أحسنوا، وكانت ثمة طائفة شاكرة للجميل مقرة بالفضل والمعروف بسبب تعطف السلطان عليهم وما كان يقدمه لهم من مكافآت وأعطيات، وهؤلاء هم رعايا الدولة العثمانية، كما يندرج النصارى كذلك فى زمرة هؤلاء الرعايا، لا سيما أن عبد الحميد انتهج سياسة الوحدة الإسلامية التى تتفق مع مثاليات الشعب المسلم وأفكاره.

كان الشعب مرتبطًا ارتباطًا وثيقا بالسلطان، وينظر إليه على أنه والد الشعب والولى صاحب النعمة الذى رفع من مستوى هذا الشعب بإصلاحاته وخدماته التى أسهم بها وبذل كل مُرتخص وغالٍ فى سبيل تحقيقها.

أما الخارجون عن دائرة الرعية فقد شكلوا جبهة معارضة ومناوئة للسلطان، وكان هؤلاء فى الداخل يتكونون من المستنيرين البيروقراطيين وغيرهم من العناصر الانفصالية، ويقابلهم فى الخارج الدول الكبرى والصغرى على حد سواء. ورغم الامتيازات التى أنعم السلطان بها على هؤلاء حتى يأمن شرورهم، فإن كل ضروب المكافآت والعطايا والإحسان لم تستطع أن تنقذه من شرورهم وأحقادهم.

وكانت ألمانيا على رأس الدول التى حظيت بالمكافآت والامتيازات إلا أنها شكلت جبهة ضد السلطان وناصبته العداء، وكانت ترى أن كل هذه المكافآت والامتيازات غير كافية لتحقيق طموحاتها وما يراودها من أحلام.

وكانت إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا من بين الدول الأوروبية الكبرى التى بذلت قصارى جهدها فى سبيل إجهاض الدولة العثمانية وتقويض بنيانها طوال فترة حكم عبد الحميد، ورأت فى وجود هذه الدولة حجر عثرة يحول دون تحقيق ما تطمح به من التوسع والاستعمار.

وما لبثت الدول الصغيرة المجاورة مثل: بلغاريا واليونان وصربيا والجبل الأسود أن شرعت فى اتباع سياسة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد؛ لأنه يمثل فى نظرهم سدا منيعًا يحول دون تحقيق أحلامهم فى النفوذ والانتشار.

وكان عبد الحميد يقظا منتبهًا لعداوة العناصر الانفصالية فى الداخل والخارج حتى لا يعطى الفرصة للأرمن والبلغار والروم والصرب والعرب واليهود والأرناءوط للانقلاب عليه والإطاحة به.

أما العنصر المناوئ فى الداخل والمتمثل فى البيروقراطيين المستنيرين فإنه أثار قضية النظام الحاكم من أجل تحرير الدولة وتخليصها من إسار هذا النظام، وسارعوا بتشكيل جبهة ضد السلطان، وطالبوا بالدستور ليحل محل الحكم المركزى المطلق للسلطان عبد الحميد.

ولما أخفقت الجبهات المعارضة للسلطان فى مواجهة التدابير والإجراءات القوية التى اتخذها السلطان ضدهم، فإنها سعت فى هذه المرة بالتعاون فيما بينها لتكوين ما يعرف باسم" تحالف المعارضين"ضد عبد الحميد، بيد أن قوة هذا التحالف لم تكن ذات تأثير على السلطان.

بداية حركة جماعة تركيا الفتاة Jonturk

عطل عبد الحميد مجلس المبعوثان فى سنة ١٨٧٨م دون تحديد موعد لافتتاحه، وأخَّر إعلان القانون الأساسى، ثم أسس بعد ذلك ما يعرف بالحكومة المركزية المطلقة التى كان يعتقد أنها ستحافظ على سلامة الوطن والأمة، وسعى كذلك إلى تصفية جماعة العثمانيين الجدد المؤيدة للدستور، ولم يُر مثل هذا النضال الدستورى المؤثر والمعلن ضد السلطان فى الداخل على مدار عشر سنوات متصلة، أما فى خارج الوطن فقد ظهرت معارضة وحيدة ضعيفة واهية جاذبة للانتباه اضطلع بها" على شوكت بك" أحد أعضاء العثمانيين الجدد، وكان فى نفس الوقت عضواً فى الجمعية السرية التى أسسها كل من "صاقليرى وعزيز بك"، ونجح فى الهروب إلى أوروبا عندما تعرضت هذه الجمعية للهجوم.

ثم بدأ على شوكت يعارض السلطان بإصداره صحيفة الخيال فى كل من باريس سنة ١٨٧٨م وإنجلترا سنة ١٨٧٩م، ثم استقر به المقام فى نابولى سنة ١٨٧٩م حيث

أصدر بها مجلة المستقبل، واستمر فى معارضته حتى وفاته فى باريس سنة ١٨٩٦م، وقد أدخلت هذه المجلة إلى تركيا، وكانت تقرأ خفية فى المدارس.[٢]

بدأت أول منظمة لجماعة تركيا الفتاة تتشكل داخل الوطن ضد السلطان، حيث أسست من طائفة من طلاب المدرسة العسكرية الطبية فى إستانبول، ورأسها فى ذلك الإبان خمسة طلاب هم: حكمت أمين القونيوى وإسحق سكوتى من ديار بكر وإبراهيم أدهم من أوهرى وعبد الله جودت من عرب قير ومحمد رشيد من قفقاسيا، وكان هذا فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٩م، ثم أسسوا بعد ذلك جمعية الاتحاد العثمانى أو الاتحاد والترقى.[٣]

وتحيطنا كتابات "F. Fromsur" علما أن "إبراهيم تمو" الأرناءوطى هو صاحب فكرة هذا التنظيم. وكان هذا الرجل فى أثناء العطلة الصيفية يقضى شطرا من وقته فى منطقة "بريندیز" الواقعة على الطريق قبيل الذهاب إلى منزله فى الأرناءوط، ثم قام بصحبة أصدقائه بزيارة جمعية يهودية فى مدينة نابولى، ورغب فى الحصول على معلومات تتصل بمنطقة Carboroni وما تضطلع به من دور فى تاريخ إيطاليا، ثم قرر على إثر هذه الزيارة تأسيس جمعية سرية مشابهة لها فى تركيا.[٤]

ثم أخذ بعد ذلك ينظر إلى دور اليهود والعناصر غير المسلمة، وذلك فى إطار الاضطلاع بتشكيل جماعة تركيا الفتاة من جديد، وتطلعنا الكتابات التى دونها" جميل باشا" المدير المنفذ لجماعة تركيا الفتاة أن أول عمل قامت به الجمعية سالفة الذكر كان بسبب تحريض الأجانب وإثارتهم، وكانت هذه الحركة تتخذ من شقة صغيرة فى حى" باى أوغلو" مركزا لها، ولم يكن فى هذه الجمعية عضو تركى سواى،

---

(٢) قوران، تاريخنا الثورى وجمعية تركيا الفتاة، ص ٢٤، هانى أوغلو، ص ٨٣- ٨٤ .

(٣) جورى، ص ٢٧ .

(٤) F.F-ROMsuar، جمعية تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة N. : ulken، إستانبول ١٩٧٢م ، ص ٣١ - ٣٢ .

وأغلب أعضائها من الأجانب، وكان رئيسنا هو أحد أطباء مدينة لوفان ويدعى رئيس الأطباء شهريار موروانى باشا[٥].

أما شكرى هانى أوغلو كاتب التاريخ السياسى لجمعية الاتحاد والترقى فيقول: "إن أول حركة جماعة تركيا الفتاة فى إستانبول كانت ترمى إلى إحياء البيزنطية، واضطلعت الجماعات اليهودية السرية غير المنظمة بتعضيد جماعة تركيا الفتاة وأسهمت فى تأسيسها"، ثم ينقل هانى أوغلو فى هذا السياق طرفا مما دونه الكاتب اليونانى Marinospollotos فيقول : "لقد عملت القيادة المركزية غير المنظمة لليهود على إنشاء منظمة تكون مناوئة للحكم المطلق فى إستانبول عن طريق أعضائها المؤسسين لها من الروم واليونان، وتسعى كذلك إلى إحياء أفكار العثمانيين الجدد ونشر الأفكار المتعلقة بالدستور".[٦]

أظهرت هذه الخلية السرية التى أسسها" إبراهيم تمو" وأصدقاؤه نشاطًا سريا فعالا يشبه إلى حد كبير جمعية carboromular الإيطالية، وسعت بعد ذلك من أجل العمل على زيادة أعضائها لتشمل طلابا آخرين من المدارس الملكية والبحرية والبيطرية وغيرها.

ثم قام الدكتور"حسين خُلْقى" بإحاطة القصر علمًا بأخبار هذه الجمعية عن طريق التقارير السرية التى كان يدونها، ثم قام زكى باشا ناظر المدرسة العسكرية بالقبض على طائفة من أعضاء الجمعية وأطلق سراحهم بعد حين، ثم وجهت بعد ذلك ضربة قاصمة لهذه الجمعية فى أغسطس سنة ١٨٩٦م عندما شرعت فى التخطيط للإطاحة بالسلطان عبد الحميد وإقصائه عن العرش.

وذات مساء وفى أحد مطاعم" طوقاتليان" كان أحد أعضاء جمعية تركيا الفتاة ويدعى" نادر بك" مدير مدرسة" نمونة ترقى" يشرب الخمر مع "زلفلى إسماعيل باشا"

---

(٥) مذكرات جميل باشا المدير المنفذ لجماعة تركيا الفتاة : ص ٦٩ .

(٦) هانى أوغلو، ص ٨٠ – ٨١ .

المفتش العام للمدارس العسكرية، ولما كان نادر بك واقعا تحت تأثير وطأة السكر أخذ يفشى بأسرار الخطة المدبرة للإحاطة بالسلطان عبد الحميد حيث قال :"أتعلم يا باشا ماذا سيحدث غدا ؟".

حينئذ رغب زلفلى إسماعيل باشا فى الإحاطة علما بجميع الحقائق الخفية تحت ستار هذه الألفاظ التى تفوه بها نادر بك، وعندما علم بأن الخطة المدبرة تقضى بإحلال ولى العهد رشاد أو مراد الخامس محل عبد الحميد عقب إقصاء الأخير عن العرش، أسرع نحو القصر وأخبر عبد الحميد بما سمعه، وسرعان ما تم القبض على كثير من أعضاء جمعية تركيا الفتاة، وألقى بهم فى غيابات السجن الموجود فى" طاش قيشلة" وتمت محاكمتهم، وعين كاظم باشا قائدا للفرقة العسكرية الأولى فى ولاية "إيش قدرة" وأبعده عن إستانبول وأركب ستة وسبعين طالبا من المدرسة الطبية الباخرة "شرف" حيث تم نفيهم إلى طرابلس الغرب.[٧]

ولم تستطع هذه الجماعة البقاء فى إستانبول بعد تطور الأحداث الأخيرة، ونقلت مقرها إلى باريس، وبدأت المرحلة الثانية من نشاطها هناك.

وفى باريس التف أعضاء جماعة تركيا الفتاة حول" أحمد رضا"صاحب صحيفة "المشورة"، ولم يكن أحمد رضا هذا يؤمن بالفلسفة الوضيعة، ومن ثم فإنه أطلق على هذه الجماعة اسما جديداً هو" الاتحاد والترقى" متأثراً فى ذلك بمبادئه التى يعتنقها.

وجاء فى عقبه كل من إبراهيم تمو وإسحاق سنوتى والدكتور ناظم وعبد الله جودت ومحمد مراد المفوض العام للديون العمومية وصباح الدين ولطف الله أولاد داماد باشا، حيث فروا جميعاً إلى أوروبا التى اضطلعوا فيها بنشاطات قوية ضد السلطان وخوفوه كثيرا، مما جعله يسارع إلى قمعهم وإجهاض نشاطهم.

---

(٧) جورى، ص ٣٠-٣٤ .

التدابير المحكمة ضد السلطان عبد الحميد

لماذا نشأ هذا الصراع الحاد بين السلطان عبد الحميد وجماعة تركيا الفتاة ؟ لقد كان عبد الحميد هو الهدف الأول لهذه الجماعة؛ إذ كانوا يرونه مصدر جميع المساوئ والقلاقل والاضطرابات التى تحدث فى الدولة، وكانوا يتصورون أنه لو أُقصى السلطان وأُعلن الدستور لكان هذا بمثابة العصا السحرية التى تحل جميع المشاكل المستعصية، وترتفع الأمة إلى مستوى راق من النهضة والتطور، ولكنهم لم يفكروا لحظة واحدة قط فى المخاطر التى سوف تتمخض عن كل هذا.

ولنقرأ فى هذا السياق طرفًا مما دونه أعضاء هذه الجماعة أنفسهم: "يتوجب قبل كل شىء القضاء على السلطان واستئصال شأفته، ومن المحتمل أن ينجم عن هذا كثير من المتاعب. ولكن علينا الاضطلاع بإقصائه فى هذه المرة، ونعتقد أن كل شىء بعد ذلك سيعود إلى الانتظام والاتساق. بل لزام علينا تحطيم جذاذة هذه الصخرة".(٨)

"وكانت جميع مطبوعات ومنشورات تركيا الفتاة المنشورة فى الدول الأوروبية المختلفة تذم عبد الحمد وتسلقه بألسنة حداد، بيد أن واحداً من هؤلاء لم يقترب من إظهار الطريقة التى سيكون عليها الحكم عقب القضاء على هذا الحكم السيئ. كان كل شخص يريد الدستور، ولكنه لم يمسس لب المشكلة وجوهرها، ولا يوجد واحد يستطيع التكهن أو استنباط ماذا سيكون أو ينجم عن تأسيس نظام جديد".(٩)

وهكذا رأينا أن جماعة تركيا الفتاة لم تؤسس بغرض البناء والتشييد، بل من أجل الهدم والتخريب والتبديد، فالهدف المقصود هو القضاء على عبد الحميد الثانى، وهذا ما يريده تحالف المعارضين أجمعين.

أما عبد الحميد الذى كان يراقب حقيقة الأحداث فإنه شعر بالغيظ تجاه هذه الجماعة، إنهم يريدون تحطيم النظام الموجود متعللين بحجج واهية باطلة منافقة مداهنة،

---

(٨) خالد ضيا أوشاقلى جيل ، أربعون عاماً ، إستانبول ١٩١٩م ، ص ٤٥٦ .

(٩) قوران ، فى الإمبراطورية العثمانية ، ص ٣٤٦ .

زاعمين أنهم يسعون إلى تنوير الأمة ونهضتها، كما يرمون إلى تقويض البنيان الذى أسسه الأجداد منذ قرون غابرة بحجة التحديث والتجديد.

ويقول عبد الحميد: لا شك أنهم يريدون القضاء على رجالات الحكم المحنكين من حكومتى، ويحلون محلهم ليكونوا هم أصحاب الحكم والنفوذ.

إن هؤلاء منكرون جاحدون لأديانهم وأوطانهم، إنهم طغمة فاسدة وشرذمة منافقة وعصابة من الأرذلين، فهم لا يعلمون أنهم لن يقضوا على إخوانهم فى الدين وأبناء الوطن فحسب، بل إنهم يتفقون كذلك مع القوى النصرانية التى تعد من ألد أعدائنا.

ونستشف من كتابات تحسين باشا، أحد رؤساء كتبة السلطان عبد الحميد، أن هذه الجماعة قد عملت من أجل المصلحة الشخصية ليس إلا: "إن زمرة من هذه الجماعة ممن فروا هاربين إلى أوروبا لم يكن هدفهم هو حكم الدولة أو إعلان التمرد والعصيان ضد سياسة عبد الحميد فحسب، بل فروا إما من أجل تحقيق مزيد من المصالح الشخصية لهم، وإما أن يكونوا شهودا على ما خسروه من مظاهر اللطف والمجاملة التى شملهم بها عبد الحميد".(١٠)

وهاهو ذا المستشرق المجرى "أرمينوس فامبرى" يكتب فى هذا السياق قائلا: "لو سألتنى عن هذه الجماعة لقلت لك إننى لا أعيرهم اهتماما، لأن أعضاءها كانوا يسعون إلى انتزاع عبد الحميد من سلطنته، وقال لى السلطان إن هذه مسألة لا تؤخذ مأخذ الجد، وما دام الجيش وفيا مخلصا فإن هذه الزمرة من القناصين الغاصبين المتحمسين لن يستطيعوا أن يمسونى بضر أو أذى".(١١)

وقد كتب فامبرى هذه السطور فى ٩ يونيو سنة ١٩٠٠م، ولسوف نرى فى الصحف الآتية كيف أن هذه الجماعة التى أرادت أن تظهر للسلطان اللطف والمجاملة فى المعاملة قد خففت من غُلَوائها، وارتدت على أعقابها داخل الوطن فى خطى وئيدة متأنية.

---

(١٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٦٧ .

(١١) عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ١١٦ .

كان عبد الحميد يرى أن حركة تركيا الفتاة سوف تجلب للوطن المصائب والنكبات.

ومن ثم فقد كان يريد إجهاض محاولاتها فى الداخل والخارج، أما فى الداخل فإنها اختفت وتوارت، كما أن السلطان اتخذ التدابير المختلفة والإجراءات اللازمة للحيلولة دون انتشارها فى الخارج، ويأتى فى مقدمة هذه التدابير أولئك الرجال الذين بعث بهم السلطان إلى الدول الأوروبية عن طريق سفراء الدولة العثمانية فيها؛ كى يقنعوا أعضاء هذه الجماعة أو يجهضوا مساعيها، "كان عبد الحميد يتعقب أثر هؤلاء الأتراك الذين تشبعوا بالأفكار الجديدة وشغلوا أنفسهم بالتحريض والإثارة ونشر المنشورات التى تناهض الحكم العثمانى المطلق فى الدول الأجنبية، ثم أخذ من ناحية أخرى يضيق الخناق على من رفضوا العودة وآثروا التحريض والعصيان".(١٢)

قام كل من أحمد جلال الدين باشا والسفير العثمانى فى باريس منير باشا ببذل جهود حثيثة من أجل إجهاض محاولات أعضاء هذه الجماعة من الهاربين والمنشقين، وتعذر إقناع أحمد رضا الذى يصدر صحيفة المشورة فى باريس، وخرج مراد بك متجولا فى باريس وإنجلترا والقاهرة، ثم جاء فى خاتمة مطافه إلى جنيف حيث قابل أحمد جلال الدين باشا وأقنعه بالعدول عن فكره، ثم عاد مراد بك إلى إستانبول فى مقابل موافقة الحكومة على صرف رواتب شهرية للشباب الذين يريدون تحصيل العلم وتعيين بعضهم فى الوظائف، وإطلاق حرية الصحافة.(١٣)

وهذه أسماء طائفة من أعضاء الجماعة ممن أجهضت محاولاتهم فى الخارج : "حلمى طونالى رئيس الأطباء فى السفارة التركية بمدريد والدكتور إسحق سكونى رئيس الأطباء بالسفارة التركية بروما وجروقسول أحمد بك فى بلغراد، والقائمقام شفيق بك بالسفارة التركية والدكتور عبد الله جودت رئيس الأطباء فى السفارة التركية فى فينيا.(١٤)

(١٢) تحسين باشا ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٣) قوران ، فى الإمبرطورية العثمانية ، ص ١٩٠ - ١٩٦ .

(١٤) قوران ، فى الإمبراطور العثمانية ، ص ٣١٦ ، ودانشمند ، جـ٥، ص ٢٥٧ .

أما "محمد مورال" الذى عاد إلى إستانبول زاعماً أنه لا طاقة له باحتمال الحصار المفروض على عائلته وأولاده، فإنه وقف موقفًا صلبًا ضد جماعة تركيا الفتاة الذين هاجموه، واتهم أحمد رضا بأنه ملحد كذاب غير وطنى ولا خلاق له، مشاكس عنيد، محب للنزاع، أنانى، كما كان يقول: "إننى رأيت هذه الجماعة المزعومة، فلم تكن شيئًا سوى لعبة أطفال بكل ما فى الكلمة من معنى".

" إن ما تنشره هذه الجماعة بدعوى التتريك ليس من قبيل الشرع أو القانون".[١٥]

ومن الهاربين كذلك" داما محمود باشا" صهر السلطان عبد الحميد الذى انزعج وتضايق كثيرا لفراره فى معية أولاده فى شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩م.

وكان السلطان قد عين صهره هذا وزيراً للعدل، ثم وضعه تحت المراقبة للاشتباه فى ضلوعه بدور مهم فى واقعة على سُعاوى[١٦].

ولما رفض السلطان منحه حق الامتياز فى التنقيب عن المعادن أصبح معارضًا قويا له، ولما علم أنه عاجز عن عمل أى شىء أسرع على الفور بالفرار فى معية أولاده تاركًا زوجته.[١٧]

وقد تشدد السلطان ضد رغبة صهره فى الحصول على الامتياز فى التنقيب عن المعادن، وأعلن أن منح هذا الامتياز للشركة الإنجليزية لن يعود بالنفع على الوطن.[١٨]

أما أحمد بدوى أحد المؤيدين للسلطان فكتب يقول: إنه ليس ثمة صلة بين الهروب وبين حق الامتياز، وإن هذا الفرار إلى أوروبا كان يتفق تماماً مع أعراف جماعة تركيا الفتاة وتقاليدها.

---

(١٥) ميزانجى مراد (محمد مراد) ، النضال القومى ، إعداد s.. Qagingezin ، إستانبول ، ص ١٤٨، ٢١٢ ، ١٨٣ .

(١٦) جريس ، ص ٢٣٣ .

(١٧) دانشمند ، جـ٥ ، ص ٣٥٨ .

(١٨) قوران ، فى الإمبراطور العثمانية ، ص ٢٥٩ .

أما ما شرحه السلطان لأرمنيوس فامبرى فيفيد بأن داماد محمود باشا كان قد حصل على رشوة مقدارها ثلاثون ألف جنيه إسترليني من الشركة الإنجليزية مقابل تعهده لها بالحصول على هذا الامتياز، وعندما قال السلطان إنني قد وعدت إمبراطور ألمانيا بهذا الامتياز ولن أخلف وعدى، وجدها داماد باشا علة تعلل بها للهروب متظاهراً بأنه وطنى.

أما" فامبرى" فيكتب عن دماد محمود باشا قائلاً : "لا جرم أنه ذو شخصية مثيرة للعيف والاشمئزاز، فهو من ناحية يعلن عن نفسه بكل حرية فى الغرب متظاهرا بأنه لاجئ سياسى، ثم هو من ناحية أخرى يقوم بمساومة السلطان للحصول على المال وبعض الامتيازات الأخرى فى مقابل عودته إلى تركيا.

ولقد أرانى السلطان خطابات كل من داماد محمود باشا وزوجته التى هى شقيقة السلطان، حينئذ سلمت يقينا بأن السلطان غير مذنب فى تضخيم هذه الواقعة، ولكن السلطان كان آسفًا حزينًا لضلوع الإنجليز فى هذا الأمر".(١٩)

كما أن الجاسوس الإنجليزى فامبرى قد تأثر كثيراً بضلوع الإنجليز فى واقعة داماد باشا، وفى أعقاب هروبه أصبحنا نرى طائفة أخرى من جماعة تركيا الفتاة الإنجليزية يسرعون بالفرار إلى أوروبا.

والشىء الجاذب للانتباه فى هذا الصدد هو فرار على حيدر ابن مدحت باشا من أزمير، حيث كان هروبه إليها عن طريق زورق إنقاذ(٢٠) يخص السفارة الإنجليزية فى طرابلس الغرب عندما كان إسماعيل كمال الساعد الأيمن لمدحت باشا واليًا عليها، وتم إقناع محمد مراد بك بالعودة إلى إستانبول مما أضعف حركة تركيا الفتاة فى أوروبا وأوهن عزيمتها، وكان ذهاب طغمة أخرى موالية للإنجليز إلى أوروبا بمثابة قوة ضاغطة شديدة روعت عبد الحميد وأقضت مضجعه.

---

(١٩) أوكة : عبد الحميد الثاني وعصره ، ص ١١٤ .

(٢٠) هو زورق صغير يمكن حمله أو نقله، ويستخدم فى الحرب لعبور الأنهار والبحيرات وغير ذلك من الأغراض العسكرية ويسمى بالتركية Hucum botu (المترجم).

" إن قدوم طائفة من هؤلاء من أوروبا مضحين بأرواحهم للقضاء عليّ واستئصال شأفتي قد أقلقني وأتعبني، وقد نما إلى سمعي في ذلك الإبان شائعات تقول إنه لن يمر وقت طويل حتى يتم توجيه ضربة قاصمة إلى الحكومة والفساد المستشرى". (٢١)

وكانت الإرهاصات تنبئ بأن كلا من داماد محمود باشا وولده الأمير صباح الدين إسماعيل وكمال على حيدر قد اتفقوا ثلاثتهم على الاضطلاع بثورة ضد السلطان عبد الحميد بسبب الامتيازات التي منحها السلطان للألمان لإنشاء خط سكك حديد بغداد، ناهيك عن الامتيازات الأخرى التي منحها لهم بخصوص حقهم في التنقيب عن المعادن، وكان هناك شعور قوي يؤكد ضلوع الإنجليز في تلك الثورة المدبرة. ولهذه الأسباب جميعا اهتم السلطان اهتماماً بالغًا بفرار صهره داماد محمود باشا في معية أولاده إلى أوروبا.

وعندما شاعت الشائعات حول هروبهم إلى إستانبول فإنهم نفذوا إليها دون باخرة أو قطار حتى لا يقبض عليهم، وتم تهريبهم بمساعدة بعض الإنجليز والفرنسيين؛ حيث أركبوهم متن سفينة نقل فرنسية، وتعذر القبض عليهم بسبب عبور السفينة دون المرور على الموانئ التركية. (٢٢)

ولما وصل داماد محمود باشا إلى ميناء مرسيليا الفرنسي تمت على الفور متابعته وتعقب أثره، وقد خرج القنصل العثماني في باريس لاستقباله قائلاً له إن السلطان يسلم عليك وسر قلبه، وحاول إعادته إلى إستانبول ولكنه أخفق في محاولته وتم الرجوع إلى الحكومة الفرنسية وطلب إليها القبض على داماد محمود باشا بتهمة تهريب اثنين من أولاده الذكور وسرقة الألماظ والمجوهرات الخاصة بزوجته" سانحة سلطان" شقيقة السلطان عبد الحميد. (٢٣)

---

(٢١) جريس ، ص ٢٣٥ .

(٢٢) جريس ، ص . ٢٣٤ .

(٢٣) قوران ، في الإمبراطور العثمانية ، ص ٢٧١ .

"وفى ٢١ يناير سنة ١٩٠٠م أبرق داماد محمود باشا من باريس برقية شديدة اللهجة إلى السلطان عبد الحميد أعلن فيها أن السلطان هو مصدر المساوئ والمفاسد كلها، ولقد جهرت بهذا منذ ثمانية أعوام دون أن يستمع أحد إليَّ، ثم يردف قائلاً فى برقيته" لقد آن الأوان وأصبح واجبا عليَّ القول بأن أمتى باتت فى مسيس الحاجة إلى التنوير وإلى ضرورة تغيير النظام الحاكم المنذر بالخطر والتهلكة، ولقد أتيت إلى أوروبا حتى أخلص ضميرى من كل هذه المسئوليات الملقاة على كاهلى وأفى بعهدى الذى قطعته على نفسى".(٢٤)

وقد عهد السلطان إلى كل من منير باشا السفير التركى فى باريس وطوران باشا السفير فى بطرسبرج ونور بك؛ كى يضطلعوا بإقناع داماد محمود باشا حتى يثوب إلى رشده ويعود إلى وطنه، بيد أنهم أخفقوا جميعا فى مهمتهم.

وعندما اضطلع محمود داماد باشا بإدارة شئون الصحيفة العثمانية فى جنيف، جاء إليه أحمد جلال الدين باشا ليعاود إقناعه، ولكن جهوده ذهبت سُدى، ثم توجه داماد باشا من جنيف إلى الإنجليز فى معية ولديه، وطلب عبد الحميد إلى الخديوى عباس حلمى الثانى التدخل كى يُثنى داماد محمود باشا عما نوى عليه، وجاء داماد محمود باشا إلى مصر وحاول أحمد مختار باشا إقناعه بالعودة إلى إستانبول بيد أنه فشل فى مهمته. ضاق داماد محمود باشا ذرعا من الخناق الذى ضيقه عليه الخديوى عباس فاضطر إلى العودة مرة أخرى إلى أوروبا، ثم ما لبثت صحته أن اعتلت فى بروكسل، وعلم عبد الحميد بأمر مرضه فطلب إليه العودة إلى إستانبول ولكنه رفض وظل عليلا حتى أدركته المنية فى ٣٠يونيو سنة ١٩٠٣م(٢٥). ولم يكن ولده بعد موت أبيه مستعدا لتزعم المعارضة والمجابهة ضد عبد الحميد، وصرف جهده إلى دراسة العلوم الاجتماعية والسياسية والمعارضة، ولما عجز أحمد رضا عن الاضطلاع بما وُكل

---

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

(٢٥) قوران ، فى الإمبراطورية العثمانية ، ص ٢٧٢ ، ٣٦٠ .

إليه أسرع كل أعضاء جماعة تركيا الفتاة إلى الانزواء والتقوقع فى ركنه، وظل نشاط هذه الحركة خامداً حتى عام ١٩٠٦م.(٢٦)

ولما بدأت هذه الحركة المعارضة تمارس نشاطها خارج الوطن، شرع السلطان من فوره فى كراهية أولئك الذين يرغبون فى الاستئذان بغية الذهاب إلى أوروبا.(٢٧)، وأخذ يرتاب فى أمرهم، وبذل جهده فى سبيل الاستمساك بهم داخل البلاد وإلحاقهم بوظائف تليق بهم(٢٨). وكان هذا بمثابة استثمار جيد منح السلطان فسحة من الوقت ليستريح من نُذُر الخوف وهواجسه فى هذا المضمار.

أما القسم الآخر من العاطلين عن العمل فإنهم سعوا إلى انتزاع المال والوظائف ليتمكنوا من الفرار إلى أوروبا، وهؤلاء طائفة من صغار الخبراء، بيد أن الكبار منهم فروا هاربين إلى أوروبا بصورة جدية ثم عملوا على خطف الوظائف وانتزاع الرواتب؛ ليستخدموها فى إصدار جزء من صحيفة ملفقة مزيفة طبعوها فى مطبعة حجرية.(٢٩)

بدأ عبد الحميد يمارس ضغوطا قوية على حكومات الدول التى فَرَّ إليها الهاربون من المعارضين من جماعة تركيا الفتاة خارج البلاد، ووجد من هذه الدول بعض الجهود والمساعى فى هذا السبيل.

وكانت هذه الدول تطرد أعضاء هذه الجماعة أحيانا خارج الحدود؛ رغبة منهم فى إرضاء السلطان وانتزاع بعض الامتيازات منه لصالح بلادهم.

وكان هذا سبباً فى أن كثيراً من أعضاء هذه الجماعة كانوا يتجولون بين إنجلترا وجنيف وبرلين والقاهرة وغيرها من الدول.

---

(٢٦) Ramsur ، ص ٩٣ .

(٢٧) تحسين باشا ، ص ٩٣ .

(٢٨) على سعيد باشا ، ص ٨٤ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

ولم يتردد عبد الحميد فى اتخاذ شتى التدابير الصارمة ضد هذه الجماعة التى يكرهها. وشملت هذه الإجراءات التعذيب والاضطهاد وتكبيلهم بالأصفاد وإلقائهم فى غياهب السجون. ولكنه لم يوقع عقوبة الإعدام على أى واحد منهم، ويقول فى مذكراته : "يجب أن نجذبهم إلى جادة الصواب بالحسنى(٣٠)". وأرسل طائفة من المعارضين الآخرين إلى طرابلس الغرب واليمن وسينوب وأرضروم ورودس وغيرها من الأماكن، وخصص لهم رواتب ووظائف.

أما المعارضون الموجودون فى أوروبا فلم يستطع السلطان فعل شيء آخر ضدهم سوى منحهم الأموال والوظائف والامتيازات حتى يتمكن من إجهاض سعيهم وإخماد جذوة نشاطهم، وعفا عن كثير منهم فى مرات كثيرة.

ومما يشد الانتباه فى هذا الصدد أن قيصر روسيا المعاصر للسلطان عبد الحميد يرى أن الموت هو الطريق الشرعى للمؤيدين للدستور فى روسيا، وأعمل فيهم القتل والتنكيل والنفى إلى معسكرات التعذيب فى سيبيريا، بينما نرى على الجانب الآخر أن السلطان عبد الحميد اختار وسائل أكثر تحضراً فى تعامله مع معارضيه من جماعة تركيا الفتاة.

المعارضة الموالية للإنجليز

يتحدث عبد الحميد فى مذكراته عن السبب الجوهرى للعداوة التى كانت ضده فى الداخل والخارج فيقول : "يعلم الله أننى لم أفكر فى نفسى حتى الآن طرفة عين، بل فكرت فى وطنى ودينى وأمتى، ولهذا كان لى كثير من الأعداء".(٣١)

كانت إنجلترا تأتى على رأس الدول المناوئة للسلطان عبد الحميد الذى كان يكره هذه الدولة ويبغضها بغضا شديدا منذ ولاية عهده، وأصبحت إنجلترا عدوه اللدود بسبب تأييدها للعثمانيين الجدد وإقدامها على احتلال قبرص ومصر وتدخلها فى

(٣٠) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٦٧ – ٦٨ .

(٣١) عبد الحميد الثانى ، آرائى فى الدولة والأمة ، ص ٢٠٧ .

شئون مقدونيا والولايات العربية حتى بلغ بها الحال إلى محاولتها الإطاحة به وإقصائه عن عرشه إبان اشتداد وطأة المسألة الأرمينية.

كانت هذه العداوة سببا فى انتهاج السلطان سياسة سلمية مع ألمانيا، وشكل جبهة معادية لإنجلترا لإجهاض سياستها ضده. وكان الإنجليز يشعرون بالقلق من زيادة النفوذ الألمانى فى تركيا مما جعلهم يجهرون بذلك قائلين:" لقد بات من العسير علينا فى السنوات الأخيرة متابعة علاقاتنا التجارية على الحدود الموجودة بين تركيا وكل من العراق ومقدونيا وأرمينيا".

وينظر السلطان إلى جهودنا ونشاطنا بعين العداوة والبغضاء، وإن مساعيه فى هذا السبيل لا تتفق مع غايتنا التى نصبو إلى تحقيقها، وإنه يفهم المعاهدات التجارية الكبرى بمفاهيم اقتصادية بدائية تتسم بالشفقة الموجودة داخل هذه السلطنة التى تتمتع بالحكم المطلق والنفوذ المستبد، ثم يتركنا نحن خارج إطار هذه الشفقة، ومن ثم فإن الإنجليز قد باتوا على وشك أن يفقدوا كل ما استحوذوا عليه فى منطقة الشرق الأوسط، وعلينا فى مواجهة كل هذا إما أن نمضى قُدُمًا وإما أن ننهار ونخضع ونستخذى.

ولا سبيل إلى التوقف فى أى مكان، لأننا حينئذ سوف نتخلف، بينما تتقدم الدول الأخرى وترقى، ولنكن أيقاظًا منتبهين، نفتح أعيننا ونرى الحقيقة رأى العين.

ولقد بدأ النفوذ الألمانى والفرنسى يتغلغل فى أحواض السفن وأرصفة الموانئ، ولسوف نرى فى القريب العاجل تطورات سياسية كثيرة للنفوذ الألمانى الذى صعد وارتفع على أسس وقواعد اقتصادية متينة(٣٢)".

كان الإنجليز يرون فى السلطان عبد الحميد عدوا لدودا لهم، وتقربوا من جماعة تركيا الفتاة كثيرًا عندما شرعت هذه الجماعة تعمل على إجهاض سياسته والقضاء عليه.

(٣٢) أولوبلن ، ص ٥٥ – ٥٩ (من التقرير المؤرخ بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٩٠٨ ، والذى كتبه الجاسوس الإنجليزى فى تركيا) فيتزموريس Fitzmouric .

وقد أدرك السلطان هذا الموقف مليا، وبدأ يشعر بقلق شديد نغص عليه حياته وكدر صفوها.

أما" أرمنيوس فامبرى" الذى كان يعمل جاسوسا لحساب إنجلترا فى إستانبول فقد توصل بعد كل الملاحظات التى دونها طوال فترة عمله إلى نتيجة فحواها أن إنجلترا لن يتسنى لها اكتساب صداقة السلطان ووده، ومن ثم فإنها قررت ضرورة الإطاحة به وعزله، ثم يستطرد فامبرى مناقشة هذه المسألة فى تقريره قائلا :" لقد فطن عبد الحميد إلى خطورة الموقف، ولم يستطع إخفاء قلقه. وأنا على يقين جازم بأننى عاجز، فعناد السلطان وصلفه وغروره ورغبته فى الانتقام يحول دون التفاهم مع إنجلترا.

ولقد خطت إنجلترا بضع خطوات وئيدة بغية ؛ تخفيف حدة الأزمة فى الوقت الراهن، ولزام علينا حينئذ الإسراع من أجل تفتيت الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها، وعلى إنجلترا أن تتدخل على الفور لتمدَّ يدَ العون والمساعدة إلى العناصر المناوئة لعبد الحميد حيث تيقن ضرورة الخلاص من براثن عبد الحميد.

ولهذه الأسباب جميعا فقد أوصيت فى تقريرى بأن تهتم إنجلترا باقتفاء أثر هؤلاء المعارضين المؤيدين لها من جماعة تركيا الفتاة، وإن تأييد وتعضيد هذه الجماعات الموجودة فى السعودية ومصر وسوريا هو شيء ضرورى مهم؛ لأنه بمثابة بذر بذور سياسة إنجلترا فى المستقبل بمنطقة الشرق الأوسط.

وإنه لا شك فى أن هذه الجماعات التى تحظى بتأييد الدبلوماسية الإنجليزية لن تتوانى فى الشروع فى تمزيق شمل السيادة العثمانية، ولسوف يكون هذا بمثابة الورقة الرابحة فى يد الإنجليز إبان تلك اللحظة الحرجة.

وإننى آمل ألا تهمل الحكومة الإنجليزية هذه المهمة وتستمر فى متابعة التدابير اللازمة لتحقيق الهدف الذى ترمى إليه، وأن تسعى وزارة الخارجية الإنجليرية إلى تعيين

ممثل دبلوماسى سياسى جديد لها ليملأ الفراغ الذى كان يشغله من قبل السير "فيليب[٣٣] جورى"[٣٤].

وقد استطاع السفير الإنجليزى الجديد "فيتز موريس" أن يتجاوز كل المصاعب وأصبح عميلاً جديداً للإنجليز وأرسل تقريراً إلى بلاده يقول فيه" إننا نحن الإنجليز لا نريد حدوث الكوارث والنكبات من أجل جنى المصالح والمنافع. من أجل هذا فإننى أفضل الرجل القوى الماكر الذى يعرف ما يصنع أو الداهية العبقرى".[٣٥]

وقد أقام" فيتز موريس" علاقة وطيدة مع جماعة تركيا الفتاة ليتوسل بها إلى تحقيق آمال الإنجليز وطموحاتهم، وما لبث نفوذ الإنجليز أن ازداد واشتدت وطأته على جماعة تركيا الفتاة إبان الفترة التى اضطلعوا فيها بالثورة والتمرد ١٩٠٦ - ١٩٠٨م، وكان عبد الحميد مطلعا واعيا بكل ما يدور من أحداث، لا سيما أنه تميز غيظا بسبب إهانة أرمينوس فامبرى الذى كانت تربطه به أواصر صداقة قوية:" فلقد قام هذا الرجل بمساعدة بريطانيا بإقامة علاقة وثيقة مع المعارضين المناوئين لى، ثم شرع فى النهاية يكثف من وطأة هجومه على شخصيتى بعد أن كانت قبل ذلك مضمحلة مشتتة وقد أجمع أعداء الإمبراطورية على أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإمبراطورية دون القضاء على السلطان قبل كل شىء.

ولا أقبل بأن أكون العقبة الوحيدة التى تعترض سبيل تمزيق الإمبراطورية، بيد أن أصوات نفير الصائد وقرع نعالِ الثورة التى دبرتها جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م كانت تدنو شيئا فشيئا، وهكذا أعلن" فامبرى" إهانته لى عيانا بيانا".[٣٦]

كانت إنجلترا من أشد الدول التى خوفت السلطان عبد الحميد وأفزعته، ولم يكن هذا الخوف فى غير محله إذا قورن بالخوف الذى أصابه بسبب الثورة والتمرد.

---

(٣٣) هو سفير إنجلترا لدى الدولة العثمانية .

(٣٤) أوكة : عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ١٠٢ .

(٣٥) أولوين ، ص ٥٩ .

(٣٦) جريس ، ص ٢٥٤ .

وهاهو ذا يقص على مسامع طبيبه الخاص الدكتور عاطف حسين كيف أن الإنجليز يسعون لإقصائه وعزله عن العرش" لقد قلت هذا قبل ذلك.

إن المساوئ والقبائح تخرج من تحت يد إنجلترا، والفرنسيون لا يتمنون لنا الخير، ولكن كل نكباتي ومصائبي كانت بسبب إنجلترا، وقد وقعت من قبل واقعة السلطان عبد العزيز بتحريض الإنجليز ومدحت باشا وبطانته". (٣٧)

" كان عبد الحميد بعيدا عن كل هذه الأفعال والأحداث، ولكنه كان على يقين تام بضلوع الإنجليز فيها جملة وتفصيلا". (٣٨)

كان منح الألمان حق امتياز إنشاء خط سكك حديد بغداد بصورة جازمة لا تقبل الشك بمثابة استعداء كامل لإنجلترا ضد السلطان، واتبعتها في تلك العداوة فرنسا التي كانت تتعلق بأذيال السياسة الإنجليزية ولا تبغي عنها حولا. وما فتئ الإنجليز بعد ذلك يقدمون التأييد الفعال المؤثر إلى جماعة تركيا الفتاة ويشدون أزرهم؛ بغية تقويض النفوذ الألماني في تركيا.

" وبات الإنجليز والفرنسيون يقدمون معونات قوية إلى جماعة تركيا الفتاة التي يتمركز نشاطها في باريس وإنجلترا وبروكسل.

وتستطيع التخمين بأن تأمين الإنجليز والفرنسيين لحزب الحرية التركي كان بمثابة وسيلة لإدراك كُنه الصداقة الحميمة المتميزة المتفردة المعروفة بين الألمان والسلطان عبد الحميد، ومن ثم فإنه يتسنى بعد ذلك الإيقاع بينهما بالسعي لإفساد هذه العلاقة وتمزيق عُراها. (٣٩)

" كان البترول من الأسباب التي أشعلت نار عداوة وبغضاء الدول الكبرى ضد عبد الحميد، ناهيك عن شنآنهم الذي بدا من قبل بسبب منح السلطان حق امتياز سكك

(٣٧) ضيا قرال ، ص ٨ ص ١٧٣ .
(٣٨) تحسين باشا ، ص٢٤٣ .
(٣٩) Rohde ، ص٤١ .

حديد بغداد إلى الألمان، وكانت الحرية والاستقلال هما الأساسان الركينان اللذان اعتمد عليهما السلطان فى مضمار السياسة البترولية، وكان السلطان فى إطار تنفيذ هذه السياسة يحرص على الاحتفاظ بجمع عائدات البترول فى خزائنه الخاصة، وهذا يعنى أنه يخضعها تحت إدارته الخاصة.

وكان هذا كافيا لإقناعه بأنه يستطيع بهذه الطريقة حماية نفسه من منافسة الدول الكبرى فى مسألة البترول، ولا ريب أن هذه السياسة كانت واقعية إلى حد كبير بحسب ظروف هذا العصر وملابساته.

" وفى سنة ١٨٨٩م أصدر السلطان مرسوماً أعلن فيه حق إدارة منابع البترول الموجودة فى ولاية البصرة برمتها من خزانة الدولة لتئول بعد ذلك إلى خزانة السلطان الخاصة، وفى أعقاب هذا المرسوم طلب السلطان على الفور خبيراً من فرنسا ليزيد الإنتاج البترولى الموجود فى أراضى منطقتى" طوز وغيَارو" ولربما كان تفضيل السلطان لفرنسا راجعًا - ولا ريب - إلى فقدان الثقة بالإنجليز رغم أن فرنسا لم تكن قد حققت بعد شهرة فى مجال الصناعات البترولية، بذل الخبير الفرنسى جهودا مضنية لتعميق الآبار الموجودة فى هاتين المنطقتين، وأقيمت معامل لتكرير البترول المستخرج فى المحطة المشيدة بمنطقة طوز.

كان الجيولوجيون الألمان يهتمون اهتماما بالغا بهذه المناطق البترولية مما دفع السلطان إلى نقل كل عوائد البترول الموجودة فى المنطقة الواقعة جنوب" مازابوطامية" إلى خزائنه الخاصة. وكان منح امتياز إنشاء خط سكك حديد بغداد إلى الألمان فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م بمثابة تطبيق للفرمان الصادر بتاريخ ١٨٨٩م؛ حيث تم نقل عوائد بترول ولاية بغداد إلى الخزانة السلطانية الخاصة.

وكان السلطان قد أصدر قبل ذلك مرسوماً فى ٢٤ يوليو سنة ١٨٨٧م يقضى بنقل عائدات البترول المستخرج من ولاية" يانيا" إلى الخزانة السلطانية الخاصة".[٤٠]

---

(٤٠) حكمت أولوغ بك ، السياسة البترولية منذ عهد الإمبراطور حتى الجمهورية ، أنقرة ١٩٩٥م ، ص١٧ - ٢١ .

كانت هذه الوسيلة من أهم الأسباب التى دفعت السلطان إلى أن يهتم بنفسه بألا يمنح حق امتياز استخراج بترول تركيا لأية دولة أجنبية، ويقول عبد الحميد لفاتح بك والى سلانيك إبان نفيه فيها : "لا أنت ولا غيرك مسئول عن إقصائى عن العرش يا فاتح بك، بل انظر إلى إنجلترا، لقد كانت تحملق ببصرها طمعًا فى بترول" مازوبوطامية".

وكان عميلهم المتحمس الغيور" أرمينوس فامبرى" قد أقنع إنجلترا بأنه لا سبيل لها للاستحواذ على هذه المنطقة مادمت جالسًا على العرش، وكان" فامبرى" يسعى إلى استرضائى طوال حقبة طويلة من الزمان. وأخبرك يا فاتح بك أن إعلانى الحرب على إنجلترا بدأ يتعمق ويترسخ فى ضميرى قبيل سنوات، لاسيما بعد احتلالها لمصر، وخسرت أنا هذه الحرب، ولكنى هزمت بشرف على أقل تقدير، ولست مندهشًا لانضمام أمريكا ومشاركتها فى إقصائى عن العرش[٤١] وفقدان سلطانى[٤٢]"، لم يكن من المتعذر على الإنجليز العثور على مؤيدين لها من جماعة تركيا الفتاة لاستخدامهم ضد السلطان عبد الحميد.

"وكان مدحت باشا وبطانته ذوى علاقة تقليدية مع إنجلترا مؤيدين لها متحزبين معها، وعقدوا صداقة حميمة مع الإنجليز.

وبينما كان السلطان يؤيد أهل منطقة " بوير Boer" الذين أبدوا مقاومة شريفة ضد الاستعمار الإنجليزى، كانت هناك طائفة من جماعة تركيا الفتاة تؤيد إنجلترا، وهذا شىء – ولا ريب – يدعو إلى الخزى والفضيحة والعار، ولسوف يعترفون بأخطائهم الجسيمة بعد بضع سنين، ولنقرأ طرفا من اعتراف واحد من أعضاء جماعتهم حيث يقول :" لقد أعلن أهل منطقة بوير حرب الاستقلال ضد الإنجليز فى منطقة رأس الرجاء الصالح الكائنة بجنوب أفريقيا.

وقد اضطرت إنجلترا إلى قبول خوض حرب ضروس فى منطقة بعيدة عن حكومتها المركزية بسبعة آلاف ميل، ويعزى هذا إلى أن هذه المنطقة كانت بمثابة الروح لسياساتها

---

(٤١) وكان سبب هذا هو رفض السلطان منح أمريكا حق الامتياز للتنقيب عن البترول .

(٤٢) جريس ، ص ٣١٤ .

الاستعمارية جمعاء، نجم عن هذا ما اضطلعت به إنجلترا من ترويج دعاية مخيفة ضد هذه المنطقة عن طريق الوسائل التى تملكها بغير حساب فى يدها. وقد أظهرت رئيس هذه المستعمرة ويدعى Kruger Gihana على أنه رجل متمرد عاص خائن لأنه يبحث عن استقلال بلاده، بيد أن إستانبول أسرعت من فورها وكذبت هذه المزاعم الباطلة، وكان هذا فى نظير أن إنجلترا بمثابة إشارة دالة على تعسف وجور الحكم الظالم لعبد الحميد الذى يقهر المستنيرين والمثقفين الترك. إنه سلطان مستبد صدّع[٤٣] بعدم ثقته بالإنجليز. وكثيرا ما ينظر المستنيرون الترك نظرة خاطئة إلى بعض الأمور فينخدعون، وأنا - ولا ريب - داخل فى هذا الانخداع الذى أصابهم. وكان جميع أعضاء أسرة الأدب الجديد (ثروة فنون[٤٤]) على اقتناع تام بهذا الرأى.

لقد كنا نعتقد فى ذلك الحين أن إنجلترا تمثل أعظم نموذج فى الدنيا للحكم الموسوم بالحرية والإنسانية، وعن طريق ذيوع هذه الفكرة بات حب الإنجليز متغلغلا فى أرواح هؤلاء المستنيرين إبان الثورة التى اضطلعوا بها سنة ١٩٠٨م، وما لبثت هذه الفكرة أن أصبحت مرتفعة عظيمة الشأن؛ حيث رأيناها رأى العين فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨م عندما ملأنا محطة سكك حديد" سركجى[٤٥]" sirkegi عن آخرها عند عودة السفير الإنجليزى إلى مدينة "مالات" التركية لعدم وجود مكان له فى إستنابول.

وكنا نصفق للسفير ونحييه من أرواحنا وأفئدتنا، وأخيرا قام الشباب المتحمس الثائر بجذب عربة السفير واقتلعوا جيادهم وجروا العربة بسواعدهم. وأنا لم أسق هذه الواقعة إلا من أجل إظهار النزعة الثورية والعقيدة السياسية لدى المستنيرين الترك حتى إعلان الدستور. وكانت محبة الإنجليز العمياء سبباً جعلنا نهرول جميعا إلى تأييد الإنجليز فى حرب "بوير".

---

(٤٣) أى : جهر ، المترجم .

(٤٤) هى مدرسة أدبية تركية نشأت بعد مدرسة التنظيمات، تأثرت بالفكر الأوروبى والأدب الفرنسى خاصة (المترجم) .

(٤٥) أحد الأحياء الشهيرة فى إستانبول، وبها محطة سكك حديد. (المترجم) .

ووقفنا ضد أهل بوير المغلوبين على أمرهم، وقد أثر هذا الموقف فى دعاية الصحافة العالمية، إذ لم ترد قط كلمة واحدة فى هذه الصحافة تؤيد حرب الاستقلال التى خاضها أهل "بوير".(٤٦)

وهكذا سُحق هذا التمرد وبات نسياً منسيا، وفى هذه الأثناء قام الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى بإرسال برقية إلى زعيم "بوير" متمنيا له فيها السداد والتوفيق.(٤٧)

وكانت برقية الإمبراطور الألمانى قد حملت بين ثناياها كثيراً من تأويلات الدعاية الإنجليزية التى أحدثت جلبة وضجيجا، وقد كان الإنجليز يكفيهم ما أصابهم من التعايش السلمى وأواصر الصداقة الحميمة التى عقدها الإمبراطور الألمانى مع عبد الحميد، وحلَّ هذا الإمبراطور ضيفاً على إستانبول مرتين متتاليتين، ونظر المستنيرون الترك بعين السوء والشين إلى الإمبراطور.

وخلاصة القول إننا كنا مؤيدين للإنجليز فى حرب الاستقلال التى خاض غمارها أهل" بوير"، وقد استفادت طائفة من الدلالين فى مضمار السياسة من هذه المشاعر المبالغ فيها كى يحققوا آمالهم وطموحاتهم، وجاءت زمرة منهم إلى السفارة الإنجليزية متمنين للسفير الإنجليزى النجاح والتوفيق من حبات قلوبهم.

وقد كاد هؤلاء الدلالون يعلمون علم اليقين فى تلك الحقبة من الزمان مقدار الخطر الجسيم الداهم الذى لم يكن متمثلا فى اللياذ بدار سفارة أجنبية واللجوء إليها فحسب، بل اللجوء كذلك إلى رجل غير ذى أهمية من الرعايا الأجانب والاستجارة به. بل لقد كانت هذه الفعلة محفوفة بالخطر وتمثل ضرباً من الحماقة والجنون، وكان الشاعر توفيق فكرت(٤٨) متفقا معنا فى هذا الرأى، ولكن كثيراً من أصدقائنا كانوا يفكرون

---

(٤٦) وهو ولا ريب يحول الصحافة الدولية ضد الدول المستعمرة ، كما يشجع الرأى العام على الوقوف ضد طموحات الاستعمار .

(٤٧) غضب الإنجليز عندما أرسل الإمبراطور هذه البرقية مما عجل بإنشاء Boikun الثلاثى ضد الألمان .

(٤٨) من أساطين مدرسة ثروة فنون (١٨٦٧ – ١٩١٥) وحمل لواء الشعر فيها بموهبته الشاعرية الفذة وعبقريته منقطعة النظير، له طائفة من الدواوين فى شتى أغراض الشعر وكان مناوئًا لاستبداد عبد الحميد، ويعد ظاهرة متميزة فى تاريخ الأدب التركى الحديث (المترجم).

بطرائق أخرى متباينة، فأى فائدة تُرجى من هذه المظاهرة السياسية؟ وثمة طائفة أخرى من القائلين بأن مواجهتنا لهذا العمل الخطير يعود على الأمة بالخير والنفع، وهو رأى لم يفسر أو يشرح بعد.

وفى النهاية جاءت زمرة من أصدقائنا وقاموا بمظاهرة سياسية بتحريض من "إسماعيل كمال الأرناءوطى" ثم عادوا أدراجهم وهم يجرون أذيال الخزى والعار. ولم يعلق القصر أو السلطان على هذه المظاهرة، بيد أن السلطان المستبد وافق على الالتزام بالهدوء وضبط النفس لكى لا يصعد المشكلة مع السفارة الإنجليزية، ومرت بضعة أشهر فى أعقاب هذه الحادثة، ثم ما لبث أن أخذ السلطان زمام المبادرة ضد أولئك المنتسبين إلى جماعة ثروة فنون".(٤٩)

وقد ورد فى مذكرات" أحمد بدوى قوران" حديث عن طائفة من جماعة تركيا الفتاة ممن توجهوا لزيارة دار السفارة الإنجليزية، حيث أرسلوا برقية تهنئة إلى ملكة إنجلترا جاء فيها: "إن الدولة الإنجليزية العظمى هى ضرورة لازمة للإنسانية، من أجل الحرية والعدالة، وهى بريادتها وزعامتها تعد الشريان الأورطى للتقدم والرقى والحضارة، إنها دولة ذات شوكة وسطوة. كما أنها تعمل من أجل حب الإنسانية وبذل الجهود لخدمتها، ومن أجل هذا فنحن نتمنى لها التوفيق والسداد وإحراز النصر المبين فى حربها مع منطقة بوير(٥٠)، وهاهو ذا "تحسين باشا" يدون طرفا من مذكراته تتصل بالموضوع آنف الذكر فيقول: "حدث كل هذا إبان حرب بوير إذ أنشأ أهل هذه البلاد جيشا قوميا، وخاضوا معركة دموية مع الإنجليز، ودافعوا عن بلادهم وضحوا بأرواحهم عن حقوق بلادهم وحدودها، واستمر هذا القتال، وهزم الإنجليز هزيمة نكراء.

---

(٤٩) أحمد إحسان (طوق جوز) ، مذكراتى المطبوعة ، جـ١، إستانبول ١٩٣٢م ، ص١٠٥ – ١٠٨ .

(٥٠) قوران ، فى الإمبراطورية العثمانية ، ص ٢١٤ .

ثم سمعنا فى تلك الآونة أنه لم تكد مظاهرات الفرح والسرور الخفية تنطلق فى أحياء إستانبول محبية هؤلاء الوطنيين من أبناء بوير ، حتى نرى إسماعيل كمال الذى كان آنذاك أستاذا زائراً فى إستانبول يحرض على جمع مائة وتسعة وثمانين شخصا، وينطلق فى معيتهم ذات يوم إلى مقر السفارة الإنجليزية فى" باى أوغلو" معلنين مظاهرات مؤيده للإنجليز، وقالوا للسفير الإنجليزى : "إننا على أهبة الاستعداد لنكون فدائيين فى جيشكم ولخدمة الإنجليز عند الضرورة".(٥١)

وإذا كان عبد الحميد قد اضطلع بتعقب هؤلاء واقتفاء أثرهم فإنه تخلى عن هذه السياسة حتى لا يغضب الإنجليز. كان سلوك جماعة تركيا الفتاة الذى سلف ذكره يندرج فى سلك التصرفات العجيبة المستغربة التى لا يصدقها عقل. ولقد كان ألعوبة فى يد الماسون والإنجليز دون أن يعلموا شيئًا عن ظروف الأمة أو العالم من حولهم.

ولتقرأ فى هذا الصدد ما دونه السلطان عبد الحميد فى مذكراته فيقول :" إن لدينا أنواعًا من الحركات الصهيونية المزعجة المقلقة، إنهم بحماسهم الكبير يسعون سعيا حثيثًا إلى نشر أفكار التجديد التى لا قبل للشعب بفهمها أو إدراك كنهها ألبتة.

فهم ليسوا إلا زمرة عريضة من الشعب غرباء تمامًا عن أفكار الحرية، ولديهم استعداد للاتحاد مع جماعة الاتحاد والترقى، وقد مكثوا حقبة طويلة من الدهر خارج الوطن فانسلخوا من جلودهم، إنهم حفنة ممن حصلوا العلم السطحى فى أوروبا الذى يشبه البريق المتوهج اللامع.

ولما عادوا إلى أوطانهم لم يكونوا على علم بما ينتظره الناس منهم، وقصارى ما بذلوه يتمثل فى نشر الأفكار الأوروبية وترويجها ليجعلوا من تركيا دولة متحضرة، إنها ولا ريب عجمة فى الذهن وطموس فى البصيرة.

ومما لا مرية فيه أن هذه الطغمة قد بذرت بذور التمزق والفرقة والتمرد داخل الجيش والأمة. وإن هؤلاء الذين وعدوا بنشر أفكار الحرية داخل الإمبراطورية لم يدركوا

---

(٥١) تحسين باشا ، ص ٢٢٩ .

أنهم يعملون لحساب الإنجليز حتى يتسنى لهم إضعاف قوتنا، ثم أنشأوا كذلك تعاونا وثيقا بينهم وبين اليونانيين والبلغار حتى يتمكنوا من القضاء على هذا السلطان الذى يرون أنه أفسد الترك مما أثار حسرة في نفسى ومرارة فى حلقى، يا إلهى ! ألا يعرفنى هؤلاء الحمقى المساكين ؟ ألا يعلمون أنهم بصنيعهم هذا يعملون ضد مصالح الإمبراطورية العثمانية؟[٥٢]"

المعارضة الموالية للألمان

على رغم أن السلطان عبد الحميد منح الألمان امتيازات كثيرة من أجل انتهاج سياسة صحيحة معها، فإن هذه السياسة واجهت كثيرا من معارضة الألمان حتى أواخر حكم عبد الحميد، وقد حرص السلطان ألا يكون ألعوبة بمقتضى هذا التحالف المبرم مع الألمان، ولكن ألمانيا شرعت منذ بداية الأمر فى اللف والدوران حول محور هذا الاتفاق من أجل إجهاض سياسة الدولة العثمانية، ورأت فيما بعد أنه لا مناص من نشوب الحرب العالمية، ويتوجب فى أثناء هذه الحرب ألا يكون ثمة طوق يحيط بألمانيا. ووضع الألمان فى حسبانهم أن تحطيم هذا الطوق لن يتأتى إلا بعقد اتفاق مع الدولة العثمانية، وكانت أول زيارة للإمبراطور الألمانى ويليام الثانى فى عام ١٨٨٨م بمثابة جس نبض للحكومة العثمانية.

ويحكى M.D. Grece على لسان السلطان تطورات الأحداث آنذاك عندما قال الإمبراطور الألمانى للسلطان : " أيها السلطان المعظم، أنا ما جئت إلى هنا لأبرم معكم اتفاقًا سياسيا فحسب، بل أتيت لأقدم لكم ما تحتاجونه من المساعدات العسكرية والاقتصادية المختلفة، فالأسلحة والمعونات المادية والتقنية جاهزة برمتها تحت إمرتكم، ويمكنكم أن تأخذوا ما تشاءون من مستودعات إمبراطوريتنا التى لا تنفد". لقد كانت لحظة إظهار رد فعله غير متفقة مع ما جُبلتُ عليه من أعرافى وتقاليدى، فتراه يهم

(٥٢) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ٨١ – ٨٢ .

بإشعال سيجارى، وتارة أشغل نفسى مدة طويلة من أجل تقويمه وتقديره حق قدره، إنه إمبراطور فى ميعة الصبا، متقد الذكاء، بيد أنه لم يزل غرا لم تحنكه التجارب، وسرعان ما سألت نفسى بصوت خفيض قائلاً: حسن أيها السلطان المعظم، فماذا عسى أن يكون فى مقابل هذا الكرم والسخاء الذى عرضه الإمبراطور الألمانى؟. إنهم أصدقاؤنا الوحيدون وليس لنا سواهم، ولزام عليه أن يعلم جيداً أن أصدقاءه من الملوك لن يكونوا مثلى، واكتفيت بهذه الإجابة، ولا شك أننى سأميط اللثام عن الحقيقة فى يوم من الأيام. كانت ألمانيا فى ذلك الإبان تخفف من وطأة مكسبها الذى يضغط تدريجيا على أنفاسنا.

وكان غازى عثمان باشا قلقًا على استقلالنا فى مواجهة ألمانيا، ولكن هدأت روعه. ورغم إيثارى للألمان على غيرهم، فإننى كنت غرا فى التعامل معهم فى المعترك السياسى، أو بتعبير آخر إننى صديق لكل إنسان، بيد أنى لست أدنى منزلة من أى إنسان ألبتة".(٥٣)

أما ما لم يستطع الإمبراطور الألمانى التفوه به فى زيارته سنة ١٨٨٨م، فقد عاد وتفوه به ثانية إبان زيارته التالية إلى إستانبول سنة ١٨٩٨م، وخرج من فمه آنذاك كالبقلاوة.

وما لبث أن زادت قيمة التحالف التركى الألمانى، ولاسيما بعد ما حقق الجيش التركى انتصارا عظيمًا فى الحرب اليونانية بفضل السلاح الألمانى وتدريب الضباط الألمان.

ثم طلب وليم الثانى لقاء سريا مع السلطان، ولنقف على تفاصيل هذا اللقاء بينهما من خلال ما سطره السلطان عبد الحميد حيث يقول : "نهض وليام الثانى واقفا، ودنا منى، ثم ضمنى بكلتا يديه وربت علىَّ ملاطفا، ثم نظر إلى عينى بنظرات متوسلة

---

(٥٣) جريس ، ص ١٩٩ .

مستعطفة قائلاً : هل ستقفون إلى جانبنا إذا شنت الحرب فى أوروبا يا حضرة السلطان ؟ أليس كذلك ؟ لقد توقعت منه كل شىء ولكنى لم أتوقع منه هذا الطلب.

يا ترى هل تخمن الملوك أصحاب العظمة نشوب حرب قريبة فى أوروبا؟ أجاب الإمبراطور، هذه حرب لا مناص منها وأريد منكم الوقوف إلى جانبنا.

وقد منعت نفسى عن أن أسأله عن تفصيلات أكثر من هذا لأن هذا سيجعلنى مضطرا إلى أن أكون أشد صرامة فى ردى الذى ينتظره بقلق.

" أنت صديق عزيز علينا، ولكن ليس من سلطتى الآن أن أجيبك عن سؤالك إجابة شافية، ويمكننى أن أفكر فى هذا الأمر مليا ، وفى اللحظة التى تضطرنا الظروف فيها إلى ذلك.

لقد قدم القيصر الألمانى هذا العرض الذى كنت أتوقعه منذ أول لقاء بيننا قبل عشر سنين، ولكنه وقع اختياره على شىء مقابل شديد الغلاء، وقد بين أمام ناظرى مخاطر الأحداث التى يريد أن يجرنى إليها، وليس هذا عرفانا بالجميل، ولا سبيل إلى أن أزج بنفسى تحت وطأة هذا العبث الوبيل". (٥٤)

ويقصّ عبد الحميد على مسامع ابنته عائشة حكاية هذا الطلب المخيف الذى عرضه وليام الثانى حيث يقول لها: " لقد أمسك الإمبراطور الألمانى بكلتا يدى فجأة عندما جمعنا لقاء خاص ذات مساء، ثم قال لى: أيها السلطان المعظم: لو شنت الحرب فى أوروبا هل ستقف إلى جانبنا، أليس كذلك ؟ وأجبته قائلا: أنت صديق عزيز علينا، ولكن لا أملك أن أعدك الآن بشىء فى هذا الموضوع، وأستطيع أن أفكر فيه فقط عندما يحين موعده، ولا قبل لى بأن أكون هدفا لرغبة أية دولة دون أن أفكر مليا فى مصلحة بلادنا. والوضع السياسى فى أوروبا متوتر فى كل لحظة، فمتى ستنشب الحرب العالمية؟ إن انحيازنا إلى أى طرف من الأطراف يمكن أن يؤدى إلى إشعال نار مستعرة نحترق فى أتونها شيئًا فشيئًا.

---

(٥٤) جريس ، ص ٢٢٩ .

وهذا هو رأينا، ونحن مضطرون إلى أن نحسب خُطانا ولا نتحرك دون حساب، وساعتئذ يقول كل إنسان أنا دبلوماسي، حيث لا دبلوماسية في هذا الوقت(٥٥)

كان عبد الحميد يرى أنه ليس ثمة سبب شديد الخطورة يجعلنا ندخل في تحالف مع أية دولة عظمى؛ لأن هذا بمثابة ضرر جسيم على الأمة. وكان يقول: "إن مصالحنا مرهونة ببقاء السلام".(٥٦)

وعندما تطرق الحديث عن الدخول أو عدم الدخول في تحالف ثلاثي قال عبد الحميد لأرمنيوس فامبري: "إن أي تحالف مع أية دولة يمكن أن يبدو في الأفق على أنه خطر محدق يهددنا، مادامت لم تحن اللحظة الحرجة فإنني أرى أن الدخول في هذا التحالف هو شيء خطر لا معنى له، وأن انضمامنا إلى أحد التحالفات سيجلب لنا عداوة نحن في غنى عنها، كما سيعود على طرف من جيراننا بالفائدة ويصيب طرفا آخر بالضر والأذى وأرجو الله ألا أكون مضطرا إلى اللجوء إلى هذا الخيار الصعب، ولكن إذا حانت لحظة الضرورة فإن الدنيا سترى أني سوف أحمي حقوق أمتي وأحافظ على مصالحها".(٥٧)

إن الألمان لن يخطئوا في تقرير هذه اللحظة، ولن يدخل السلطان عبد الحميد هذه الحرب بصورة مؤكدة، وسيظل محايداً، ولربما تكسب إنجلترا الحرب، وحينئذ سينضم السلطان إلى الطرف المنتصر وسوف يطلب نصيبه منه، ولكنه لن يدخل الحرب إلى جانب ألمانيا على وجه التأكيد. وإذا وصل الأمر إلى هذا الموقف الحرج فإن السلطان سيكون مستعدا للتضحية من أجل الإنجليز.

وقد أدرك عبد الحميد عن طريق هذا الإحساس العميق إمكان حدوث كارثة محققة، يقول عبد الحميد لفتحي بك محافظ إقليم سلانيك التي كان يعتبرها بالنسبة له

(٥٥) شادية عثمان أوغلو ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥٦) عبد الحميد الثاني ، أرائي في الدولة والأمة ، ص ٥٩ .

(٥٧) أوكة : عبد الحميد الثاني وعصره ، ص ٤٦ .

نوعا من النفى الألمانى : "انظر يا فتحى بك إلى الإمبراطور، إنه يريد أن يكون هو الشخص الثالث الذى يوجه وطننا ويتدخل فى شئونه".(٥٨)

"وإننى لم أتقبل مظاهر حبه الرقيقة الناعمة، وإذا ما رفضنا الوفاء بالوعد من أجل الوقوف بجانبه عند احتمال نشوب الحرب فى أوروبا، فإنه سينسى بسرعة صداقتنا العميقة الحميمة".(٥٩)

وعلى حين كان السلطان يضطلع بالسياسة الخارجية فإنه كان يرى أن ألمانيا هى الملاذ الخطر الذى يلوذ به، وأصبح حينئذ كما يقول المثل العربى: كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ولما سقطت هيبة الألمان من عين عبد الحميد، بات أعضاء جماعة تركيا الفتاة هم أصحاب الحظوة لدى الألمان، حيث شرع الألمان يستخدمون الرائحين والغادين منهم إلى ألمانيا ضد تركيا والسلطان ويؤلبونهم عليه، لاسيما أن الألمان وضعوا نصب أعينهم الجناح العسكرى لجماعة تركيا الفتاة، ويرجع السبب فى هذا إلى أن المدنيين منهم كانوا مرتبطين بمدحت باشا ومؤيدين للإنجليز مناصرين لهم.

وقد أصبحت المهمة المكلف بها "جولتز" Goltz رئيس الوفد الألمانى العسكرى المتعهد بإصلاح الجيش العثمانى وتدريبه عنصراً أساسياً يعتمد عليه الألمان فى تركيا.

وقد اهتم "جولتز" إبان الفترة الطويلة التى قضاها فى تركيا بما يأتى: إن غرس الإعجاب بالألمان وطبعه فى ذهن الشباب التركى، وإحراز نجاح فى بيع الأسلحة الألمانية للدولة العثمانية سوف يكونان معا بمثابة جهاز مخابرات يُخضع السلطان وحكومته، ويجعلهما رازحين تحت هيمنة النفوذ الألمانى.(٦٠)

---

(٥٨) عندما رفض السلطان دور الشخصية الثالثة وجدوا فى أنور باشا الشخص المستعد لكى يحل محله ويضطلع بنفس الدور .

(٥٩) جريس ، ص ٣١٤ .

(٦٠) Wattach ، ص ٥٤ .

وقد نجح جولتز في النهاية في "إيجاد طبقة عسكرية متسلطة من روسيا داخل الجيش العثماني، وباتت هذه الطبقة بمثابة نواة قوية مسيطرة".(٦١)

وهكذا استطاع الإمبراطور الألماني ويليام الثاني استخدام هذه النواة الألمانية المهيمنة في الجيش ضد السلطان عبد الحميد. وكان جولتز بمثابة خطة موضوعة سلفا كي تستخدم ضد السلطان.

وعندما رفض السلطان مشروع التحالف الذي عرضه عليه القيصر الألماني سنة ١٨٩٨م طلب جولتز على الفور إلى الضباط الألمان إكراه السلطان على قبول هذا التحالف.

وفي سبيل تحقيق هذا الغرض قام جولتز بإرسال خطاب إلى مدينة "وولدرس" wolderse الألمانية في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٩٩م أخبرهم فيها عن مضايقة السلطان له، كما أنه قدم أموالا طائلة إلى طائفة كبيرة من وزراء الدولة العثمانية كي يستخدمهم في العمل لحسابه، ويستطرد قائلا في رسالته بعد ذلك: " إن قواتي المدفعية والمشاة سوف يمكثان دون حكة في ميدانهما.

وعلى حين نضطلع بالتحريض على تمرد عسكري بين ثنايا الفرق العسكرية في أحد أيام العرض العسكري، فإنني سوف أقوم على الفور بالتدخل لتهدئة الموقف، وسوف يخلف هذا بطبيعة الحال تأثيراً قويا في نفوس أصدقائنا ويدركون أن هذا تمرد خطير ضد السلطان، وإذا نجحت في الحصول على موافقة السلطان على التحالف فسيكون هذا موقفا مفيدا يظهر للعالم أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة القادرة على المحافظة على أصدقائها في تركيا، ومن المحتمل حينئذ أن يطلب إلى روسيا تسديد ما عليها من ديون، وهذا حل مشكوك فيه، ولسوف أضطر إلى أن أخبره بأني سأصرح إلى سمو السلطان بكل هذا، وأستطيع كذلك تطبيق هذه الحركة في غضون بضعة أسابيع، وسأرسل لكم في الحال كل التفاصيل المتعلقة بهذا الأمر.

---

(٦١) Lother rothmann ، تغلغل الاستعمار الألماني في تركيا ، ترجمة : رضا رازالي ، إستانبول ١٩٧٦ ، ص ٣٤ .

ويوجد ها هنا كثير من أصدقائنا الضباط، وهم يتقاضون الأموال التى خصصتموها بصورة منتظمة، وهم على أهبة الاستعداد لمساعدتنا(٦٢). بيد أن هذه الخطة تعذر تطبيقها لعدم موافقة برلين عليها.

رأينا كيف كان الألمان يخططون لاستخدام الجيش من أجل تحقيق أهدافهم التى يسعون إليها فى تركيا.

" وكانت ألمانيا ناجحة فى التغلغل والنفوذ إلى الدولة العثمانية عن طريق حق امتياز إنشاء خط حديد بغداد ومساندة الوفد العسكرى الألمانى المكلف بإصلاح حال الجيش التركى.

ثم أرادت بعد ذلك أن تكمل هذا التغلغل وتتوجه بتحالف سياسى وعسكرى، وعندما وقف عبد الحميد موقفًا معاندًا لكل هذه المحاولات أخذ الألمان يبحثون عن طرائق أخرى للإطاحة بالسلطان، ووجدوا ضالتهم المنشودة فى جماعة تركيا الفتاة، حيث استخدموها براحة تامة حتى تتمكن من خلع السلطان وتنصيب حاكم آخر ليحل محله.

واستطاعت ألمانيا بهذه الطريقة الاستحواذ على الدولة العثمانية وتحقيق رغبتها فى الدخول معها فى كل الاتفاقيات التى كانت ترنو إليها، ولسوف يعمل أعضاء جماعة تركيا الفتاة من أجل تأمين طلباتها مستفيدة من النتائج التى ستتمخض عن عقد هذه الاتفاقيات، ويتوجب حينئذ حدوث ثورة فى الممالك العثمانية(٦٣)".

استخدم الألمان فئة من الضباط الألمان المؤيدين لهم فى الجيش الثالث التركى الموجود فى مقدونيا من أجل الإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

وفى سبيل تنفيذ هذا الغرض كان أنور باشا الموالى للألمان واحدا من هؤلاء الضباط الذين تسلقوا سفوح الجبال وشقوا عصا الطاعة والعصيان على السلطان. وتفيد المعلومات التى دونتها ابنة السلطان أن الدعاية الألمانية استخدمت لتكون وسيلة

---

(٦٢) أورطة يلى، ص ٨ -٧٩.

(٦٣) محمد صلاح الدين، مطالعاتى، المطبعة الهندية، القاهرة، ١٣٤٤، ص ٩٥.

تحريض على لقاء يتم بين ملكة إنجلترا وقيصر روسيا من أجل حث الجيش الثالث العثماني على الثورة ودفعه إلى التمرد والعصيان. ولما تم هذا اللقاء أخذت ألمانيا تروج شائعة فحواها أن اتفاقًا حدث بين الدولتين تمخض عنه قرار يقضي بتقسيم الإمبراطورية العثمانية.(٦٤)

ومن أسف أن هذه الشائعة قد خلفت تأثيرًا عظيمًا ، وسرعان ما تسربت إلى الرأي العام التركي عن طريق الوفود الألمانية الخاضعة للنفوذ الألماني.

"ولم يستطع أبي أن يملك زمام أمره في مواجهة جماعة الاتحاد والترقي التي أظهرت التسليم والإذعان التام للدعاية الألمانية ، وقد سبق للألمان إعلان الدستور الثاني على يد جماعة الاتحاد والترقي مستترين من وراء ستار دعاية مكشوفة تتصل بزعم وجود اتفاق تقسيم تم بين إنجلترا وروسيا كلتيهما.

كما أن الألمان قللوا من صلاحيات الحكومة التي كانت في حوزة والدي، وبسطوا نفوذهم كذلك على سياسة الدولة وجماعة الاتحاد والترقي في آن واحد".(٦٥)

لم يترك الألمان أية وسيلة من أجل التأثير في سياسة السلطان عبد الحميد وإجهاضها، ونجحوا في خلعه عن طريق ثورة ٣١ مارس التي كانت بمثابة الثورة الثانية ضد السلطان، "ماذا عسى أن يصنع أبي والتعاون قائم بين إنجلترا وروسيا، وإن جماعة الاتحاد والترقي التي تظهر الطاعة والإذعان لكل ما يقوله الألمان دون قيد أو شرط قد أجبرت هي الأخرى والدي على ترك العرش، ووضعوه رهن الأسر في أحد معسكرات الاتحاد والترقي الموجودة في مدينة سلانيك".(٦٦)

ولما اشتعلت ثورة جماعة تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨ لم تكن ذات تأثير قوي في سياسة السلطان، ولم تسبب قلقًا للألمان، بل كان الأمر على خلاف ذلك، إذ أسرع وليام

---

(٦٤) لم نصادف وثيقة واحدة تدل على تقسيم تركيا في هذا اللقاء آنف الذكر .

(٦٥) شادية عثمان أوغلو ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

الثانى إمبراطور ألمانيا بالتعبير عن فرط سروره قائلاً : "إن هذه الثورة لم يضطلع بها أعضاء تركيا الفتاة الذين يعيشون فى باريس أو تركيا، بل اضطلع بها الجيش والجنود الترك الذين تلقوا تدريبهم فى ألمانيا على يد الضباط الألمان، وهى ثورة عسكرية بحذافيرها، لقد كان كل شىء تحت سمع ومراقبة وبصر هؤلاء الضباط، ولا ريب أنهم أصدقاء ألمانيا".(٦٧)

وهكذا رأينا أن ثمة طائفة كبيرة من جماعة تركيا الفتاة الموالية للألمان قد أسهمت بنصيب كبير فى ثورة ١٩٠٨م التى قامت بها جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز.

معارضة الدول الكبرى الأخرى

كانت كل من فرنسا والنمسا وإيطاليا من الدول الكبرى المناوئة للسلطان عبد الحميد لأسباب مختلفة. أما فرنسا فرأت فى السلطان عدوا منافسًا لها، وكانت تجهز نفسها كى تثأر لهزيمتها فى منطقة "سادون" sedon ، كما أنها عارضت بشدة الامتيازات التى حصلت عليها ألمانيا من الدولة العثمانية وما تمتعت به من نفوذ وتأثير على هذه الدولة.

وكانت تعارض كذلك إقامة تحالف بين كلتا الدولتين. أما عبد الحميد الثانى فكان ينظر بفتور إلى فرنسا منذ أيام عهد ولايته بسبب تأييدها القوى للعثمانيين الجدد.

ثم أخذت فرنسا بعد حين تتعلق بأذيال إنجلترا فى كل شأن من شئون السياسة، وشرعت فرنسا فى انتهاج سبيل سياسية يعوزها الانتظام والاتساق وتتسم بالفوضى والاضطراب، ومن ثم لم يعرها السلطان أهمية.

ثم أقدمت فرنسا بعد ذلك على توطيد أركانها فى تونس، وكانت ضالعة فى مساعدة اليونان والأرمن ولم تبد مقاومة قط ضد إنجلترا إبان حدوث المسألة المصرية، ثم كانت

---

(٦٧) Ramsaur ، ص ١٦٦ ، jackh ، ص ١١٩ .

الطامة الكبرى عندما احتلت فرنسا منطقة" ميديللى" مما جعلها تفقد هيبتها واعتبارها فى عين السلطان عبد الحميد.

وبدأ الفرنسيون يناصبونه العداء بتأييدهم لجماعة تركيا الفتاة. وأصبحت باريس هى مقر إقامتهم فى أوروبا والمستقر الخارجي لجماعة الاتحاد والترقى منذ بضع سنين. وكانت الجماعات السرية الإرهابية الفرنسية الموجودة فى مقدونيا تكفل الحماية والرعاية لجماعة تركيا الفتاة.

ويستشف مما دونه السلطان فى هذا الصدد أن الجماعات الإرهابية السرية الإيطالية المتعاونة مع مثيلتها الفرنسية قد اضطلعتا معًا بتقديم المساعدات المالية لعائلات جماعة تركيا الفتاة الهاربين داخل الوطن.(٦٨)

وإذا أتينا إلى ذكر معارضة الإيطاليين للسلطان ألفيناهم كانوا يأملون كثيراً فى بسط نفوذهم داخل تركيا. "وتفيد المعلومات التى كان السلطان يجمعها كل يوم من كل مصدر أن هؤلاء الإيطاليين كانوا يطمحون فى تحقيق آمالهم السيئة على مقربة من حدودنا المشروعة من خلال ثلاث نقاط أساسية هى: طرابلس الغرب وبنغازى وماصوزيل، وكان الإيطاليون يعلمون أنهم لا طاقة لهم بالاستقرار فى سواحل سواكين وأزمير والإسكندرونة طوال الحقبة التى يجلس فيها عبد الحميد على عرش السلطنة".(٦٩)

ولهذا السبب فإنهم شرعوا على الفور فى مناوئة السلطان ومعارضته، وما انفكت الجماعات الإرهابية السرية الموجودة فى مقدونيا تقدم التأييد القوى لجماعة تركيا الفتاة، أما النمسا فكانت وثيقة الارتباط بسياسة ألمانيا مما جعلها تنظر بفتور إلى السلطان عبد الحميد؛ بغية المحافظة على سياستها المعتدلة المتزنة مع ألمانيا.

وكانت النمسا يراودها أمل يتمثل فى ضم البوسنة والهرسك إليها، بيد أنها لم تجرؤ على تحقيق هذا الحلم مادام السلطان عبد الحميد ممسكا بمقاليد الحكم فى تركيا.

---

(٦٨) عبد الحميد الثانى مذكراتى السياسية ص ٦٣ .

(٦٩) تحسين باشا ، ص ٢٧٧ .

وما لبثت هاتان المنطقتان أن انضمتا إلى النمسا بعد فترة وجيزة من الثورة التى قامت بها جماعة تركيا الفتاة.

ثم نأتى على ذكر روسيا فنراها لم تكن ضالعة فى تأييد جماعة تركيا الفتاة الذين كانوا يناضلون فى معية الدستوريين الروس ويطالبون بالدستور مثلهم، كما كان القيصر الروسى يريد التعايش السلمى مع السلطان؛ رغبة منه فى المحافظة على حماية الوضع القائم.

معارضة الدول الصغرى

كانت معارضة الدول الصغرى تتمثل فى جيران تركيا المتاخمين لها مثل : اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الأسود ورومانيا.

وعلى حين كانت هذه الدول تمثل ولاية أو إمارة تابعة للدولة العثمانية، فإنها ما لبثت أن أعلنت التمرد والعصيان وانفصلت عن الدولة العثمانية وأصبحت دويلات مستقلة ذات سيادة، ولم تكن هذه الدول راضية قط عن حدودها المرسومة.

لقد كانوا يريدون ضم الأراضى العثمانية الموجودة على طول الحدود زاعمين أن لهم حقا تاريخيا وقوميا فيها. ونجم عن هذا دخول عبد الحميد الثانى فى حرب مع اليونان، وكان يعد العدة لخوض حرب أخرى مع بلغاريا.

وكانت هذه الأسباب جمعاء باعثا على اضطلاع هذه الدول بتشكيل جبهة معارضة للسلطان عبد الحميد، لاسيما أن اليونان قد أصبحت بمثابة ساحة لذهاب وإياب جماعة تركيا الفتاة صوب أوروبا، وأتاحت اليونان لهم هذه الفرصة فى سهولة ويسر، إذ علمنا أن اليونان وبلغاريا قد أيدتا بكل قوة الثورات المتمردة لجماعة تركيا الفتاة وغيرها من العصابات السرية البلقانية التابعة لها فى مقدونيا.

معارضة صهيونية من العناصر الانفصالية

ظهرت معارضة من العناصر الانفصالية ضد السلطان بإزاء المعارضة القوية لجماعة تركيا الفتاة الموجودة داخل الوطن، ويمثل هؤلاء عناصر غير مسلمة على وجه الخصوص.

" كان عبد الحميد فى ذلك الإبان يمثل شخصية رئيس الدولة الذى يتوجب إقصاؤه عن العرش بسبب نفور الأقلية الرومية منه عقب الهزيمة المنكرة التى أوقعها باليونان قبل بضع سنين، وكراهية الأقلية الأرمينية له لعجزها عن تأسيس دولة أرمينية فى شرق الأناضول.

وكان اليهود بدورهم يضمرون هذه الأفكار برمتها فى نفوسهم. فقد عرضت المنظمة الصهيونية العالمية على السلطان ملايين النقود الذهبية على سبيل الرشوة، ولكنها عجزت عن الحصول على إذنه لهجرة شرذمة من اليهود إلى أرض فلسطين".(٧٠)

وكان اليهود والصهاينة من أكثر العناصر الانفصالية التى كان عبد الحميد يخشاها ويحرص دائمًا على اجتنابها.

وقد رفض السلطان مقترحات تيودر هرزل زعيم الحركة الصهيونية العالمية المتعلقة بفلسطين، وعندما كان السلطان يودعه من قصر يلديز أسرع يهمس فى أذن رئيس الكتبة تحسين باشا قائلا له: "سوف ترى بعينى رأسك أن هذا الرجل سوف يطيح بى، وإذا فشل فى ذلك فلن يستطيع أحد الإطاحة بى".(٧١)

---

(٧٠) أوزطونة ، جـ ١٢ ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٧١) نجفزادة ، عبد الحميد وجماعة الاتحاد والترقى ، إستانبول ١٩٦٧م، ص ٤٢ ، نظيف بنه دلتلى أوغلو ، إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد ، إستانبول ١٩٦٠م ، ص ٥٨ .

وقد ناقش السلطان هذه المسألة مع فامبرى قائلا له : "إن استقرار اليهود بأعداد كبيرة قبل ذلك فى فلسطين كان أمراً ضروريا، ولكن هذا الأمر لا سبيل إلى تحقيقه أبدا دون إذنى، ويمكن أن يشكل اليهود جبهة معارضة ضدى، ويستطيعون كذلك الانضمام إلى بعض المحاولات التى ترمى إلى إقصائى عن العرش".(٧٢)

" ومما لا ريب فيه أن عبد الحميد كان يشعر فى قرارة نفسه بقيام دولة إسرائيل وأنها أمر لا مفر منه بعد بضع سنين، بيد أنه لم يكن يريد أن يجعل نفسه أداة لتحقيق هذا الغرض.

وكان على يقين جازم بأن اليهود والصهاينة يتحركون معاً فى صعيد واحد، وكان قلقاً مهتما من أولئك اليهود الماكرين المحنكين الدواهى الذين يتسللون خفية بين ثنايا العناصر التى تشكل بنية الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن السلطان يخشى التمرد والعصيان الذى يضطلع به الروم والأرمن والأرناءوط.

وكان يقول فى هــذا الصدد : إن هـؤلاء لا يستطيعون قهــرى بالقوة والسلاح، بيد أن اليهود سيكونون دائماً أكثر ثراء منى وأشد ذكاء، وإن الصراع معهم ليس شيئا هينا ميسوراً".(٧٣)

لم يكن خوف عبد الحميد من اليهود وأخذه الحذر منهم عبثًا أو غير ذى غناء. فالمال فى حوزتهم، ويقبضون على زمام الأمور فى أهم المؤسسات التجارية الدولية ويضعونها تحت مراقبتهم.

وكانت الصحافة الأوروبية تحت أيديهم، كما أنهم يستطيعون أيضا إثارة العواصف والزوابع التى يريدونها فى اللحظة المواتية بين أفكار الدنيا بأسرها.

بدأ يظهر فى العالم عصر جديد بسبب بروز تحالفات جديدة وعلاقات دولية مقرونة أحيانا بعدم الاتفاق والتفاهم مما نجم عنه تصدع التوازن الأوروبى وزلزلته من

---

(٧٢) جريس ، ص ٢٣١ .

(٧٣) أرتورك ، ص ٤٦ – ٤٧ .

أعماق جذوره. ويتسنى لنا أن نحصي طائفة من الآراء جعلت عبد الحميد ينبذ وراء ظهره الاضطلاع بدور فى مضمار السياسة الخارجية لبضع سنين.

أولاً: كانت الصحافة العالمية تمضى قدما فى سيرها، ثم أخذت كل الظروف الموجودة بعد ذلك تأتلف ضد عبد الحميد فى داخل المجتمع العثمانى، ثم ما لبثت أن ظهرت بعد حين الحركة الدستورية المدنية.(٧٤)

وبدأت على حين غفلة فى شن هجمة شرسة على السلطان. أما الحركة التى نشأت وترعرعت داخل مناخ العناصر القومية العثمانية المتباينة فلم تكن ذات قدرة تمكنها من النيل من أعداء عبد الحميد.(٧٥)

ولما بدأت العناصر اليهودية تتصارع مع عبد الحميد، مثلها فى ذلك مثل الجماعات السرية الإرهابية الأرمينية والبلغارية، أسرعت من فورها فى تحريض الحركات الثورية ضد عبد الحميد داخل الإمبراطورية.(٧٦)

ولما تلقى تيودر هرزل ردا من السلطان برفض مقترحاته فى أغسطس سنة ١٩٠٢م بدأ يصرف همته من أجل تكوين تعاون قوى مع الصهاينة، حتى يتمكن من الإطاحة بعبد الحميد قاطعاً بذلك كل علاقة له مع قصر يلديز.

وتفيد المعلومات التى دونها هرزل فى مذكراته بشأن تحقيق الأحلام التى تراود الصهاينة. حيث يقول: "لقد كانت الصهيونية تريد تمزيق تركيا، ثم يقول لنفسه متسائلا: هل يتوجب العمل ضد تركيا؟ وسرعان ما يجيب عن تساؤله قائلا : لقد جالت الآن بخاطرى خطة واحدة تتمثل فى شن حملة مباغتة ضد السلطان، ولنشرع فى هذا الصدد فى تأسيس علاقة مباشرة مع كل من الأمراء المنفيين وجماعة تركيا الفتاة".(٧٧)

---

(٧٤) وهى المكونة من أشخاص من خارج الخدمة العسكرية ويعرفون فى التركية باسم Basi Bozu .

(٧٥) تبة دنلن ، إعلان الحرية ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٧٦) يالة ، ص ١٥٧ .

(٧٧) هرزل ، اليوميات الكاملة ، جـ١ ، ص ٣٧٤ ، جـ٣ص ١٠٨٠ .

ولما عاد هرزل إلى أوروبا أسس بنفسه أول تعاون قوى للعمل ضد السلطان، ومن ثم فإنه سارع بمقابلة كل من عبد الله جودت بك وعلى نورى بك فى ڤينيا. وقد عرض على نور بك على هرزل اقتراحا يتضمن إرسال ألف رجل مدججين بالسلاح فى معية مدمرتين اثنتين إلى البوغاز، ثم تقوم هاتان المدمرتان بإمطار قصر يلديز بوابل من القنابل على سبيل التهديد للسلطان، وقدر على نورى تكاليف هذه الخطة بخمسة آلاف جنيه إسترلينى.

وجلب إلى الصهاينة تغطية نفقات هذه الخطة المزعومة. ثم عرض هرزل هذه الخطة على فامبرى فرفضها لتعذر تنفيذها.(٧٨)

كان الصهاينة يقدمون تأييدا قويا إلى جماعة تركيا الفتاة داخل الوطن، وأصبحت مدينة سلانيك هى مركز هذا التأييد ومستقره، ويبلغ عدد سكانه ١٧٣ ألف نسمة، منهم ١٨٠ ألف يهودى، و ٢٠ ألفًا آخرون من يهود الدونمة. وقد حققت المنظمة الصهيونية العالمية مكاسب حقيقية لليهود عن طريق إرسال طائفة من عناصرها إلى سلانيك مثل : الحاخام يعقوب مائير ويعقوب نايور صاحب صحيفة "lepoka" ، ونسيم فرلياخ ونسيم روسو.

بيد أن "عمانويل قراصو" كان أعظم مكسب فى هذا المضمار، وكان نائبًا فى البرلمان العثمانى، وهو من الشخصيات المشهورة البارزة فى جماعة تركيا الفتاة(٧٩).

وكان عمانويل هذا ضمن الوفد الصهيونى الذى جاء إلى إستانبول فى سنة ١٨٩٨م وطلب إلى عبد الحميد آنذاك أن يبيعهم مزرعة الخيول السلطانية الموجودة فى إقليم القدس حتى يتسنى لهم إقامة دولة يهودية فى فلسطين".(٨٠)

---

(٧٨) هرزل ، اليوميات الكاملة ، جـ٣ ، ص ١١٠٠ .

(٧٩) فريد مان ، ص ١٤٢ .

(٨٠) أوقيار ، ص ٤٥ .

وسعى هذا المحامى السلانيكى إلى توطيد عرى الصداقة مع السلطان عبد الحميد أسوة بالصهاينة الأوائل كى يتمكن من انتزاع الامتيازات والحقوق المتصلة بفلسطين، حتى بلغ به الأمر فى هذا السبيل إلى أنه أرسل التقارير السرية التى تتضمن اتخاذ إجراءات صارمة ضد المقاهى والنوادى العامة التى تقرأ فيها الصحف الضارة المناوئة لعبد الحميد.(٨١)

ولما أجاب السلطان برد قاطع عن مقترحات الصهاينة شرع عمانويل فى تأييد جماعة تركيا الفتاة متبعا نشاطات هرزل فى هذا السبيل.

وهذا واحد من يهود الترك يدعى "آفرايم جالانتى" يكتب فى هذا السياق فيقول: "كان عمانويل قراصو من أوائل المشتركين فى حركة تركيا الفتاة، وكان أهم عمل اضطلع به فى سلانيك يتمثل فى تأمين المراسلات والمكاتبات التى تتم بين سلانيك وإستانبول، أو بينها وبين المقاطعات الأخرى بطريقة لا تجذب نظراً للحكومة العثمانية، وكان عارفًا بأحوال الأهالى فى الدولة منبها إياهم كى يأخذوا حذرهم، وقد نجح قراصو فى مهمته نجاحًا عظيمًا حيث قدم خدمات جليلة إلى جماعة تركيا الفتاة".(٨٢)

لم يكن غريبا لدى عبد الحميد ذلك التأييد القوى الذى يقدمه عمانويل قراصو إلى جماعة تركيا الفتاة. وتحدث عبد الحميد فى هذه المسألة مع فتحى بك محافظ إقليم سلانيك، وأطلعه على الانقلاب الذى تعد له جماعة الاتحاد والترقى بالاتفاق والتعاون مع الصهاينة، يقول السلطان : "ثمة صعاب أخرى تشد الانتباه، فهؤلاء اليهود قد انضموا إلى صفوف خصومى وأعدائى".

أمن قبيل المصادفة أن يكون قراصو اليهودى هو رجل هرزل، وهو واحد من بين أربعة أعضاء فى البرلمان ممن جاءوا ليخبرونى بإقصائى عن العرش؟ ومنذ أن أدرك هرزل أنه لن يتسنى له أخذ فلسطين منى أسرع من فوره بالانضمام إلى الاجتماعات

---

(٨١) أصف توجاى عبرت ، كتاب التقارير السرية المقدمة إلى عبد الحميد ، إستانبول ١٩٦٤م ، ص ٤٠ .
(٨٢) آفرام جلانتى ، الترك واليهود ، إستانبول ١٩٤٧م ، ص١٨٨ .

السرية من أجل طردى من الخدمة وعزلى عن منصبى ، ولم يقنع قراصو بما اضطلع به من توطيد العلاقة بين الماسونية وجماعة الاتحاد والترقى، وإنه فى هذا يشبهك تمام الشبه يافاتح بك.

أغضبت كل هذه الصعاب السلطان، فهو يقف ضد تصرفات تحالف المعارضة المؤلفة ضده، وهم عرفوا بعضهم بعضا دون سابق معـرفة ورغبة منهم فى تحطيم العقبة الكئود الوحيدة المتمثلة فى شخصى، كما أنهم عملوا معا فى خط متواز من أجل إنشاء اتحاد دون أن يسبق لهم الاتحاد والتعاون من قبل.(٨٣)

وقد تحدث السلطان عبد الحميد إلى "دبرة لى ذى النون" أحد حكام ولاية سلانيك عن رفضه لاقتراحات هرزل الصهيونى التى عرضها بشأن فلسطين، وكيف أن الصهاينة سيطيحون به وينفونه إلى سلانيك.(٨٤)

ولننظر مليا إلى غرائب الأشياء وعجائبها حيث نرى أهل سلانيك يقعون فى حب السلطان ويتم إرساله فى النهاية إلى هذه المدينة ويحل ضيفا على أهلها. وقد أسهم الصهاينة بالتأييد الأكبر لجماعة تركيا الفتاة الموجودين فى مدن مقدونيا، وتم هذا التأييد بواسطة الجماعات السرية اليهودية الموجودة فى سلانيك، وكانت غالبية اليهود الموجودين فى سلانيك مسجلين على أنهم من رعايا كل من إيطاليا وإسبانيا.

وكانت الجماعات الماسونية التى أسسوها مرتبطة بنفوذ الدول التى سلف ذكرها، كما أنهم تخلصوا من متابعة السلطان لهم بسبب الفوائد الجمة التى عادت عليهم من الامتيازات. وكان الأستاذ الأعظم عمانويل قراصو هو المؤسس الأول لجمعية" مقدونيا ريزورتة" المؤسسة فى سلانيك والتابعة لإيطاليا.

ثم قام هذا الرجل بجمع أعضاء تركيا الفتاة فى مقر الجمعية الماسونية التى تتزين جدرانها بالأساطير اليهودية والرموز الماسونية، وكفل لهم الحماية مخلصاً إياهم

---

(٨٣) جريس ، ص ٣١٤ .

(٨٤) أرتوك ، ص ٤٤ – ٤٥ .

من تعقب السلطان لهم واقتفاء أثرهم[٨٥]، وهاهى ذى طائفة بأسماء الشخصيات البارزة التى كفلها قراصو بحمايته من بين أعضاء تركيا الفتاة : طلعت بك (باشا بعد ذلك)، ومدحت شكرى وكاظم نامي ورفيق بك ورحمى بك وإسماعيل جان بولاد وجمال بك (باشا بعد ذلك) وآخرون.[٨٦]

وإذا أمعنا النظر مليا ألفينا أن هذه الشخصيات البارزة كانوا نشطاء جماعة الاتحاد والترقى التى أفل نجمها داخل الوطن، ثم ما لبثوا أن أصبحوا مرة ثانية من مؤسسيها وزعمائها. وكان" عمانويل قراصو" يعتمد كثيراً على طلعت بك أكثر من غيره من أعضاء الاتحاد والترقي، وكان طلعت باشا موظفًا فى البريد ثم فصل من وظيفته بسبب الدعاية التى اضطلع بها ضد السلطان، بيد أنه بدأ يعيش فى ظروف اضطرارية قاهرة، وسرعان ما كفله "قراصو" بحمايته وشمله بعطفه ورعايته ومنحه وظيفة فى مكتب المحاماة.

ثم أسست جماعة الاتحاد والترقى بتكليف من عمانويل قراصو، وأصبح طلعت بك رئيسا لها، ثم كان هو الرئيس الأعظم للماسونية التركية عقب جماعة تركيا الفتاة، وكان أول وآخر صدر أعظم إبان حكم جماعة تركيا الفتاة، ولكن الإمبراطورية العثمانية قد ودعت التاريخ فى عهده.

وكانت هناك جماعة إرهابية سرية فى مقدونيا كانت بمثابة قوة سرية مؤيدة لجماعة تركيا الفتاة، ودونك أسماءها : جمعية الأمل والنور التابعة لإيطاليا، جمعية الحقيقة التابعة لفرنسا، الجمعيات الدستورية التابعة لإسبانيا. وكان" جاويد بك" أحد يهود الدونمة زعيمًا لهذه الجمعية الأخيرة، وأصبح فيما بعد وزيرا للمالية فى حكومة الاتحاد والترقى. هكذا كانت هذه الجماعات السرية ومعهم اليهود والدونمة يقدمون أعظم تأييد ممكن لجمعية الاتحاد والترقى ولا سيما جمعية "ماجودينا زيرورتا"

---

(٨٥) Graves ، ص ١٣٨ – ١٣٨ .

(٨٦) حيدر رفعت ، الماسونية ، إستانبول ١٩٣٤م ، ص ٨٢٧ .

التى كانت تقدم مساعدات سرية لضباط الجيش الثالث لتحريضهم على الثورة والتمرد.[٨٧]

أصبحت سلانيك هى مركز المعارضة ضد عبد الحميد فى مقدونيا، واضطلع الوجود الصهيونى لهذه الجماعات السرية بالاشتراك مع المواطنين اليهود من أهل سلانيك بتقديم يد العون والمساعدة المالية وغيرها من أمور الاتصال".[٨٨]

" وما لبثت حركة تركيا الفتاة أن كبرت وعظمت وقويت شوكتها على حين غفلة إبان عام ١٩٠٨م، وكان اليهود يمثلون أقوى نسبة كبيرة بين أعضائها، كما ضمت فى صفوفها كذلك زمرة من اليهود السريين (الدونمة) من سلانيك".[٨٩]

أحس عبد الحميد بأن ثمة اتحاداً يدبر ضده فى مقدونيا، لاسيما أنه كان يرتاب فى أمر الجيش ويتوجس خيفة منه، ناهيك عن وجود تنظيمات سرية داخل الجيش اضطلعت الجماعات السرية اليهودية بتأسيس خلاياها." وكانت هذه الجماعات السرية تحدد مكان التقاء هؤلاء الضباط لتدريبهم على استخدام الوسائل القتالية الحديثة، ومن بين هذه الجماعات ثلاث طوائف لا تربطهم أية علاقة سابقة وهم : اليهود والماسون والجند، وقد بذلت جهدى كى أقترب منهم وأطلع على ما يدبرون".[٩٠]

لا جرم أن السلطان كان يشعر بقرع أقدام الاستعداد للثورة المدبرة ضده والتى كان يخافها، حتى إنه كان يخشى ذكر اسمها، وكان يقول : إننى أبذل جهدى للإحاطة علما بما يدبرون، وكان الصهاينة يعدون العدة لإعداد المعارضين للسلطان فى الجيش الثالث إلى جانب المعارضة الانفصالية للنصارى، فشل عبد الحميد فى اتخاذ التدابير المحكمة للحيلولة دون تحقيق الآمال العريضة للعناصر الانفصالية فى مقدونيا والبلقان والروم وغيرها من العناصر الانفصالية والنصرانية، وفضلا عن الحركة الانفصالية لليهود

(٨٧) لوكة ، ص ١٣٧ .
(٨٨) دافيسون ، ص ١٠٤ .
(٨٩) جيرول ، ص ٣٤٧ .
(٩٠) جريس ، ص ٢٦٠ .

والصهاينة، ولهذا السبب شكل هؤلاء النصارى جبهة مناوئة للسلطان عبد الحميد وشرعوا فى إقامة تعاون وتحالف مع جماعة تركيا الفتاة من أجل الإطاحة به. "كانت الأقليات النصرانية تعقد الأمل على جماعة الاتحاد والترقى كى تحقق لها الاستقلال القوى فى ظل حكم قانونى".(٩١)

وكانت جماعة تركيا الفتاة تتبع سبيل سياسة تكوين اتحاد العناصر، فإذا ما تم وضع الدستور مرة خرى موضع التنفيذ فسوف يتمخض عن تطبيقه تلاحم جميع عناصر الدولة العثمانية من مسلمين وغير مسلمين، ويندرجون جميعا فى إطار المواطنة العثمانية ويتحركون حول فكرة حماية الدولة والذياد عن حياضها. ولهذه الأسباب فإن الأرمن الذين كانوا يتمردون ضد عبد الحميد كانوا مرتبطين باستبداده. ولما نشب التمرد الأرمنى سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٥م ورد فى بلاغات تركيا الفتاة ما يؤكد ضرورة البحث عن سبيل لحل هذه المسألة ووضع حد لهذا التمرد والعصيان، وقالوا فى بلاغهم" إن القوميات كلها ما هى إلا إخوة يحملون لقب الدولة العثمانية، وليسوا أتراكا أولئك الذين يزعمون أن الأرمن الموجودين فى إستانبول وصمة عار فى جبين الدولة العثمانية، ولا شك أنهم تابعون للحكومة الحامدية (حكومة السلطان عبد الحميد)، وهذا يؤكد أن المطالبين بالإصلاحات فى تركيا يريدون ترويج شائعات غير لائقة عن هذه الإصلاحات فى أوروبا.

وأوصى هؤلاء أيضا بإقامة اتحاد بين العناصر العثمانية المختلفة للحيلولة دون الوقوع فى الشرك الذى ينصبه قصر يلدين، ويسعون كذلك من أجل تقويض أركان الحكومة المستبدة واستئصال شأفتها".(٩٢)

كان الأمير صباح الدين أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة يربط دائمًا بين التمرد الأرمنى وأسباب الأحداث الدموية الإرهابية التى تقوم بها الجماعة السرية البلقانية فى مقدونيا وبين فراغ الحكومة من الدستور، ومن ثم فالسلطان فى نظره مذنب آثم.(٩٣)

---

(٩١) بروفيسور دكتور كمال قارباط ، تاريخ الديمقراطية التركية ، إستانبول ١٩٦٧م ، ص ١٩ .

(٩٢) جورى ، ص ٣١ .

(٩٣) بايور : جـ١ ، ص ٢٨٣ .

وكانت عداوة جماعة تركيا الفتاة للسلطان مقرونة بعداوة العناصر الانفصالية وتسير فى صعيد واحد، وباتت هذه العداوة قاسما مشتركًا لكلا العنصرين معًا. ثم تحركت العناصر الانفصالية انطلاقا من هذه النقطة، بيد أنهم لن يتسنى لهم هزيمة السلطان عبد الحميد منفردين معتمدين على ذوات أنفسهم، ورأوا ضرورة إقامة تعاون وتحالف مع جماعة تركيا الفتاة حتى يقفوا فى وجه السلطان ويحققوا آمالهم العريضة التى يحلمون بها.

ثم ظهر بعد ذلك تحالف العناصر الانفصالية التركية المسماة بجماعة تركيا الفتاة، وأخذت تجرى على الألسنة فى الفترة بين أعوام ١٩٠٢ - ١٩٠٨م، لاسيما أن الأرمن بدأوا ينظرون إلى هذا التحالف على أنه شيء ضرورى بالنسبة لهم" وما لبث الأرمن أن عقدوا اتفاقية مؤقتة مع جماعة تركيا الفتاة ضد السلطان عبد الحميد. وإذا ما أطيح بالسلطان فإن مناخ الحرية سوف يستيقظ ويبلغ أقصى مداه لدى الأرمن والعرب على حد سواء". (٩٤)

وتفيد الكتابات التى دونها A.Bkuron أحد شهود العيان من جماعة تركيا الفتاة : أن أول محاولة لعقد تعاون كانت مع العناصر الأرمينية الانفصالية واضطلعت بها الجمعيات الإرهابية السرية الأرمينية، وعقد أول لقاء مع وفد جمعية طاشناق الأرمينية وتركيا الفتاة فى مكتب الأمير صباح الدين.

وفى أول اجتماع لهم أفصح الأرمن صراحة عن أهدافهم، واعترفوا بأنهم دبروا مؤامرة لقتل عبد الحميد (حادثة القنبلة الزمنية سنة ١٩٠٥، والتى نجم عنها نتائج بالغة السوء)، كما أهدروا أموالا طائلة فى سبيل ذلك، وأماطوا اللثام عن أنهم على اقتناع تام بسوء ما صنعوا بوطنهم، ثم عرضوا تحديد أهدافهم وأغراضهم وسبلهم التى يسعون إلى تحقيقها.

---

(٩٤) E : mondel ، ما هى حقيقة ما حدث فى مؤتمر باريس ، لندن ١٩٢١م ، ص ١٨٠ .

وإذا كانت هذه الأفكار التى ظهرت بوجه عام قد حظيت بالقبول والاستحسان فى نفوس الشعب، فإنه قد ظهرت بعد ذلك فروق جوهرية فى الآراء المطروحة عند انتقال هذه الأفكار إلى حيز تنفيذ البرامج المشتركة بين كلتا الحركتين، حتى إن اللقاءات بينهما تعرضت أحيانا لفترات من الانقطاع، ثم ما لبثوا فى نهاية المطاف أن توصلوا إلى اتفاق مبنى على الأسس الآتية : "إنه على رغم محافظة كل جمعية على هويتها وشخصيتها فلزام عليها ألا تجذب أنظار أحد إليها فيما يتعلق بأفكارها ومبادئها، وألا تنشغل كذلك بنقد الآخرين، وأن تعمل ضمن برنامج مشترك من أجل وضع نهاية للاستبداد، وتقوم بتعيين وفود منتخبة بطريقة سرية من ثلاث جمعيات للاضطلاع بهذه المساعى".(٩٥)

ولما أدركت جماعة تركيا الفتاة أن تحالفها مع الأرمن لن يؤدى إلى إجهاض سياسة السلطان عبد الحميد، أسرعت من فورها للبحث عن سبل للاتفاق مع الجماعات الإرهابية البلقانية. وها هى ذى اعترافات شاهد عيان وردت على لسان واحد من جماعة تركيا الفتاة يقول فيها :"حدثت تطورات بعد ذلك حيث عقد اتفاق بين جماعة تركيا الفتاة والجماعات السرية فى الروملى.

وحينئذ أسرعت جماعة الاتحاد والترقى فى الدخول فى محادثات سرية مع الجماعات السرية اليونانية والبلغارية، وتم فى هذه اللقاءات التوصل إلى اتحاد فى الرأى بشأن إقامة حكم دستورى".(٩٦)

وثمة اعترافات أخرى على لسان رجل آخر من جماعة تركيا الفتاة يقول فيها: "أصبحت سلانيك فى ذلك الإبان مركزًا للجماعات السرية البلغارية والرومية والصربية، ورغم اتصالنا القائم مع كل هذه الجمعيات فإن الجماعات الرومية هى أفضل من اتفقنا معهم، وجاء الدكتور نظمى من باريس إلى سلانيك بمساعدة الجماعات السرية الرومية".(٩٧)

---

(٩٥) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ٢٣٥ .

(٩٦) أوزر ، ص ٩٠ .

(٩٧) Blade ، ص ٢٤ .

معارضة العناصر المسلمة

تشكلت العناصر الانفصالية المسلمة من الأرناءوط والعرب، وهاهم أولاء زعماء الحركة الانفصالية الأرناءوطية : إسماعيل كمال وحسن برشينة وأسعد طوب طانى ومفيد بك وثريا فلورة ودرويش همة وشاكر تكين أوبى، وكان إسماعيل كمال من أهم العناصر التى أقامت تعاونا مشتركا مع جماعة تركيا الفتاة.

وكان تأسيس دولة أرناءوطية مستقلة هو الأمل الذى يراود إسماعيل كمال ليكون هو حاكما عليها، وقد حقق ما يريد." كان إسماعيل كمال يضطلع بدور مهم نشط فى تلك الحقبة حيث أقام تحالفًا وتعاونًا ماكرا مع جماعة تركيا الفتاة، وتعامل معهم بوجهين قبيل دستور سنة ١٩٠٨م".(٩٨)

" ولم يكن لهذا الشخص دولة معينة يعمل لحسابها، بل يتقاضى أموالا مقابل خدماته السرية من كل من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين وخديو مصر وملك اليونان".(٩٩) وكان إسماعيل كمال معروفا بميوله الإنجليزية، وكان يعمل مع السلطات المركزية الإنجليزية المؤيدة لجماعة تركيا الفتاة ضد السلطان.

كانت العناصر الانفصالية العربية تطالب أولا بالحكم الذاتى ثم ما لبثت بعد ذلك أن طمحت فى المطالبة بالاستقلال التام، وظهرت زمرة أخرى من هذه العناصر ممن اضطلعت بتأييد الأمير صباح الدين فى دعواته الانفصالية، وكانت هنالك زمرة من النصارى العرب وأخرى من المسلمين العرب ممن أقاموا تعاونا وثيقا مع جماعة تركيا الفتاة، وكلهم من العناصر الانفصالية التى كانت ترمى إلى تخويف عبد الحميد وقض مضجعه، ومن هؤلاء النصارى العرب السورى" خليل جانم" الذى كان يؤيد الأمير صباح الدين والذى يصدر صحيفة" الخلافة" فى إنجلترا.

(٩٨) جلال بيار ، جـ٣ ، ص ٧٩٠ .

(٩٩) تبة دن لنلى أوغلو ، إعلان الحرية ، ص٥٣ .

تحالف المعارضين والمؤتمرات

بدأت تتكون تحالفات بين الجماعات المعارضة للسلطان عبد الحميد، ثم ما لبثت أن أقدمت هذه التحالفات على اتخاذ قرارات مشتركة فيما بينها من أجل الإحاطة بالسلطان، وعقد أول اجتماع لتحالف المعارضين بناء على دعوة من الأمير صباح الدين فى الفترة من ٤ - ٩ فبراير سنة ١٩٠٢م فى باريس تحت اسم مؤتمر الأحرار. وتولى الأمير صباح الدين رئاسة هذا المؤتمر واتخذ له مساعدين هما: " ساتخاس الرومى وسيسيان الأرمنى"، وانضم إلى المؤتمر سبعة وأربعون من الترك، فضلا عن العرب والروم والأكراد والأرمن والأرناءوط والجراكسة وشخص واحد من الوفد اليهودى، اتفقت آراؤهم جميعًا على أن عبد الحميد لم يعد أهلاً لتولى عرش سلطنة الدولة العثمانية".(١٠٠)

وتمخض هذا المؤتمر عن طائفة من القرارات المخزية الفاضحة التى تلعن تاريخ الترك إلى أبد الآبدين، وهاهى ذى نصوص القرارات :

١ - سوف نعمل على تطبيق معاهدة برلين ونصوصها الخاصة بمقدونيا وشرق الأناضول، وتطبيق نصوص المعاهدات الأخرى على الولايات المختلفة.

٢ - يتمخض عن هذا تشكيل إدارات محلية وحكم ذاتى مؤقت فى كل جهة من أنحاء الإمبراطورية العثمانية.

٣ - وإذا لم يطبق السلطان عبد الحميد قواعد الحكم الذاتى فى مقدونيا وشرق الأناضول، فيحق حينئذ لهذه الولايات أن تطالب الدول الكبرى بالتدخل لتعميم الحكم الذاتى ليشمل كل الولايات".(١٠١)

كان عبد الحميد يردد دائمًا : إننى أفضل الموت فى سبيل المحافظة على الدولة والأمة، ولن أقبل الإصلاحات أو الحكم الذاتى، ولهذا صدرت قرارات المؤتمر سالف الذكر لمعارضة أقوال عبد الحميد وتفنيدها.

---

(١٠٠) romsour ، ص١٥٦ .

(١٠١) دانشمند ، جـ٥ ٣٥٨ .

ولكن ماذا يعنى قرار المؤتمر بالسماح بالتدخل الأجنبى؟ لم ينجم عن تدخل الدول الكبرى منذ مائة عام سوى تمزيق الدولة العثمانية، فقد ظهرت دويلات مستقلة مثل الصرب واليونان ورومانيا وبلغاريا وغيرها.

ولما كان السلطان مدركًا لهذه الحقيقة عالمًا بعواقبها، فإنه كان يعمل جاهداً على أن ينأى بعيداً عن اللجوء إلى وسيلة تسمح بالتدخل فى شئوننا الداخلية، وأنفق عمره كله فى سبيل تحقيق هذه الغاية.

أما جماعة تركيا الفتاة فإنهم جاهلون غافلون أغرار قد تبلد شعورهم تجاه الأمة والدين والتاريخ، يسيرون وعيونهم مغمضة، يتخبطون فى دياجير الظلمات، ويقحمون أنفسهم فى إصدار قرارات واتخاذ تدابير من شأنها تحقيق أهداف أعدائنا وتمكينهم من نيل مآربهم. وتفيد الكتابات التى دونها "قوران" الذى انضم إلى المؤتمر آنف الذكر بأنه قد صدر قرار ثورى بشأن الإطاحة بالسلطان وإقصائه عن العرش، ولم يتحدث القرار عن عدم القدرة على الاضطلاع بالثورة وترويج الدعاية المتصلة بها فحسب، بل تضمن كذلك تشكيل قوة عسكرية خاصة تشترك فى هذه الثورة.

وقال الأمير صباح الدين : إن هذا الأمر يمكن أن يتطور بعض الشىء، فيتمكن السلطان من الحيلولة دون وقوع هذه الثورة، ومن ثم وجب علينا أولا أن نتفاهم مع الحكومة لتكون مصالحها متفقة تماماً مع مصالحنا من أجل عرقلة تدخل السلطان[١٠٢]، وكان هذا الاقتراح الذى عرضه الأمير صباح الدين فى أثناء قرارات المؤتمر بمثابة شىء مُخزٍ فاضح لتاريخنا، ثم ما لبث هذا القرار المخزى المشين أن أصبح أشد حزنًا وقتامة، ولسوف نرى فى الصحف الآتية كيف عقد الأمير صباح الدين تحالفا وثيقًا مع كل من الإنجليز واليونان من أجل الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وعزله عن عرش السلطنة، وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثانى فى باريس، وضم تحالف المعارضين الذين أجمعوا أمرهم على الإطاحة بالسلطان، وكانت الرغبة المشتركة للمؤتمرين هى انضمام المنظمات الإرهابية الأرمينية إلى الإدارة النشطة لجماعة تركيا الفتاة وإلحاقهم بالمؤتمر

(١٠٢) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص٢٣٥ .

لإثارة العداوة فى نفوسهم للإطاحة بالسلطان، كما انضم إلى المؤتمر كذلك ممثلون آخرون من اليهود والعرب والبلغار.[١٠٣]

وكانت هذه العناصر المعارضة يجمعها هدف واحد يتمثل فى إقصاء السلطان، ولكن من خلال اتجاهات متباينة، وعلى سبيل المثال" فإن العناصر الأرمنية الانفصالية كانت ترى ضرورة إقامة تعاون وثيق مع جماعة تركيا الفتاة من أجل الوصول إلى تحقيق آمالهم واستمالة أفكار العامة وإقناع هذه الجماعة ببذل كل مساعيها؛ بغية القضاء على الاستبداد[١٠٤]. أما جماعة تركيا الفتاة فإنهم رأوا أن قوتهم وحدها غير كافية للإطاحة بالسلطان، ومن ثم فإنهم قبلوا عقد تحالف مؤقت مع الأرمن من أجل تحقيق هذه الغاية التى يصبون إليها[١٠٥]، ونستخلص من كتابات الأمير صباح الدين : "أن شركة التحالف لهؤلاء المعارضين كانت مؤقتة ، وكانت كل الفرق المعارضة تهدف أولا إلى تشكيل قوة مشتركة موحدة متحمسة ترمى إلى تقويض بنيان الحكومة الحامدية.

فإذا ما تحقق هذا الغرض (يعنى القضاء على عبد الحميد) تشرع كل فرقة فى تنفيذ برنامجها المخطط المرسوم".[١٠٦]

"وهكذا نرى أن الثورة المشتركة قد ماتت وتفسخ الاتفاق المشترك بين أربابها، وفى هذا المؤتمر تقرر إجهاض سياسة عبد الحميد وصدرت القرارات الآتية فى هذا السبيل: ضرورة القضاء على الحكومة والإتيان بحكومة منتخبة ، أما كيفية التحرك والعمل فتكون على النحو الآتى: المقاومة المسلحة ضد أى هجوم، والمقاومة غير المسلحة بالإضراب عن العمل الاقتصادى والسياسى عند تدخل الحكومة والبوليس، والامتناع عن دفع الضرائب، وترويج الدعاية داخل الجيش، وإعلان التمرد العام والاضطلاع بحركات ثورية أخرى بحسب ما يقتضيه الموقف وتمليه الظروف".[١٠٧]

---

(١٠٣) Ramsuar ، ص٨٤ .

(١٠٤) آمال الجماعات السرية الأرمينية والحركات الثورية ، إستانبول ١٣٣٢هـ ، ص ٢٣١ .

(١٠٥) Bayur ، جـ١ ، ٣٨٧ .

(١٠٦) الأمير صباح الدين ، ص ٥ .

(١٠٧) Ramsuar ، ص ١٥٦ .

محاولات الانقلاب والتآمر ضد السلطان عبد الحميد

كانت العناصر الانفصالية وجماعة تركيا الفتاة تريان أن السلطان عبد الحميد كان بمثابة العقبة الكئود التى تعترض سبيل تحقيق آمالهما، وأخذا يصغيان فى حُسبانهما إلى ضرورة التخلص منه. وكانت لديهم خيارات متعددة، من بينها قتله واستئصال شأفته، واضطلعوا بتدبير مؤتمرات صغيرة وكبيرة من أجل تحقيق غرضهم، وكانت أكبر مؤامرة وأخطرها فى هذا السبيل تلك التى نفذتها العناصر الانفصالية الأرمينية فى شهر يوليو سنة ١٩٠٥م باستخدام القنبلة الزمنية، بيد أنهم أخفقوا فى تنفيذ خطتهم.

"وإذا ما أتينا على ذكر الخطط التآمرية التى قامت بها جماعة تركيا الفتاة، وجدنا معلومات كثيرة تتصل بهذا الموضوع فى مصادر جماعة تركيا الفتاة، وتفيد الكتابات التى دونها" قوران"، وهو أحد أعضاء هذه الجماعة أنه اضطلع بنفسه بتأسيس جمعية الجند الثوريين إبان عمله مدرسًا فى المدرسة الثانوية العسكرية، واندس نفر من هذه الجمعية إلى قصر يلديز وعملوا أطباء، وقاموا بتدبير مؤامرتين لقتل السلطان، ولكنهم أخفقوا فى كلتا المحاولتين[١٠٨]". أما كاظم قرة بكر فيقول" إن كل شيء مسئول مسئولية مباشرة عن وجود السلطان عبد الحميد، وإذا لم يقتل فإننا لا نستطيع الاضطلاع بعمل شيء قط[١٠٩]"، لاسيما أنه يوجد اتفاق واتحاد سرى يعمل ضد السلطان داخل الجيش الثالث التركى الموجود فى مقدونيا والذى يعمل بقوة نشطة مؤثرة، حتى إن الضباط أنفسهم يضعون خطة لقتل السلطان عبد الحميد بإطلاق النار عليه من منزل مستأجر فى حى" بشكتاش" فى أثناء ذهابه إلى احتفال الخرقة النبوية الشريفة فى الخامس عشر من شهر رمضان، ويقول قرة بكر إنه قد عُدل عن هذه الخطة فيما بعد".[١١٠]

(١٠٨) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .
(١٠٩) قرة بكر ، الاتحاد والترقى ، ص ٩٨ .
(١١٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

أما "خليل منتش" فيكتب فى مذكراته قائلاً : "إنه كانت توجد خطط أخرى لقتل عبد الحميد كان يدبرها طلعت بك وأصدقاؤه فى سلانيك".(١١١)

أما محاولات الانقلاب العسكرى التى حيكت ضد عبد الحميد فكانت على النحو الآتى:
ما وقع فى عام ١٩٠٢ فى أعقاب انعقاد مؤتمر الأحرار العثمانيين، وهى حركة انقلابية كانت تريد تطبيق القرارات التى تمخض عنها المؤتمر.

وتم التخطيط لهذه المؤامرة عن طريق استخدام الجيش ضد السلطان والاستعانة بالمساعدات الخارجية، واختير بضعة أشخاص كى يكونوا بمثابة لجنة تنفيذ للخطة وهم: الأمير صباح الدين وإسماعيل كمال وفاضل بك وآخرون، وقد قام هؤلاء جميعًا بوضع الخطط السرية للثورة وإجراءات تنفيذها".(١١٢)

وتقضى هذه الخطة بأن يضعوا فى عين الاعتبار الوحدات العسكرية الموضوعة تحت إمرة رجب باشا والى طرابلس الغرب من أجل استخدامها فى الاستعانة بالجيش.

وذهب كل من الأمير صباح الدين وفضلى بك إلى جزيرة مالطا الخاضعة للإدارة الإنجليزية لمناقشة الموقف، وأعدوا خطة لعقد لقاءات مع شوكت بك مساعد رجب بك باشا تمهيداً لتوقيع اتفاق معه فى هذا الصدد.

وقد رُتبت الخطة على هذا النحو: تتقدم بضع كتائب عسكرية من ضباط طرابلس الغرب ممن يوثق بهم ويعتمد عليهم إلى مدينة" سِرت" بحجة القيام بمناورة عسكرية، ثم يركبون من هنالك متن سفينة ويعبرون مضيق" جناق قلعة" تحت علم أجنبى، ويدخلون إستانبول ويخرجون إلى نقطة معينة بواسطة ثلة من ضباط أركان الحرب الموجودين فى هذه المنطقة، ثم يسقطون الحكومة بواسطة الضباط المؤيدين والمنضمين إلى هذه القوة، ثم يعلنون الدستور ويطبقون القانون الأساسى.(١١٣)

(١١١) مذكرات خليل منتشة ، إعداد ibrahim arat ، إستانبول ١٩٨٦م ، ص ٦٨ .
(١١٢) Bayur ، جـ١ ، ص ٢٩٨ .
(١١٣) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ١٥٦ .

" ولما صدق رجب باشا على خطة مالطا بادر من فوره بالحصول على تأييد الدول الكبرى حيث حصل منهم على الأموال والسفينة، وفى إطار هذه الخطة توجه كل من الأمير صباح الدين وإسماعيل كمال إلى إنجلترا ، وعقدا اللقاءات مع رجالات الدولة الإنجليز بواسطة رشيد شادى رئيس الكتبة فى السفارة العثمانية بإنجلترا، وطلبوا إلى الإنجليز مساعدات مادية ومعنوية. أما فاضل بك الذى قدم إلى أثنيا فقد وفق فى الحصول على سفينة من اليونان لنقل الجند".(١١٤)

وفى إنجلترا قابل إسماعيل كمال اللورد "ساندرسون" **Sanderson** المستشار الدائم لوزارة الخارجية البريطانية وبحث معه المحاولات الثورية للإطاحة بالسلطان عبد الحميد، وطلب فى هذا الصدد إلى الحكومة الإنجليزية المساعدة من أجل الحيلولة دون تدخل روسيا عقب قيام الثورة".(١١٥)

"تمخضت اللقاءات التى تمت فى إنجلترا عن نتائج طيبة، وقد أوصت الحكومة الإنجليزية بتحرك الأسطول الإنجليزى الموجود فى البحر الأبيض نحو إستانبول بهدف الزيارة، ثم وعدت بأن يتمركز الأسطول بعد ذلك على مقربة من منطقة" بشيكة" ثم تقطع خطوط الهاتف والبرق المرتبطة بمدينتى" أوديسا وكوستجة" حتى لا يتسرب خبر بدء الثورة إلى خارج تركيا. ورغم أن اللقاءات السياسية قد اتفقت على إيجاد حل لمسألة السفن فى القريب العاجل ، فإنه لم يتم التوصل إلى نتيجة قاطعة بشأن المساعدات المالية العاجلة المطلوبة".(١١٦)

وقد اضطلع على حيدر ابن مدحت باشا بدور مهم فى مجريات هذه الأحداث، ويقول فى هذا السياق : "إن مسألة المال قد وجدت لها حلا فى إنجلترا، حيث اضطلع المصرفى الإنجليزى المشهور **E.Gossel** بتقديم قرض قيمته عشرة آلاف قطعة ذهبية، ولكن فى أى شىء كان يفكر **S.Gassel**؟ لقد فكر هذا المصرفى مليا فى الفائدة التى

---

(١١٤) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(١١٥) Ramsur ، ص ٩٥ .

(١١٦) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

سيجنيها من الامتيازات التى ستتمخض عنها الثورة، واشترط هذا الرجل أن يتم إخباره قبل أى شخص عن طريق برقية عندما تأتى البواخر المحملة بالجند إلى جناق قلعة".(١١٧) وقد أحاطت الحكومة الإنجليزية المندوب السامى البريطانى اللورد كرومر علمًا بالمحاولات الثورية التى اضطلعت بها جماعة تركيا الفتاة، كما طلب اللورد ساندرسون إلى إسماعيل كمال الالتقاء باللورد كرومر، وجاء إسماعيل كمال إلى مصر ، والتقى باللورد كرومر الذى عبر عن فرط سروره بهذا اللقاء قائلا : "إن هذه القضية هى قضية إنجلترا أكثر من كونها قضية تركيا. وإذا ما حظى هذا الانقلاب بالتوفيق ، فلسوف يكون بمثابة ميلاد جديد لتركيا التى ستكون صديقا قويا لإنجلترا".(١١٨)

وتعلن هذه العبارة في صراحة وجلاء مدى التأييد الثورى الذى يقدمه الإنجليز للإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

وقد جرت اتصالات مع ولى العهد رشاد أفندى فى أثناء الإعداد للثورة." ونجح الدكتور نهاد رشاد بك فى الحصول على وعد شديد الأهمية من ولى العهد رشاد أفندى بواسطة أمه وشجاعة ثابت بك القيِّم على دائرة ملابس رشاد أفندى، وكتب ولى العهد رسالة إلى الأمير صباح الدين جاء فيها : إنه مؤيد ومناصر لتطبيق حكم دستورى فى تركيا، ولسوف يتغير نظام الحكم المطلق فى البلاد بمجرد توليه عرش السلطنة".(١١٩) واكتملت استعدادات الثورة وحان موعد التنفيذ، وفى الوقت المحدد تخلى رجب باشا عن إرسال الجند على حين غفلة.

ولهذا السبب أظهر كل من على حيدر وقوران حبهما لإسماعيل كمال ، ونصباه أميرا على دولة الأرناءوط المستقلة التى كان يحلم بتأسيسها، ويكتب على حيدر فى هذا السياق قائلاً : "وأخيراً ظهر وجه الحقيقة فى نابلولى، وتجلت ألاعيب كلا المؤيدين لإسماعيل كمال، وبناء عليه عرض رجب باشا الفكرة الآتية على إسماعيل كمال مستفيداً

(١١٧) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ١٥٦ .
(١١٨) Ramsur ، ص ٩٥ .
(١١٩) على حيدر ، مذكراتى ، ص ١٧١ .

من كونه أرناءوطيًا ، إن من الأصوب إرسال الجند إلى الأرناءوط والعمل على تأمين استقلالها، ويكون هذا بمثابة تهديد للسلطان عبد الحميد"(١٢٠)

ورفض رجب باشا هذا العرض لأنه سيجهض محاولة الثورة، ومن ثم تم إعادة سبعة آلاف قطعة ذهبية من العشرة الآلاف المأخوذة من المصرفى الإنجليزى Gossel أما الثلاثة الآلاف الباقية فقد دفعها الأمير صباح الدين.

ثورة جماعة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ :

بدأت جماعة تركيا الفتاة والدول الكبرى والصغرى والعناصر الانفصالية المعارضة المناوئة للسلطان عبد الحميد تظهر تدريجيا منذ أيام اعتلائه سدة العرش، ثم ما لبثت هذه المعارضة فى الاطراد مع مرور الوقت، ثم اشتدت هذه المعارضة وكثرت وعظم شأنها وأخذت تجرى على الألسنة إبان عامى ١٨٩٠ - ١٩٠٠م، حتى إن السلطان كان يخشى على نفسه من إقصائه عن العرش ، حيث كان العزل والإقصاء جاريين على ألسنة الناس، ورغم هذا فإن حدوث هذا العزل الذى تحقق سنة ١٩٠٩م لم يكن مصادفة، ولكن توازنات القوى العسكرية والسياسية الدولية التى جعلت السلطان يثبت على قدميه طوال ثلاثة وثلاثين عامًا قد أصابها التغيير والتبديل. وليس من قبيل العبث واللغو ما تفوه به السلطان فى مذكراته إذ يقول:" لقد كنت عقبة كأداء اعترضت سبيل التحالف الإنجليزى الروسى".

كما أنه رفض كذلك الاقتراحات التى عرضت عليه إقامة تحالف مع الدول الكبرى حرصا منه من أجل المحافظة على التوازن الدولى لصالحه، وسبب هذا أن سياسة السلطان فى المحافظة على حياة تركيا والسلطنة كانت قائمة على الدول الكبرى فى الخارج وعلى ثورات العناصر الانفصالية فى الداخل، وكانت هذه الثورات تتم بتشجيع وتحريض من قبل هؤلاء وأولئك على حد سواء.

---

(١٢٠) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

ومع مرور الوقت فلتت هذه التطورات من تحت يد السلطان، وبدأ ينبذ هذه السياسات وراء ظهره.

كانت التطورات السريعة التى حدثت فى التحالف الثلاثى والائتلاف الثلاثى قد عجلت بالإطاحة بالسلطان وعزله. وقد تمَّ التحالف الثلاثى سنة ١٨٨١م بين كل من ألمانيا والنمسا وإيطاليا فى مقر القيادة الألمانية، وكان هدفه المباشر هو فرنسا فى أول الأمر، وكان هذا التحالف بعيداً لا يشكل خطرا على كل من ألمانيا وإنجلترا وروسيا فى ذلك الإبان، ثم ما لبث هذا الخطر أن بدأ يظهر تدريجياً مع مرور الوقت حيث شاهدنا روسيا وإنجلترا تتقاربان أولاً مع فرنسا ثم مع بعضهما بعضاً بعد ذلك.

وفى ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٢ تم توقيع تحالف عسكرى بين فرنسا وروسيا، وكان هذا بمثابة وضع حجر الأساس لائتلاف ثلاثى ضد التحالف الثلاثى.

وما لبث الخطر الألمانى يكثف ضغوطه على إنجلترا، أما التقارب الفرنسى الروسى فكان ضروريا لعبد الحميد ، وبدأ يقلب القوى رأساً على عقب.

فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤م وقعت معاهدة التحالف الإنجليزى الروسى الذى كان بمثابة ناقوس الخطر الثانى. أما الاتفاق الإنجليزى الروسى الذى وقع فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧م فكان ناقوس شد الحبل على رقبة السلطان وإعدامه.

ولما ظهر هذان التحالفان المشار إليهما آنفا فى نهاية عام ١٩٠٧م، شرعا فى انتهاج سياسة تقضى بتفسخ وتقويض وانهيار التوازن ضد سياسة عبد الحميد المستمرة فى تركيا، أما الائتلاف الثلاثى فكان قلقًا متعبًا من سياسة عبد الحميد الحميمة تجاه ألمانيا، ففى حال نشوب الحرب العالمية سيكون تحالف السلطان مع ألمانيا بمثابة ضرر جسيم على هذا التحالف أما التحالف الثلاثى فقد بذل السلطان قصارى جهده فآثر عدم التدخل فى هذا التحالف، من قبل، حتى إن هذا التحالف كان بسبب انضمام عبد الحميد إلى جانب إنجلترا. وهكذا فقد ظهرت الأمارات الأولى الدالة على ذلك بعد ثورة ١٩٠٨م وقبل ثورة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م ، وفى أوائل عام ١٩٠٨م ظهرت بجلاء تام عداوة تحالف المعارضين للسلطان عبد الحميد فى الداخل والخارج على حد سواء، وأصبح لزاما على السلطان الاستعداد للرحيل.

وقد نجح السلطان فى إجهاض المحاولات التى كانت تسعى إلى استخدام الجيش الثالث فى مقدونيا من قبل تحالف المعارضين، وإن أسباب هذه الثورة المعلنة وأهدافها كانت قناعًا للمجاهرة بالحرية وإعلانًا عن قضية الدستور وعشقه. كان عبد الحميد يخشى كثيرا الجيش فى موضوع عزله وإجهاض سياسته. وليس من نافلة القول ما تفوه به عبد الحميد قائلاً : "لو أن الجيش قوى متين ما استطاع أحد الإطاحة بى"، كما قال لأرمنيوس فامبرى : "إن قدرات جماعة تركيا الفتاة النشيطة فى الداخل والخارج هى مسألة لا تؤخذ مأخذ الجد، وما دام الجيش مخلصاً وفيا فلن يصيبنى ضرر من أولئك القناصة الغاصبين الذين لا يرضون بما هم فيه من حياة الرفاهية وبُحبوحة العيش".(١٢١)

وفى النهاية فإن ما كان يخيف السلطان أوشك أن يقع : "حيث بدأ يشعر بقوة التحالف المتآلف الملتحم داخل الجيش الثالث عن طريق تأثير تحالف المعارضين فى أوائل عام ١٩٠٨م.

وإن السلوك الخاطئ لعبد الحميد يتمثل فى مواجهته للجيش ودفعه للانضمام إلى صفوف معارضيه، أو بمعنى أصح أن الأزمة المالية التى تمخضت عن الأزمة الاقتصادية قد عصفت بالجيش وزلزلت كيانه، فالرواتب لا تدفع بصفة منتظمة للضباط، ويمكنهم أن يتقاضوها مرة واحدة كل ثلاثة أشهر.

وكان هذا العامل الاقتصادى أكثر أهمية من دعاية جماعة تركيا الفتاة ، لا جرم أن الظروف كانت مواتية لتحقيق فائدة جمة ، سواء من الجمعية السرية المشكلة فى سلانيك أو من جماعة الاتحاد والترقى الموجودة فى باريس".(١٢٢)

ونستشف مما دونه تحسين باشا أن الضباط الذين شكلوا جبهة لإغضاب السلطان قد فعلوا ما فعلوه بسبب عدم ترقيتهم بصورة منتظمة. فقد كان الضباط الموجودون فى إستانبول وما حولها يحصلون على رتبهم العسكرية بانتظام.

---

(١٢١) أوكة ، عبد الحميد الثانى وعصره ، ص ١١٦ .

(١٢٢) إسماعيل حامى دانشمند ، واقعة ٣١مارس ، إستانبول ، ١٩٧٤م .

أما ضباط الجيش الثالث والسادس والسابع الموجودون فى مقدونيا وغيرها من المناطق النائية فكانت ترقياتهم فى وضع بالغ السوء ، مما كان سببًا فى انهيار النظام العسكرى وتقويض أركانه." إن تمرد الروملى الذى قوض أركان عبد الحميد كان أحد الأسباب المهمة لاضطلاع الجيش الثالث بالثورة، ولزام علينا ألا نشك فى أن هذه الثورة قد حدثت بسبب الظلم والتعسف اللذين ضاق الجيش بهما ذرعا".(١٢٣)

وهاهو ذا أحمد عزت باشا يدون فى مذكراته طرفا مما يتصل بالإجحاف والظلم فى ترقية الرتب العسكرية فى الجيش فيقول: " بات السلطان لا يأمن جانب الضباط فى أواسط فترة حكمه، وكان السلطان قد شكل غالبية الجند بصفة عامة من الأطفال والغلمان والعبيد والخدام والمقربين إليه.

ولا يرضى هؤلاء بالتعلم فى الفصول الدراسية التى نضطلع بالتدريس فيها، بل كانوا يتعلمون فى مؤسسات خاصة موجودة داخل بناء المدرسة الحربية والتى تسمى بفصول النبلاء و الأصلاء تمييزا لهم عن غيرهم، ويترقى هؤلاء الأطفال إلى رتبتى العميد والجنرال وهم لا يزالون فى المدرسة، وتتم ترقية طائفة أخرى من بينهم من الطلبة المختارين المتميزين عن غيرهم فى رتبة ملازم ثان حتى رتبة الفريق، وهؤلاء يتجولون فى شوارع إستانبول بالجياد والعربات.

لا جرم أن هذا الوضع كان يجرح كرامة الضباط الشبان ويثير غيرتهم وأحقادهم ، وبات من المتعذر التخفيف من وطأة العداوة والكراهية للسلطان فى الجيش وفى المدرسة الحربية على حد سواء".(١٢٤)

وكان الضباط الشبان المتخرجون من المدرسة الحربية يتولون أول مناصب لهم فى التعيين، حيث يخدمون بالجيش الثالث ويعهد إليهم اقتفاء أثر عصابات قطاع الطرق فى مقدونيا، وما لبثوا أن اختلطوا بالجماعات السرية الإرهابية البلقانية الموجودة فى هذه المنطقة،

---

(١٢٣) تحسين باشا ، ص ٩٩ .

(١٢٤) أحمد عزت باشا ، صرختي ، جـ٢ ، إستانبول ، ١٩٩٣م .

وكونوا عصابات أخذت تعمل ضد السلطان، وأصبحت المعسكرات خالية تمامًا بعد اقتفاء أثر قطاع الطرق.

أخذت الوحدات النظامية تتعقب عصابات قطاع الطرق فى المخافر الموجودة فى الجبال، حتى أصبحوا أشتاتا متفرقين على رءوس الكبارى والجسور الواقعة على خطوط السكك الحديدية، وما لبث هؤلاء الضباط أن تغيرت طبيعة عملهم وتبدلت أفكارهم وشخصياتهم وسلوكهم، ونسوا تماما مهنتهم التى تتصف بالانضباط وأداء الواجب المقدس السامى، وكانوا بصنيعهم هذا قد تركوها جانبًا ونبذوها وراء ظهورهم.(١٢٥)

أصبح ضباط الحربية الشبان يأتون إلى مقدونيا ، وهم مستعدون روحيا وفكريا فى معية ولعهم بالدستور الذى استطاعوا تحقيقه خفية فى المدرسة الحربية، فقد كانوا يعانون من شظف العيش المتمثل فى عدم صرف الرواتب وتأخر الترقيات وغيرها من اللوازم والضرورات الحياتية الأخرى، فضلا عن الشدائد والمتاعب التى يكابدونها من أجل اقتفاء أثر العصابات الإجرامية، وقد دفعهم كل هذا دفعًا قويا إلى الاضطلاع بثورة مشروعة ضد السلطان آملين فى القضاء على هذه الأزمات الاقتصادية من ناحية وتمهيد السبيل إلى تحسين أحوال الأمة من ناحية أخرى، وكانوا ينتظرون كذلك تأسيس مراكز فى مدن مقدونيا المختلفة لتؤلف تحالفًا للمعارضين يكون على أهبة الاستعداد للتحريض ضد السلطان عبد الحميد مستغلين الأزمات المالية التى يعانى منها الضباط، لم يكن لتحالف المعارضة قوة مؤثرة فى السلطان خارج نطاق الجيش، كان من المتعذر حدوث تمرد شعبى ضد عبد الحميد الذى يحبه الشعب حبا جما، فقد كان الجيش هو المنظمة الوحيدة التى تملك السلاح ويمكنها استخدامه ضد السلطان، ولا جرم أن البيروقراطيين المعارضين والعلماء كانوا متحالفين مع الجيش إلى حد ما ضد السلطان عبد الحميد. وكان أعضاء تركيا الفتاة أنفسهم يقولون : "إننا على يقين

---

(١٢٥) كولجة ، ص ٢٩٢ .

بأن الجيش هو وحده القادر على المساعدة فى إشعال الثورة بسبب الحالة المتشرذمة التى يعيشها الشعب".(١٢٦)

وكان محمود شوكت باشا متفقًا معهم فى هذا الرأى حيث يقول" يتوجب على الجيش الاضطلاع بهذه الثورة، ولا سبيل إلى الحصول على الدستور إلا كرها".(١٢٧) ولم يدر بخلد السلطان عبد الحميد أن ينضم الجيش إلى الثورة بهذه الطريقة الوفية المخلصة، وكان هذا بالنسبة له من أشد الهزائم التى مُنى بها، وكان يعيش وهو يحسب دائمًا أن الجيش موال له ولن يتخلى عنه أبدًا".(١٢٨)

اضطلع تحالف المعارضين فى مقدونيا بتقديم المساعدات المادية والمعنوية إلى ضباط الجيش الثالث الشبان عن طريق قنوات الجماعات السرية اليهودية، حيث أخذوا يزجون أنفسهم داخل هذا التحالف المعارض وبدأوا يغيرون نظام العمل فيه. وعلموا من خلال مخابراتهم أن السلطان بات فى حالة من الاضطراب والارتباك، وبدأ يسمع جيداً وقع أقدام الثورة. وبدأ الصراع فى أول الأمر يحتدم بشدة بين الجماعات السرية من ناحية ورجالات السلطان وجهاز مخابراته من ناحية أخرى، وهاهو ذا واحد من جماعة تركيا الفتاة يدعى" جَوْرى" فيشرح فى مذكراته ميادين هذا الصراع المحتدم قائلاً : "إن السلطان لم يصرف اهتمامه أول الأمر إلى الروملى، وسرعان ما ولى القصر وجهه واهتمامه نحو هذه المنطقة بمجرد شعوره بخطورة الوضع فيها.

فقد كان ناظم باشا من أشد القادة فى منطقة سلانيك، وهو أحد الذين أُرسل بهم إلى الروملى من أجل تعقب المنتسبين إلى الجماعات السرية الإرهابية، وأصبح لزامًا على الجمعيات السرية استئصال وجوده من هذه المنطقة، وفر هاربا إلى إستانبول وهو مثخن الجراح، ثم أُرسل بعد ذلك وفد حقير وضيع مكون من : ماهر يوسف باشا ورجب باشا حيث شرع كلاهما فى تعقب أثر هذه الحشرات.

(١٢٦) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ٢٢٤ .

(١٢٧) تحسين باشا ، ص ٢٦٢ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

ثم قررت الجمعية قتل طائفة من الأشرار لإخافة العيون والجواسيس، وتمخض عن هذه القرارات إعدام مفتش البوليس ويدعى سامى".(١٢٩)

"وعلى حين كانت حرب الجواسيس قائمة بين السلطان وتحالف المعارضين شاع خبر بين الناس يفيد بأن ثمة لقاء تم بين ملك إنجلترا وقيصر روسيا فى مدينة "ريفال" Reval . وأعقب هذا الاجتماع ما يعرف باسم" آداب التقسيم". وقد سبق أن نوهنا فى الصحائف سالفة الذكر أن الألمان شرعوا فى تحريض الجيش الثالث على الثورة من أجل هذا التقسيم المزعوم.

وقد تم استغلال اجتماع ريفال من أجل مخادعة وإغواء الأرنا ءوط الذين كانوا على عهد الوفاء والإخلاص للسلطان عبد الحميد.

" ومع مرور الوقت اتسعت دائرة الاتهامات والافتراءات ضد السلطان عبد الحميد، وعظمت هذه التهم فى أثناء اجتماع ريفال ، حيث اقتنع الأرناءوط بأن السلطان سوف يتخلى عن الروملى ويتركها للنمساويين، ومن ثم فقد رأى الأرناءوط أن المطالبة بالدستور هى الوسيلة الوحيدة التى فى حوزتهم، واشتركوا فى حركات التمرد والعصيان".(١٣٠)

وإن اللقاء الذى عقد فى ريفال لم يكن له علاقة بتقسيم الإمبراطورية العثمانية. بات كل شيء جاهزاً فى الجيش الثانى للقيام بالثورة، وهم فى انتظار الشرارة الأولى لبدء هذه الثورة. وكان اجتماع ريفال والدعاية المزيفة بالتقسيم بمثابة الشرارة التى أشعلت نار الثورة، وفى يوم الثالث من يوليو سنة ١٩٠٨م تحركت مفرزة عسكرية قوامها ألف وستمائة جندى إلى الجبال بأمر من" وسنلى نيازى بك" وأعلنت التمرد والعصيان.

وقام إبراهيم بك مستشار الجيش الثالث بإخبار قصر يلديز بالموقف فى يوم ٥ يوليو، وكان أول إجراء اتخذه عبد الحميد هو تكليف الفريق" شمس باشا" قائد الفرقة الثامنة عشرة المتمركزة فى" بريشتينا" كى يقوم بسحق هذا التمرد والقضاء عليه،

---

(١٢٩) جورى ، ص ٣٨ .

(١٣٠) رشيد راى ، ص ٣٤ .

وقدم شمس باشا في معية جنده إلى مدينة" مناستير" ودخل مكتب التلغراف ليتحدث مع قصر يلديز، وعند خروجه بادره الملازم عاطف بك وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا وولّى هاربا إلى منطقة "رسنة" متخفيا في زى امرأة".(١٣١)

كان قتل شمس باشا بمثابة راحة للضباط الشبان الذين خرجوا إلى الجبال حيث تنفسوا الصعداء، ولما أدرك السلطان أنه لا قبل له بسحق هذا التمرد بواسطة قوات الأرناءوط ومقدونيا قرر من فوره تجييش جند من الأناضول وعُين "تاتار عثمان باشا" قائداً عليهم، وتحرك صوب مناستير، وهنالك قامت عصابات عثمان باشا نيازى وأيوب صبرى باقتحام منزل تاتار عثمان باشا ثم فروا هاربين إلى شعاب الجبل.(١٣٢)

وتم بعد ذلك دفع كتائب عسكرية احتياطية صوب سلانيك،بيد أنها عجزت عن إجهاض حركة التمرد المشتعلة هنالك، مما اضطر الكتائب إلى أخذ مزيد من التدابير والاحتياطات اللازمة، وأسست هذه الجمعية شعبة لها في أزمير منضوية تحت حماية جمعية يهودية وقناع أجنبى مستتر، وقام الدكتور ناظم السلانيكى بدور مهم فى هذا المضمار.(١٣٣)

ولما قدم الدكتور ناظم إلى سلانيك بدأ يمارس نشاطه حيث عمل بائعًا للتبغ واتخذ له اسما مستعاراً هو" توتونجى يعقوب أفندى".(١٣٤)

" كان ناظم بك يمسك بحقيبة التبغ فى يديه، واستطاع عن طريق بيعه أن يلتقى بضباط الاحتياط الذين سيق بهم من أزمير إلى سلانيك، ونبههم إلى الامتناع عن إطلاق الرصاص على الأصدقاء الذين يعملون بكل حمية وحماس للدفاع عن الوطن، وتمخضت جهود ناظم بك عن نتائج كبيرة، وكان له تأثير عظيم فى نفوس الجند الاحتياطيين الذين ذهبوا إلى مناستير".(١٣٥)

---

(١٣١) إسماعيل حقى أوزون جارشيلى ، وثائق حول كيفية إعلان الدستور ، أنقرة ، ١٩٦٦ ص ١١٠ .

(١٣٢) دانشمند ، جـ٤ ، ص ٣٦١ .

(١٣٣) محمد قدرى نضيح ، ص ١٨١ .

(١٣٤) نورو ، ص ٢٧ .

(١٣٥) أوزون جارشيلى ، وثائق حول كيفية إعلان الدستور ، ص ١١٢ .

ولما وصلت الكتائب الاحتياطية إلى سلانيك عدلوا عن قرارهم بالامتناع عن إطلاق النار".[١٣٦]

إعلان الدستور

لم يستطع عبد الحميد الاضطلاع بأى عمل عسكرى لمواجهة تمرد الضباط الشبان فى الجيش الثالث، إذ لم يعد له تأثير قط فى منطقتى مقدونيا والأرناءوط، وقال والى مقدونيا العام حسين حلمى باشا فى برقية له أرسلها إلى القصر: "لقد مكثت وحدى داخل الجيش الثالث دون أعضاء تركيا الفتاة".[١٣٧]

كان الموقف شديد الحرج، وشرع عبد الحميد فى مناقشة الوضع الراهن فى اجتماع عقد له جلسة خاصة، وكان من بين أعضاء هذه الجلسة الصدر الأعظم فريد باشا الذى كان يريد اقتفاء أثر الهاربين إلى الجبال قائلا : "إننا غير مستعدين لتطبيق الدستور"[١٣٨]، وجاءت فى تلك الآونة من مقدونيا برقيات تترى من أجل إعلان الدستور، وورد فى بعض منها تهديد فحواه : إذا لم يعلن السلطان الدستور فإن الجيش سوف يتوجه نحو استانبول، وينصب ولى العهد رشاد أفندى سلطانا على عرش البلاد".[١٣٩]

كانت التهديدات ضد عبد الحميد متنوعة شتى، فقد أعلن الدستور فى ١٠ يوليو سنة ١٩٠٨م، وأطلقت المدفعية فى مناستير إحدى ومائة طلقة، وأسست حكومة مؤقتة، وأعقب ذلك إرسال برقية إلى إستانبول جاء فيها : "نحن قد أعدنا القانون الأساسى وأعلنا الدستور وعليكم الامتثال لنا، وإذا حدث خلاف ذلك فسوف نسير بكل قوتنا نحو إستانبول"[١٤٠]، لاسيما أن تهديدات الجيش الثالث بالعزل عن العرش كانت تخوف عبد الحميد وترهبه، واضطر السلطان إلى إعلان الدستور حتى لا يعطى الفرصة للجيش

(١٣٦) قوران ، فى الإمبراطورية العثمانية ، ص ٤٦١ .
(١٣٧) المصدر السابق ، ص ٤٦١ .
(١٣٨) محمد محمود باشا ، السرائر السياسية والتحولات الأساسية ، إستانبول ، ١٣٢٤هـ ، ص١٤ .
(١٣٩) محمد محمود باشا ، قوة الحظ الميمون وعلاقة الزوال ، إستانبول ، ١٣٢٩هـ ، ص ١٠ .
(١٤٠) جورى : ص :٤١ .

ليكون القائد الثاني في البلاد.(١٤١) "استمرت اجتماعات المجلس الخاص الذي دعا إليه السلطان، ثم استدعى كلا من عزيز باشا ورضا بك إلى جانبه وأسرّ لهما بقوله: لقد وضعت القانون الأساسي، وتوجب علينا تعطيله بسبب بعض الصعوبات في الاجتماع الثاني لمجلس المبعوثان، ومادامت الأمة تريد تطبيق الدستور الآن، فأنا موافق على هذا".(١٤٢) وأحيط الديوان السلطاني علما بقرار السلطان، وأرسلت برقيات إلى الولايات، ونشر الخبر في صحف اليوم التالي الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨م وأعلن العفو العام، وبدأت مظاهر البهجة والسرور تعم كل أنحاء إستانبول".(١٤٣)

أراد عبد الحميد أن يظهر صدقه وإخلاصه في إعلان الدستور، وأسرع من فوره باستدعاء شيخ الإسلام لتبديد الشبهات التي تحيط بهذا الموضوع، وأقسم له إنه كان وفيًا مخلصًا للدستور منذ اعتلائه عرش السلطنة.(١٤٤)

وكان السلطان قد أعد وليمة في قصر يلديز لأعضاء البرلمان في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨م وقال في خطاب له ألقاه على مسامعهم إنه سيكون العدو الأول لمن يعارض القانون الأساسي، ولقي كلامه تصفيقا وتهليلا من الحاضرين، وتدافع أعضاء البرلمان لتقبيل يده، ثم أردف قائلا : "إني مستعد للتضحية بروحي في سبيل ما تريده الأمة في أي وقت من الأوقات".(١٤٥) اضطر السلطان عبد الحميد إلى إعلان الدستور لأنه لم يجد وسيلة أخرى لقمع تمرد الجيش الثالث الذي هب للمطالبة بالقانون الأساسي الصادر سنة ١٨٧٦م، وكان يقول في هذا السياق : "سوف أسبح في اتجاه التيار"(١٤٦)؛ ولكنه كان شديد القلق من المستقبل ويقول : "لقد آلت السلطة إلى يد الأطفال، وعلينا الانتظار والترقب لننظر ماذا عساهم أن يفعلوا".(١٤٧)

---

(١٤١) قرة بكر جمعية الاتحاد والترقي ، ص ٣٢٨ .

(١٤٢) محمد ممدوح باشا ، أصوات الصدور ، أزمير سنة ١٣٢٨هـ ، ص ٨٠ .

(١٤٣) محمد ممدوح باشا ، السرائر السياسية ، ص١٢ .

(١٤٤) قول أوغلو ، حقيقة عبد الحميد ، ص٤٢٠ - ٤٢١ .

(١٤٥) حسين جاهد بالجين ، أول وآخر مأدبة للسلطان عبد الحميد ، مجلة : تاريخنا القريب ، عدد ١ ، مارس ١٩٦١م ، ص ٤٧ .

(١٤٦) محمد ممدوح باشا ، قوة الحظ الميمون ، ص ٦٣ ، تحسين باشا ، ص ٢٦٥ .

(١٤٧) ويدز ، ص ١٣٩ .

لا جرم أن السلطان كان يعلم جيداً ماذا سيكون فى المستقبل القريب، وكتب ما يأتى فيما يخص إعلان الدستور : "إن هؤلاء الرجال سكارى اليوم بفكرة الثورة والانقلاب، ولسوف يدركون فى الغد القريب أن التجديدات التى يوصون بها سوف تفتح الطريق للمصائب والنكبات".(١٤٨)

وهاهو ذا حسين كاظم قدرى أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة يتحدث فى مذكراته عن الحالة النفسية التى كان عليها السلطان عقب إعلان الدستور ووضعه موضع التنفيذ:" لقد شاخ عبد الحميد، وبدأ يشعر أن قدرته على المقاومة قد أصابها الوهن، ومن المحتمل أن ثمة أشياء سوف تسعده ومنها على سبيل المثال: إعلان الدستور وتخلصه من المسئولية التى سوف تنجم عن سوء الإدارة الذى سيحدث فى القريب.

وكان على يقين جازم بأن الدولة باتت على وشك "الانهيار" أو "الانفصال"، وثمة احتمال آخر يتمثل فى أنه أحس بحاجة ماسة إلى تغيير نظام الحكم".(١٤٩)

وقد وجه كلامه إلى أعضاء المجلس الخاص قائلا لهم : "إننى أفضل الإذعان والتسليم لتركيا الفتية المفحمة بالعواطف بدلا من أن أجعلها فانية ممحوة داخل دمار الإمبراطورية وخرابها، ولربما كان التلاحم والائتلاف أفضل من الحاجة إلى التغيير".(١٥٠) "إن روسيا وإيران دولتان مجاورتان لنا ووضعتا نهاية للحكم المقلق، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فعلى حين لا يعمل جهاز الحكم العثمانى المطلق ولا يتواءم مع ظروف العصر الراهن فإننا لن نتردد لحظة واحدة فى إعادة الدستور وتطبيقه، إن الشىء الثابت الذى لاشك فيه أن الدستور الثانى قد أسس بنيانه على أساس فاسد معطوب، وسفك الدم من مكان إلى آخر منذ بضع سنين من أجل الانفصال عن الحكم التركى، ورأينا تأييداً واسع النطاق من الدول الأوروبية من أجل تقوية شوكة حركة التمرد والعصيان،

---

(١٤٨) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى السياسية ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(١٤٩) جريس ، ص ٢٧٠ .

(١٥٠) أعلن الدستور فى كل من روسيا وإيران ، أما النظام الموجود فى تركيا فقد تأثر بالتطورات الموجودة فى العالم .

ودخل مجلس المبعوثان فى صراع مرير لتأييد طائفة من العناصر الانفصالية التى استندت بدورها على بعض مواد قانونية تمخضت عنها معاهدة برلين، وهذه ولا ريب حقيقة مرة ثابتة تعبر عن أول تجربة لمجلس المبعوثان، وهذه غفلة من مجلس المبعوثان لا سبيل إلى الصفح عنها حيث نجم عنها فى النهاية تمزيق أواصر الإمبراطورية العثمانية العظيمة فى غضون عشر سنين.(١٥١)

وهكذا كانت هذه الغفلة قاهرة للسلطان عبد الحميد الذى كان يرى أن الدستور لن يأتى بشىء سوى المصائب والنكبات للدول المحرومة من الوحدة القومية، وقد استطاعت الإمبراطورية العثمانية تحمل تطبيق الدستور مدة عشر سنين، ثم تحطمت فى النهاية وتقوض بنيانها.

كيف استقبل إعلان الدستور

كانت جميع العناصر الانفصالية تتحرك انطلاقاً من فكرة فحواها أن أحلام الأمة التركية لا قبل بتحقيقها مادام استمر حكم عبد الحميد الجاثم على صدورها، وعندما أعلن الدستور سارعت هذه العناصر بإظهار سرورها، وخرجت فى مظاهرات تعبيرا عن نشوتها وفرط حبورها وكانت فرحة إنجلترا فوق كل تصور وخيال، وسرعان ما أرسل وزير خارجيتها السير "إدوارد جراى" بتعليمات إلى السفارة الإنجليزية فى إستانبول جاء فيها : "حرى بالشباب التركى ألا يعجل فى أمره ويتحرك فى تؤدة وأناة، وأول شىء يتوجب عمله هو أن تنتقل الحكومة إلى أياد شريفة قوية قادرة، أما الشئون الأخرى فإنها تأتى فى المرتبة الثانية، فافعلوا كل ما فى وسعكم لتحريض الشباب التركى، ولا تتوانوا فى تلبية طلباتهم وتذليل الصعاب التى تعترض سبيلهم".(١٥٢) أما الفرنسيون فقد زاد نفوذهم المعنوى فى فرنسا بسبب ولوع جماعة تركيا الفتاة

---

(١٥١) دانشمند ، جـ٤ ، ص ٣٦٣ .

(١٥٢) قوران ، فى الإمبراطورية العثمانية ص ٤٥ .

بالثقافة الفرنسية، وكان الفرنسيون يأملون فى أنه إذا لم تتمزق أوصال الإمبراطورية العثمانية فإنهم ولا ريب سيجنون فائدة جمة تتمثل فى حماية أفضل لمصالحهم الاقتصادية.(١٥٣) وقد شعر الألمان كذلك بفرحة غامرة عقب إعلان الدستور، وقد بينا فى الفصول سالفة الذكر أن الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى أسهم فى صناعة الضباط الذين أشعلوا الثورة، وكان هؤلاء الضباط يفكرون مثل الألمان، ومن ثم أظهروا فرحتهم ونشوتهم.

وقد استقبل إعلان الدستور بابتهاج عظيم فى اليونان حيث عمت الفرحة كل أرجاء أثينا.(١٥٤)

ونقتبس فى هذا السياق طرفا مما كتبه أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة الذى يقول: " عندما مررنا بأثينا رأيت الأعلام التركية والرايات اليونانية ترتفع معًا على كل سواحل الروم، إنهم جميعا فرحون مبتهجون، كما رأيت شرائط قبعاتهم مزينة باللون الأصفر نشوة وسرورا، وكأن الدستور والحرية قد منحا لليونانيين، لقد سمعت هذه الأشياء وعاينتها طوال الأربع والعشرين ساعة التى توقفت فيها باخرتنا فى أثينا، وهذا يبين بجلاء أن اليونانيين كانوا ضالعين بدورهم فى الثورة التى شبت فى البلاد، وكانوا فى غاية المكر والدهاء فيما اضطلعوا به من أفعال، ولسوف يبذل الروم كل ما فى وسعهم لكى يصطبغوا بالصبغة اليونانية بصور أكثر حرية واتساعًا فى ظل الحرية التى حصلوا عليها عقب اندلاع الثورة.

وقد كنا ننظر إليهم على أنهم أصدقاء وأوفياء دون أن ندرك شيئًا عن حقيقة جوهرهم".(١٥٥)

ويقول على ناجى أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة إن مظاهر البهجة والسرور قد عمت بلغاريا والجماعات السرية البلغارية، وقد بلغت أوج ذروتها لدى زعماء هذه الجماعات ونخص بالذكر منهم "صاندونسكى" و "بانيكا".

---

(١٥٣) قوران ، فى إمبراطورية العثمانية ، ص ١٥٠ .

(١٥٤) Bengallancer ، القرن الذهبى ، لندن ١٩٣٢م ، ص ٣٨ .

(١٥٥) أحمد إحسان ، جـ٢ ، ص ٥٦ .

أمـا الأول فكان زعـيم فرقـة تسـمى "سـاندونيـست"، وكـانت تريد الحكم الذاتى لمقدونيا، أليس هذا شيئًا عجيبًا ؟ فإذا كانت أيام إعلان الدستور بالنسبة لنا هى عيدنا، فهل يتوجب أن تكون يوما أسود بالنسبة لهم ؟ بلى ! فقد كان هذا الرجل ساندوينسكى يعـمل فـعـلا بالسـلاح لاقـتطاع جزء من الوطن، وقـد كـان واحـداً من هؤلاء الزعـمـاء الانفصاليين وسيظل كذلك.(١٥٦)

كان اليهود والصهاينة من بين العناصر الانفصالية التى شعرت بفرح عظيم عقب إعلان الدستور، فقد خرج الصهاينة فى مدينة يافا بفلسطين فى مسيرة، وهم يحملون فى أيديهم الأعلام الزرقاء والبيضاء، وعبروا عن سرورهم العميق للثورة التى أشعلتها جماعة تركيا الفتاة.(١٥٧)

كمـا استقبلت الثورة آنفة الذكـر بسرور عظيم فى مركز المنظمة الصـهيونية العالمية، ولما علم" مـاكس نوردو "الذراع الأيمـن لهـرزل" (ت١٩٠٤م) قال: كانت هذه الثورة هى براءتى وحق امتياز لى".(١٥٨)

أما الأرمن فقد استقبلوا ثورة تركيا الفتاة بانفعال عاطفى وسورة حميا آملين الظفر بفائدة جمة فى ظل المناخ الدستورى الجديد.(١٥٩)

كانت جماعة تركيا الفتاة شغوفة بإحياء تركيا فى ظل هذا النظام الدستورى الجديد، وقد استفادت العناصر الانفصالية والاستعمارية من المناخ الدستورى، وبسطت نفوذها على تركيا فى ظل مناخ الحرية التى كفلها لهم الدستور، ودفعتهم رغبة جارفة فى تحقيق الأهداف التى تلحق الضرر بتركيا مستخدمين النظام الدستورى الجديد وسيلة يتوسلون بها إلى بلوغ غايتهم.

---

(١٥٦) على ناجى ، ص ٧٨ .

(١٥٧) Nathan weinstock ، الصهيونية ، المسيح المزيف ، باريس ١٩٦٩م ، ص ٨٢ .

(١٥٨) Waltera quer ، تاريخ الصهيونية ، نيويورك ١٩٧٢م ، ص ١٤٠ .

(١٥٩) A. J. Arbery ، العقيدة الدينية فى الشرق الأوسط ، جـ١ ، كامبردج ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٨٨ .

وتمخض عن هذه الرغبات المتباينة احتدام صراع جديد بين هذه الفئات الانفصالية وجماعة تركيا الفتاة، ولا ريب أن هذا الصراع سوف يغرق الإمبراطورية العثمانية فى النهاية ويعجل بأفول نجمها.

أدى إعلان الدستور إلى تقويض بنيان الحكومة المركزية المطلقة وإجهاض السلطة الحاكمة للسلطان عبد الحميد، وكان هذا هو الهدف الأول لتحالف المعارضين، وقد استمر هذا التحالف قائماً طوال فترة جلوس عبد الحميد على العرش.

أما الهدف الثانى فيتمثل فى عزل السلطان والتخلص منه إلى الأبد، وتم التخطيط لهذا الهدف بعد عام واحد من إعلان الدستور حيث أعلنت ثورة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م التى تم على إثرها إقصاء السلطان عبد الحميد.

الفصل السادس عشر

ثورة ٣١ مارس وعزل عبد الحميد الثانى

" كان إقصاء عبد الحميد عن سدة العرش هدفًا شغل الاتحاديون أنفسهم به من أجل تحقيقه منذ بضع سنين، وكان الهدف المشترك لكل الأحزاب والطوائف المعارضة يتمثل فى أن مشاكل الإمبراطورية العثمانية سوف تجد لها حلا على فراش الاحتضار، وسيكون لكل داء عضال دواء ناجع له فى المستقبل القريب.

وكان هذا هو السبب الوحيد لإقصاء عبد الحميد عن العرش، ومن ثم فإن جماعة الاتحاد والترقى لم تشعر بصعوبة فى الاضطلاع بهذا الأمر سنة ١٩٠٨م، ولم يضع السلطان فى حسبانه أنه سيجرد من السلاح الذى فى يده، ولن يستطيع تأخير إعلان الدستور".(١)

لم يكد الجيش العثمانى يعلن التمرد وشق عصا الطاعة حتى أدرك عبد الحميد الحقيقة برمتها، وعلم أن هذا التمرد سيؤدى إلى عزله عن العرش لا محالة، بيد أن مسألة العزل لم تكن موضع بحث الاتحاديين فى الوقت الراهن، إذ كانوا يريدون إعلان الدستور، ويكون التهديد بالعزل واردا إذا لم يعلن الدستور، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفًا مما سطره السلطان : "لقد أفسدت على المتمردين حساباتهم عندما قبلت إعلان الدستور، كما أنهم وضعوا فى حسبانهم أن نكوصى عن الوفاء بوعدى سيكون بمثابة تعلة يتعللون بها لإقصائى عن العرش، ولقد اختلقوا الثورة المضادة فى ٣١ مارس كى ينتزعوا الدستور إلى الأبد، ويشوهوا سمعتى بغضب قد ينجم عنه إفساد خططهم.

(١) Ramsuar ، ص ١٥٧ .

وهكذا كانت الخطة نشطة متحركة لا طاقة للجيش للاضطلاع بها، لقد أحكمت الخطة ولم يعد أمامى سوى المناورة أو الاستغراق فى الخيال".(٢)

لم تجرؤ جماعة تركيا الفتاة على القيام بالثورة فى حينها لأن الشعب والجند الموالين للسلطان فى الجيش كانوا غير مستعدين لهذه الثورة، وفى تلك الآونة كان ضباط الثورة فى أدرنة ينزعون اللافتات المكتوب عليها شعار "عاش سلطاننا"، وكانوا يُواجهون برد فعل قوى شديد من قبل بعض الجند الموالين للسلطان مما دفعهم للتخلى عن نزع اللافتات، وإن السعى لإقصاء عبد الحميد عن العرش قبل الأوان يمكن أن يفقد جماعة الاتحاد والترقى كل المكاسب التى حققوها من قبل، ويؤدى بعد ذلك إلى وهن الجماعة فى إستانبول وخور عزيمتها، ويمكن للجماعة أن تنقل مركزها إلى سلانيك عقب عزل السلطان.(٣)

لقد كانوا يفكرون مليا فى عزله فى أيام سابقة على هذا التاريخ، بيد أنهم لم يتجاسروا على ذلك بسبب التأثير الذى أحدثته الواقعة سالفة الذكر فى الداخل والخارج على حد سواء.(٤)

وليت عبد الحميد قد عُزل فى الأيام السالفة، إذ بات من المتعذر عليه بقاؤه فى سدة العرش بعد ذلك، إنه سيرحل عاجلا أو آجلا، وكان يقول بنفسه:" كفاكم منى إلى هذا الحد، ولننظر ماذا أنتم فاعلون ؟".

لقد أفل نجمه، وظلت كل المهام الرسمية لا تحمل إلا الصفة الرمزية، ولو أنه أقصى عن العرش فى الأيام السابقة لتحققت لأمتنا فائدة مرجوة ، فحواها أنه لو لم تشتعل ثورة ٣١ مارس لتسنى للتمرد السفسطائى المستمسك بالشريعة أن يوطد أركانه ويعترض سبيل الثورة، وإن هذه الثورة سالفة الذكر والأيام السابقة والحاضرة سوف تستخدم من قبل أعداء الأمة والدين وكأنها أسطورة تاريخية لشن الهجوم

---

(٢) جريس ، ص ٢٩١ .

(٣) Ramsuar ، ص ١٥٨ - ١٨٩ .

(٤) حسين كاظم قدرى ، ص ٢٤٦ .

والسب على دين الأمة وإيمانها ورسالتها، ولكن لم يتسن لهذه الفرصة أن تلوح فى الأفق، وإن هذا سيكون بمثابة حائل يحول دون انتشار واحدة من الأساطير الخرافية التى تحرض على سياسة التغريب فى وطننا منذ قرن خلا من الزمان.

الاستعدادات الأولية لعزل السلطان

جاء الدستور بثورة استخدم فيها الجيش، ولسوف يعزل السلطان كذلك بثورة يستخدم فيها الجيش أيضًا، ولم يكن لدى جماعة تركيا الفتاة وحدة عسكرية استخدمتها فى الإطاحة بالسلطان فى الأيام السابقة، لأن جميع الوحدات العسكرية الموجودة فى إستانبول كانت جميعها منتمية وفية مخلصة له، ويتوجب حينئذ جلب وحدات عسكرية من خارج إستانبول كى تتولى عزل السلطان، وأحضرت بالفعل كتيبة قناصة من سلانيك واستقر بها المقام فى منطقة "طاشقشلة" وسميت باسم "حراس الدستور".

وفى أعقاب الثورة على النظام الحاكم أسرعت فرق سياسية أخرى تتوافد على العاصمة، وأخذت تحرض على الإسراع بتنفيذ خطة عزل السلطان.

وكان عبد الحميد يرى أن الإنجليز كانوا ضالعين فى تشجيع جماعة تركيا الفتاة على إشعال هذه الثورة، وأسرعوا عقب إشعالها إلى اتخاذ الإجراءات والتدابير التى تطمئن الإنجليز، ولنقرأ فى هذا السياق طرفا مما دوّنه عبد الحميد فى مذكراته، إذ يقول: " انقسم الجيش على نفسه وحُرم من التآلف والتلاحم من التآلف والالتحام. وبقيت هنالك وسيلة وحيدة يمكن من خلاها إزالة آثار السياسة الإنجليزية ومحوها، فبدأوا ينظرون إلىَّ على أننى ثورى، وهموا بإعلان الدستور وكأنهم بهذا ينفذون وصية الإنجليز، وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة التى استطاعوا من خلالها إجهاض الترتيبات التى يعدها الإنجليز".(٥)

---

(٥) عبد الحميد ، مذكراتى السياسية ، ص ١٠٨ - ١٠٩م .

وأخذت رياح التأييد والمناصرة الإنجليزية تهب على إستانبول إبان الأيام الأولى لثورة سنة ١٩٠٨م.

وبلغ هذا التأييد أقصى درجاته عند عودة السفير الإنجليزى السير "جيرارد لوثر" Gerard Lowther من إنجلترا فى ٣١ مارس سنة ١٩٠٨م حيث خرج أعضاء جماعة تركيا الفتاة وتجمهروا واستقبلوه بمظاهرات التأييد فى محطة السكة الحديد بمنطقة "سيركجى"، وخلعوا الجياد من عربته وأسرجوا أنفسهم مكانها، وأخذوا يجرون العربة من شوارع الصرب فى منطقة "غلطة" ومروا بها عابرين الطرق حتى وصلوا إلى مقر السفارة الإنجليزية.(٦)

كانت كل هذه التطورات سببًا جعل عبد الحميد يتابع من كثب السياسة الإنجليزية المنحازة عقب إعلان الثورة، كما لُقن السلطان درسًا قاسيًا من التمرد الذى اضطلع به الجيش الثالث، أما الذين حرضوا على خروج الضباط إلى الجبال فكانوا جميعًا من الضباط الألمان.

ولم تخرج الثورة من مركز تركيا الفتاة الموالية للإنجليز فى سلانيك، بل اندفعت لتصل إلى مقر أعضاء جماعة تركيا الفتاة الموالية للألمان ومركز الجيش الثالث، ونعنى بها مدينة مناستير وما حولها.

"كانت مناستير هى مركز الأحداث الذى أذل عبد الحميد وأخضعه ولوى عنقه، وهذه الولاية هى المركز الذى يستقر فيه الجيش الثالث".

ولم تكن سلانيك هى المركز الذى قهر عبد الحميد، بل كانت مناستير هى مصدر قلقه الذى أقض مضجعه(٧)، كان الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى قد سقطت هيبته فى نظر عبد الحميد، وبدأ يتعقب أثر السياسة الإنجليزية، وقال فى هذا المقام لعلى

(٦) Lancer، ص ٣٦ .

(٧) حسن عمجة ، الحرية التى لم تولد ، إستانبول ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

حيدر ابن مدحت باشا: "لقد أخطأت فى تعقب أثر السياسة الألمانية حتى الوقت الراهن، ولسوف أتعقب من الآن فصاعداً أثر السياسة الإنجليزية".[8]

كأن عبد الحميد يخمن أن الحكومة الألمانية هى أول مؤيد ومناصر للدستور، وذلك بسبب ضلوعها فى الثورة التى قامت فى عام ١٩٠٨م، وعندما تحقق إعلان الدستور فى سنة ١٩٠٨م تيقن السلطان أن مركز القيادة القوى سوف ينقل إلى مناستير، وكانت سلانيك بالفعل هى مركز الحكم السياسى فى عام ١٩٠٨م.[9]

وفى أعقاب الثورة قام السلطان بتعيين كامل باشا الذى شغل هذا المنصب مدة سبع سنين، وذلك بسبب تأييده للألمان الذين أطلقوا عليه لقب "herin von ferit" وأدى هذا التعيين إلى اجتماع أعضاء جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز تحت سقف واحد، واستقبلوا هذا التعيين استقبالا إيجابيا.

أما حزب تركيا الفتاة الموالى للألمان فقد اجتمع بدوره وأحس بالقلق من هذا التعيين.

وبدأ الصدر الأعظم كامل باشا بفرض إجراءات مؤيدة للإنجليز، وأسرع بإرسال كتائب القناصة إلى سلانيك، وكان هذا بالنسبة للحكومة بمثابة الكيل الذى طفح.

أما ألمانيا فقد أصبحت بعد ثورة ١٩٠٨م فى أشد حالات القلق والإزعاج بسبب بروز السياسة الإنجليزية بجلاء على الساحة التركية.

وبات الألمان يتابعون هذه التطورات باهتمام عظيم ويفكرون مليا فى إجهاض السياسة الإنجليزية والقضاء عليها، كما أنهم لم يستسيغوا ما فعلته تركيا الفتاة التى هرولت إلى جر عربة السفير الإنجليزى فى الأيام الأولى لقيام الثورة، وطلبوا إلى وزير خارجية الحكومة العثمانية شد عربة سفيرهم الموجود فى إستانبول، "دخلت ذات يوم

---

(٨) على حيدر ، مذكراتى ، ص ٣٨ .

(٩) عابدين نسيمى ، من داخل السنين ، إستانبول ١٩٧٧م ، ص ٣٢ .

إلى حجرة المترجم سعد الدين بك بديوان وزارة الخارجية، وبينما أنا هناك إذ قدم علينا المترجم الأول للسفارة الألمانية ثم قال : لقد أُذن للسفير الألماني البارون "بير شاطيان" Biberstayn بالعودة إلى إستانبول لتولى مهام منصبه.

وأرجو منكم أن تسمحوا للشباب التركي بالخروج في مظاهرة لاستقباله والترحيب به في محطة سكة حديد" سيركة جي" كما فعلوا من قبل مع السفير الإنجليزي السير لوثر، وبعد أن عرض المترجم سعد الدين بك الطلب الذى اقترحه مترجم السفارة الألمانية على وزير الخارجية توفيق باشا، رد عليه قائلا : "لقد دفعت الطلب إلى سعادة وزير الخارجية وتفضل بالرد الآتي : إن المظاهرة التي قام بها الشباب التركي قد حدثت بإلهامهم المحض، ولم يكن للحكومة أى تدخل فيها على الإطلاق، وإن شاء الله فإنهم سيقومون بنفس هذه المظاهرة عند استقبال السفير الألماني، ولن نتدخل في هذا الأمر".

ولا جرم أنه قد تولدت في نفوس الشباب إبان تلك الفترة محبة عارمة تجاه إنجلترا.

واقتنع الناس كلهم بأنه لا فائدة ترجى من وراء أواصر العلاقة الحميمة التي تربط السلطان العثماني بالإمبراطور الألماني، ودليل هذا أنه لم يكن في محطة القطار سوى خمسة أو عشرة أشخاص من المتفرجين عند وصول السفير الألماني إلى إستانبول، ولم تكن هناك مظاهر ود أو تأييد.(١٠)

بدأت ألمانيا تشعر بالقلق الشديد من السياسة الإنجليزية المتوغلة في تركيا، وشرعت من فورها في تحريض مؤيديها كي يهموا بانتزاع السلطة من يد عبد الحميد.

---

(١٠) سويلة مز أوغلو ، جـ١، ص ١٧١ – ١٧٢ .

ولنقرأ فى هذا السياق طرفًا من اعترافات أحمد رضا[١١] : "قمنا ذات مساء بدعوة السفير الألمانى على مأدبة طعام، وبعد الطعام دنا منى السفير الألمانى وتحدث معى فى هذه المسألة قائلا : لقد قام الاتحاديون بالثورة، وإن هؤلاء لن يحكموا البلاد. فلماذا لا تمسكون أنتم بمقاليد الحكم فى البلاد؟ ولو حدثت شكاية فقولوا ماذا عسانا أن نصنع ؟ إن الجماعة تريد هذا، وتبدو وكأنها خائفة من المسئولية".[١٢]

وهاهو ذا محمد صلاح الدين المعروف بتأييده للإنجليز يتحدث عن الأخطار الجسيمة التى ظهرت من جراء التأييد الألمانى المطلق لجماعة الاتحاد والترقى، ويقول فى مذكراته: "إن الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى هو المؤسس الوحيد لجماعة الاتحاد والترقى، وهو الذى أرسل طائفة من الموظفين الخصوصيين من أعضاء الجمعية السرية من أجل تأييد جماعة الاتحاد والترقى، ومن أجل هذا تم الإحاطة بحكومة الصدر الأعظم كامل باشا. ولهذا يتوجب إطاعة الأوامر وعدم التردد فى التضحية والفداء والبحث عن حلول عاجلة فى هذا السبيل، وعُينت طائفة من الموظفين الألمان لمراقبة كل شىء وتطبيق هذه الأوامر ووضعها موضع التنفيذ، وفتح بنك ألمانى، وفتحت كذلك خزائن إدارة خط سكك حديد الأناضول أمام جماعة الاتحاد والترقى، وبذل الألمان كل جهدهم من أجل القضاء على النفوذ الإنجليزى المتغلغل فى السياسة العثمانية، لاسيما أن إنجلترا كانت منذ زمن بعيد هى الصديق الحقيقى الحميم للدولة العثمانية.

وعمل المسيو Hakin مديراً لسكك حديد الأناضول، وصدرت أوامر للسفارة الألمانية فى إستانبول بالاتصال المستمر مع جماعة الاتحاد والترقى".[١٣]

---

(١١) كان أحمد رضا رئيسا لمجلس المبعوثان فى ذلك الإبان .

(١٢) خواطر أحمد رضا ، إستانبول ١٩٨٨م ، ص ٣٥ .

(١٣) محمد صلاح الدين ، ص ١٨ .

وفى تلك الآونة تخلى القيصر الألمانى عن صديقه القديم عبد الحميد، وأخذ منذ ذلك الحين يعقد علاقات سرية مع أنور بك الذى ظل خاضعاً للنفوذ الألمانى.(١٤)

كانت سياسة التحريض الألمانية سبباً فى اشتراك المعارضين من جماعة تركيا الفتاة الموالية للألمان مع أمثالهم من الإنجليز فى تكوين جبهة معارضة ضد السلطان عبد الحميد.

ولنقرأ فى هذا الصدد بعضاً مما سطره عبد الحميد فى مذكراته حيث يقول : "قبل شهر من ثورة ٣١ مارس أقام أحمد رضا بك مأدبة عظيمة فى فندق Perapalas ، ثم ألقى خطابا أعلن فيه صراحة أنه سوف ينكل ويقهر جماعة الاتحاد والترقى، وحدثت ضجة كبرى فى الصحف حول هذا الخطاب المثير".(١٥)

ثم راجت بعد ذلك شائعة قوية فى أوساط جماعة تركيا الفتاة الموالية فى سلانيك تقول بأن السلطان عبد الحميد سوف يعزل عن عرشه.

يقول على جواد رئيس كتّاب السلطان عبد الحميد فى هذا الصدد : "إن مما يجذب الانتباه فى هذا الشأن هو ظهور الرغبة فى عزل السلطان فى اليوم الثامن والعشرين من إعلان الدستور (١٠ فبراير ١٩٠٩م) وإحلال يوسف عز الدين أفندى ليجلس مكانه على العرش، وهذا ما أشيع فى سلانيك فى تلك الآونة، بيد أن جماعة الاتحاد والترقى أسرعت بتكذيب هذه الأنباء فى إستانبول".(١٦)

وكان الألمان ومن تبعهم من جماعة تركيا الفتاة قد وضعوا فى اعتبارهم القضاء على حكومة الإنجليزى كامل باشا حتى يتسنى لهم السيطرة على نظام الحكم فى البلاد، ولم يتردد كامل باشا فى إرسال كتائب القناصة إلى سلانيك، وعين ناظم باشا مديرا للمدرسة الحربية ليكون معاونا له، وحينئذ انتهز الاتحاديون الفرصة وأسرعوا بسحب الثقة من كامل باشا فى ١٣ فبراير سنة ١٩٠٩م وأسقطوا الحكومة.

---

(١٤) جيرول ، ص ٣٥٠ – ٣٥١ .

(١٥) وداد عرفى ، ص ٤٣ .

(١٦) على جواد ، إعلان الدستور وواقعة ٣١ مارس ، أنقرة ١٩٨٦م ، ص ٣٦ .

يقول السلطان في مذكراته وهو يعرض لتطورات هذه الأحداث: " كانت جماعة الاتحاد والترقى تعتمد على الأغلبية المطلقة في مجلس المبعوثان، وتريد تعيين حسين حلمي باشا في منصب الصدر الأعظم، ولكني لم أوافق على هذا حتى أحول دون تفاقم المشاكل ومدٍّ أمدها. فهم لا يثقون بى، ولهذا فإنهم يريدون إلقاء التبعة على كاهل حسين حلمي باشا الذى حظى بثقتهم في توليه وزارة الداخلية، وقد انضمت طائفة أخرى من الموظفين غير المسرورين إلى مؤيدى كامل باشا، وبدأ الصراع العلنى بين كلا الطرفين". (١٧)

ويرى عبد الحميد أن إسقاط كامل باشا وإحلال حسين باشا الموالي للألمان ولجماعة تركيا الفتاة محله قد أثار حفيظة إنجلترا وسخط جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز.

وإن إجبار كامل باشا الذى يثق بإنجلترا على الاستقالة وتنصيب حلمي باشا المتهم بتأييده للألمان سيكون له تأثير سيئ على إنجلترا التى ترى أن هذه الواقعة ما هى إلا حيلة ألمانية ماكرة، حتى إن دستور الدولة العثمانية أصبح بمثابة خطر داهم على إنجلترا، وباتت على يقين بأن هذا الدستور سيكون ألعوبة في يد الألمان"، تمخض الصراع على الحكم بين جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز وبين الموالين للألمان عن زيادة حدة غضب الألمان.

فقد بدأ الطرفان في تصفية بعضهما بعضا بصورة جازمة، وباتوا يمهدون السبيل إلى الإمساك بمقاليد الحكم متفردين قائمين بنواتهم دون معارضة، وكان الهدف المشترك لدى السلطان في تلك الآونة يتمثل في سعيه للقضاء على هذين الطرفين معًا واستئصال شأفة كل منهما، فهم يريدون التخلص منه، ولو أنهم نصبوا ولى العرش رشاد أفندى على عرش السلطنة، وهو رجل أشبه بالحم، فإنهم بصنيعهم هذا يعيشون بخيال يمكن أن يجعلهم يرون فيه الطريق إلى تنفيذ أغراضهم وهم في معية هذا الرجل.

---

(١٧) محمود مختار باشا ، نظرة إلى الماضى ، إستانبول ١٣٤١هـ ، ص ١١٦ .

ظهور المناخ الملائم لعزل عبد الحميد

لم تكد تلوح فى الأفق الأهداف المؤكدة لجماعة تركيا الفتاة المؤيدة للإنجليز والألمان حتى أسرعوا فاتفقوا مع بعضهم بعضا على زيادة جرعة الهجوم على السلطان عبد الحميد، وشرعوا فى تدبير المكائد وسفك الدماء.

وفى ليلة ٢٧مارس سنة ١٩٠٩م كان حسن فهمى رئيس تحرير صحيفة الحرية وأحد المؤيدين للإنجليز يسير على الكبارى، ولم يستطع إثبات هويته الشخصية فقتلته ثلة من الناس مما زاد من حدة التحريضات عن طريق الصحافة، ونال عبد الحميد نصيبه من هجوم الصحافة، لا سيما من صحف : الحرية والهلال وثروة الفنون وغيرها من الصحف الموالية للإنجليز، وأخذوا يهاجمون السلطان دون رحمة، ويسلقونه بألسنة حداد حتى يسقطوا هيبته فى أعين الناس.

أما صحيفة ثروة الفنون فقد كتبت فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ أبريل سنة ١٩٠٩م ما يأتى : "إن السلطان يريد بيع الأمة والوطن كليهما للنمسا، فقد أفادت مصادر موثوق فيها أن السلطان قد عرض على سفير النمسا Pallavicin أن يقوم الجيش النمساوى باحتلال مقدونيا، وقام السفير بعرض الأمر فى فيينا بمقتضى خبر تلقاه من الصدر الأعظم الذى شرح للسفير أشياء مهمة لم يتحدث بها السلطان، ولكن وزارة الخارجية النمساوية فى فيينا صححت هذه المسألة ورفضت رفضًا جازمًا الاقتراح الذى عرض عليها، وهى الآن بصدد انتظار رد من وزارة الخارجية".(١٨)

وفى ٨ أبريل سنة ١٩٠٩م تحدث الكاتب" أحمد صميم" عن هذه القضية فى صحيفة الهلال حيث قال فى إحدى مقالاته : "إن عبد الحميد هو قبل كل شىء سلطان ظالم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وهو ليس خليفة ضد حكم الشريعة، ولم يكن كذلك فى أى وقت، وهو الآن يقوم بممارسة الاستبداد لتحقيق صفة الخلافة المزيفة المغتصبة.

---

(١٨) دانشمند ، واقعة ٣١ مارس ، ص ١٩ – ٢٠ .

وإزام على الأمة أن تتخلص من يد الخيانة وتجردها من كل سلاح وسيف".[١٩]

ضاق عبد الحميد ذرعا من وطأة الهجوم العنيف الذى تشنه عليه الصحافة، وقال لرئيس الكتّاب على جودت : "سيدى الباش كاتب، إذا كانت الصحافة تنتهك حرمة السلطنة والخلافة إلى هذا الحد، فإنه لم يعد هناك بعد اليوم أهمية للسلطنة أو الخلافة، وأعتقد أننى سأكون خاتم الملوك".[٢٠]

وإذا أمعنا النظر مليا فى التعبير القيم الذى جرى على لسان كل من السلطانين رشيد ووحيد الدين اللذين خلفا عبد الحميد ألفيناه يبين بجلاء تام أن جميع التطورات والوقائع والأحداث تبرهن على أن عبد الحميد سيكون فعلا هو آخر السلاطين والخلفاء، وأن الشرارة التى اشتعلت بين كتائب القناصة الموجودة فى منطقة "طاشقيشلة" كانت بمثابة توطئة للقضاء على السلطان.

وفى ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م بدأ جنود الكتائب السالف ذكرها فى الخروج من أبواب" طاشقيشلة"، وبدأت فى رفع عقيرتها بالصياح والهتاف قائلة "نريد الشريعة"، "عاش سلطاننا المعظم"، ولكن ما الذى حدث داخل المعسكر حتى عجل بتدفق الجند إلى الشوارع ؟ كان مصطفى طوران، هو أحد شهود العيان المعاصرين لهذه الأحداث جميعها، ويعمل بفرقة الموسيقى العسكرية داخل كتائب فرقة القناصة، وكتب فى مذكراته يقول : "لقد اضطلعت جماعة الاتحاد والترقى وزعماؤها بتحريض متعمد للجند حتى يبلغوا بالتمرد والعصيان أقصى درجاتهما، فتدفقوا إلى الشوارع، وفى الصباح قام الوزراء والضباط وطائفة من أعضاء تركيا الفتاة وهم : بهاء الدين وشاكر ومدحت شكرى وعمر ناجى وغيرهم من الاتحاديين، وجمعوا الجند حتى يقرأوا على مسامعهم الفرمان الذى وقعه خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد.

وورد فيه نص الفتوى التى أفتى بها شيخ الإسلام بشأن لبس القبعة ذات الطرف المحدب وخلع الطربوش الذى يلبسه الجند.

---

(١٩) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٢٠) على جواد ، ص ٤٧ .

وأمر السلطان فى هذا الفرمان بِلُبْسِ القبعة، ولبس الصدر الأعظم المزيف الذى قرأ الفرمان أول قبعة من هذا النوع، وحينئذ هم الاتحادى عمر ناجى بالصعود على ظهر عربة مصفحة فى فناء المعسكر ، وأخذ يستنهض عزيمة الجند ويستحثهم على الثورة والعصيان.

ووجه إليهم خطبة حماسية قال فيها:" هلموا أيها الأخوة الجنود وتجمعوا وتجمهروا، أريد أن أقول لكم ألستم مسلمين؟ ألم يرسلنا آباؤنا وأمهاتنا لكى نؤدى الخدمة العسكرية من أجل حماية ديننا؟ ماذا يعنى لبس القبعة ؟ أيكون أبناء الدين الإسلامى الحنيف كفرة ملاحدة؟ لماذا تتقاعسون هكذا؟ إن كل أجدادنا قد ضحوا بأرواحهم ودمائهم من أجل هذه العقيدة السمحاء، إن الإسلام يضيع من بين أيدينا".(٢١)

أدى هذا الترتيب المحكم والتحريض المتقن إلى تدفق الجند إلى الشوارع فى أمواج بشرية منثالة، فقد تم تدبير الأمر بمهارة بارعة وإتقان عظيم، وبات من المتعذر إيقاف هذا التحريض المصطنع الذى أشعل نار الأحداث.(٢٢)

ولكن لماذا اختار الاتحاديون كتائب القناصة من أجل القضاء على السلطان ومن يعارضهم ويسعون جاهدين لاستئصال شأفتهم؟ لا شك أن السبب راجع إلى أن جميع الضباط الذين أُتِى بِهِمْ من سلانيك ينتسبون إلى جماعة الاتحاد والترقى وينتمون إليها، وأصبح من اليسير استخدام هؤلاء الذين يسمون" جنود الاتحاديين".

وهذا ما حدث بالفعل، أما الفرمان المزيف الذى تم ترتيبه باسم السلطان فقد تمخض عنه أن أصبح هذا السلطان فى نظر الجند عدوا للإسلام، ويمكن استخدام هذا الفرمان ضد السلطان. بيد أن الهدف الأساسى لكل من ألمانيا ومن والاها من الاتحاديين كان يتلخص فيما يأتى: اختلاق ذريعة لجلب الجند من سلانيك إلى إستانبول من أجل التدخل، ثم يعمدون بعد ذلك إلى القضاء على عبد الحميد ومن يعارضهم.

---

(٢١) مصطفى طوران ، فاجعة ٣١ مارس ، إستانبول ١٩٦٦م ، ص ٥٠ – ٥٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

كان الاتحاديون يشعرون أنهم بصنيعهم هذا يمكن أن يخسروا الدستور ويضيعوه، وكان هذا الخبر بمثابة إشعال للموقف فى مقدونيا، فقد أدى هذا إلى تمرد المحبين للحرية فى كل من سلانيك ومناستير، وأخذوا يصيحون ويهتفون ويرغون ويزبدون. يالها من فضيحة، كيف بلغت هذا الحد من الإهانة؟ كيف أتت كتائب القناصة الوافدة من الروملى ؟ لا بد أن السلطان ضالع فى هذه المسألة[٢٣]. أيريد السلطان العودة إلى الاستبداد؟ وأخذوا يصيحون قائلين إنه سوف يحطم الأمة ويقضى عليها.

وبات من العسير السيطرة على الضباط الشبان وكبح جماحهم، وسرعان ما خرج حسين حسنى باشا قائد فرقة الاحتياطى فى سلانيك على رأس فرقة عسكرية[٢٤]. وانضم كثير من الفدائيين إلى هذه الفرقة المتواضعة التى سميت فيما بعد "جيش العمليات"، وكان هناك موظفون آخرون من غير الترك وهم : البلغار والروم واليهود وغيرهم من غير المسلمين.

وقام شاب يهودى اسمه "بوبمويدانو" Popmoydano بتحريض المواطنين اليهود وتسجيل أسماء الفدائيين منهم.[٢٥]

كان عدد جيش العمليات خمسة عشر ألفًا، منهم أربعة آلاف بلغارى، وسبعمائة يهودى، وكلهم من الفدائيين المتطوعين[٢٦]، ولن يتسنى لجماعة الاتحاد والترقى أن تكون بهذا الجيش ذات تأثير قوى على المعارضة والسلطان فى إستانبول.

(٢٣) لأن تأييد السلطان للدستور كان مستمرا .

(٢٤) أرتوك ، ص ٣٢ .

(٢٥) Durn ، ص ٤٠ .

(٢٦) دانشمند ، واقعة ٣١ مارس ، ص ١١٠ .

خطة إنجليزية فى مواجهة خطة برلين

عندما ظهرت الخطة المسماة بخطة برلين على صورتها المبينة آنفًا، ظهرت فى مواجهتها ما يعرف بالخطة الإنجليزية. فقد كان الإنجليز وأنصارهم من جماعة تركيا الفتاة يخططون آنذاك للقضاء على كل من السلطان وجماعة تركيا الفتاة الموالين للألمان، وبحثوا كيفية استخدام كتائب القناصة فى إطار تنفيذ خطتهم، ومن أجل هذا فإنهم وضعوا نصب أعينهم الاهتمام بشخص أرناءوطى يسمى" حامد جاوش".

ولم يكن استخدام تركيا الفتاة الموالية للإنجليز لهذه الكتائب سالفة الذكر من قبيل العبث، لأن سياسة النضال التى ينتهجها الضباط الاتحاديون بين هذه الكتائب سوف تنتشر سريعا بين الجند الآخرين كانتشار النار فى الهشيم وسيؤدى ذلك إلى إحداث الفوضى والاضطراب بينهم، وسيكون هذا بالنسبة للإنجليز بمثابة الفرصة السانحة لاستخدام كل واحد من هؤلاء الجند لصالح أغراضهم.

وتفيد السطور التى سطرها عبد الحميد فى هذا الصدد أن كامل باشا زادة وسعيد باشا كليهما قد اضطلعا معا بتقديم أموال طائلة إلى حامد جاوشن لكى يقوم بدوره باستمالة الجند المتمردين وإقناعهم(٢٧)، وكان المتمردون العُصاة يُوجهون باسم حامد جاوشن(٢٨)، وكان هذا الرجل الأرناءوطى قد خرج فى معية نيازى بك إلى الجبل مع الجند المتمردين.

وكان يُرى وكأنه زعيم العصابة فى تلك الواقعة، حيث يطوف جوالا فى المعسكرات ويحرض الجنود ويستنهض عزائمهم ويثير حميتهم(٢٩)، وبات معلوما أن حامد جاوشن كان ذا علاقة وثيقة بمؤيديه من الإنجليز، ويضطلعان معا بتشجيع الجند وحثهم. كما نجح فى تحريض الجند الذين تدفقوا صوب الجبال، وقام بقيادة هؤلاء الجند وتوجيههم بصورة منتظمة حتى ساقهم سوقا إلى ميدان آيا صوفيا.

---

(٢٧) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ١١٠ .

(٢٨) قوران ، تاريخنا الثورى وتركيا الفتاة ، ص ٢٧٩ .

(٢٩) Bayur جـ١ ، ص ١٩٤ .

وتفيد رواية شاهدى عيان على الواقعة وهما : محمد مراد ويوسف كمال بأن الجنود المتمردين كانوا يلبسون زى الجنود والضباط النظاميين، ويقوم الاتحاديون بسوقهم وتجييشهم وإدارة دفة أمورهم.(٣٠)

لم يكد المتمردون فى" طاشقين" يبدأون تمردهم حتى أسرع ضباط كتائب القناصة بالفرار والخروج إلى الطرقات وانضموا إلى جيش العمليات، وذلك تنفيذا للخطة الموضوعة التى كانت تقضى بأن ترتدى طائفة من الاتحاديين زى الضباط والجند النظاميين وتأتى إلى ميدان آيا صوفيا العسكرى ثم ينضمون بعد ذلك إلى جيش العمليات، كان أهم شىء عند الاتحاديين هو إشعال نار الفتنة والفوضى والاضطراب فى إستانبول وتهيئة مناخ يسمح بالتدخل الخارجي.

أما الجنود الذين شقوا عصا الطاعة فإنهم جاءوا من" طاشقيشلة" إلى ميدان آيا صوفيا وأوجدوا المناخ الذى يمهد للتدخل الأجنبى.

ولما ترك الاتحاديون صفوف الجند المتمردين، شرع المؤيدون للإنجليز فى التدخل المباشر واستخدام جماعة تركيا الفتاة. أما المعارضة الإنجليزية فقد وضعت الأسطول تحت تصرف تركيا الفتاة حتى يمكن استخدامه ضد المعارضين لعزل السلطان، لأن الأيام القادمة كانت تشبه الأيام التى اصطدم فيها الجيش بعضه ببعض من خلال ثلاث بؤر ثورية مختلفة، وهى : جيش العمليات الذى يعمل تحت إمرة الألمان، وجنود البحرية المتمردون الذين يعمل الإنجليز على استخدامهم لتحقيق أغراضهم، وهناك غير هذا وذاك الجيش الخاص الذى يعمل تحت إمرة السلطان.

أما الأمير صباح الدين زعيم جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز فقد ذكر فى كتابه أنه لم يكد يسمع بتمرد الجيش حتى أسرع من فوره فى البحث عن سُبُل لعزل السلطان، حيث أقنع الأسطول بالتحرك صوب قصر يلديز لإطلاق المدفعية عليه.(٣١)

(٣٠) محمد مراد ، الآمال الحلوة والحقائق المرة ، إستانبول ١٣٣٠هـ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ ، يوسف كمال تنجيرشك ، فى خدمة الوطن ، إستانبول ١٩٦٧م ، ص ١١٣ .

(٣١) الأمير صباح الدين ، ص ٤١ .

ولنقرأ فى هذا التفاصيل الواردة على لسان" قوران" أحد رجالات الأمير صباح الدين حيث يقول:" عندما تسربت أنباء عن تمرد الجند أسرع ضابط يعمل بقسم البوليس فى منطقة "قورو جشمة" بإبلاغ الأمير صباح الدين بما حدث، ولما علم الأمير صباح الدين أن الجند المتمردين يظهرون علاقة ود حميمة مع السلطان عبد الحميد أسرع على الفور وركب قاربًا تجاريا وزار أنور بك قائد سلاح الفرسان المقيم فى جزيرة "هيبلى".

وعلى حين كان الأمير مجتمعًا بأنور بك، كانت عملية إقصاء عبد الحميد عن العرش مستمرة، ولكن أنور بك لن ينجح بمفرده فى الاضطلاع بهذه المهمة.

وكان محقا فى هذا الاعتراف، والتقى بفرسان السفن الحربية وفى معية الأمير صباح الدين حيث ركبا معا طوربيدا من أمام الجزيرة، ووصلا إلى الطراد الحربى المسمى" حامدية" والذى كان يرسو قبالة ساحل منطقة" بشكتاشن"، وعقد اللقاء مع واصف بك قائد الطراد وأجاب عن تساؤلهم قائلا: "إذا كانت حركة التمرد تسلك هذا السلوك ضد الدستور، فإننا سنعقد اجتماعا مع أصدقائنا الآخرين ثم نشترك معا فى إطلاق المدفعية على قصر يلديز ونحطمه، واشترك فى هذا الاجتماع "على قبولى بك" قائد الطراد "آصا توفيق".(٣٢)

ورغم أن الضباط الآخرين قد أخذوا حذرهم فإن" على قبولى" قرر إطلاق المدفعية على قصر يلديز، ولكن الجند عصوه مما أجهض محاولته وأصابها بالفشل.(٣٣)

أما الجنود الذين تحت إمرته فقد صاحوا قائلين:" عاش سلطاننا المعظم"، وكانوا يشعرون بالتعاطف الشديد مع السلطان والولاء له، مما جعلهم يعصون أوامر قادتهم.

وقيل إن هؤلاء الجند ظهروا كذلك إبان تمرد ٣١ مارس، وهذا ليس صحيحًا، إذ إن هؤلاء الجند ألقوا القبض على "على قبولى" وأتوا به إلى قصر يلديز وقتلوه ضربا بسنان البنادق.

---

(٣٢) قوران ، تاريخنا الثورى وجماعة تركيا الفتاة ، ص ٢٧٩ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

وألقيت مسئولية قتله على عاتق السلطان عبد الحميد الذى رفض هذه التهمة حيث قال فى مذكراته : "لقد رأوا أنى ضالع فى قتل" على قبولى بك"، وقرأت ما ورد فى الصحف ورفضت هذا الاتهام باشمئزاز ونفور.

ولو كانت ثمة ضرورة للانتقام لكنت تنازلت عن ذلك، وإن رجلا مثل "على قبولى" لا يأتى فى الدرجة الرابعة أو حتى الخامسة فى محاولة الانقلاب، أو بمعنى أصح هل كنت أقتل رجلا بريئًا لم يستطع الاضطلاع بعمل شىء ألبتة.

حتى إن السلطان صاح من إحدى شرفات القصر قائلا لابنته وجنوده : "اتركوا على قبولى أيها الأبناء، أستحلفكم بالله".(٣٤)

أما رضا نور وهو من أنصار الإنجليز فكان أشبه حالا بالأمير صباح الدين؛ إذ أصيب بالارتباك والاضطراب بسبب إقصاء عبد الحميد عن سرير العرش، ولنقرأ فى هذا السياق طرفا مما سطره رضا نور فى مذكراته حيث يقول:" لقد فكرت مليا وقلت أواه عبد الحميد، إن من الممكن إقصاءه، وعثرت فى نفس الوقت على وزير الحربية ناظم باشا وقلت له : سبق السيف العذل، فهيا اجمع الجند، فهناك أربعون ألفا من الجند المدربين ولنجهزن جيش العمليات القادم من سلانيك مع هؤلاء الجند، ثم أعود بعد ذلك، ثم أعزل عبد الحميد، و تنتظم الأمور، حينئذ قال لى ناظم باشا : لا طاقة لى بهذا الأمر".(٣٥)

ويقص السلطان على مسامع راسم بك حاكم إقليم سلانيك أنه لم يكره ناظم باشا على القولى بأننى عاجز عن عمل شىء، لأن وزير الحربية لم يرد إقحام جيش العمليات فى إستابول كما تقضى بذلك الخطة الإنجليزية، ونقرأ فى هذا السياق طرفا مما قصه السلطان على راسم بك : "لقد جمع ناظم بك طائفة كبيرة من الضباط فى معسكر بمنطقة" تقسيم"، وعمد إلى تأديب الجيشين الثانى والثالث فى إستانبول، وكانت هذه

---

(٣٤) عائشة عثمان أوغلو : ص ١٢٩ .

(٣٥) رضا نور ، الحياة فى مذكراتى ، جـ١، إستانبول ١٩٦٨م ، ص ٣٠٢ .

العملية بالنسبة لنا بمثابة خزى عظيم، ثم تفوه قائلا : "لزام علينا ألا نسمح بدخول هؤلاء إلى إستانبول، ولم أكد أسمع بهذا حتى أسرعت من فورى بإرسال خبر إلى ناظم باشا قائلا له: خذ حذرك من مثل هذه المحاولات التى ستفتح باب العداوة والشحناء بين ظهرانى الجيوش".(٣٦)

أما الكتابات التى دونها أحمد عزت باشا فتحيطنا علمًا بأن أعضاء جماعة تركيا الفتاة الموالية للإنجليز كانوا يتصارعون صراعا شديدا من أجل تصفية بعضهم بعضًا والقضاء كذلك على السلطان عبد الحميد إبان ثورة ٣١ مارس(٣٧).

وقد دون أعضاء تركيا الفتاة المؤيدون للإنجليز فى مذكراتهم بجلاء تام الأدوار التى اضطلعوا بها فى ثورة ٣١ مارس، ولنقرأ فى هذا السياق بعض ما كتبه" مولا نزادة رفعت" الذى يقول : "لم تكن ثورة ٣١ مارس ١٩٢٥هـ - ١٩٠٩م حادثة رجعية، ولم يكن السلطان عبد الحميد يقينًا هو المحرك لهذه الحادثة، ولربما كان من أولئك الذين سعوا للحيلولة دون وقوعها، وكان هو السبب الجوهرى لإجهاض الآمال التى كانت معقودة لمن اضطلعوا بإثارة هذه الأحداث.

ولو كان السلطان عبد الحميد المخلوع ضالعًا فى إشعال هذه الحادثة لاستطاع الدخول فيها بشكل آخر يشد الانتباه. إن هذه الحادثة المتمردة كانت مأساة كبرى، ومرت فى هدوء وسلام. وإن الذى فعلها وحرض عليها هو ولا ريب صباح الدين بن داماد محمود باشا الذى تميز بين الناس كلهم بلقب الأمير، وهو الذى رتب ودبر لتلك الحركة، حيث كان يجرى، وكانت ثمة آمال عريضة يبغى تحقيقها والظفر بها، وكان هدفه الأول خلع عبد الحميد، وكان لهذه الحادثة كثير من المؤيدين، وهاهى ذي أسماء المنظمين لها والمتآمرين فيها: صباح الدين بك وكامل باشا وولده سعيد باشا وناظم باشا وحسنى باشا وولده كامل بك وسعيد باشا رئيس الأعيان وجمال الدين

(٣٦) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٣٧) أحمد عزت باشا ، جـ٢ ، ص ٧٥ .

أفندى ومختار بك والسفير السابق شريف باشا وإسماعيل كمال بك وعلى بك وعلى كمال بك وفضلى بك ونهاد رشاد بك وقصيدة جى زادة ضيا منلال وآخرون".[٣٨]

وهاهو ذا سليمان نظيف يتحدث فى مذكراته عن الدور الذى اضطلعت به جماعة تركيا الفتاة المؤيدة للإنجليز فيقول : "إن كامل باشا زادة وسعيد باشا هما اللذان أشعلا تمرد ٣١ مارس، واشترك معهما كذلك إسماعيل كمال وطائفة أخرى، واضطلع هؤلاء بتحريض ثلة من جند الأرناءوط المسلمين الذين أشعلوا هذه الفتنة على حين غفلة".[٣٩]

كان أعضاء جماعة تركيا الفتاة المؤيدين للإنجليز قد بسطوا هيمنتهم على إستانبول قبيل مجيء جيش العمليات إليها، وسعوا إلى تغيير الحكومة والسلطان على حد سواء، ولم يكن جيش العمليات موضوعاً تحت مراقبتهم، ولم يكن معارضوهم وجنود الاتحاديين راغبين فى مجيء الجيش سالف الذكر إلى إستانبول.

وقد تحدثنا آنفا عن أن رضا المؤيد للإنجليز قد لجأ إلى وزير الحربية ناظم باشا وطلب إليه عدم دخول هذا الجيش إلى إستانبول أو استخدام القوة، أما الإنجليز المؤيدون لأنصارهم من أعضاء تركيا الفتاة فكانوا ينظرون باستياء بالغ إلى جيش العمليات، وأبدى القنصل العام الإنجليزى فى سلانيك حماسا شديدا لعدم دخول جيش العمليات إلى إستانبول[٤٠]، حتى إن الإنجليز تجاوزوا حدودهم فى هذا الشأن إذ قالوا إذا دخل هذا الجيش إلى إستانبول فإنه سيكون بمثابة تهديد خطير ينذر بتمزيق أوصال الدولة التركية وانفراط عُقدها.

أما الألمان فكانوا على النقيض من الإنجليز إذ أيدوا هذا الجيش تأييداً فعالا قويا. وطلب الجنرال الألمانى Golts إلى محمود شوكت باشا قائد جيش العمليات والمعروف بولائه للألمان أن يضطلع بعملية صاعقة[٤١].

---

(٣٨) مولا نزادة رفعت ، صحيفة من الثورة العثمانية ، أو ثورة ٣١ مارس ١٣٢٥هـ ، القاهرة ١٣٢٩هـ ، ص٤ – ٥ .

(٣٩) سليمان نظيف ، المؤسسة المحطمة ، إستانبول ١٩٢٧ ، ص ٨ – ٩ .

(٤٠) أحمد عزت باشا ، جـ٢ ، ص ٧٥ .

(٤١) سينا آقشين ، واقعة ٣١ مارس ، إستانبول ١٩٧٢م ، ص ٣٦٢ .

"وورد فى صحيفة ٥٩ من كتاب Lesortde mpirej ottoman المصير المحتوم للإمبراطورية العثمانية لصاحبه "دوغان آوجى أوغلو" أن ثورة ٣١ مارس قد استقبلها الألمان ببهجة عارمة وحبور عظيم بصورة لا مواراة فيها ولا مداجاة[٤٢].

وكان ضباط جيش العمليات جميعا من المؤيدين الموالين للضباط الألمان، وقد وُجهت دعوة إلى قائد هذا الجيش من الإمبراطور ويليام الثانى لزيارة ألمانيا والاحتفاء به فى أعقاب النجاح الذى حققه هذا الجيش فى إستانبول، واستقبله الألمان بالبشر والترحاب".[٤٣]

وفى أتون هذا الموقف المستعر اضطلع الاتحاديون المؤيدون للألمان بدور جوهرى خطير فى إقصاء عبد الحميد عن سدة العرش.

ولنقرأ فى هذا السياق طرفا من مذكرات شادية عثمان أوغلو حيث تقول:

" ماذا عسانا أن نصنع ؟ إن أبى رأى بعينه احتمال قيام تعاون وثيق بين إنجلترا وروسيا، واضطر إلى التنازل عن العرش بواسطة جماعة الاتحاد والترقى التى أذعنت صاغرة لكل ما يقوله الألمان دون قيد أو شرط، ثم أجبروه بعد ذلك على الإقامة الجبرية فى حياة الأسر والعبودية فى أحد معسكرات سلانيك".[٤٤]

رد فعل عبد الحميد على هذه الثورة :

لم يكد السلطان عبد الحميد يعلم بتمرد الجند فى شتى أرجاء البلاد حتى تفوه بهذه الكلمات : "لقد أصبحت خائفًا، ألم أقل إنه على السلطة ؟ لقد بدأ بالفعل[٤٥]".

(٤٢) دوغان أوجى أوغلو ، الأصابع الأجنبية فى ٣١مارس ، أنقرة ١٩٦٩م ، ص ٥٧ .
(٤٣) محمد قدرى تصيح ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
(٤٤) شادية عثمان أوغلو ، ص ١٠٤ .
(٤٥) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٢٨ .

وتقول ابنته عائشة: "إنه كان مبتئسًا حزينًا، وفى اليوم الثانى أحيط علمًا باستقالة الصدر الأعظم حسين حلمى باشا، فضاق ذرعا لما حدث وأصابه اليأس والقنوط وكان يردد دائما فى أروقه القصر أن حسين حلمى باشا رجل خائر العزيمة، نفعى يبحث عن مصالحه الشخصية. ورغم هذا فلم يفرح أحد لاستقالته، بل أصابهم القلق والانزعاج لما حدث وما عسى أن يكون".(٤٦)

قد غضب السلطان من الصدر الأعظم، وكان يرى أن حسين حلمى باشا كان يمكنه إذا أراد أن يسحق هذا التمرد فى خلال ساعتين اثنين(٤٧).

" ورغم مرور الوقت فقد كان بمقدور الجيش الخاص أن يقضى على هذا التمرد فى هذا الصباح، لأنه يملك تحت يده وحدات المشاة القوية حيث تدرب الجند تدريبا جيدا، ولكن حسين حلمى باشا منع الجيش من التحرك، إنه لم يرد سحق تمرد الثورة والتحرير، بل نظر إلى منفعته الشخصية ليس إلا".(٤٨)

أما محمود مختار الذى نصبه الاتحاديون لتولى قيادة الجيش الخاص فقد أصدر أمراً بسحق هذا التمرد، ثم أصبح بعد ذلك أحد الهاربين حيث هرب على متن باخرة تحمل العلم الألمانى.(٤٩)

كانت التصرفات الغريبة الشاذة لكل من حسين حلمى باشا ومحمود مختار باشا سببا فى تحقيق كثير من المنافع الشخصية لكليهما، واهتما بعرض غرائب وعجائب سلوكهما حيث اضطلعا بدور مهم فى الخطط التى وضعها الاتحاديون الموالون للألمان، ولو أن كليهما انتهزا الفرصة وسحقا التمرد لما تسنى لجيش العمليات أن يأتى من سلانيك، ولأجهضت كذلك خطة برلين، وقد حذر عبد الحميد فى مذكراته الحكومة والقادة العسكريين قبيل حدوث التمرد ووكل إليهم جميعًا اتخاذ التدابير والاحتياطات

---

(٤٦) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٤٧) وداد عرفى ، ص ٤١ .

(٤٨) أجود جورة سين ، تمرد ٣١ مارس ، إستانبول ١٩٦٩م ، ص ٥٠ .

(٤٩) جريس ، ص ٢٨٨ .

اللازمة." لقد أحطت حسين حلمي باشا علماً بالموقف الراهن، حتى إننى أحضرت ذات ليلة كلا من وزير الحربية وقائد الجيش الخاص غازى مختار والصدر الأعظم إلى القصر وتحدثنا طويلا حول الموقف الراهن.

وقمنا بتقدير الموقف ووضع التدابير اللازمة، وسرعان ما اضطربت الأمور واختلت الموازين، وظهر العجز والقصور وأسرعت الصحف والجمعيات والأندية بالتحريض على الثورة وإعلان حريق ٣١ مارس. ولم أتدخل حتى لا أكون مشتركا فى مسئولية هذه الواقعة، ولو كانت هناك عزيمة قوية فى حكومة حسين حلمي باشا لتسنى لها القضاء على هذا التمرد فى خلال ساعتين اثنتين، إن ملاحظات رجالاتنا وتخميناتهم قد أفادت أن أول حركة ستقوم بها ثلة من الجند.

وكان كامل باشا زادة وسعيد باشا قد قدما أموالا لرجل أرناءوطى يدعى جاوش ليضلل هؤلاء الجند ويخدعهم".(٥٠)

وقد أدلى عبد الحميد بحديث إلى رئيس الكتّاب على جواد، وذلك فى سياق رد فعله على تمرد الجند حيث قال:" إن هؤلاء الجند جاءوا بأنفسهم من الروملي وتمردوا على أنفسهم، إنهم ثلة من الجهلاء المحرومين من الصلاة والدعاء.

فقد ضيقوا الخناق وحرضوا على التمرد والعصيان، ياله من مجرم فاحش عظيم، فماذا عساى أن أصنع؟".(٥١)

جمع السلطان الجند المتمردين وأرسلهم إلى ميدان آيا صوفيا، وكلف على جواد بإلقاء كلمة فيهم جاء فيها : "ماذا تقولون يا أبنائي؟ أهى الشريعة ؟ كيف يكون هذا الكلام ؟ نحمد الله على الشريعة المحمدية الباقية الدائمة،إن سلطاننا هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودولتنا دولة إسلامية، ولم يمسس أحد الشريعة بسوء ولن تمس بضر أو أذى، ممن تريدون الشريعة ؟ وقد منَّ الله علينا بالشريعة، ولا أصل لكلام هذه

(٥٠) وداد عرفى ، ص ٤٠ .
(٥١) على جواد ، ص ٦٢ .

الطغمة من الجاهلين المارقين، فلا تلقوا إليهم السمع، وسلطاننا خليفة رسول الله قد صفح عن أخطائكم التى اقترفتموها وأنتم فى غيكم سادرون، فهيا اذهبوا إلى معسكراتكم وارتاحوا فيها يا أبنائى".(٥٢)

كان لهذه الكلمات أثر طيب فى نفوس الجند فتفرقوا من فورهم، وعين صدر أعظم جديد عقب استقالة حسين حلمى باشا، وشكلت حكومة جديدة، بيد أن الجند ما لبثوا أن تجمهروا ثانية فى اليوم التالى.

ولنقرأ فى هذا السياق طرفا مما كتبته ابنة السلطان فتقول : "التقى أبى بأدهم باشا القائد المنتصر فى الحرب اليونانية والمعين وزيرا للحربية، وأرسل به إلى هؤلاء العصاة المتمردين، بيد أنه أخفق فى مهمته، وكان والدى على يقين تام بأن هذا التمرد سيتمخض عنه إقصاؤه عن العرش، وذكر لتوفيق باشا أنه يريد التخلى عن العرش لأخيه رشاد أفندى، وكان يقول إننى متأكد أنهم لا يريدوننى، وأنا مستعد للانسحاب ولا دخل لى بهذا الأمر"(٥٣)، كان عبد الحميد فى موقف صعب بالغ السوء، وجاء السفير الروسى فى ذلك الإبان إلى قصر يلديز وقال للسلطان : إن القيصر الروسى يبلغكم سلامه وأشواقه، ولسوف نلبى لك كل أوامرك.

كان القيصر يريد هروب أو تهريب السلطان إلى روسيا، ولكن السلطان رفض هذه الفكرة، يقول عبد الحميد لعلى جواد فى هذا الصدد : "أرأيت ياجواد بك الاقتراح الذى عرضه القيصر الروسى، لا جعل الله لى نصيبا فى الاضطلاع بهذا أو ذاك، وأنا راضٍ بكل خطر يحل بى، وليكن مثواى حيث يرقد أجدادى فى قبورهم، فأنا أوثر الموت على أن أفعل هذا العمل المشين".(٥٤)

---

(٥٢) على جواد ، إعلان الدستور وواقعة ٣١مارس ، ص ٥١ .

(٥٣) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٢٨ .

(٥٤) شادية عثمان أوغلو ، ص ١١٣، جريس ، ص ٢٦٩ .

تشكيل الحكومة الجديدة التى أرادها الجند المتمردون

جاء الجند العصاة المتمردون إلى ميدان آيا صوفيا، وقام المحرضون بتحريضهم وجعلوهم يصيحون هاتفين : نريد الشريعة، عاش سلطاننا، وفى ذلك الإبان قام هؤلاء المحرضون بزج أشخاص آخرين بالقوة بين الجند، وهم ثلة من المدرسين ورجالات الدين وطلبة المدارس المعممين(٥٥)، ثم قامت الجمعية العلمية الإسلامية بجمع العلماء ووزعت عليهم بلاغين اثنين ورد فيهما بوضوح أننا نريد دستوراً مطابقاً للشريعة، ثم دعوا الجند للالتزام بالسكينة والهدوء.(٥٦)

وقد اقتبسنا هذه العبارات من مذكرات يونس نادى مؤسس صحيفة الجمهورية التى لم تذكر منذ بضع سنين السبب الحقيقى لثورة ٣١ مارس مكتفية بالقول إنه تمرد طائفة من ذوى اللحى، وهو عصيان ثلة من المتخلفين الرجعيين المتعصبين الدينيين.

ثم قام نادر نادى بن يونس نادى بعد ذلك بتحويل كل كتب أبيه ومقالاته إلى الحروف اللاتينية الحديثة، ونشر من بينها كتابه المسمى "الثورة والانقلاب العثمانى" وليس ثمة أهمية تذكر لنشر هذا الكتاب، أكان يخشى من تكذيب رسائل ٣١ مارس المنشورة فى صحيفة الجمهورية ؟ إن رجالات الدين لم يستحسنوا الأفعال التى قام بها الجند العصاة كما أن الشعب لم يوافق عليها أيضاً وظَلَّ بمنأى عن هذا العصيان.(٥٧)

ولما بلغ الموقف هذه الدرجة من الخطورة ظل المحرضون وحدهم هم المضطلعون بالإثارة بموجب خطط برلين والإنجليز وإثارة الجند المتمردين.

ولما جاء الجند إلى ميدان آيا صوفيا شرع أعضاء تركيا الفتاة المؤيدين للإنجليز فى الإمساك بيد الجند كى يشعروا بأحاسيسهم الجياشة ونبض أفئدتهم، وأسرعوا بتلبية جميع رغبات الجند وتنفيذ كل ما يرغبون، وكانت هذه الرغبات تتمثل فى استقالة

---

(٥٥) يونس نادى ، الثورة والانقلاب العثمانى ، إستانبول ١٣٢٥هـ .

(٥٦) يونس نادى ، الثورة والانقلاب العثمانى ، ص ٦٢ - ٦٤ .

(٥٧) ثريا آى دمير ، الرجل الوحيد ، إستانبول ١٩٧٥م ، ص ١٥٠ .

حكومة حسين حلمي باشا وتشتيت جماعة الاتحاد والترقى وإخراج كل من أحمد رضا وحسين جاهد وجاويد ورحمي وطلعت من مجلس المبعوثان، وإعادة الضباط المفصولين من الخدمة إلى وظائفهم، ورعاية الأحكام الشرعية والمحافظة عليها وتنصيب إسماعيل كمال رئيسًا لمجلس المبعوثان، وتعيين كامل باشا فى منصب الصدارة العظمى وناظم باشا وزيرا للحربية، وإعلان العفو العام عن الجند، وغيرها.(٥٨)

وقد ذهب إسماعيل كمال وهو من كبار الزعماء المؤيدين للإنجليز إلى قصر يلديز فى ذلك الإبان وطالب عبد الحميد بإصرار بتعيين كامل باشا فى منصب الصدر الأعظم وناظم باشا وزيرا للحربية، ولكن عبد الحميد رفض هذا الاقتراح لضلوع هذين الرجلين فى إثارة الأحداث الأخيرة.(٥٩)

وفى مقابل هذا الإصرار أراد أعضاء تركيا الفتاة المؤيدين للإنجليز الثأر من أمثالهم المؤيدين للألمان، لأن الاتحاديين الألمان أطاحوا بكامل باشا أول صدر أعظم فى المشروطية الثانية، وأحلوا محله واحدا من رجالهم وهو حسن حلمي باشا. لم يلب عبد الحميد رغبات كل من الجند المتمردين والإنجليز المحرضين، ومما ورد فى مذكراته فى هذا السياق قوله: "جئت بنصيرى توفيق باشا ليتولى منصب الصدارة وغازى أدهم باشا لمنصب وزير الحربية من أجل الحيلولة دون اشتداد آلام الاحتضار".(٦٠)

ولما جاء عبد الحميد بتوفيق باشا لمنصب الصدارة، وكل إليه على الفور المحافظة على ديمومة القانون الأساسي، وشكل توفيق باشا حكومة خرج منها أربعة وزراء ممن كانوا فى حكومة سلفه حسين حلمي باشا، وأرسل أول برقية إلى الولايات حث فيها على المحافظة على القانون الأساسي وحمايته.(٦١)

---

(٥٨) محمد رفعت، من الانقلاب العثمانى، ص ٤٥.

(٥٩) المصدر السابق، ص ٥٦. وداد عرفى، ص ٤١.

(٦٠) محمد رفعت، من الانقلاب العثمانى، ص ٤١.

(٦١) F. knight، يقظة تركيا - لندن ١٩١م، ص ٣٤٢.

التأمينات المزيفة وجيش العمليات

شكلت حكومة جديدة فى إستانبول، وأعلنت الحكومة والسلطان كلاهما تنفيذ الدستور، وتفرق شمل الجند العصاة المتمردين واستتب الأمن وعاد الاستقرار، وكان لزاما على جيش العمليات أن ينسحب عائداً إلى ثكناته بعد أن انتشرت دعاية تقول إنه تم تحقيق الأمن والهدوء وحماية الدستور. ولكنهم رفضوا العودة إلى ثكناتهم لأن خطة برلين كانت تقضى بتصفية السلطان والمعارضين الموالين للإنجليز.

وفى تلك الآونة لم تتم تصفية السلطان ولا المعارضة آنفة الذكر، ولم يعين رجلهم كامل باشا فى منصب الصدارة العظمى، ولم تجهض جماعة الاتحاد والترقى، وكلها أشياء لم تُسعد الجند.

هكذا دخل جيش العمليات إلى إستانبول فى ذلك الإبان يضطلع بتصفية كل من السلطان والمعارضة الموالية للإنجليز، وفُتح الباب لاستبداد حزب الاتحاد والترقى.

كان الهدف الأول المعلن لجيش العمليات يتمثل فى القضاء على السلطان الذى يريد أن يعلن على الملأ أن هذا الجيش هو المسبب الأول لتلك الثورة المتخلفة الرجعية.

وفى ٢٢ فبراير ١٩٠٩م قدم الجيش سالف الذكر إلى منطقة" يشيل كوى" واتخذ له مركز قيادة فيها.

وسرعان ما انتشرت شائعة تقول : إن هذا الجيش جاء إلى إستانبول من أجل الإطاحة بالسلطان حتى إنه جرت مناقشات تدور حول حل مجلس الأعيان والمبعوثان المجتمعين فى" يشيل كوى"(٦٢).

وأحس محمود شوكت باشا قائد جيش العمليات بقلق شديد من جراء هذه الشائعات؛ لأن الجيش السالف ذكره لم يتمكن بعد من إحكام قبضته على إستانبول، كما لم يستطع كذلك تجريد قصر يلديز من الجند، فهؤلاء الجند كانوا مرتبطين بالسلطان

---

(٦٢) دانشمند ، واقعة ٣١ مارس ، ص ١٢٧ .

ارتباطًا وثيق العرى. وقال محمود شوكت باشا إن جنود جيش العمليات القادم من سلانيك لن يعزل السلطان، بل جاء ليحميه ويذود عنه، ووقعت بعد ذلك حادثة "على قبولى" التى كانت مثالا سيئًا مشينًا.

ولما أعلن" على قبولى بك" عن عملية عزل السلطان فجأة، أسرعوا من فورهم بقتله وتمزيقه إربا إربا، وأسرع محمود شوكت باشا بالبحث عن أحمد رضا رئيس مجلس المبعوثان ليحول دون تطورات سلبية، واجتمع به وقال له ما يأتى : "لقد تلقيت الخبر وأنا فى الطريق. وتناقش الأعضاء والأعيان فى مسألة خلع السلطان، ولكننى ومن فى معيتى من الجند سوف نحمى الدستور والسلطان، وأتيت بالجند إلى هاهنا وقلت لهم : إن حياة الأمة والسلطان كليهما فى خطر عظيم.

ولو تمرد الجند وأعلنوا أن خلع السلطان كان من جانبنا لكان هذا بمثابة محونا والقضاء علينا، وعليك أن تشرح هذا للأعيان وأعضاء البرلمان فى سرية تامة، ولزام عليهم الآن ألا ينبسوا ببنت شفة، وعندما يأتى اليوم لمناقشة هذا الأمر فلسوف أحيطك خبراً بهذا".(٦٣)

انزعج عبد الحميد من الشائعات التى روجت خلعه عن سدة العرش، لاسيما أنه كان يخاف جيش العمليات، ولما قدم الجيش إلى منطقة" جاتلجة" أُرسل وفد إليها برئاسة" كوجوك سعيد باشا".

"وأعلن هذا الوفد قبول القانون الأساسى للسلطان، كما أحاط الجند علما بأنه سيتم إنزال عقوبة صارمة على أولئك الذين يحرضون على الثورة والرجعية".(٦٤)

أراد السلطان بتصرفه هذا الإعلان عن الوفاء بعهده من أجل حماية القانون الأساسى إبان بداية حركة جيش العمليات، واتخذ بناء على ذلك إجراءات أمنية ضد الجيش حتى لا يضطلع بخلع السلطان ما دام وفيا مخلصا للقانون الأساسى، وتم تجديد هذه الإجراءات الأمنية عند مجىء الجيش إلى منطقة" يشيل كوى".

---

(٦٣) Bayar ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ، ومذكرات أحمد رضا ، ص ٣٠ .

(٦٤) أرتورك ، ص ٣٣ .

وقد ناقش محمود شوكت باشا هذا الأمر فى برقيته التى بعث بها إلى السلطان فى ٢٣ أبريل وجاء فيها: "لقد شاعت شائعات تفيد بأن الجيش قد وصل إلى دار السعادة ليقوم بخلع السلطان، ولكن حاشا ثم حاشا، إن الجيش لا يستطيع قبول هذا الأمر ألبتة، إن هذا بهتان عظيم، وقد أبرقت برقية مماثلة لهذه إلى الصدارة العظمى".(٦٥)

قدم أحمد رضا رئيس مجلس المبعوثان إبان هذه الفترة إلى قصر يلديز واتخذ بعض الإجراءات الأمنية التى تحول دون خلع السلطان، وهكذا نرى أنه لما كان جيش العمليات عاجزًا عن الهيمنة التامة على إستانبول فإنه كفل للسلطان تأمينًا مزيفًا.

لم يُرد السلطان عبد الحميد سفك الدماء

" إذا كان جيش العمليات قد تعهد كتابة بتوفير الأمن لقصر يلديز ، فإن الهدف الخفى كان يتمثل فى خلع السلطان وتنصيب أخيه على العرش، ثم التحرك من مقر قيادته فى" يشيل كوى" للاضطلاع بتوفير السكون والهدوء فى ربوع البلاد".(٦٦)

كان أول عمل قام به جيش العمليات الموجود فى إستانبول هو التنكيل بالجند المتمردين عن طريق إطلاق المدافع على معسكراتهم، وبعد الفراغ من هذه المهمة يتوجه الجيش إلى قصر يلديز حيث يقوم هنالك بعزل الجيش وتجريده ثم يعد العدة بعد ذلك لخلع السلطان.(٦٧)

وكانت توجد فى تلك الآونة كتائب عسكرية مرتبطة بالسلطان فى قصر يلديز وتدين له بالولاء.

ويبدو أن احتلال قصر يلديز سيكون عملا مضرجا بالدماء، وكان عبد الحميد واثقًا فى وسائل التأمين التى تكفل له البقاء فى العرش وإلا فإنه سيتخلى عن كل شيء،

---

(٦٥) على جواد ، ص ٦٨ ، ٩٦ .

(٦٦) Bayar ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٦٧) محمد محمود باشا ، المخلوعون من العرش والجالسون عليه ، إستانبول ١٣٢٩هـ ، ص ١٦٧ .

والسلطان كما نعرف ذو طبيعة لا تميل إلى سفك الدماء، ومن ثم فإنه حال دون حدوث مواجهة بين الوحدات العسكرية التابعة له وبين جيش العمليات.

وبعد اليوم الأول من عزل السلطان فى ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م تجمهرت جموع غفيرة من الشعب أمام قصر يلديز وشهرت السلاح للدفاع عن السلطان وحمايته وصاح إليهم قائلاً : "تفرقوا، ثم ترك الشرفة التى كان موجوداً فيها إذ لم يرد فى أى وقت من الأوقات سفك الدماء".(٦٨)

كانت توجد فى قصر يلديز فرقة عسكرية قوامها ثلاثون ألف جندى وتسمى الفرقة الثانية وتتكون من العرب والأرناءوط والأكراد والبوشناق والترك، ولو أن السلطان أمر هذه الفرقة التى أخلصت الولاء له لتسنى له أن يكسب الجولة ويقضى على جيش العمليات، وكانت هذه الفرقة تواقة إلى النضال والجهاد، ولكن السلطان منعهم من استخدام السلاح؛ رغبة منه فى عدم سفك الدماء.(٦٩)

ولنقرأ فى هذا السياق طرفًا مما تقوله ابنة السلطان عائشة:" جاء الوزراء الأوفياء للسلطان وعرضوا عليه مواجهة الموقف بالسلاح فأجابهم أبى قائلا: لا يحترق ألف شخص من أجل شخص واحد ولا يضرب الإخوة بعضهم بعضا، ولتجمع أسلحة ضاربى البنادق ولا يطلق أحد السلاح، وليفعل هؤلاء ما يريدون".(٧٠)

قام جيش العمليات بأعمال القتل والتنكيل بالجنود المتمردين العصاة الذين كانوا فى منطقة "طاشقيشلة"، ثم اصطف هذا الجيش أمام قصر يلديز وطوقوه وأحاطوا به من كل جانب، وكانت الفرقة العسكرية الموجودة بالقصر قد غشيتها سورة حُميا وانفعال عاطفى عظيم، وصاحت الكتيبة الكردية قائلة إن أبانا السلطان عبد الحميد قد قضى نحبه وطلبوا إليه إصدار الأمر لهم للمواجهة المسلحة ولكنه أبى(٧١)، فى تلك الآونة

---

(٦٨) محمد صلاح الدين ، ص ٢٥ .
(٦٩) Lancer ، ص ٥٤ .
(٧٠) رشيد راى ، ص ١١٠ ، Bayar ، جـ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .
(٧١) عثمان أوغلو ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

أطبق" مشير طاهر باشا" قائد سلاح البنادق على قدمى عبد الحميد وقال يا سلطانى إنهم بدأوا يطوقون القصر ويحاصرونه فتفضل وأصدر الأمر، ولأكن أنا قائد السلاح ولأسحقن هؤلاء القادمين وأسوقهم أمامى وأسوين بهم الأرض.

انظر: فنحن عبيدك الذين أطعمتهم وغذيتهم خبزاً حلالاً طيبا، وكيف أنهم سيبذلون كل وسعهم من أجل التضحية والفداء، حينئذ قال عبد الحميد لمشير طاهر باشا" أنا لا أريد سفك الدماء أبدا من أجل النزاع الأخوى، حاشا لله أن يطلق أحد السلاح، وما قدره الله سيكون، ثم أخذ السلطان ينأى قليلا مشيرا بيده إلى مشير طاهر باشا الذى كان فى حالة بالغة السوء، وبعد مرور ساعتين اثنتين كرر مشير طاهر باشا عرضه السابق على السلطان الذى قال له" ألم تفهم قولى يا باشا ؟ اذهب على الفور وافتح أبواب أورطة كوى وعجل بإلقاء السلاح كله، وليذهب هؤلاء إلى حيث يريدون، واخرج أنت واذهب إلى حيث تريد".(٧٢)

وقد تحدث عبد الحميد عن هذه المسألة فى مذكراته قائلا: "أنا لم أكن أريد حدوث مواجهة عسكرية، ولهذا رفضت ما عرضه علىَّ أحد قادة سلاح البنادق فى هذا الشأن، ما أشبه جيش العمليات بالأبطال الذين يُرون وكأنهم وجلون خائفون".(٧٣)

ثم يعود السلطان فيورد فى مذكراته طرفًا آخر يتصل بهذه المسألة فيقول" لو أن هؤلاء استندوا على جدار مصنع الورق أكان هؤلاء الجند يوقعون الهزيمة بجنود سلانيك المحطمين؟".(٧٤)

" ورغم وجود وحدات عسكرية كبيرة مستعدة للمواجهة العسكرية ذيادا عن السلطان، فإنه لم يُرد المغامرة بالحرب من أجل حماية عرشه، ولو أنه خاطر بهذه المغامرة لتمكن من إحراز النصر المبين(٧٥).

---

(٧٢) أمين أرقول ، ماذا حدث فى قصر يلديز فى الساعات التى واكبت خلع عبد الحميد ، جريدة حريت ، ١٧ أبريل ، ١٩٦١م .

(٧٣) وداد عرفى ، ص ٤٨ .

(٧٤) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ١١٦ .

(٧٥) ويدز ، ص ١٢٩ .

" ولو أطلق السلطان عبد الحميد يده فى استخدام كتائب القناصة ضد المتمردين واستخدام الفرقتين الأولى والثانية الموجودتين فى إستانبول لحقق انتصارا مؤزرا، وأصبح كذلك عقبة كأداء تعترض سبيل جيش العمليات".(٧٦)

ولو أن عبد الحميد استخدم الكتائب سالفة الذكر والفرق العسكرية الأخرى لكان على حد تعبيره" لسُفِكَتْ دماء كثيرة فى إستانبول وغيرها من الولايات الأخرى".(٧٧)

كان الوزراء من ذوى الحنكة والتجربة وأعضاء تركيا الفتاة يخشون عاقبة سفك الدماء، وهم يتذكرون دائمًا عدم استخدام السلطان للقوة بكلمات الشكر والثناء. "ولو أن الطرفين تفاءلا لسفك الدم الكثير، ونشكر الله كثيرا لأنه حفظ البلاد من هذه الطامة الكبرى وذاك الخطب العظيم"(٧٨). "ونشكر الله كذلك على أن السلطان لم يكن ذا عزيمة وثابة فى مثل هذه الأمور، إذ كان فُرقة مسكينا".(٧٩)

" لقد تصرف بفطنة ونفاذ بصيرة وتحرك بنفسه ليحول دون سفك الدماء بين الجنود، وهذا ولا ريب مظهر من مظاهر الشفقة والمرحمة، ولقد تجلت عظمته بهذا السلوك العظيم وحال دون إراقة الدماء بذكاء وعبقرية منقطعة النظير".(٨٠)

قيام جيش العمليات بعزل قصر يلديز وتجريده

لما منع السلطان عبد الحميد جند مدفعية قصر يلديز عن الحركة، لم يكن أمام جيش العلميات شيء يفعله إلا احتلال هذا القصر، واكتفى هذا الجيش بفرض حصار حول القصر، ثم شتت الجند شمل الفرقة الثانية ومن فى معيتهم من ضاربى البنادق حتى يتركوا أبواب القصر مفتوحة من ناحية منطقة (أورطة كوى).

---

(٧٦) على فؤاد تورك جلدى ، ما رأيته وسمعته ، لجمع التاريخ التركى ، أنقرة ١٩٥١م، ص ٣١ . محمد مراد ، الآمال الحلوة ، ص ٧٢ - ٧٣ دانشمند جـ٤ ، ص ٣٧٢ .

(٧٧) وداد عرفى ، ٤٨ .

(٧٨) محمد ممدوح باشا ، المخلوعون من العرش والجالسون عليه ، ص ١٦٧ .

(٧٩) محمد رفعت ، من الانقلاب العثمانى ، ص ٥٦ .

(٨٠) أوزر ، ص ٢٤٥ .

وفى يوم ٢٦ أبريل سنه ١٩٠٩م تم عزل قصر يلديز وتجريده من الجند، وفرض جيش العمليات حصاراً شاملا حول القصر. وفى ٢٧ أبريل قطع الجيش الكهرباء والغاز والمياه عن القصر، ولم يبق أحد فيه سوى السلطان والطيور[٨١]، كما قطعت وسائل الاتصال.[٨٢]

"ولما طوق جيش العمليات القصر وقطع كل علاقة له بالخارج أمر والدى برفع الراية وسلم القصر إلى جيش العمليات، هكذا كانت أيامنا الأخيرة[٨٣]. أما الاتحاديون فكانوا يرقبون من كثب عملية عزل القصر وتجريده".

" وتجولنا فى معية أنور باشا حول القصر وقد فرض الجند حصارا شاملا حوله، ورأينا راية الاستسلام البيضاء ترفرف فوقه، ويمكن الآن إذاعة خبر عزل عبد الحميد، ثم عدت إلى وزارة الحربية فى الساعة الواحدة والنصف ليلا، وكان السلطان فى حالة الأسر مقبوضًا عليه، وأغلق جناح الحريم وقطعت كل علاقة له بالعالم الخارجى[٨٤]"، ثم قام أحد قادة جيش العمليات بإبلاغ الخبر إلى مسامع مجلس المبعوثان، ولسوف تبدأ اجتماعات العزل والإقصاء فور تجريد القصر من الجند[٨٥]، ولما علم محمود شوكت باشا بأمر تجريد القصر من غالب باشا أسرع من فوره بإرسال توفيق إلى مجلس المبعوثان يحيطه علما بما حدث[٨٦].

وعندما قرئت البرقية استقبلها المجلس بثورة وانفعال، ثم أخذوا يناقشون إجراءات عزل السلطان دون أية عقبات[٨٧]، وأعلنت فى تلك الآونه الأحكام العرفية فى إستانبول، وبدأ البوليس القادم من سلانيك يوطد أركانه ويثبت دعائمه فى قصر يلديز.

---

(٨١) wittlin ، ص ٢٧١ .

(٨٢) Lancer ، ص ٥٥ .

(٨٣) على عثمان أوغلو ، ص ، ١٤٥ .

(٨٤) كان أنور باشا فى برلين إبان ثورة ٣١ مارس ثم عاد مسرعًا إلى إستانبول وتدخل فى الأحداث لصالح جماعة الاتحاد والترقى .

(٨٥) مذكرات غالب باشا ، مجلة تاريخ الحياة ، أغسطس ١٩٦٦ م ، عدد ٧ ، ص ٢٦ .

(٨٦) عبد الرحمن شرف ، حول عبد الحميد الثانى ، ص ٤ .

(٨٧) محمد صلاح الدين ، ص ٢٥ .

اجتماعات خلع السلطان التى تمت فى المجلس

لما وصلت البرقية سالفة الذكر كان مجلس المبعوثان والأعيان فى حالة انعقاد فى الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة يوم السابع والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٠٩م. وشارك فى الاجتماع مجلس الأعيان برئاسة سعيد باشا، ويرى (عبد الرحمن شرف) أن عبد الحميد كان يثق بالمجلس المجتمع من أجل بحث عزله، وكَانَ يرجع دائمًا فى الأوقات العصيبة إلى سعيد باشا رئيس هذا المجلس كى يستشيره ويأخذ برأيه، ومن ثم فقد أدهشنى السلطان لاجتماع هذا المجلس تحت رئاسة سعيد باشا، وكان هذا بمثابة حادثة سخيفة باعثة على السخرية والضحك[٨٨].

ولما علم عبد الحميد بعد ذلك بهذا الموقف عبَّر عن دهشته وذهوله قائلا : (أواه يا ربى ! سعيد باشا ! كيف يكون هذا الرجل هكذا بعد أن أنعمت عليه باللطف والعطف والإحسان طوال ثلاثة وثلاثين عامًا، أيعقد جلسة المجلس تحت رئاسته ويشكل جبهة مناوئة لى ؟ أيتسنى له أن يصدر قراراً ضدى ؟ لقد كنت أستشيره فى كل أمر يعن لى، أواه، الله أكبر. فلو حدث وتقابلنا ذات يوم وجها لوجه لأغلظت له القول وسلقته بألسنة حداد".[٨٩]

كان الموقف شديد الحساسية قبيل مناقشته فى المجلس، وبدأت قراءة البرقيات الواردة من الروملى أول الأمر، وجاء فى هذه البرقيات: (لقد عزل عبد الحميد بعد الثورة التى اضطلع بها جيش العمليات، وعليه فلم يعد اسمه يذكر فى خطبة الجمعة[٩٠]).

وصفق المجلس مهللا لهذه البرقيات التى كانت تعنى : "أننا عزلنا السلطان فى الروملى وعليكم تنفيذ هذا القرار".

---

(٨٨) باير ، ص١ ، ص٢١ .

(٨٩) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٤٥ .

(٩٠) عبد الرحمن شرف ، مصاحبات تاريخية ، ص ١٩ -٢٠ .

لقد حدثت غرائب وعجائب كثيرة فى الدولة، فكل شيء يحدث فى الروملى تسرع إستانبول على الفور لاتباعه واقتفاء أثره، وقد أعلن الدستور فى الروملى ووافق عليه السلطان، وخلع السلطان فى الروملى ووافق المجلس على ذلك، هل كانت قوى الظلام التى تعشش فى سلانيك ومناستير هى التى تدير حركة الأمة وتمسك بزمام الأمور فيها؟ وفى أعقاب تلاوة البرقيات الواردة من الروملى كان أحمد مختار باشا أول المتحدثين فى مجلس الأعيان حيث قال : "إن الحق سبحانه وتعالى يُحمل المجلس القومى اليوم واجباً مهما وينتظر الوفاء بهذه المهمة الملقاة على عاتقه من أجل الأمة، وعلينا أن نقرر هذا قبل كل شيء بحبات قلوبنا، وليس ثمة ضرورة للإطالة فى الحديث، ولكننى أطلب إليكم شيئين اثنين هما : أولاً : لقد وقعت أحداث لا مثيل لها فى الدولة العثمانية، ولكنى ملتزم بكل قوة باتخاذ الحيطة والحذر فى هذا الشأن، لأن سفك الدماء لا يليق بهذه الأمة ورقتها.

ثانيًا : يجب مراجعة أهل الفتوى فى هذه المسائل وأقترح إسناد الأمر برمته إلى رأى الشرع الحنيف".(٩١)

إن أول حديث تفوه به أحمد مختار باشا من أجل عزل السلطان كان يدعو إلى الغرابة والتعجب، فهو بسلوكه هذا يريد الانتقام من عبد الحميد(٩٢)، كما يريد كذلك أن يتبوأ منصبا مهما من الدرجة الأولى مستفيدا فى ذلك من ذيوع صيته القديم فى أيام الفوضى والاضطراب".(٩٣)

وبالفعل نال ما أراد، وتبوأ منصب الصدر الأعظم بعد فترة وجيزة، وقد استقبل اقتراح أحمد مختار باشا فى خاتمة الاجتماعات السرية التى تم عقدها بتصفيق شديد وترحاب قوى، وشكل وفد لأخذ الفتوى حيث توجه إلى أمين الفتوى حاجى نورى لاستصدارها.

---

(٩١) عبد الرحمن شرف ، حول عبد الحميد ، ص ٤ -٥ .

(٩٢) لأن السلطان عطل منصبه منصب المفوض العثمانى فى القاهرة فى القاهرة طوال فترة حكمه ومنع عودته إلى إستانبول .

(٩٣) أوجارول ، ص ٢٧٥ .

استصدار فتوى عزل عبد الحميد بالقوة

قام بإعداد الفتوى "ألما ليلى حمدى أفندى" عضو البرلمان عن أنطاليا، وأخذ فى معيته وفدًا لإعداد مسودتها، ودخلوا معًا إلى حجرة شيخ الإسلام ضياء الدين أفندى وكان أمين الفتوى حاجى نور موجودا، ثم طلب الوفد إليه التوقيع على الفتوى، "فامتنع لعدم وجود حجة قوية مقنعة تبين سبب عزل السلطان عن العرش(٩٤)"، وحينئذ قال الوفد إن السلطان يقف ضد الشرع الشريف(٩٥).

"كان أمين الفتوى وفيا مخلصًا إلى أقصى درجات الوفاء، فهو رجل متدين ذو حيثية، ولم يقبل من قبل إقصاء أى سلطان عن العرش.

وما لبث الاتحاديون أن دخلوا وخرجوا على حجرة أمين الفتوى وأخذوا يضيقون الخناق عليه، وسرعان ما رفع عقيرته بالصياح متوسلا إياهم قائلا لهم : لا تفعلوا هذا يا أبنائى ولا تنفذوه، فإن عزل السلطان نذير نحس وشؤم على البلاد، فلا تفعلوه".(٩٦)

وأصر نورى أفندى على ألا يوقع على الفتوى، وأراد فى نهاية الأمر الخلاص من هذه الورطة فألقى التبعة على كاهل شيخ الإسلام، ثم قال : "إن شيخ الإسلام ضياء أفندى هو مفتى الأنام، واستصدار الفتوى هو أمر يخصه وحده، وأطال الحديث حتى نفد صبر الأعيان"(٩٧)، ولما رفض نورى أفندى على التوقيع خاطبه اثنان من أعضاء الوفد هما : أحمد رضا وطلعت بك وقالا له : "أتأذن لنا بعشر دقائق على أكثر تقدير ؟ وسنلتقى بأصدقائنا، ثم انصرف كلاهما من الحجرة، وبعد عشر دقائق دخل فى معية الوفد عضو البرلمان البروفيسور مصطفى عاصم أفندى عضو البرلمان عن إستانبول والصديق الشخصى لنورى أفندى"، ثم أسر إلى نورى أفندى فى أذنيه قائلا له :

---

(٩٤) برهان فلك ، الأيام التى عشناها ، إستانبول ١٩٧٤م ، ص ١٢٦ .

(٩٥) محمد صلاح الدين ، ص ٣٣ .

(٩٦) طانسو ، ص ٤٨ – ٤٩ .

(٩٧) عبد الرحمن شرف ، حول عبد الحميد ، ص ٣٩ .

"إذا أنت لم توقع على هذه الفتوى يا سيدى فإن السلطان سوف يقتل لا محالة، وستكون حينئذ شريكا فى قتله، تعال ووقع على الفتوى وأنقذ نفسك".(٩٨)

لقد ضيق الخناق بإحكام على نورى أفندى، "وفى النهاية قال أمين الفتوى : إن عزل السلطان ليس فألا حسنا، وإذا توجب تغيير السلطنة فاعرضوا الأمر على السلطان وليعزل هو نفسه، حينئذ قام حمدى أفندى بحل مسودة الفتوى وكتب فيها ما يفيد بعرض الاستقالة على السلطان بالشروط التى يوافق عليها المجلس، ورضى حاجى نورى أفندى على هذا العرض المقدم، ثم ينعقد المجلس بعد تنقيح الفتوى وتوقيعها(٩٩)، ويستشف مما كتبه الصحفى" سليمان توفيق" الذى كان شاهد عيان على مجريات الأحداث بأن نورى أفندى سحب الفتوى ودفعها وهو يقول: اللهم اغفر لنا ذنوبنا(١٠٠).

وقد ورد فى فتوى العزل ما يفيد بأن السلطان قد حذف كثيراً من الموضوعات الدينية الواردة فى بعض الكتب الدينية، ومنع تداول هذه الكتب وحرقها ومزقها، وأمعن فى الإسراف والتبذير فى خزانة الدولة، ونفى الناس دون سبب إلى أماكن قاصية وحبسهم وقتلهم، وأشاع المفاسد والرذائل بين الخلائق أجمعين".(١٠١)

وانعقد المجلس عقب استصدار الفتوى. وكُتبت الفتوى فى جلسة جديدة، وارتفعت أصوات الخلع فى جنبات المجلس ولم يتفوه أحد قط بعرض الاستقالة، وتم أخذ قرار العزل بإجماع الأصوات، وفى أثناء الاجتماع اعترض "صاحب ملا بك" على هذا القرار، وعينت الوفود التى ستبلغ السلطان بالقرار، واختير وفد مكون من : عارف حكمت باشا وآرام أفندى وأسعد أفندى وقراصو أفندى وأرسلوا جميعا إلى قصر يلديز.(١٠٢)

---

(٩٨) فلك ، ص ١٢٧، جمال قوتاى ، عبد الحميد فى ثورة ٣١ مارس ، مكتبة جمال قوتاى، إستانبول ١٩٣٧م، ص ١٦٧ .

(٩٩) مذكرات أحمد رضا ، ص ٣٩ .

(١٠٠) قوتاى ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(١٠١) المصدر السابق ، ص ١٦٣ ، محمود ممدوح باشا ، المخلوعون من العرش والجالسون عليه ، ص ١٦٩ .

(١٠٢) مذكرات أحمد رضا ، ص ٣٩ .

وفى ذلك الإبان طلب" فريد سامى باشا" عضو البرلمان عن قبرص بإطلاق لقب محمد الخامس على ولى العهد رشاد أفندى تيمنا بالسلطان محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية وابتهاجا بالتحرر من الاستبداد والتخلف، وقبل العرض الذى قدمه مزيد سامى باشا(١٠٣)"، وهكذا بدأ عصر الدهماء الذى استمر موجوداً فى تاريخ السياسة التركية، ثم عقدت جلسة البرلمان برئاسة سعيد باشا حيث عرض التصويت على جلوس ولى العهد محمد رشاد بعد قرار عزل عبد الحميد، وقُبل تنصيب محمد رشاد بإجماع الأصوات.

الحرج الشديد لفتوى خلع السلطان

كان نورى أفندى غير راغب فى التوقيع على الفتوى قائلا : إنها مناقضة للشرع الشريف ولا يوجد ما يؤيدها من حجج وبراهين، ولكنه أُكره على توقيع الفتوى ولوث سمعته واسمه بسبب هذه الفتوى.

لا جرم أن الموالين للسلطان والمعارضين له قد اعترفوا جميعا بأن جميع الحقائق الواردة فى الفتوى ليست صحيحة برمتها، وهكذا استصدرت جماعة الاتحاد والترقى فتوى غير مشروعة بخلع السلطان واستخدمتها ضد ما تقضى به الشريعة الإسلامية".(١٠٤)

ويرى أحمد رشيد أن الفتوى منقوضة من أساسها، ولو أن الاستقالة طلبت من السلطان لكانت أفضل كثيرا من استصدار فتوى بخلعه.(١٠٥)

ووافقه فى الرأى كذلك عبد الرحمن شرف وزير المعارف الذى يعد من أرباب العقل والرأى السديد، والذى كان معاصراً لتلك الأحداث، ويرى ضرورة طلب الاستقالة من السلطان الذى لم يكن يستطيع المقاومة بعد قيام الجنود بعزل قصر يلديز مما كان سيضطره إلى تقديم استقالته.(١٠٦)

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

(١٠٤) أحمد رشيد راى ، ص ١٠٩ .

(١٠٥) محمد صلاح الدين ، ص ٢٨ .

(١٠٦) عبد الرحمن شرف ، حول عبد الحميد ، ص ٦ .

"لم يستطع عبد الحميد فعل أى شىء قط فى أثناء هذه الثورة التى عزلته عن العرش، كما أن خلعه غير جائز شرعا أو قانونا.

لقد أحدثت الفتوى المتعلقة بخلعه فتنة داخلية حتى إنها لم تستطع إثبات التهمة الموجهة إلى السلطان".(١٠٧)

ويرى" حكمت بايور" أيضا أن الادعاءات الواردة فى الفتوى هى مزاعم لا تستند على حجة أو برهان".(١٠٨)

لا جرم أن الفتوى كاذبة برمتها مليئة بالأخطاء، فالسلطان لم يحرق أى كتاب دينى، ولم يكن مسرفًا ولا مبذرًا، وهو معروف باقتصاده وتدبيره، وهو برىء من تبديد خزانة الدولة، وقام بنفسه بتدبير جزء من نفقات الدولة من خزانته الخاصة.

"أما القول بأنه كان ضد الشريعة فلا أصل له، إذ كان من أهم المراعين للشريعة فى كل حركاته وسكناته، أما اتهامه بسفك الدم فهو كذب وبهتان عظيم، فلو كان سافكا للدماء لأقدم على استخدام ثلاثين ألف جندى كانوا طوع أمره ورهن إشارته، ولضحَّى بدماء الألوف المؤلفة من أجل حماية عرش السلطنة، ولم يظلم أحدًا من معارضيه، بل كان يصرف للمثقفين رواتب كبيرة ويعينهم فى وظائف تليق بهم، لم تكن الفتوى فى مُجملها سوى استخدام ظالم متعسف للإسلام فى تاريخ الترك من أجل تحقيق أغراض سياسية.

إبلاغ الخلع للسلطان

لم يكد قرار خلع السلطان ينفذ حتى تم على الفور تجريد القصر من الجنود التابعين له، وألقى البوليس القبض على الفرقة العسكرية التى تحت إمرة وقيادة غالب باشا، وهاهى ابنة السلطان تفصل القول عن منظر القصر قبيل قدوم الوفد المكلف بإبلاغ السلطان نبأ خلعه فتقول: "كان القصر يعيش حقا فى لجة من الظلمات والخوف العظيم،

(١٠٧) محمد قدرى نصيح، ص ١١٦، كاظم قدرى، من الدستور إلى الجمهورية، ص ٢١٧.
(١٠٨) Bayar، جـ١، ص ٢١٧.

فلقد أطفئت الأنوار الكهربائية وقطع غاز الهواء والمياه، أما حراس الليل من الأرناءوط الذين كنا نحسبهم أوفياء مخلصين فقد خرجوا جميعا وذهبوا إلى حال سبيلهم، ولم يبق فى القصر العظيم سوى النساء.

وكانت النسوة مغشيا عليهن من فرط الخوف والصدمات العصبية اللائى يعانين منها، فالحصار يطوق القصر من كل جانب، والنار تطلق بين الحين والآخر، والرصاص يطلق فى حديقة القصر، حتى إن أصوات الرصاص كانت ترجف عظام مُختا ولُبنا".(١٠٩)

لم يبق فى القصر سوى السلطان وأولاده ونساكه وطائفة من الخدام، حتى إن هؤلاء جميعا قد اختفوا فى جناح الحريم السلطانى، وبدأت تسمع فى نفس الوقت طلقات المدفعية معلنة جلوس السلطان محمد رشاد، وحينئذ قال عبد الحميد لمن حوله : "لقد تحقق ما أراد الله والحكم له وحده".(١١٠)

كان القصر قد بلغ أوج درجات الخوف المروع والقلق العظيم، "وقد حلت بنا الساعة وجاء اليوم المفزع الذى كنا ننتظره، وكنا جميعا نحيا فى هلع عظيم، نتباكى وتلهج ألسنتا بالتضرع والرجاء والدعاء، وتجمعت نسوة القصر كلهن فى معية أبنائهن فى صالون القصر المنيف، والسلطان يطوف بيننا وهو رابط الجأش مكيث متوكل على الله، ويوصينا بالتصبر والتجلد ويعمل على تسليتنا وتفريج همنا".(١١١)

وفى أعقاب إطلاق المدافع معلنة جلوس السلطان الجديد قام محمد شوكت بإرسال برقية إلى غالب بك يُعلمه فيها بقدوم وفد مكون من أربعة أشخاص إلى قصر يلديز، وكان يبغى من وراء ذلك الحيلولة دون افتراص أية فرصة صغيرة تكون عقبة تعترض سبيل كل الترتيبات المتخذة من أجل إبلاغ السلطان قرار خلعه.(١١٢)

---

(١٠٩) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٤٦ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(١١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١١٢) صلاح الدين جونجور، مذكرات حربية عن قادتنا (من مذكرات الجنرال غالب باشا، إستانبول) ١٩٢٧م، ص ١١٢ .

خرج غالب بك إلى باب القصر ليستقبل الوفد الذى جاء بإبلاغ قرار الخلع، وأخذهم إلى داخل القصر لمقابلة السلطان. ونقرأ ما حدث بعد ذلك من مذكرات غالب بك الذى يقول: "أبلغت عبد الحميد عن طريق رئيس الكتَّاب جواد بك رغبة الوفد فى رؤية عبد الحميد نفسه، ثم أخذونا بعد فترة إلى صالون صغير بالقصر، ومرت دقيقتان، ثم ما لبث أن دخل علينا عبد الحميد فى معية ولده عبد الرحيم الذى يبلغ الخامسة عشرة من العمر، ثم أخذ يمعن النظر مليا شاخصا ببصره فى الوفد بنظرة يحاول من خلالها إخفاء ضعفه وخوار عزيمته، ثم خطا بضع خطوات ووقف.

وحينئذ تقدم من بين الوفد "أسعد باشا طوب تانى" نحو السلطان وأخذ الأمور مأخذ الجد، وقال لعبد الحميد بحدة وصرامة : لقد خلعتك الأمة بموجب الفتوى الشريفة، وإن أموالك وروحك وأولادك وحياة عائلتك فى الحفظ والصون والأمان.

حينئذ اهتز عبد الحميد هزة خفيفة غير جلية، بيد أنه لم يكن يظن من قبل أنه سيظل على هذه الحال أمام وقع هذه الكلمات، واستقبل قرار عزله بفتور ورباطة جأش، ثم ما لبث أن نكس رأسه وقال : ماذا عساى أن أفعل، إنه قدر الله.

وفى تلك الآونة كان السلطان فى حالة بالغة السوء من شدة التأثر الذى لا سبيل إلى مداراته، ولكن هموم الدنيا سرعان ما اجتمعت كلها على حين غفلة من الزمان، وأراد السلطان بعد ذلك أن يدافع عن نفسه فى جملة قصيرة وهو واقف على قدميه قائلا: الأشياء، وأنا راضٍ بالقضاء والقدر، ثم بدأ صوته يرتعش، كانت كلماته تترى بعد ذلك فى إثر بعضها البعض وهو يلهج بالتضرع والدعاء، كان متأنيًا فى روية وتؤدة أول الأمر، بيد أنه سأل بعد ذلك وهو خائر القوى قائلا : أيمكن أن أكون مستأمنًا على حياتى ؟ وسرعان أن نهض كل من : عارف حكمت باشا وأسعد طوب ثانى وقراصو وآرام أفندى ومنحوه الأمان واحداً تلو الآخر، وقالت حكومة الاتحاد والترقى إنها تتعهد بالمحافظة على حياة السلطان المخلوع. ثم عاد عبد الحميد إلىَّ فى هذه المرة وقال : لقد لُذْتُ بجنودكم الشرفاء.

هل يمكن أن آمن على حياتي، فأجبته قائلا بلى، تستطيع أن تأمن على حياتك وهذا ما قرره الجيش، أحس عبد الحميد بعد ذلك بقدر كبير من الراحة والطمأنينة، ثم قال لأعضاء الوفد : "هذا ما أطلبه منكم، انقلوني إلى منتجعي الصيفي في قصر "جراغان"، وسيكون شغلي الشاغل هو الدعاء لدولتي وأمتي".(١١٣)

وقد ورد في بعض المصادر التاريخية أن" أسعد طوب تاني" قد استخدم كلمة عزل بدلا من كلمة خلع.

ويفيد ما دونه غالب باشا أن عبد الحميد أراد أن يؤكد للوفد أنه غير ضالع في حادثة ٣١ مارس على وجه الخصوص، وقد رفع عقيرته بشر الدعاء في حضور الوفد على كل من أشعل نار هذه الفتنة وكان سببا فيها : "اللهم اقهر كل من تَسبَّبَ في هذه المفاسد والشرور والآثام، فلقد قدمت خدمة جليلة في خضم هذه الأحداث من أجل الحيلولة دون سفك الدماء، وكافحت وجاهدت، فماذا عساى أن أصنع؟ اللهم احفظ وطني وأمتي وادفع عنها الضر والبلاء، ولا أملك أن أقول شيئًا سوى اللهم شتت شمل من كان ضالعا في هذه الفتن والمفاسد".(١١٤)

ثم جهر السلطان في حضور الوفد مرة أخرى بشر الدعاء قائلا : "اللهم انتقم من الظالمين، وأمَّن من في معيته على دعائه، ولننظر في تصاريف القضاء حيث استجاب الله لدعاء السلطان الذي كان مظلومًا بريئًا من كل ما نسب إليه، وكانت عاقبة من تسببوا في خلعه وخيمة، إذ ذهب كل من محمود شوكت باشا وطلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا وغيرهم ضحايا رصاصات طائشة قضوا نحبهم على إثرها.

غادر الوفد القصر بعد انتهاء مهمتهم بإبلاغ قرار الخلع للسلطان، وأحيط المجلس علما برغبة عبد الحميد في الإقامة بقصر جراغان.

---

(١١٣) جونجور ، ص ١١٢ – ١١٤ .

(١١٤) مذكرات غالب باشا ، مجلة تاريخ الحياة ، سبتمبر ١٩٦٦م ، عدد ٨، ص ٧٧ – ٧٨ .

سلب قصر يلديز ونهبه

ما لبث قصر يلديز أن تعرض لعمليات سلب ونهب اضطلع بها جيش العمليات الذى شدد الحصار على القصر فى أعقاب خلع السلطان وإبعاده عن القصر.

أما الحقيقة المرة فى هذا الشأن فهى أن طغمة من زعماء العصابات الإرهابية انضمت إلى جيش العمليات على أنهم فدائيون، وانضم كل من "صاندينكس" زعيم الإرهابيين البلغار وأنور باشا إلى هذا الجيش حيث دخلا القصر، وشاركا فى عمليات السلب والنهب، ثم قاما بالبحث عن الخزينة التى نهبها الإرهابيون، ولم يستحوذ الإرهابيون على شيء منها[١١٥].

نهبت بالقوة المجوهرات والأحجار الثمينة الموجودة فى الخزينة، وإذا كان الاتحاديون قد روجوا دعاية بأن هؤلاء الإرهابيين قد نهبوا الخزينة والمخطوطات المزخرفة بالذهب والفضة حتى يدفع الاتحاديون التهمة عن أنفسهم، فإن ما زعموه لم يكن إلا قطرة فى محيط أو قليل من كثير[١١٦].

"وبعد أن تم إخراج نسوة القصر وأمرائه ومن فى معيتهم نقلت المجوهرات والأموال من خزانة القصر بواسطة هيئة عسكرية[١١٧]، وسلب قصر يلديز على هذا النحو المرير المفجع، وأدى السلوك المشين لجماعة الاتحاد والترقى إلى الإقدام على سلب ونهب القصر سالف الذكر من أجل تحقيق مطامعهم فى الثراء وامتلاك الملايين[١١٨].

وهاهو ذا عبد الحميد يحكى على مسامع النقيب" ذو النون" حاكم ولاية سلانيك كل ما يتصل بعملية سلب قصر يلديز فيقول: "لقد أخفيت هذه الخزانة القيمة داخل خزائن حديدية محفوظة فى الصوان الذى أنشأته على صورة خاصة فى قصر يلديز، بيد أن كل هذه الأشياء سلبت ولم يظهر من ذا الذى أخذها، وأسفى أنهم الاتحاديون،

---

(١١٥) محمد توران ، ص ٦٠ .

(١١٦) محمد صلاح الدين ، ص ٢٩ .

(١١٧) محمد محمود باشا ، المخلوعون عن العرش والجالسون عليه ، ص ١٧١ .

(١١٨) محمد صلاح الدين ، الحيل والخداع الماكرة للاتحاديين ، إستانبول ١٣٢٨هـ ، ص ٥ .

وكان لزاما عليهم أن يخبروا مجلس المبعوثان بأمر هذه الخزينة على أقل تقدير وهذا ما لم يفعلوه، وأسدلوا على هذا الكنز الثمين ستار الغفلة والنسيان.

وعلى كل حال فلم تكن الجواهر فى الحقيقة هى المنهوبة وحدها فحسب، بل نهبت كذلك الستائر الحرير والقطيفة لقصر يلديز، ناهيك عن الثريات التى تأخذ بالأبصار والسجاجيد والطنافس المصنوعة بطريقة خاصة فى مدينة "هركه" Hereke ، وكذلك أوانى الطعام المصنوعة من الصدف والأطباق المنقوشة وإصيص الورد الذهبى والشمعدان الفضى ومجامره المصنوعة من شجر الجوز والماعون[١١٩].

وسرقت الأرائك والكراسى والفرش المصنوعة من ريش الطيور، واللحف والوسائد وأطقم المطبخ الفضية من ملاعق وأشواك، وقد قسمت العصابات الفدائية الموجودة خارج نطاق جيش العمليات هذه المسروقات جميعها، وقد زعم هذا الجيش أنه جاء بعصر جديد مزدهر للأمة التركية".[١٢٠]

هكذا يتبين لنا أن قصر يلديز قد نهب وكأنه حصينة فتحت عنوة من يد الأعداء، لا جرم أن هذا القصر كان محل إقامة السلطان، فهو رحب فسيح يذكرنا بمدينة صغيرة، إنه يشبه قلعة منيعة ترتفع أسوارها عشرة أمتار.

آراء متباينة حول الوفد الذى بلغ السلطان خبر خلعه

أثار تشكيل الوفد الذى أبلغ السلطان نبأ خلعه استياء وسخطًا شديدين فى كل مكان، ولا سيما فى أعقاب عزله[١٢١]، وظهر أول رد فعل على هذا الوفد على لسان جواد بك رئيس كتّاب عبد الحميد الذى قال : "انظر مليا إلى غالب بك عند قدومه إلى قصر يلديز لإبلاغ السلطان نبأ خلعه، أهؤلاء هم الذين أرسل بهم ؟ إن هذا لإثم عظيم".[١٢٢]

---

(١١٩) نوع من شجر الغابات كبير ينمو فى الهند وهوراس ، تصنع منه ألواح خشبية ذات لون غامق لامع وهاج (المترجم).

(١٢٠) أرتوك ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(١٢١) حسين كاظم قدرى ، من الدستور إلى الجمهورية ، ص ٢٤٦ .

(١٢٢) مذكرات غالب باشا ، مجلة تاريخ الحياة ، سبتمبر ١٩٦٦م ، عدد ٨ ، ص ٧٨ .

ولقد أسف السلطان أسفًا شديدًا عندما رأى بناظريه ثلة من أعضاء البرلمان من اليهود والأرمن والأرناءوط يناصبونه العداوة والبغضاء.

وبعد خروج الوفد المكلف بإبلاغ نبأ الخلع للسلطان، قام أحدهم بإبلاغ أولاده معلومات مقتضبة عن هذا الوفد، ولتقرأ في هذا السياق طرفا من هذه المعلومات مما ورد على لسان ابنته عائشة التي تقول: "ثم شرع أبي يحكي لنا عن أعضاء الوفد قائلا: كان في مقدمتهم أسعد طوب تاني الذي أنعمت عليه كثيرا من نعمائي وإحساني، وكان بينهم عارف حكمت الذي تعهد بتربية وتنشئة شخص يدعى رئيس الخُصْيان المكلف برعاية الحريم السلطاني، ثم قمت أنا بترقية عارف حكمت إلى رتبة الفريق ولكنه كان كنودا، ناهيك عن شخصين آخرين أحدهما يهودي يدعى" قراصو" والآخر أرمني الأرومة ويدعى" آرام"، كان إعلامي بقرار خلعي قد تم على يد زمرة من هؤلاء الرجال الذين لا شك أنهم باتوا أعداء ألداء للوطن والأمة وأرادوا مكافأتي لقاء خدمتي للأمة طوال ثلاثين عامًا، لا بأس من كل هذا، فأمتي مصونة محفوظة، وإن هؤلاء الذين دبروا كل هذه المكائد هم أعدائي.

ولكن الله عادل،لا جرم أن وجه الحقيقة سينجلي ذات يوم لا محالة، وكل ما جرى هو قضاء مبرم لا فكاك منه ألبتة"(١٢٣)، ولم يزل عبد الحميد يروي طرفًا آخر من ذكرياته حول الوفد الذي أنبأه بقرار خلعه فيقول : "لقد كنت شديد الأسف والحزن من الوفد الذي خلعني لا من قرار الخلع نفسه، فلقد اختاروا وفدا مكونا من الأعيان وأعضاء البرلمان وجاءوا إلى حجرتي، ثم ما لبث أن خرج من بينهم أسعد باشا متفوها في وجهي بطريقة شديدة الغلظة والاستهجان، حتى إنهم استنكفوا استخدام كلمة الخلع في وجهي وأحلوا محلها كلمة عزل، آه لو تعلم هذه الأمة المسكينة القدر المحتوم الذي ينتظرها"(١٢٤)، لقد تميز عبد الحميد غيظًا من "أسعد طوب تاني" على وجه الخصوص، فالسلطان هو الذي أخذه إلى القصر بنفسه وسعى إلى ترقيته إلى وظيفة كبير الياوران،

---

(١٢٣) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(١٢٤) وداد عرفي ، ص ٤٩ .

بيـد أنه لم يكف عن إثـارة الشـغب فى القـصـر فنفـاه السلطــان إلى منطقـة "خـاربوت".(١٢٥)

ثم عدل السلطان عن رأيه وأخذه إلى القصر مرة أخرى ، وعينـه فترة من الوقت فى قيادة البوليس حتى يتقى شره ويأمن جانبه.(١٢٦)

وثمـة حدثان جعلا السلطان يندهش كثيراً أمام الوفد الذى أبلغه نبأ العزل : أحدهما هو جرأة "عما نويل قراصو أفندى" الذى طرد غير مرة من لقاء السلطان ثم هو يصر الآن على عزل الخليفة من منصبه، ثانيهما : هو ذلك الجاهل" أسعد طوب تانى" مدير البوليس الذى تربى فى كنف السلطان وأكل خبزه وكان تواقا يتحرق شوقًا إلى هذه الوظيفة، ولكن ما حدث هو القدر المقدور، ومع كل هذا فقد احتفظ السلطان برباطة جأشه وهدوء أعصابه".(١٢٧)

اشتد حزن عبد الحميد من "عمانويل قراصو"، ويحكى طرفا من هذا على مسامع النقيب" ذو النون" حاكم ولاية سلانيك فيقول : "ومما خلف أثرا عميقا فى نفسى هو مسودة قرار العزل التى أبلغنيها ذلك اليهودى، ولن أنسى ما حييت مجىء هذا الرجل ضمن هيئة الوفد الذى قدم إلى قصر يلديز حيث كان قدومه إلى مقام الخلافة على النحو الذى سلف أن شرحته(١٢٨)"، وكان" طوب تانى" من بين أعضاء الوفد المبلغ لقرار الخلع والذى اتفق مع الصرب على تحقيق رغبته الشديدة فى أن يكون ملكًا على منطقة الأرمن.

وكان رضا باشا قد اعترض إبان حرب البلقان على تسليم منطقة "إيشن قودرة" إلى أهالى الجبل الأسود وصدع برأيه ببطولة منقطعة النظير، وهكذا كان أسعد طوب تانى رجلا ذا خطر عظيم ، ويرى فى رضا باشا رجلا شديد الخطر عليه ، يعترض سبيل

---

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٥١ .
(١٢٧) طانسو ، ص ٤٩ .
(١٢٨) أرتورك ، ص ٢٤ - ٢٥ .

تحقيق أغراضه المتمثلة فى ضم منطقة "إيشن قودرة" إلى الجبل الأسود ودفعه حقده إلى أنه أولم وليمة دعاه إليها ، ثم شن فى أثرها غارة غادرة فخرَّ صريعا من فوره[(١٢٩)].

وفى النهاية وصل طوب طانى إلى غايته المنشودة فأصبح ملكًا على دولة الأرناءوط المستقلة.

وهاهو ذا على فؤاد تورك جلْدى يكتب نتفًا عن أحد أعضاء وفد الخلع، ويدعى عارف حكمت باشا فيقول : "لم يكد المبعوثان يهم بمناقشة تشكيل الوفد الذى سيخبر السلطان بنبأ خلعه حتى هب على حكمت باشا من بين الأعضاء قائلا : سوف أذهب معهم وتلا تلوه فى هذا الشأن "قراصو"، ألا يدل كل هذا على نكران الفضل وجحود النعمة ؟ لقد أنعم السلطان على عارف حكمت بمنصب كبير الياوران بضع سنين من الزمان، ألم يكن هناك أشخاص آخرون من أعضاء هذا الوفد الذى أبلغ خبر الخلع للسلطان ممن أنعم عليهم بنعمائه وعطاياه؟[(١٣٠)]، وبعد حقبة من الزمان اعترفت زمرة من جماعة تركيا الفتاة بارتكابها خطأ فاحشًا لاشتراكها فى الوفد الذى أبلغ خبر العزل للسلطان، ونذكر فى هذا السياق بضعة نماذج من هؤلاء : "كان أسعد باشا طوب تانى عضوا برلمانيا عن مقاطعة" إيشن قودرة" ومشاركًا فى عضوية الوفد الذى ذهب إلى عبد الحميد لإبلاغه قرار إقصائه عن السلطنة، وكان هذا الرجل من وجهاء الألبان وبذل جهداً كبيراً فى التمرد على الدولة، وشارك جيوش الأعداء فى الحرب العالمية الأولى.

ثم قتل على يد شاب أرناءوطى فى باريس، واشترك فى وفد الخلع كذلك كل من عضو البرلمان اليهودى عمانويل قراصو وآرام أفندى اللذين ارتكبا خطأ سياسيا فادحا لانضمامها إلى أولئك الذين أبلغوا السلطان فتوى خلعه[(١٣١)]"، "أرسل الرجلان السالف ذكرهما لإبلاغ السلطان نبأ خلعه وسوقه ليكون رهين الحبس فى سلانيك، وكانت هذه الفعلة الشنعاء بمثابة وصمة عار فى جبهة التاريخ التركى، فلقد أقصى

---

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(١٣٠) تورك جلدى ، ما رأيته وعاينته ، ص ٣٢ .

(١٣١) أوزر ، ص ٢٤٥ .

سلطان سلطنة الترك العظيم عن سدة العرش على يد شخص حقير مثل هذا اليهودى وقاتل ألبانى رذيل مثل أسعد باشا".(١٣٢)

" وإن اضطلاع يهودى ماسونى بين أعضاء الوفد الذى يكلف بخلع السلطان قد بات سنة متبعة دائمة فى الدولة العثمانية، كما أن استصدار فتوى خلع السلاطين قد صار هو الآخر شعيرة متفقة مع أعراف الدولة العثمانية وتقاليدها، وكان هذا الأمر صعبا عسيرا بالنسبة للسلطان وذوى الحيثية والشرف على حد سواء.

ومما زاد الطين بلَّة أن قراصو أفندى الماسونى قد كلف من قبل ليعرض على السلطان شراء قطعة من أرض فلسطين مقابل مبالغ طائلة من المال، وبعد مرور بضع سنين اختيرت هذه الشخصية البارزة لتكون ضمن أعضاء الوفد المكلف بإبلاغ قرار الخلع للسلطان عبد الحميد، وكانت هذه الواقعة قد باتت موضوعا للقيل والقال وأثارت الشائعات بين الرأى العام، وسببت ألما عميقًا فى نفوس الخلائق أجمعين.

لا جرم أن الاسم التجارى لهذا الماسونى قراصو كان يطوف فى دهاليز وزارة المالية(١٣٣) للدولة وكأنه شبح غول أو شيطان أسود يسعى من أجل تحطيم الدولة وتقويض بنيانها الاقتصادى.

وذات يوم خسر هذا اليهودى كل ما كسبه وطمع فيه، وظل طوال حياته عضوا مؤثرا فعالاً فى جماعة الاتحاد والترقى، وما لبث أن أصبح صفيق الجلد متبلد الإحساس وظل يعيش فى سويسرا مفلسًا يتضور جوعًا، لا يساعده واحد من أصدقائه ولا يسلم على أحد منهم(١٣٤).

"وإذا تحدثنا عن الأرمنى" آرام أفندى" عضو وفد الخلع ألفيناه قد أقام علاقة وطيدة مع الجماعات السرية الإرهابية الأرمنية، ثم أقحم نفسه ضمن وفد الخلع ليثأر للأرمن من السلطان".(١٣٥)

---

(١٣٢) رضا نور ، جـ١ ، ص ٢٠٢ .

(١٣٣) كان طلعت باشا من الاتحاديين الهاربين الذى طلب منه هذا اليهودى مالا ولكنه فشل فيما خطط له .

(١٣٤) حامد عمجة ، ص ١٤٣ .

(١٣٥) أوزطونه ، جـ٢٢ ، ص ١٨ .

هكذا رأينا أن وفد الخلع لم يكن إلا تحالفًا من زمــرة المعارضين يسعى للثأر من عبد الحميد، وظلت هذه الواقعــة بمثابة وصمة خزى وعار فى جبهة التاريخ التركى.

بيان وجه الخطأ لثورة ٣١ مارس

ما النتائج المتمخضة عن ثورة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م؟ لقد حققت هذه الثورة فائدة جمة لكل من ألمانيا والاتحاديين الموالين لها، فقد أقدم جيش العمليات على احتلال إستانبول، وأقصى السلطان عبد الحميد عن عرش الدولة العثمانية، ونجم عن فرار الأمير صباح الدين ورجاله إلى خارج الوطن تصفية تامة للمعارضة الموالية للإنجليز، وجِيء بحسين حلمى باشا لتولى منصب الصدارة العظمى مرة ثانية، وسرعان ما أعلنت الأحكام العرفية، وأعدمت زمرة كبيرة من المتهمين والمذنبين الذين حوكموا فى محاكم عسكرية مشكلة.

وفى أعقاب الثورة قبض الاتحاديون على أزمَّة الأمور فى إستانبول، وقام الاتحاديون بتقديم الأسباب التى دفعتهم إلى الثورة متمثلة كما يرون فى توفير الأمن والطمأنينة للمجتمع من جهة وتطهيره عن طريق الإجراءات والتدابير التى اضطلعوا بها من جهة أخرى، وكان" التحالف" هو الذريعة الوحيدة التى تذرعوا بها، وهى كلمة تُقْرن دائمًا بعبد الحميد وتلصق به ولا تزايله أبداً، وقد ظهر فى الوثائق الرسمية أن تعبير" التمرد" قد أطلق على عبد الحميد وأنصاره من أجل تحطيم الدستور وإعادة الاستبداد.

وقد ظهر فى المنشور فى ٢١ يونيو سنة ١٩٠٩م أن كلا من "يرنجى ديوان حربى وعرفى باشقاتلق" قد توليا زعامة فرض الأحكام العــرفية، كما أنهما زعما كذلك أن عبد الحميد هو المتهم الأول لإشعال نار ثورة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م، ويتكرر فى هذا التقرير صدق المزاعم التى يعوزها الدليل القاطع، وهى مزاعم واردة فى فتوى عزل السلطان، كما اتهم السلطان أيضا بأنه ألف سفك الدماء عن طريق زمرة من القتلة المسلحين العصاة.

كما كان ضالعا فى قتل "على قبولى"، وذاع هذا الاتهام على لسان "درويش وجدتى" صاحب صحيفة "البركان"، والذى أرشى بالمال بواسطة "مصاحب جوهر آغا"، وفى النهاية طالب هذا التقرير المنشور بعرض اقتراح يتم بمقتضاه محاكمة عبد الحميد(١٣٦).

لا جرم أن هذه الآراء تحتاج حتى الوقت الراهن إلى وجهة نظر رسمية توضح بتفصيل مسهب مدى صحتها، ومما يؤسف له أن كثيراً مما كتب فى كتب الأدب داخل البلاد وخارجها يكرر هذه الأخطاء عينها، ويروج لهذا الرأى الخاطئ دون الوقوف مليا على الأسباب الحقيقية.

ولسوف تنجلى الحقيقة الناصعة المؤيدة بالمعلومات الصحيحة التى تميط اللثام عن كل ملابسات هذه الوقائع والأحداث، وإذا فكرنا مليا أن عبد الحميد لم يضطلع بدور فى هذه الأحداث، فإنه سرعان ما تظهر بعض المصادر التى بدأت تتفوه بوجهة النظر الرسمية التى تؤكد هذه الواقعة، وذلك من قبيل التأييد السرى المباشر للسلطان، أما جماعة تركيا الفتاة نفسها فإنها لم تصدق غير مرة ما ورد فى التقرير آنف الذكر، وكانوا ينظرون إليه بارتياب، ومن هؤلاء على سبيل المثال" حسين جاهد بالجين" الذى كتب فى مذكراته قائلا : "ما هو وجه الحقيقة لحادثة ٣١ مارس؟ ألم تكن الجُذاذات التى نشرها" برنجى ديوان حربى" فى بحثه الوارد فى التقرير المؤرخ يوم ٢١ يونيو سنة ١٩٠٩م، وقد ظهر هذا التقرير فى شكل مُريب دون أن يترك مجالا للحيرة والتردد".(١٣٧)

وقد عرضت "خالدة أديب(١٣٨)" فى أحد مؤلفاتها فكرة فقدان الثقة بالسلطان عبد الحميد مستخدمة عبارة مروية تفيد بأن عبد الحميد كان يهيمن على كل مقاليد الأمور ويستحوذ عليها جميعا"(١٣٩).

---

(١٣٦) باير ، جـ٢ ، ص ٢٠٠ - ٤٠٩ .

(١٣٧) حسين جاهد بالجين ، المذكرات السياسية ، إعداد : محمد قوتلو آى ، إستانبول ١٩٧٣م ، ص١٢٠ .

(١٣٨) من أشهر أدبيات عصر الجمهورية ، ويمكن القول إنها من أهم الروائيات اللائى تمتعن بالقدرة على التحليل العميق فى تصوير شخصيات رواياتها. (المترجم)

(١٣٩) خالدة أديب أديوار ، تأثير الشرق والغرب وأمريكا فى تركيا ، إستانبول ١٩٥٥م ، ص ٨٤ .

وثمة طائفة أخرى من جماعة تركيا الفتاة ومعهم زمرة أخرى ممن اضطلعوا بتقديم آراء مفعمة بالحيرة والتردد والارتياب بشأن الدور الذى اضطلع به عبد الحميد فى مجريات هذه الأحداث، ولكنهم وقفوا جميعا على الدور المباشر، وثمة طائفة منهم قد أحجمت عن إماطة اللثام عن الحقائق المعروفة، وهذا شىء يدعو للحسرة والأسف.

وهانحن أولاء نذكر طرفا من آراء هؤلاء : "لا أحسب قط أن ثمة علاقة مباشرة بين السلطان عبد الحميد وبين وقوع حادثة ٣١ مارس، ولربما كانت له رغبة عارمة فى إعادة الاستبداد مرة أخرى".(١٤٠)

"وأنا أرى أنه لم يكن لعبد الحميد أى دور مباشر فى حادثة ٣١ مارس، ولكن عند نشوب هذه الحادثة وبعدها كان عبد الحميد يفكر مليا فى مدى تأثير نفوذها الشديد وتحقيق برنامجها المرسوم، ويؤيدنى طلعت بك فى هذا الرأى(١٤١)"، "لا جرم أنهم لم يريدوا الادعاء بأن عبد الحميد لم يكن ضالعًا فى تحريض الجند واستنهاض عزائمهم على وجه الخصوص(١٤٢)،" يمكن أن تكون الفواجع المؤلمة لثورة ٣١ مارس مطابقة لبغية الرجعيين المتخلفين على وجه العموم، بيد أنهم لم يريدوا الجهر بهذه الحقيقة بطريقة مباشرة(١٤٣)"، "من الأمور البدهية أن تكون ثمة رغبة قلبية صادقة فى الثورة على السلطان، ولكن ترتيب المكيدة وحبك المؤامرة هما اللذان خلفا أثرًا عميق الغور فى نفس السلطان(١٤٤)"، لم يقدم عبد الحميد تأييدًا علنيا لواقعة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م، بل قدم لها مساعدات مالية سرية.

ورغم أن هذه الآراء تميط اللثام عن الحقائق ، فإن هناك إصرارًا على الرأى الخاطئ القديم المعاند ،"إن واقعة ٣١ مارس قد باتت عرفًا وتقليدًا يذكر بالمشروطية الثانية ويبين حقيقة جازمة وهى أنها كانت صحوة متأخرة حتى الأزمنة القريبة من وقتنا الحالى.

(١٤٠) أحمد بدوى قوران ، كفاح الحرية فى المدرسة الحربية ، إستانبول ١٩٥٩م ، ص ١٥٦ .

(١٤١) Blade ، ص ٩١ .

(١٤٢) أحمد صائب ، تاريخ الدستور وحظيرة المسألة الشرقية ، إستانبول ١٣٢٩هـ ، ص ٨٨ – ٨٩ .

(١٤٣) محمد مراد ، الآمال الحلوة ، ص ١٧٥ .

(١٤٤) جيرول ، ص ٣٤٩ ، witlin ، ص ٢٦٨ Eversley ، ص ٣٤٩ .

وبدأ يظهر تقويم علمى لهذه الواقعة فى الأزمنة الأخيرة، ورغم كل شىء فإنه يتوجب القول إنه كان جهداً متأخرا بكل ما يتصل بخيوطها العامة".(١٤٥)

وكانت ثورة ٣١ مارس سببًا جعل كلا من أعضاء تركيا الفتاة المؤيدين للإنجليز والألمان لا يتهمون بعضهم بما يعرف بأدب التخلف فى أى وقت من الأوقات، إن التخلف يعنى اتهام عبد الحميد بتحطيم الدستور وإحلال الاستبداد محله، وكانت هذه التهمة توجه كذلك إلى الشعب البرىء وإلى الشيوخ ورجال الدين الذين يُزعم أنهم أيدوا عبد الحميد وشدوا أزره.

وقد قدمنا فى الصحف سالفة الذكر أن رجال الدين والشعب والعلماء لم يؤيدوا جميعًا ثورة ٣١ مارس. وإذا جزمنا بأن عبد الحميد لم يكن ضالعًا بدور فى التخلف والتقهقر فإننا نرى أن الأحداث التى نجمت عن الثورة لم تكن حادثة تخلف أو تقهقر، ومن ثم فإنها سوف تبدو وكأنها لا تلبس الشكل الخارجى للتخلف المنسوب إليها.

القضية المتعلقة بدور عبد الحميد فى ثورة ٣١ مارس

بناء على ما سوف ندرسه بالتفصيل وما سوف نبحثه فى مواضع شتى من الصحف الآتية تبين أن عبد الحميد لم يضطلع بأى دور فى ثورة ٣١ مارس، ولسوف تتجلى هذه الحقيقة يوماً بعد يوم، وإن كلا من معارضى عبد الحميد وحلفائه وأصدقائه قد نجحوا فى إضفاء الفاعلية والنشاط على هـذه المسألة، وهذا ما يجذب النظر على وجه الخصوص.

وإن كل الآراء التى سوف نسردها فيما بعد هى آراء أعضاء تركيا الفتاة وبعض شهود العيان الذين عاينوا هذه الوقائع والأحداث وكانوا شهوداً عليها.

---

(١٤٥) جتين يتكين ، الثورات والحركات الشعبية فى تركيا من الناحيتين السياسية والقومية، إستانبول ١٩٧٤م . ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

"إن ما نسب إلى السلطان عبد الحميد في واقعة ٣١ مارس كان ظلماً عظيماً وتعسفاً جائراً، كما أن البيانات التي ذكرها الصدر الأعظم حسين باشا فيما يتصل بضلوع السلطان في هذه الثورة هي بيانات كاذبة مفتراة برمتها، وقد لفقها الصدر الأعظم ليتستر على فشله في الإدارة وسياسة الأمور وغفلته فيما يتصل بشئون الدولة.(١٤٦)

"إن ما قاله الاتحاديون بعد ذلك بشأن ضلوع عبد الحميد في هذه الواقعة هو محض كذب وافتراء، فليس لهذا المسكين أي تدخل يذكر في هذه الواقعة، وأنا على يقين من هذا من خلال المصادر الموثوق بها والمعول عليها، كما رفض حمدي جاوش هذه المزاعم".(١٤٧)

لا جرم أن السلطان عبد الحميد قد رفض استقبال كل من حمدي جاوش ودرويش وحدتي في قصره، ولتقرأ في هذا الصدد طرفا مما دونه عبد الحميد في مذكراته فيقول "لقد ظهرت في ذلك الإبان ما يعرف بلجنة المحمدية التي كانت تعاني من التقصير والإهمال، وهي لجنة أسسها درويش وحدتي وهو رجل قبرصي متشرد ضال، ونفي حقبة من الزمن إلى الأناضول".(١٤٨)

"إن هذه اضطلع بها الاتحاديون أنفسهم، لم تكن هناك خطورة من عبد الحميد، أما مسألة الشريعة التي يتذرعون بها فهي محض لغو وهذيان".(١٤٩)

"يشهد الله أنني أرجح الاحتمال القائل بأن عبد الحميد كان ضالعاً في واقعة الروم التي حدثت في ٣١ مارس سنة ١٣٢٥هـ".(١٥٠)

"لم يتسبب عبد الحميد في وقوع حادثة ٣١ مارس، حتى إنه لم يتحرك حركة واحدة من الاستفادة من هذه الفرصة المواتية".(١٥١)

---

(١٤٦) حسين كاظم قدري ، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .
(١٤٧) رضا نور ، جـ١ ، ص ٢٩٦ .
(١٤٨) وداد عرفي ، ص ٣٩ - ٤٠ .
(١٤٩) رضا نور ، جـ٢ ، ص ٣٠١ .
(١٥٠) علي فؤاد جبه صوى ، أتاتورك صديق الدراسة ، إستانبول ١٩٦٧م ، ص ١٤٩ .
(١٥١) سليمان نظيف ، المؤسسة المنحطمة ص ٨ .

"وقد صرح لى طلعت باشا غير مـرة أن عبد الحميد لم يتدخـل قط فى واقعـة ٣١ مارس(١٥٢)"، "وأستطيع القول إنه رغم أننا دهشنا كثيـراً لهذه التجربة العظيمة فإن عبد الحميد نفسه قد أصابته الدهشة والحيرة بنفس الدرجة، وإن أعظـم دليل على هـذا أنه لم يكن له أدنى تدخـل شخـصى حتى لا تصل المشكلة إلى سفك الدم وإثارة الأحقاد".(١٥٣)

"وأنا على يقين كذلك بأن عبد الحميد لم يخطط لواقعة ٣١ مارس، ولم يقدم لها أية مساعدة مادية أو معنوية".(١٥٤)

"عندما كنت أتولى منصب كبير الياوران حدثنى ذات يوم الصدر الأعظم على رضا باشا عن واقعة ٣١ مارس قائلا : لا ذنب لعبد الحميد قط فى هذه الفاجعة المروعة، لقد أرادوا أن يظهروا عبد الحميد على أنه ضالع فيها، وشاركه فى الرأى "خلفى صالح باشا،(١٥٥)، "إن كل هذه الأسباب برمتها تبين أن عبد الحميد لم يكن ضالعًا فى هذه الحادثة"(١٥٦)، "لقد ظل عبد الحميد يحكم الدولـة العثمـانية طوال اثنتين وثلاثين سنة، ثم أقصى عن سدة العـرش دون أن يقترف إثما قـط فى حادثة ٣١ مارس".(١٥٧)

"وكـل هـذه الوقـائع والملابسات تدل على أن عبد الحميد لم يكن له أثر قـط فى تمرد ٣١ مارس، وأنا على يقين تام بأن الاتحاديين هم الذين خططوا لهذا التمرد حتى يأخذوا السلطنـة من يد عبد الحميد ، ويحكمـوا قبضتهم على دفـة الأمـور فى البلاد".(١٥٨)

---

(١٥٢) تورك جلدى ، ما رأيته وشاهدته ، ص ٤٣ .

(١٥٣) أوق يار ، ص ٣٢ .

(١٥٤) قوت آى ، فى ثورة ٣١ مارس ، ص ١٤٨ . (من ملاحظات الصحفى سليمان توفيق) .

(١٥٥) رجب آق يواش ، ٣١ مارس وعبد الحميد ، صحيفة الحوادث الأخيرة ٢٤ أبريل ١٩٦٦م .

(١٥٦) برهان قلك ، واقعة ٣١ مارس ، الأحداث القومية الجارية ١٩٨٠/٤/٢٠م .

(١٥٧) فلك ، الأيام التى عشناها ، ص ٣٢ .

(١٥٨) تن جير شك ، ص ١١٩ .

"لم يكن عبد الحميد ضالعًا فى الواقعة المسماة فى التاريخ بحادثة ٣١ مارس، ولو أنه أراد إشعال نار الفتنة لتمكن جنده الخاص من تمزيق أوصال جيش العمليات ولقضى عليه قضاء مبرما".(١٥٩)

"عندما لاحت فى الأفق النذر الأولى لإشعال نار بركان فتنة ٣١ مارس كان عبد الحميد مقتنعًا بضرورة التصدى لها بنفسه خشية منه من اتساع رقعة الفتنة وزيادة نار الصراع".(١٦٠)

"ويرى محمد قدرى أن واقعة ٣١ مارس كانت انقلابًا مزيفًا مختلقًا، أما ادعاء التخلف فهو ضرب من السفسطة والجدال العقيم. وإن فكرة التخلف هذه لا وجود لها فى تركيا ألبتة، وهى خيالات مختلقة من بنات أفكار الاتحاديين الذين بذلوا ما فى وسعهم فى سبيل إقناع كل شخص من أجل تصديق زعمهم".(١٦١)

ونورد الآن سرد آراء طائفة أخرى من المؤرخين

"لم يقصر عبد الحميد إبان وقوع هذه الكارثة، ولم تكن له علاقة بما حدث فيها من قريب أو بعيد، وإن هذه السفسطة التاريخية والجدل العقيم ليسا إلا تلفيقا وافتئاتًا باطلا اضطلعت به جماعة الاتحاد والترقى، إنه محض افتراءات كاذبة روجتها وأذاعتها هذه الجماعة بضع سنين(١٦٢)"، "لقد أدركنا بعد دراسات متفحصة دقيقة أن عبد الحميد لم يكن ضالعًا فى واقعة ٣١ مارس سنة ١٣٢٥هـ ولا فى الحركة الارتجاعية التى حدثت فى ١٣ أبريل سنة ١٩٠٩م، لا جرم أن الدراسات الأخيرة التى تمت فى هذا الصدد تبين

(١٥٩) طانسو، ص ٤٨ .
(١٦٠) على جواد، ص ٥٦ .
(١٦١) محمد قدرى نصيح، ص ٢١٤ .
(١٦٢) دانشمند : جـ٤ ، ص ٣٧ .

أن عبد الحميد لم يكن مشاركًا فى واقعة ٣١ مارس، ولم يقف ضد الدستور بتحريض من شيخ الإسلام، وهو صادق فى يمينه التى أقسم بها".(١٦٣)

"إن هذه الواقعة هى فى الأصل مؤامرة سرية لدولة أجنبية كانت ترمى دون ريب إلى إقصاء عبد الحميد، ونفذت هذه المؤامرة بفضل الأموال التى وزعوها وكانت موضوعة تحت تصرفهم".(١٦٤)

"كيف اضطلع عبد الحميد بدور مهم فى هذه الحادثة ؟ لقد طرح هذا السؤال غير مرة، ويقال إن القصر هو الذى دبر هذه الثورة فى أعقاب القبض على نادر آغا أحد خدام القصر السلطانى، وتفيد هذه الرواية بأن السلطان قد سحب قبيل بضعة أيام مليونى ليرة من حسابه المودع فى أحد البنوك الأجنبية، ووزع ولده الأمير برهان الدين هذه الأموال على العصاة المتمردين.

أما الاعترافات التى أدلى بها أحد الأشخاص تحت وطأة التهديد فلا قيمة لها قط فى هذا السبيل، وثمة شهادة أخرى موثوق بها أدلى بها كل من سعيد باشا وكامل باشا تبرهن على أن عبد الحميد كان بمنأى عن حركة التمرد، إذ اعتلت صحته كثيراً، وأصبح يخشى انفجار هذا التمرد أكثر من خشية الناس أنفسهم"(١٦٥). "لم يكن عبد الحميد يمثل أى خطر قط على الدستور طوال الأيام التى حكم فيها بهذا الدستور"(١٦٦)، وهاهى ذى طائفة مما قصه عبد الحميد وكتبه بنفسه : "أنا لم أتدخل قط فى حادثة ٣١ مارس، حتى إننى لم أتطلع إلى تحقيق فائدة من هذه الفرصة السانحة، ولو كنت ضالعًا فى هذه الحادثة لحققت فائدة جمة، ولكننى لم أكن موجوداً فى قصر "بيلر بك" بل كنت فى قصر يلديز".(١٦٧)

---

(١٦٣) أوزون جارشيلى ، بعض الوثائق التى تدور حول خلع عبد الحميد وموته ، مجلة بله تن ، جـ١٠ ، عدد ٣٧-٤٠-١٩٤٦م ، ص ٧١٦ .

(١٦٤) مدحت سرت أوغلو: لماذا قتل جوهر آغا رئيس حسابات عبد الحميد؟ مجلة تاريخ الحياة ، ١٠ أكتوبر سنة ١٩٧٤م .

(١٦٥) هاسليب ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(١٦٦) Lancer ، ص ٤٩ .

(١٦٧) وداد عرفى ، ص ٣٨ .

وقد قص السلطان على مسامع ابنته عائشة ما يأتى

" لقد وقعت حادثة ٣١ مارس فى خاتمة المطاف، وأنا لم أخْط خطوة واحدة للاضطلاع بشىء فى هذا السبيل لكونى حاكماً شرعيا لهذه البلاد، فأنا لم أتقدم إلى الأمام ولم أرتد إلى الخلف، ولم يستطع بعض القادة دفعى إلى عمل أى شىء، فأنا مؤمن بالقضاء والقدر، وكله من عند الله.

ولو كنت أنا الذى تسببت فى وقوع حادثة ٣١ مارس لما شوهت سمعتى إلى هذا الحد، وكيف أعلم ما سيكون ؟ إن التاريخ سوف يجلى هذه الواقعة ويكشف عنها اللثام فى يوم من الأيام. ولهذا السبب فقلبى مطمئن مستريح. أى بنية ! أقسم بالله إننى لم أرد إراقة الدم ولا أن يحطم الجنود بعضهم بعضا من أجلى، وأفوض أمرى إلى الله فى أولئك الذين أرادوا أن يحملونى وزر هذه الحادثة".(١٦٨)

إن ثورة ٣١ مارس كانت فى أصلها وبإيجاز شديد مظاهرة، أو هى رد فعل للصراع على السلطة الذى تدور رحاه بين المؤيدين للألمان والإنجليز من جماعة تركيا الفتاة، ولو استطاع كلا الطرفين عزل عبد الحميد الذى يمثل الهدف المشترك لكليهما ، فإنه سيكون بمثابة مكسب إضافى لهما، أما تعللهم بطلب تطبيق الشريعة أو تحطيم الدستور أو إعادة الاستبداد فإنها جميعاً تعلات واهية وحجج داحضة.

---

(١٦٨) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٧٣ .

الفصل السابع عشر

السنوات الأخيرة للسلطان عبد الحميد وانتهاب الميراث الذى خلفه

نقل عبد الحميد إلى سلانيك

عزل عبد الحميد فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٩م، وكان قد أخبر اللجنة التى أبلغته قرار العزل برغبته فى قضاء الأيام الأخيرة من عمره فى قصر "جراغان"، وردت عليه اللجنة قائلة : سوف نجيبك بعد حين لأننا لسنا سلطة تنفيذية مختصة تستطيع النظر فى هذا القرار، ويرى غالب بك من خلال سطور مذكراته التى سطرها أن ثمة وفدا مكونا من ثلاثة أشخاص جاءوا إلى القصر فى مساء نفس يوم العزل، وهو وفد مكون من: غالب بك والفريق حسنى باشا و البكباش أركان حرب فتحى بك، وسرعان ما خاطب حسنى باشا السلطان عبد الحميد قائلاً له "سوف ننقلك إلى سلانيك"، وحينئذ صدر عن السلطان أول إصرار متصف بمضاء العزيمة حيث قال : "ماذا ! سلانيك ؟ لماذا ؟ إن هذا شيء عُجاب، سلانيك ! ماذا عساى أن أصنع فى سلانيك؟ أين أولادى وأسرتى ؟ لقد أمنتمونى على حياتى وأنا سأقيم فى قصر جراغان، ولسوف أقضى ما بقى من عمرى فى العبادة، ولن أنشغل بمشاغل الدنيا بعد اليوم. كيف أعددتم هذا فى منتصف الليل ؟ ولماذا سأذهب إلى سلانيك ؟(١)". ولما أصر حسنى باشا على قرار نفى السلطان إلى سلانيك أصر السلطان بدوره على عدم الذهاب إليها." وسأل قائلا، لماذا سلانيك،

---

(١) مذكرات غالب باشا ، مجلة تاريخ الحياة ، سبتمبر ١٩٦٦م ، عدد ٩ ، ص ٨٤ .

ماذا عساى أن أقول لكم ؟ أنا رجل عجوز مريض، وأريد قضاء أيامي الأخيرة في قصر "جراغان" الذي ولدت فيه ومات فيه أخي مراد، وهذا المكان لائق بي ويناسبني تمامًا، وإما أن تخلوا سبيلي وتطلقوا سراحي ولأذهبن من فوري إلى أوروبا[٢] "ولما أصرت لجنة العزل على نقله إلى سلانيك تشبث بالرفض قائلا : "أريد الموت هاهنا حيث قبر أجدادي. وإن رغبتكم في نقلي إلى سلانيك هو شيء مناقض للدستور ، كلا لن أذهب إلى سلانيك وافعلوا ما تريدون[٣]". تميزت اللجنة غيظا أمام إصرار عبد الحميد وعناده، ورد عليه فاتح بك قائلا : "إن الجيش سيتكفل بالمحافظة على حياتك وسيرعاك ويكلؤك بعين العناية والرعاية، فلا تضطرنا إلى استخدام القوة".[٤]

ولما أدركت اللجنة أن عبد الحميد غير راغب في الذهاب إلى سلانيك بسبب شدة قلقه على حياته، فإنهم هدأوا من روعه وطمأنوه على حياته، وبذل حسين باشا ما في وسعه كي يقنعه بالذهاب إلى سلانيك، ويقول في هذا الصدد : "أقسمت بالله لو أنه تردد قيد شعرة لما توانينا في الإقدام على قتله بالمسدس في العربة التي كنا نركبها معًا. أراد حسنى باشا أن يطمئن عبد الحميد على حياته أكثر وأكثر، وأحضر المصحف الشريف ووضع يده عليه وهم بالحلف عليه، ولكن عبد الحميد رأى أن هذا غير ضروري"[٥]، كان أمر جمعية الاتحاد والترقي الذي يقضي بنقل عبد الحميد إلى سلانيك جازمًا لا يقبل المناقشة، ولسوف ينقل عبد الحميد إلى سلانيك بكل تأكيد.

ولما أدرك عبد الحميد أن إصراره سيذهب سُدى ولا طائل من ورائه، رضي عبد الحميد بالذهاب إلى سلانيك ثم ترك قصر يلديز في منتصف الليل دون أن يأخذ معه فتيلا أو قمطريرا، ولم يصحب معه سوى بناته الثلاث وولديه وأربع جوار، وأربعة خدام من جناح الحريم وخمس فتيات خادمات وتسعة آخرين من الخدام[٦].

(٢) Lancer ، ص٦٤ – ٦٥ .
(٣) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٥٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .
(٥) أورزن جارشيلي ، حول عزل عبد الحميد الثاني وموته ، ص ٧٠٧ – ٧٠٨ .
(٦) Lancer ، ص ٦٥ .

كان على جواد رئيس كتبة عبد الحميد واقفًا على باب القصر فى وداع السلطان الذى قال له : "خفف الله عنك ما أنت فيه، لابد أن زفرة قلبى المكلوم سوف تصعد يومًا إلى عنان السماء"[٧]. وحينئذ اغرورقت عينا عبد الحميد بالبكاء، وشرع أفراد أسرته ومن فى معيته ينخرطون فى بكاء شديد.

ركب عبد الحميد ومن فى معيته السيارات التى جاءت بهم إلى محطة سكك حديد "سيركجة جى" وكان فى انتظارهم بقية من المنفيين المبعدين من قصر يلديز إلى حيث منفاهم فى سلانيك، ولما تحرك القطار أخذ يطلق صفارته وكأنه يعلن نهاية حقبة زمنية. كان الصمت العميق يلف هؤلاء المنفيين فى القطار، استمر هذا الصمت طويلا حتى قطعه عبد الحميد بقوله : "إنى متألم فى حزن شديد، ونحن ماضون فى رحلتنا دون أن نفكر فيما سيتعرض له الشباب والفتيات اللائى فى القصر من انتهاك واعتداء. أما أنا فلا قيمة لروحى.

لقد قدم أجدادى خدمات جليلة من أجل الوطن والأمة، لاقى كثير منهم فى سبيل ذلك كثيرًا من المصائب والملمات والعواقب الوخيمة، ولم يضعوا فى حسبانهم أية قيمة قط لأسرهم وعوائلهم.

كانت هناك طائفة كبيرة لا تدرى مدى الحالة السيئة التى سيئول إليها الوطن منذ إعلان الدستور. من الممكن أن أكون قد وقعت فى أخطاء دون إدراك وتمييز، فالله وحده هو المنزه عن الخطأ، وأنا بشر، وعلى يقين بأننى اضطلعت بخدمات جليلة للوطن".[٨]

حياة المنفيين فى سلانيك

لما قدم عبد الحميد إلى سلانيك أقام فى قصر تاجر من أصل يهودى يسمى "آلاتينى" Alatini ، وكان قبل ذلك من أعضاء جماعة الاتحاد والترقى[٩].

(٧) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٤٣ .

(٨) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٣٨ .

(٩) Pears ، حياة عبد الحميد ، ص ٣٢٣ .

وانظر معى إلى تصاريف القدر : لقد أطاح بعبد الحميد أولئك اليهود الذين شكلوا أعضاء تحالف معارضة ضد عبد الحميد، ثم أبلغوه بقرار خلعه. ونراه الآن قد أُجْبِرَ على الإقامة الجبرية ليقضى ما بقى من حياته سجينا فى منزل أحد اليهود، كان عبد الحميد يسأل نفسه دائمًا هذا السؤال : لماذا سلانيك ؟ ولماذا أجبروه على الإقامة فيها ؟

ثم هو فى النهاية يجد الإجابة عن هذا السؤال ويقول : "لأنهم لم يثقوا بإجراءات الأمن الكافية فى إستانبول، وكان هذا سببًا كافيًا لإصرارهم على اتخاذ سلانيك مستقرا ومقامًا لى، وكانوا يحكمون قبضتهم على هذه المنطقة، ويمكن أن يحدث انفجار جديد فيه ويكونون هم زعماء هذا الانفجار، ويمكن أن تحدوهم رغبة عارمة فى أن ينصبونى على العرش من جديد، نعم لقد وضعوا كل هذه الأفكار فى حُسبانهم، وهم يعلمون أننى سوف لا أكون السلطان الذى لن ينصبه على العرش الألمان أو الإنجليز"(١٠). لقد أطاح الألمان والإنجليز بالسلطان عبد الحميد عن طريق الخطط التى رسموها والمكائد التى حبكوها، وفى أعقاب ذلك تم نفيه إلى سلانيك على يد أعوانهم وأنصارهم. وحكم على عبد الحميد بأن يظل رهين الحبس فى قصر آلاتينى اليهودى.

وفرض حظر شديد على خروجه من القصر حتى إنه ضيق عليه الخناق داخل القصر ولم يؤذن له بالحركة إلا فى نطاق محدود، ولا يخرج إلى الحديقة إلا بإذن خاص، وأذن له بأن يغشى الحياة الخاصة ويخالط الناس. ولم يأذنوا لكاتبه على مُحسن باستكتاب مذكراته، واستولوا على كل ما دونه، ثم حبسوه فى بدروم القصر مما اضطره إلى تدوين مذكرات عبد الحميد بنفسه بطريقة خفية مستترة. كان الاتحاديون يخشون كتابة مذكراته، وفى اليوم التالى لخلع السلطان نقل ثلاثمائة صندوق مليئة بالأوراق من قصر يلديز بأمر من محمود شوكت باشا وتم إحراقها. وعند وفاة عبد الحميد أسرع أنور باشا إلى قصر" بيلربك" وجعل يفتش وينقب فى كل مكان، ونقل كل شىء يرتاب فيه(١١). لم تكن الصحف تدخل مؤكدا إلى قصر آلاتينى، وفى هذا يقول عبد الحميد

---

(١٠) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ١٢٦ .

(١١) جريس ، ص ٣٠٩ .

لابنته : "أرأيت يا ابنتى إنهم لا يقدمون لنا كتابا أو صحيفة، ويخفون عنا أحوال الدنيا وما يجرى فيها. بيد أننى أشعر مع الأسف أن رحيلنا من هنا لن يبشر بالخير، ولكن ما الفائدة التى تعود علينا من الاطلاع على أحوال الدنيا، إننى أرى الجهل بها أفضل". (١٢)

أما "قول آغاس راسم بك" الذى عين محافظا على سلانيك بدلا من محافظها السابق البكباش فتحى بك، فإنه يتحدث عن منع دخول الصحف إلى القصر فيقول : "حقًا إنه لم يؤذن بدخول الصحف والكتب المدون فيها الوقائع اليومية إلى القصر، مما جعل من هم داخل القصر على غير علم بما يدور خارجه وقد أخذنا حِذْرنا حتى لا تتسرب الأسرار إلى داخل القصر، وكنا يقظين بما لا احتمال فيه لتهريب لفافات من صحيفة "قازايان" Kazaen". (١٣)

شُغل عبد الحميد إبان إقامته بقصر "آلاتينى" بقراءة الروايات وممارسة حرفة التجارة وتربية الماشية بين الفينة والأخرى. (١٤)

وذات يوم صدرت من القصر جلبة وارتفعت قهقهات عالية ، فسأل عبد الحميد أيوجد فى الحديقة لهو وقصف وتسلية. أما راسم بك فقد اضطر إلى الرد على السلطان رغم أنه لم يكن راغبًا فى الحديث. وتقول عائشة ابنة السلطان : سأل أبى فى حيرة واندهش قائلا : من يا ترى يكون هذا الضيف الموجود؟ ثم جاء اليهودى "ساندينكس" Sandanisky على غير رغبة من راسم بك وقال : سوف تتناولون الطعام معنا. وعندما سأل أبى قائلا هل أصبح عدونا بالأمس صديقًا لنا اليوم؟ فرد راسم بك قائلاً : إنه الآن صديقنا، ثم ضحك أبى قائلا أنت تخدعنا يا راسم بك، إن ساندينكس ومن على شاكلته من الرجال صديق حميم للترك فى أى وقت من الأوقات، إنك يا راسم بك

---

(١٢) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٧٤ .

(١٣) مذكرات راسم بك ، قصر آلاتينى ، مجلة تاريخ الحياة ، ١ ديسمبر ١٩٦٦م ، عدد ١١، ص ٢٦ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

تعيش فى غفلة تامة، فأفق من غفوتك واملك زمام أمرك، وا أسفاه لقد سفكت هذه الجماعات الإرهابية اليهودية دماء الألوف المؤلفة من الترك، أتمنى يا راسم بك ألا نكون نادمين على هذا، ثم أردف أبى قائلا : "أنا الآن رجل معزول، إن الوليمة العامرة التى قدمت لأعداء الترك على شرف مصيبتى ونكبتى كانت بالنسبة لى أشد ألما ومرارة، وأنا حزين مبتئس". وبعد أن سمع راسم بك هذه الكلمات نظر أمامه ثم خرج. وأشد ما جذب انتباهنا أنه لم يكن ثمة أثر للفرحة الطاغية فى الحديقة(١٥).

وضع اليد على ثروة عبد الحميد الثانى

من المعلوم أن عبد الحميد كان معروفًا منذ أن كان واليا للعهد بحبه الشديد للتدبير والاقتصاد وعدم الجنوح للتبذير والإسراف، فهو يكسب المال بمجهوده الشخصى وحنكته الاقتصادية، وما لبث أن أصبح صاحب ثروة عظيمة تسمى الخزينة الخاصة، ويتكون أساس هذه الثروة من الامتيازات التجارية والمجوهرات والسندات والأموال النقدية السائلة. كانت هذه الامتيازات جميعها قد تكونت إبان سلطنة عبد الحميد سواء منها ما يخص الخزانة الخاصة أو ما أخذ من وزارة المالية إلى الخزانة الخاصة وما تم جمعه من تجارة السفن والمعادن والترام، ثم أعاد السلطان كل هذه الأموال إلى خزانة الدولة فى أعقاب إعلان الدستور فى سبتمبر سنة ١٩٠٨م(١٦).

أما المجوهرات والأوراق النقدية الثمينة القيمة فقد أخذت بالقوة من يده بعد خلعه، كانت هذه واحدة من إجراءات التعسف والظلم المبين الذى مارسته جماعة الاتحاد والترقى على عبد الحميد.

فاغتصاب ثروته هو شيء مناقض لقانون الملكية الشخصية التى تكفلها القوانين. تم وضع اليد على جميع المجوهرات فى أعقاب خلع عبد الحميد ثم نقلت بعد ذلك إلى

(١٥) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٧١ .

(١٦) أورون جارشيلى ، حول خلع عبد الحميد ووفاته ، ص ٧١٥ .

الخزانة العامة أى البنك العثمانى على سبيل الأمانة، وبعد ذلك جمعت المجوهرات والأوسمة والنياشين المرصعة بالجواهر والأحجار الثمينة وغيرها من الهدايا ذات القيمة التاريخية والقومية حيث وضعت جميعها تحت مسئولية الحكومة ومراقبتها تمهيداً لبيعها، ثم بعد حين أصدر قانون يقضى بإيداع هذه الأشياء فيما يعرف باسم جمعية التبرعات القومية للأسطول العثمانى".(١٧)

ثم ألحقت فقرة إلى القانون السالف ذكره تقضى "بأن تُقوَّم مقتنيات قصر يلديز توطئة للبيع فى مزاد علنى بأوروبا، أما الأموال النقدية والسندات فقد تم وضع اليد عليها أثناء نفى السلطان إلى سلانيك، وكان مُصرا على عدم التنازل عنها، كان عبد الحميد قد خصص هذه الأموال لتعليم أولاده وتزويجهم، وتشبث برأيه قائلا : "لهذا السبب لن أعطيهم المال الموجود فى البنك".(١٨)

ولما أصر الاتحاديون على أخذ هذه الأموال أصر هو على الرفض، وفى النهاية لجأ عبد الحميد إلى الحكومة والبرلمان ولكنه لم يتلق ردا إيجابيا على طلبه، ثم وافق على تقديم هذا المال بعد ممارسة ضغط شديد عليه، ولكنه لم يرد تقديم المال دون مقابل. وفى ٢٢ يونيو سنة ١٩٠٩م قدم عبد الحميد التماساً بعث به إلى إستانبول مخاطبا فيه الدولة والأمة ومجلس المبعوثان والجند وأعلن فيه استعداده لتسليم المال شريطة إنفاقه على الشئون العسكرية وتلبية الطلبات الآتية :

(١) يخرج ولدى عبد الرحيم أفندى من سلانيك ويأتى إلى إستانبول من أجل تحصيل العلم، ويأتى إخوته السلاطين الثلاثة الآخرون إلى إستانبول كى يتزوجوا.

(٢) منح الحرية للعبيد الذين هم فى معية عبد الرحيم أفندى.

(٣) يخصص للسلطان مخصصات ونفقات كافية، ويتم بيع قصر آلا تانى.

(٤) يتم توفير الراحة التامة للسلطان حتى وفاته ويتعهد الجيش بحمايته".(١٨)

---

(١٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٨) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٧٥ .

(١٩) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٢١٧٧ أوزون جارشيلى ، ص ٧٢٠ .

ولما قبل عبد الحميد شروط التسليم تم على الفور نقل سندات الأموال من بنوك ألمانيا وإستانبول وسلم إلى الاتحاديين كل شيء قبيل التوقيع على الشروط في قصر آلاتاني." كانت الأوراق النقدية الموجودة في البنك العثماني تقدر بنحو ثلاثة عشر ألف وسبعمائة ألف قطعة ذهبية عثمانية، ويوجد في بنك "دوباجة" الألماني ما مقداره أربع عشرة حقيبة (أو ست حقائب كما تروي عائشة ابنة السلطان) سلمت بواسطة موظفي البنك في حضور القنصل الألماني.

وتحتوي هذه الحقائب على ١٦٤٩٣ كمبيالة تجارية تخص سكك حديد الأناضول و٣٠٠٠ سند مالي تخص ميناء سلانيك، والودائع ٥٢٤٣١ عملة ذهبية عثمانية[٢٠].

ويقول المحافظ راسم بك إن يد عبد الحميد كانت ترتعش وهو يوقع قرار التسليم[٢١].

وقالت ابنته عقب التسليم : "كان أبي يعتصره الحزن والألم على حال أولاده، وندم على تقديم هذه الأموال إلى البنك بدلا من تقسيمها على أبنائه ونسائه".[٢٢]

تقويم التمرد الذي قام به الأرناءوط سنة ١٩١٠م

كانت لجماعة تركيا الفتاة صفة مميزة، فهم يناضلون ضد عبد الحميد سنين عددا، وتغلغلت عداوتهم للسلطان حتى بلغت أرواحهم، وفي ظل هذا المناخ سيطرت عليهم فكرة وهمية ثانية شديدة الخطورة، حتى إنهم كانوا يقولون:" إذا فعلنا عكس ما يفعله عبد الحميد فلسوف نجد الطريق المستقيم". هكذا استمسك الاتحاديون بهذه الطريقة في إدارة شئون الدولة، وشرعوا من فورهم في تعطيل وإفساد الموازين الحساسة التي أسسها عبد الحميد، وأخذت الدولة والمجتمع كلاهما يدوران بسرعة

---

(٢٠) أورخان جارشيلي ، حول عبد الحميد وموته ، ص ٧١٣ .
(٢١) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٧٧ .
(٢٢) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٧٦ .

حول محور التعب والقلق واللغوب، واشتعلت الشرارة في الأرناءوط، ولنقرأ في هذا الصدد طرفا من اعترافات جماعة تركيا الفتاة أنفسهم، ففي الأيام التي أعقبت إعلان الدستور كانت جماعة الاتحاد والترقي تحذر من الأرناءوط إلى أقصى درجة ممكنة، ولكن كيف نسيت الحكومة بسرعة هؤلاء الأرناءوط الذين تعتمد عليهم حيث أهملتهم إهمالا شديدا، ثم أقدمت على سحقهم بواسطة الجيش(٢٣).

لقد كان هذا خطأ جسيما جر علينا كثيراً من المصائب والنكبات؛ لأن البلقان كانت حُبلى بالحروب بسبب مقدونيا، وأستطيع أن أصفح عن هذا الخطأ من ناحية شعوري وأفكاري ولا أستطيع أن أراه وأغض طرفي عنه.

فثمة ضرب من ضروب الحكم يناسب عبد الحميد ويسعده، وهذا النوع من الحكم قد حال دون تطور الأفكار السيئة المضرة التي راجت بين ظهراني جماعة الاتحاد والترقي، فهم يحملون على عواتقهم عبء هذا الحكم الدستوري المشروع، ومن ثم فإنهم تصرفوا بإهمال في هذه المسألة، وقبيل إعلان الدستور استطاع الولاة والقادة في كل من "قصوة وإيشن قودرة" أن يصنعوا لأنفسهم اسماً تاريخياً موجودا في الصفوف الأولى بين رجالات الدولة العثمانية، واختير هؤلاء من بين الأشخاص ذوي عراقة النسب وكرم الأصل والأرومة، ومن هؤلاء : أحمد أيوب ومصطفى عاصم وحافظ باشا وغيرهم من ذوي الفكر الحر الذين أكرهوا عبد الحميد نفسه من أجل تعيين والٍ وزعيم على الأرناءوط، ولم يذهب سعيهم سُدى، وفي أعقاب الدستور أُرسل مظهر باشا وخليل باشا ليحلا محل حافظ باشا، ولكنهما لم يحظيا بقبول حسن في عين الأرناءوط، أما الكثرة التي جاءت في أعقاب هؤلاء فكانوا في أول أمرهم من كتَّاب الرسائل والمفتشين والكتبة، ويتكونون عادة من موظفي وزارة العدل، وهم جميعاً أشخاص معروفون مشهورون.(٢٤)

---

(٢٣) دفع وزير الحربية محمود شوكت باشا باثنتين وثمانين كتيبة عسكرية لسحق تمرد الأرناءوط في شهر أبريل سنة ١٩١٠م .

(٢٤) أوزر ، ص ٩٨ - ٩٩ .

كان الاتحاديون الذين استأصلوا شأفة عبد الحميد من أجل الأرناءوط يرون أن هذه هى أفضل وسيلة يمكنهم الاستحواذ عليها من أجل القضاء على الحكم الخاص لعبد الحميد، وعندما بدأ تطبيق الدستور حزن الأرناءوط ورفعوا راية التمرد والعصيان. كان عبد الحميد عارفًا بالقلاقل المثارة فى الأرناءوط، ويقول فى هذا الصدد للمحافظ فتحى بك : "أنا غير مندهش من الدول الأجنبية التى تحرض الأرناءوط ضد الدولة العثمانية، إنهم يفعلون هذا من أجل مصالحهم الشخصية.

وماذا يعنى ما نفعله نحن من أجلكم ؟ لقد انتهجنا سياسة خاطئة ضد هؤلاء الأرناءوط، ولسوف نجدهم يتمردون فى القريب العاجل ضد الدولة ويرفعون راية التمرد والعصيان، فإما أن تخلعوا مظهر بك من الولاية، وإما أن تنتظروا تمرد الأرناءوط وعصيانهم".(٢٥)

وقد قال عبد الحميد لفاتح بك إننا مضطرون إلى تطبيق سياسة خاصة حتى يتسنى لنا الاستحواذ على أماكن مثل الأرناءوط والحجاز واليمن(٢٦).

أما" تحسين أوزر" فقد وافق على سياسة عبد الحميد، ويقول فى هذا السياق : "إن المساواة هى مبدأ أساسى من مبادئ الدستور، ومن ثم فإن من الخطأ الجسيم أن يحكم ثمانون ألف إنسان على قدم المساواة فى إمبراطورية تمتد من خليج البصرة حتى النمسا، ومن حدود النمسا حتى منطقة طاشليجة".(٢٧)

ويناقش عبد الحميد هذه المسألة فى مذكراته حيث ينقد الدستور وجماعة تركيا الفتاة من هذه الزاوية فيقول : "إذا كان يوجد فى مقاطعاتنا الصغيرة ما يربو على خمسين فى المائة من غير المسلمين، فإن العدالة تفرض علينا اختيار القائمقام والموظفين فى هذه المناطق من غير المسلمين، أما فى الهند الكبيرة التى يبلغ عدد

---

(٢٥) أوق يار ، ص ١٢٥ .

(٢٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢٧) أوزر ، ص ٩٨ .

سكانها مائتين وخمسين مليونا فإنه لم يدر بخلد إنجلترا أن تفكر فى تعيين عضو برلمان هندى واحد فى البرلمان الهندى، لقد نظرت إنجلترا إلى الدستور وظلت مذهولة مدهوشة، ولكنها لم تنظر إلى ذلك الذى سوف يستخدم الدستور، إنهم يريدون كتابة هذه الأفكار الجاهلة فى الصحف من أجل تحطيم الأمة وقلبها رأسًا على عقب، ولن أتركهم ليفعلوا ما يريدون، ولقد هاجمونى فى تلك الآونة قائلين إننى ظالم".(٢٨)

أصر عبد الحميد على إعلان الدستور بسبب همومه وقلقه الذى أشرنا إليه آنفا، وكان يقول لفتحى بك فى سلانيك : "لم يُلْغ القانون الأساسى الذى صدر سنة ١٨٧٦، ولكن أجلت تطبيق بعض مواده بسبب الحرب الروسية فى الاجتماع الذى عقده مجلس المبعوثان فى تلك الآونة، وسوف تتجلى هذه الأسباب فى وقت من الأوقات.

لم يكن وجود الدستور فى الأصل وجودًا سريًا، وإذا لم تكن هناك ظروف تسمح بتطبيقه على أرض الواقع، فإننى كنت أتوقع من وراء ذلك إمكان حدوث فوضى عارمة واضطراب عظيم يعم البلاد طولها وعرضها، ولكنهم أصروا بعناد على طلب الدستور، ولما لاح فى الأفق أن الأمة سوف تغرق فى حمامات الدماء أُلغى الدستور، وأصدرت أمرًا بذلك مُرْجئا صدوره بعض الوقت، ولسوف نتابع الآن مجريات الأحداث جميعها".(٢٩)

"سرعان ما بدأت الأحداث تلوح نذُرها فى الأفق، وظهر أول صدع فى جسد الدستور فى الأرناءوط، ويتحدث عبد الحميد إلى فاتح بك عن كفاءة جماعة تركيا الفتاة ومقدرتهم فى إدارتهم لدفة أمور الحكم والإدارة قائلا : "إنهم لا يزالون أغرارا غير محنكين، تنقصهم الخبرة والدراية الكافية، فكيف يتسنى لهم قبول هذه المسئولية وتحمل إدارة شئون دولة عظيمة مثل الدولة العثمانية، إنها ولا ريب جرأة ومغامرة".(٣٠)

---

(٢٨) دفتر مذكرات عبد الحميد، ص ١٠٥ .

(٢٩) أوق يار ، ص ٢٥ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

كان عبد الحميد على يقين جازم بما يتصل بجماعة تركيا الفتاة وصدع برأيه فيهم قائلا: "إنهم جميعا جماعات سرية من الروملى، فطرائقهم وأساليبهم تتسم بالغلظة والفظاظة، يتمتعون بخيالات واسعة رحبة الآفاق، أفعالهم وأعمالهم شديدة الضرر على الوطن بأسره، وأخشى ما أخشاه أن تئول الأمور إلى أيديهم ويمسكون بمقدرات الدولة ويُغرقون الإمبراطورية العثمانية فى بحر لجى[٣١]"، وسرعان ما آلت إليهم الأمور وأغرقوا الأمة وتحقق ما تنبأ به عبد الحميد.

شرح وتفسير للحرب التركية الإيطالية سنة ١٩١١

عندما أعلم راسم بك السلطان عبد الحميد بنبأ نشوب الحرب التركية الإيطالية استقبل السلطان الخبر بدهشة بالغة وانذهال عظيم، ثم أردف قائلا : "لو كنت فى السلطة ما نشبت هذه الحروب ألبتة".[٣٢]

لا جرم أن عبد الحميد لو كان فى سدة العرش لما تجرأ الإيطاليون على شن هجومهم والاعتداء على طرابلس الغرب، فقد اتخذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة، ولما ألغى الاتحاديون الإجراءات التى فرضها السلطان ضاعت من يدهم طرابلس الغرب وفقدوها.

"لما كانت قواتنا البحرية لا سبيل إلى مقارنتها بالأسطول الإيطالى، فإنه قد جرت محاولات لتقوية وإحكام كل من طرابلس وبنغازى عن طريق البر، وكانت توجد كذلك ما يسمى بقوات الميليشيا المحلية المعروفة باسم "قول أوغوللر"، وكانت مُدْرجة ضمن القوة العسكرية المتمركزة هناك، وتحصنت هذه الميليشيات فى النقاط الضرورية، وقامت كذلك بتعضيد القوات المدافعة وتزويدها بالسلاح والعتاد.

---

(٣١) طانسو ، ص ١٥ .

(٣٢) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٩٩ .

وإذا نظرنا في مئات الوثائق المدونة التي تابعت من كثب كل ما يتصل بهذه الإجراءات والتدابير التي دامت سنوات طويلة فإننا نسلم بنظرة عادلة بأن حماية هاتين المنطقتين "طرابلس وبنغازي" كان من آثار جهود عبد الحميد وعزيمته القوية الخالصة، وسرعان ما انفرط عقد هذه الميليشيات وألغيت في أعقاب خلع عبد الحميد، ثم نقلت هذه القوة العسكرية في معية أسلحتها وذخيرتها إلى مكان آخر.

انتهز الإيطاليون الفرصة وتجرأوا على ضم هاتين المنطقتين عقب ثورة الاتحاديين في سنة ١٩٠٨م، كما فعلت النمسا من قبل وقامت بضم البوسنة والهرسك إليها، وقد استفاد الإيطاليون كذلك من إهمال الصدر الأعظم حقي باشا وتراخيه، وقد تعللت إيطاليا بشن حربها قائلة إن الحكومة العثمانية تناصب الرعايا الإيطاليين العداوة وتضمر لهم البغضاء، وهي علة متوهمة لا حقيقة لها.

ثم ما لبثت إيطاليا أن وجهت إنذارها الأخير واستولت على طرابلس الغرب وبنغازي، ولو تمت المحافظة على الإجراءات والتدابير التي فرضها السلطان عبد الحميد لما استولى الإيطاليون على هاتين المنطقتين ولما اشتركتا في الحرب العالمية الأولى(٣٣)، وهاهو ذا "أحمد بدوي قوران" يكتب عن الأعمال الصالحات للسلطان عبد الحميد، وينوه كذلك بالآثام التي اقترفها الاتحاديون بشأن مسألة طرابلس الغرب، ويقول في هذا الصدد : "كان عبد الحميد يعي تماماً مطامع الإيطاليين فيّ هاتين المنطقتين، ومن ثم فقد كان يقظا دائمًا آخذا حِذْره ضد الإيطاليين، ولم يفسح لهم المجال للاعتداء عليهما. أما حكومات الدستور فإنها سلكت سلوكًا متسماً بعدم الاكتراث واللامبالاة تجاه هاتين المنطقتين وأخفقت في ديمومة السياسة التي اتبعها السلطان".(٣٤)

ولما هاجم الإيطاليون طرابلس الغرب أصاب أنور باشا وفاتح باشا كليهما انفعال عاطفي شديد وسوْرة حُميا، مثلهم في ذلك مثل الوجهاء البارزين من الاتحاديين الذين أسرعوا جميعا نحو طرابلس الغرب تحدوهم رغبة عارمة وشوق جارف للدفاع عن

---

(٣٣) رشيد راي ، ص ٣٣ .

(٣٤) قوران ، في الإمبراطورية العثمانية ، ص ٥٤٤ .

الوطن والأمة، بيد أن جهودهم ذهبت سُدى، فقد عجزوا جميعا عن الوصول إلى نتيجة بسبب عدم وجود تأثير للتدابير والإجراءات المؤثرة القوية التى اتخذها عبد الحميد من قبل، وفى مناخ هذا اليأس والقنوط يُسر عبد الحميد إلى النقيب ذى النون ببعض خواطره قائلا له:" يا نقيبى العزيز، لقد تحدثنا عن هذه العاقبة الوخيمة قبل حين، والآن تخفق قلوب الاتحاديين هلعًا وفزعا، هذا شىء جميل ولكنها حمية غير ذات جدوى ولا طائل من ورائها(٣٥)، وفى نهاية الحرب ضاع ميراث عبد الحميد فى طرابلس الغرب وبنغازى على يد ثلة من الأطفال الأغرار غير المحنكين، وضم الإيطاليون إليهم كذلك اثنتى عشرة جزيرة فى بحر إيجه، وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ آلت هذه الجزيرة رسميا إلى إيطاليا بموجب معاهدة "أوشى".

رصاصة أُطلقت على عبد الحميد

أطلق هذه الرصاصة شخص يدعى"سليم الكردى" من أجل قتل عبد الحميد، وكان هذا الرجل يعمل ضمن الجند المكلفين بحماية عبد الحميد فى سلانيك، ويروى عبد الحميد هذه الحادثة بنفسة قائلا : "عندما خرجت إلى الشرفة لاستنشاق الهواء أطلقت يد النار علىَّ ومرت قذيفة على بعد سنتيمترات قليلة من رأسى ورأيت أحد ضباط الحراسة يدعى "سليم الكردى" مختفيا بين أشجار نبات الغار(٣٦) الموجودة فى الحديقة حتى إنه كان يترقب فى دهشة وخوف من الهدف المقصود الذى لم يزل حيا، وقبض عليه وتم استجوابه عن سبب سلوكه فأجاب قائلا : "حتى نتخلص منه جميعا"، إنه قد تخلص بصنيعه هذا من دينه على : فأنا أعرف سليم الكردى جيدا، فهو سليل عائلة كريمة المجد هادئة لينة الجانب يسهل التفاهم معها، وكان يحلم بأن يكون ضابطًا ولا وجود فى المنطقة التى يعيش فيها لأى إنسان يقدر على مساعدته لتحقيق هذا الحلم

---

(٣٥) أرتوك ، ص ٧٦ .

(٣٦) هو نبات يزرع فى الحدائق ، ويعرف فى التركية باسم "Defne" شجرته صغيرة ، ويستخدم للزينة ، ذو زهرة صفراء مفتوحة ، ورائحة زكية وأوراقه حادة مدببة (المترجم) .

الذى يراوده، ولما علم السلطان بأمره أسرع فكتب رسالة إلى مدرسة" كولة لى العسكرية" وتبرع له بنفقات دراسته فيها".[٣٧]

وتكتب ابنته عائشة ما يتصل بهذه الحادثة آنفة الذكر فتقول : "فى العاشرة والنصف من صباح أحد الأيام خرج أبى قبيل تناول الطعام ليطوف فى الشرفة بعض الوقت لاستنشاق الهواء فإذا بى أسمع صوت انفجار مسدس أسفل الشرفة فأصابنى الهلع وجريت من فورى كالمجنونة على السلم وأنا أصرخ، ثم نزلت إلى أسفل، وكان أبى هو أول شىء تمسه عينى فوجدته واقفا على قدميه أمام باب الشرفة فى معية أمى، وهو يشرح كل ما حدث لكل من صالحة هانم وناجية هانم. وأقبلنا جميعا نحو الشرفة فى معية بناته ونسائه الأخريات.

لقد أطلق سليم الرصاص علينا واختفى وراء هذه الجهة المقابلة لنا، ورأيته بعينى رأسى، ولما صحت عليه قائلة اخرج، نهض واقفًا على قدميه قبل أن يضغط على الرصاصة الثانية، وعندما سألوه لم فعلت فعلتك؟ فرد رد قائلا : "كى أتخلص منكم جميعًا"[٣٨].

ثم تعدد عائشة عثمان أوغلو الأنعم التى أسبغها أبوها على سليم الكردى، ثم تقول : "لا جرم أن هذا هو خطأ أبى، فكلما أنعم على إنسان، فإنه سرعان ما يقلب له ظهر المجن ويقابل الحسنة بالسيئة".[٣٩]

أبعد سليم الكردى من قصر آلاتينى عقب تورطه فى إطلاق الرصاص على عبد الحميد، ويكتب راسم بك طرفا مما يتصل بهذه الواقعة، وكان يعمل ضمن ضباط الحرس الخاص المكلف بحماية عبد الحميد، ويروى هذا فى مذكراته فيقول : "كان هناك صديق يسمى" طوبجى سالم بك" يعمل ضمن قوات الحرس، وأخذ يتجول ذات يوم فى الحديقة الخلفية للقصر، ولم يكد يلمح عبد الحميد يتجول فى جنبات الشرفة حتى أخرج

---

(٣٧) جريس ، ص ٣١٨ .

(٣٨) عائشة عثمان أوغلو ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

مسدسه ولم يتمالك نفسه وأسرع بإطلاق النار تجاه عبد الحميد، فمن يدرى أى ريح هبت على عقله حتى ضيعته فى تلك اللحظة، وقد أخجلت حادثة الطبنجة عبد الحميد، فهذا شيء لا يوثق به(٤٠)".

وحرى بالذكر أن الشعب التركى كان يحب عبد الحميد حبا جما، وينادونه بلقب "بابا حامد"، وبينما كان السلطان يتعهد برعاية هذا الشاب ويكلؤه بعين الشفقة والرحمة إذ بهذا الشاب المتعلم الغريب يسعى ليقتله برصاصة طائشة.

رد الفعل على قانون الكنائس والمدارس

كانت هناك أطراف ثلاثة من الخصوم تتصارع مع بعضها البعض داخل أتون المسألة المقدونية، وكانت الكنائس والمدارس الموجودة فى مقدونيا إحدى قضايا الصراع الذى اشتعل أواره بين هذه الطوائف، فلمن تكون هذه المساجد والمدارس، وإلى أية طائفة تئول ملكيتها؟ ولهذا السبب فإنهم لم يقسموها فيما بينهم، وأخذوا يأكلون بعضهم بعضا.

واستفاد عبد الحميد كذلك من هذا الصراع حتى إنه كان يحرض عليه، ولو أن هذه المسألة وجدت سبيلها إلى الحل لتسنى لهذه العناصر الثلاثة أن تتحد فيما بينها ولتمكنت من الاعتداء على الدولة العثمانية.

ولما علم عبد الحميد من فاتح بك الحلول التى وضعها الاتحاديون لحل هذه المشكلة عن طريق إصدارهم ما يعرف بقانون الكنائس والمدارس أخذ رأسه بين راحتى يديه وقال : "أواه ! انتظر الآن اتحاد البلغار واليونانيين معًا، وسرعان ما يشنون غاراتهم علينا، لقد عملت طوال ثلاثين سنة كى أحول دون هذا الاتحاد فيما بينهم بكل ما استطعت إليه سبيلا".(٤١)

---

(٤٠) مذكرات راسم بك ، قصر آلاتنى ، مجلة تاريخ الحياة ، ١ ديسمبر ١٩٦٦م ، عدد ٢ ، ص ٢٩ .
(٤١) أوق يار ، ص ١٤٢ .

لم يستوعب الاتحاديون الدروس من الماضي ولم يستخلصوا العبر من مجريات الأحداث، وهاهم أولاء مستمرون فيفعلون خلاف ما كان يصنع عبد الحميد، وعندما تتعقد الأمور وتستعصى على الحل بسبب ما فعلوه، فإنهم يسارعون إلى الأسف والندم قائلين : "لقد أخطأنا" ومع إعلان الدستور أسرعت جماعة الاتحاد والترقى إلى تشكيل لجنة ترمى إلى حل الخلافات، وطلبوا إلى هذه اللجنة إعداد مشروع قانون الكنائس والمدارس مقرونا بمشروع قانون الكنائس المكون من أربعة قادة، وقدم إلى حسين حلمى باشا، ولقد أخطأ الاتحاديون بتصرفهم هذا، لأن البلغار والروم سرعان ما عقدوا بينهم اتحاداً قويا نابذين العداوة والبغضاء وراء ظهورهم".(٤٢)

ورغم أن عبد الحميد الثانى بات سلطانا مخلوعًا متحطمًا مجروح المشاعر مقطوع الرجاء، فإنه لم يتوان لحظة واحدة إبان وجوده فى سلانيك فى التفكير مليا فى سلامة الوطن والأمة كليهما.

وكان يطلب إلى حارسه فاتح بك توصيل هذه النصائح إلى القائمين على شئون البلاد : "قد نصحت فاتح بك آخر نصيحة من أجل أن أكرر على مسامعه القدرات المؤثرة الفعالة للعصر الحاضر، وقلت له احتفظ بالجيش بعيدا خارج مضمار السياسة مهما كان الثمن".(٤٣)

كأن عبد الحميد كان يرى المستقبل عن طريق حسه العميق وبصيرته القوية النافذة، وما قاله بشأن تطهير الجيش من أمور السياسة وعدم تدخله فيها لم يكن عبثا أو لغوا، لأن المصيبة التى حلت به قد مهد الجيش السبيل إليها وكان ضالعًا فيها ، أما النكبة الثانية التى حاقت بالأمة بسبب الجيش فكانت خسارة حرب البلقان سنة ١٩١٢م.

وإن تدخل الجيش فى شئون البلاد على هذا النحو السيىء قد أضر كثيرا بالدولة، لاسيما تدخله السافر فى الأمور السياسية، ولنقرأ طرفا من هذه النصائح من خلال

---

(٤٢) أوزر ، ص ١١٦ .

(٤٣) جريس ، ص ٣١٨ .

مذكرات فاتح بك الذى يقول : "كانت الطامة الكبرى فى حرب البلقان إذ أقحم الجيش نفسه فى السياسة وغرق فيها حتى أذنيه. وكلما جالت بخاطرى هذه الذكريات الأليمة شعرت بغصة وألم شديد، وإن الأحداث التى وقعت فى هذه الحرب تقشعر منها الجلود ويشيب لها الولدان.

كان شكل قبعات بعض الضباط تبدو وكأنهم موالون للاتحاديين، والبعض الآخر يبدو وكأنه تابع للائتلافيين من أنصار الحرية وفرقة الائتلاف".(٤٤)

ونجم عن هذا صعوبة تطبيق الأوامر العسكرية على هذين الفريقين المتنازعين، حتى مُنيت الدولة العثمانية فى نهاية الأمر بهزيمة نكراء، وكانت سلانيك على وشك السقوط فى يد اليونانيين، فماذا ستكون يا ترى حالة عبد الحميد الذى يعيش حياة النفى هاهنا؟

نقل عبد الحميد إلى إستانبول

نسيت الحكومة والقصر والاتحاديون جميعًا كل شىء فى غمرة الارتباك والاضطراب الذى أصابهم بعد خسارة الحرب، أما عبد الحميد الموجود فى سلانيك فلم يخطر ببال أحد قط، وكانت ألمانيا هى أول دولة تريد تهريب عبد الحميد قبيل سقوط سلانيك فى يد اليونانيين، ولننظر إلى تصاريف القدر وصروف الحدثان: لقد اضطلع الألمان بنفى عبد الحميد إلى سلانيك بإيعاز خفى من الاتحاديين، والآن تريد ألمانيا إعادته مرة أخرى إلى إستانبول، ونحن نعلم أسباب النفى : "ماذا عسى أن يكون سبب التهريب ؟ "فلنطلع على سبب هذا من خلال مذكرات فاتح أوق يار الذى يقول : "لقد اتخذ قرار نقل عبد الحميد إلى إستانبول فى أعقاب تحذير وجهه السفير الألمانى إلى القصر، ورغم أواصر الصداقة الوطيدة التى تربط بين الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى

(٤٤) أوق يار ، ص ١٥٦ .

والسلطان عبد الحميد، فإن الأول قد عقد وشائج صلة أشد قوة وصلابة مع الاتحاديين حيث بدأ فى تنفيذ سياسته نحو الشرق فى سهولة ويسر.

فإذا ما آلت سلانيك إلى يد اليونانيين قبل أن يغادرها السلطان عبد الحميد فإن إنجلترا ستكون هى صاحبة الكلمة فى التأثير على أثينا، وحينئذ ستتمكن من استخدام السلطان السابق المخلوع ليكون بمثابة أداة تهديد قوية على سياسة الدولة العثمانية، أما إنجلترا وألمانيا فكان بينهما صراع ومنافسة أساسية فى سبيل سعى كلتيهما إلى الالتفاف حول سياسة الدولة العثمانية وسد الطريق عليها من كل جانب".(٤٥)

وهكذا نرى أن حياة المنفى لعبد الحميد قد أصبحت موضوع منافسة ومساومة بين الدول الكبرى، وما لبث العرض الذى اقترحه السفير الألمانى أن حرك همة القصر والحكومة، وكان تقدم الجيش اليونانى نحو سلانيك مستمراً، ولم يتبق من الطريق سوى مسافة عشر ساعات سيرا على الأقدام.

وأرسلت على الفور برقية مشفرة من إستانبول إلى والى سلانيك، وخرجت باخرة تسمى" لورليا" مؤمنة من السفارة الألمانية لنقل عبد الحميد من سلانيك، واضطرب عبد الحميد للموقف، وطلب إليه الاستعداد الفورى للعودة إلى إستانبول، وصلت البرقية فى الساعات المتأخرة من الليل، وكان الموقف شديد الحرج، واتخذ قرار بتبليغ الإدارة السنية دون انتظار الصباح، وأسرع راسم بك ودق الباب وأيقظ عبد الحميد من نومه فارتبك من فوره وسأله قائلاً: ماذا جرى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ولنقرأ ما حدث بعد ذلك من خلال مذكرات راسم بك الذى يقول : "أنا قادم الآن من عند رضا باشا قائد الجيش الغربى، وأنا موكل بإبلاغ أمر سلطانى بعودتكم أنتم ومن فى معيتكم إلى إستانبول، وأن حضرة الباشا قائد الجيش يرجوكم الاستعداد للعودة دون تضييع للوقت، وحينئذ قال السلطان: "لماذا يا راسم بك" ؟ فرد عليه قائلا: إن من المحتمل أن تقوم قوات العدو فى القريب العاجل بقطع الطريق الواصل بين سلانيك دده آغاج وإستانبول،

(٤٥) أوق يار ، ص ١٦٠ .

قال عبد الحميد أى أعداء تعني؟ فرد راسم بك قائلا : "جيوش بلغاريا واليونان"، قال السلطان: ما المناسبة ؟ رد راسم بك: لأننا نخوض حربا معهم الآن، قال السلطان: أواه ! أنخوض حربا مع اليونانيين والبلغار؟ قال راسم بك: حتى مع الصرب وسكان الجبل الأسود، قال السلطان: أواه، هذا يعنى أننا نخوض حربا مع جميع دول البلقان، أعطونى الآن آخر بندقية فإننى سأحارب، فإما أن تكون موتتى هاهنا وإلا فلا خرجت روحى ألبتة[٤٦]". استمرت المناقشة بين راسم بك والسلطان عشرين دقيقة كاملة، ورفض عبد الحميد مغادرة سلانيك، وأصبح الصباح وإقناع عبد الحميد مستمر، وشارك فى هذا الإقناع كل من محيى الدين باشا قائد الموقع ورضا باشا قائد الجيش الغربى، وأصر عبد الحميد على رفض طلباتهم ونقله من سلانيك، وقال لرضا باشا : "لقد أصبحت حياتى هاهنا مرهونة بمصير هذا الشعب، وأريد البقاء معهم مهما كان الأمر، وليس فى نيتى الذهاب إلى مكان آخر".[٤٧]

ثم انصرف محيى الدين ورضا باشا كلاهما، ونادى السلطان راسم بك وقال له:" يقولون إن هناك حربا دائرة، ولربما كان هذا صحيحا".[٤٨]

وكلما رأيت قدرات الجيش فى الأوقات الأخيرة كان يداخلنى شعور بأن شيئا ما سيحدث، بيد أن هناك شيئا لم يصدقه عقلى، هذا الشىء هو التحالف التام بين دول البلقان وخوضهم الحرب ضدنا، فأنا لا أصدق أن ثمة تحالفا بين البلغار واليونانيين، كيف يكون هذا؟ وهب أن التحالف صحيح أهناك ضرورة تدعو إلى هذا الارتباك والقلق[٤٩]؟ وعلى حين كان عبد الحميد يلقى هذا الكلام على مسامع راسم بك بدأت تسمع أصوات أول مدفع صادرة من قصر آلتنى مما زاد فى حيرة عبد الحميد أمام هذا الموقف، ثم قال: "الله، لقد أُعلنت الحرب منذ خمسة عشر يوماً"[٥٠].

---

(٤٦) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٨٧ .

(٤٧) مذكرات واصف بك ، مجلة تاريخ الحياة ، ١ يناير ١٩٦٧م ، ص ٧٨ .

(٤٨) بدأت الحرب منذ فترة وخسرناها ، ولا تقدم الصحف لعبد الحميد ، وعلم بنشوبها إبان نقله من سلانيك حتى لا يتسرب إليه الخبر من الخارج .

(٤٩) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٩٦ .

(٥٠) بدأت حرب البلقان فى ٨ أكتوبر سنة ١٩١٢م .

ويُسمع مدفع العدو من سلانيك، هذا شيء حسن ولكن ماذا فعل جيشنا وجندنا؟ لقد حظى الجيش الثالث إبان عهدى بشهرة واسعة وذيوع صيت".(٥١)

ولو أن اليونانيين جاءوا حاملين أسلحتهم على أكتافهم لما استطاعوا الوصول إلى هنا فى أى وقت من الأوقات، فأنا أعرفهم جيداً لقد أوقعت بهم هزيمة نكراء فى خمس عشرة دقيقة إبان عام ١٨٩٧م(٥٢).

وبعد المحاولات المبذولة لإقناع عبد الحميد كى يترك سلانيك، شوهدت عند المساء باخرة السفارة الألمانية المسماة "لوريا" متجهة صوب ميناء سلانيك، وجاء فى معية الباخرة صهرا عبد الحميد لكى يسهما بدورهما فى إقناع عبد الحميد بالعودة إلى إستانبول(٥٣).

ويرى أوزون جارشيلى أن سبب حضور صهريه هو إذهاب الروع الذى سيطر على قلب عبد الحميد من احتمال تدبير مؤامرة ضده فى إستانبول، أما سبب قدوم الباخرة الألمانية على الخصوص فيرجع إلى أنها ستنقل عبد الحميد فى أمان واطمئنان لأن الحرب لم تزل مشتعلة فى البحر والبر على حد سواء.(٥٤)

وكان هذان الصهران هما عارف باشا صهر عبد الحميد وشريف باشا صهر السلطان عبد العزيز، وظل آخر أمل لإقناع عبد الحميد منعقداً على هذين الصهرين، وبعد التحية والسلام وأطيب التمنيات بدأ شريف موجهًا حديثه إلى السلطان قائلا له: "يا سيدى إن الوضع العسكرى مع الأسف فى حالة بالغة من السوء والانهيار وتردى الأحوال، ومن ثم رأت الحكومة أن إقامتك هنا فى ظل هذه الظروف قد بات أمراً محظوراً، وعليه قررت نقلك إلى إستانبول وخصصت لهذا الغرض الباخرة الألمانية لوريا

---

(٥١) هزمت اليونان فى الحرب التركية سنة ١٨٩٧م .

(٥٢) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٩٦ .

(٥٣) stephone lausanne ، أربعون عاماً فى رأس الرجل المريض ، ترجمة : S.Hasirci oglu إستانبول ١٣٣١هـ .

(٥٤) أوزون جارشيلى ، حول خلع عبد الحميد وموته ، ص ٧٢٥ .

وفى معيتها موظف من السفارة الألمانية بأمر من الإمبراطور الألمانى ويليام الثانى، وجئنا نحن كذلك كى نرافق مولانا السلطان فى رحلة عودته إلى إستانبول، إن الإمبراطور الألمانى مشغول بهذا الأمر وبعث برقيتين إلى السفارة وقائد الباخرة يعلمهما فيهما أن هذه الباخرة رهن إشارتك ومخصصة لرحلاتك، ونحن مستعدون لقبولك ضيفا عندنا، وهو فى النهاية يبلغك خالص أمنياته وسلامته.(٥٥)

أصر عبد الحميد مرة ثانية على ألا يغادر سلانيك، وكان يقول : "إن سلانيك هى مفتاح إستانبول، فهل تقدم للعدو؟ لن أرحل من هنا إلى هنالك"، ثم ما لبث أن وجه حديثه إلى راسم بك قائلا له : "اللهم اقهر هؤلاء الذين وضعوا الأمة فى هذا الوضع المشين، أفى نيتك أن نترك سلانيك دون الدفاع عنها؟ لقد تفسخت إمبراطوريتنا وانفرط عقدها وفُت من عضدها".(٥٦)

وفى تلك الآونة اجتمع كل من فى القصر، وكان الصهران لا يزالان يبذلان الجهد فى سبيل إقناع عبد الحميد، وانخرطت نسوة القصر فى بكاء ونحيب، وكانت أصوات المدافع تطّرد ويسمع صوتها من قريب، وهدأت ثورة عبد الحميد واقتنع، بيد أنه كان مستغرقًا فى تفكير عميق"(٥٧).

وجاءت السيارات ووقفت أمام قصر آلاتنى وركب فيها المنفيون من قصر يلديز، وحينئذ خرجت جماهير غفيرة من الشعب واقفين على أفاريز الشوارع فى أفواج محتشدة والدمع ينسجم من أعينهم رافعين عقيرتهم بالصياح قائلين : أتتركنا، إلى أين ذاهب؟.(٥٨)

واقتفى الناس أثر السيارات وتجمهروا هذه المرة فى ميناء سلانيك وصاحوا قائلين: أتتركنا يا أبانا إلى أين أنت ذاهب؟ وهم يتأوهون باكين منتحبين، وكان من

---

(٥٥) مذكرات وصفى بك ، مجلة تاريخ الحياة ، ١ يناير ١٩٦٧م – عدد ١٢ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

(٥٦) جريس ، ص ٣٢٣ .

(٥٧) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ١٠٦ .

(٥٨) جريس ، ص ٣٢٥ .

بين هؤلاء الخلائق زمرة من الأطفال والنسوة المنخرطين فى بكاء وعويل، وتأثر عبد الحميد كثيراً من هذا المنظر الحزين وركب الباخرة ونزل منها بضع مرات، إنه لا يريد الذهاب إلى إستانبول، وجعل يمعن النظر مليا فى جموع الخلائق بعين دامعة، وهم ينظرون إليه متوسلين متضرعين، وما لبث أن نكس رأسه بين كتفيه ثم قال لمودعيه: أستودعكم الله، إنه نصير المظلومين، ثم سلم على المحتشدين سلامه الأخير، وركب الباخرة للمرة الأخيرة بخطى ثقيلة مترددة، ولنقرأ بعض ما سطره عبد الحميد فى مذكراته حيث يقول : "استقبلنى قائد الباخرة بمراسم عسكرية وقال لى: لقد أمرنى القيصر بأن أذهب بك إلى حيث الجهة التى تريد أن تولى وجهك شطرها، ثم كرر القنصل الألمانى على مسامعى هذا العرض خفية، كانت هناك مساعدة روسية عند إقصائى عن العرش، واليوم لن أنكص على عقبى من أجل قبول الهروب فى كنف الحماية الألمانية.

أراد قائد الباخرة أن يأخذ الأمر منى كى يشرع فى الرحيل، فأجبته بإشارة من إصبعى أن اتَّجهْ صوب إستانبول"(٥٩).

وافق هذا اليوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٢م، وبينما كانت الباخرة تغادر مدينة سلانيك وهى تصفر فى مرارة وألم، زاد نواح الجموع المحتشدة من الشعب، واستغرقوا فى بكاء حزين، وأسرعت ألوف مؤلفة من الترك والمسلمين وهو يتابعون أثر سير الباخرة فى الميناء متباكين متأوهين، وتجمهرت طائفة أخرى من اليونانيين واليهود على مسافة كيلو مترين وهم يدقون الطبول ويستعدون لاستقبال الجيش اليونانى فرحين، وقد أصبح هذا الجيش قاب قوسين أو أدنى من دخول مدينة سلانيك، ولما بدأت الباخرة تتوارى فى الآفاق تفرقت جموع الخلائق وتواروا فى منازلهم.

أما ما يبعث على الحسرة ومرارة النفس أن تحسين باشا المكلف بالدفاع عن سلانيك قد أصدر أمراً إلى الفيلق العسكرى بتسليم المدينة والجيش برمته إلى اليونانيين دون إطلاق رصاصة واحدة، وهذا ولا ريب نموذج غريب، لم نجد له مثيلا من قبل على مدار التاريخ التركى.

---

(٥٩) جريس ، ص ٣٢٥ .

ما تفوه به عبد الحميد إبان ركوبه متن الباخرة

كان أول شيء فعله عبد الحميد وهو على متن الباخرة توجيهه الشكر إلى قبطان الباخرة والضباط المرافقين له، وأخذ يجاملهم ويلاطفهم ويتجاذب معهم أطراف الحديث، وطلب إليهم توجيه الشكر والتحية إلى الإمبراطور الألمانى، ثم جلس بعد ذلك إلى جوار عائلته وصهْريه، وكان قلقًا واهيًا آسفًا حزينًا مستغرقًا فى تفكير عميق، ثم ما لبث أن قال محدثا نفسه": هزيمتان فى سنة واحدة، أليس هذا بكثير(٦٠) ؟"، ولما أصبح الصباح تناول كل من صهريه وراسم بك ومحمود بك وواصف بك وصالح بك طعام الفطور على مائدة واحدة.

وبدأ عبد الحميد الحديث الذى نعرف تفصيله من خلال ما دونه فى مذكراته إذ يقول: "إننى أفكر مليا، وإن عقلى وفكرى لا يقبلان هذه المسألة، إذ كيف اتفق البلقان ؟ إن هذه الأمم قد جبلوا على خلق المتاعب والمنغصات فيما بينهم، لا بد أنه قد ظهرت أسباب جعلتهم يتوحدون ويقتربون من بعضهم بعضا، ولكن كيف يتسنى للحكومة أن تقف عاجزة غير مكترثة أمام ما حدث، وإنى أسألكم هل توجد بطريركية رومية فى إستانبول؟ أما زالت قائمة فى موضعها ؟ حينئذ أسرع شريف باشا فى الرد عن سؤال السلطان بكل صراحة قائلا : "نعم يا سيدى توجد بطريركية"، وهل توجد نزل الأكسار البلغارية فى مكانها؟ نعم يا سيدى، إن هذين الموضعين كانا منذ سنوات طويلة متعطشين لسفك دماء بعضهما بعضا، وهاتان المؤسستان كانتا دائما عدوين لدودين وعلى طرفى نقيض، هل حدث فجأة أن احتضن أحدهما الآخر وتعانقا وتصالحا وصارا صديقين حميمين؟ كيف حدث كل هذا والدولة التركية تغط فى سبات عميق؟ من المعلوم سلفًا أن ثمة عنصرين جوهريين يتصارعان فى الروملى، أولهما هو السياسة الإنجليزية والآخر هو السياسة الروسية، وتوجد كذلك السياسة النمساوية بين هذه وتلك، ولكنها لم تكن موجودة فى لجة الصرع، بل دورها ثانوى، وعندما كنت فى سدة العرش كنت

---

(٦٠) يقصد بها هزيمتى الحرب التركية الإيطالية وحرب البلقان .

أنتبه مليا إلى المناقشات المحتدمة فى منطقة الروملى، فمن أين جاء هذا التيار السياسى بضغوطه الشديدة؟ فلو أنه جاء من قبل الروم لتوجب أن يكون لائقًا بالبلغار، لقد أقمت لهؤلاء وليمة فى القصر وأنعمت عليهم بالعطايا والإحسان، ورأينا بعد ذلك أن البلغار قد سكنوا وهدأت ثورتهم، ويتوجب حينئذ ملاطفة السياسة الإنجليزية ومداعبتها، واستدعيت البطريرك الرومى وصحت فى وجهه، وكنت كذلك مسروراً من الروم، ولكنى لم أتدخل فيما بينهما فى أى وقت قط، إذ كنت على يقين تام بضرورة تخفيف حدة التوتر بينهما للحيلولة دون حدوث خلل أو اضطراب فى الشئون السياسية للدولة.

وهكذا أظهرت الحوادث والأيام أننى لم أكن مخطئًا فى رأيى هذا ألبتة، لأننى أعلم جيداً أنه لو حدث تآلف وتلاحم بين هذين العنصرين فى يوم من الأيام فلسوف تبدأ على الفور الطامة الكبرى التى ستقع على رأس العثمانيين فى منطقة الروملى.(٦١) لم يتردد عبد الحميد قط فى استخدام ما يسمى بالرشوة الدبلوماسية من أجل المحافظة على سلامة الأمة وأمنها واستقرارها، وقد دارت محاورة بينه وبين صهره عارف حكمت باشا الذى أرسل إلى سلانيك من أجل إقناع عبد الحميد بمغادرتها، وكانت هذه المحاورة على النحو الآتى :

سأل عبد الحميد صهره قائلا : "من هو وزير خارجية إنجلترا الآن "؟ أجاب عارف حكمت: "إنه السير إدوارد جراى يا سيدى". ولما سمع عبد الحميد هذه الإجابة زادت دهشته وحيرته وقال: "ماذا قلت؟ أهو جراى؟ كيف حدث هذا، ألم يدر بأخلادكم أن ترسلوا له مائة ألف قطعة ذهبية ! لو أنكم فعلتم هذا معه لعمل من فوره على إفساد الاتفاق المبرم بين اليونانيين والبلغار، أو حال دون نشوب الحرب، ولو أن هذا التحالف قد تحقق فيما بينهما حقًا، فإنه لم يكن ليسمح بنشوب الحرب على الإطلاق"(٦٢).

(٦١) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة ، ص ١١٧ – ١١٨ .
(٦٢) تبة دن لى أوغلو ، إعلان الحرية ، ص ٦٧ .

أيام قصر بيلربكى

خصص هذا القصر لإقامة عبد الحميد الذى نقل بالباخرة لوريا من سلانيك، ولم يكد ينزل فى هذا القصر حتى كان مصير سلانيك هو شاغله الأول والأخير الذى يقلقه ويقض مضجعه، فهو لم ينس صيحات المتباكين الذين رفعوا عقيرتهم بالصياح أمامه فى ميناء سلانيك قائلين "بابا "بابا".

وكان واصف بك هو الذى وصَّل له هذا الموقف المقلق وأعلمه به، وكان تسليم تحسين باشا سلانيك إلى أيدى اليونانيين سببًا قويا جعل السلطان لا يستطيع العودة إلى الوطن، وعرف كل هذا من خلال الأخبار التى تتسرب إلى أوروبا. وقال عبد الحميد تعليقًا على هذا : "إن تحسين باشا لا يخجل من نفسه، فأنا أعرف كل شىء عنه، وبديهى أنكم لا تعرفونه حق المعرفة مثلى أنا.

إنه لم يتخرج فى مدرسة، بل نشأ وتربى فى البوليس، ومع مرور الوقت عينه الصدر الأعظم نديم باشا فى منصب كبير الياوران، بيد أنى نقلته إلى قيادة الجيش فى منطقة "طاشقيشلة" تيقنا منى بأنه شخص غير موثوق به ولا يعول عليه، ولكنه أخذ يسبب المتاعب والقلاقل فى هذه الوظيفة التى أنيط بها، ثم ما لبث أن أثار الفوضى والاضطراب بين الجنود، حتى إننى علمت بعد ذلك أنه شرع بعد ذهابه إلى سلانيك فى إثارة المتاعب مع زمرة من المشاغبين الأرذلين الذين أساءوا استخدام ما وكل إليهم، وقمت بنفيه إلى حلب، ثم خُلى سبيله من منفاه عقب إعلان الدستور، ولما قدم إلى إستانبول شملته بعين الرحمة والتجلة لمكوثه حقبة من الزمن فى المنفى، ولكنى أسفت أسفا شديداً عندما سمعت أنه تولى قيادة الفيلق العسكرى الموجود فى سلانيك، ألم يجدوا قائداً آخر يرسلونه على رأس الجيش العثمانى المتمركز فى منطقة مهمة مثل سلانيك ؟[٦٣].

---

(٦٣) مذكرات واصف بك ، مجلة تاريخ الحياة ، ١ فبراير ، ١٩٦٧م ، عدد ١ ، ص ٣٢ .

ولما جاء عبد الحميد الثانى إلى قصر "بيلربكى" كانت حرب البلقان لم تزل مستعرة الأوار حامية الوطيس، وأخذ يراقب من كثب مجريات أحداث هذه الحرب وتطورها.

ولم يستسغ عبد الحميد قط أن البلغار واليونان والصرب قد نبذوا الخلاف فيما بينهم، واتحدوا صفا واحداً وأخذوا يشنون هجومهم على الدولة العثمانية، ثم أردف قائلا : "مادام لم يعد هناك خلاف بين الكنائس البطريركية فى إستانبول، فإن تركيا ستئول إلى هذا، وأخرج منديله ومزقه إربًا إربًا وطوح به فى الهواء"(٦٤).

أتم عبد الحميد البقية الباقية من سنوات عمره الأخيرة فى قصر بيلربكى، ولم يضيق الخناق عليه كما هو الشأن فى قصر آلاتنى، بل لم يكن يؤذن له فى الخروج من القصر. كان قصر بيلربكى بمثابة نقطة الالتقاء لزعماء الاتحاديين كلما صادفتهم المتاعب، إذا ضاقوا ذرعًا واستعصت عليهم الأمور فيأتون حينئذ لاستنصاح عبد الحميد واستشارته فيما غُم عليهم من أمور.

تحليل عبد الحميد لحرب البلقان ومتابعته إياها

أقدم البلقان إبان حرب البلقان على احتلال شرق منطقة تراقيا، وتقدموا حتى وصلوا حدود منطقة "جاتلاجة" التى تعد آخر خط دفاعى عن إستانبول، وخاضوا قتالا شديدا فى هذه المنطقة، وقد جرت مناقشة بين عبد الحميد وحارسه راسم بك تتصل بتطورات هذه الحرب وقال عبد الحميد: "لو حلت هذه الكارثة إبان سلطنتى لما استطعت قط، يا ترى ما هى حالة أخى رشاد الآن؟ أنا على يقين بأنه شديد الحزن والحسرة، وأنه يقدر تمامًا أولئك الموجودين فى مثل هذا المنصب. وأنا رأيت بعينى رأسى مقدار الفاجعة التى حلت بنا فى الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ – ١٨٧٨م، والتى استمرت ثلاثة وتسعين يومًا، وكنت آنذاك شابًا فتيا ذا طاقة تتحمل كل شىء، فما بالك لو حدثت

(٦٤) Jwry Rehmun ، مع المنهزمين فى فيافى فى أدرنة ، ترجمة : حسين جودت ، إستانبول ، ١٣٣٢هـ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .

هذه النكبة فى مثل عمرى الآن، لا قبل لى بها، ولا أستطيع احتمال مثل هذه المرارة، أحمد الله أننى حافظت على سلامة الدولة طوال ثلاثة وثلاثين عاماً.

ثم تنفس عبد الحميد نفساً عميقًا وهو مستغرق فى التفكير، ثم أردف قائلا : "ورغم هذا فإننا لم نخسر كل شىء، كان العدو آنذاك أمام منطقة جاتلاجة، وهناك أشياء كثيرة يمكن عملها من أجل الخلاص من هذه الورطة، لا أعرف ماذا سيكون ؟، إنهم عاجزون عن التفكير فى هذه الأمور، قال راسم بك : "هل يمكن عمل شىء يا سيدى؟ إن أصوات مدافع العدو تسمع من هذه الأنحاء، وأنا أعتقد أن ثمة شيئًا واحداً فقط يمكن عمله، إنه الصلح مع العدو مهما كان الثمن. ثم استغرق عبد الحميد فى صمت عميق وجعل يديم النظر فى وجهى، وفتح عينيه قليلا وأدرك مليا أن ما يدور فى ذهنى ما هو إلا استخفاف وازدراء لأفكاره التى تشغله، وسرعان ما تفوه قائلا : "ماذا تقول يا راسم بك، صلح؟ إن قبول الصلح فى مثل هذا الوضع المتردى لهو إثم عظيم، ثمة شىء واحد يمكن عمله، إنه الحرب ولا شىء سواها".

ثم قال راسم بك: "أليس من الممكن أن تمكّن الحرب الأعداء من دخول إستانبول يا سيدى"؟ قال عبد الحميد: كلا، بل يمكن منع العدو من دخول إستانبول عن طريق محاربته أمام الموانع الحصينة والاستحكامات القوية فى منطقة "جاتلاجة"، هذا من ناحية، ثم يتوجب بعد ذلك اللجوء إلى اتخاذ الإجراءات والتدابير السياسية اللازمة من ناحية أخرى، وإن الدبلوماسيين البلغار واليونانيين والصرب هم طائفة من الرجال الأغرار الذين لم تحنكهم التجربة السياسية بعد، أما نحن فلدينا زمرة من السياسيين المحنكين الأذكياء، وعلى سبيل المثال فيتوجب إرسال كل من سعيد باشا وحسين حلمى باشا إلى أوروبا، وعليهم إجراء اتصالات مع المراكز السياسية، ولزام عليهم كذلك أن يعدوا الإنجليز ببعض المصالح والمنافع، ولا ننسى كذلك وجوب الدخول فى محادثات سرية مع كل من الصرب واليونانيين والرومان على وجه الخصوص، يجب أن يُقْلَبَ تحالف الأعداء القائم اليوم رأسًا على عقب، وإن إفساد العلاقة وإيقاع الخصومة بين اليونانيين والبلغار فى الوقت الراهن ليس بالأمر الهين، فعلينا أن نسعى أولا لفصم البلغار عن اليونانيين، ثم نرى بعد ذلك أن الرومان سوف يتخلون عن الحرب فى الحال أمام أدنى تهديد".

قال راسم : ولكن يا سيدى ماذا نفعل لو عبر الأعداء إلى منطقة الحدود فى جاتلجة؟
رد عبد الحميد قائلا : كلا إنهم لن يعبروها، وأنت تعرف جيدا الوضع الذى عليه الاستحكامات القوية التى تتمتع بها المنطقة الحدودية فى الوقت الحالى. لقد أصبحت مواقع حربية منيعة بعد حرب الثلاثة والتسعين يوماً التى خضناها ضد اليونان. ولو تم الدفاع عنها بصورة جادة صارمة لمنيت أعظم الجيوش منها بهزيمة نكراء تجعلهم عاجزى الحركة خائرى القوى، ولكن لابد من الاتحاد والعمل الجماعى من أجل القدرة على تحقيق هذا، ولنترك الطمع والحرص، فإن كل المصائب والملمات التى أصابتنا كانت بسبب الطمع ولزام علينا فى أقل تقدير أن ننبذ الشائعات والقيل والقال وراء ظهورنا، ويبذل الجهد طائفة من الرجال الذين يتمتعون بفكر هادئ مكيث وعمل دءوب لا يعرف الكلل أو الملل.

وهناك بعد ذلك مسألتان : أولاهما : مسألة الحكومة، فأنا أعلم علم اليقين أن ناظم باشا وزير الحربية ذو عقل نافذ ألمعى أريب متقد الذكاء، ولن يستطيع أن يعمل لحظة واحدة مع الصدر الأعظم كامل باشا، ولكننا اليوم نخوض غمار حرب ضروس، ولكن يتوجب كذلك العمل بالسياسة.

"وأنا أرى أن الحالة التى عليها ناظم باشا لا تبشر بخير، وتدعو الناس إلى اليأس والقنوط، ثانيتهما: تتعلق بمسألة القادة، فأنا أعرف كل القادة الذين يتولون المناصب العسكرية اليوم، وكل واحد منهم يخبط خبطًا عشوائيا، ولا يملك كفاءة عسكرية تمكنه من إحراز نجاح أو توفيق، يجب أن تولى قيادة الجيش لمن هم أكثر كفاءة وحنكة وتجربة، وإن قادة مثل مختار باشا وأدهم باشا هم أكفاء صالحون للاضطلاع بمثل هذه المهمة، وإن أسماءهم كافية لإحداث تأثير قوى فى نفوس الأعداء تصيبهم بالذعر والهلع وتلقى الروع فى أفئدتهم، وآمل أن يضطلع رجل مثل كامل باشا وهو فى منصب الصدر الأعظم بهذا العمل فى كفاءة واقتدار".(٦٥)

---

(٦٥) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ١٣٥ - ١٣٧ .

لقد أصاب عبد الحميد كبد الحقيقة فى تشخيصه للحالة المتردية ووصف العلاج الناجح لها، ومن اليقين الذى لا يدانيه شك أن راسم بك اضطلع بتوصيل هذه الأفكار برمتها إلى الاتحاديين، ولكن لا يوجد من يؤلل أذنيه صاغيًا إلى العدو القديم، وفى النهاية ضاعت ولايتا مقدونيا والأرناءوط، ومن حسن الحظ أنهم لم يصلوا إلى إستانبول وإن ضياع هاتين الولايتين قد بات بمثابة سلب للميراث الذى خلفه عبد الحميد واستولى عليه قوم آخرون.

العودة إلى استبداد اتحاديى الدستور

إن الاتحاديين الذين خاضوا صراعًا مريرًا ضد السلطان عبد الحميد كانوا يعيشون أحلام إقامة الجنة الموعودة للأمة عند تطبيق الدستور الذى سوف ينظم كل شىء ، حيث تنعم الأمة فى ظله بالأمن والطمأنينة والسلام العادل، ولكن عندما أعلن الدستور لم يحدث شىء مما وعدوا به بداءة من الأيام التى تولوا فيها مقاليد الأمور.

"وثمة زمرة أخرى من الأعضاء خارج جماعة تركيا الفتاة المعارضة، ممن كانت تراودهم أحلام تتمثل فى إعلان الدستور، ثم الاضطلاع بتمزيق أوصال الفئة المعارضة من جماعة تركيا الفتاة بمجرد إقصاء عبد الحميد عن عرش السلطنة، ثم يتسنى لهم بعد ذلك اقتفاء أثر الانفصاليين والمحتلين والمستعمرين والقضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وفى سبيل تحقيق غرضهم شرعوا من فورهم فى البحث عن السبل التى تحقق لهم على عجل وراحة تامة كل ما يحلمون به مستخدمين فى هذا السبيل مناخ الحرية المطلقة التى جاء بها الدستور.

"وبعد إعلان الدستور أساءوا استخدام كل ضروب الحرية بصورة تجاوزوا فيها إطار قانون حرية الصحافة على وجه الخصوص، فلا يوجد بين هؤلاء من يتصف بسلامة التفكير المنطقى، فهم قادمون من أديان متباينة وأمم شتى، يبذلون قصارى

جهدهم فى التحريض وإذكاء نار الفتنة والصراع بين عناصر الإمبراطورية العثمانية المختلفة".(٦٦)

وإذ ما أتينا إلى حقبة تركيا الدستورية ألفينا طائفة من الأحداث الدموية العنيفة سرعان ما بدأت تشتعل من جديد، فها هى الجماعات الأرمينية الإرهابية قد بدأت تتدفق من خارج الوطن فى أمواج متعاقبة لتشن غاراتها على تركيا بما تملك من سلاح وعتاد، وهاهى ذى جماعات الأرمن فى داخل الوطن بدأت هى الأخرى تنظم صفوفها علانية وتبرز نشاطها وعنفوان قوتها دون استتار.

وقد استفاد الأرمن من مناخ الحرية وقاموا فى ١٤ أبريل سنة ١٩٠٩م بإعلان التمرد وشق عصا الطاعة فى مدينة آدة نة ثم أعقبتهم جماعات الأرناءوط، وجاء فى إثرهم تمرد أهل اليمن، وقد اتخذت الحكومة العثمانية تدابير وإجراءات صارمة ضد هؤلاء المتمردين تحت وطأة تأثير الاتحاديين ونفوذهم.

وقد بدأ المعارضون فى هذه المرة يلتفون حول حزب يخالف حزب الحرية المعارضة لجماعة الاتحاد والترقى، ولما وصل الموقف إلى هذا الحد وبدأ أنصار الألمان والإنجليز يستخدمون الاتحاديين ضد الحلفاء اشتدت حدة الصراع السياسى، وأخذت ضربات الحكومة القوية تطارد المؤتمرات وتلاحق ضروب التمرد والعصيان الإقليمية، وبديهى أن يظل الدستور فى ظل هذا المناخ مجرد اسم ليس إلا.

وما لبثت الأمة والدولة كلتاهما أن أُدخلتا فى لجة استبداد الاتحاد والترقى تحت وطأة هذا الحكم المتعسف.

أصبح عبد الحميد قلقًا، يقض مضجعه هذا المصير المفجع الحزين الذى آلت إليه الدولة، وكان يقول : "كان هؤلاء الشباب يريدون الدستور منى، وهاهو قد جاء اليوم الذى سوف يدركون فيه مليا الخطأ الذى ارتكبوه(٦٧)" وقد جاء هذا اليوم كما توقع

---

(٦٦) دائرة معارف لاروس ، جـ١ ، ٢ ، مادة عبد الحميد ، ص ٣٢ .

(٦٧) وداد عرفى ، ص ٤٧ .

عبد الحميد، وسطر عبد الحميد هذا في مذكراته قائلاً : "لقد أعلن الدستور، فماذا حدث؟ هل انخفضت ديون الدولة؟ هل كثرت أعداد طرق الدولة وموانيها ومدارسها؟ هل رتبت القوانين بصورة أكثر تعقلا وانتظامًا؟ هل باتت التراخيص الشخصية أكثر أمانا من ذى قبل؟ هل أصبحت الظروف الدولية أكثر ملاءمة لمصالحنا؟ هذه طائفة من الأمثلة، ومهما كثرت الأسئلة وتعددت فلن يستطيع واحد منهم الإجابة عنها بالإيجاب، يجب ألا يظن أحد أننى ذو فكر مناهض للحكم الدستورى، وعندما يكون الدواء في يد رجال ليسوا أطباء ولا يعرفون أصول استخدام الدواء ، فإنه حينئذ يكون سما قاتلا حتى ولو كان الطبيب صوفيا.

كان عبد الحميد يقول أنا شديد الأسف، فإن هذه الأحداث جعلتنى أصدق كل ما حدث. إن جماعة تركيا الفتاة قد باتوا ضحية بسبب عدم تجربتهم وحنكتهم[٦٨].

بدأ أعضاء هذه الجماعة يعترفون بأخطائهم الجسيمة التى تردوا في هاويتها، أمام الأحداث التى صادفتهم واعترضت سبيلهم، ولنقرأ في هذا السياق طرفا من هذه الاعترافات على لسان واحد من كتابهم ومفكريهم، وهو حسين جاهد الذى يقول:" كان أمام هذه العناصر المختلفة ساحة نشاط مفتوحة على مصراعيها." لقد كانوا يريدون استخدام الدستور والحرية على أنهما أفضل وسيلة من أجل فصم عُرى الأهداف القومية وتمزيق أوصالها".[٦٩]

"ولو أنهم أخذوا بالنظام الدستورى الأوروبى لكسبوا عطف الأوروبيين، وأفلست بدورها فكرة "أننا تحررنا" التى ما انفكوا يرددونها على ألسنتهم. وبحصولنا على الحرية تنبعث في تضاعيف روحنا نبض حياة كبرياء عظيم وحب كبير للوطن.

لقد كنا نفكر في حريتنا وخلاصنا عن طريق إعلان الحرية بدلا من العيش تحت وطأة التدخلات الأوروبية الموسومة بالتحريض والازدراء والتعقب والمنغصات لفترة طويلة،

---

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٦٩) حسين جاهد يالجين ، طلعت باشا ، إستانبول ١٩٤٣م ، ص ١٩ .

والآن لماذا ظللنا منفصمين عن الدول الأوروبية، كيف يحدث هذا وأوروبا مؤسسة الدستور كانت قد تدخلت بقوة دون عدل أو إنصاف للاستيلاء على أراضى تركيا، وتبين لنا بجلاء تام أننا كنا مجانين عندما قلنا إن الدستور هو السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد التى ابتليت بمخاطر كثيرة بسبب هذا الدستور(٧٠)"، ولما وصل الموقف إلى هذه النقطة بدأت تحدث عودة جريئة إلى الاستبداد الذى يتصارع مع نفسه أكثر من ذى قبل، ولنقرأ فى هذا الصدد طرفًا مما سطره "رءوف أورباى" فى مذكراته حيث يقول: "عندما كان طلعت بك يتولى منصب الصدر الأعظم كان فى طليعة المناضلين من أجل الحرية، ولم تكن الأمة مهيأة بعد للحكم الدستورى. وسمعت منه بأذنى قوله إن الحكم الاستبدادى المستنير هو شىء ضرورى حتمى من أجل سلامة الدولة وأمن الأمة".(٧١)

وإن ما ورد فى مذكرات مدحت شكرى وهو أحد أعضاء جماعة تركيا الفتاة يؤكد ما كتبه رءوف بك، ويقول مدحت شكرى : كان رءوف بك يتناقش ذات يوم عن الأمور التى تسير على ما يرام، ويشكو من هـذه الحـالة"، حينئذ أجابه طلعت باشا قائلا : "إن النظام الذى وضعناه فى دولتنا هو نظام حكم استبدادى مستنير".(٧٢)

لا جرم أن جماعة الاتحاد والترقى قد جلبت الاستبداد، وإن السلطة التنفيذية التى كانت فى حوزة عبد الحميد سنة ١٨٧٦م انتقلت الآن إلى حزب الاتحاد والترقى(٧٣).

وإن الاستبداد الحزبى قد حل محل الاستبداد الشخصى. لقد بدأت الأمة تعانى من التعب والمشقة، فهى مضطهدة تعيش فى لجة سياسات تتصف بالتعسف والقهر. "ونحن فى عهود الاتحاد والترقى، حيث لا توجد حرية مطلقة أو حرية مقيدة، وأما أن نعانى من الفوضى أو من العذابات التى سببها لنا الاستبداد الشخصى الصادر عن دكتاتورية

---

(٧٠) حسين جاهد يالجين ، المذكرات السياسية، ص ٢٣ .

(٧١) مذكرات رءوف أورباى ، مجلة تاريخنا القريب ، جـ٢ ، عدد ٢٠ ، ١٢ يوليو ١٩٦٢م ، ص ٢١٠ .

(٧٢) Belda ، ص ٨٨ .

(٧٣) بروفيسور دكتور طارق ضيا طون آية : حركات التغريب فى تاريخ السياسة التركية ، إستانبول ١٩٦٠ ، ص ٤٨ .

الثلاثي أنور وجمال وطلعت، فإننا لم نر في أي وقت من الأوقات فكرا واضحا جليا أو نظام حكم نافذا مؤثرا ذا نظام متسق منظم".(٧٤)

"إن هذا الحكم المؤسس على الرغم من أنه يحمى الحرية ويصونها قد ظهر بمظهر الحكم المستبد الصارم بصورة مباشرة، أما المعارضة فقد أصبحت إما مستترة متوارية تحت الأرض، وإما أنها قد نقلت نشاطها خارج حدود الوطن، كما كانت تفعل في حقبة الاستبداد القديم".(٧٥)

الخلف يترحم على السلف ويتذكر محاسنه

كان استبداد الاتحاد والترقي الذي طالما شدد وطأة هجومه على عصر عبد الحميد أشد سوءًا واستبدادًا، وأصبحت الحياة لا قبل باحتمالها، ولهذا السبب بات الناس يبحثون عن عصر عبد الحميد، ولنقرأ ما ورد في هذا الصدد في اعترافات جماعة تركيا الفتاة وكتابات المؤرخين : "لقد أسست جماعة الاتحاد والترقي في الدولة نظام حكم شديد الصرامة والعنف، وشرع الناس من فورهم في شوق جارف إلى عصر الاستبداد القديم، ويرجع السبب في هذا إلى أن المعارضين لهذه الجماعة كانوا يتهمون بإهانة الوطن(٧٦)". " وإن الذين يظنون أنهم أصابوا الهدف بخلع عبد الحميد اضطروا بعد حين إلى الاعتراف بأن جلوس محمد رشاد الخامس على سرير العرش كان بمثابة مصيبة حلت على الوطن والشعب على حد سواء،أما السلطان محمد رشاد نفسه فكان خلوا من الأوصاف التي اتصف بها عبد الحميد من تجربة وكفاءة، ولم يكن إلا سلطانا سلبيا أكثر من كونه سلطانًا دستوريا(٧٧). "فهو سلطان فرق مخلوع الفؤاد لا يتدخل في شيء قط، لا يستخدم حتى سلطاته القانونية، بل ترك الأمور برمتها في يد الاتحاديين المستبدين، وكانت أول راية تمرد رفعت ضد هذه الحكومة المستبدة تتمثل في أن عبد الحميد

(٧٤) فالح رفقي آتاي ، جبل الزيتون ، إستانبول ١٩٨٥م ، ص ٩٥ .
(٧٥) أحمد أمين بالمان ، ما مر بي ورأيته في التاريخ القريب ، إستانبول ١٩٧٠م ، ص ١٨٠ .
(٧٦) قوران ، في المدرسة الحربية ، ص ١١٥ .
(٧٧) إبراهيم تمو ، مذكرات إبراهيم تمو عن جمعية الاتحاد والترقي ، إستانبول ١٩٨٧م ، ص ٢٠٦ .

قدم مقدونيا إلى النمسا والأناضول إلى الألمان، وهذا أمر جد مستغرب، إن حكومة الاتحاديين التي ما فتئت تردد هذه المزاعم عندما انفردت بالحكم وآلت إليها مقاليد الأمور أقدمت على إقحام الأمة في حرب ، وسلمت زمام أمور الشئون العسكرية ليد الألمان ووضعت الأمة تحت هيمنتهم[٧٨]. "وخلاصة القول أن أمور الدولة قد آلت جميعها إلى يد جماعة تحت اسم الدستور، وحل التحكم والتسلط والهيمنة لجماعة الاتحاد والترقي محل القانون، وأخذ الناس يترجّمون على هيمنة حكم القصر القديم وسيطرته".[٧٩]

" ويمكن القول في إيجاز بأن هيمنة جماعة الاتحاد والترقي على مقاليد الأمور في الدولة في سنوات ثلاث لم تكن بدايته في سنة ١٩٠٩م فحسب، بل إنهم اضطلعوا بدور بالغ السوء في وضع نهاية للحكم الخاص بعبد الحميد في نهاية صيف عام ١٩٠٨م[٨٠]". ولما بات ظلم الاتحاديين واستبدادهم أمرا لا قبل للناس باحتماله أو الصبر عليه، أسرعت جماعة تركيا الفتاة إلى عبد الحميد يلتمسون منه العذر والعفو والصفح، حتى إنهم باتوا تواقين متشوقين متطلعين إلى حكمه مرة أخرى، وتألفت هذه الجماعة من : سليمان نظيف والشاعر رضا توفيق المشهور بلقب الفيلسوف والشاعر عبد الحق حامد.

ولنقرأ في هذا المقام طرفًا مما كتبوه بشأن عصر عبد الحميد : يقول سليمان نظيف : أنت على ذكر منا منذ زمن بعيد، وأتيناك طالبين إليك العون والمساعدة، نحن نصرخ ونجأر بالشكوى فقد قتلونا وسحقونا، ونحن نتحرق شوقا إلى استبداد السلطان القديم[٨١].

---

(٧٨) حسن كاظم قدري ، ص ٢٤٧ .

(٧٩) رشيد راي ، ص ١٥٣ .

(٨٠) المصدر السابق: نفس الصحيفة .

(٨١) بروفيسور دكتور عثمان طوران ، مصادر الخسران السياسي في تركيا ، إستانبول ١٩٦٩م ، ص ٥٤ ونجفرادة ، ص ٧٦ .

ويقول رضا توفيق :

عندما يذكر التاريخ اسمك يمنحك حقك أيها السلطان العظيم
وافترينا عليك دون خجل أو حياء وعلى عصر سلطان من أعظم عصور السياسة
وقلنا إن السلطان ظالم مجنون ولزام على الثورة أن تقوم
وقلنا في وضوح وجلاء، ماذا يقول الشيطان وسعينا جاهدين لإيقاظ الفتنة
أنت لست بمجنون، بل نحن المجانين وسلكنا الخيال في خيط فاسد ردىء
فلسنا أغرارا بل نحن غير أولى أدب وبصقنا على مقر قبلة الأجداد(٨٢)

ويقول الشاعر عبد الحق حامد

يا رب يا ذا الجلال يا خالق البشر يتأتى منك الخير للخلائق أجمعين
وقدر الخير يا إلهى للسلطان العادل عبد الحميد فهذا الشعب مالك والملوك للسلطان عبد الحميد وليس لنا مرشد آخر سواه(٨٣)

كان ضياع طرابلس الغرب والاثنتى عشرة جزيرة والبلقان، ثم اشتراكنا فى الحرب العالمية الأولى، كل هذا وذاك بمثابة مصاعب جمة ونكسات كبرى. وتفيد الكتابات التى دونها لطفى بك رئيس البلاط السلطانى فى عصر السلطان محمد رشاد أن عبد الحميد أصبح لدى كل شخص بمثابة السلطان المتطلع إليه الذى يتوق إليه كل إنسان. "لأنه لو كان موجوداً على عرش السلطنة، فلربما كان سيمنح إيطاليا بعض الامتيازات الاقتصادية فى طرابلس الغرب، ولكن لم يكن ليسلم طرابلس الغرب بأسرها إلى الإيطاليين أى لحظة

---

(٨٢) طوران ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٨٣) بروفيسور دكتور محمد قابا بيلجة جيل ، أبحاث فى الثقافة والأدب التركى فى العصر القريب ، جـ٢ أرضروم ١٩٨٠ ، ص ١٤٤ – ١٥٨ .

من الزمان. أما حرب البلقـان فلم تكن ضربًا من الكهـانة، وكان يتحاشـاها دائمًا، كما أنه حرص على أن تكون الدولة بمنأى عن الاشتراك في الحرب العالمية المشئومة[٨٤].

كان هناك تحالف واستبداد ثنائي متمثل في الاتحاديين والألمان، وكان كلاهما خائفين من الميل العاطفي للشعب نحو السلطان القديم، كما كانا قلقين مهتمين من إتيان الناس به إلى سدة الحكم مرة ثانية، لقد ظل عبد الحميد أسير حياة الحبس، ويعيش رهين السجن في قصر آلاتني أول الأمر في سلانيك، ثم بعد ذلك في قصر بيلربكي دون أن يؤذن له بالخروج أو مقابلة أي شخص على الإطلاق.

الانتهاب الأخير: الحرب العالمية الأولى

تمخضت الحربان التركية الإيطالية والبلقان كلتاهما عن ضياع أراضي الدولة العثمانية التي تمتلكها في كل من أوروبا وأفريقيا على حد سواء، فقد سُلب ونُهب نصف الميراث الذي خلفه عبد الحميد في غضـون أربع سنين (١٩٠٨ - ١٩١٢م)، يقول عبد الحميد : "لو كنت على عرش السلطنة لما حدث هذا ألبتة". وكان يشعر بمرارة نفس عميقة لهذه الخسائر الفادحة. ولما اشتعلت الحرب العالمية لم تكن الدولة العثمانية تستحوذ إلا على الوطن الأم والأناضول والولايات العربية.

ولم تكد تركيا تدخل في أتون هذه الحرب الضروس ١٩١٤ - ١٩١٨ حتى خسرت كل الولايات العربية برمتها. كان عبد الحميد مهتما بمتابعة تطورات هذه الحرب إبان إقامته في قصر بيلربكي، وكان يسمع قرع أقدام الحرب العالمية الأولى، وكان التحالف الذي تمَّ من قبل بين روسيا وإنجلترا في ٣١ مارس سنة ١٩٠٧م قد روع عبد الحميد وأقض مضجعه، فهذا التحالف كان ضد تركيا وأفقدها كل توازنها، وهاهو ذا عبد الحميد يروي على مسامع راسم بك الحمية التي أبداها كي يحول دون إتمام هـذا التحـالف : "لقد نجحت في إفساد العلاقة بين الروس والإنجليز وتعكير صفوها، وبذلت كل ما في

---

(٨٤) لطفي بك ، الأيام الأخيرة للعصر العثماني ، إستانبول ١٩٧٧م ، ص ٣٥٥ .

وسعى لكى أمنع إقامة تحالف بين هاتين الحكومتين حتى الأيام الأخيرة من عهدى، أتدرى كيف أننى كنت موفقا فى هذا السبيل؟ لقد كنت دائما أروض الروس وألاطفهم".(٨٥)

وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى تحدث عبد الحميد إلى اليوزباشى ذى النون عن كل ما يتصل بالنكبات والملمات التى ستحل على الأمة من وراء أفكار الاتحاديين المتعلقة بالطورانية والوحدة الإسلامية، يقول عبد الحميد فى هذا الصدد : "فلسوف ترى ياذا النون أن الاتحاديين سوف يجرون هذه الدولة إلى مغامرات مفجعة مهلكة تجلب المصائب على إستانبول، وأنا أخشى حمية الطورانية والسياسة الإسلامية ، لأن الاتحاديين بصنيعهم هذا سوف يدخلون فى حرب ضروس مع كل من روسيا القيصرية والإمبراطورية البريطانية العظمى، حاشا الله، فإذا حلت هذه الكارثة فلسوف تشهد بعينى رأسك تفتيت الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها. إننى لا أظن أبدا أن إنجلترا سوف تخسر هذه الحرب إذا ما دخلتها".(٨٦)

كان عبد الحميد طوال فترة حكمه ينظر مليا إلى العامل المؤثر لإنجلترا على وجه الخصوص، فقد كانت هذه الدولة هى القوة العظمى فى تلك الحقبة من الزمان، ومن العسير المغامرة فى الدخول فى حرب معها، ومن ثم فقد كان عبد الحميد يعلم هذا علم اليقين مما جعله على الدوام يحذر الدخول معها فى حرب.

وإذا كان يريد حماية عرشه فإنه لن يخوض معها حربًا إبان اشتعال الحرب العالمية الأولى، وكان سيتبع سياسة الحياد المطلق فى هذه الحرب، ولنقرأ فى هذا السياق طرفا مما سطره عبد الحميد فى مذكراته حيث يقول : "مما لا ريب فيه أن الحرب فى أوروبا ستشتعل اليوم أو غدًا، وأنا لم أخطئ فى رأيى الذى صرحت به للقيصر الألمانى ويليام الثانى قبيل خمس عشرة سنة، ولزام على الإمبراطورية العثمانية أن

---

(٨٥) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٢٣١ .

(٨٦) أرتورك ، ص ٧٤ – ٧٥ .

تلزم جانب الحياد مهما كان الثمن. ومن قبيل الخطأ الجسيم القاتل أن تلقى الأمة بنفسها فى أتون هذه الحرب المهلكة المستعرة".(٨٧)

وقد استخدمت ألمانيا كل ما أوتيت من قوة كى تجرنا إلى هذه الحرب دون استئذان، ولكنها استخدمتنا، ورغم أن الحكومة العثمانية لم ترد خوض غمار هذه الحرب، فقد اضطلع التحالف الثلاثى المكون من أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا، وثلاثتهم من الحمقى الأغبياء المستبدين فأقحموا الدولة العثمانية كرها إلى أتون هذه الحرب، ودخلت الدولة العثمانية فعلا الحرب عقب قيام الأميرال الألمانى Souchon بضرب موانئ روسيا بالمدفعية، ولما علم عبد الحميد الثانى بهذه الواقعة قال لراسم بك " قد أصبحنا فداء لهاتين السفينتين اللتين تمطران موانئ روسيا بالقذائف، وليس ثمة عاقل يقول بوجوب دخولنا حربا ضد الدول الثلاثة الكبرى وهى إنجلترا وروسيا وفرنسا، كيف يتأتى هذا؟ إن هذا ولا ريب ضرب من الجنون، وأنا بدورى شديد الخشية من العواقب الوخيمة".(٨٨) ولما دخلت الدولة العثمانية غمار الحرب العالمية الأولى أصابت عبد الحميد دهشة عظيمة أمام إعلان الجهاد الذى بدأ الاتحاديون ينادون به فى كل مكان، ولنقرأ فى هذا السياق طرفا مما أملاه السلطان عبد الحميد على ابنته عائشة : "دهش أبى دهشة كبرى عندما أعلن الجهاد، ولم ينذهل للجهاد فى حد ذاته، ولكن لأن اسم الجهاد كان سلاحًا ماضيًا فى أيدينا.

لقد كنت يا ابنتى ألجأ أحيانا إلى تهديد بعض السفراء، ومن ثم كانت هذه الكلمة موجودة على شفتى الخليفة الإسلامى، وكان أبى يقول لا أشعل الله هذه الفتنة، لقد كان الجهاد بالنسبة لنا مجرد اسم ولم يكن قوة جسدية. كيف يقنعوننا بمثل هذا الكلام، هل نخدع إنجلترا بمثل هذا؟".(٨٩)

---

(٨٧) جريس ، ص ٣٢٤ .

(٨٨) هربت المدمرتان الألمانيتان من السفن الحربية الإنجليزية التى طاردتهما فى البحر الأبيض ولجأتا إلى تركيا ، وطلب الخلفاء تسليمهما ، وهذا لا يليق بالدولة العثمانية ، ومن ثم أعلنت أنها ستبيع هاتين المدمرتين حلا لهذه المشكلة .

(٨٩) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٣٢١ .

اشتد غضب عبد الحميد من حماقة الاتحاديين واقترافهم خطأ فاحشا بدخولهم الحرب العالمية الأولى، وكان غضبه أشد حين أقدم الاتحاديون أنفسهم بتعيين الشريف حسين الموضوع تحت المراقبة ورهن الإقامة الجبرية فى إستانبول شريفا على مكة بناء على رغبته. ولما أحيط عبد الحميد علماً بهذا حذر الاتحاديين بألا يرسلوا الشريف إلى مكة(٩٠)، ولكن لا حياة لمن تنادى. وما لبث الاتحاديون أن فعلوا خلاف ما كان يفعله عبد الحميد، إذ لم يترددوا فى إرسال الشريف حسين إلى مكة ليكونوا على النقيض مما يريد عبد الحميد.(٩١)

وكانت رغبة الاتحاديين فى إرسال عبد الحميد إلى بورصة سببا أثار دهشته إبان سنوات الحرب العالمية الأولى، وعندما هاجم الإنجليز والفرنسيون ميناء "جناق قلعة" سنة ١٩١٥م خربت إستانبول، وكان الاتحاديون يعدون العدة لنقل العاصمة إلى قونية بأن يستعد للانتقال إلى بورصة. قال السلطان رشاد:

ليكن أخى جاهزاً ويتوجب نقله يتميز غيظا ثم قال ماذا يفعل أخى ؟ لزام علينا ألا نترك العاصمة، يجب أن نمكث هنا حتى الموت، وعلينا أن ندافع هنا عن هذه الدولة والأسرة الحاكمة حتى أصغر فرد فيها، ألا نستطيع أن نكون مثل الإمبراطورية البيزنطية الأخيرة ؟ أنا لن أخرج من إستانبول ألبتة، فأنا راض بالموت هاهنا، وكان هذا فحوى خطابه الذى أرسله إلى السلطان رشاد(٩٢). كان عبد الحميد شديد الإصرار على عدم مغادرة إستانبول.

"لقد قلت بأعلى صوتى إن أخى رجل رِعْديد فَرِق، وناديت بأنه يتوجب على كل إنسان ألا يترك العاصمة وشرحت له الأمر جيداً وقلت له : لن أغادر إستانبول ولسوف أموت تحت ترابها وأنقاضها".(٩٣)

---

(٩٠) قره صابان : جـ١ ، ص ١٢٣ ، مانسفيلد ، ص ٣٩ .

(٩١) T.E.Lourance ، ص ٤٩ .

(٩٢) عمر كوركوجو أوغلو ، حركة الاستقلال العربية ضد الدولة العثمانية ، نشر كليه ، العلوم السياسية ، أنقرة ١٩٨٢م ، ص ٦٨ - ٧٠

(٩٣) المصدر السابق: نفس الصحيفة .

استنصاح الاتحاديين لعبد الحميد واستشارته

ظهرت إبان سنوات نشوب الحرب العالمية الأولى مخاطر جمة ومصاعب شديدة حاقت بالاتحاديين من جماعة تركيا الفتاة الموالين لألمانيا والمهيمنين على مقاليد الحكم فى الدولة العثمانية، ويرجع هذا إلى أنهم وجدوا أنفسهم يواجهون فى هذه الحرب خطر ضياع الوطن الأم المتمثل فى الأناضول، ولهذا فقد كانوا فى حالة من الضيق والتعب، وكانوا فى هذه المحنة يأملون العون والمساعدة، مثلهم فى ذلك مثل من ينطبق عليه المثل القائل" من يقع فى الماء يتعلق بقشة".

لاذ الاتحاديون بِعَدُوِّهِمْ القديم عبد الحميد حتى إنهم التقوا به واستشاروه واستنصحوه، ومن ثم كان قصر بيلريكى بمثابة نقطة الالتقاء لكثير من الاتحاديين وعلى رأسهم الصدر الأعظم طلعت وقائد الجيش أنور باشا، كانت الحرب العالمية الأولى قد بلغت أوج احتدامها، وسرعان ما جاء أنور باشا إلى قصر بيلريكى وسأل عبد الحميد عن رأيه فى تطورات هذه الحرب ومسائل الحل التى يراها مناسبة، فأجابه عبد الحميد قائلاً : "أحضر القبطان السفينة واكتشف هذا القبطان من أى جهة ستهب عليه العاصفة ويحيط به الخطر المحدق، إنه يدير دفة السفينة ويتحكم فيها بحسب ما يرى، فكيف يتسنى لمن هم خارج السفينة أن يفهموا ما يفعله ؟ ورغم هذا فأنا فى مثل هذه الحالة لا أملك رأيا أقدمه لكم، وليس لدى اقتراح أستطيع أن أعرضه عليكم. ولما كنت رجلا منزوع السلطة مجرداً من كل شىء، فإننى لن أقول شيئًا واحداً الآن فى مواجهة هذا الوضع، ويكفى أن نفكر مليا فيما تفعله كل من ألمانيا والنمسا والمجر فى مواجهة الدول التى تهيمن على البحار وتفرض سيطرتها عليها".(٩٤)

"وذهب أنور باشا إلى حال سبيله. لم يكن أبى يشك لحظة واحدة فى أن الحرب العالمية سوف تنشب فى يوم من الأيام، ولكن إقحام أنفسنا فى أتون نارها كان جهلا عظيما وضربا من ضروب الطيش وقصور التفكير، وإن سلامتنا كانت مرهونة بالتزامنا جانب الحياد وعدم الانحياز، ثم قال أبى: وبعد أن وصلنا إلى هذه الحالة المتردية فلسوف

---

(٩٤) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٢٣١ .

يئول مصيرنا إلى نهاية ساحقة لا سبيل إلى النجاة منها، ثم سيطرت عليه حالة من اليأس والقنوط، وأخذ يدعو بشرّ الدعاء على أولئك الذين أوقعوا الدولة فى هذا المصير المشئوم.(٩٥)

ويدون عبد الحميد فى مذكراته كل ما يتصل بلقائه بأنور باشا حيث يقول : "كانت عيناى تبكيان دما كلما أفاض أنور باشا فى شرح الوضع المتردى للدولة، لقد كانت حساباتهم كلها خاطئة برمتها، فلقد أخطأوا فى تقدير قوة الدولة وحجم قوة الأعداء حتى وصلنا فى نهاية المطاف إلى هذه النتيجة المفجعة المريرة، ومما زاد الطين بلة أن مقدرات الدولة أصبحت مرهونة فى يد ثلة من الأشخاص وموقوفة على كلمة واحدة تخرج من أفواههم.(٩٦)

ولم يكتف هؤلاء بوقف الشجار والخلاف فيما بينهم، بل وقعوا فى قبضة حلفائنا الألمان. ثم يتحدث عبد الحميد عن كفاءة ومقدرة أنور باشا فيقول" على رغم كل خجله وهدوئه، فإنه غضوب طماع متطلع إلى ما فى يد غيره. ومن الغريب أنه يذكر تحسين عونى باشا الذى يشبهه فى الجبلة والفطرة رغم عدم التشابه بينهما فى الصفات الجسمانية، أما الفرق الذى يميز بينهما فيتمثل فى أن عونى باشا يتصف بالغلظة والفظاظة، أما أنور باشا فيتصف بالرقة واللطف ويحول ذكاءه وفطنته إلى مكر ودهاء، هل ارتبط هؤلاء الناس المتباينون بمكان واحد؟ وإذا كانوا يحرصون على تنمية مصالحهم ومنافعهم، فليس هناك إذن حدود للصداقة فيما بينهم، ولقد أدركت الآن جيدا كيف اختاره الألمان على وجه الخصوص.

ربما كان أنور باشا وعونى باشا كلاهما جنديين، ولكنهما يمكن أن يكونا قائدين عسكريين متوسطى الحال، فأنور باشا لا يعرف أيمكنه هزيمة عدوه على الجبهة الأصلية أم على الجبهة الخلفية، وأنا أرى أن أنور باشا يمكن أن يكون قائد لواء جيداً، ويمكن كذلك أن يضطلع بأشياء مفيدة جدا إذا ما أصبح وزيراً للحربية(٩٧)".

---

(٩٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٩٦) يعنى دكتاتورية الثلاثى : أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا .

(٩٧) دفتر مذكرات عبد الحميد ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

ومما يؤسف له أن أنور باشا كان قائداً للجيش فضلاً عن كونه وزيراً للحربية، ومن ثم فإنه يشبه القبطان الغر غير المجرب، فأغرق سفينة الدولة العثمانية. وقد التقى طلعت باشا كذلك بالسلطان عبد الحميد الذى كان مغتاظا منه وأخذ يردد على مسامعه كل أخطائه واحدة تلو الأخرى، وكان هذا الرجل قد مهد السبيل بأخطائه فى نشوب الحربين اللتين نشبتا فى طرابلس الغرب والبلقان، كما أنه ضيق الخناق على الأرناءوط والعرب، وحينئذ آثر طلعت باشا الصمت وخرج دون أن يتفوه بكلمة واحدة[٩٨].

كان عبد الحميد يجأر بالشكوى من أفعال الألمان وسلوكهم تجاه مستقبل الأمة التركية ويقول فى مذكراته : "لقد ناقشنا فى هذا اليوم بالتفصيل كل ما يتصل بالألمان الذين استطاعوا عن طريق الحرب النفوذ إلى الأناضول، وإن استقرارهم فى هذه المنطقة سوف يصيب مستقبل البلاد بالضرر الشديد، فهم شديدو الحرص على رءوس أموالهم، وإذا ما تعرضت فى الغد القريب أدنى قدر من مصالحهم للضرر فإنهم يمكنهم حينئذ أن يسببوا لنا مشاكل جمة، ويتوجب علينا أن نفتح أعيننا ونأخذ حذرنا، وإذا فكرنا مليا فى تحقيق نصر فى هذه الحرب، فيجب علينا ألا ننسى أننا سنهزم فى مضمار السياسة، ولا ينفع الندم فى النهاية، فأصدقاؤنا قليلون جداً".[٩٩]

فى الرحلات الأخيرة كان الوقت شتاء عام ١٩١٧م، وكانت الدولة العثمانية تعيش أسوأ أيام الحرب العالمية فقد فقدت اليمن والحجاز والعراق. واحتل العدو بالقوة فلسطين وسوريا، وأمام هذا المنظر المذرى بلغ حزن عبد الحميد وانهياره النفسى أقصى درجاته، وكان يقول : "إننى أوثر الموت على أن أستمر فى رؤية الإمبراطورية وهى تحتضر أمام ناظرى".[١٠٠]

واستمسك عبد الحميد بأهداب التضرع، والدعاء لا ينفك عنه ويلازمه، حيث وافته المنية فى أعقاب تضرعه ودعائه. وفى شهر فبراير سنة ١٩١٨م شكا إلى أطبائه من

(٩٨) أوق يار ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٩٩) ضيا شاكر ، الأيام الأخيرة لعبد الحميد ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(١٠٠) جريس ، ص ٣٣٨ .

وجود ألم فى الجهة اليسرى من صدره، فقال له الأطباء إنه مرض ذات الرئة رغبة منهم فى مواساته وشد أزره وهم يخفون عنه علة قلبه(١٠١)، ولم يوصف له دواء قط من أجل شفائه، ثم توقف قلبه فى يوم العاشر من شهر فبرار سنة ١٩١٨م، هذا القلب الذى حمل بين أضلعه الإمبراطورية العثمانية مدة ثلاثة وثلاثين عاما، بلى، لقد تحطم هذا القلب وتفتت بسبب المنغصات والعذابات التى ألمت به بعد ضياع أجزاء كبيرة من هذه الإمبراطورية، فعجز عن تحمل هذه الآلام حتى توقف فى نهاية المطاف.

ثم قام الأطباء بالتوقيع على تقرير الوفاة الذى ورد فيه أن سبب الوفاة ضعف شديد فى عضلة القلب، ونقل نعشه من قصر "بيلريكى" إلى قصر "طوب قابى"، "لم يفقد عبد الحميد وعيه حتى الدقائق الأخيرة من حياته، حتى إنه أوصى قبيل موته بوضع دعاء ميثاق العهد الوطنى فوق صدره، وغطى وجهه بخرقة السعادة، وهى منديل حريرى أسود اللون، ونفذت الوصية بحذافيرها".(١٠٢)

" كان اليوم التالى لوفاته يصادف يوم الاثنين، حيث تم نقل نعشه إلى قصر طوب قابى جريا على الأعراف المتبعة، وتم تجهيزه وتكفينه وصليت عليه صلاة الجنازة التى خرج موكبها عقب صلاة العصر، ودفن بناء على وصيته فى مقبرة جده السلطان محمود، وتمت مراسم الدفن المتبعة عند موت أى حاكم فى الدولة العثمانية".(١٠٣)

سار فى جنازته جموع غفيرة من الخلائق الذين ارتفعت أصواتهم بالصراخ والعويل قائلين : لا تتركنا يا أبانا وإلى أين أنت ذاهب، كان هؤلاء الناس يعيشون تحت وطأة الألم الشديد الذى أصابهم بسبب ما فقد من أبنائهم فى الحرب العالمية الأولى، وشاهت أرواحهم ويئست نفوسهم من تلك العذابات التى ذاقوا مرارتها من جراء هذه الحرب المريرة(١٠٤).

---

(١٠١) المصدر السابق ، نفس الصحيفة .

(١٠٢) أحمد رفيق ، أمام نعش السلطان عبد الحميد : ص ١٣ .

(١٠٣) أورزون جارشيلى ، حول خلع عبد الحميد وموته ، ص ٧٢٩ .

(١٠٤) عائشة عثمان أوغلو ، ص ٢٣٨ ، أوزون جارشيلى : المصدر السابق ، ص ٧٢٩ .

"إن من كانوا يحقرون عبد الحميد ويزدرونه قد التفوا حول نعشه بكل تجلة وتوقير. وجعلوا يديمون النظر إلى جسده المسجى بنظرات مغرورقة بالدموع، وهم يكنون كل تقدير وإعزاز وإعجاب إلى هذا الداهية السياسى والعبقرى الفذ، ولكن بعد فوات الأوان".(١٠٥)

أسرع أعداء عبد الحميد وأصدقاؤه إلى جنازته يودعونه فى رحلته الأخيرة، ولم تشهد إستانبول طوال تاريخها مثل هذه الدرجة من الزحام. أما الصدر الأعظم طلعت باشا فكان يغطى وجهه بيده اليمنى وهو يمشى خلف التابوت ويجهش بالبكاء فى نشيج وتنهيد(١٠٦). كانت الشمس آفلة تماماً عندما كان النعش يوارى فى الثرى بعد هذه الجنازة المزدحمة، وبينما كانت أشعة الشمس يخبو نورها فى أفق الكرة الأرضية كان نعش عبد الحميد يوارى فى الثرى، وفُقد عبد الحميد الذى لم يعد يرى شعبه مرة أخرى على ظهر الغبراء، لقد فاضت روح عبد الحميد إلى بارئها قبل أن تلفظ الإمبراطورية العثمانية آخر أنفاسها، تلك هى الإمبراطورية العظيمة التى خلفها عبد الحميد بجذورها مترامية الأطراف فى عصر من عصور الذروة والارتقاء. لم يكن آخر نفس لعبد الحميد فى ١٠ فبراير سنة ١٩١٧ م، بل كان فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٨م عندما لفظت الإمبراطورية آخر نفس لها، ولو كان قد لفظ آخر نفس له فى اليوم التالى لآخر نفس فاضت به الإمبراطورية، فماذا سيكون حاله وأى كلمات كان سيتفوه بها؟

إن الاتحاديين هم الذين زجوا بالدولة العثمانية فى أتون الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، ولما هزموا فى هذه الحرب نُهب جزء آخر من أرض الدولة العثمانية وتحطمت الدولة وفُتّ من عضدها وتقوضت أركانها، ولم يعد أمام الاتحاديين وسيلة أخرى لإنقاذ الدولة من المصير المشئوم الذى آلت إليه، فأسرعوا من فورهم بالفرار إلى ألمانيا على متن سفينة ألمانية فى جنح ليلة الثانى من شهر فبراير سنة ١٩١٨ حتى يتسنى لهم إنقاذ أرواحهم والحيلولة دون إعدامهم دون محاكمة قانونية.

(١٠٥) وداد عرفى ، ص ٧ (ما كتبه وداد عرفى بصفته شاهد عيان) .

(١٠٦) ضيا شاكر ، طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا ، إستانبول ١٩٤٤ ، ص ١٦٨ ، أرتوك : ص ١٦٨ .

وكان على متن هذه السفينة زمرة من جماعة تركيا الفتاة، وفى معيتهم كل من: طلعت باشا وجمال باشا وأنور باشا وغيرهم من المشاهير وعِلْية القوم، لا جرم أن عبد الحميد لو كان على قيد الحياة وعلم بما فعل هؤلاء فماذا كان قائلا؟ إنه لا شك سيتحدث على هذا النحو الذى سأختمه أنا بقولى : "إن الاتحاديين قد انتهبوا قصرى وخربوه قبل أن ينتهبوا الإمبراطورية ويدمرونها، وهم الآن قطيع من العصابات المتشرذمة وطغمة فاسدة، يركبون متن سفينة ألمانية وهم يولون هاربين، اللهم شتت شمل هؤلاء الذين أذاقوا الأمة وإياى الويل والعذاب، اللهم اقهرهم يا رب العالمين".

كان عبد الحميد يدعو بشرّ الدعاء على أولئك الذين جلبوا المتاعب للدولة وأقضوا مضجعها ونالوا منها وعاثوا فيها فساداً. ثم لننظر بعد ذلك إلى تصاريف القدر، حيث نالوا جزاءهم جميعًا، وقُتل زعماء الاتحاديين: أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا برصاص أعدائهم خارج الوطن. أما زعيم المعارضة الموالى للإنجليز وهو الأمير المزيف صباح الدين ابن أخت عبد الحميد فقضى نحبه فى أوروبا من شدة الإفلاس والمخمصة، ولا نرى فى هذا المقام ضرورة لحصر العواقب الوخيمة التى حاقت بالصغار من هذه الفئة الباغية والطغمة الظالمة. كان عام ١٩١٨م بمثابة العام الأخير فى رحلة الإمبراطورية العثمانية، وبينما كان عبد الحميد قد أسكنه الله فسيح جناته فى رحلته الأخيرة، كان المعارضون من جماعة تركيا الفتاة يشدون رحالهم إلى ألمانيا وإنجلترا، وكانت الإمبراطورية العثمانية ترحل بدورها فى غياهب التاريخ.

المؤلف فى سطور :

سليمان قوجه باش

من أشهر مؤرخى الترك، وله عدد كبير من المؤلفات فى تاريخ الدولة العثمانية ونظمها ومؤسساتها، كما نشر بضعة مؤلفات عن سلاطين الدولة العثمانية . ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - المسألة الأرمنية ما لها وما عليها .

٢ - التاريخ السرى للتبشير المسيحى والمبشرين فى تركيا .

٣ - دور ألمانيا فى القضاء على الإمبراطورية العثمانية .

المترجم فى سطور :

عبد الله أحمد إبراهيم

- ولد بمحافظة الغربية سنة ١٩٥١م .
- أتم تعليمه الأزهرى وتخرج من كلية اللغات والترجمة ، قسم اللغة التركية وآدابها سنة ١٩٧٥م .
- حصل على الماجستير سنة ١٩٨٤ وحصل على الدكتوراه سنة ١٩٩٠م .
- يشغل حاليًا وظيفة أستاذ مساعد بقسم اللغة التركية وآدابها بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر .

أهم أعماله المؤلفة:

١ - من أدب الرحلة فى تراث الترك (مخطوط) .

٢ - الشاعر التركى أحمد هاشم ورحلته إلى فرانكفورت (مخطوط) .

٣ - شاعر الإسلام محمد عاطف: مقامه بمصر وشعره فيها (مخطوط) .

٤ - ميزان الشعر بين إبراهيم عبد القادر المازنى وأحمد حمدى طانبينار (مخطوط) .

أهم أعماله المترجمة عن اللغة التركية :

١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى، نشر المجلس الأعلى الثقافة عام ٢٠٠٢م.

٢ - تاريخ الأدب التركى ؛ تأليف : فؤاد كوبريلى زادة ، (تحت الطبع) .

٣ - قاموس الألفاظ الأجنبية فى اللغة التركية؛ تأليف: على بوسكللى أوغلى (مخطوط) .

٤ - المولوية بعد جلال الدين السردلى: نشر المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٣م .

التصحيح اللغوى : ريبـال الحسانى
الإشـراف الفنـى : حسـن كـامـل

السلطان عبد الحميد هو السلطان السادس والثلاثون فى تاريخ الأسرة العثمانية، التى حكمت الإمبراطورية العثمانية طوال ستة قرون من الزمان على وجه التقريب؛ وقد ظل جالساً على سرير العرش ثلاثة وثلاثين عاماً انتهت بإقصائه عن سدة الحكم يوم الثلاثاء 27 أبريل عام 1909م، و كان عمره آنذاك سبعة وستين عاماً؛ حيث قضى تسع سنوات رهن الحبس فى قصر اليهودى (اللآتينى Allatini)، ثم نقل بعد ذلك ليُلقى فى غيابات أحد قصور إستانبول حتى وافته المنية يوم الأحد الموافق العاشر من فبراير عام 1918م عن عمر يناهز السادسة والسبعين ثم وورى الثرى فى مقبرة جده السلطان محمود الثانى. وقد تعرض السلطان ع الحميد بعد إقصائه عن العرش لهجمات شديدة الوطأة؛ حيث رماه أعدا وحاسدوه بافتراءات ظالمة وسلقوه بألسنة حداد، وكانوا مغالين فى نقده متجاوزين لحدودهم، كما نعته بعضهم بأنه من أنقاض الاستبداد. وقد حر المؤلف فى هذا الكتاب على عرض الحقائق التاريخية مدعمة بالوثائق الدام والمصادر التى لا يتطرق إليها الشك، كما استفاد فائدة جمة من مذكرات السلط عبد الحميد والزمرة المقربة منه وأقوال المؤرخين الأوروبيين الذين خب السلطان عبد الحميد وسبروا أغوار شخصيته، ومن ثم جاء الكتاب متخذاً من المنهج العلمى سبيلاً لم يشذ عنه قيد أنملة.

Bibliotheca Alexandrina
0680672

تصميم الغلاف : نسرين مشلك